ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها

فى مصــــر

التاريخ السياسى

الدكتور
عبد المنعم ماجد
أستــاذ التـــاريخ الإســـلامى
بقسم التاريخ بكلية الآداب
فى جامعة عين شمس

الطبعة الرابعة
١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ ش عباس العقاد - مدينة نصر- القاهرة
تليفون : ٢٦١٩٠٤٩

٩٥٣,٠٧٣٨ عبد المنعم ماجد.

م ن ظ هـ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر : التاريخ السياسى / عبد المنعم ماجد .- ط ٤.- القاهرة: دار الفكر العربى ، ١٩٩٤.

٤٧٤ ص ، ٢٤ سم .

ببليوجرافية : ص ٤١١ - ٤٦٠ .

يشتمل على كشاف بالأعلام وكشاف بالبلدان والمدن.

تدمك : ٦ - ٠٥٩٣ - ١٠ - ٠٩٧٧

١-مصر - تاريخ - العصر الفاطمى (٩٦٩ - ١١٧١ م).

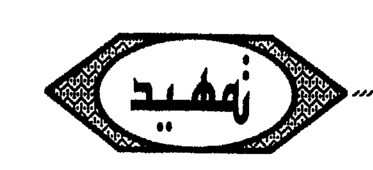
ا - العنوان .

تصميم وإخراج فني / محمد سيد عبد العال

«طلبت الرفعة وجدتها فى
التواضع،
طلبت المودة وجدتها فى الصدق،
وطلبت الرياسة وجدتها فى العلم،
وطلبت الكرامة وجدتها فى التقوى،
وطلبت النصرة وجدتها فى الصبر،
وطلبت العبادة وجدتها فى الورع،
وطلبت الغنى وجدته فى القناعة،
وطلبت الشكر وجدته فى الرضا،
وطلبت الراحة وجدتها فى ترك الحسد،
وطلبت ترك الغيبة وجدته فى الخلوات،
وطلبت المُلك وجدته فى الزهد،
وطلبت العافية وجدتها فى الصمت،
وطلبت الأنس وجدته فى ترتيل القرآن،
وطلبت قتل الحيران وجدته فى ذكر الله،
وطلبت البر وجدته فى الأنفس السخية،
وطلبت رحمته يمن علينا بها».

معَدّ أبو تميم
(المعزّ لدين الله الفاطمى)





تمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسي للخلافة الفاطمية في مصر، وهي التي حكمتها زهاء قرنين من الزمان من ٣٥٨ إلى ٥٦٧ هـ/ ٩٦٩-١١٧١م. وقد خصصنا لها دراسة مستقلة؛ لأنها قطاع قائم بذاته في تاريخ مصر الإسلامية؛ فلأول مرة منذ الفتح العربي قام في مصر نظام خلافة، مستقلة استقلالا تاماً.

وبذلك اتبعنا تقسيم المقريزى، عند عرضه لتاريخ مصر الإسلامية: فجعل تاريخ مصر في عهد الخلافة الفاطمية قطاعاً منفصلاً عن حكم أمراء مصر قبلهم، والملوك والسلاطين بعدهم.

وأهمية دراسة التاريخ السياسي للفاطميين في مصر؛ تظهر في أن مصر في ظل حكمهم أخذت تتبوأ مكانتها المرموقة في الشرق الإسلامي. فلأول مرة أيضاً منذ الفتح العربي؛ بل منذ حكم الفراعنة: أصبحت مصر مركزاً لإمبراطورية كبرى؛ بعد أن كانت مجرد ولاية تابعة للخلفاء في الحجاز أو الشام أو العراق؛ ومن قبل جزءاً من إمبراطورية اليونان أو الرومان أو الروم. وكان ظهور مصر المستقلة القوية على المسرح الدولي بفضل الفاطميين الذين اتخذوها قاعدة لخلافتهم الواسعة، الممتدة من المحيط إلى الخليج. معناه كما هو الحال في معظم أدوار تاريخها؛ تميزها وزعامتها لجيرانها. وقد بقيت مصر حتى بعد سقوط هذه الخلافة المحرك للسياسة الإسلامية؛ إلى وقت مجئ الأتراك العثمانيين. فالخلافة الفاطمية نبهت إلى مركز مصر المرموق في العالم الإسلامي.

ونشعر في دراستنا لتاريخ هذه الفترة السياسي في مصر؛ بأن المصريين الذين كانوا قد أسلم معظمهم؛ يشاركون في الحكم. هذا، مع أن تاريخ الشام أو

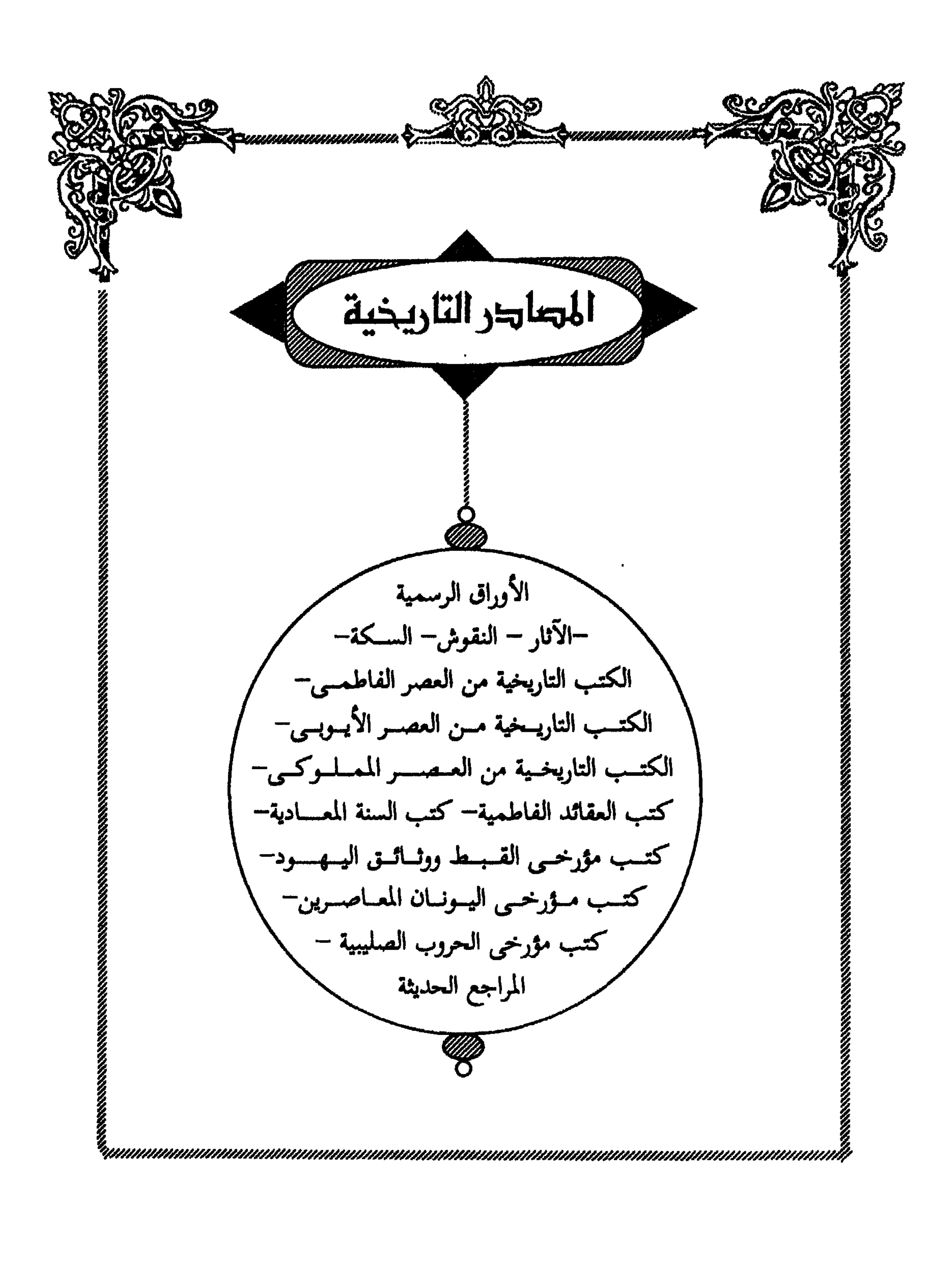
غيرها من الأقطار الإسلامية -فى أثناء حكم الخلافة الفاطمية- لم يت
لها أو الخروج عليها. ويؤيد رأينا هو أن خلافة الفاطميين فى مصر ا
كتب المعاصرين لها، باسم: خلافة المصريين؛ والخليفة الفاطمى با
المصرى، وحتى زمنهم وصف بزمن المصريين. ولا مراء؛ فإن الفاطم
من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم؛ وأن هويتهم
أصبحت منذ استقرارهم فيها مصرية بحكم المواطنة، وبما أنجزوه ل
والمقدار.

وفوق ذلك؛ فإن تاريخ الخلافة الفاطمية بعامة، وهى خلافة شي
بمذهب خاص؛ يبين أن العقائد الدينية فى ذيّاك الوقت، هى التى ك
السياسة، وليست العقائد الاقتصادية كما هو فى وقتنا. ولا ريب؛
الفاطمية هى أكبر دولة شيعية؛ حققت أحلام الشيعة لأول مرة، و
مجيئها إلى مصر، وتكوينها خلافة واسعة شملت المغرب والمشرق ا

إن هذا الكتاب يتم ظهوره، بعد جهود دامت أكثر من عشر
البحث العلمى فى المخطوطات والكتب المعاصرة والحديثة؛ مما جعلن
أوثق المصادر والمراجع. وفقنا الله إلى ما فيه خير العلم والوطن.

عبد المنعم ما

هذا الكتاب مطلوب؛ لطابعه الأكاديمى البحت، وطبعته الجديدة هذه م
مثل سابقاتها.



المصادر التاريخية

الأوراق الرسمية
-الآثار - النقوش- السكة-
الكتب التاريخية من العصر الفاطمى-
الكتب التاريخية من العصر الأيوبى-
الكتب التاريخية من العصر المملوكى-
كتب العقائد الفاطمية- كتب السنة المعادية-
كتب مؤرخى القبط ووثائق اليهود-
كتب مؤرخى اليونان المعاصرين-
كتب مؤرخى الحروب الصليبية -
المراجع الحديثة

المصادر التاريخية

ولدينا مصادر تاريخية من الدرجة الأولى عن الخلافة الفاطمية فى مصر، لم يستخدمها المؤرخون الإسلاميون فى العصور الوسطى فى كتابتهم لتاريخها، ولكنها أخذت الصدارة والأهمية نتيجة لتطور المنهج التاريخى الحديث.

فيأتى فى المكان الأول الأوراق الرسمية [١]؛ التى هى من أوثق مصادر التاريخ؛ إذ تحمل مادة حية نشيطة [٢]. فكان يطلق عليها عدة أسماء فى العهد الفاطمى، منها: توقيعات، كتب، عهود، مناشير، ملطفات، سجلات [٣]، وهذه الأخيرة هى الغالبة؛ لتدل على المكاتبات الرسمية، التى تبعث بها الدولة الفاطمية إلى الأعمال بمصر والأقطار التابعة لها.

وكانت الأوراق الرسمية فى الدولة الإسلامية تصدر عن الدواوين، ولذا سماها ابن خلدون: أوراق الدواوين [٤]. وفى عهد الفاطميين كانت تصدر على الخصوص عن ديوان اسمه: «ديوان الإنشاء والمكاتبات» [٥]، الذى كانت توجد به الوظائف للكتّاب، يتصدَّوْن -بحسب مؤهلاتهم- لكل أنواع المكاتبات الرسمية، ونجد من بينهم من يعرفون لغات أجنبية، كاليونانية والأرمنية والفارسية

---

(١) يرى المستشرق « Quatremère »: أن تاريخ الفاطميين لا يعرف إلا من مصادر أدبية، لا تعطى فكرة صحيحة عنهم؛ فهى جافة أو مضطربة أو مختصرة؛ وذلك لعدم وجود وثائق. أنظر Mémoire Historique sur la dynastie des Khalifes Fatimides. Paris, 1838. P.I.
ولا ريب؛ فإن معظم الوثائق الخاصة بهم، أو المخطوطات عن عقائدهم أو تاريخهم؛ لم تنشر أو تعرف؛ إلا منذ سنوات قليلة.

(٢) أنظر. El Shayyal : The Fatimid Documents as a source for the History of the Fatimids and thier Institutions. Reprinted from the Bull. of the Fac. of Arts.Alex. Univ. VIII. Dec. 1951.

(٣) ابن الصيرفى، قانون ديوان الرسائل، تحقيق علىّ بهجت، القاهرة ١٩٠٥، ص ٨ هامش(١)

(٤) مقدمة ابن خلدون، ط. القاهرة ١٣٢٢هـ، ص ١٦ س.١.

(٥) المقريزى؛ الخطط، القاهرة ١٣٢٤هـ، ٢ص ٢٤٤؛ القلقشندى؛ صبح الأعشى، القاهرة ١٩٦٣، ص١ ١٠١ وما بعدها، ٣ص ٤٨٦. يطلق عليه ابن الصيرفى اسم: ديوان الرسائل. انظر بتفصيل: ماجد؛ نظام الفاطميين، ط٣. القاهرة ١٩٨٥، ١ص ١٠٤ وما بعدها.

والتركية. كذلك كان يوجد بهذا الديوان وظائف الناسخ، الذى يقوم بنسخ أو تبييض ما يرد إلى هذا الديوان أو يصدر عنه، والخازن الذى يجمع كل نوع من الأوراق الرسمية إلى مثله فى دوسيهات «أضابير»، ويضع عليها البطائق، مكتوب فيها محتوياتها وإقليمها وتاريخ وصولها؛ ليسهل استخراجها من أماكنها كلما دعت الحاجة. فكان هذا الديوان بالإضافة إلى قيامه بالكتابة، أشبه بدار المحفوظات، أو أرشيف للأوراق الرسمية.

وقد ألف مؤرخون معاصرون للفاطميين بمصر عن هذا الديوان، وكان قصدهم من مؤلفاتهم توضيح قواعد الكتابة الرسمية، ومهمة الديوان وموظفيه. فكان من أشهرهم علىّ بن منجب، الذى ألف كتابه المعروف: «قانون ديوان الرسائل» (١)، واشتهر باسم ابن الصيرفى؛ لأن أباه كان صيرفياً. وقد عمل ابن منجب بدواوين الفاطميين، وربما تولى رئاسة ديوان الإنشاء والمكاتبات، وتوفى فى عهد الخليفة الحافظ فى سنة ١١٤٧/٥٤٢. ويبدو أن ابن منجب، لم يكتف بكتابة هذا المؤلف عن ديوان الإنشاء، بل كان يجمع ما يكتبه من رسائل (٢).

وكانت كتابة الأوراق الرسمية الفاطمية، مبنية على أسس وقواعد: فهى فى أغلبها تفتتح بالبسملة، وبعدها الحمْدلة مباشرة. وهذه الأخيرة، تتكون من مصطلح خاص، يشتمل بالضرورة على صيغة الحمد، يعلّم به الخليفة بيده على الأوراق الرسمية الصادرة، فى مكان يخليه الكاتب بعد البسملة، وهى ما عرفت باسم: العلامة. فلعل العبارة التى تتكرر فى معظم السجلات المستنصرية –نسبة للخليفة الفاطمى المستنصر–: «بخط اليد الشريفة»، لها علاقة بالعلامة. ومع ذلك، يرى المقريزى أن علامة جميع خلفاء مصر كانت: «الحمد لله رب

---

(١) تحقيق علىّ بهجت، القاهرة، وترجمة Masse ، بعنوان: Le Code de la Chancellerie. B.I.F.A.O. Le Carie,, 1914.

سبقه على بن خلف إلى الكتابة عن ديوان الإنشاء الفاطمى فى كتابه: «مواد البيان»؛ حيث اعتمد المؤرخون المتأخرون عليه؛ وإن كان نص هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً فى إستانبول.

انظر. الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، القاهرة ١٩٥٨، ١، ص ٩

(٢) لدينا بعضها مصوراً فى معهد المخطوطات العربية. انظر. فهرس المخطوطات المصورة، القاهرة ١٩٥٤، ص١٤٦؛ الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١ ص ٤٣.

العالمين»[1]. ويبدو أن علامة النساء الفاطميات اختلفت بعض الشيء؛ فكانت علامة أم المستنصر، التي سيطرت على الحكم من دون ابنها، وتوقع بها الأوراق الرسمية، هي : « الحمد لله وليّ كل نعمة» [2] .وبعد ذلك، يأتي العنوان أي اسم المرسل، وحين يكون الخليفة يسبق عادة بعبارة: « عبد الله ووليّه» بقصد إظهار خضوع الخليفة أمام الخالق، ثم يأتي لقب: «إمام» ، يليه اللقب المعروف: «أمير المؤمنين» ، وقد يذكر الخليفة نسبه بذكر أبيه[3]، أما المرسل إليه، فإنه يذكر في الغالب بألقابه وألقاب أبيه وجده، ويدعى له. وبعد هذا التصدير، نجد الجملة التي تتكون من : صيغة السلام، والحمد، والصلاة على النبي، وذكر عليّ، والدعاء للأئمة. ثم تليها البعدية وهي عبارة: «وأما بعد» ، يتبعها الحمد من جديد، الذي يبدأ موضوع السجل، وهو مَتْنُه، الذي ينتهي بعبارة إن شاء الله والسلام. ثم يأتي التاريخ الهجري، الذي قد يأخذ سطراً بمفرده. ويختم السجل عادة بالحَمْدَلَة والصلاة على النبي والأئمة، وبعبارة: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولسوء الحظ، لم نعثر على معظم أصول الأوراق الرسمية الفاطمية، وذلك لأن أعداء الفاطميين الذين أتوا بعدهم، وهم الأيوبيون، كانوا من السنة، فلم يكتفوا بالقضاء على دولتهم، وإنما قضوا على أوراقهم الرسمية. ومع ذلك، فقد بقي منها الآتي:

« وثائق أصلية [4]» ، من العصر الفاطمي، محفوظة في مكتبة دير سانت كاترين بسيناء، صدرت عن الخلفاء الفاطميين ووزرائهم؛ لتأمين رهبان هذا الدير على أرواحهم وممتلكاتهم. فلدينا مثلاً: منشور صادر عن وليّ عهد المسلمين عبد المجيد، الذي ولّي الخلافة بعد الآمر باسم الحافظ، والوزير أبي عليّ أحمد الملقب بكتيفات بتاريخ ٥٢٤/ ١١٣٠ ، وآخر صادر عن الخليفة الفائز ووزيره طلائع بتاريخ ٥٥١/١١٥٦ ، وثالث صادر عن العاضد ووزيره شيركوه بتاريخ ٥٦٤/١١٦٩.

---

(١) الخطط، ٢ ص ٢٤٥.

(٢) السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق ماجد، ط٢، القاهرة ١٩٨٥ ، سجل رقم ٥١.

(٣) نفسه، سجلات ٢، ٤٣، ٥٧.

(٤) انظر . أحمد عيسى، مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦، ص ١٠٩ – ١٢٤.

و « السجلات المستنصرية [1] »، أو ما يعرف باسم: « سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين» ؛ عبارة عن ستة وستين سجلا، منقولة عن الأصل، الذى أرسل من ديوان الإنشاء الفاطمى إلى عمال الخلافة باليمن، يغطى فى تاريخ الفاطميين فترة أربعة وأربعين عاماً من ٤٤٥/١٠٥٣ إلى ٤٨٩/١٠٩١. فتتضمن سياسة الفاطميين فى اليمن وأنحاء الجزيرة؛ فضلاً عن تناولها الحياة السياسية الداخلية فى مصر؛ إذ كان الخليفة الفاطمى فى كتبه الرسمية، يذكر لحكام اليمن أخبار مصر وأحداثها. ومع أن هذه المخطوطة وجدت بالهند؛ فهذا لا يمنعنا من الظن بأنها من أصل يمنى؛ ذلك لأنها خاصة بدعاة اليمن أنفسهم. فهذه السجلات تعتبر أكبر مجموعة من الأوراق الرسمية الفاطمية، وقعت بين أيدينا.

وأخيراً لدينا نصوص أوراق رسمية فاطمية كثيرة، وردت فى «كتب المؤرخين[2]» المعاصرين والمتأخرين، وهى خاصة بالخلفاء والوزراء والقضاة والولاة والحسبة والمال والدعوة، والأمانات والمعاهدات والهدنات والاتفاقيات؛ ورسائل الملوك إلى الخلفاء.

يلى الأوراق الرسمية فى القيمة التاريخية الآثار، التى تفيد جداً فى استكمال الإطار التاريخى وسرده، إذ الآثار علم مساعد للتاريخ. ونلاحظ أن العصر الفاطمى

---

(١) تقديم وتحقيق ماجد، ط٢، القاهرة ١٩٨٥.

(٢) بدا المرحوم جمال الدين الشيال، الذى رسم خطة لجمع كل ما يستطيع أن تصل إليه يده من وثائق تتصل بتاريخ مصر الإسلامية، فأصدر كتابه: مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الأول، القاهرة ١٩٥٨، جمع فيه ثلاثاً وعشرين وثيقة: عشر منها عن نظام الخلافة وولاية العهد، وثلاث عشرة عن نظام الوزارة والوزراء، بحكم أنهما النظامان الأساسيان فى بناء الدولة الفاطمية. ومع أن أغلب ما أورده قد ورد فى كتب المؤرخين المعاصرين والمتأخرين؛ إلا أن بعضه القليل قد نقل من نسخة خطية لكتاب: إتعاظ الحنفا، لمؤلفه المقريزى، لم تنشر بعد؛ تعرف بمخطوطة طوب قبو سراى؛ لوجودها بتركيا. وقد قسم المجلد إلى قسمين: القسم الأول دراسة تحليلية مقارنة لكل وثيقة، مع شرح المصطلحات الفاطمية، والقسم الثانى هو نشر نصوص الوثائق، مرتبة ترتيباً موضوعياً، ثم زمنياً.

غنى بالآثار [1]، فالفاطميون فى مصر، كانوا مثل الفراعنة من قبل بنائين، ولا تزال مبانيهم بيننا شواهد فصيحة للحياة السابقة - وإن كانت صامتة - تدل على عظمة دولتهم وازدهارها.

فمن أهم مبانيهم الباقية فى مصر، الجوامع، مثل جوامع الخلفاء: كالأزهر الذى بنى فى أول نشأة القاهرة فى عهد المعز، وتم فى عهد العزيز، وجامع الحاكم أو الحاكمى، الذى كان يسمى الأنور، وجامع الآمر أو الأقمر، الذى سمى هكذا نسبة للقمر أو للقمرة، وهو خليط من اللونين الأبيض والأخضر. ومن جوامع وزرائهم: جامع العطارين بالإسكندرية، الذى بناه بدر الجمالى، ومشهده المسمى بالجيوشى ليدفن فيه فوق جبل المقطم، ثم مشهد الحسين، الذى بناه الوزير طلائع لكى يدفن فيه رأس الحسين، التى دفنت فى الشام بعد مقتله على يد الأمويين، فأحضرت إلى مصر خوفاً عليها من الصليبيين، .ثم جامعه المعروف باسم: جامع الصالح طلائع. هذا فضلاً عن المشاهد لنساء علويّات من بنات علىّ: كمشهد السيدة رقية والسيدة زينب والسيدة نفيسة.

ثم مبان غير الجوامع: كمقياس النيل بالروضة، وأسوار القاهرة وأبوابها، مثل: باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح، وهذه الأسوار تعتبر أعجوبة وقتها، بسراديبها التى تؤوى الجنود، وممراتها المقببة داخلها، وبمشربياتها وفتحاتها التى كانت ترسل منها على المهاجمين سهام وشواظ من نار. وحتى مدينة الفسطاط [2]، التى أحرقها الوزير شاور أمام هجوم الصليبيين، ليوقف تقدمهم ما زالت موجودة بأطلالها، وهى التى عرفت لذلك بالكوم أو الكيمان[3]، لكثرة الهدم فيها.

---

(1) ليس لدينا بحوث وافية عن الآثار الفاطمية من الناحية التاريخية؛ وإن تناولتها من الناحية المعمارية على الخصوص. فنذكر من أهمها:

Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, 1932.

Wiet : Les Mesquées du Caire. Paris, 1966.

؛ سعاد ماهر، حفائر كلية الآثار، العدد1، 1976، ص 95 وما بعدها.

(2) نلفت النظر إلى كتاب Casanova : Essai de reconstruction topogaphique de la ville, d'al- Foustât ou Misr. 3 vols. Paris, 1913-1919.

(3) الخطط، 2ص 144 س 3.

كذلك تعتبر النقوش عماد البحث الحديث فى تاريخ الخلافة الفاطمية السياسى؛ فهى تحل محل المصادر الأرشيفية، فى تقديم مادة موثوق بها؛ إذ هى الكتابة على الآثار من مساجد وعمائر، وعلى التحف بمختلف أنواعها، وعلى قطع النسيج. وقد جمع المستشرقون هذه النقوش فى موسوعات هائلة مثل: Van Berchem فى مجموعته المسماة: «Corpus»[1]، و Sauvaget و Wiet و Combe فى موسوعتهم الكبيرة "Répertoire"[2] . وتظهر أهمية النقوش فى دراسة التاريخ الفاطمى مما كتبه Sauvaget ، عن نقش للوزير الفاطمى بدر الجمالى[3] (ت٤٨٧/١٠٩٤).

و«السكة[4]» أو العملة: هى الأخرى مصدر من الدرجة الأولى، فى تاريخ الفاطميين؛ فهى تساعدنا على تتبع التطور السياسى بدقة، ولاسيما من الناحية الزمنية. وبالإضافة إلى العملة المتداولة، كان للفاطميين عملات تذكارية، تفرّق على كبار الدولة، وترسل إلى جميع أنحاء الخلافة الفاطمية، تصدر فى الأعياد سواء أكانت إسلامية أم قبطية. فمثلاً فى عيد أول العام الهجرى، كانت تسك عملة تعرف باسم الغُرّة[5]، وفى خميس العهد، الذى كان يحتفل فيه القبط بذكرى غسل المسيح لأرجل تلامذته كناية عن التواضع، كانوا يصدرون دنانير تسمى خراريب[6]. ولأهمية السكة فى التاريخ الفاطمى، ألف عنها مؤرخون

---

(١) جمع Wiet ما يتعلق بالفترة الخاصة بمصر منذ الفتح العربى إلى الفاطميين، بعنوان:
Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum. Première partie, t2, Egypte, 1930.

(٢) العنوان الكامل: Le Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire, 1931, sqq.

(٣) أنظر Inscription de Badr al Jamâlie. Ext, de la Revue Syrie Paris, 1929.

(٤) هى كلمة تدل على خاتم الحديد، الذى تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة. ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠٦.

(٥) صبح، ٣ص ٥٠٥.

(٦) مفردها خروبة. الخطط، ٢ص ٣٢١.

مسلمون فى العصور الوسطى؛ حيث نذكر المقريزى[1]، الذى ألف كتابه: النقود الإسلامية [2]. أما فى العصر الحديث، فقد ازداد اهتمام المؤرخين بالعملة الإسلامية كمصدر موثوق به فى البحث التاريخى؛ فجمعوها فى المكتبات، وصوروها مع ترتيب أزمنتها فى كتب [3]؛ بما فيها العملة الفاطمية.

وبعد ذلك، نرجع إلى المصادر الكتابية الأصلية، ونقصد بها الإنتاج الأصلى من الكتب، التى تنقل إلينا حوادث معاصرة، أو تعتمد على مصادر معاصرة ليس من السهل الرجوع إليها. ولسوء الحظ، لم تصلنا معظم المصادر الأصلية؛ إذ هى الأخرى بُددت طواعية من قبل الدولة الأيوبية السنية، التى قضت على كل ما يتصل بالشيعة؛ فحددت لبيع الكتب التى كانت بالقصر الفاطمى فى كل أسبوع يومين [4]، وكانت تقذف بعضها إلى جبل المقطم، فأصبحت كيماناً تعرف: بتلال الكتب[5]. وهذه الكتب الفاطمية بلغت فى وقت ازدهار الدولة الفاطمية ما يزيد على مائتى ألف كتاب[6]، خصصت لها دار كتب كبرى، عرفت بخزانة الكتب، تتكون من أربعين حجرة؛إلا أن كثيراً من كتب الفاطميين وتراثهم بمصر، كان

---

(١) حققه انستاس مارى مع ما كتبه البلاذرى وابن خلدون والقلقشندى عن النقود فى كتابه، بعنوان: النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩؛ وتوجد طبعة أخرى لكتاب المقريزى باسم: شذور العقود فى ذكر النقود، النجف ١٣٥٦هـ؛ وترجمه de Scay بعنوان:
Traité des monnaies musulman Paris. 1797.

(٢) مثلا كتاب: Lavoix :,Catalogue des monnaies de la Bibliothèque
nationale, continué par Casanova. 3 vols. Paris, 1887-1891.
أهمها الجزء الثالث، الذى يشتمل على نقود خلفاء الفاطميين.
وأيضاً Miles:,Fatimid coins in the collection of the Univ
Museum Philadelphia and the American Numismatic Seciety. New York. Amer. Num. Scc. L II 195).
Launois : ,Catalogue des monnaies Fatimites entrées au Cabinet, des Medailles
depuis 1896 B.E. Or. txxv, Damas, 1971, P.17 sqq

(٣) أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين، القاهرة ١٢٨٧هـ، ١ص ٢٦٧.

(٤) الخطط، ٢ص ٢٥٤ س ٢٣.

(٥) نفسه، ٢ص ٢٥٤، (آخر سطر). توجد روايات أخرى عن أعدادها؛ انظر. بعده.

(٦) نفسه، ٢ص ٢٥٣، ومابعدها.

مستوراً عند أتباع المذهب فى أماكن متفرقة. وحتى قبل سقوط دولتهم، كانت بعض كتبهم قد نقلت إلى مكتبات بعيدة عند أتباعهم فى الهند واليمن على الخصوص. وكان هؤلاء الأتباع يغالون فى ستر الكتب الفاطمية التى انتقلت إلى أيديهم، فلم يكونوا يطلعون عليها، حتى أبناء الطائفة الشيعية نفسها. ومع ذلك؛ فقد تسرب من كتبهم عدد لا بأس به إلى مكتبات الشرق وأوربا وأمريكا؛ كما سعى بعض علماء العرب بمجهودهم الخاص إلى الحصول على بعضها؛ مما جعل تاريخ الفاطميين يزداد وضوحاً، وكتابته من جديد ضرورة علمية. ولكن يجب أن نقرر أن عدداً كبيراً من المخطوطات الفاطمية الخاصة بالفترة الفاطمية فى مصر، لا تزال مجهولة ومستورة.

ومن ناحية أخرى، يجب الحذر فى تلقى المصادر الأصلية عن الدولة الفاطمية فى كتب غير شيعية، ولا سيما ما كتبه عنها المؤرخون السنة. فقد كان أغلب هؤلاء لعداوتهم المذهبية للدولة الشيعية، يظهرون تاريخ الفاطميين بمظهر مزيف، ولم يكونوا يطلقون عليهم إطلاقاً اسم الفاطميين، وإنما يسمونهم من العبيديين [1]، نسبة إلى جدهم عبيد الله المهدى، رغبة فى نفى انتسابهم إلى علىّ وزوجته فاطمة. ولا نجد تاريخ دولة شُوِه من قِبَل مؤرخى السنة، كما شُوِّه تاريخ الفاطميين. فهم فى رأى السنيين من الرافضيين [2]، الذين خرجوا على الدين، أو من المجوس على اسم أتباع الدين المجوسى الذى رفضه الإسلام، أو من اليهود بقصد نسبتهم إلى جد يهودى. والثابت أن هذه العداوة راجعة إلى نجاح الفاطميين فى تكوين خلافة مستقلة، تنافس خلافة العباسيين.

فمن الإنتاج الأصلى، نعتمد على كتب المؤرخين المعاصرين للفاطميين، وللأسف أن بعضها لا نعرف منه غير الاسم؛ وإن وردت مراراً وتكراراً فى كتب

---

(١) الروضتين، ١ص٢٠١. ربما قصدهم التصغير لاسم عبد الله؛ وإن أصبحت العبيديين، تسمية شائعة.

(٢) إن المحضر الذى برز أيام خليفة بغداد القادر بالله (٣٨١-٤٢٢/ ٩٩١-١٠٣١)، المعاصر للخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١/٩٩٦ - ١٠٢٠) فى سنة ٤٠٢/١٠١١؛ ويتضمن هذه التسميات العدائية للشيعة. انظر. بعده

المتأخرين. فنذكر ابن المأمون[1] جمال الدين (ت ٥٨٨/١١٩٢)، وهو ابن الوزير مأمون البطائحى (٥١٥-٥١٩/١١٢٢-١١٢٥)، وزير الخليفة الآمر: فهو لذلك يستقى معلومات تاريخية لا توجد فى أى مصدر سابق. وآخر اسمه ابن الطوير[2](ت٦١٧/ ١٢٢٠)، الذى عاش فى أوائل العصر الأيوبى، أى أنه عاصر الفاطميين؛ وإن ضاع مؤلفه المسمى: نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين الفاطمية والصلاحية.

كذلك وصلتنا شذرات غير ذات قيمة من كتب مؤرخين معاصرين؛ تظهر أهميتها فيما نقله منها مؤرخون متأخرون، لابد أنهم اطلعوا عليها كاملة. فنذكر ابن زولاق [3]، وهو الحسن بن إبراهيم (ت٣٨٧/٩٩٧)، الذى ألف كتاباً باسم: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، وهو مخطوط لا يتعدى عدة ورقات. وآخر اسمه المسبّحى [4]، وهو الأمير المختار عز الملك محمد (ت٤٢٠/١٠٢٩)، الذى ألف كتباً عديدة ضاعت، أهمها: التاريخ الكبير أو الجليل فى ثلاثة عشر ألف ورقة، تناول فيه أخبار مصر والولاة والأمراء والأئمة الخلفاء، فلم يتبق منه غير مقالة قصيرة عن حكم الخليفة الفاطمى الظاهر[5]. وتبدو أهميته فى أنه تقلّد للحاكم

---

(١) الخطط، ٢ص ٣٠٥. له عدة كتب : تاريخ ابن المأمون، ومختصر تاريخ ابن المأمون، والتاريخ المأمونى. انظر . هريدى، فهرست خطط مصر، المجلد الثانى، المعهد الفرنسى ١٩٨٣، ص ١١٤. تحقيق أيمن فؤاد؛ نصوص من أخبار مصر، المعهد الفرنسى ١٩٨٣.

(٢) هو المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهرى، الكاتب المصرى. المصدر ذاته، ٢ص ٢١٧-٢١٨. عنه: المنذرى، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار معروف المجلد الخامس، القاهرة ١٩٧٥، ص ٣-٤.

(٣) يوجد مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة، برقم ٣٥٩١ تاريخ؛ وبالمكتبة الأهلية فى باريس، برقم ٢٠٦٩، وقد أعاد بناؤه وحققه وقدم له أيمن فؤاد، النشرات الإسلامية ٣٩٠٠، شتوتجارت، ١٩٩٢. وله كتب أخرى ضاعت ، مثل: سيرة جوهر، وسيرة المعزّ، وسيرة العزيز، وسيرة الوزير اليازورى، وله تذييل على كتاب القضاة، وآخر على كتاب الولاة للكندى، وله كتاب: أخبار سيبويه المصرى، تحقيق الديب، القاهرة ١٩٣٣، وغير ذلك.

(٤) عنه ابن خلكان، وفيات، القاهرة ١٢٩٩هـ، ٢ص ٣٤٢ وما بعدها.

(٥) نشرها Becker وترجمها بعنوان:

Regierung und politik unter dem chalifen Zâhir. Beitrâge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam. Strassbourg. 1902-1903.

حققه حديثاً أيمن فؤاد وBianquis ، ولعله الجزء الأربعون. كذلك للمسبّحى كتاب آخر بعنوان: أخبار مصر وفضائلها وطرائفها وغرائبها، انظر. هريدى، فهرست ص ٧٥، المعهد الفرنسى، القاهرة ١٩٧٨.

والظاهر بعض الأعمال، وهى الولايات. كذلك بقى لنا مخطوط لاغناء فيه، لمؤلف اسمه القضاعى [1]، وهو أبو عبد الله (ت٤٥٤/١٠٦٢)، بعنوان: عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف [2]. بيد أنه مما نقل عن القضاعى، تبدو أهمية مؤلفاته؛ وخصوصاً أنه كان قد تولى قضاء مصر فى عهد المستنصر.

ومن حسن الحظ، أننا نملك عيون مؤلفات معاصرة، بعضها من تأليف الكتّاب الفاطميين أنفسهم؛ نستطيع أن نعتمد عليها فى عرض التاريخ السياسى للفاطميين، وهى:

كتب النعمان بن حيون [3] (ت ٣٦٣/٩٧٤)، أحد قضاة الدولة الفاطمية. وهى عديدة؛ فى كل أنواع العلوم؛ بحيث ترك على حسب قول المؤرخين آلاف الأوراق. فألف فى[4]: الوعظ، والتاريخ، والأخبار، والسيَر، والعقائد، والحقائق أى التأويل، والفقه. وأهم كتبه المعروفة فى التاريخ: افتتاح الدعوة وابتداء الدولة[5]، الذى يتناول تاريخ الدعوة فى إفريقية، إلى أن تمكن المهدى من تأسيس الدولة الفاطمية، وهو مخطوط فى متناول اليد؛ كما أن أجزاء منه نشرت أو ترجمت.

---

(١) عنه، انظر . وفيات ، ٢ ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٢) مخطوط بدار الكتب، برقم ١٧٧٩، والمكتبة الأهلية B.N.، برقم ١٤٩٠.
وإن كنا لا نثق فى نسبته إليه، وذلك لأن هذا المخطوط يستعرض حوادث؛ محشودة بدون نظام أو ترتيب معقول، حتى عصر المماليك. وفوق ذلك؛ فإن المعلومات الواردة فية ليست لها قيمة ما ينقله المقريزى عن القضاعى نفسه.

(٣) وفيات، ٣ص٨٠؛ انظر . كامل حسين، فى أدب مصر الفاطمية، ص ٤٢-٥٤؛ Fayzee: :
Kadi an- Nu' mân the Fatimid jurist and author. J.R.A.S, An, 1934;
Ismaili law and its founder. Isl. Cult Vol. IX, No. I. Jan, 1935, P.107 sqq.

(٤) انظر. A Guide to Ismaili Literature. London,1903, P. 34 : Ivanow
Al-Qâdî al- Nu'mâns' Work and Sources. B.S.O.A.S,1973, P.109, 115.:Poonawála;

(٥) توجد المخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٨٠٨؛ وقد اطلعت على نسخة منها فى مكتبة الهمدانى الخاصة، وقد نشر منها Ivanow الجزء السابع عشر.
انظر.
Ismaili-Traditions concerning the Rise of the Fatimids. Oxford, 1942,P. 40-46;
عن هذه المخطوطة، انظر. بعض ترجمتها فى مقالة Dachraoui :
Contribution a l' histoire des Fatimides en Ifriqîya. Arabica, 1961,P. 189 sqq.
وظهرت لها طبعة فى بيروت بعناية وداد القاضى، بيروت ١٩٧٠؛ لم تستخدم، إذا لم تطلع المحققة على مخطوطة القاهرة.

وكتـاب من تصنيف أبى علىّ منصـور العـزيزى الجـوذرى، الذى كـان فى خدمة جـوذر أحد العبيد الصقالبة من أعوان الفـاطميين، بعنوان: سيرة الأستـاذ جـوذر [١]، وهذا الكتـاب من كتب السـيرَ؛ إلا أنه يلقى ضوءاً على حياة الخلفاء الفاطميين فى شمال أفريقيا، وأوائل حكمهم فى مصر، فضلاً عن احتوائه على توقيعات أى سجلات للأئمة الفاطميين، من ٣٢٣/ ٩٣٥ إلى ٣٦٢/ ٩٧٢؛ تعتبر من الوثائق الرسمية. فهذه السيرة صورة جزئية مباشرة لأربعين عاماً من حياة الدولة الفاطمية.

وكتاب سيرة جعفر الحاجب[٢] (حوالى ٣٦٥/٩٧٦)، وهـو جـعـفـر ابن منصـور اليمن، الذى فر إلى المغرب بعد انقسام الدعوة الأولى فى اليمن، فوجد الخليفة المهدى قد توفى، وإن ظل وثيق الصلة بالأئمة إلى عهد المعّز. وقد نال جعفر [٣] مكانة هائلة عند الفاطميين، واعتبر حجة فى علومهم [٤]، حتى بز القاضى النعمان نفسه. فهذه السيرة التى أُلفت فى عهد العزيز، تتناول نشأة الدولة، وتؤيد حق الفاطميين فى الخلافة؛ كما تتناول بعض الأخبار.

ورسائل إستتار الإمام [٥]، التى ألفت فى عهد العزيز بالله، من تأليف إبراهيم النيسابورى الفارسى (أحمد بن محمد)، تبين تاريخ الفترة التى اختفى

---

(١) قام بتحقيقه والتقديم له محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة، القاهرة١٩٥٤، وترجمها Canard ، بعنوان :

Vie de l'Ustâdh Jaudhar. Alger 1958.

(٢) تحقيق Ivanow ، فى مجلة كلية الآداب، بجامعة القاهرة، القاهرة ١٩٣٩، وله ترجمة منه فى كتابه:

Ismaili Tradition Concerning the rise of the Fatimids. Oxford, 1912.

وترجمة من Canard ، بعنوان: L'Autobiographie d'un Chemebellan du Mahdi le Fâtimide.
Hesperis, 1952, P.P.279 - 330.

(٣) تكلم جوذر عنه. انظر . سيرة جوذر، ص ١٢٦.

(٤) لدينا منه مخطوطات عديدة عن العقيدة، نشر بعضها القليل. الفهرس الخاص بمخطوطات جعفر فى مكتبة الهمدانى الخاص. الهمدانى، الصليحيون، القاهرة١٩٥٥، ص ٣٥٢-٣٥٣.

انظر ، كتاب الكشف، تحقيق Strottmann ، القاهرة ١٩٤٩.

(٥) نشره Ivanow ، فى مجلة كلية آداب القاهرة، ١٩٣٩، ٢/٤٠ ص ٩٣-١٠٧؛ انظر . Guide, p 12 .

فيها الأئمة إلى وقت ظهورهم فى شمال إفريقيا؛ نتيجة لاضطهاد العباسيين؛ كتاب مهم لتناوله نشأة الدولة.

وكتاب مسكويه (ت٤٢١/ ١٠٣٠): تجارب الأمم [1]؛ الذى نقل فيه أخ عن أمم الإسلام وغيرهم، بما فيهم الفاطميون فى أول حكمهم فى مصر، و بأخباره إلى سنة ٩٧٩/٣٦٩. وقد أعقبه الروذاوردى المعروف بأبى شجا كتاب: ذيل تجارب الأمم، تحدث فيه عن أخبار المسلمين إلى سنة ٣٨٩/ ١ فأسهب فى الكلام عن زمن العزيز، وأوائل حكم الحاكم. فأهمية هذين الكت أنهما عاصرا الفاطميين، وإن كان المؤلفان من السنة.

وكتاب ناصرِ خسرو علوى (ت ١٠٦٣/٤٤٥): سفر نامه[2]؛ وهو و لرحلة المؤلف فى بلاد الفاطميين وغيرها، بين سنة ١٠٤٥/٤٣٧ و ١٠٥٢/٤٤، ولا سيما فى مصر؛ حيث أقام فيها أكثر من ثلاث سنوات؛ وي وصفه لمصر نحو ثلث الكتاب، الذى يعتبر مرجعاً للحياة الاجتماعية الزاهـ عهد الفاطميين بمصر.

وكتاب علىّ بن منجب المعروف بابن الصيرفى (ت١١٤٧/٥٤٢): الإ إلى من نال الوزارة[3]، يتتبع فيه تراجم وزراء مصر الفاطمية إلى عهد الآمر كتاب قيم يشتمل على أخبار كثيرة.

وكتاب المؤيد فى الدين الشيرازى (ت١٠٧٨/٤٧٠): سيرة المؤيد [4]: من كتب السِّير العظيمة المقدار؛ يتناول ترجمة المؤلف بقلمه. ففيه يتعرض هامة فى تاريخ الفاطميين، فى المرحلة الوسطى منه، وفى الربع الثانى من ا

---

(١) الكتاب وذيله، تحقيق Amedroz.

(٢) قام بنقله من الفارسية إلى العربية يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٤ (له عدة ط أخرى)، له ترجمة فرنسية من Schefer ، ط Paris ، ١٨٨١.

(٣) قام بتحقيقه عبد الله مخلص، القاهرة ١٩٢٥، فى:
de l'Inst fr. du Caire]
وله تحقيق حديث من أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٩٠ (لم يعتمد عليه).

(٤) نشرت بعنوان: سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، تحقيق كامل حسين، القاهرة ، لدينا رسالة دكتوراه بجامعة لندن عن هذه السيرة سنة ١٩٥١، بعنوان:
ra of al-Muayyed fiddin ashs- Shirâzî.

الخامس الهجرى، فى أيام المستنصر. ويزيد من أهميته أن المؤلف تنقل فى وظائف متعددة، ثم شغل وظيفة داعى الدعاة، المختص بالدعوة للمذهب. ولعل أهم عمل للمؤلف، هو قيامه على رأس المدد، الذى أرسل من الفاطميين إلى البساسيرى فى العراق؛ ليثور على الدولة العباسية والسلاجقة، أعداء الفاطميين الألداء. يضاف إلى ذلك أن هذا الكتاب، يشتمل على رسائل كتبها المؤيد إلى بعض الوزراء والولاة والقواد الفاطميين، تعتبر من الوثائق الرسمية. ومن الجديد بالذكر، أن سيرة المؤيد لم تكن معروفة إلى عهد قريب جداً؛ بسبب أن كلام المؤيد عن أسرار تحيط بتصرفات أتباع الإمام، جعلت الشيعة تحرص على ستر سيرته؛ حتى لا يتطرق الشك فى الأئمة. بل ينسب للمؤيد- لاضطراب الدولة الفاطمية فى أيامه- أنه نقل جزءاً من تراث الدعوة إلى اليمن والهند[1]، عند أتباع المذهب.

وكتاب ابن القلانسى (ت٥٥٥/ ١١٦٠). ذيل تاريخ دمشق[2]، تناول فيه أخباراً كثيرة عن سياسة الفاطميين فى الشام، بدأها بعام ٣٦٠/ ٩٧٠؛ إذ هو كما يبدو من عنوانه تكملة لكتاب سابق.

وكتاب عمارة اليمنى (ت٥٦٩/ ١١٧٤): النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية[3]، الذى ألفه عن وزراء مصر، ويرسم فيه فى قصائده صورة شيقة لحياتهم ونفوذهم، وسيطرتهم التامة على الخلافة الفاطمية. وقد زار عمارة مصر فى آخر حكم الفاطميين فى سنة ٥٥٠/ ١١٥٥، وتشيع لهم حتى قتل فى سبيلهم على يد صلاح الدين الأيوبى.

ثم نهتم بكتب من الإنتاج الأصلى للمؤرخين، الذين عاصروا الدولة الأيوبية، التى قضت على الدولة الفاطمية؛ إذ كان مؤرخو الأيوبيين على علم بمجريات الأمور فى الدولة الفاطمية، وتحت أيديهم معلومات كثيرة، مثل:

---

(١) انظر. Hamdânî: The History of the Ismaîli Da'wat and its Literature during the last phase of the fatimid empire. J.R.A.S 1932, pp. 126.136.

(٢) حققه Amedroz ، بيروت ١٩٠٨، وترجم أجزاء منه إلى الفرنسية Roger le Tourneau ، بعنوان: Damas de 1074 á 1154. Damas 1952 . ومن الطريف أن نذكر أن ابن أيبك ذكر كتاباً اعتمد عليه فى تناول تاريخ الشام فى عهد الفاطميين. وإن لم يصلنا، وهو أخبار الشام لعلىّ بن محمد بن يحيى، السميساطى (ت٤٥٣/١٠٦١). انظر. الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق المنجد، ٦ص ٢٧٢.

(٣) تحقيق Derenbourg ، ط. Paris ، ١٨٩٧.

كتاب ابن حمّاد (أبو عبد الله محمد بن علىّ) : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم[1]، الذى يظهر من عنوانه أن مؤلفه يتعمد نسبة الفاطميين إلى مؤسس خلافتهم عبيد الله المهدى، وليس لأسرة فاطمة وعلىّ، حيث يتناول بتفصيل تاريخهم من أول نشأة دولتهم إلى سقوطها.

وكتاب أسامة بن منقذ (٥٨٤/١١٨٨) : الإعتبار [2] أو حياة أسامة، الذى عاصر خلفاء الفاطميين الأواخر، فوصف المكائد فى القصور الفاطمية؛ كما أنه عاصر احتلال الصليبيين لبلاد الشام.

وكتاب عماد الدين الأصفهانى (ت٥٩٧/١٢٠١) : تاريخ دولة آل سلجوق[3]. الذى تأتى أهميته من أن السلاجقة استولوا على أملاك الفاطميين فى الشام، وقووا من الخلافة العراقية عدوة الفاطميين؛ فيذكر حروبهم وأخبار الإسماعيلية فى وقتهم وهم بقايا الشيعة. ويعتبر عماد الدين فى كتب اخرى[4]، مؤرخ صلاح الدين الحربى؛ إذ كتب بإسهاب عن حروبه.

وكتاب ابن الجوزى- أبو الفرج- (ت٥٩٧/١٢٠١) : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم[5]. الذى يتناول فيه أخبارا كثيرة ونادرة تتناول علاقات الأمم والدول؛ فهو مثلاً يخصص دراسة عن القرامطة . كذلك كتاب سبط بن الجوزى- أبو المظفر- (ت٦٥٤/١٢٥٧) :مرآة الزمان[6]، يتكلم فيه مثل سابقه عن أخبار الدول وعلاقاتها بعضها ببعض.

---

(١) نشره وحققه Vonderheyden فى٣ أجزاء، ط . Paris ، ١٩٢٧.

(٢) تحقيق Paris, Derenbourg، ١٨٨٩.

(٣) اختصار الفتح بن علىّ البندارى، مصر ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م. عن المؤلف: وفيات، ٢ص ٤٩٥ وما بعدها؛ انظر. Ency, de l'Isl. (art 'Imâd al-Dîn)) t2 p501

(٤) مثل: الفتح القسى فى الفتح القدسى ، مصر ١٣٢١هـ.

(٥) طبعة الهند ١٣٥٨هـ. وقد نشرت رسالته عن القرامطة فى:
Rivista degli Studi Orientaleli. Vol. XIII

(٦) مخطوط مصور بدار الكتب، برقم ٥٥١ تاريخ، وقد نشر الجزء الثامن فىhicagó ، ١٩٠٧

وكتاب ابن الأثير -عز الدين- (ت٦٣٠/١٢٣٢): الكامل فى التاريخ[١]، الذى هو من خيار التواريخ؛ كما يقول مؤرخ آخر اسمه ابن خلكان[٢]. ويزيد من أهمية هذا الكتاب، الذى يعرض التاريخ على حسب السنوات؛ أن مؤلفه كان شاهد عيان لسقوط الخلافة الفاطمية، وقيام دولة صلاح الدين؛ وهو من آل أثير الدين، الذين اشتهروا بالكتابة والتأليف.

وكتاب كمال الدين بن العديم (ت٦٦٢/١٢٦٤): زبدة الحلب من تاريخ حلب[٣]، الذى خصصه للكلام عن حلب بلده، ويتناول بسببها تاريخ الأمويين والعباسيين والحمدانيين والفاطميين. وقد أورد ابن العديم فيه وثيقة معاهدة الحمدانيين مع الروم؛ حيث لا توجد بتفصيل إلا عنده.

وكتاب أبى شامة (ت٦٦٥/١٢٦٧): الروضتين فى أخبار الدولتين[٤]. وهذا الكتاب يتناول تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ولكنه يعرض كثيراً لأخبار الدولة الفاطمية. ومما يزيد من أهميته، أنه ينقل عن مؤرخين كثيرين عاصروا الفاطميين، ولا سيما القاضى الفاضل، الذى عمل فى ديوان الإنشاء الفاطمى فى عهد الوزير طلائع بن رزيك، ووزر لصلاح الدين.

وكتاب المؤرخ المصرى ابن ميسر (ت ٦٧٧/١٢٧٨): تاريخ مصر[٥]، الذى يحتوى على أخبار الخلفاء الفاطميين ووزرائهم بتطويل وتفصيل. ويبدو أن المؤلف صنف كتباً عدة، منها تذييل على تاريخ المسبّحى، وأنه لم يتبق منها غير هذا الكتاب.

---

(١) حققه النجار ونخبة من العلماء، مصر ١٣٥٣هـ. أجزاء: ٧، ٨، ٩، على الخصوص.

(٢) وفيات، ١ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٣) حققه سامى الدهان، فى جزأين، دمشق ١٩٥١، وله ترجمة من Blochet، بعنوان:
Histoire d'Alep. Paris, 1900.

الحلب هو ما يحلب من الناقة، والزبد هو خلاصة الحلبة؛ لأنه يستخلص من اللّبن، فكأن المعنى أن هذا الكتاب خلاصة بسمة لكل ما قيل عن حلب.

(٤) فى جزءين، أشرف على نشره عبد الله بن مسعود، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨هـ. عن المؤلف: وفيات، ١ص ٥٠٩-٥١٢.

(٥) نشره المستشرق Massé، القاهرة ١٩١٩. ويوجد كتاب بعنوان المنتقى من أخبار مصر لابن ميسر من تأليف محمد بن علىّ (ت٦٧٧/١٢٧٨) هو الجزء الثانى حققه أيمن فؤاد، نشر المعهد الفرنسى ١٩٨١.

وكتاب ابن واصل (ت٦٩٧/١٢٩٧): مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب[١]، يتناول فيه تاريخ دولة الأيوبيين، إلا أن فيه أخباراً كثيرة عن الدولة الفاطمية فى أخريات أيامها.

ولدينا إنتاج أصلى من مؤرخى العصر المملوكى، ينقلون فيه مادة غزيرة عن الفاطميين، أخذوها من مصادر معاصرة لهم كانت تحت أيديهم، وليست معروفة لنا إطلاقاً؛ مما جعل إنتاجهم من أهم مصادر التاريخ الفاطمى.

فنذكر مثلاً: ابن خلكان (ت٦٨١/ ١٢٨١). فى قاموسه: وفيات الأعيان[٢]. يتناول فيه حياة كثير من الخلفاء والوزراء الفاطميين، وعبد الله بن أيبك (بعد ١٣٣٥/٧٣٦) فى الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية[٣]، ذكر فيه الخلفاء الفاطميين والدول المنقطعة والمتصلة التى قامت فى أثناء دولتهم مثل القرامطة وبنى حمدان وملوك البويهيين والصليحيين وغيرهم، والذهبى (ت٧٤٨/١٣٤٨)، فى تاريخ الإسلام[٤]، الذى تعرّض فيه للفاطميين، والقلقشندى (ت٨٢١/١٤١٨) فى صبح الأعشى[٥]، الذى أورد فيه سجلات عديدة للفاطميين ربما يكون نقلها عن أصولها؛ تعتبر وثائق هامة، والعينى (ت٨٥٥/ ١٤٥١)، فى عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان[٦]، وفى تاريخ دولة بنى

(١) قام بتحقيقه والتقديم له جمال الدين الشيال، فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٣ وما بعدها، الأجزاء من ٤-٥، تحقيق حسنين ربيع ١٩٧٢- ١٩٧٧.
أنظر المقالة القيمة: Salah al-Beheiry :
Le décret de nomination de l'Historien Ibn Wásil au Poste de Professeur de la Mosquée al - Aqmar. Ann. Islamo. TXII, 1974,P.85 sqq.

(٢) طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ، فى ٣ أجزاء.

(٣) هو الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة١٩٦١، من تاريخه العام: كنز الدرر وجامع الغرر، فى تسعة أجزاء، حيث توجد منه نسخة خطية بدار الكتب، برقم٢٥٧٨ تاريخ (اعتمدنا عليها).

(٤) مخطوط بدار الكتب، برقم٤٢ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة بالقاهرة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة لبعضه من Wustenfeld .

(٦) مخطوطة بدار الكتب، برقم ١٥٨١ تارخ.

العباس والطولونيين والفاطميين[1]، يعرض فيهما للفاطميين بإسهاب، وإدريس ابن الحسن عماد الدين (ت٨٧٢/١٤٦٨) في عيون الأخبار[2]، الذى ينقل فيه عن كبار دعاة الفاطميين المعاصرين والمتأخرين أخباراً تاريخية مفصلة عن خلفاء الفاطميين وأحوالهم، مما لا نجده في المصادر السنية، وأبو المحاسن (ت٨٧٤/١٤٦٩) في النجوم الزاهرة[3]، الذى يعرض فيه لتاريخ كل خليفة من الفاطميين، فضلاً عما يذكره عن أحوال مصر في عهدهم، وفيضان النيل في كل عام، والسيوطي (ت٩١١/١٥٠٥) في حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة[4] الذى عقد فيه فصلاً عن الفاطميين؛ وإن أطلق عليهم العبيديين؛ كما أورد سجلات هامة، وغير هؤلاء.

ولكننا نختص بالذكر كتب المقريزي (ت٨٤٥/١٤٤٢)، لما قدمه هذا المؤرخ عن الفترة الفاطمية بمصر، من مادة غزيرة، أتى بها من أنفس المصادر التاريخية التى عاصرتها، ولكنها ضاعت: مثل كتب: ابن زولاق، والمسبّحي، والقضاعي، وابن المأمون. فنذكر: كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء[5]، الذى يؤرخ فيه للأسرة العلوية ومشكلة النسب، ونشأة الدولة الفاطمية في المغرب، والخلفاء الأربعة: المهدي والقائم والمنصور والمعزّ؛ كما يتحدث عن الفتح الفاطمي لمصر وتأسيس مدينة القاهرة، ويعرض للخطر القرمطي ويذكر نص الخطاب الذى أرسله المعزّ الفاطمي للحسن الأعظم القرمطي. وكتاب: إغاثة الأمة بكشف الغمة[6]، الذى يحتوى على معلومات غير منتظرة من أنواع المعرفة الاقتصادية

---

(١) مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B. N.)، برقم ٥٧٦١.

(٢) مخطوطة بمكتبة الهمداني الخاصة، اطلعت عليها، وعندى منها أجزاء مصورة.

(٣) طبعة دار الكتب في القاهرة، طبعة وزارة الثقافة، طبعة Juynboll و Popper .

(٤) في جزأين، القاهرة ١٣٢٧ هـ.

(٥) نشرها الشيال، القاهرة ١٩٤٨، وإن كانت له طبعة في بيت المقدس، ١٩٠٨ . ولكن الشيال حصل على نسخة أخرى أكثر اكتمالا، تعرف باسم: نسخة طوب قبو سراى أحمد الثالث، وهى برقم ٣٠١٣؛ حيث ينقل إلينا منها في كتابه وثائق الفاطميين، معلومات ضافية. وقد حقق الجزء الأول منه الشيال في القاهرة ١٩٦٧، أما الجزأين الثاني والثالث، فقد حققهما محمد حلمي، القاهرة ١٩٧١– ١٩٧٣.

(٦) حقق مرتين في ١٩٤٠و١٩٧٥، على يد زيادة والشيال.

والاجتماعية والتاريخية الخاصة بالفاطميين وغيرهم في مصر، يندر أن توجد في كتاب غيره. وأخيراً كتاب: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار[1]، الذي يتناول فيه تاريخ القاهرة عاصمة الفاطميين، وكل ما يتصل بها، بتفصيل لا يعرف له مثيل من قبل.

ويجب الا نهمل كتب الفاطميين الخاصة بالمذهب، وأغلبها ألفها دعاة الفاطميين أنفسهم. فلا يغرب عن بالنا أن الدولة الفاطمية دولة ثيوقراطية أي دينية، مثل غيرها من الدول الإسلامية في العصور الوسطى، ترتكز في أساس بنائها على الدين؛ فقد كان الدين يشبه في وقتنا المذاهب الاقتصادية والسياسية. فكانت كتب العقائد الفاطمية بدفاعها عن المذهب وعرضه وشرحه، تدافع عن كيان الخلافة الفاطمية ذاته. والواقع أن التأليف في عقائد المذهب الفاطمي وفلسفته-وهذه الأخيرة تعرف عند الفاطميين بعلم الحقائق- أصبح موضوع دراسة مسهبة في كتبهم. وإلى وقت قريب، كانت أغلب هذه الكتب العقائدية الفاطمية في طيّ الكتمان، وكان ظهورها سبباً في معرفة كثير من أسرار المذهب الفاطمي. ومع ذلك؛ فيجب الاحتياط في قراءتها، دون محاولة تفسيرها بفكرنا؛ لأن الفكر الشيعي له خاصيته، ثم بالنسبة لهذه الكتب لا يجب التعميم؛ لأنه كان يوجد المغالون من الشيعة أيضاً.

فنذكر منها: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا[2]، وهي من تأليف جماعة من علماء البصرة، فيها عقائد كثيرة عن الإسماعيلية. وقد أختلف في مصدر

---

(١) هذا الكتاب له طبعتان مصريتان، إحداهما في جزأين، بولاق ١٨٥٣، والأخرى في أربعة اجزاء، مصر ١٣٢٤-١٣٢٦هـ، ولم ينشر في أوربا إلا بعض نتف منه على يد Wiet، أو ترجمت على يد: Griveau, Casanova, Bouriant,Wustenfled

(٢) انظر. الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية فيها، بمباي ١٣٥٢/١٩٣٥.

قيل في سبب تأليفها: إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية... وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة، وسموها رسائل إخوان الصفا، وكتبوا فيها اسماءهم، وبثوها في الوراقين؛ ووهبوها للناس. وربما عاش مؤلفوها من ٣٢٠-٤١٤/٩٣٢-١٠٢٣، ولعل أشهر من تنسب إليه هو أبو حيان التوحيدي. انظر. Abbas H: Abu Hayyân al-Tawhidî and the Brethern of Purity. d. Middle East stud, 9,1978. p.p.345-357. ولها عدة طبعات في مصر آخرها سنة ١٩٢٨، وط. بومباي ١٣٠٥/١٨٨٨، وفي بيروت، في اربعة اجزاء، ١٩٥٧. ولا شك أن المستشرق إيف ماركيه Yves Marquet، هو المتخصص المتميّز في هذه الدراسة. انظر. مقالاته الكثيرة بالفهرست.

هذه الرسائل؛ فقيل إنها من كلام بعض الأئمة من نسل علىّ بن أبى طالب، وتنسب إلى أحد الأئمة المستورين، وهو أحمد بن عبد الله محمد، فى أيام المأمون العباسى.

ورسالة الرشد والهداية[1]، للداعى ابن حوشب(حوالى ٢٦٨/ ٨٨١)، الملّقب منصور اليمن، وفيه يبين العقائد الفاطمية قبل أن تنتقل الخلافة الفاطمية إلى مصر؛ بقصد هداية الناس إليها، ومنه أيضاً: كتاب الفرائض وحدود الدين[2]، وهو على الخصوص فى نسب الخلفاء الفاطميين.

وكتاب الكشف[3]، لجعفر الحاجب بن منصور اليمن-ابن حوشب- (نحو القرن الرابع الهجرى)، وهو مجموعة تأويلات لعدة آيات من القرآن، هدفها إثبات حق الإمامة الفاطمية.

وكتب الفقيه النعمان بن حيّون (ت٣٦٣/ ٩٧٤)، الذى كان ذا صلة شديدة بكل خلفاء الفاطميين فى المغرب، من الخليفة عبيد الله المهدى، إلى الخليفة المعزّ لدين الله؛ فجعل هذا الخليفة النعمان كبير قضاته وحجته أى كبير دعاته. ومما يزيد من أهمية تآليف النعمان فى العقيدة الفاطمية، أنها ألفت بناء على أمر الخليفة المعز الفاطمى، الذى راجعها بنفسه بعناية كبيرة، ومعنى هذا أن الخليفة المعّز يعتبر مشاركاً للنعمان فى تأليف هذه الكتب؛ بحيث إن المعّز أخرج إليه كتب أجداده[4]. ولحسن الحظ أنه يوجد تحت أعيننا أهم كتبه فى العقائد، وهى:

دعائم الإسلام[5]، وأساس التأويل[6] (الباطن)، والهمة فى آداب اتباع

---

(١) حققها كامل حسين فى مجلة الجمعية الإسماعيلية بالهند "Collectanea" ، المجلد الأول، ١٩٤٨.

(٢) تحقيق حسين الهمدانى، القاهرة ١٩٥٨ (مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة).

(٣) تحقيق Strottmann ، القاهرة ١٩٤٩. انظر. Guide, p.40-49.: Ivanow

(٤) مخطوطة المجالس والمسايرات، ٢ورقة ١١٥، ٢٢٨.

(٥)تحقيق فيضى، فى جزأين، القاهرة ١٩٥١-١٩٦٠، والعنوان الكامل: دعائم الإسلام، وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، عن أهل بيت رسول الله، عليه وعليهم أفضل السلام. أنظر .Ivanow: Giude p.37 ؛ Brockelmann ، Gesch der litt. Suppl .Leiden, 1934,I, p324-5 كذلك توجد نسخة منها فىSOAS ، برقم ٢٥٣٤، فىLondon ؛ ويقوم Stern بتحقيقها حالياً. انظر. Ency de l'Islam, 2 éd t 1,p. 50 .
ولأهميته ظهر له شرح من النعمان نفسه بعنوان: تاويل دعائم الإسلام، تحقيق محمد حسن الأعظمى، القاهرة، دار المعارف.

(٦) تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠. هو شرح باطن لما أثبته فى دعائم الإسلام.

الأئمة[1]، وشرح الأخبار[2]، والمجالس والمسايرات[3]، والاقتصار[4]، والأرجوزة المختارة[5]، والرسالة الذهبية[6]، وتأويل الشريعة وحقائقها وممثولاتها وأسرارها[7]، والمناقب والمثالب[8]، وتربية المؤمنين على حدود باطن علم الدين[9]، والمنتخب فى فقه الأئمة[10]، ومنهاج الفرائض[11].

ورسائل وكتب، لأحمد حميد الدين الكرمانى (ت فى القرن الخامس/ الحادى عشر)، الذى لا نعرف عن حياته شيئاً كثيراً، غير أنه كان حجة العراقين، أى فارس والعراق فى المذهب الإسماعيلى؛ كما أنه رحل إلى مصر بناء على دعوة الخليفة الفاطمى الحاكم؛ ليصلح من أمور الدعوة التى اضطربت وقتذاك بمصر؛ بحيث وصف بأنه أساس الدعوة التى عليه عمادها، وبه علا ذكرها . فمن رسائله

---

(1) نشره محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧. أنظر Guide, p. 39. .

(2) مخطوطة بدار الكتب برقم ٧٠٦٢ح. العنوان الكامل: شرح الأخبار، فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الأخيار، من الأئمة الأطهار، عليهم السلام. انظر Ivanow: Guide, p. 38 ؛Brock: Suppl I, 325. نشرIvanow بعض نتف منها فى كتابه: Rise, p. 1-34 .

(3) مخطوطة بجامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦٠، فى ثلاثة أجزاء ، والعنوان بالكامل: المجالس والمسايرات، والمواقف والتوقيعات، عن الإمام المعزّ لدين الله، وعن آبائه، صلوات الله عليهم. انظر Guide, P40. ;Brock: Suppl. I, 325. قام بتحقيقها مؤخراً الحبيب الفقى وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوى، تونس ١٩٧٩.

(4) تحقيق ميرزا، دمشق ١٩٥٧.

(5) تحقيق إسماعيل بوناولا، بيروت ١٩٧١. تتناول كل ما يتعلق بالمذهب الفاطمى.

(6) وهى رد على رسائل أحد الأتباع. انظر. Yves Marquet : Convegno Suy li khwân as-Sâfâ. Extratto. Roma 1981,p.69-96.

(7) ميكروفيلم ٢١٢١، قائمة بالمخطوطات اليمنية.ط. دار الكتب، ١٩٦٧، ص ٨.

(8) ميكروفيلم٢٢٤٦٢٠، قائمة ، ص ٤٩.

(9) ميكروفيلم١٨٧، قائمة ،ص ٢٠.

(10) ميكروفيلم ٢٢٤١، قائمة ، ص ٤٩.

(11) ميكروفيلم ٢٢٤٨، قائمة، ص ٥٠.

نخص بالذكر: الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله [1]، والمصابيح فى إثبات الإمامة لمولانا أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله[2]. وهى رسائل عرفت فى أدب الإسماعيلية مع غيرها، باسم رسائل الكرمانى، يرد فيها على دعوى الأخرم الفرغانى فى تأليه الحاكم ويفندها، ويثبت عقيدة الإسماعيلية فى الله الذى لا إله إلا هو. وقد كان تأليف هذه الرسائل بناء على توجيه الحاكم، الذى استدعاه من العراق فى ٤٠٨/١٠١٧؛ ليزيل عن المذهب الزيف والاضطراب. ومن كتبه نخص بالذكر: راحة العقل[3]، الذى ألفه فى سنة ٤١١/ ١٠٢٠، وهو فى كتب الفلسفه أو الحقائق الفاطمية، وفّق فيه بين آراء عصره وآراء فلاسفة المذاهب القدامى، مثل[4]: النخشبى (النسفى) فى كتابه: المحصول، والرازى فى كتابه. الإصلاح، والسجستانى أو السجزى فى كتابيه: النصرة والينابيع، ومزج بين تعاليم المذهب الإسماعيلى والعلوم الإسلامية، وبين الفلسفة اليونانية. وبفضل هذا الكتاب اعتبر الكرمانى شيخ فلاسفة المذهب الإسماعيلى، الذى لا توجد فلسفة جديدة للمذهب بعد فلسفته[5].

ونذكر من كتب العقائد: رسائل الحاكم أو ما يعرف برسائل الدروز أو حمزة، ألف أغلبها الداعية أحمد بن علىّ، هادى المستجيبين؛ الذى قام بكتابتها ليبيّن الطريق أمام الموجدين، ويؤرخها من تاريخ ولاية الحاكم بأمر الله، القائم بأمر الزمان. ويوجد أكثرها مخطوطاً فى دار الكتب المصرية[6]. وفى المكتبة

---

(١) تحقيق محمد كامل حسين، فى مجلة آداب القاهرة، المجلد ١٤، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢، انظر. Guid, P. 44 : Ivanow .

(٢) ميكروفيلم ٢٢٢٣، قائمة، ص ٤٦.

(٣) حقق نصه محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمى، فى سلسلة مخطوطات الفاطميين رقم ٩، القاهرة ١٩٥٢، وله تحقيق من غالب، بيروت ١٩٦٧ (لم يعتمد عليه).

(٤) البغدادى، الفرق بين الفرق، القاهرة، ١٩١٠، ص ٢٦٧؛ انظر. Ivanow:
Studies in Early Persian Ismaelism. Leiden 1947, P. 115-120 . بعض كتب هؤلاء الفلاسفة، لا تزال توجد خطية فى المكتبات الخاصة. انظر. الهمدانى، الصليحيون القاهرة، ص ٢٥١ وما بعدها. حقق غالب كتاب «الينابيع» للسجستانى، بيروت ١٩٦٥.

(٥) انظر. Guide, P. 46

(٦) برقم: ٢٠و ٣٥و٣٧و٣٩و٥٤و١٢٣و١٣٨ عقائد تحل. منها مثلاً: الرسالة الدامغة للفاسق، وهى فى الرد على أحد علماء النصيرية، ورسالة التنزيه إلى جماعة الموحدين، يطلب منهم التقرب إلى مولاهم، ورسالة ذكر معرفة الإمام، وتتضمن ذكر الأقطاب الموحدين والمقربين من الحاكم بأمر الله.

الأهلية (B.N.) بباريس[1] وفى مكتبات أخرى باسم مجموعة رسائل درزية؛ وإن كان التزييف يبدو واضحاً فيها[2].

ونذكر كتب ناصر خسرو، وهى بالفارسية، تتناول عقيدة المذهب الفاطمى وفلسفته، مثل: خوان الإخوان[3]، ووجه الدين، وزاد المسافرين[4]، وهذا الأخير كتاب فلسفى شامل. وكان ناصر خسرو قد زار مصر فى أيام المستنصر بالله، وقام بنشر المذهب فى فارس عند عودته من رحلته إلى مصر؛ بحيث إن ما كان يكتبه يعتبر بوحى من الخليفة المستنصر نفسه.

ونذكر مجالس المؤيد فى الدين الشيرازى (ت٤٧٠/١٠٧٨)، المسماة: المجالس المؤيدية[5]، وهى ثمانمائة مجلس، ألقيت باسم الإمام المستنصر فى المسائل الفقهية الفاطمية. أما المجالس المستنصرية[6]، التى تتناول العقائد الفاطمية؛ فقد يكون مؤلفها هو المؤيد نفسه، أو الوزير الفاطمى بدر الجمالى.

والرسالة الموسومة بالهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية[7]، التى ينسب تأليفها إلى الخليفة الفاطمى الآمر، ترمى إلى نقض أحقية نزار الابن الأكبر للمستنصر، وتميل إلى تأييد حق المستعلى الابن الأصغر، وهو أبو الآمر.

وكتاب: تاج العقائد ومعدن الفوائد[8]، ألفه علىّ بن محمد بن الوليد (ت٦١٢/١٢١٥)، خصيصاً عن العقيدة الفاطمية.

---

(١) برقم: ٦١٢١و٦٧٤٦و٦٧٤٧و٦٧٥١و٦٧٥٢.

(٢) انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه ط. القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٢٢-١٢٣.

(٣) قام بتحقيقه يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٠. أنظر Guide,p.93.

(٤) وكلها توجد مجموعة فى كتاب الخشاب:

Nâsiri Husrâu. Le Caire, 1946.

وإن كان الأخير نشره محمد بذل الرحمن عام ١٣٤٠هـ، فى برلين. انظر. Guide; p.91;92.

(٥) اطلعت عليها فى مكتبة المرحوم كامل حسين الخاصة.

(٦) تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧. انظر. Guide,p.43.

(٧) تذييل وتحقيق وترجمة فيظى، ومعه رسالة أخرى لها المضمون ذاته.

(٨) لدينا منه ترجمة، Ivanow، بعنوان:

A Creed of the Fatmids. Bombay, 1936.

وأخيراً منتخبات من بعض كتب إسماعيلية، تشتمل على نتف من كتب، أو رسائل قصيرة خطية، موجودة فى المكتبات العامة والخاصة، مثل: تلك[1] التى جمعت من غاية المواليد للداعى الخطاب بن الحسن (ت٥٣٣/١١٣٨–١١٣٩)، وزهر المعانى للداعى إدريس عماد الدين (ت ٨٢١/١٤١٨)، وتلك الرسائل الأربع[2]: رسالة مطالع الشموس فى معرفة النفوس، للداعى أبى فراس (ت ٩٣٧/ ١٥٣٠)، وأسبوع درر الستر للداعى حميد الدين الكرمانى (ت فى القرن الخامس/ الحادى عشر)، والدستور ودعوة المؤمنين إلى الحضور، تأليف الداعى ابن أحمد الطيبى (حوالى ٦٧٣/ ١٢٧٤)، وقصيدة لشاعر لا يعرف عنه شئ. وتلك[3] التى جمعت من: كتاب تربية المؤمنين أو تأويل دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن حيون (ت٣٦٣/ ٩٧٤)، ورسالة جلاء العقول وزبدة المحصول للداعى علىّ بن محمد الوليد (ت٦١٢/ ١٢١٥)، ورسالة زهر زبد الحقائق للداعى حاتم الحامدى (ت٥٩٦/١١٩٩)، وكتاب الأزهار ومجمع الأنوار للداعى حسن بن نوح الهندى؛ وغير ذلك .

وعلى العكس، لدينا من الكتب الدينية عن مذهب الشيعة ما كتبه مؤلفو السنة، التى يبدو فيها التعصب ضد الفاطميين، وبيان عدم أحقيتهم فى الخلافة، واتهامهم بالخروج على الدين الإسلامى.

فنذكر كتاب: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة[4]، للحمادى اليمانى (حوالى القرن الخامس)، الذى هو فقيه سنى، دخل فى مذهب الفاطميين؛ ليطلع على عقائدهم وكتبهم؛ بقصد إظهار نقائض مذهبهم.

وكتاب: الفرق بين الفرق[5]، للبغدادى(ت٤٢٩/١٠٣٧)، وهو معاصر للدولة الفاطمية فى مصر، وكتب بتعصب شديد ضدها؛ فعقد فيه فصلاً عن

---

(١) نشرها Ivanow مع غيرها فى كتابه: Rise of the Fatimids ،تحت عنوان : المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية. انظر. بعده وقبله.

(٢) نشرها عارف تامر، بعنوان: أربع رسائل إسماعيلية، سلمية سورية، ١٩٥٢.

(٣) تحقيق عادل العوا، بعنوان: منتخبات إسماعيلية، دمشق ١٣٧٨/١٩٥٨.

(٤) نشره وصححه وراجعه عزت العطار، ١٣٥٧/١٩٣٩.

(٥) ط. القاهرة ١٩١٠.

مذهب الباطنية، ويقصد به المذهب الشيعى، بعنوان: «فى ذكر الباطنية وبيان خروجهم عن جميع فرق الإسلام».

وكتاب: فضائح الباطنية[1]، للفقيه الإمام الغزالى (ت٥٠٥/١١١٢)، الذى ينتقد فيه عقائد الشريعة بأقوال ساخرة؛ إذ دعاه خليفة العراق السنى المستظهر؛ ليرد على الدعوة الفاطمية، ولذا الكتاب يسمى أيضاً: «كتاب المستظهرى» أو «فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية».

وكتاب يحيى بن حمزة العلوى(٦٦٩-٧٤٥/١٢٧١-١٣٤٤): الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام[2]، يظهر من عنوانه مقاصد المؤلف، فيه إفحامات خاصة برأيه فى عقائد الإسماعيلية وإن كانت تبيّن عدم فهمه لها.

وبعد ذلك نفرد مكاناً خاصاً لمصادر أصلية قلمية، ولكن من نوع آخر؛ إذ ليست من تآليف المسلمين الشيعة أو السنة، وإنما من تآليف غير مسلمين أغلبهم من القبط، الذين تناولوا تاريخ الدولة الفاطمية فى أثناء تعرضهم لتاريخ بنى ملتهم، وقد كتبوه بالعربية. ومن الجدير بالذكر أن عملية كتابة تاريخ الكنيسة القبطية بالعربية قد بدأت فى وقت الفاطميين.

فنذكر كتاب: تاريخ، أو صلة تاريخ أوتيخا[3]، تأليف يحيى بن سعيد الأنطاكى (+٤٥٨/١٠٦٦)، الذى تناول تاريخ القبط وكنيستهم بإسهاب فى أيام الخلفاء الفاطميين الأوائل، وقصد به تكملة ما كتب قبله سعيد بن البطريق[4]، المعروف بأوتيخا "Eutychius" ، وهو أوقف تاريخه إلى ٤٢٢/١٠٣١. ولهذا الكتاب

---

(١) تحقيق Goldziher ، ط.Leyden ، ١٩١٦؛ وتحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٦٤.

(٢) حققه عون، وراجعه النشار، ط دار المعارف.

(٣) تحقيق Kratchkovsky وVasiliev (فى Pat.Or.XXIII) بعنوان:
Histoire de Yahya-ibn Saiid d'Antioche. Continuateur de Saiid-ibn Bitrîq
Paris, 1924 ؛ أو تحقيق شيخو، ط. بيروت.

(٤) كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. فى جزأين، تحقيق شيخو، بيروت ١٩٠٥-١٩٠٩(يشتمل على كتاب يحيى بن سعيد، ونعتمد عليه أحيانا).

ميزة فى أنه يورد معلومات قيمة عن علاقة الروم بالفاطميين، ويعطى تواريخ هجرية مقابل تواريخ مسيحية.

وكتاب: « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المعروف باسم: «سيّر البيعة المقدسة[1]»، تأليف ساويرس "Severus"، أسقف الأشمونين، المعروف بابن المقفع الذى عاش فى أيام الخليفة الفاطمى المعزّ، وكان كاتباً فى دواوين الفاطميين، ثم صار أسقفاً، وتميز بتآليفه العديدة عن الكنيسة القبطية وأحوالها، بلغت عشرين كتاباً[2]. وقد استكمل هذا الكتاب بكتاب آخر باسم: ذيل سير الآباء البطاركة، مؤلفون قبط آخرون، مثل: الأنبا ميخائيل[3]، الذى تناول تاريخهم فى عهدى الحاكم والظاهر، وقد كان شماساً، ثم قسيساً، ثم أسقفاً على تِنّيس[4]، وابن منصور بن مفرج الإسكندرانى، الذى تناول تاريخهم فى عهد المستنصر. فهذه الكتب لبطاركة الإسكندرية، تحتوى على تفاصيل كثيرة عن الأحوال الداخلية فى الدولة الفاطمية وعلاقاتها بالنوبة والحبشة والروم.

وكتاب: تاريخ كنائس وأديرة مصر[5] :لأبى صالح الأرمنى (+٦٠٥/١٢٠٨)، الذى زار مصر وقت سيطرة الأرمن على دولة الفاطميين؛ بتولية بدر الجمالى وزارة المستنصر. وهو أرمنى. كما أن أبا صالح عاصر زوال النفوذ الأرمنى من مصر فى آخر حكم الدولة، بعزل بهرام من وزارة الحافظ، وهو أرمنى كذلك. فيذكر أبو صالح فى كتابه تفاصيل كثيرة عن الفاطميين وأحوال البلاد.

ونذكر كتابين متأخرين، أحدهما: تاريخ العرب[6]، للشيخ المكين جرجس ابن العميد (+ ٦٧٢/١٢٧٣)، الذى يتناول فيه تاريخ الدولة الفاطمية مع غيرها من

---

(١) حقق أجزاءه Evetles فى (Pat. Or. Tv) ، وكذا Seybold ، ويسى عبد المسيح، وسوريال وبرمستر Bermester . عن ابن المقفع، أنظر .

Ency. de l'Isl, (art Ibn al-Mukaffa') t2, 429-430.

(٢) عن ذلك ، انظر. ذيل سير الآباء البطاركة، مخطوطة بدار الكتب، برقم ٦٤٣٤ح، الجزء الثالث، ورقات ٤٧و ٤٨.

(٣) أنظر . المخطوطة السابقة، ٣ ورقة ٦٩.

(٤) عن هذه المدينة، انظر. معجم البلدان، ٢ص ٤١٩، جزيرة قرب دمياط.

(٥) تحقيق وترجمة Evetts ، ط. Oxford ، ١٨٩٥.

(٦) حققه وترجمه إلى اللاتينية Erpenius ، بعنوان:

Historia Saracenica. Lugduni - Batavorum. 1625.

دول المسلمين، والآخر: تاريخ مختصر الدول[1]. للأب غريغوريس أبى الفرج المعروف بابن العبرى (+٦٨٥/١٢٨٦)، وللأوربيين باسم : "Barhebrnaeus"، الذى يتعرض فيه لأحوال الدول، بما فيها الدولة الفاطمية.

وإذا ذكرنا كتابات المسيحيين والقبط فى مصادرنا الأصيلة، فيجب أن نذكر أيضاً مجموعة من كتابات اليهود فى مصر أيام الفاطميين، خاصة بهذه الطائفة، تفيد إلى حد بعيد فى تقصى أحوال مصر الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الوقت؛ تعرف باسم، الجنيزة[2] "Genîza" ، وهى كلمة آرامية أو عبرية تعنى مكاناً دفنت فيه أوراق، حتى لا يدنس اسم الله الذى فيها؛ فلعل فيها معنى كلمة «جنازة» العربية؛ لتعنى الدفن. وقد وجدت هذه المجموعة فى أحد معابد اليهود فى الفسطاط، وكانت كنيسة فى الأصل اشتراها اليهود، وأضيفت لها قاعة لحفظ هذه الأوراق فى حوالى ١١٩٠م. ولما هدم؛ بيعت لمكتبات أوربا وأمريكا. ومن الجدير بالذكر أنها مكتوبة بالعربية فى أغلبها، وأنها تحتوى على فتاوى "Responsa"، خاصة باليهود وعلاقتهم بالمسلمين.

ولدينا مصادر أصلية هامة من مؤرخين بيزنطيين، تبدو أهميتها فى أنها تبين وجهة نظر العدو الأول غير المسلم للفاطميين، وهم الروم فنذكر:

---

(١) تحقيق صالحانى، بيروت ١٨٩٠، وتحقيق Bruns وKirsch ، بعنوان:
Chronicon.

(٢) عنها Ency. de l'Isl, (art Geniza) 2éd, t2, P. 1010-1012; (art Diplomatique) 2éd, 1959, 2, p. 309 sqq;
The Cairo Geniza, 2 ed. 1959: Kahle.;
L'Etat actuel de la recherche sur les documents de la Geniza. R.E.J. : Goitein CXVIII, (1959-1960) 9-27;
The Cairo Geniza as a Souroe for the History of Muslim Civilization. S.I,III, 1955;
Letters of Medieval Jewish Traders. Translated from the Arabic. Princeton, 1973;
Fragments from the Cairo Genizah: London 1927.: Gottheil and William.
The importance of Cairo Geniza. Cambridge Univ. Oct, 1976 no 4 : Stillmann (Middle East Studies).
وكذا عطية القوص فى: وثائق الجنيزة وأهميتها فى دراسة تاريخ مصر الإسلامية، مستخرج من مجلة جامعة القاهرة للخرطوم، العدد ٥، ١٩٧٤.
يقال إن عدد الأوراق التى كانت فى الجنيزة، بما يزيد عن الربع مليون ورقة. انظر.
A Tentative Bibliography of Geniza Documents. Paris. 1964. : Goitein

Leo Diaconus ، الذى كتب تاريخه "Historiae" إلى ٣٦٦هـ/٩٧٦م، و Michel Besellos ، الذى كتب تاريخه إلى ٤٧٠هـ/١٠٧٧م، و(Cedrenus) Georgiús Kedrenos ، الذى وصل بتاريخه Historiaum إلى بعد ذلك[١]، والأمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيرو چينيتوس Constantinus VII Porphrogenotus فى كتاب الإدارة[٢] Adminstrando imperis Historiaum، وكتاب الرسوم[٣] De Cermonis Compendium . وفوق ذلك توجد وثائق دبلوماسية يونانية، تبودلت بين الروم والفاطميين وغيرهم، نشرت بعنوان:Regesten[٤].

كذلك كتب الحرب الصليبية الأولى، التى عاصرت آخر أيام الفاطميين، وهى حركة الإفرنج نحو الشرق الأوسط، وقد ورد معظم ما كتب عنها فى الموسوعة الفرنسية المعروفة باسم:"Recueil"[٥]، التى جمعت منذ أواخر القرن السابع عشر . وهذه الموسوعة تشتمل على النصوص بما فيها العربية، وهى مقسمة بين أصناف المؤرخين عنها على حسب جنسيتهم، من يونان وأرمن وأوربيين وعرب، ذكرنا بعضهم سابقاً ،فمن اليونان:Jean Phocas و Niketas ، ومن الأرمن Mathieu d'Edesse[٦]–متى الرهاوى–Heythoum ، ومن الأوربيين:وليام الصورى –وليام– Willemero Terensi[٧] و Baudri وGuibert وAlbert وFulcher ؛ وإن

---

(١) نشرها Haase فى Corpus Scritprorum, Historiae Byzantinae. (C.S.H.B.) ed. Bekker. Bonn. 1839.

(٢) له ترجمة عربية من عمران، مأخوذة من ترجمة إنجليزية، طبع فى الإسكندرية.

(٣) تحقيق Vogt ، فى خمسة أجزاء، ط. Pairs ، ١٩٤٠.

(٤) انظر. Regesten von Kaiserurkunden des Osrômischen Reiches I., Berlin:Dölger – Munchen, 1924.

(٥) Recueil des Historiens des Croisades. 16 Vols. Paris, 1841-1906: Documents arméniens. 2 Vols; Historiens grecs. 2 Vols; Histoeirens occidendtaux. 5 Vols; Historiens orientaux. 5 Vols.

حيث أن النصوص العربية من تحقيق وترجمة De Slane ، وتضم النصف الأصيل والترجمة الفرنسية.

(٦) له ترجمة عربية فى بحث عمر كمال عن تزيمسكس.

(٧) عمل فى خدمة الملك عمورى ملك بيت المقدس، وكتابه بعنوان: Historia Rerum in Partibus transmarini Gestarum ؛ وله ترجمة إنجليزية، بعنوان: William of Tyre, : A History of Deeds done beyond the Sea. Transl and annot by Babcoch and Krey,2 Vols ، وظهرت له ترجمة عربية من حسن حبشى بعنوان: الحروب الصليبية، الجزء الأول، القاهرة ١٩٩١ . أنظر أيضًا. عمر كمال توفيق، وليام الصورى، مقالة كلية الآداب، الإسكندرية، المجلد٢١، ١٩٦٧.

كان ما ذكره الأوربيون يتفق أغلبه مع ما كتبه مؤلف مجهول، باسم: Gesta Francorum[1]، ومعظمها كتب من الشاهد العيان؛ كما توجد بتفاصيلها أيضاً في[2] : Les Archives de l'Orient Latin و Bibliothèque des Croisades[3].

وأخيراً يجب أن نلم بما كتبه المؤرخون الحديثون عن تاريخ الفاطميين، الذي جر إلى ظهور كثير ممن اهتموا به، سواء أكانوا متخصصين، Ex professo أم غير متخصصين، وبعضهم كتبوه من مصادر خطية، لم تنشر من قبل. فنذكر[4] من العرب: حسن إبراهيم، ومحمد كامل حسين، وحسين الهمداني، وعباس الهمداني، وزاهدى على، والشيال، وجمال سرور، وعبد الله عنان، وأيمن فؤاد. ومن الأوربيين: De Sacy و Quatremère و Bekker و Guyard و O'Leary و Mamour و Massignon و Stern و Lewis و Canard و Cahen و Hodgson وVatikiotis وIvanow و Wüstenfeld و Betty و Müller و Strottmann وBianquis .

* * *

هذه نظرة عامة على أهم المنابع التى يمكن أن ينهل منها الباحث فى تاريخ خلافة الفاطميين فى مصر، تناولت أهم المصادر والمراجع .

---

(١) انظر Gesta Francorum et Aliorum Hierosalimitanorum, ed. Brechier ، وهى توجد فى مجموعة: (R.H.C. occ t3)، وترجمة إلى الإنجليزية من Somerset de Chair ، وإلى العربية من حسن حبشى، وكتبت فى عام ١١٠٥ م.

(٢) فى ٣ أجزاء ، ط. New York ، ١٨٨١.

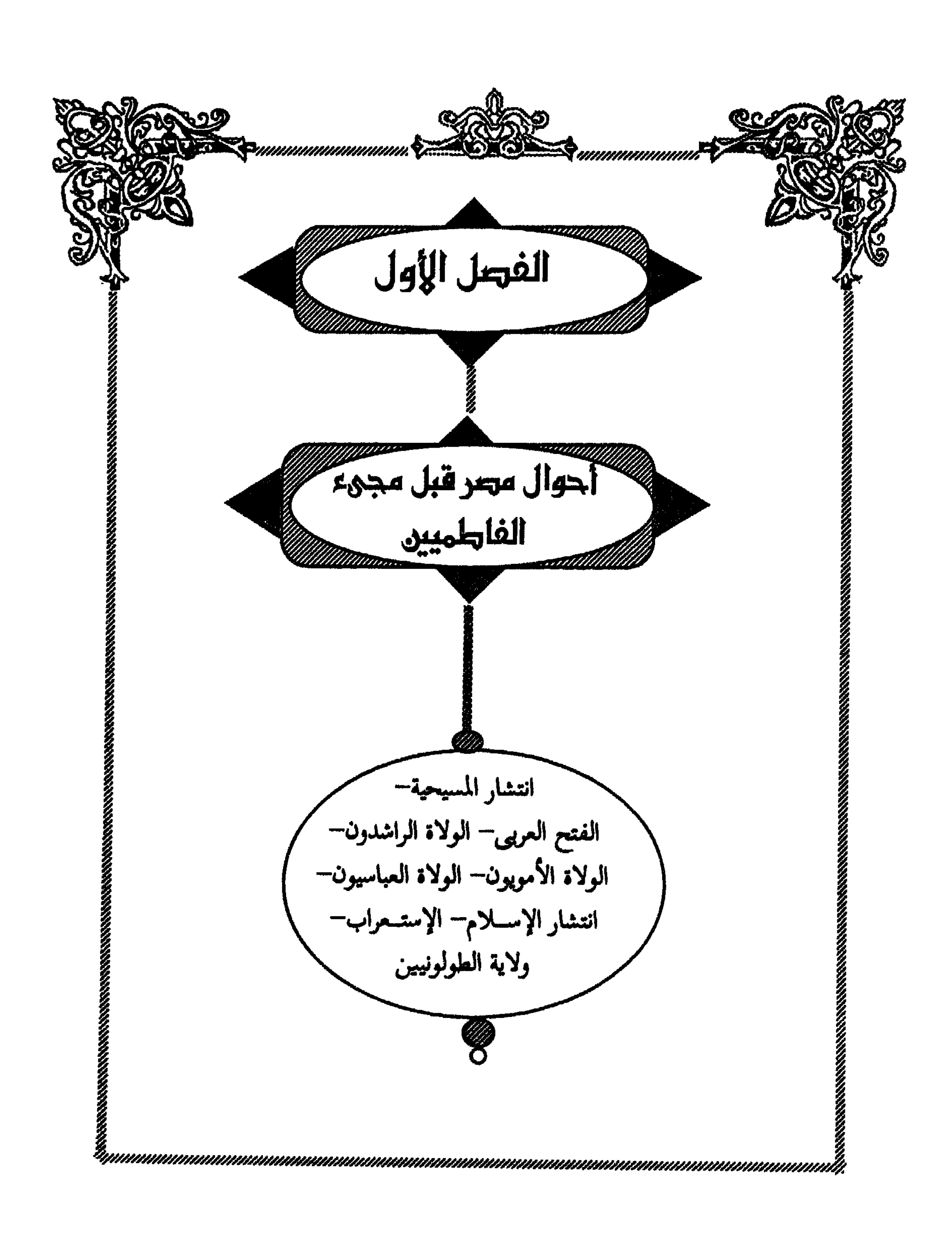
(٣) فى جزأين ، ط . Paris ، ١٨٨١ - ١٨٨٤ .

(٤) انظر. ماجد، ماساهم به المؤرخون العرب فى المائة سنة الأخيرة من دراسات فى التاريخ العربى وغيره، إشراف هيئة الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية، بيروت ١٩٥٩ (عن الفاطميين).

جدول بأسماء خلفاء الفاطميين في مصر

المعّز لدين الله .	٣٤١	معدّ أبو تميم	٩٥٢
العزيز بالله	٣٦٥	نزار أبو منصور	٩٧٥
الحاكم بأمر الله	٣٨٦	المنصور أبو على	٩٩٦
الظاهر لإعزاز دين الله	٤١١	علىّ أبو الحسن	١٠٣٠
المستنصر بالله	٤٢٧	معّد أبو تميم	١٠٣٥
المستعلى بالله	٤٨٧	أحمد أبو القاسم	١٠٩٤
الآمر بأحكام الله	٤٩٥	المنصور أبو علىّ	١١٠١
الحافظ لدين الله	٥٢٤	عبد المجيد أبو الميمون	١١٣٠
الظافر بأمر الله	٥٤٤	إسماعيل أبو المنصور	١١٤٩
الفائز بنصر الله	٥٤٩	عيسى أبو القاسم	١١٥٤
العاضد لدين الله	٥٥٥	عبد الله أبو محمد	١١٦٠

سقوط الخلافة الفاطمية فى سنة ١١٧١/٥٦٧.



الفصل الأول

أحوال مصر قبل مجيء الفاطميين

انتشار المسيحية-
الفتح العربى- الولاة الراشدون-
الولاة الأمويون- الولاة العباسيون-
انتشار الإسلام- الإستعراب-
ولاية الطولونيين

أحوال مصر قبل مجيء الفاطميين

وقبل كل شيء يجب أن نعرف أحوال مصر، التي لم تكن عربية في الأصل أو مسلمة. فنعرف أن أهلها كانوا شعباً مسيحياً، تلقف المسيحية منذ ظهورها؛ وليس أدل على ذلك من قول الروايات المسيحية بأن أول من دعا لها في مصر هو القديس مُرْقص الرسولي[1]، أحد تلامذة المسيح، الذي جاءها في نحو منتصف القرن الأول الميلادي، ولكن الأسانيد التاريخية، مثل: مراسيم التعذيب- كما وردت في أوراق البردي[2] أيام الرومان- تدل على أن المسيحية انتشرت في مصر في عهد الامبراطور دسيوس "Decius"، الذي أصدر منشوراً في سنة ٢٥٠م، يطلب فيه من كل مصري أن يأخذ شهادة اختبار للعقيدة «Libellus»؛ بأنه قدّم قرباناً للآلهة الوثنية، مصدقاً عليها من لجنة من الموظفين انتشرت في أنحاء البلاد؛ وذلك بقصد منع المصريين من اعتناق المسيحية. ويظهر أن المسيحية انتشرت بصفة مؤكدة انتشاراً كبيراً في كل أنحاء مصر، في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوئل الرابع؛ وسمي عصر الأمبراطور دقلديانوس "Diccletianus" في مصر بعصر الشهداء[3]؛ لكثرة من عذب من المسيحيين المصريين. ويدل على انتشار المسيحية المبكر في مصر، أن الإسكندرية كانت إحدى كراسي[4] المسيحية الأربعة الهامة فيما بعد؛ وأن رئيسها اختص بلقب البابا[5] (الحبر الأعظم)، وهو اللقب الذي أخذه منه أسقف روما بعد ذلك.

---

(١) سعيد بن بطريق، تحقيق شيخو، ١ص٩٥س٥-٦؛ الخطط، ٤ص٣٨٠س٤ وما بعدها.
وهو المعروف للعرب باسم: مرقص الإنجيلي، وللأوربيين باسم سان مارك "Marcus"، قتل بالإسكندرية.

(٢) أنظر. Wessely: Les plus anciens Monuments du Cristianisme. écrits sur Papyrus. Te-xtes, éd et trad P.O, t XVIII 2pt, P. 340 sqq.

(٣) الخطط، ٤ص ٣٨٢ ص ٢٤ وما بعدها. يسميه دقلطيانوس.
أيضاً Milne : A History of Egypt under Romen Rule. London, 1924, P. 128; 212

(٤) الخطط، ٤ ص ٣٨٠ س ١١.

(٥) صبح، ٥ ص ٤٧٢. يسميه : الباب، بباءين موحدتين مفخمتين في اللفظ.

وقد اتخذت المسيحية فى مصر منذ انتشارها شخصية خاصة؛ إذ كان التعذيب الذى تعرض له المصريون المسيحيون، سبباً فى أن أوجد نظام الرهبنة الفردى أو الديرى، وهو نظام أساسه مسيحى، ظهر فى مصر قبل أى مكان آخر. فكان المصريون يهربون بعقيدتهم المسيحية إلى الصحارى؛ بحيث أصبحت الرهبنة المثل الأعلى للمسيحية المصرية؛ وينسب المؤرخون إلى الأنبا أنطون[1] (أنطونيوس الكبير) المصرى، أنه أول من بنى الديارات وجمع الرهبان بمصر. كذلك اعتقد المصريون فى الطبيعة [2] "Phusis" الواحدة للمسيح. وهو ماعرف بالأرثوذكسية أى العقيدة الصحيحة، وأيضاً اليعقوبية، نسبة إلى يعقوب البراذعى[3]، الذى بشر بها، وذلك على عكس غالبية المسيحيين فى ذلك الوقت، الذين قالوا بالطبيعتين الإلٰهية والبشرية للمسيح، وخلطوا العقيدة المسيحية بالفلسفة اليونانية السائدة.

، قد كانت الدولة البيزنطية، التى ورثت الرومان فى الشرق، وتحولت إلى

، حتى أن هذه العقيدة سميت

البيزنطى. فحاولت هذه الدولة

ة، تقريب وجهات النظر بين أتباع

هور(٥)، لكن دون جدوى. كذلك لجأت

إلى الشدة مع المصريين؛ بحيث أنها اضطهدت الأرثوذكسية، واستحلت قتل

---

(١) سعيد بن بطريق، ١ ص ١٣٧ س ٢٠-٢١؛ الخطط، ٤ص ٣٨٢ س ١٥-١٦
The Coptic Churches and Egyptian, Monasticism. Oxford, 1941,P : O'Leary. أنظر
317 sqq.

(٢) بمعنى أن الله اختلط ببدن عيسى اختلاط الماء باللبن.
سعيد بن، بطريق ، ١ص ١٩٥س ١٦ ، الرازى، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ٨٤.

(٣) سمى هكذا لأنه كان يلبس البراذع والثياب البالية المخرقة، وهو قس من أهل نصيبين. تاريخ النسطوريين، لمؤلف مجهول، نشر ترجمة Scher، فى (P.O.) ٧/٢ من ص ١٣١ (٤٩)؛ سعيد بن بطريق، ١ص١٩٥.

(٤) سعيد بن طريق، ١ص ١٨٣ ص ١٨؛ اعتقادات، ص ٨٤. الملك المقصود هو الإمبراطور مرتيان "Marcianus" . صبح ، ١٣ ص ٢٧٦. يقول مر كان.

(٥) عقد فى عام ٤٣١م. سعيد بن طريق، ١ص ١٥٥، ١٥٧.

المصريين وضربهم، وحتى إغراقهم فى البحر [1]، على يد قيرس"Cyrus" ، الذى أرسلته بيزنطة إلى مصر، وسماه المصريون المقوقس سخرية [2]. ومع ذلك بقى المصريون يعتقدون فى الطبيعة الواحدة للمسيح، وظلت الكنيسة المصرية قلعة وطنية ثابتة الأركان فى مقاومة المستعمر.

كذلك واكب انتشار المسيحية فى مصر حركة قومية. فقد جعل المصريون لغة عقيدتهم المسيحية، لغتهم المصرية القديمة، التى كانت قد حاربها المستعمر اليونانى والرومانى ثم البيزنطى، فبها كتب المصريون الأناجيل والتوراة، وذلك عكس المسيحيين الآخرين، الذين جعلوا لغتهم الدينية اليونانية أو اللاتينية. فكان انتشار المسيحية فى مصر، معناه عودة اللغة المصرية القديمة، التى اتخذت مظهراً أكثر تبسيطاً من الديموطيقية القديمة، وعرفت بالقبطية، آخذة اسمها من اسم مصر "Aigptioi" ، الذى هو تسمية يونانية الأصل؛ بحيث أن كلمة قبطى [3] كانت تدل على المصرى عند العرب، ولا تزال تدل على مسيحيى مصر إلى الآن. فكان المصريون منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومى، يتمثل فى ظهور اللغة القبطية[4] ، وما ظهر بعد ذلك من آداب وفنون، متأثرة بطابع الدين الجديد، ومعبرة فى جملتها عن شخصية مصر القديمة ،وبروز مؤثرات جمالية جديدة فى المعمار والنسيج، والأيقونه أختلفت عمّا يوجد فى الحضارة البيزنطية، وحتى فى الحضارة المصرية القديمة، فالأيقونة مثلاً فيها فن مبتكر يختلف عن رسوم مصر القديمة وتماثيلها. وبذلك يصدق قول المؤرخ "Saurat[5]" ، فى كتابه: «تاريخ الأديان»؛ بأن الشعوب قد تخلق الأديان.

فلما جاء العرب لفتح مصر فى سنة ١٨هـ/٦٣٩، وكان المصريون يئنون من الاحتلال البيزنطى الأجنبى، والاضطهاد لعقيدتهم، فإنهم مع ذلك، لم يقبلوا

---

(١) ساويرس بن المقفع، سير البيعة المقدسة (فى.P.O) ١/٢ ص ٤٩١-٤٩٢.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، تحقيق Torrey ، طبعة New Haven،١٩٢٠ ، ص ٧٢ س ٧٢. ربما تعنى القوقازى، وإن كان أصل تسمية المقوقس غامضة.أنظر .Ency de l'Isl, (art. Mukawkas) t3, P. 761 sqq.

(٣) أنظر . Ency de l'Isl, (art. Egpyte) t2 p.5;(art. Kibt) t2,p. 1048 qq

يذكر المقريزى وغيره انه اسم جد للمصريين. الخطط، ١ص ٢٨؛ صبح، ٣ص ٤١٣.

(٤) أنظر. بعده.

(٥) أنظر. Histoire des Religions, 2 éd. Paris, P. 14.: Saurat

كشعب أصيل أن ينتقلوا كسلعة من يد محتل إلى آخر. فقاوموا الفاتحين العرب في الفَرما [1] وعين شمس[2] وحصن بابليون[3] والفيّوم[4] والإسكندرية العظمى[5] - العاصمة وقتئذ- وحتى في القرى الكثيرة في منطقة الدلتا مثل [6]: طُوخ [7] وسُلطيس[8] ودَمسيس[9] وقَرطسا[10] وبَلْهَيْب[11] ودِمياط[12] ودميرة وأشمون وتنّيس[13]؛ بحيث إن العرب لم يستطيعوا فتح هذه القرى إلا بعد أن احرقوا المزارع وسَبَوْا أهلها[14]، واستمر جيش من سكان الدلتا يحارب سبع سنوات[15] أو اثني عشر عاما[16]؛ كما أن العرب كانوا يخافون من أن تنتفض مصر في أي وقت[17].

---

(١) عن هذه الفتوح: ابن إسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥هـ، ص ٤؛ Chronique de Jean, p 23 ؛ ابن عبد الحكم، ص ٥٨؛ الخطط، ١ص ٢٦٨-٢٦٩؛ معجم البلدان، ٦ص ٣٦٧-٣٦٨. مدينة على الساحل.

(٢) انظر. Chronique de Jean, P.212 :
Ency de l'Isl, (art . 'Ayn- Shams) 2 éd, t I, P. 811;
عنها : معجم البلدان، ٦ ص ٢٥٦.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ١ ص ٥١ س ٢.

(٤) انظر. Chronique de Jean, P. 228:230:232 ؛ ياقوت ، معجم البلدان، ٦ص ٤١٤-٤١٦.

(٥) معجم البلدان، ١ص ٢٣٤وما بعدها.

(٦) بعامة، انظر. ابن إسحق، ص ٣٦؛ الكامل، ٢ص ٣٩٧ س٤؛ ابن عبد الحكم، ٢ص ٨٣ س ٢-٤؛ معجم البلدان، ٢ص ٢٨٢؛
Chronique de Jean, P. 236.

(٧) قرية بالحوف الغربي . معجم البلدان، ٦ص ٦٧.

(٨) نفسه، ٢ ص ٢٨٢ س ٣.

(٩) قرية قرب سمنود. نفسه، ٤ص ٧٢.

(١٠) نفسه ،٧ ص ٥٥.

(١١) نفسه، ٢ ص ٢٨٢.

(١٢) ابن إسحق، فتوح مصر، ص ٨٠-٨١.

(١٣) نفسه، ٨٨؛ معجم البلدان، ٢ ص ٤١٩ وما بعدها.

(١٤) معجم البلدان، ٢ص ٢٨٢ س ٤. وذكر المصدر ذاته أن بعض السبي أرجعه عمر إلى أهله، بعد أن خرج الروم.

(١٥) الخطط، ١ص ٢٧٢ س ١٣. لا نتصور وجود جيش للمصريين قبل الفتح العربي، وربما أن الروم كانوا يجمعونهم وقت الخطر، مثلما كانوا يجمعون النوبيين «النوب» [عن هؤلاء، انظر الكامل، ٢ ص ٣٩٥-٣٩٧؛ صبح الأعشى، ١٣ ص ٣١٤]، فلما جاء الفتح العربي هب المصريون للدفاع عن وطنهم.

(١٦) انظر. Chronique de Jean, P. 236.

(١٧) ابن عبد الحكم، ص ١٧٥ س ١١.

ويظهر أن اغلب مؤرخى المسلمين لم يرضوا أن يذكروا هذه المقاومة إلا تلميحاً؛ حتى لا يظهر المصريون بمظهر المقاوم للمسلمين، وذلك لأن مصر فيما بعد تحول أهلها إلى الإسلام، واحتلت مركز الزعامة فيه. وعلى العكس ذكروا كثيراً أن المصريين عاونوا الفاتحين، بما كانوا يمدونهم مما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها[1]، ويصلحون لهم الطرق ويقيمون الجسور، لتسهيل تنقلات جيوشهم. ولكننا ندرك مقاومة المصريين للفاتحين مما ذكره المؤرخون عن مقاومة قرى مصر ومدنها، ومما وقع فيه المؤرخون المسلمون من الاختلاف عند معالجتهم مسألة يحبون الخوض فيها، وهى مسألة فتح مصر: وهل كان بصلح أو عنوة[2]، أو حتى هل كان للمصريين عهد، أو أن بعضها فتح بالسيف، وبعضها صلحاً[3].

وعلى كل حال تمكن العرب من إتمام فتح مصر فى عام ٢١هـ/٦٤٢، بسبب فتور مقاومة المصريين، وانسحاب البيزنطيين. وكرمز لفتح العرب لمصر، أنشأوا فيها معسكراً قرب حصن بابليون، سموه «الفُسْطاط[4]»–وهو اسم لعله من اللاتينية "Fossatum"، أو من العربية بمعنى الخيمة أو المدينة[5]– فسكنته قبائلهم من المهاجرين والأنصار فى خطط عرفت بخطط أهل الراية أو قطائع[6]، وسموه أيضاً «مصر»[7]، وذلك لوقوعه على الحدود الصحراوية، مثل: البصرة

(١) نفسه، ص ٧٢ س ١٦–١٧، ٧٣س٤؛ الخطط، ١ص ٢٦٣؛ حسن المحاضرة، ١ص ٥٢.

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٨٤–٩٩؛ الخطط، ٢ ص ٧٢ وما بعدها؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ص ٥٥ وما بعدها.

(٣) الخطط، ١ص ٢٦٧؛ معجم البلدان، ٦ص ٣٨٠؛ الذهبى، دول الإسلام، حيدر آباد ١٣٦٤ هـ، ١ص ٤.

(٤) معجم البلدان، ٦ص ٣٧٧ وما بعدها، هى تقرا أيضاً فصطاط وفساط وفستاط وفستاد. نفسه، ٦ ص ٣٨٠؛ الخطط، ٢ ص ٦٧. من معانيها أيضاً بيت من الشعر؛ الخطط، ٢ ص ٥٩.

(٥) ابن الحكم، ص ٩١ س ١٩؛ معجم البلدان، ٦ص ٣٧٩؛ الخطط، ٢ص ٧٦س١٢؛ صبح، ٣ص ٣٣٩ وما بعدها؛ انظر. بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة فريد أبو حديد، ط٢، القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٥٠؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ١ص ٤١.

(٦) الخطط، ٢ ص ٧٦ وما بعدها؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ١ص ٥٧.

(٧) الخطط، ٢ص ٧٦ س ١٢، ١٣؛
أيضا: Ency de l'Isl, (art Misr) t3, P. 590-591
عن هذه الكلمة : لسان، ٧ص ٢٤.

والكوفة، وإن عرفت أيضاً «بفسطاط مصر»[1]، أى بالاسمين معاً؛ ولقد أصبح هذا المعسكر مدينة عظيمة، حتى لما أقام الفاطميون عاصمتهم القاهرة[2]، فعرفت إلى وقتنا الحاضر بمصر القديمة. كذلك بنى العرب فى الفسطاط مسجدهم الأول، الذى عرف باسم قائد الفتح: عمرو بن العاص- ولا يزال يحمل اسمه إلى وقتنا- أو حتى باسم: تاج الجوامع، أو الجامع العتيق[3].

*

ولقد بقيت مصر بعد الفتح لمدة طويلة بعيدة عن حوليات مؤرخى المسلمين. فبعد الفتح لم تكن الخلافة الإسلامية فى الحجاز تهتم بمصر إلا من حيث إنها تنتج الحنطة أو القمح[4]، وورق البردى، الذى يكثر فى مستنقعات الدلتا والفيوم، وأنها تصنع النسيج، أو ما كان يعبر عنه وقتئذ بدق الطروز[5]، وهى الصناعة التى اشتهرت بها مصر منذ الفراعنة، وخصوصاً أن العرب قبل الإسلام، كانوا يستوردون منها النسيج المسمى القباطى[6]، نسبة للقبط، لكسوة الكعبة، والديباج[7] وهو الحرير. وكذلك اعتبرت مصر عند العرب خزانة أمير المؤمنين[8]- أى الخليفة- التى يحمل منها القوت والمال إلى جنده. وليسهل نقل خيرات مصر الكثيرة إلى عرب الحجاز، أعادوا حفر القناة، التى كان الفراعنة قد حفروها بين النيل والبحر الأحمر فحفرت فى ستة أشهر، وعرفت بعد الفتح

---

(١) الخطط، ٢ص ٦٢ س١٢.

(٢) نفسه، ٢ص ٥٩ س ١١-١٢. أحرقت الفسطاط فى عهد الفاطميين، نتيجة لمهاجمة الصليبيين، أو حتى قبل ذلك وقت هرب مروان إلى مصر. انظر. بعده.

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٩١-٩٢؛ ابن إسحق، فتوح مصر، ص ٥٢ س ٢٣.

(٤) سعيد بن بطريق، ٢ ص ٢٦-٢٧؛ انظر. Wiet ؛ Geschichte der Chalifen. Mannheim, 1846, I, P. 130 sqq.

(٥) الثعالبى، لطائف المعارف، تحقيق Jong ، ط Leyden ، ١٨٦٧، ص ١٧٦؛ انظر. Serjeant: Material for History of Islamic Textiles. Ars. Islamica, vol, 1x, 1942, p.65.

(٦) صبح الأعشى، ٤ ص ٢٧٩.

(٧) عن هذه الكلمة؛ انظر. Dozy ، Suppl, I, P. 421.

(٨) معجم البلدان، ٨ ص٧١،

العربى باسم خليج أمير المؤمنين(١). وفى أخبار يوحنا النقيوسى يقول إن العرب أجبروا المصريين على حفر هذه القناة، وأن هؤلاء تعذبوا كثيراً(٢). يضاف إلى ذلك أنه فرضت الجزية على الرءوس، والخراج على الأرض، وقرر على أهل القرى ضيافة العرب إذا مروا بهم(٣). ومع ذلك، فكثيراً ما كان الخليفة عمر بن الخطاب يعيب على عمرو فى كتاباته إليه(٤)، تراخيه فى إرسال مال مصر، ولما تولى عثمان بعد عمر، وعزل عمرو عن ولاية مصر، لم يهتم عثمان إلا بما يأتيه من مال مصر، وقال لعمرو(٥): «درّت اللقحة بأكثر من درّها الأول»، فأجابه عمرو: «أضررتم بولدها؛ إن لم يمت الفصيل». وكانت هذه الحالة- كما يظهر من وصف المؤرخين- أن جعلت شعب الحجاز، وكأنه يعيش على حساب شعب مصر.

وعلى النقيض من ذلك، فإنه خلال حكم هؤلاء الخلفاء الأوائل، تمتع المصريون بحريتهم الدينية، التى كانوا قد افتقدوها فى ظل الحكم البيزنطى. ففى أول حكم العرب، كتب عمرو للبطريرك بنيامين، الذى كان قد اختفى وسائر الأساقفة فى أثناء الحكم البيزنطى فى الصحراء والجزر(٦)، فعاد بنيامين إلى الإسكندرية بعد ثلاث عشرة سنة، فأمره عمرو بضبط أحوال الكنيسة القبطية(٧). كذلك لم يتدخل الخلفاء فى عقيدة المصريين الدينية، أو انتخاب بطاركتهم، بل انحازوا للأرثوذكسية، عقيدة غالبية المصريين؛ بحيث غلبت على كنائس مصر ودياراتها، وعاد كثير من القبط إليها بعد أن كانوا قد اضطروا إلى

---

(١) الكامل، ٢ص ٣٩٥س ١؛ الخطط، ١ص ١١٤-١١٥، ٣ص ٢٢٩ وما بعدها؛ حسن المحاضرة، ١ص ٦٨.

(٢) أنظر. Chronique de Jean, P. 254 .

(٣) حسن المحاضرة، ١ص ٦٣.

(٤) نفسه، ١ص ٦٤-٦٥. لما قامت السفن من الحجاز، قال عمر للناس: سيروا بنا، ننظر إلى السفن التى سيرها الله إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا. و كانت هذه السفن تحمل الحبوب إلى المدينة فى عشرين مركباً، وكانت حمولة المركب الواحد ثلاثة آلاف اردب. أنظر . ابن سعيد الأندلسى، ، الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط، مخطوط بدار الكتب، برقم ٢٧١٢ ،ورقة ١٥٣. الميناء هو ميناء الجار فى الحجاز.

(٥) الخطط، ١ص ١٢٧ س ٥-٦.

(٦) صبح ، ٩ ص ٣١٤؛ انظر. Chronique de Jean, P. 261 .

(٧) أنظر. ساويرس بن المقفع، سير البيعة، تحقيق Evetts (P.O.) ، ١/٢، ص ٤٩٦-٤٩٧؛ الخطط، ٤ص ٣٩٤.

الخروج عنها نتيجة لتعذيب البيزنطيين. كما أن عمراً ومن خلفه من الولاة، لم يمسوا إطلاقاً أموال الكنيسة القبطية، ولم يأخذوا الجزية من الرهبان ورجال الدين. لذلك بنيت في هذا العهد كنائس كثيرة مثل: كنيسة القديس مرقص[1] في الإسكندرية، ومارجرجس في الفسطاط. كذلك، لما كان العرب خالي الوفاض من الحضارة، فإنهم أبقوا الكتّاب القبط في الإدارة، وأحلوهم مكان البيزنطيين.

*

ولكن انقلبت حالة المصريين إلى السوء بانتقال الخلافة من الراشدين، الذين كانوا يقيمون في الحجاز إلى أسرة بني أمية، التي نقلت مركز الحكم إلى الشام، وأرادوا استغلال مصر في حروبهم ضد بني هاشم، فأسرعوا بالاستيلاء على مصر من واليها الهاشمي، على يد عمرو بن العاص، الذي عاد للتعاون معهم، بعد أن كانوا قد نبذوه في أيام عثمان. ومنذ أن استولوا عليها، اعتبروها فتحت عنوة، وأن أهلها عبيدهم، لهم أن يزيدوا عليهم ما يشاءون من المال[2]. بل إن معاوية أول خلفاء الأمويين، كان يعتبر الذين أسلموا من أهل مصر أشبه بالناس[3]، أما القبط فليسوا من الناس، والناس في رأيه هم العرب وحدهم. فكان يتولى حكم مصر من قبل الأمويين أولاد الخلفاء وإخوتهم والمقربون، حيث يعيشون فيها عيشة الخلفاء أنفسهم. ولم يعد يهتم ولاة الأمويين إلا بجمع المال، ومن يتولها، يمض إلى الإسكندرية عند بطريكها، ليحاسبه على المال الذي يفرضه على القبط، ويعتبره مسئولا عن جبايته[4]. فعاد الحال إلى ما كان عليه أيام البيزنطيين، وأصبح الناس يهربون إلى الصحاري.

كذلك انتقلت إلى مصر قبائل العرب في عهد الأمويين، ولا سيما في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي أسكن شرقي الدلتا في منطقة الحوف الشرقي بعض بيوت قيس[5]، التي انتزعت أراضيه من المصريين، ثم نزلت الصعيد

---

(١) الخطط، ٤ص ٣٩٤ س ١٦-١٧.

(٢) الكامل ، ٢ص ٣٩٧ س ٢٦.

(٣) الخطط، ١ص ٨٠س ١٨-٢٠.

(٤) ساويرس ، سير البيعة، تحقيق Seybold ، ٢/١ ص ١٢٦.

(٥) الخطط ١ص ١٢٨-١٢٩؛ الكندي، الولاة والقضاة، ص ٧٦.

والريف[1]. فكانت هذه القبائل العربية تقض مضاجع المصريين في القرى، وأعادت لهم ذكرى غزوات البدو لمصر في عصور الاضطراب في أيام الفراعنة. فكان هؤلاء البدو يستولون على الأراضي، ويقومون بالزرع، وتربية الخيول والإبل، أما من كان يسكن منهم الجبال والبراري، فكانوا يهاجمون الأديرة، ويقتلون الرهبان وحتى الراهبات[2]. وعلى الرغم من أن أحد الخلفاء الأمويين الصالحين، وهو عمر بن عبد العزيز أراد أن يمنع الظلم عن المصريين؛ بحيث أرسل إلى عامله في مصر يقول: فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً[3]، إلا أنه لما مات عمر عاد ولاة الأمويين إلى سيرتهم القديمة.

وزادت الأمور سوءا للقبط؛ بسبب تدخل الولاة الأمويين في حريتهم الدينية، وذلك على عكس سياسة التسامح في عهد الراشدين. ففي خلافة يزيد ابن معاوية، تمكن شخص من الملكانيين، لقاء دفع مبلغ من المال إلى الوالي، أن يأخذ تفويضاً بمقتضاه يتسلط على الأرثوذكسيين، وهم الغالبية؛ بحيث اضطر بطريرك هؤلاء إلى الاختفاء[4]. أما مروان بن الحكم، الذي تولى الخلافة بعد معاوية بن يزيد: فإنه كان فظاً مع المصريين، بسبب أنهم كانوا يميلون إلى ابن الزبير[5]، الذي قام بفتنة ضد الأمويين. كذلك أمر الوالي عبد العزيز أخو الخليفة عبد الملك، وكان يحكم في مصر، بضرب البطريرك بالسياط[6]، وهو أول من فرض على الرهبان الجزية، وجمع المال من الكنائس[7]، وكانوا معفَين منها، ومن بعده عبد الله بن عبد الملك طلب من البطريرك الكسندروس أن يدفع له ثلاثة آلاف

---

(١) ساويرس، سر البيعة، نشر يسى عبد المسيح وبر مستمر، القاهرة ١٩٤٣ ٣/١ ص٣٦؛ الخطط، ١ص ١٢٨، ١٣١.

(٢) ساويرس، نشر يسى عبد المسيح وغيره، ١/٢ س ٣٢؛ الخطط، ٤ص ٣٩٥.

(٣) الخطط، ١ص ١٢٥ص س ١٦-١٧.

(٤) ساويرس (P.O.)" ، ٥/٢ ص ٤-٥.

(٥) نفسه (P.O.) ، ٥/٢ ص ١٢-١٣.

(٦) نفسه (P.O.) ، ٥/٢ ص ٣٧.

(٧) الخطط ، ٤ص ٣٩٤ س ٢٥.

دينار[١]، وفى خلافة يزيد بن عبد الملك، كسرت الأصنام والتماثيل فى الكنائس[٢]، وفى زمن هشام، كان الولاة يضعون حلقة من حديد فى يد الرهبان[٣]، وكل من وجد بغيرها تقطع يده.

وعلى العموم، فى هذا العهد الطاغى، لم يستكن المصريون، ويذكر المقريزى أنهم كانوا متكبرين على عمالهم، ويعرضون[٤] عنهم. كذلك قاموا بثورات عارمة، عبر عنها المؤرخ نفسه، بقوله: «انتفاض القبط[٥]» وكانت أولى ثوراتهم الكبرى فى عهد هشام، بدأت فى قرية اسمها بَلْهيب، عرفت من قبل بمقاومة أهلها للفاتحين العرب. وقد عمت هذه الثورة الدلتا والصعيد، واستمرت من سنة ١٠٧/٧٢٥ إلى سنة ١٢١/٧٣٩، كون فيها المصريون الجيوش، التى حاربوا بها جيوش الخلافة الأموية، وفى إحدى المرات، أجبر المصريون العرب على الخروج من الدلتا، والتراجع بكل فلولهم إلى دمياط. ولكن الخليفة هشاماً أرسل نحوهم حنظلة بن صفوان فى سنة ١٢٢/٧٢٩، فتمكن من القضاء على ثورتهم، بعد أن استعمل القسوة الشديدة، وقتل أناساً كثيرين من القبط. ومع ذلك، لم تخمد ثورات المصريين، واستمرت إلى أن سقطت دولة الأمويين، ولما هرب مروان بن محمد آخر خليفة اموى، حاربه أهل مصر فى سمنود ورشيد[٦] وغيرها؛ فقبض على البطريرك[٧]، وأحرق القرى والفسطاط عاصمة البلاد فيما عدا جامع عمرو[٨]، ولقيت مصر منه الأمرين. وقد قتل مروان فى مصر فى ظروف غامضة، وربما يكون قتله على يد المصريين، وبذلك قضى على الخلافة الأموية فى مصر.

*

---

(١) وردت فى أوراق البردى، انظر. Loc. Cit, P.51,113.: Cheira ، بردية برقم: P. London, IV,1363

(٢) الخطط، ٤ص ٣٩٥ س ٦؛ ساويرس (P.O.) ، ٥/٢ ص ٧٣. هى الحركة التى ذاعت فى بيزنطة ، باسم: الحركة اللاايقونية، أى منع عبادة الصور المقدسة.

(٣) نفسه، ٤ص ٣٩٥ س ٢/٦؛ نفسه (P.O.) ، ٥/٢ ص ٦٧.

(٤) الخطط، ٢ص ٨٤ س ١٦، ٤ص ١٥١ س ١٠-١١.

(٥) نفسه، ١ص ١٢٧ وما بعدها.

(٦) نفسه، ١ ص ١٢٨ س ١-٢، ٤ص ٣٩٥

(٧) نفسه، ٤ ص ٣٩٥ س ٢٥

(٨) ابن المقفع، تاريخ، تحقيق Evetts فى P.O. V, Fasct, P 168

ولما سقطت الخلافة الأموية، وجاءت الخلافة العباسية، حكمت مصر بالشدة ذاتها التى حكمتها بها الدولة الأموية، ولم تتحسن أحوالها على يد الخلافة الجديدة. ومع أن هذه الخلافة العباسية جاءت على أساس الحركة التى عرفت بالشعوبية[1]، أى نصرة الشعوب واحترام حقوقها. وكان المصريون بين الشعوبية، وعرفوا فيها بالفراعنة؛ فقد بقى استغلال الولاة، وزادوا فى الخراج وضاعفوه، وأوجدوا ما يعرف بالالتزام أو قبالات الأرض، وذلك بالتزايد عليها لقاء ضمان الخراج، فى مدة معينة، ومن يقع عليهم التزايد يسمون: الضُمّان أو المتقبلين[2]. كذلك نجد عاملاً للخراج فى مصر اسمه: أحمد بن المدبِّر، يبتدع فى مصر نظاماً مالياً عرف باسم الهلالى[3]، وهو غير ضريبة الخراج؛ لأنه كان يجبى على حسب الشهور القمرية، على عكس الخراج الذى يجبى على حسب السنة الشمسية، فكان يفرض على كل شئ فيما عدا الهواء. ولكى تتأكد سيطرة الخلافة العباسية فى مصر، بنيت بجوار الفسطاط مدينة «العسكر» أو «المعسكر»[4]؛ لتكون معسكراً للجند العباسية.

وليس أدل على سوء حالة مصر فى ظل الحكم العباسى الأول، من كثرة ثوراتهم التى تشابهت مع ثوراتهم فى عهد الأمويين، بعضها كان يكتب النصر فيه للقبط. ففى سنة ٧٦٧/١٥٠، أخرجوا العامل العباسى[5] ، وقتلوا كثيراً من المسلمين. ولكن لما ثاروا ببَلْهَيب فى سنة ٧٧٣/١٥٦[6]، أرسل نحوهم عسكراً هزمهم. وكانت أكبر ثوراتهم، هى تلك التى كانت فى أيام المأمون، الذى أرسل فى أول الأمر قائده المشهور أفشين[7]، ثم أتى الخليفة بنفسه إلى مصر فى سنة

---

(١) عن هذه الحركة بتفصيل: ابن عبد ربه ، العقد الفريد، القاهرة ١٢٩٣هـ، ٢ص ٨٥ وما بعدها؛ لسان العرب، ١ص ٤٨٣؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art Shu' ûbîya) t 4, 410.

(٢) الخطط ، ١ص ١٣١-١٣٢.

(٣) نفسه ، ١ص ١٦٧ س ٨ وما بعدها.

(٤) نفسه، ٢ص ٨٩.

(٥) نفسه، ١ص ١٢٨ س ٦.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ١ص ١٢٨ ، ١٣٠.

٨٣٢/٢١٧، وعمل على إطفائها، فقتل عدداً كبيراً جداً من القبط، فى الدلتا والصعيد، وحاربهم فى أدنى قراهم، وتبع ذلك اضطهاد كبير للقبط، وحولت كنائسهم إلى مساجد، وألبسوا العلامات المميزة « الغيار».

ولما فقد العباسيون ثقتهم فى الفرس منذ هرون الرشيد، مع أن دولتهم قامت على أكتافهم-بنكبة وزرائهم البرامكة- ثم إنهم أسقطوا حق العرب فى الجندية منذ زمن المعتصم، واستخدموا عناصر الترك، التى يجلبونها من وسط القارة الأسيوية، وجعلوهم فى الجيش والولايات[1]. فكان الولاة العباسيون، من الترك فى مصر يعتمدون على الجيوش من غير العرب «العجم والموالى[2]» وأوقفوا هجرة العرب إلى مصر، وحاربوهم[3]، وكتموا أنفاسهم[4]. وعلى العكس، وجدنا بعض الولاة الترك يتحببون قليلاً للمصريين، فأعادوا لهم بعض ممتلكاتهم، وسمحوا لهم ببناء الكنائس.

*

والواقع بقى المصريون منذ الفتح العربى وقتاً طويلاً محتفظين بدينهم ولغتهم. ولكن منذ حكم الخلافة العباسية، وحتى قبل ذلك، حدثت ظروف كثيرة جعلت أهل مصر الأقباط يقبلون على الإسلام وتعلم العربية. فكان هذا التحول للإسلام والاستعراب حاسماً فى تاريخ مصر، بدأت به فترة جديدة تختلف فى طابعها عن الطابع الفرعونى والمسيحى السابق. والذى جعل هذا التحول هاماً، هو أنه وقع فى وضح التاريخ، وأننا مازلنا نعيش فيه، فى ظل الإسلام والعروبة. حقاً إن التحول لدين العرب ولغتهم، لم يكن فى مصر وحدها، وإنما كان بالنسبة لبلاد أخرى، شملها الفتح العربى؛ مما كان سبباً فى إيجاد تقارب بين مصر وبينها.

ومع ذلك، فإنه طوال العصور الوسطى بقى المصريون يعرفون باسم المصريين، وكلمة عربى تعنى بالخصوص سكان الجزيرة العربية والشام

---

(١) نفسه، ١ص ١٥١ س ٢٦، ٢ ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) نفسه، ١ص ١٥٢ س ٦.

(٣) نفسه ١، س ١٢٩؛ الكامل، ٥ ص ١٠٧.

(٤) الكندى، الولاة، ص ٢٠١.

والعراق، ولاسيما البدو فى مصر. وعلى العكس، فإن كلمة مسلم شملت المصريين والعرب، وحتى شعوب الفرس والترك؛ ممن كانوا يعيشون فى ظل حكم الخلافة الإسلامية، ولو لم يكونوا من المسلمين. أما فى وقتنا؛ فإن كلمة عربى، لا تعنى جنساً معيناً أو ديناً معيناً، وإنما بالأولى اتجاها جغرافياً ولغوياً، تشمل البلاد التى كان فتحها العرب من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى، وتتكلم العربية.

وكان تحول المصريين إلى الإسلام هادئاً ذاتيًا، وليس عن طريق إرسال الرسل والتلاميذ والمبشرين، ولم يتبعه تضحيات واستشهاد، كما حدث عند اعتناق المسيحية. كذلك كان دخول المصريين فى الإسلام، أسرع من دخولهم فى المسيحية؛ بحيث إن مصر، كانت من أكثر الأقاليم التى فتحها العرب إقبالا على اعتناق الإسلام. فيعترف يوحنا النقيوسى، وهو قبطى متعصب، عاصر فتح العرب لمصر، أن كثيراً من القبط تركوا المسيحية، ودخلوا فى الإسلام، ويتهم من دخل منهم الإسلام بأبشع التهم[1] ؛ ويقول: من فرحة من دخل الإسلام منهم، وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار، إذا حلت رباطها، وأطلقت على ألبان امهاتها، كذلك يقول ابن إسحق[2]، وهو من أوائل المؤرخين العرب، وصاحب كتاب: فتوح مصر، إن كثيراً من كبراء مصر دخلوا فى الإسلام، وأن بعض الأساقفة– أى كبار رجال الدين المسيحى– اعتنقوه، بعد عكوف على النظر فيه. وحتى حيان، عامل عمر بن عبد العزيز فى مصر، يكتب إلى خليفته يقول: إن أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام.[3] ومن الإحصائيات عن ضريبة الجزية، التى فرضت على القبط، نجد انه بعد أن كان دخلها بالملايين فى أيام الفتح الأولى[4]،

---

(١) انظر .Evêque, P. 233-234 .

(٢) ابن إسحق ، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥هـ ، ص ٥٢ ، ٥٨ .

(٣) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبيرة، تحقيق Sachau ، ط. Leiden ، ٥ص ٢٨٣ س ١٥ ؛ انظر. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وغيره، القاهرة ١٩٤٧، ص ٩٣؛ ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ط ٧، ٢ س ٢٦٥ . كذلك يقول المؤرخ التركى الكافيجى (ت٨٧٩/١٤٧٤) لا نعلم جماعة أسلموا أكثر من جماعة القبط. تاريخ ، تحقيق روزنتال، ص ٣٧.

(٤) الخطط، ١ ص ١٢٧.

تناقصت سريعاً؛ حتى لم تزد على مائة وثلاثين ألفا في عهد الفاطميين[1]، وأصبحت تسمى جوالي بدل جزية، لأن القبط في عهد هؤلاء أصبحت جالية صغيرة. بل لدينا برديات تفيد أن القبط اختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين؛ وكما يقول المقريزي، لنكاحهم المسلمات[2]. كذلك يوجد في المتحف القبطي سراج من البرونز، على قمته هلال يحتضن صليباً من القرن الثالث عشر الميلادي. بل يقول أبو صالح الأرمني، وفي أعراس المسلمين وأفراحهم يحضرها النصارى ويمشون قدام العريس في أسواقها وشوارعها، وصار هذا عندهم عرفاً وعادة مستقره إلى عصرنا[3].

ومن الجديد بالذكر أن إسلام المصريين كان في أعلى درجاته. ولدينا كتب عن وفيات فقهاء مصر من ابن الحبال[4] (ت٣٨٢/٩٩٢) بعنوان: وفيات المصريين، ومن ابن الطحان[5] (ت٤١٦/١٠٣٥): تاريخ علماء أهل مصر يتناول فيه علماء السنة الذين توافدوا على مصر وينتمون إلى جميع أقاليمها وقراها في البلاد المصرية في الوجهين البحري والقبلي. فنجد من بينهم فقهاء من الطبقة الأولى من التابعين وربما من الصحابة[6]. كذلك، جاء مصر ثلاثمائة ونيف من الصحابة[7]؛ كما أنه من المعروف أن أصحاب الكتب الستة المشهورة في السنة وهم: البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه زاروا مصر. بل كان للمصريين أنفسهم باع كبير في رواية الحديث والفقه، وكان من الممكن أن يكون لهم مذهب خاص بهم هو المذهب الخامس؛ ليضاف إلى المذاهب الأربعة، لولا أن مصر لم تكن مهد الإسلام، فتحدثنا أوراق البردي[8] التي وجدت في

---

(١) نفسه، ١ص ١٧٣ س ٨ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ ص ١١٩-١٢٠.

(٢) الخطط ، ١ ص ٨٢

(٣) الكنائس، ص ١٢٩.

(٤) نشر صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية ،المجلد ٢، الجزء ٣، نوفمبر ١٩٥٦، ص ٢٨٦ ٣٣٨.

(٥) مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٧٨، مجاميع ٢١٣.

(٦) السيوطي، حسن المحاضرة، ١ص ١١٨ وما بعدها. أبو رافع مولى رسول الله من القبط، شهد غزوة أحد توفي بالكوفة سنة ٤٠/ ٦٦٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق الأنباري، ٢ص ٨-٩. كذلك روى عن ابن عباس خمسة عشر نفساً من أهل مصر ، سير الأعلام ، تحقيق أطلس ، ٣ ص ٢٢٦.

(٧) السيوطي، حسن المحاضرة، ١ص ١٦٦ وما بعدها.

(٨) أنظر خوري، الثقافة في القرون الثلاثة الهجرية، ندوة البردي الأولى في مصر عام ١٩٨٠.

مصر عن نتاج الفكر المتميز فى الدين الإسلامى، الذى اعتبر أساس نتاج الفكر الإسلامى بعامة ورصيداً له، اعتمد على العقل فى استخراج الأحكام الشرعية على غير ما كان يوجد فى أى بلد اسلامى آخر. فقد قال سفيان الثورى عن عبد الله بن لهيعة المصرى، إن عنده الأصول وعنده الفروع، كما أن الشافعى نفسه (ت٢٠٦/٨١٩)[1]، أحد الأئمة الأربعة الكبار، وواضع أصول علم الفقه الإسلامى، جاء إلى مصر ودفن فيها، ووجد له من بين المصريين أتباعاً كثيرين، وقال عن الليث بن سعد المصرى: الليث أفقه من مالك؛ إلا أن أصحابه ضيعوه، لأنهم لم يدونوا فكره. وحتى عبد الله وهب المصرى[2] له كتاب: الجامع فى الحديث، مكتوب على ورق البردى. بل كان للمصريين باع طويلة فى القراءات، فظهرت طريقة ورش، أحد أصحاب القراءات السبعة. وقد تنبأ النبى العربى بقيمة مصر الإسلامية للمسلمين، فظهرت أحاديث نبوية كثيرة تدعو إلى معاملة المصريين بالحسنى[3].

ونستبعد أن يكون تحول المصريين للإسلام جاء عن طريق الاندماج والتزاوج، واختلاط الأنساب؛ بحيث إن الشعب المصرى ذاب فى الجيش العربى، أو العرب الذين وردوا مع الفتح. فكل الدلائل تدل على أن الشعب المصرى، لم يفقد كيانه بالفتح العربى: فالجيش العربى الذى غزا مصر كان عدده لا يزيد بعد أن جاءته الإمدادات على عدة آلاف[4]، أما عدد رجال مصر وحدهم-دون الصبيان والنساء- بناء على قول ابن عبد الحكم، فقد كانوا أكثر من ستة ملايين[5]. كذلك

---

(١) حسن المحاضرة، ص ١٢١ وما بعدها. عنه؛ انظر . وفيات ، ص ٣١٤؛ وما بعدها.

(٢) حسن المحاضرة، ١ص ٤٨٥. نشره Weill ، القاهرة ١٩٣٩.

(٣) من أقواله (ﷺ): « استوصوا بقبط مصر ، فإنكم تجدون منهم نعم الأعوان على عدوكم»، وأيضاً: « القبط أكرم الأعاجم، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحما للعرب عامة، ولقريش خاصة». انظر، أبو صالح ٢٨ب، ص ٣٧ ما بعدها.وقال أيضاً: إذا دخلتم مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لكم منها نسباً وصهراً، واتخذوا بها جنداً كثيفاً؛ فإن ذلك خير جنود أهل الأرض، وهى كنانة الله فى أرضه، من أراد بها سوءاً قصمه الله. وقال: من آذى ذمياً كنت خصيمه يوم القيامة.

(٤) تبلغ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف وخمسمائة. ابن الحكم ، ص ٥٦ س ٦. وقد اختلف فى عدد المدد الذى جاءه بعد ذلك، فقيل أربعة آلاف، وفى رواية أخرى اثنا عشر ألفاً، وأنه جاء تباعاً. حسن المحاضرة، ١ص ٥٦ س ٩ ؛ معجم البلدان، ٦ص ٣٧٨. عن ذلك ، انظر . ماجد التاريخ السياسى ، ط ٧، ١ص ٢١٨-٢١٩ وهامش.

(٥) ابن عبد الحكم، أخبار فتوح مصر، نشر Torry ، ص ٧٠؛ الخطط ،١ص ١٢٢.

يقول إن عدد القرى في مصر في عصر ولاة الأمويين عشرة آلاف قرية، في أصغرها خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية[1]. حقاً لقد هاجرت إلى مصر قبائل عربية في أيام الأمويين، على الأخص بعض بيوت قيس الكبيرة[2]؛ إلا أن هؤلاء كان أغلبهم يعيشون كطبقة أرستقراطية، لا تختلط بالمصريين؛ كما أن معظمهم سكنوا الصحارى التي تحيط بمصر، واحتفظوا بظروف معيشتهم الصحراوية. يضاف إلى ذلك أن المقريزى يذكر أن العرب في نهاية حكم الأمويين لم يزد عددهم في مصر على ثلاثة آلاف بيت[3]. وقد كان من تقاليد العرب منع الزواج من الفلاحين في مصر، وبقى ذلك إلى وقت قريب في عصرنا الحديث.

ومن ناحية أخرى، لا نظن بأن المصريين أسلموا بسبب الرغبة في تفادى المعاملة السيئة، التي عامل العرب بها غير المسلمين، أو رغبة في التهرب من دفع الجزية، أو لاكتساب مركز أدبى معين[4]؛ حيث يحاول كثير من المؤرخين أن يجعلوا من هذه المنافع المادية العامل الأول في تحول المصريين للإسلام. حقاً إن هذه الأمور، قد يكون لها أثرها في بعض النفوس؛ ولكن لا يمكن أن تكون هي السبب في تغيير إيمان أمة بأكملها. وقد رأينا في العصر المسيحى، صورة واضحة تدل على تضحية المصرى في سبيل العقيدة.

ولا ريب أن الذى دعا إلى تحول المصريين إلى الإسلام ظروف متعددة: فنعرف أن المصريين عاشوا بدينهم الفرعونى الأول فترة طويلة تبلغ آلاف السنين. ولما احتلهم اليونان ومن بعدهم الرومان، لم يكن المصريون راضين عن دينهم؛ لأن المحتل مسخه بإدخال عبادته فيه؛ فكان الإمبراطور الرومانى يجبر المصريين على عبادة آلهة الرومان. فلما ظهر المسيح أو يسوع- وهذه كلمة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٦؛ حسن المحاضرة ، ١ص ٦٤ س ١-٢.

(٢) الخطط، ١ص ١٢٨؛ انظر .قبله.

(٣) نفسه، ١ص ١٢٩ س ٨.

(٤) ساويرس (P.O.) ٢/٥ ص ٧١-٧٢.

سـريانية تعنى المخلّص- ودعـا الشـعـوب التى تحت حكم الرومـان إلى دين جـديد، أقبل المصـريون عليه. ولعل سـبب إقبالهم، هـو أن المسيـحيـة لم تكن غريبة عـليهم كلية؛ فكـثير من تعـاليمهـا معـروفة لهم فى دينهم القـديم، مثل: التثليث والـتعمـيد والحسـاب والعقـاب والآخرة. يضـاف إلى ذلك، أن الدين الجديد كـان يدعو إلى تآخى الشعوب، وأن المصريين كانوا فى حالة سيئة، بسـبب سوء معاملة الرومان، الذين حـرمـوهـم مـن حـقـوق المواطنين. ومع ذلك؛ فـإن الدين الجـديد كـان مـضطربا فى إيمان مـعـتنقـيه المصـريين من أول ظهـوره، بسـبب خلـطه بالفلسـفـة الأفـلاطونية الحديثة؛ بقـصد إيجاد تقارب بين الإيمان والعـقل، يظهر ذلك من المناقشات الـعنيفة التى وقعت فى مـجامـع: خلقـيدونية ونيـقية وأفـسس. لذلك لما جاء الإسـلام بدعوة إلى الإله الواحد المجرد، فإنها قربت عقيدة الدين إلى العقول المتعطشة للحقيقة.

وفوق ذلك، جاء الإسـلام بمبادئ ساحرة خلابة، منها على الخصوص صلة العـبد بخـالقـه، بأن تكون مـباشـرة بدون وسـيط؛ أى بدون رجل دين. وهذا المبدأ -فى رأينا- يعـتبر نقطة تحول هامـة فى تاريخ الأديان؛ غيّرت من تصور العـقول للأديان، لأن الأديان كلها تجـعل من رجال الدين أساس القيام بطقوسه. فهو مـبدأ جديد؛ يحمل للإنسان حرية أكبر؛ وليس من الإسراف أن نقول إن الإسلام يشعر دائمـاً الذى يعـتنقـه بالعـزة والكـرامة. ثـم هـو دين يتـلاءم مع البيـئـات التى ينتـشـر فيها، ويتناسـب مع الأمـزجة والأذواق؛ إذ الإسلام ليس بدينٍ صرف، وإنما هـو دين وثقافة ومـجـتمـع وسـياسة، وهـو ينص على ألا توجد تفرقـة عنصرية بين البشر؛ فيتوجه فى آياته الكريمة بالخطاب إلى الإنسـان مباشـرة، فيقـول: إيها الناس؛ كـما حض على حسـن العـلاقـة بين البـشـر جـمـيـعـا؛ «..وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» ؛ وحـتى العـلاقـة بين الرجـل وزوجـتـه فـيـهـا مـودة «و جعلنا بينكم مودة» .

أضـف إلى ذلك أن العـقيـدة المسـيـحيـة فى مصـر لم تكن قـد دخلت فى قلوب كثير من المصريين، بسبب هـروب رجـال الدين فى الصـحارى والجزر؛ مما جعلهم يجهلون تفاصيلها، ولا يقومـون بطقوسها، ولطول الاضطهاد فى عصـور الرومان الوثنيين، والبيزنطيين الذين كـانوا على عقيدة مسيـحية مخالفة لعـقيدة المصريين

المسيحيين؛ مما أضعف من الدين المسيحي في مصر، وجعل حياة المسيحيين في القرى-وهم غالبية سكان مصر- في غاية الفوضى. كذلك لم يتأكد الدين المسيحي في كل القلوب المصرية؛ إذ كان يحتاج إلى وقت كاف، وهذا لم يتيسر له: فالمسيحية انتشرت-كما ذكرنا- في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل الرابع، والإسلام ظهر في أوائل القرن السابع، أي أن المدة التي بقي فيها المصريون نصارى، لم تتعد ثلاثة قرون، وهي غير كافية لترسيخ دين. فضلاً عن قلقه في خلال هذه المدة في قلوب الكثيرين، وجهلهم به.

وأخيراً، فإن الطبيعة الواحدة في النصرانية المصرية قد تتوافق في معناها الضيق مع الوحدانية الإسلامية. وفوق ذلك، فإن الإسلام يجد أن أقرب الناس إليه هم النصارى؛ فوجد المسيحيين في مصر أقرب الناس إليه. وفي الواقع أن الإسلام بعامة له ميزة بأنه لم يقطع صلته بالأديان السماوية الأخرى وجعلها جميعاً متصلة؛ بحيث اعتبر آخر الأديان السماوية، فهو يعترف باليهودية والمسيحية، بل بأديان أخرى غير سماوية مثل الهندوكية والكونفشوسية والمجوسية، واعتبرها ديانات شبه سماوية، وذلك على عكس المسيحية التي كانت في صراع شديد واختلاف مع عقيدة الطبيعة الواحدة المصرية. هذا بالإضافة إلى أن المسيحية أساساً دين فيه بذور يونانية ولاتينية، على عكس الإسلام، الذي هو دين شرقي صميم، والمصريون منذ أن حكمهم البيزنطيون -وهم يونان في أغلبهم- أصبحوا يكرهون كل ما هو يوناني، أو على الأقل يبتعدون عنه.

*

وقد ترتب على تحول المصريين للإسلام تركهم لغتهم القبطية[1]، وإقبالهم على لغة العرب؛ مع أنهم قاوموا كثيراً للاحتفاظ بلغتهم القومية طوال عهود الاحتلال: اليوناني والروماني والبيزنطي، ولا سيما هذا الأخير الذي كان يجبر الموظفين المصريين على تكلم اليونانية، التي جعلتها بيزنطة لغة البلاد

(١) أساسها اللغة الديموطيقية القديمة، وهي لغة التخاطب الدارجة السابقة عند المصريين؛ وكانت تستخدم في الكتابة الدينية في المعابد المصرية؛ ولكن القبطية تكتب بحروف يونانية بعد إضافة سبعة حروف أخذت من الديموطيقية، لتمثل النطق غير الموجود في اليونانية، ومجموعه ٣١ حرفاً، أي ٢٤ حرفاً من اللغة اليونانية.

الرسمية فى الدواوين الحكومية. بل كان تحول المصريين إلى المسيحية بالذات، سببا فى انتعاش اللغة القبطية، التى هى أكثر تبسيطا من الديموطيقية، وإن دخلتها حروف يونانية،كما واكبتها نهضة أدبية، تمثلت فى ظهور أدب قبطى زادت بعد الفتح العربى، بسبب أن العرب لم يشجعوا استعمال اليونانية.

وكان العرب يسمون عموما لغة المصريين وخطها بأسماء عديدة غامضة، مثل[1]: قلفطيريات، مسند، برابى، برباوية، قلم الطير، القلم المجهول، ولا نعرف سبب تعدد تسمياتها الذى قد يعنى عندهم تطورها على مدى الزمن، مثلما نقول هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية، أولعلها للدلالة على اللهجات القبطية التى منها الصعيدى والبحيرى والشمورى ودمياطى؛ وإن كان الأصل فيها هى لغة واحدة[2]؛ ولدينا عنها قاموس[3]، أو فى مخطوطات فى الأديرة. فبالأولى؛ فإن القبطية ليست لغة بقدر ما هى أدب وسياسة وفكر.

ومع أن العرب تركوا المصريين فى الدواوين-وهى الإدارة- يكتبون بلغتهم القبطية؛ حيث لدينا مجموعات بردية[4] كثيرة مكتوبة بها، وباليونانية لغة الحاكم البيزنطى السابق، تختص بالأموال وغيرها. ولكن من عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، جعلت اللغة العربية بحكم أنها لغة القرآ ن المقدسة، ولغة الفاتح، اللغة الوحيدة فى الدواوين[5]. وقد كان موقف المصريين فى أول الأمر موقف

---

(١) الخطط، ١ص ١٢١؛ انظر. Quatremère :
Recherches critiques et historiques sur la langue et la littérature de l'Egypte. Paris, 1808, P. 269; 271; 283.

(٢) انظر Kasser : Les Dialectes Coptes .B.I.F.O. Le Caire 1973, P. 72 sqq.

(٣) مضمنة على الخصوص فى قاموس أسناسيوس القوصى، من القرن الحادى عشر الميلادى، انظر. Quat : Recherdes critique et historiques 1808 P. 20-21

وأيضاً: Kasser : Dictionnaire auxiliatre, ètymologique et Complet de langue Copte. Genêve 1967.

(٤) البردى هو المادة المستعملة قديماً للكتابة، ومنها اشتقت الكلمة الدالة على الورق فى العصر الحديث فى أوربا. انظر. بخصوص المجموعات البردية Cheîra :
La documentation papyrologique arabe. Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant l'Egypte. Alexandiria, 1948.

جروهمان، أوراق البردى العربية بدار الكتب، ترجمة حسن إبراهيم، القاهرة ١٩٥٣.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٩٢.

المعارضة للتعريب فى عهد هذا الخليفة؛ فاستمروا يكتبون بالقبطية، ولم يرضوا أن يكتبوا بالعربية، على الرغم من أوامر الخليفة. كما لم يستطع الوليد، الذى تولى الخلافة بعد عبد الملك، تعريب دواوين مصر؛ إلا بعد أن أتى بشخص من الشام[1]؛ ولقد وصلنا من عهد الوليد أول بردية مكتوبة بالعربية.

ومنذ ذاك، أقبل القبط على تعلم العربية؛ بحيث نقرر أن انتشار الإسلام، كان هو العامل الأساسى فى انتشارها؛ ولا سيما أن اللغة القبطية لم تكن غريبة عن اللغات السامية: فاللغة القبطية، التى هى اللغة المصرية، فيها أصول سامية فى كلماتها؛ كما أن كثيراً من الحروف السامية توجد فيها، مثل: ح غ خ [2]. ومع ذلك، فإلى عصر المأمون العباسى، لم تكن اللغة العربية قد انتشرت على نطاق واسع، فهو حينما جاء مصر، كان يمشى فى قراها ومدنها والتراجمة بين يديه[3]؛ كما يقول المقريزى. ولكن بمضى الزمن اختفت اللغة القبطية، وأخذت العربية مكانها، ولم تقتصر على من أسلم، بل تعلمها القبط أنفسهم، الذين اضطروا إلى ترجمة الأناجيل والتوراة إلى العربية فى زمن[4] مبكر، وإن لم يكن القبط قد فعلوا ذلك، ما كانت عقيدتهم لتبقى؛ حيث إن نشر الدين والاعتقاد فيه، لا يكون إلا بلغة مفهومة، ولا سيما أن اللغة القبطية بعد الفتح العربى أهملت. ومع ذلك، بقيت الصلوات بالقبطية؛ وإن شرحت بالعربية، وهو تقليد لا يزال يوجد حتى الآن فى مصر[5]؛ وذلك مثلما يحدث فى كنائس أوربا: فتكون الصلوات باللاتينية، والشرح بلغات أهلها. يضاف إلى ذلك، أن اللغة القبطية استمرت وقتاً طويلاً فى الصعيد؛ كما أنها لم تنته منه إلى وقت المقريزى، أى

---

(١) الخطط، ١ص ١٥٨ س ١٢-١٣؛ انظر . ماجد، التاريخ السياسى، ٢ص ١٦٣ .

(٢) انظر : Polaik :

L'Arabisation de l'Orient Sémitique. R.E.I. 1936, P.I.

(٣) الخطط، ١ص ١٣١ س ٢.

(٤) لدينا فى المتحف القبطى مخطوطات قبطية وعربية، ظهرت منذ أن حلت العربية محل اليونانية فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى؛ وإن كان الموجود فيه من الأناجيل من القرن العاشر الميلادى من القرن الرابع عشر الهجرى، برقم ٩٢. انظر.دليل مختصر فى المتحف القبطى عام ١٩٦٤.

(٥) انظر. Quat : Recherches, P. 38 . اتخذ أحد بطاركة الأقباط العظام فيما بعد، وهو غبريال (١١٣١ - ١١٤٥م)؛ قراراً تاريخياً بأن قرر أن تعمّ اللغة العربية كل المصريين.

القرن ٨هـ/ ١٤م؛ حيث يقول إن نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية[١]، ويطلق على قبط الوجه البحرى البيما، وقبط الوجه القبلى المريس[٢]، وهما كلمتان غامضتان، ربما تعنيان اتجاهين جغرافيين. وتوجد فى المتحف القبطى مخطوطات عربية مكتوبة بحروف قبطية استعملها القبط ليتعلموا العربية؛ كما يكتب الأجانب عندما يكتبون العربية بحروف لاتينية للتمكن من نطقها[٣].

وفى الواقع أن مصر لم تكن وحدها فى هذا التحول من لغتها القبطية إلى اللغة العربية، وأن التعريب شمل معظم البلاد التى فتحها العرب، من المحيط الأطلسى حتى سور الصين. بل اجبرت لغات لا علاقة لها بلغات الساميين، مثل الفارسية التى أصلها آرى، على الاختفاء فى أيام الفتح الأولى، وبالتدريج تغيرت أبجديتها إلى الأبجدية العربية. وهذا ولا ريب، يدل على قوة اللغة العربية، لغة المنتصر، ولغة الدين الذى ساد، فضلاً عن انها اعتبرت وقتئذ أعظم اللغات حيوية وقوة.

فكانت اللغة العربية والدين الإسلامى هما سبب امتزاج شعوب المنطقة التى فيها مصر، وظهور الإحساس المبكر بالقومية العربية، لأن العرب أعطوا لغتهم ودينهم لمصر ولهذه الشعوب.

*

وعلى العموم، كان تحول المصريين للإسلام، سبباً فى دخولهم حوليات المؤرخين المسلمين، وقيامهم بدور هام فى تاريخ الإسلام، ولا سيما لما جاءها عامل اسمه: أحمد بن طولون[٤]، فى رمضان سنة ٢٥٤/سبتمبر ٨٦٨، وهو مملوك تركى نشأ فى البلاط العباسى، أرسله باكباك (أوبابك أو بقبق)، صاحب

---

(١) الخطط، ٤ص ٤١٧ س ١٨.

(٢) نفسه، ١ص ٢٠٧.

(٣) دليل مختصر عن المتحف القبطى عام ١٩٦٢، برقم ٢٥٢١.

(٤) عنه: ابن الداية(احمد بن يوسف) ، سيرة أحمد بن طولون، نشر شوقى ضيف وآخرون، القاهرة ١٩٥٤؛ البلوى (أبو محمد عبد الله)، سيرة أحمد بن طولون ، حققه محمد كرد علىّ، دمشق ١٣٥٨هـ، الخطط، ٢ص ١٠٤ وما بعدها؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art Ahmed B. Túlún) TI, P. 195-196; 2 éd t I, P. 287-8.

إقطاع مصر ليحكمها بالنيابة عنه؛ إذ كان زوج أمه، فلما قتل آل الإقطاع لياركوج (أو يارجوخ)[1]، الذى أبقى ابن طولون فى ولاية مصر وزوجه ابنته. وقد كان كلاهما من المسيطرين على الخلافة العباسية؛ إذ كان الخليفة العباسى واقعا تحت سيطرة قواده الأتراك، الذين كانوا يتنافسون عليه، ويؤثرون البقاء على مقربة منه فى سر من رأى (سامرا)، التى بنيت منذ المعتصم لتكون العاصمة بدل بغداد، خشية أن يدس لهم، بالإضافة إلى إمكان التنعم فى بلاط الخليفة؛ فيرسلون نواباً عنهم فى مصر أو فى غيرها، ليحكموها لهم.

فلما توفى لياركوج فى عام ٨٧٢/٢٥٨، طمع ابن طولون فى أن يحكم مصر لحسابه الخاص. ولم يكن من الممكن أن يستقل بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية، وهو فى ذلك مثل أى والٍ آخر من ولاتها، وإلا اعتبر خارجاً على السلطة الشرعية، وإنما كان يستطيع أن يجعل إمارته فى مصر إمارة استيلاء[2]، وبمقتضاها يصبح أميراً مسئولاً، خرج عن طاعة الخليفة، واستأثر بالإقليم لنفسه، فيكون تقليده صورياً على كره من الخليفة، الذى يقلده إياه حفظاً لهيبته، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية.

° وقد باشر ابن طولون إمارة الاستيلاء بأن بنى مدينة خاصة، عرفت باسم: القطائع[3]؛ فى سنة ٢٥٦/ ٨٧٠- أى بعد مجيئه مصر بسنتين- وذلك لأن لكل طبقة فى جيشه قطعة خاصة بها، وانشأ فيها جامعاً عرف باسمه أو بالجامع الجديد[4]، أو حتى بالجامع العلوانى، بينما جامع عمرو أصبح يعرف بالجامع السفلانى، بناه له مهندس قبطى فى ٨٧٣/٢٥٩؛ وذلك لأن الجامع الكبير الوحيد الذى يوجد فى مصر بناه عمرو بن العاص، لم يعد يستطيع أن يكفى جميع

---

(١) أنظر. ابن الأثير، الكامل، ٥ص ٣٦٧.

(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، تصحيح النعسانى الحلبى، مصر ١٩٠٩/١٣٢٧ ص ٢٧ وما بعدها.

(٣) الخطط، ٢ص ١٠٦ وما بعدها.

(٤) نفسه، ٤ص ٣٦ وما بعدها . بناه على جبل يشكر.

المصلين، لكثرة من أسلم من المصريين. ثم إنه اعتمد على عناصر جديدة فى جيشه غير الترك من المصريين والسودانيين «النوبة»؛ حتى بلغ عدد هؤلاء وحدهم اربعين الفا[1]، وانشا اسطولاً كبيراً بلغ عدده ما بين حربى وتجارى الف مركب[2]، وعمد إلى سك العملة باسمه؛ ولدينا من عهده دنانير عرفت بالأحمدى[3].

كذلك أخذ يتقرّب من المصريين، وإن كان هذا لا يعنى أنه شجع مبدأ القومية المصرية، ولكن كان مثل بقية قواد الترك، يعمل لحسابه الخاص. فاتخذ منهم الوزراء، وأبقى القبط فى الدواوين[4]؛ كما اكثر من إقامة المآدب[5] فى المناسبات للشعب. وفوق ذلك، كان المصريون يكرهون عامل الخراج من قبل الخليفة العباسى، واسمه أحمد بن المدبر، وهو الذى كان قد فرض عليهم ضريبة جديدة سماها: الهلالى أو المكوس، تجبى على كل شئ، ووضع يده على كل ما يملكونه سواء أكانوا مسلمين أم نصارى أم يهودا[6]، وكان من قبل فى فلسطين وأذاق أهلها البلايا، فضاعف الخراج، وملأ السجون، وزاد ضريبة النصارى، فتخلص ابن طولون منه، وأزال عن المصريين معظم المكوس، وكان يذهب إلى رهبان القبط فى أديرتهم، ومنع من أن تؤخذ الجزية على رءوسهم[7].

---

(١) نفسه، ١ص ١٥٢ س ٧-٨.

(٢) ابن اياس، تاريخ مصر ، ط. بولاق، ١ ص ٤٠؛ انظر العدوى، الأساطيل العربية، ص ١١١.

(٣) الخطط، ١ص ٦٦، انظر Oleg Graber :
The Coinage of the Tûlûnides. New York, 1957.

(٤) البلوى، سيرة أحمد، ص ٢١، ١٠٦. كان ابن طولون يرى أن الكاتب المصرى اكتب من العراقى.

(٥) كتاب المكافأة على الخصوص.

(٦) ساويرس، الكنيسة، نشر عبد المسيح وبرستمر،٢/١ ص ٢٤ ومابعدها؛ الخطط، ٢ص ١٠٧

(٧) البلوى، سيرة أحمدة، ص ١٠٩

ولكن طموح بن طولون الذى شجعه شعب مصر أقلق الحكومة المركزية فى سر من رأى (سامرا). وخصوصاً أن ابن طولون سعى أيضاً إلى نقل الخليفة العباسى إلى مصر، ليكون تحت سيطرته، فاتصل بالخليفة المعتمد على الله الذى رحب بالخروج إلى مصر، ولما كان أخو الخليفة واسمه أبو أحمد الموفق، هو المسيطر على الحكم فى سامرا بمعاونة القواد الترك؛ فإنه منع الخليفة من الهروب، وأبقاه تحت سيطرته. كذلك عمد الموفق إلى تدبير مؤامرة ضد ابن طولون: فطلب منه المثول إلى سامرا، ولما رفض أغرى العباس، ابن طولون الأكبر، ضد أبيه، وإن استطاع ابن طولون قتل ابنه. ولكن ثورة الزنج من ٢٥٥ إلى ٢٧٠/ ٨٦٩-٨٨٤[1]، وهم طائفة العبيد الكبيرة، الذين جلبوا إلى العراق، جعلت الموفق يرضى بصلح ابن طولون على مضض، وأن يعترف له بولايته على مصر والشام، فحكم ابن طولون فيهما إلى أن توفى فى ذى القعدة ٢٧٠/ مايو ٨٨٤.

فجاء بعده ابنه المسمى خمارويه[2]، بالطموح ذاته، وأظهر عزمه على الاحتفاظ بمصر والشام كولايتى استيلاء، مثلما فعل أبوه من قبل. وقد لجأ خمارويه إلى الدبلوماسية، على غير ما كان أبوه الذى حارب الخلافة؛ فزوج ابنته قطر الندى أو أسماء من الخليفة المعتضد بالله وقتئذ، الذى جاء بعد المعتمد على الله؛ حيث اشتهرت هذه الأميرة بالجمال والحسن إلى جانب التعقل والأدب، ولقاء ذلك، منحه المعتضد حكم مصر والشام مدة ثلاثين عاماً. ويقول المؤرخون؛ إن الخليفة العباسى هذا عرف بالدهاء، وأنه لم يقبل هذا الزواج إلا بقصد إفقار مالية مصر[3]؛ حتى يسترد سيطرته عليها، وذلك لما يكلف هذا الزواج خمارويه من أموال. فيقال إن مهرها[4] وصل إلى مائة ألف أو مليون درهم، ومائه هون ذهب، إلى جانب أرطال الحناء، وهى التى شجعت استخدامها؛ حيث توجد للآن عند المصريين ليلة العرس تعرف بليلة الحناء؛ كما ارتدت الثوب الأبيض، وفى

---

(١) الكامل، ٥ص ٣٤٦ وما بعدها.

(٢) عنه: النجوم الزاهرة، ٣ص ٤٩ وما بعدها.

(٣) نفسه، ٣ص ٥٣ س ٣. يوجد عنه كتاب ضاع باسم أخبار المعتضد بالله لابن أبى طاهرة. أنظر. هريدى، فهرست خطط مصر، ص ٦٩.

(٤) المقريزى، الخطط؛ المسعودى، مروج؛ ابن خلكان، وفيات. ربطت الأغنية الشعبية بين الحناء وقطر الندى، فتقول: الحنة الحنة ياقطر الندى. شباك حبيبى ياعينى جلاب الهوى.

أصابعها الخواتم؛ وفى معصمها سوار من ذهب، وزينت وجهها بالأصباغ المختلفة، بل أقيمت لها فى الطريق مدينة سميت عباسة على اسم أخت خمارويه؛ نافست الفسطاط فى أبهتها، ومكانها الآن الصالحية، وقد بقيت المدينة عباسة إلى وقت المماليك[1] .

ولم يلبث خمارويه أن قتل على يد جاريته فى سنة ٢٨٢/ ٨٩٥، التى دست له السم، فانتهز الخليفة العباسى المكتفى بالله، الذى تولى بعد المعتضد بالله اضطراب الأمور فى مصر، وأرسل جيشه إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان، الذى هدم القطائع عاصمة الطولونيين ودمرها فى ٢٩٢/ ٩٠٥[2] ، وحمل بقية أسرة ابن طولون كأسرى إلى بغداد[3]. وبذلك انتهى حكم الطولونيين فى مصر، الذى دام اثنتين وثلاثين سنة، بعدها عادت مصر ولاية خاضعة للخلافة العراقية.

وفى كل هذا كان المصريون يعضدون الأسرة الطولونية، لما لمسوه على يديها من استقرار، ولهذا عمدت الخلافة العباسية إلى الانتقام من المصريين، فيقول ابن تغرى بردى إن القائد محمد بن سليمان أمر بقطع أيدى وأرجل الناس من المصريين، وقبض على كتّاب الدواوين[4]. وقد حاول المصريون الثورة، بقيادة أحدهم وهو محمد بن علىّ الخلنجى المصرى[5] ، ولكن الخليفة العباسى المكتفى بالله أرسل جيشاً فى البر والبحر فى سنة ٢٩٣/٩٠٦؛ للقضاء على حركته، التى استمرت ثمانية شهور .



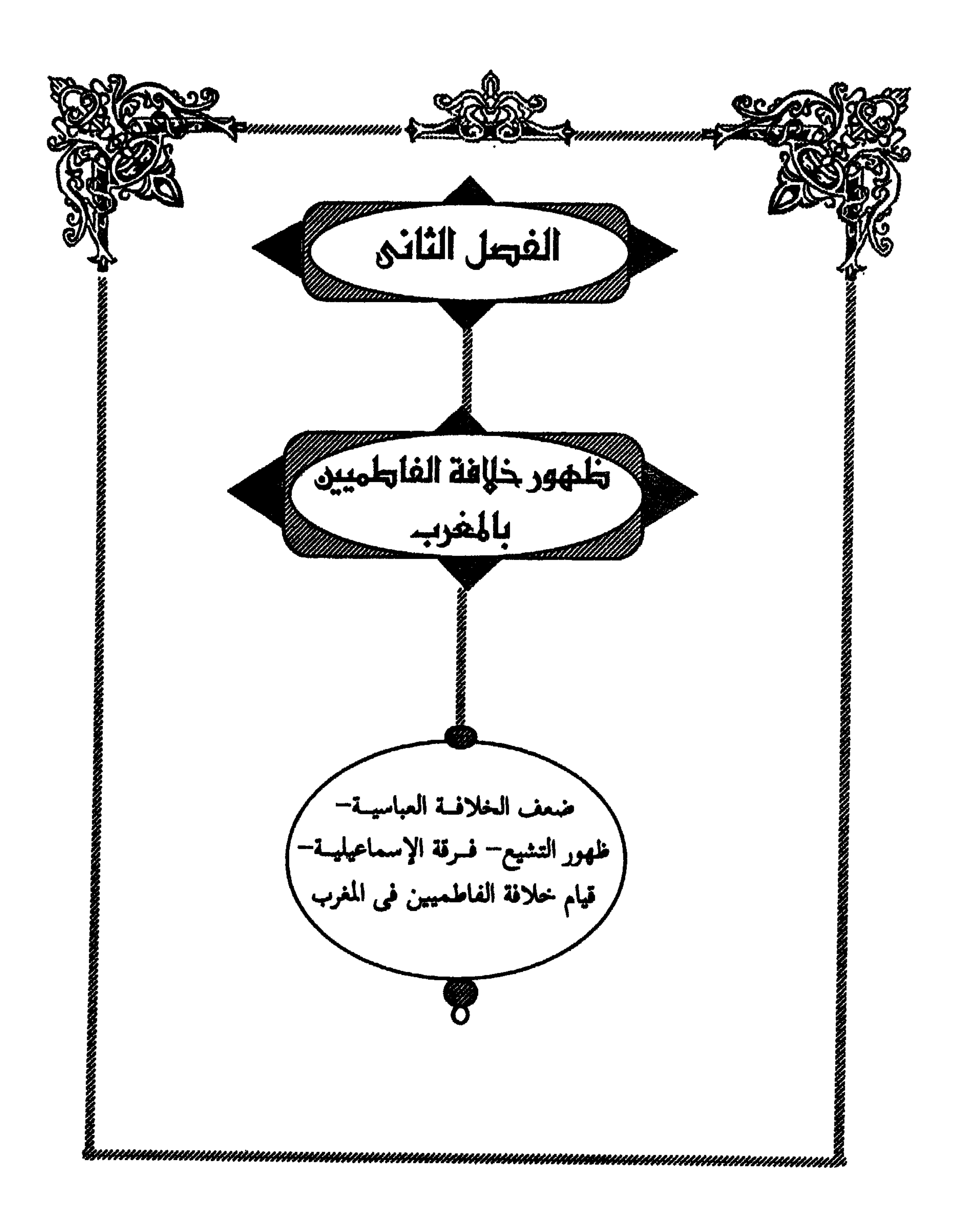
هذه أحوال مصر ، التى أسلمت واستعربت، وبدأت تدخل حوليات مؤرخى الإسلام، حينما بدأ الفاطميون يتطلعون إلى غزوها، وجعلها قاعدة لهم.

---

(١) عنها بتفصيل، انظر :

Ency of Isl, (art. ' Abbása) 2éd, t I, P. 14.

(٢) نفسه، ٣ ص ١٣٦-١٣٧.
(٣) نفسه، ٣ص ١٣٩.
(٤) نفسه، ٣ص ١٣٩.
(٥) نفسه، ٣ص ١٥٣-١٥٥.



الفصل الثانى

ظهور خلافة الفاطميين بالمغرب

ضعف الخلافة العباسية- ظهور التشيع- فرقة الإسماعيلية- قيام خلافة الفاطميين فى المغرب

ظهور خلافة الفاطميين بالمغرب

يرتبط ظهور الفاطميين فى المغرب، وهى الخلافة المعادية للعباسيين، والتى غزت مصر وغيرها من بلدان الشرق، بعاملين أساسيين: ضعف الخلافة العباسية، ونجاح التشيع.

فمنذ مدة كانت الخلافة العباسية فى دار الإسلام ممزقة خارجياً وداخلياً. فقد انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين. فقامت الأموية فى الأندلس، والأدارسة والأغالبة فى شمال إفريقيا، والطولونية فى مصر وجنوب الشام، والحمدانية فى شمال الشام وبلاد الجزيرة، والزيادية فى اليمن، والقرامطة فى البحرين، والطاهرية والصفارية فى خراسان، والسامانية فى بلاد ما وراء النهر.

وحتى فى بغداد والعراق، التى بقيت لها، أصبح الخليفة نفسه أشبه بشبح لا سلطان له، تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الترك الأقوياء، الذين أصبحوا يسيطرون عليه منذ المعتصم، فظهرت لهم وظيفة إمرة الأمراء[1]، التى ابطلت الوزارة والدواوين، وأصبح لمتوليها كل السلطة من دون الخليفة. ولهذا الضعف من قبل خلفاء العباسيين، أطلق المؤرخون عليهم: الخلفاء المستضعفين[2]؛ كما أطلق المؤرخون المحدثون على خليفة تركيا فى وقت ضعفها الرجل المريض، فقال الشاعر يصف ضعف الخليفة العباسى:

خليفة فى قفص   بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له   كما تقول الببغا[3]

ولم يقف ضعف الخليفة العباسى عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه، ولكن تطور الأمر إلى ان سيطرت عليه أسرة تحكم معه وارثاً عن وارث. ففى أثناء تنازع القواد الترك المتغلبين عليه فى بغداد، تمكنت أسرة بنى بويه[1]– على اسم

---

(١) ابن الأثير ، الكامل، ٦ص ٢٥٤ ، ظهرت إمرة الأمراء لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى الراضى (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤-٩٤١).

(٢) ابن خلدون. المقدمة، ص ١٨ س ٢.

(٣) نفسه ص ١٩.

جدها أبى شجاع بويه- من دخول العراق. وقد كانت هذه الأسرة من عنصر فارسى، من قبائل الديلم البدوية، تقيم فى الجنوب من بحر قزوين، ويعيش أفرادها كجند مرتزقة، أو على صيد السمك. ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد تمكنوا من فتح بلاد الديلم، وإن كان الإسلام قد انتشر فيها فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)(٢). ومنذ إسلامها بدأت تظهر للديلم أطماع فى أملاك الخلافة العباسية. وعلى أيدى زعمائهم من بنى بويه، كونوا دويلات قوية فى إيران ونواحيها، وارثين الدولة الطاهرية فيها. بل طمعوا أيضا فى السيطرة على الخلافة العباسية، ودخل أحمد بن بويه إلى بغداد فى سنة ٩٤٥/٣٣٤، وهو المعروف بالأقطع(٣)، لإصابته بجراح أطارت أصابع يده اليسرى، وتلقّب بمعزّ الدولة، وعزل الخليفة المستكفى بالله (٣٣٣-٩٤٤/٣٣٤-٩٤٦)، وولى بدله المطيع(٣٣٤-٩٤٦/٣٦٣-٩٧٤)؛ حتى يطيعه. فكان بنو بويه مع الخلفاء العباسيين، أكثر استبداداً من القواد الترك السابقين؛ فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم أو يقتلونهم. كذلك أصبح الواحد منهم يسك العملة باسم شاهنشاه أى ملك الملوك، وهو اللقب الفارسى القديم، ويخطب له على المنابر فى المساجد، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسى فى خطب المساجد، وتضرب له الدفوف- الطبول- أمام قصره فى الضحى والعشى، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل. ولم يبق على حد قول المؤرخين لبنى العباس من الخلافة إلا اسمها؛ بحيث صار الخليفة العباسى، وكأنه فقط رئيس الإسلام(٤).

*

أما التشيع، فهو العامل المباشر؛ إذ أن الفاطميين شيعة، وهى لفظة فى اللغة أصلها من المشايعة، وهى المتابعة والمطاوعة، والشيعة هم الفرقة من الناس الذين

---

(١) الكامل ٦ص ٢٣٠ وما بعدها؛ ابن خلكان، وفيات ١ص ٩٧-٩٩، ٢ص ٦٥؛ المقريزى، السلوك، ط ٢، ١/١ ص ٢٣ وما بعدها؛ انظر:
Ency- de l'Isl, (art.Bûyides) t I, P. 827-828, 2éd t I, P. 1390 sqq
وبعده.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة. ص ١٥٨.

(٣) النجوم، ٤ص ١٤-١٥.

(٤) المقريزى، النزاع والتخاصم، ص٦٤؛ البيرونى، الآثار الباقية، ص ١٣٢.

تابعوا عليًا وأهل بيته، حتى صار هذا اللفظ اسما خاصا بهم[1]، وهذا الاسم له سند فى القرآن بقوله: ﴿... هذا من شِيعَته،وهذا من عَدوه. السورة رقم ٢٨ القصص من الآية رقم ١٥﴾.

والشيعة كفرقة دينية سياسية اختلف المؤرخون فى وقت ظهورها. فيقول النوبختى (القرن الثالث الهجرى)، فى كتابه فرق الشيعة: إنهم فرقة علىّ بن أبى طالب، المسمون بشيعة علىّ، ظهروا فى زمان النبى وبعده، وعرفوا بانقطاعهم لعلىّ، والقول بإمامته[2]. وعلى النقيض يقول ابن النديم(ت ٣٨٣/٩٩٣)، فى كتابه الفهرست: إن هذه التسمية ظهرت لأول مرة، عندما حارب علىّ طلحة والزبير، اللذين أبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان واتهما عليًا به، فتسمى من اتبع عليًا فى قتالهما بالشيعة، وكان علىّ يقول: شيعتى[3]. وعلى أى الرأيين؛ فإن المحن التى حلت بعلىّ بقتاله طلحة والزبير، وبقتاله معاوية بن أبى سفيان من بعدهما، وهو الذى طالب بدم عثمان كذلك، لقرابته لعثمان، زادت الشيعة تضامناً؛ بحيث إن أغلب أهل الكوفة أصبحوا من شيعة علىّ، كما يذكر المؤرخون[4] بالتخصيص.

ولقد أصبحت الشيعة موضع نقمة الخلافة الأموية، التى قامت بعد مقتل علىّ سنة ٤٠/٦٦١، مستندة إلى عصبية البيت الأموى، عدو بيت بنى هاشم الذى ينتمى إليه علىّ، إذ تمتد عداوة البيتين إلى أيام الجاهلية[5]. فأعلن الأمويون سب

---

(١) لسان العرب، ١٠ص ٥٤ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl,. (art Shi'a) t 4, P. 362 sqq.

(٢) فرق الشيعة، ص ٢، ١٧-١٨. يعدد أسماء الشيعة الأوائل، وهم: المقداد بن الأسود الكندى(ت ٣٣/٦٥٣)، وسلمان الفارسى (ت٣٦ أو ٣٧/٦٥٦-٧) وأبو ذر الغفارى (ت ٣١ أو ٣٢/ ٦٥١-٦٥٢)، وعمار بن ياسر (ت ٨٧/٧٠٨).

(٣) الفهرست، ١ ص ١٧٥.

(٤) الكامل، ٣ص ٢١٢ وما بعدها ؛ انظر. ما أوردناه فى كتابنا: التاريخ السياسى، ٢ص ٦٨ وما بعدها؛ طه حسين، علىّ وبنوه، ص ١٩٠ س ١-٢.

(٥) المقريزى، النزاع والتخاصم، ص ١١.

عليّ ولعنه في الخطب على منابر المساجد، واختاروا له اسم أبي تراب، وحقّروا الشيعة وسموهم الترابية[1]؛ وكانوا يرمون بذلك إلى جعل عليّ كقاطع طريق؛ مع أن الشيعة لم يكونوا يعرفون هذا الاسم من قبل. كذلك قتلوا كل من فكر في الخروج عليهم من بني علي، ودوننا كتاب: مقاتل الطالبيين[2]، يحتوي على أسماء من قتل منهم، ولا سيما الحسين بن عليّ، الذي اعتبر سفك دمه عند الشيعة في سهل كَربلاء بالعراق، ذا قيمة في التضحية تشبه سفك دم المسيح عند المسيحيين. فكانت كل فتنة شيعية ضد الأمويين يتبعها اضطهاد للشيعة، وسجن وتقتيل.

وقد استفاد بنو العباس من هذه الحالة -وهم سلالة العباس عم النبي، ومن بيت بني هاشم أيضاً- ودعوا إلى الرضا من آل البيت أي إلى بني هاشم؛ بقصد القضاء على خلافة أعدائهم من الأمويين، وتولى الخلافة من دونهم. ولم يكن بنو العباس الأوائل يسعون إطلاقاً إلى الخلافة، مع علو مركزهم كسادة لبني هاشم، وإنما كان كل همهم تعضيد عليّ وأبنائه في المطالبة بها. ولعل ظهور طموح بني العباس في آخر عهد الخلافة الأموية، كان بسبب أن الطريق قد خلت لهم؛ لكثرة من قتل من بني عليّ، ومع أن بني العباس لم يذكروا في أول الأمر المقصود بالدعوة إلى الرضا من آل البيت؛ أهو فرع آل عليّ أو آل العباس؛ فإنهم لما تمكنوا من القضاء على الخلافة الأموية، تولوها من دون بني عليّ[3].

وكان المفروض أن يكون بنو العباس أخف وطأة على بني عليّ من الأمويين، لأنهم من بيت واحد، ولكن هذه القرابة بالذات، جعلتهم أشد قسوة عليهم؛ خوفاً من أن تضيع الخلافة من أيديهم، وكما قال خلفاؤهم إن العم وارث النبي، وأولى

---

(١) الأصفهاني، كتاب الأغاني، ١٣ ص ١٦٨ س ٢٢، ١٦س ٦-٧؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Abû Turâb) t I, P. 114. ؛ ماجد، التاريخ السياسي، ٢ ص ٦٩-٧٠. ومن ناحية أخرى، يذكر المؤلف نفسه، في كتاب مقاتل الطالبيين، أن هذه تسمية النبي لعليّ؛ لأنه وجده في المسجد راقداً وقد زال رداؤه عنه، وأصابه التراب، وأنها كانت أحب التسميات لعليّ!

(٢) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، النجف ١٣٥٢هـ؛ انظر.

(٣) عن ذلك بتفصيل، انظر.كتابنا: التاريخ السياسي، ٢ص ٣٢٣ وما بعدها.

الناس به، وأحق من ابن العم، وأن كل من دخل الخلافة بعده متوثبون[1]. فسموا بني عليّ الطالبيين، ليميّزوهم عن انفسهم، على اسم أبى طالب ابى علىّ، وأظهروا أن أبا طالب مات كافراً[2]. وقد لعن العباسيون عليّا[3]، مثلما فعل الأمويون، وعلى العكس لم يسبوا معاوية، فكان يقال: رحم الله معاوية، ولعن الله عليّ بن أبى طالب[4]. ثم تتبعوا الذرارى العلويّة فقتلوهم: فتظاهر المأمون بالرغبة فى رضاهم، فأمر بالنداء فى البلدان أن من كان من نسل عليّ فليصل إلى المأمون، فوصل إليه جماعة منهم، فقتلهم[5]. كذلك اتى محمد المنتصر بالله بن المتوكل، بشئ لم يسمع به، وهو أنه كتب إلى الآفاق، بأن لا يملّك علوىّ ارضاً، ولا يركب فرساً، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد، ومن كان بينه وبين أحد الطالبيين خصومة، قبل قول خصمه ولم يطالب ببينة[6]؛ على حسب ما أورده المؤرخون.

ولكن الشيعة فى ظل العباسيين ثابروا على الدعوة لآل عليّ، وإن كثروا وقتئذ، لكثرة أفراد آل عليّ، وكانت كل فرقة تدعو إلى إمام منهم، حتى بلغت

---

(١) النوبختى ، ص ٤٨؛ الخطط، ٤ص ١٧٣ س ١٠-١١.

(٢) انظر . كاشف الغطاء ، أصل الشيعة وأصولها، ص ٨٨. يرد كاشف الغطاء على ذلك ، بالاستشهاد بشعر أبى طالب فى قوله:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا.

(٣) النزاع والتخاصم، ص ٦٤.

(٤) الطبرى ٣: ١٠٩٨، ٢١٦٤؛ انظر. Pellat :

Le Culte de Mu'âwiya au IIIe siécle de l'hégire. Stvdia Islamica, Ix, Paris, 1958, P. 53 sqq.

(٥) عيون الأخبار (مخطوطة بمكتبة الهمدانى الخاصة)، ٤ ورقة ٢٢٩؛ انظر. الهمدانى ، بحث فى تاريخ رسائل إخوان الصفا، ص ١٥ وما بعدها.

(٦) النزاع والتخاصم، ص ٦٤؛ الخطط ، ٤ص ١٥٤. حكم الخليفة محمد المستنصر بين ٢٤٧-٢٤٨/٨٦١-٢.

فرقهم ثلثمائة فرقة[1]، وإن بقى اسم الشيعة يدل على طوائفهم المختلفة. وفى ظل دولة العباسيين تكونت للشيعة أيضاً آراؤها الدينية وعقائدها[2]، ولا سيما أنها كسبت أعواناً من رجال الفكر يضعون قواعدها، من حيث الأحاديث والتفسير والفقه، وأصبحت كلمة الشيعة تقابل كلمة سنة، التى ظهرت لأول مرة فى عهد العباسيين، لتعنى العقيدة الإسلامية عند العباسيين، فكانت بعض فرق الشيعة تتميّز عن السنة، والبعض الآخر يميل إليها.

*

وكانت أهم فرق الشيعة فى عهد العباسيين وأكثرها تطورا فى العقائد الدينية، هى الفرقة التى قالت بإمامة إسماعيل[3] بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب. فهذه الفرقة تؤمن مثل غيرها من فرق الشيعة إيماناً لا حد له، بوصاية النبى لعلىّ فى غَدِيرُ خمّ– مكان بين مكة والمدينة[4]– لتبقى الإمامة وهى حكم المسلمين فى بيت علىّ إلى يوم الدين[5]. فكانت عقيدتها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علىّ ولىّ الله[6]. ولكنها تميّزت عن غيرها بأن الإمامة تكون بالنص أو التنصيص[7] أى

---

(١) الخطط، ٤ص ١٧٣ س ١٣. يقول: المشهور منها عشرون فرقة.

(٢) مثلا: رسائل إخوان الصفا، اعتبرت من تأليف أئمة الشيعة الإسلامية، وهى تحتوى على عقائد كثيرة، عيون الأخبار، ٤ ورقة ٣٣٩، انظر. الهمدانى، رسائل إخوان الصفا، ص ٣١ وما بعدها.

(٣) الملل، ص ١٠٢.

(٤) النعمان، شرح الأخبار، مخطوطة بدار الكتب، برقم ٧٠٦٢غ، ورقات ٣–٥ .ففى أثناء حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة؛ بالقرب من غدير خم، قام محمد خطيباً فى الحجاج، فقال لهم: « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم»، قالوا: « بلى يا رسول الله»، قال: « من كنت مولاه فعلىّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». كذلك وتردد الكتب رواية أخرى، مؤداها أن محمداً، فى أثناء غزوة تبوك، قال لعلىّ: « أنت منى بمنزلة هرون من موسى». عن ذلك، انظر. دعائم الإسلام، ١ص ٢٥؛ وانظر ما أوردناه بالتفصيل، بفصل الإمامة من كتابنا: نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٥) دعائم، ١ص ٥٤؛ الداعى إدريس، زهر المعانى (الباب السابع عشر)، نشر Ivanow فى كتاب Rise (المنتخب من بعض كتب الإسماعيلية)، ص ٥٢.

(٦) مثلاً: الخطط، ٢ص ٢٤٨.

(٧) الملل، ص ١٠٩.

بوجوب تعيين الإمام لخلفه، وأن الإمامة في، الأعقاب لا ترجع القهقرى[1]، فلا تنتقل من أخ إلى أخ؛ بعد الحسن والحسين[2]، ولابد أن تكون من أب إلى ابن. فإن موت إسماعيل (ت١٤٥/٧٦٢-٣)، في حياة أبيه جعفر الصادق[3] (ت١٤٨/٧٦٥)، يجعل النص ينتقل لابنه محمد الذي جعلت له مكانة خاصة، فاطلق عليه من دون الأئمة المبارك، وليس لأخيه موسى الكاظم[4]، لذلك عرفت بالفرقة الإسماعيلية، على اسم إسماعيل هذا[5] ولما كان إسماعيل سابع إمام منذ عليّ، عرفت هذه الفرقة بالسبعية أيضاً[6]؛ بينما عرفت سلالة موسى الكاظم بالجعفرية، وبخاصة الاثنى عشرية؛ بسبب استكمال عدد الأئمة إلى اثنى عشر إماما، أو حتى بالإمامية.

وكان أتباع هذه الفرقة يعتقدون بأن الأئمة منهم، يتوارثون طبيعة روحية فإن النبي ﷺ، نقل إلى عليّ بعض علومه الإلهية مباشرة؛ ليتوارثها الأئمة من نسله بعده[7]؛ وهي علوم تتمثل على الخصوص في تفسير القرآن، أو ما عرف بالتأويل أو المعنى الباطن[8]؛ إذ لكل تنزيل تأويل، فقد قال الرسول: «أنا صاحب التنزيل وعليّ صاحب التأويل». وكل كتب الدعوة الإسماعيلية تشير إلى تأويل القرآن، كما ردوا كل الأحاديث النبوية إلى أئمتهم؛ وهي ما عرفت عندهم بالأخبار[9]. وقد جعلهم ذلك يثبتون لأئمتهم صفة العصمة عن الكبائر

(١) نفسه، ص ١٤٦.
(٢) النعمان، المجالس والمسايرات، تحقيق، ١ص ١٢٤.
(٣) عنه: وفيات، ١ص ١٨٥.
(٤) الملل، ص ١٤٥-١٤٦؛ زهر المعاني (من المنتخب) الباب السابع عشر، ص ٥٠؛ الخطاب، غاية المواليد (من المنتخب)، ص ٣٦-٣٧؛ ابن خلدون ، المقدمة، ص ١٥٨-١٥٩.
(٥) الملل، ص ١٤٥-١٤٦، وكتابنا: نظم الفاطميين، ١ص ٩،
Ency de l'Isl, (art Ismâîlîya) t2 P. 585 sqq.
كذلك سميت الخالصة (النوبختي، ص ٥٧-٥٨) أو حتى الواقفة (الشهرستاني) ١ص ١٤٩.
(٦) الملل، ص ١٤٦، سيرة جوذر، مقدمة، ص ٢٤.
(٧) انظر في هذا الصدد ما قاله الأمر عن أبيه:
«وأطلعني من العلوم على السر المكنون، وأفضى إليّ من الحكمة بالغامض المصون».
حسن المحاضرة، ٢ص ١٥، وما أوردناه في النظم، ١ص ٥٩-٦٠.
(٨) المؤيد، سيرة، تحقيق كامل حسين، ص ١٧؛ تاج العقائد، ص ٤٧. ويسميهم أعداؤهم بالباطنية، وإن لم نعرف أن الشيعة سموا أنفسهم بذلك، ولا سيما أن أعداءهم كانوا يطلقونها أيضاً على فرق من الزنادقة مثل الخرمية والمزدكية، انظر. ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٩ س ٩. يقول ابن خلدون: نسبة إلى الإمام الباطن، أي المستور.
انظر. Ency. de l'Isl, (art. Bâtin^ya) t I, P. 697.
(٩) دعائم ، ١ ص ٦١.

والصغائر[1]، واعتبروا أن نور الله حل فيهم[2]. ولذلك كانت معرفة الإمام واجبة على المسلمين؛ بحيث إن من مات لا يعرف إمام دهره حياً، مات ميتة جاهلية[3]. ومع ذلك، فعقائد الإسماعيلية كانت متطورة في كل بيئة وزمن؛ مما زاد من أهميتها بين الفرق الشيعية.

ولكن أمام اضطهاد العباسيين اضطرت هذه الفرقة إلى الدعوة السرية، واضطر أئمتها إلى التستر الكثيف، أو التكتم أو الكتمان، وهو ما عرف بالتقية[4]، وهي ليست الغيبة، المعروفة عند الشيعة الإمامية، حتى أن محمد بن إسماعيل، سمي بالمكتوم– وهو أول من تكتم وجوده– سمته بذلك شيعته لما اتفقوا عليه من إخفائه، حذراً من العباسيين[5]. أما خلفه فيقال لهم: المستورون في ذات الله[6]، أي الذين استتروا خوفاً على نفوسهم، لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء العباسيين. وعلى النقيض كان الأئمة يظهرون دعاتهم، الذين عرفوا غالباً بالحجج[7]، لينقلوا عقائدهم وينشروها بين الناس، وإن لم يكشفوا إطلاقاً عن شخصية الإمام [8]. وكان الأئمة الإسماعيلية في تسترهم يلجأون إلى وسائل

---

(١) الملل، ص ١٠٩.

(٢) نظرية المثل والممثول. انظر . بعده.

(٣) دعائم، ١ص ٣١.

(٤) النوبختي، ص ٦٤–٦٥؛ جعفر بن منصور، كتاب الفرائض وحدود الدين، تحقيق الهمداني، ص ٩؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art Takîya) t 4, P. 659 sqq.

يقول جعفر الصادق : « التقية ديني ودين آبائي، ومن لا تقية له، فلا دين له».

(٥)ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨ س ١–٢؛ الملل، ص ١٤٦. قيل أنه انتقل إلى الحجاز ، ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك». أنظر. كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٤.

(٦) ابن ايبك، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق المنجد، ٦ ص ٤.

(٧) زهر المعاني (المنتخب) ص ٥٣، ٦٠، ٦٣. مفردها حجة، انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Hudjdja) 2 éd, t 3, P. 562 sqq;

Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaelis. Paris, 1874, pp. 188-9 : Guyard

(٩) زهر المعاني (المنتخب)، ص ٥٩؛ انظر . Ivanow ؛

Alleged Founder of Ismâ'ilism. Bombay, 1946, P. 7-8 .

متعددة: فأربعة من ولد جعفر الصادق ادعوا الإمامة لنفسهم بقصد ستر الإمام الحقيقي، بحيث إن بعض الروايات تقول: إن إسماعيل نفسه إمام ظاهر، ولم يكن غير صورة للإمام الحقيقي عبد الله، الأخ الأكبر[1]، أو خلطوا أنفسهم بغيرهم، فمحمد بن إسماعيل المكتوم اختفى مع شخص اسمه ميمون القداح وابنه عبد الله[2] للتلبس، أو تسموا بغير أسمائهم كمحمد وعبد الله، أو بأسماء حججهم الذين يعتبرونهم لواحق لهم، الحقهم الله بهم: كسعيد ومبارك وميمون[3]، أو أن دعاتهم سموهم بأسماء مختلفة لم يتفق منها في ذلك اثنان[4].

●

وقد وجد التشيع مرتعا خصباً لآمال الشعوب التي كانت تئن تحت حكم الخلافة العباسية، مثل الشعوبية التي كانت من قبل وسيلة من وسائل تحرر الشعوب، إذ أصبح ليس فقط عقيدة مذهبية، وإنما سياسية وحتى اجتماعية. وقد مهّد ضعف العباسيين، إلى نجاح التشيع، ولا سيما أن الإسماعيلية. منذ أن تستر محمد بن إسماعيل، أرسلت دعاتها إلى كل مكان[5]، في البحرين ومصر واليمن والهند والمغرب[6]، أي إلى أطراف الخلافة العباسية، لتكون سهلة الانتشار.

ولم يكتب للإسماعيلية الفوز الباهر كما كتب لها بالمغرب، وهو النجاح الذي توج بإنشاء خلافتهم فيها. فقد كانت هذه البلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية، تسكنها قبائل من البربر متمردة، بحيث إن العرب الأوائل لم يتمكنوا من فتحها، إلا بعد حروب استمرت من ٢٦/٦٤٦ إلى ٨٣/٧٠٢. ولكن بعد إسلام

---

(١) كتاب الفرائض، ص ٩-١٠. الأربعة، هم: موسى وإسماعيل ومحمد وعبد الله.

(٢) زهر المعاني (المنتخب) ص ٤٧، ٤٩؛ الفرائض، ص ٦٠، ٦٢؛ وبعده.

(٣) الفرائض، ص ٩-١٠.

(٤) زهر المعاني (من المنتخب)، ص ٥٤. يكفي أن نطلع عما قليل في نسب عبيد الله، إلى علي، أول الأئمة الظاهرين بعد دور الستر: فهو عبيد الله بن الحسين، وقيل عبيد الله ابن محمد، وقيل هو عليّ بن الحسين، وقيل هو عبيد الله بن التقي. وفيات، ١ص ٤٨٧. ولعل التصميم على تسميته عبيد الله؛ ربما تصغيراً لعبد الله انظر قبله.

(٥) زهر المعاني، ورقة ٥٢؛ انظر. De Sacy ؛ Recherches sur l'initiation á la secte Isaelienne. J. A. 1824, P. 302.

(٦) النعمان، إفتتاح الدعوة (بمكتبة الهمداني)، ورقات ١٨-١٩.

البربر، ومشاركتهم للعرب فى الجهاد، أساءت الخلافة الأموية إلى البربر، كما أساءت إلى غيرهم من الشعوب المفتوحة؛ وفرّقت بينهم وبين العرب فى المعاملة. فمنذ ذاك والمغرب ملجأ للخارجين على الخلافة فى الشرق، فأتته الخوارج بفرقها من الإباضية والصفرية[1]، كما أتاه الأدارسة العلويون الذين ساعدهم البربر من زناتة وغيرهم على إنشاء دولة لهم فى المغرب الأقصى، طابعها سنى؛ وإن حكمها الأدارسة[2] العلويون وذلك فى سنة ١٧٢/٧٨٩.

ولكن الدعوة الإسماعيلية اختصت من قبائل البربر قبيلة كتّامة[3]، التى عرفت بأنها أكثر القبائل عدداً وأصعبها مراساً؛ إذ كانت تسكن جبل أوْراس[4] الوعر فى جنوب إفريقية، وهى البلاد الممتدة من طرابلس الغرب إلى طنجة. وقد بدأت الدعوة الإسماعيلية بينهم على يد دعاة مثل: الحلوانى وأبى سفيان[5]، وبعد موتهما على يد أبى عبد الله المحتسب[6]، المشهور بالشيعى الصنعانى، أى أنه جاء

(١) أخبار مجموعة، ص ٢٨؛ انظر، ماجد، التاريخ السياسى، ٢ص ٢٨٨ وما بعدها.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق ص، ١٨٨ وما بعدها؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨، ٢٣١ (آخر الصفحة). مؤسسها إدريس بن عبد الله حسن بن الحسن ابن علىّ بن أبى طالب. انظر .

Ency. de l'Isl, (art Idris); (Idrisides) t2, P. 478-480.

(٣) البيان، ١ص ١٢٤ وما بعدها؛ إتعاظ، ص ٧٤ وما بعدها؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٧ وما بعدها؛ افتتاح، ورقة ٣٢ وما بعدها؛ أيضاً نص وترجمة Dachroui : Contribution à l'Histoire des Fatimides en Ifrîiya. Arabica, 1961, P. 189 sqq;

Ency. de l'Isl (art Ketâma) t 2, P. 909.

عن كتامة: السمعانى، كتاب الأنساب، تحقيق Sybold ، London ، ١٩١٢؛ العبر، ٦ ص ١٤٨ وما بعدها.

(٤) معجم البلدان، ١ص ٣٧٠، انظر.

Ency. de l'Isl, (art Awrâs) t 1, 528 sqq.

(٥) إتعاظ، ص ٥٣-٥٤، ٦٧ وهامش (٣).

(٦) نفسه، ص ٧٤ وما بعدها؛ الخطط، ٣ص ١٥ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl; (art Abû, Abd Allâh) t I, P. 76.

سمى المحتسب لأنه كان ولى الحسبة، وهى مراقبة الأسواق، كما عرف باسم الصوفى، لأنه كان يلبس خرقة الصوفة، وهى الملابس المهلهلة، أو حتى المعلم، لعلمه بأحوال المذهب. وتنسب إرسال الحلوانى وأبى سفيان إلى جعفر الصادق (ت ١٤٨/٧٦٥)، الذى قال لهما: «إن المغرب أرض بور فاحرثا؛ حتى يجئ صاحب البذر». ومع ذلك، فليس من المعقول أن يكون الفاصل الزمنى بينهما وبين أبى عبد الله الشيعى ١٣٥ عاماً أو أقل.

من اليمن، وذلك في سنة ٢٨٠/٨٩٣. فوجد أبو عبد الله الأرض موطأة ممهدة له؛ حيث استقر في مكان اسمه فج الأخيار[1] -ولعله جبل- فأقام فيه ما يعرف بدار الهجرة. وبدأ يجمع الأتباع من الكتاميين، وسماهم الإخوان أو المؤمنين[2]، كناية عن أنهم قبلوا الدعوة الإسماعيلية ودخلت في قلوبهم؛ أما هو، فإنه كان ينادى عليه: «يا أخانا». ومن أرض كتامة الوعرة، أخذ أبو عبد الله يهاجم دولة الأغالبة[3]، وهي التي قامت بتشجيع العباسيين في خلافة هرون الرشيد، لتقف في وجه الأدارسة العلويين، وغيرهم من الخوارج. وكانت هذه الدولة تعتمد أساسا على عنصر العرب، الذين يكرهم البربر منذ أن فتحت بلادهم على يد الأمويين؛ مما جعل البربر تنضم للفاطميين. فكان أبو عبد الله يكتب على راياته: « سيهزم الجميع»، وعلى أفخاذ الخيل « الملك لله». وقد استطاع أبو عبد الله أن يتغلب على الأغالبة، ويدخل دار ملكهم في رَقّادة[4] في سنة ٢٩٦/٩٠٨-٩٠٩.

أدركت الخلافة العباسية الخطر من نجاح دعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، فأرسلت الكتب إلى ولاتها في أنحاء الخلافة بالقبض على إمام الإسماعيلية، وذلك بصفته وهيئته؛ إذ يبدو أنه أصبح معروفا لها، على الرغم من

---

(١) هو مكان قرب قسنطينة، لعله كان مركزاً لتجمع الحجاج. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق De Slane ، ط ٢، Paris ، ١٩١١، ص ٦٣-٦٤؛ انظر. حسن إبراهيم، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٨، ٤٩.

(٢) مقالة Dachroui (افتتاح الدعوة). انظر Op. Cit, P. 189 sqq.

(٣) ابن حمّاد، ص ٧.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ص ٢٦٧-٢٦٨.

بناها إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب في سنة ٢٦٣/٨٧٦، في جنوب القيروان، ولم تزل بعد ذلك دار ملك لبني الأغلب. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادي والكتاني، ص ٢٧، ٤٥. عن الأغالبة بتفصيل وبمصادر و مراجع عديدة، انظر.
Ency of Isl, (art Aghlabides) 2ed, t I, P. 247 sqq.

أنه كان مستوراً إلى وقتئذ. فخرج الإمام الإسماعيلي متخفياً في زيّ التجار[1]، من سلَمْيَة[2]، من أرض حَماة بالشام(أومن مكان آخر من الأهواز (خوزستان)) ؛ حتى انتهى إلى مصر، التي كان له فيها دعاة وشيعة[3]. فبقى الإمام مستتراً في مصر؛ ليرحل منها إلى المغرب. ولعل الإمام قد فكر في أن يذهب إلى اليمن، لما وجد البحث جارياً وراءه،؛إلا أن دعاة اليمن كانوا مختلفين[4]، ولا سيما أن أبا عبد الله الشيعي كان يستحثه على المجئ إلى المغرب، وسيّر إليه في سلمية رجالاً من كتامة، ليخبره بما فتح الله عليه[5]، وكان يرسل إليه كتبه تطلبه حيثما نزل[6]. فلما قرر الدخول إلى المغرب، خرج في زيّ التجار، وإن دهمه اللصوص وسرقوا كتبه، بما فيها من علوم الأئمة[7]. وكان مع الإمام في صحبته، أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، وجعفر الحاجب الذي ترك لنا تاريخ سيرته مع الأئمة، فسبقهم أبو العباس إلى القيروان، فقبض الأغالبة عليه. وكان الإمام قد وصل إلى طرابلس الغرب، فلم يذهب مباشرة إلى أبي عبد الله، حتى لا يقتل

---

(١) اتعاظ، ص ٨١ وما بعدها؛ ابن حماد، ص ٦ وما بعدها؛ اليماني، سيرة جعفر الحاجب، تحقيق Ivanow ، مجلة كلية الآداب ١٩٣٦، ص ٨٩ وما بعدها؛ زهر المعاني (الجزء السابع عشر- المنتخب)، ص ٦٧ وما بعدها؛ حسن إبراهيم، عبيد الله المهدي، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢) عنها، انظر. معجم البلدان، ٥ص ١١٢-١١٣. اختلف في مقر سكنه، فيذكر المقريزي أنه كان يسكن عسكر مكرم، بلدة في نواحي خوزسْتان، ثم انتقل إلى الشام. اتعاظ، ص ٦٩. عن هذه البلدة، انظر. معجم البلدان، ٦ص ١٧٦-١٧٧.

(٣) سيرة جعفر، ص ١١٣.

(٤) نفسه، ٥ص ١١٠، انظر . الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ،ص ٣٩-٤٠.

(٥) الخطط، ٣ص ١٧ س ٧.

(٦) النيسابوري، استتار الإمام، تحقيق Ivanow ، مجلة كلية الآداب، ص ١٠٦.

(٧) سيرة جعفر، ص ١١٥.

الأغالبة أبا العباس، وقصد سِجِلْمَاسة(1) فى جنوب بلاد المغرب؛ إلا أنه ما لبث أن قبض عليه ومن معه. فلما انتصر أبو عبد الله فى رقَادّة عاصمة الأغالبة- أسرع إلى سِجِلْمَاسة، واستنقذ الإمام. فلعل كل هذه التفاصيل تبرز المشقات، التى لقيها المهدى فى هجرته، وأن الله حماه لما يريد له من تمام أمره(2)، فسار الإمام من سِجِلْمَاسة، ونزل فى رقَادّة فى ربيع الآخر ٢٩٧/ ١٥ يناير ٩١٠، وتلقّب بالمهدى أمير المؤمنين(3)، وأقام خلافته التى اشتهرت بالعلويّة والفاطمية أو الفواطم، منتسبة إلى بيت علىّ وفاطمة(4)، أو حتى باسمه: بنى عبيد(5) أو العبيدية(6).

وعلى كل حال، كان اتخاذ عبيد الله (عبد الله) لقب المهدى، دليلاً على أنه هو الشخص الذى أظهره الله بالحق، ليُملّك الأئمة الفاطميين الأرض بأسرها(7).

---

(1) عنها، انظر. معجم البلدان، ٥ص ٤١؛

Ency. de l'Isl, (art Sidjilmása) t 4, P. 419-421.

(2) مقدمة، تحقيق افتتاح الدعوة، بعناية وداد القاضى، ١٩٤٥، ص ١٩.

(3) اتعاظ، ص ٩٢.

(4) المقصود بها فاطمة الزهراء بنت النبى، أيضاً المسماة من قبل الشيعة «فاطم»، وذلك تحرزاً عن دعوتها بالأنوثة. انظر. النشار، نشأة التشيع وتطوره، ط ٤، القاهرة ١٩٦٩، ص ٨. كذلك قيل أيضاً فاطمة بنت الحسين. عن هذا، انظر.

Fâtîma bint al- Husayn,: et l'Origine du nom dynasique Fátimites. Aken : Massignon des XXiV intern. Orientalisten - Kongresses. Munich, 1957, P. 368.

أو حتى من اسم أم علىّ وهى فاطمة بنت أسد؛ انظر. ابن حجر، إصابة، القاهرة ١٣٢٨ هـ، ٤ص ٣٨٠؛ انظر.

Ency. de l'Islam, 2éd. (art Fátimids) t 2, P. 870-884.

ويقول الطبرى، إن أول ما ذكر تسمية الفاطميين هم بدو سوريا من أتباع يحيى ابن زكرويه القرمطى، فقد ذكروها للإسماعيلية. انظر. Annales III: 2219 . وعلى العكس يذكر ابن عبد ربه أن هذه التسمية سمعت لأول مرة حينما ثار بالمدينة محمد النفس الزكية، فى أيام المنصور العباسى. العقد، القاهرة ١٢٩٣، ٣ص ٣٤.

(5) هو أبو محمد عبيد الله. انظر. مثلًا؛ كتاب؛ ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد. لعله هو عبد الله وليس عبيد الله، وإنما عبيد الله هى تصغير لاسمه. انظر. قبله.

(6) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٩ س ١٠. هى تسمية أعدائهم.

(7) اتعاظ، ص ٨٠؛ الفرائض، ص ١٢-١٣؛ انظر. Guyard :

Fragments (نص عربى) P. 24 sqq.

ولعل فكرة المهدى[1]، اخذها المسلمون من النصارى أو اليهود، الذين رددوا فى كتبهم المقدسة، مجئ المهدى فى آخر الزمان، ليصلح حال الناس، ويملأ الدنيا عدلاً. وليس لدينا روايات شيعية أو سنية تبين أن هذه التسمية منحت عبيد الله صفة خارقة، وإن اعتبر الفقهاء السنة فكرة المهدى جزءا من النبوة، لما فيها من الهدى الصالح. ولقد أطلقت تسمية المهدى من قبل على الخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، لأنهم مهديون من قبل الله للسير على سنة الحق؛ كما أطلقتها الشيعة على أئمتهم مثل محمد بن الحنفية[2]، وتسمى بها عمر ابن عبد العزيز[3]، بل تسمى بها أحد الخلفاء العباسيين[4].

* * *

والخلاصة أن التشيع الإسماعيلى نجح فى إقامة خلافة له فى المغرب، على يد عبيد الله المهدى.

(١) عن هذا اللقب؛ انظر، لسان، ٢٠ص ٢٢٨ وما بعدها؛ عبد النعيم، المهدى، المجلد ١٩، صفر ١٢٧٤هـ، ص ١٠ وما بعدها؛

Ivanow : Rise, P. 50-51 ; 103 ;

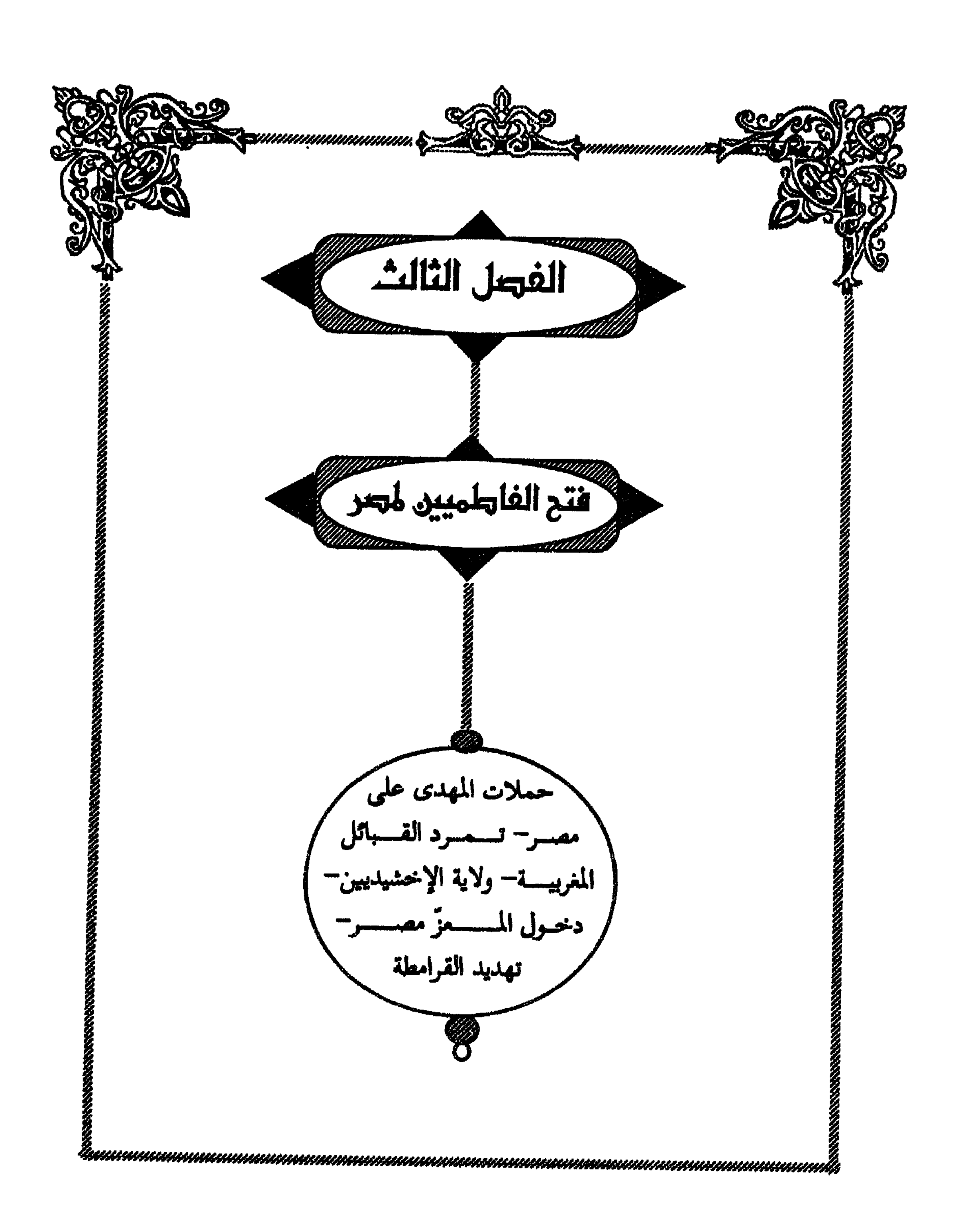
Ency. de l'Isl, (art al-Mahdhî) t 3, P. 116 sqq.

وهى تعتبر جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.

(٢) الكامل، ٣ص ٣٤١ س ١٧-١٨؛ النوبختى، ص ٣٧.

(٣) ابن سعد، ٥ص ٢٤٥ س ٥.

(٤) هو الخليفة العباسى المهدى.



الفصل الثالث

فتح الفاطميين لمصر

حملات المهدى على مصر- تمرد القبائل المغربية- ولاية الإخشيديين- دخول المعزّ مصر- تهديد القرامطة

ومن الثابت المحقق أن نجاح الإسماعيلية فى تكوين دولة بالمغرب، حدث هام فى الإسلام غير من نظمه، إذ أن عبيد الله أعلن الخلافة لنفسه، فهو لم يكتف بالسلطة الزمنية، ولكنه نال أيضاً السلطة الدينية الملازمة لمنصب الخلافة. فإلى الوقت، كان الأمير المستقل عن الخلافة العباسية، لا يستطيع أن يدعى لقب الخلافة، لأن العقلية الإسلامية لم تكن تقبل تعدد الخلفاء. وحفظاً لهيبة منصب الخلافة، وحتى لا تتعطل الأحكام الشرعية، لما صاحب الخلافة من سلطة دينية وشرعية، سمى الأمير المستقل بالأمير المسئول، أى أنه استأثر بالإقليم لنفسه، فيقلّده الخليفة تقليداً صوريا على كُرْهٍ منه[1]. فنجد الأمراء الأمويين، الذين التجأوا إلى الأندلس، وكونوا فيها إمارة مستقلة بعد سقوط دولتهم فى دمشق على يد العباسيين،ومع عداوتهم الشديدة للعباسيين، لم يأخذوا لقب خليفة، وتَسمّوْا بالأمراء أو أبناء الخلائف[2].

ولكن الفاطميين منذ عبيد الله، خرجوا على هذه القاعدة، وتلقّبوا بالخلفاء، لاعتقادهم بأن الإمامة لا تخرج من أولاد علىّ، وإن خرجت فبظلم[3]. فكان اتخاذ عبيد الله لقب الخلفاء فاتحة ظهور خلافات أخرى، ففى الأندلس أعلن الأمويون الخلافة لعبد الرحمن فى سنة ٩٢٩/٣١٧، الذى اتخذ ألقابها، فتسمى بالناصر لدين الله أميراً للمؤمنين[4]. كذلك كان تعدد الخلافة سبباً فى أن جعل الفقهاء من السنة، يقدرون إمكان عقد بيعة لأكثر من خليفة[5]؛ بحجة اتساع رقعة الإسلام، أى أنهم أقرّوا الأمر الواقع .

ومع ذلك؛ فإن خلافة الفاطميين لم تكن تؤمن برأى فقهاء السنة فى إمكان تعدد الخلفاء، وأن طاعة المسلمين لهم جزئية، وهو ما عبروا عنه بالولاَية، أى الولاء المطلق لهم. ففى اعتقادهم أن خلافتهم وحدها، هى التى يجب أن تكون لها

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية، ص ٢٧-٢٩ .

(٢) الكامل، ٦ص ٣٦٠ ص٣.

(٣) الملل، ص ١٠٨-١٠٩.

(٤)الكامل ، ٦ ص ٣٦٠.

(٥) الأحكام، ص٦.

الولاية فى دار الإسلام[1]؛ فالولاية فرض على المسلمين من فروض الدين، وأول دعامة فيه[2]. فكان لابد للفاطميين إذن من أن يخضعوا جميع المسلمين لخلافتهم، وفى سبيل ذلك عملوا على التوسع غرباً فى أملاك الأمويين، وشرقاً فى أملاك العباسيين، فهم كانوا أيضاً من دعاة الوحدة.

ومع أن الفاطميين لم ينسوا العداء الذى كان بين بنى هاشم وبنى أمية، وهو عداء أصيل يرجع إلى أيام الجاهلية؛ فإنهم لم يستعجلوا القضاء على أمويى الأندلس كما يبدو. وقد يكون هذا التراخى راجعاً إلى أن الأندلس رقعة محدودة من دار الإسلام، يفصلها البحر عن بقية أممه الكثيرة؛ بحيث شبهها الجغرافيون بالكم من ثوب الإسلام[3]، كما أن أمويى الأندلس أنفسهم كانوا نشيطين فى حربهم ضد النصارى[4]؛ فلم يكن يُخاف على المسلمين فى هذه الأنحاء. ومع ذلك؛ فإن الفاطميين غزوا أجزاء كثيرة من أملاك الأمويين بالمغرب واستولوا عليها[5].

وعلى خلاف ذلك، وجه الفاطميون هممهم نحو العباسيين، الذين كانوا أشد عداوة لهم من الأمويين، وقاسوا على أيديهم الأمرّين، ولا سيما أنه كان يخضع لهم الشرق؛ مجال الإسلام بأممه الكثيرة. فقد كان المهدى يرى أنه إذا لم يستول على المشرق؛ فكأنه لم يستول على شئ[6]. يضاف إلى ذلك، ضعف العباسيين، مما جرأ أعداء الإسلام من اليونان أو ما عرف بالروم، على أن يصولوا ويجولوا فى أراضى الشام وبلاد الجزيرة، فكان لابد من وجود خلافتهم الفتية فى الشرق، لتدفع عن المسلمين، ويتبيّن عزم الفاطميين ورغبتهم الأكيدة فى سحق العباسيين

---

(١) ابن النعمان ، المجالس والمسايرات. مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة، ٢ورقة ٤٧٨؛ انظر.
L'impérialisme des Fatimids. Annales de l'Instd'Et,Or, 6, 1942-7,P.158. ، CANARD
يقول كنار عن هذا الاعتقاد إنه اقوى من الدين، الذى ادى إلى الفتوح الأولى، ومن مطامع الأمويين الشخصية، ومن استغلال العباسيين الاستياء ضد الأمويين... إلخ

(٢) دعائم، ١ص٣؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين. ١ص ٦٢.

(٣) الأصطخرى، المسالك، تحقيق. de Goeje ، ط (B.G.A) ١٨٧٠، ص١٢.

(٤) ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، ط Leyden ، ١٩٤٨، ٢ص ١٦٩.

(٥) انظر. بعده.

(٦) المجالس والمسايرات، ٢ورقات ٢٤–٢٥.

من قول المهدي: «لنملكن أنا وولدي ولد العباس، ولتدوسن خيولي بطونهم[1]»، ومن قول وليّ عهده أبي القاسم: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه- إن قدرت- وإلا أهلك دونه[2]»، ويقصد بذلك الخلافة العباسية وأملاكها في المشرق.

وكان الفاطميون يقدّرون عدم إمكان تحقيق الأماني في القضاء على العباسيين، ووراثتهم في دار الإسلام الواسعة، ببقائهم في ركنهم المنعزل في المغرب. وكخطوة أولى نحو تحقيق أهدافهم، وضعوا نصب أعينهم غزو مصر؛ إذ لم يغب عنهم أن فتحها معناه فتح الشام، والسيطرة على الحجاز، وأنها طريق العراق؛ فضلاً عن أن غناها وثروتها يساعدهم في تحقيق أهدافهم في دار الإسلام. وإن كنا لا نستطيع أن نتلمس قصد الفاطميين الأول من فتح مصر، وهل هو بقصد البقاء فيها، أو بقصد اتخاذها قنطرة لتحقيق مشروعاتهم ضد العباسيين. ولا نزاع في أن الفاطميين لم يرحلوا إلى المغرب إلا ليعودوا في قوة إلى المشرق.

*

ومع ذلك؛ فقد تأخر فتح مصر والمشرق، بسبب أن المغرب ذاته لم يسلس لهم قياده. فالمغرب الأقصى، كان يخضع لدولة علويّة، عرفت بالأدارسة، اتخذت فاس[3] أو تِلْمسان عاصمة لها، والمغرب الأوسط كان يخضع لدولة خارجية، عرفت بالرستَمية، اتخذت تاهَرت[4] عاصمة لها، وحتى في جنوب المغرب ظهر بنو مدرار وهم دولة خارجية أخرى، اتخذت سِجِلْماسة[5] عاصمة لها. يضاف إلى ذلك، وجود قبائل بربرية، عرفت بضراوتها، تتمتع أبداً بحريتها، مثل: زِناتة في أقصى المغرب، ومصمُودة حول جبال دَرَن[6] -وهو الأطْلَس- والطوارق أو صِنهاجة أو الملثمون في الجنوب قرب السودان. ووراء كل هؤلاء توجد الخلافة

---

(١) سيرة جعفر الحاجب، ص ١١٢.
(٢) إتعاظ، ص ٩٩.
(٣) عنها: معجم البلدان، ٦ص ٣٢٩.
(٤) عنها: نفسه، ٢ص ٣٥٤-٣٥٧.
(٥) أنظر. قبله.
(٦) عنها: معجم البلدان، ٤ص ٥٥.

الأمـوية فى الأندلس، التى لها قـواعـد على سـاحل المغـرب المقـابل للأندلس، وأنهـا تساند هـذه الدول أو القبائل على حسب مقتضى الأحوال.

وفى إفـريقـيـة أو تونس ذاتهـا -التى ظهـر فـيهـا التشـيع الإسمـاعيلى- لقى الفاطمـيون فى أول أمـرهـم صعـوبات عديدة؛ أتى بعضـهـا من أقـرب أتباعـهـم. فأبو عـبـد الله الشـيـعى وأخـوه أبو العبـاس، وكـلاهـمـا كـان السـبب فى نشـأة دولة الفاطميين، مـا لبثا أن تآمرا على المهدى؛ مما جعل هـذا الأخـيـر يسعى إلى التـخلص منهما[1]، وفـعل معـهـمـا مـا فـعله أبو جـعـفـر المنصـور مع أبى مسـلـم الخراسـانى، الذى كان هو الآخر السبب فى ظهور دولته العباسية؛ وولى المهدى بدله فى الدعوة جـعـفـر بن مـنصـور اليـمن، وفى القـضـاء النعـمـان بن حـيـون. وقـد تـرتب على التخلص من أبى عـبد الله الشـيعى ثورة قبيلة كِتامـة، التى عاونت الفـاطميين على إنشـاء دولتـهـم فى إفـريقـيـة، وإن تمـكن ولىّ عـهـد المهـدى وهو أبو القـاسـم، من محاصـرتهم وهـزيمتهم فى ٢٩٨/ ٩١٠-٩١١[2]. ويبـدو أن فتناً أخـرى قامت بعـد ذلك ، حتى قيل إن المهدى لم ينم طوال عشر سنوات، إلا على صهوة جواده.

وخـوفـاً من أعدائه شـرع المهـدى فـى إنشـاء عـاصـمـة حـصـينة٣٠٣/ ٩١٥. سماها باسمه: المَهْدِية[3]، وإن لم ينتـقـل إليهـا إلا فى ٣٠٨/ ٩٢٠، واختـار شـبـه جزيرة صـخرية منعـزلة على الساحل، أشبـه بالكف المتصل بالذراع؛ فـأشاد فيها المبـانى من الصـخـر، وأمـر أن تنقـر دار صناعة فى الجـبل المحـيط بهـا، تسع مـائتى سـفـينة وعليـهـا باب مـغـلق، وأنشـأ فى باطن الأرض الأهـراء لخـزن الغـلال، وأقـام

(١) إتعاظ، ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ٩٧؛ الكامل، ٦ص ١٣٥.

(٣) نفسـه، ص ١٠١ ومـا بعـدها؛ نفسـه، ٦ص ١٥١-١٥٢؛ معـجم البلدان، ٨ص ٢٠٥ ومـا بعـدها. هى غير مهدية الموحدين. التى كانت مكان الرباط فى المغرب الأقصى، على اسم المهدى بن تومرت، وأما هذه فتقع جنوبى القيروان، وقد بنى المهدى الفـاطمى بجـوارها مدينة أخرى اسمها زويلة، وهى إحدى المهديتين. أيضاً: ابن عذارى، البيان، ١ص ٢٣٤؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art al-Mahdiya) t 3, P. 127-128;

Mahdiya, recherches d'archéologie Islamique. Paris, 1965 : Lézine و

Mahdiya. Quelques Précisions sur la " Ville" des Premiers Faimides. Revue des Etudes. Islamiques XXXV, 1967, P 82 sqq.

مصانع الماء، وأحاط المدينة بالأسوار والأبواب الضخمة، وقال:« اليوم آمنت على الفاطميات» ، أى أن الفاطميين فى مكان حصين. وتؤيد الكشوف الأثرية الحديثة وجود حصون كثيرة من عهدهم، كانت تخدم العسكرية الفاطمية.

ومع أن المهدى كان يعلم أنه لا يستطيع – والفتن الكثيرة حوله– فتح المشرق إلا أنه أحب ألا يضيع العزم، ويضيع أصول السياسة لدولته الناشئة[1] ، فوجه أولى الحملات إلى مصر، بقيادة ولىّ عهده أبى القاسم فى سنة٣٠١-٩١٣[2]، فملكت الإسكندرية والفيوم، وبعض الصعيد؛ مما جعل فى يده أكثر بلاد مصر. ولكن هذه الحملة فشلت بسبب أن الخلافة العباسية، التى كانت استعادت مصر بعد الطولونيين؛ عملت كل ما فى مقدورها للإبقاء على سيطرتها عليها. فقد أرسل الخليفة، العباسى المقتدر بالله أكبر قواده الأتراك، وهو مؤنس الفتى أو الخادم، الذى عرف بالفحل[3]، فى جيش كثيف نجح فى إرغام الفاطميين على التقهقر؛ بحيث لما نزل مؤنس مصر رحل أبو القاسم.

هذه الهزيمة لم تقض على أمل المهدى فى تحقيق مشروعاته فى غزو مصر، فأرسل فى العام التالى فى سنة ٣٠٢/٩١٤[4]، حملة ثانية بقيادة قائد مغربى اسمه: حباسة، بلغ عددها مائة ألف أو زيادة، بطريق البحر، فاستولت على الإسكندرية، ثم سارت إلى مصر أو الفسطاط؛ ولكن المقتدر بالله العباسى أرسل مؤنس الخادم من جديد، الذى أجبر أهل الفسطاط على محاربة جيش الفاطميين[5]. وبعد معركة عنيفة قتل فيها عشرة آلاف من أهل مصر، تمكن مؤنس من هزيمة جيش حباسة، الذى نجا بجلده بهروبه إلى المغرب، فقتله المهدى لفشله.

وبعد خمس سنوات فى ٣٠٦/٩١٨[6]، جهز المهدى جيشاً كثيفاً حشد له عرب إفريقية وبربرها، عقد لواءه لأبى القاسم، وهى المرة الثانية التى يذهب فيها

---

(١) المجالس والمسايرات، ٢ورقات ٢٤-٢٥.
(٢) إتعاظ، ص ٩٨-٩٩.
(٣) ابن حماد، ص ١٢.
(٤) عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبرى، ص ٥٣؛ اتعاظ، ص ٩٩-١٠٠؛ الكامل، ٦ص ١٤٩-١٥٠.
(٥) الخطط، ١ص ٢٨١.
(٦) نفسه، ١ص ٢٨١؛ البيان، ١ص ١٨١. اتعاظ، ص ١٠٣-١٠٤؛ العبر، ٤ص ٣٩؛ مسكويه، تجارب، ١ ص ٧٢.

ولىّ العهد لغزو مصر، وقد صحبه جوذر [1]، الذى يتلّقب بالأستاذ، وترك لنا وصف سيرته مع الخلفاء الفاطميين. فوصل أبو القاسم إلى الإسكندرية فى أسطول من ثمانين مركباً، واستولى عليها فى ٩١٩/٣٠٧، ثم استولى على الجيزة والفيوم. ولكن مؤنس الخادم، سار من جديد فى أسطول الشام ومعه النفط، فقابل أسطول الفاطميين قرب رَشيد، وأسر قائد الأسطول الفاطمى. ثم ما لبث أن انتشر الوباء بين جند الفاطميين، وأجبرت الحملة على الانسحاب، وبسبب هذا الانتصار على الفاطميين، أصبح مؤنس يعرف بمؤنس المظفر.

*

ثم توقفت هذه الحملات الكبيرة على مصر؛ بسبب عودة القبائل البربرية إلى التمرد، بحيث إنه عند موت المهدى، اضطر ولىّ العهد أبو القاسم نزار الذى تلّقب بالقائم بأمر الله[2] أن يخفى موته وقتاً. فقد كانت القبائل المغربية لا تنظر لحكم الفاطميين بارتياح، وهى التى تعودت على التمتع بحريتها، فضلاً عن الدسائس الكثيرة التى كان يثيرها أمويو الأندلس بين هذه القبائل ضد الفاطميين. فاستمر التمرد من عهد أبى القاسم نزار(٣٢٢-٣٣٤/ ٨٣٤-٩٤٥)، إلى عهد أبى الطاهر إسماعيل، الملّقب بالمنصور بنصر الله[3] (٣٣٤-٣٤١/ ٩٤٥-٩٥٢).

وبلغ الخطر أقصاه بثورة رجل اسمه: أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتى[4]، الذى عرف أيضاً بصاحب الحمار؛ لأنه كان أهدى حماراً فى أول حركته ضد الفاطميين. وكان أبو يزيد على مذهب الأباضية النكارية.[5] سموا هكذا لأنهم أنكروا إمامة عبد الوهاب حفيد رستم، مؤسس دولتهم بالمغرب، أو النكاث لنكثهم

---

(١) أنظر. سيرته،قبله.

(٢) عنه: وفيات، ٣ ص ٤٠٨ وما بعدها.

(٣) انظر، وفيات، Ency. de l'Isl, (art. al-Mansûr Ismâ,îl) t 3, P. 272

(٤) عنه: سيرة جوذر، ٢ص ٤٤ وما بعدها، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٠ وهامش؛ إتعاظ، ص ٩/ ١٠ وما بعدها؛ ابن حماد، ص ١٨ وما بعدها؛

انظر. Cherbonneau، Documents inédits sur l'herltique Abû Yezid... J.A. t 20 1852 P. 470-510;

Ency. de l'Isl, (art Abû Yazîd) t I, P 115-116.; 2 éd t I, P. 167-68.

(٥) الدرجينى، طبقات المشايخ بالمغرب، ١ص ٥١.

البيعة له، أو حتى الشغبية لأنهم ادخلوا شغباً -وهى إحدى فرق الخوارج- ولا يزال مذهب الخوارج منتشراً إلى الآن فى الجزائر. ومع أن أبا يزيد عارض الفاطميين منذ ظهور دعوة أبى عبد الله الشيعى، إلا أنه لم يجاهر الفاطميين بالعداء إلا عقب موت المهدى؛ كما اعتمد على تأييد عبد الرحمن الثالث، خليفة الأندلس الأموى، وكان يرسل إليه بأخباره أولاً بأول[1]، فضلاً عن اعتماده على قبيلة زناتة التى ينتمى لها. وكادت فتنة أبى يزيد تقضى قضاء مبرماً على دولة الفاطميين ووصف لهم باللعين[2]؛ بحيث إنه فى وقت من الأوقات لم يتبق لهم إلا المهدية. وتصف لنا سيرة الأستاذ جوذر هذه الفترة العصيبة، التى انتهت بفضل مثابرة الفاطميين وأتباعهم بالانتصار على مخلد بن كيداد فى وقعة يوم الجمعة[3]. فقد جاء للفاطميين مدد على غير انتظار من قبائل بربرية جنوبية، وهى قبائل الطوارق أوصنهاجة أو الملثمين القوية، التى كانت فى عداء ضد زناتة، التى تؤيد الأمويين وأنصارهم. وقد توفى أبو يزيد متأثراً بجراحه فى ١٧ المحرم ٣٣٥[4]/١٩ أغسطس ٩٤٧، وهرب أولاده إلى بلاط قرطبة عند الأمويين.

ومع ذلك، فإن الدولة الفاطمية، لم تغفل خطتها فى غزو مصر خلال هذه الفترة، ولم تكن ثورات القبائل البربرية ضدها قد اشتدت بعد. ففى أوائل عهد القائم، يذكر المؤرخون أن القائم كان يخاطب جماعة من المصريين، وأنه أرسل حملة دخلت الإسكندرية فى ٩٣٦/٣٢٤، ربما كمدد لحملة كانت أرسلت فى آخر أيام المهدى بقيادة حبشى بن أحمد المغربى فى ٩٣٣/٣٢١، ومكثت فى مصر بعد وفاته. ولكن الخليفة العباسى الراضى بالله وقتئذ، أنفذ إلى مصر أحد قواده الأشداء، وهو محمد بن طغج، الذى كان قد اشترك من قبل مع جيش مؤنس الخادم ضد الفاطميين؛ فيرسل الخليفة العباسى معه جيشاً وأسطولاً، وتهزم حملة القائم[5]، الذى ما لبث أن انشغل وخلفه فى إخماد ثورة القبائل البربرية

(١) ابن عذارى، البيان، ٣ص ٢٢٨ وما بعدها؛ انظر Lèvi Provençal: Hist. Esp. Mus, II, 10-4.

(٢) إفتتاح الدعوة، تحقيق Dachroui ، تونس ١٩٧٥، ص ٦٦.

(٣) انظر. سيرة الأستاذ جوذر، ٤٤ وما بعدها.

(٤) البيان، ١ص ١٨٢.

(٥) الكندى، الولاة، ص ٢٨٤-٢٨٧؛ البيان، ١ص ٢٠٩، اتعاظ، ص ١٠٨. لعلها فى ٣٣٣-٣٣٤.

المتمردة، فلم يجدد حملاته على مصر. وقد كان هذا النصر سبباً فى أن الراضى منح ولاية مصر لمحمد بن طغج، وأضاف إليها أعمال الشام والحجاز، ولقبه بالإخشيد(١)، باسم ملوك: فرغانة فى منطقة ما وراء النهر؛ حيث كان محمد ابن طغج أصلاً من هذه البلاد

*

والواقع إن وقف الحملات على مصر، راجع أيضاً إلى وجود هذا الرجل القوى المعروف بالإخشيد(٢)، الذى أراد أن يستفيد من مركزه فى مصر بين الفاطميين الطامحين فى المغرب، والعباسيين الضعاف فى المشرق، بزيادة سلطانه فى مصر، وجعلها إمارة استيلاء له ولولده من بعده، مثلما فعل ابن طولون من قبل. إلا أن الخليفة الراضى بالله، تيقظ لحقيقة أهداف الإخشيد، فأرسل إليه من قبله، وفى أول الأمر، وزيراً هو جعفر بن الفرات؛ ليستطلع الأحوال، ثم أرسل إليه القائد التركى ابن رائق، أقوى شخصية فى خلافة العباسيين والمسيطر عليها، فهو أول من اتخذ لقب أمير الأمراء، وهو اللقب الذى أبطل الوزارة(٣)، وجعل صاحبه المشرف على كل ما فى الدولة العباسية. ولكن الإخشيد منع ابن رائق من دخول مصر، وهزمه عند العريش، وأفلت ابن رائق فى عدد قليل(٤)، وقبل صلحاً من الأخشيد، بمقتضاه يصبح الإخشيد فى ولاية مصر والشام، وخصوصاً أنه قد ظهر لابن رائق منافسون فى منصبه الجديد، مثل: البريديين(٥)، والحمدانيين(٦).

وبعد موت الراضى، ومجئ المتقى بالله، سعى الإخشيد -وقد قوّى مركزه فى مصر- إلى نقل الخلافة العباسية إلى مصر؛ فقد أراد أن يقوم بما قام به ابن طولون من قبل. وقد أتيحت للإخشيد الفرصة لما سمع بوصول الخليفة العباسى إلى بلاد الجزيرة، هارباً من القائد التركى توزون(٧) عند بنى حمدان

---

(١) البيان، ١ ص ٢٠٩.

(٢) عنه: النجوم، الجزء الثالث؛ Ency. de l'Islam (art. Ikhshidides) cf.

(٣) انظر. قبله.

(٤) يحيى الأنطاكى، (P.O.) ص ٢٧٠ [٢٢].

(٥) انظر Ency. de l'Isl, (art Al-Barîdî) t I, P. 675-6.

(٦) انظر Ibid, (art Hamdânides) t 2, P. 263 sqq.

(٧) يحيى (P.O.) ص ٧٢٣ [٣٥].

بالموصل، وهو القائد الذى كان قد قتل ابن رائق، واستولى على بغداد، واتخذ لقب إمرة الأمراء. فجدد المتقى بالله ولاية مصر والشام للإخشيد ولولده بعده مدة ثلاثين سنة(1)؛ وإن رفض المسير معه إلى مصر خوفاً من توزون، الذى ما لبث أن قتل الخليفة، لما عاد به من بلاد الجزيرة إلى بغداد، وولى بدله المستكفى، واستمر الحال هكذا إلى أن دخل البويهيون(2) بغداد.

وحينما استولى البويهيون على بغداد، وتمكنوا من قتل توزون، وكانوا أسرة فارسية قوية، واتخذوا لقب الملوك، ولم يكتفوا بلقب أمير الأمراء السابق؛ فإن مركز الإخشيد فى مصر أصبح فى خطر، ولا سيما أن البويهين كانوا على مذهب الشيعة مثل الفاطميين. فنجد أن الإخشيد يسعى إلى تحسين علاقته بالفاطميين فى المغرب؛ فكاتبهم(3)، وكان على وشك إلغاء الخطبة للعباسيين، والدعوة للفاطميين، بل وكان سيزوج ابنته من ولىّ العهد المنصور(4). ولكن اضطراب شئون الخلافة فى المغرب، بثورة القبائل عليها، جعله يتخذ سياسة الحياد بين الخلافتين؛ فكان يذعن بالطاعة للعباسيين، ويدارى الفاطميين، واستمر يحكم مصر إلى أن توفى فى سنة ٩٤٦/٣٣٤.

ويبدو أن سياسة الحياد بين الفاطميين والعباسيين نجحت واستمرت بعد الإخشيد. فحينما تولى عبد أسود من بلاد النوبة اسمه كافور(5)، الوصاية على ابنى الإخشيد، وهما: أبو القاسم انوجور وأبو الحسن علىّ؛ فإن كافوراً فعل مثلما فعل الإخشيد من قبل؛ فسعى إلى مهادنة العباسيين والفاطميين، ولا سيما أن العباسيين لم يكن يهمهم غير حصولهم على مال مصر(6)، وقنعوا بخضوعهم للبويهيين الشيعة. فكان كافور يهادى المعزّ الفاطمى صاحب المغرب،

---

(١) نفسه (P.O.) ص ٧٣٥ [٣٧].
(٢) عنهم، انظر. بعده.
(٣) ابن سعيد، المغرب، ط Leyde ، ص ٢٥-٢٦؛ انظر. سرور، مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص٢٩-٣٠.
(٤) ابن سعيد، ص ٣٧.
(٥) يحيى (P.O.) ص ٧٧٠ وما بعدها. عنه، انظر. وفيات، ٢ص ١٨٥ وما بعدها. كان أسود اللون، اشتراه الأخشيد بـ ١٨ ديناراً.
(٦) النجوم، ٤ص١ س ١٥.

الذى تولى الخلافة منذ ٩٥٢/٤٥١، ويظهر ميله إليه[١]. بل وجدت فى مصر دنانير تذكارية باسم المعزّ[٢]؛ وحتى منسوجات[٣] باسمه أيضاً، وذلك قبل دخول الفاطميين مصر، ولا يمنع الحجاج المغاربة أو دعاة الفاطميين من دخول مصر، وفى أيامه حجت أم المعز الفاطمى، وحضر إليها كافور بنفسه، وبعث فى خدمتها أجناده[٤]. وقد جعلته هذه السياسة الحيادية، مسيطراً على شئون مصر، من دون ولدى الإخشيد، بالاتفاق مع أعيان مصر وجندهم[٥]. وبعد موت أبى القاسم وأبى الحسن، الأول فى ٣٤٩/ ٩٦٠، والآخر فى ٩٦٦/٣٥٥؛ فإن الخليفة المطيع، الذى كان البويهيون قد ولوه الخلافة بعد المستكفى، أرسل إليه تقليد حكم مصر والشام، ولّقبه بلقب الأستاذ، الذى أصبح يوافق لقب أمير. ولكن موت كافور فى سنة ٩٦٨/٣٥٧ [٦]، جعل مصر تضيع نهائياً من الإخشيديين، وبالتالى من العباسيين، لتقع فى أيدى الفاطميين.

*

وعلى العموم تجددت آمال الفاطميين فى فتح مصر فى عهد الخليفة الفاطمى الرابع أبى تميم معدّ المعزّ لدين الله[٧]، الذى تولى بعد المنصور بالله، وخصوصاً أن المعزّ كان ذكياً يتقن لغات متعددة كاللاتينية واليونانية والسودانية، فضلاً عما تمتع به من صفات السياسة والبساطة؛ فهو يوصف بجبار بيت الشيعة[٨]. وأما القائد الذى كفلت له الحملة على مصر، فهو جوهر بن عبد الله[٩]، المعروف بالرومى أو الصِقلّى، مما يدل على أن أصله من صِقلّيّة، ربما من

---

(١) نفسه، ٤ص ٦ س ٥.

(٢) فى سنوات ٩٥٢/٣٤١، و ٩٦٢/٣٥١و ٩٦٦/٣٥٦؛ انظرLane-Poole: Catalogue, P 152 no 856.

(٣) دليل المتحف الإسلامى، رقم سجل ١٣٦٥و ١٦٢٢. فى ٩٥٦/٣٤٥ و ٣٥٥ / ٩٦٥.

(٤) نفسه، ٤ص ٧١ س ١٤.

(٥) نفسه، ٣ص ٣٢٧.

(٦) نفسه، ٤ص ١٠. قيل سنة ٣٥٥و٣٥٦ أو ٣٥٧ أو ٣٥٨ أو حتى ٣٥٩. وفيات، ٢ص ١٨٨. بعد موته تولى آخر الإخشيديين أبو الفوارس أحمد بن علىّ بن محمد بن طغج الأخشيدى، وذلك بناء على تقليد ورد نصه فى كتاب « المكافأة» وهو مخطوط. عن ذلك:
L'Acte de successlon de Káfûr d'après Maqrîzî. Annales Islamologiques.: Bianquis T.XII, 1934, P. 263 sqq.,

(٧) عنه وفيات ، ٢ص ٥٤٧ وما بعدها.

(٨) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادى وغيره، ص ٦١.

(٩) مثلا: علىّ إبراهيم، تاريخ جوهر الصقلى، القاهرة ١٩٣٢/١٣٥١؛
Ency. de l'Isl, (art Djawhar) t I, P. 1058; 2, éd t2, P. 507-8;
Die Slaven im Dienste der Fâtimiden. Aro, XXI- 1957, 560-71. :Herbek

مكان كان لا يزال فى أيدى الروم، أو أنه عاش وهو طفل فى صِقْلّية فى بيئة رومية. وقد عمل فى بلاط الفاطميين، وعمل فى دواوينهم، وصار فى مرتبة الوزير[1]، حتى عرف بالكاتب، مما يبيّن طموحه إلى تحسين مركزه؛ كما عرف بالقائد بسبب أن الفاطميين لم يكن لهم قائد فى مثل كفاءته، وحينما تم فتح مصر لقّبه المعزّ بلقب: مولى أمير المؤمنين[2]، أى أن المعزّ شديد التمسك به. وكانت هالة النصر تحيط بجوهر منذ أن أرسله المعزّ مرتين ضد قبائل البربر فى سنتى ٣٤٧/٩٥٨ و٣٤٩/ ٩٦٠[3]، واستطاع أن يدين المغرب كله لطاعة المعّز، حتى أنه اصطاد من المحيط سمكاً، حمله فى قلال؛ بحيث أن ما قام به جوهر لم يكن له مثيل منذ أيام عقبة بن نافع، الذى وصل أيضاً فى غزواته إلى المحيط. وفى مرة مرض جوهر، فعاده المعزّ، وقال: هذا لا يموت، وستفتح مصر: على يده[4].

ولما اطمأن المعزّ إلى سيطرته فى المغرب، حتى أنه قام بنفسه بحملة فى جبال إفريقية، وقضى على عصيان قبائلها المتمردة[5]، ووجه نحو الأندلس دعاته، حتى كون الأتباع فيها[6]؛ حشد جوهر قائده المظفر المال والعدة[7]، وأرسله فى جيش معظمه من المغاربة من قبيلة كتامة ونحوها من طوائف البربر، من العنصر عينه الذى كان يهدد مصر فى أيام الفراعنة، بلغ أكثر من الف فارس، وهذا العدد لم تر له مصر مثيلاً من قبل، منذ عهد الإسكندر ذى القرنين. كذلك صاحب الجيش أسطول بحرى، ليقضى على أى خطر، قد يأتى من تدخل الروم أى البيزنطيين، الذين كانوا قد بدأوا يطمعون فى استعادة مستعمراتهم التى فقدوها بظهور الإسلام، وتحركهم الأطماع فى أمة الإسلام المنقسمة. وقد قال الشاعر المعروف محمد بن هانئ فى رحيل جوهر، قصيدته المشهورة، ومطلعها:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع

---

(١) إتعاظ، ص ١٣٤-١٣٥.
(٢) سيرة جوذر، ص ١٣٥.
(٣) الاستقصاء، ٣ص ١٨٢.
(٤) إتعاظ، ص١٦٢.
(٥) نفسه، ص ١٣٤.
(٦) انظر، مقالة مكى، التشيع فى الأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، عدد ١٩.
(٧) الخطط، ١ص ١٥٢؛ اتعاظ ؛ ص ١٣٤ وما بعدها؛ النجوم، ٤ص ٤١.

وكان خروج هذا الجيش من القيروان فى ربيع الآخر ٣٥٨/ فبراير ٩٦٩، وهى القاعدة الحربية -المصر- التى كان العرب قد اتخذوها من قبل لفتح المغرب، ولكنها الآن تستخدم لفتح المشرق. فخرج الخليفة المعزّ لوداع جوهر. فوقف جوهر أمام خليفته، ليقبل يده وحافر فرسه، فأمره المعزّ، وقال له: إركب، فركب. وقد أصبح خروج الخليفة الفاطمى لتوديع الجيش من تقاليد الفاطميين؛ بقصد منحه البركة(١)، والدعوة له بالنصر؛ بحكم أن الأئمة الفاطميين مقربون من الله. وعلى العكس، فإن الخليفة طلب من جميع رجال الدولة النزول لجوهر، بما فيهم أولاد المعزّ، كما أن المعّز بعد رجوعه إلى قصره، أنفذ لجوهر ملبوسه وما كان عليه سوى خاتمه وسراويله؛ وذلك على سبيل البركه أيضاً. فكان هذا الاهتمام الكبير من قبل خليفة الفاطميين؛ يدل على الآمال الكبار، التى عقدها بفتح مصر.

ولم يكن المصريون سعداء فى حكم ولاة العباسيين، وكانوا يرغبون فى تحسين مركزهم بمجئ الفاطميين، بحيث إن كثيرا من المؤرخين يذكرون أن مجئ الفاطميين إلى مصر كان بناء على دعوة المصريين. فيذكر المقريزى(٢) أن من أسباب مجيئهم الضنك الاقتصادى الذى ساد مصر بعد موت كافور، مما جعل كثيراً من المصريين يكتبون للمعزّ. فقد وقعت مجاعات، وتعذر وجود الأقوات، وكان جند العباسيين الترك يتحاربون فيما بينهم، فقتل خلق كثيرون وانتهبت الأسواق والبيوت وأحرقت، وضاعت أموال الناس. كما أن شيعة المعزّ بمصر وجدوا الفرصة سانحة، فطلبوا منه انفاذ العسكر، وقالوا له: «إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها»(٣)، ويقصدون بالحجر الأسود كافوراً.

ولما وصل جيش المعزّ إلى نواحى الإسكندرية، سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر، باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد والكاتب والقاضى والتاجر

(١) وفيات، ١ص ٢١٠.
(٢) إغاثة الأمة، الطبعة الثانية، ص ١٣.
(٣) إتعاظ، ص ١٤٦-١٤٧؛ النجوم، ٤ص ٧٢ س ١٥-١٧ (يقول الدنيا كلها).

والمسلم والقبطى، وذلك بتَرُّوجة(1) بلدة قرب الإسكندرية. فكتب لهم جوهر كتاباً طويلاً(2)، التزم فيه بأن يحترم ملة أهل مصر- يقصد المذهب السنى(3)- إذ الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وألا يتعرض لأملاكهم، وأن يعتنى بأحوال بلادهم الاقتصادية بتجويد العملة، وأن يجاهد الروم الذين غزوا فى الشام وبلاد الجزيرة، وأن يؤمن الحج، الذى انقطع بسبب الفوضى التى كان الحجاز يعيشها.

ولكن أتباع الدولة العباسية من الإخشيديين صمموا على المقاومة، وكان يقودهم رجل اسمه فاتك، الذى تلقب هو الآخر بالأستاذ(4)؛ مما يدل على أنه كان فى مركز الرئاسة فى مصر مثل كافور، وقالوا: ما بيننا وبين جوهر إلا السيف- فقطعوا جسور الجيزة، وانتظروا جوهراً وجيشه بمنية شلقان، شرق القناطر الخيرية. فعبر البربر إليهم بقيادة جعفر بن فلاح(5)، أحد رجال جوهر، ومن أكبر قواد المعزّ. وقد سهّل المصريون لجيش جوهر التغلب على بقايا الإخشيدية والكافورية -ومعظمهم من الترك- فى ناحية الجيزة، فجعلهم يحرسون له شاطئ النيل من ناحيته(6)؛ بحيث اضطرت الإخشيدية والكافورية إلى الهروب إلى الشام.

وحينما دخل جوهر الفسطاط عاصمة البلاد بطبوله وجنوده فى منتصف شعبان ٣٥٨/ ٥ يوليو ٩٦٩، نشر كل من كان عنده بند من المصريين بنداً، عليه اسم المعزّ لدين الله. ولما طالب المصريون جوهراً بتجديد الأمان جدده(7) لهم؛ كما

---

(1) معجم البلدان، ٢ص ٣٨٤.

هذه القرية، كانت موجودة لغاية القرن التاسع الهجرى، لحيث ورد اسمها فى كتاب التحفة السنية لابن الجيعان (طبعة بولاق، ص ١٢٤)؛ وقد جعلها بقرب أبى المطامير بالبحيرة.

(2) إتعاظ، ٢ ص ١٤٨ وما بعدها.

(3) يعتبر المعزّ نفسه محيى سنة محمد، الذى هو من سلالته، إذ لدينا عملة سكّت فى عام ٣٤٢/ ٩٥٣، منقوش على أحد وجهيها: محيى سنة محمد. انظر. Launois :

Catalogue. B.E.O. t XXIV. Damas, 1971, P. 30.

(4) سير الآباء، ٣ ورقة ٣٨ ب.

(5) إتعاظ، ص ١٥٥ وهامش (2). عنه : وفيات، ١ص ٢٠٠.

(6) وفيات، ١ص ٢١١.

(7) إتعاظ، ص ١٥٦.

كتب لأهل الريف والصعيد اماناً ثالثاً[1]، ونص على إجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه. وبذلك أخذ جوهر مصر بلا ممانعة كما لاحظ السيوطي[2]، وانتهى الحكم العباسي في مصر بعد أن استمر حوالي ٢٣٥ سنة[3]، وقال ابن هانئ للشاعر في هذه المناسبة:

يقول بنو العباسِ هل فُتحت مصرٌ فقل لبني العباس قد قُضي الأمر[4]

بات المصريون في أمان، فلما أصبحوا وحضروا للتهنئة في المكان، الذي نزل فيه جوهر وجنوده، وهو ما عرف بالمناخ السعيد، وجدوا أنه وضع أساس عاصمة جديدة[5]، بما فيها الجامع والقصر، وأنه حَفر الخندق، وأدار سوراً سميكاً من اللبن -الطوب- كما اختطت كل قبيلة من القبائل المغربية التي جاءت معه حارة أو مكاناً لها، عرفت باسمها. هذه المدينة التي انشئت خلف الفسطاط، بجوار جبل المقطم، سماها جوهر اول الأمر المنصورية، ربما تقرباً إلى سيده وخليفته المعزّ، بإحياء ذكرى والده المنصور، فظلت تعرف بذلك حتى قدم المعزّ، فسماها القاهرة، تفاؤلاً بأنها ستقهر الأعداء[6]، ولا سيما أن المؤرخين نسبوا تسمية القاهرة إلى ظواهر فلكية. فكثير من المدن الإسلامية نشأت إثر تعويذات فلكية، وهي المدينة التي سماها الأوربيون بالأحرف الأولى: "Cairo" أو "Le Caire" ؛ كما نسبت إلى المعزّ نفسه، فسميت أيضاً: القاهرة المعزّية، أو حتى

---

(١) ابن حماد، ص ٤١.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ص ١١.

(٣) النجوم، ٤ص ٢٥ س ٤-٥.

(٤) ديوان ابن هانئ، تحقيق زاهد عليّ، بيروت ١٣٢٦ هـ، ص ٨٦-٨٧.

(٥) نفسه ، ٤ص ٣٤ وما بعدها؛ إتعاظ ص ١٥٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ ص ٢٠٤-٢٠٥؛ انظر. كرزويل، تأسيس القاهرة، الترجمة للسيد محمد رجب، المقتطف ١٩٣٤ (نوفمبر وديسمبر)؛

Ency. de l'Isl, (art. le Caire) t I, P. 841 sqq.

(٦) ينفي المعزّ بشدة في حديث له فائدة التنجيم إلا في العلم؛ مما يدل على بطلان هذا الرأي، فقد نقل عن المعز: « من نظر في علم النجوم ليعلم عدد السنين والحساب، ومواقيت الليل والنهار، وليعتبر بذلك؛ عظيم قدرة الله عز وجل، وما في ذلك من الدليل على توحيده جل ذكره ولا شريك له؛ فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم الغيب والقضاء بما يكون، فقد اساء وأخطأ. وقوله: « إن أباه -المنصور- عانى من الحروب كثيراً، فما كان ذلك باختيار من علوم النجوم، ولا التفت إليه، وإنما علم النجوم هو القدرة على خلق الله». عيون الأخبار، ٦/ ٧ ورقات ٢٦٦- ٢٦٨؛ وفيات، ٣ص ٥-٦.

مدينة[1] المعزّ، كما تظهر في نقوش العملة. فكانت القاهرة رابع عواصم مصر منذ الفتح العربي، وهي: الفسطاط والقطائع والعسكر (المعسكر)، ثم القاهرة. وكلها توجد تقريباً في مكان عاصمة مصر القديمة منف عند رأس الدلتا؛ وإن قامت جميعها في شرقي النيل وليس في غربه كمنف؛ حيث شبهت القاهرة بزر مروحة الدلتا "Bouton de l'éventail"؛ لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته[2]، أوخصر للنيل الرشيق. ومع ذلك؛ فإن القاهرة على عكس العواصم الإسلامية المصرية نشأت من أول أمرها لتكون مدينة، وليست معسكراً. وقد كان بناء عاصمة جديدة دائماً يعني قيام دولة جديدة؛ فكان بناء القاهرة في مصر يعني قيام خلافة الفاطميين في مصر.

*

ولكن انتصار جوهر في مصر، وإنشاءه القاهرة، لم يكن يعني أن الفاطميين أخذوا مصر نهائيا. فبقايا الإخشيديين الذين انهزموا في مصر، قد انتقلوا إلى الشام بقيادة الحسن بن طغج، أخي الإخشيد، وعرف بالأستاذ أيضاً. ومع ذلك؛ فإن خطر هؤلاء لم يكن كبيراً؛ بحيث إن الحملة التي أرسلت خلفهم، بقيادة جعفر بن فلاح، هزمتهم في بلدة الرملة[3]، وأسر الحسن بن طغج، ودخل جعفر دمشق في ٣٥٩/ ٩٧٠.

ولكن الخطر الذي أصبح يهدد انتصار الفاطميين في مصر، وسيطرتهم الأولى في الشام، أتى من قبل قبائل عربية كثيرة خرجت من البحرين بتحريض العباسيين، الذين هالهم انتصار الفاطميين في مصر، وزحفهم إلى الشام.وكان عرب البحرين أول أمرهم قد اعتنقوا مذهب الإسماعيلية؛ فنعرف أن الدعوة الإسماعيلية الأولى خرجت من الكوفة المجاورة للبحرين، وأنه أرسل منها الدعاة إلى كل الأقاليم الإسلامية، وهي ما كانت تعرف للأتباع بالجزائر، مفردها جزيرة، أي إقليم تقام فيه الدعوة الإسماعيلية. وقد كانت هذه الدعوة في الأقاليم تتكيف على حسب كل بيئة، وتتسمى فيها بأسماء متعددة، أو حتى على اسم دعاتها[4]، كما في البحرين. فانتشرت الدعوة الإسماعيلية في البحرين على يد

(١) انظر. Miles: Fatimid Coins. Amer Num. Soc New York L I (1951) P.15

(٢) انظر. Casanova ; La Citadelle du Caire. M.M.A. F. T.VI,Fasc 4,5. Paris,1894, P. 524

(٣) إتعاظ، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) الملل ، ص ١٤٧ .

دعاة منهم: الحسين الأهوازى، ومهرويه، وعبادان[1]، وعلى الأخص حمدان ابن الأشعث[2]، وهو أخو عبادان الذى قتل، وعرف بقرمط، وذلك فى حوالى سنة ٢٧٧/ ٨٩٠؛ بحيث عرف أتباعه فى البحرين بالقرامطة نسبة إليه، وعرفت الدعوة بالقرمطية. وقيل إنه عرف بقرمط لقصر قامته أو قصر رجليه، أو لأنه فى سيّره كان يقرمط أى يقارب بين خطواته، أو لأن بشرة وجهه كانت حمراء تشبه القرمد، وهو الطوب الأحمر(الآجر). ويقول المستشرق "Ivanow"، إن كلمة قرمط كانت معروفة عند أهالى بلاد البحرين، ومعناها فلاح، كناية عن أن دعوة الإسماعيلية كانت بين الفلاحين فى السواد أى العراق. وكان حمدان قرمط يدعو للأئمة الفاطميين، ويجمع باسمهم الضرائب المذهبية، مثل: الفطرة لأخذها فى عيد الفطر، والنجوى أو النجاوى[3] كناية عن السرية، والهجرة بمعنى هجرة الأتباع له، ويرسلها إليهم. ولكننا لا نعرف شيئاً مفصلاً عن تطور الدعوة الفاطمية على يد حمدان قرمط هذا؛ إلا أنه أقام فى كل قرية من قرى البحرين داعية؛ مما يدل على نشاطه الزائد.

ولما خلفه فى الدعوة أبو سعيد الحسن بهرام الجَنّابى[4]، الذى هو من أصل فارسى، وينسب إلى جنّابة على الخليج العربى، وكان قد أخذ الدعوة من قرمط هذا، بذل هو الآخر مجهوداً كبيراً للدعوة. وقد أوجد أبو سعيد نظاماً حربياً بجانب الدعوة بمقتضاه كوّن جيشاً قوياً، فكان يجمع الرجال وحتى الأطفال، ويدربهم على ركوب الخيل والقتال. ولما شعر أبو سعيد الجنابى بقوته، استولى على هَجَر[5]، عاصمة البحرين، وهى بين البصرة وعُمان، وبنى مدينة بالقرب منها عرفت بالأحْسَاء[6] فى ٢٨٦/ ٨٩٩. وبذلك أنشأ أبو سعيد أول دولة للفاطميين، قبل أن تظهر خلافتهم بالمغرب، وكان وقوع هذه الدولة الجديدة على

(١) إتعاظ، ص ٣٠-٣١، ٢٠٤ وما بعدها، ٢٢٤.
(٢) نفسه؛ الكامل، ٦ص ٦٩-٧١؛ انظر.
Ency. del'Isl, (art. Karmates) t 2 P. 813 sqq. ; (art. Hamdan Karmat) 2, éd t 3. P. 126.
(٣) إتعاظ، ص ٢١٠؛ ابن أيبك، الدرة، ٦ص ٤٨.
(٤) نفسه، ص ٢١٤؛ نفسه، ٦ص ٥٥ وما بعدها وهامش. عن جنابة، انظر. معجم البلدان، ٣ص ١٤٢-١٤٣.
(٥) عنها: معجم البلدان، ٨ص ٤٤٥-٤٤٦.
(٦) عنها. نفسه، ١ص ١٣٦-١٣٧. يقول إن الذى جعلها عاصمة، هو أبو طاهر.

طريق التجارة إلى الهند، سبباً فى أن تمكنت من الاحتفاظ بكيانها. وقد استطاع أبو سعيد أن يقضى على جيوش العباسيين، التى أرسلت نحوه فى ٢٨٩/ ٩٠٢، كما أرسل جيوشه إلى الشام[1] فى أواخر أيام الطولونيين، ربما لتسهيل خروج المهدى إلى المغرب[2]؛ وذلك بقيادة الحسين بن زكرويه بن مهرويه فى ٢٩٠/٩٠٣، الذى اعتمد على البدو بصفة خاصة. ولكن جيوش الخلافة العباسية، بقيادة محمد بن سليمان الخادم، تمكنت من قهر القرامطة فى الشام، والقبض على زعيمهم الحسين بن زكرويه فى ٢٩١/٩٠٤[3].

ولما قتل أبو سعيد على يد خادمه بالأحْسَاء فى ٣٠١/ ٩١٤، وربما بتحريض من المهدى، إذ أن أبا سعيد كان قد تقرّب من العباسيين؛ فإنه تولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان[4]، بناء على رأى المهدى، الذى كان قد أقام خلافته بالمغرب[5]. فأرسل المهدى إليه تقليد التولية من المهدية، وبهذا تأكد خضوع القرامطة من جديد للدعوة الفاطمية. وفى خلال المدة التى وليها أبو طاهر (٣٠٥-٣٣٦/٩١٤-٩٤٣)، عمل أشياء تؤيد إخلاصه هو الآخر للفاطميين. فسار نحو الكوفة[6]، سنة ٣١٥/٩٢٧، وتوغل فى العراق وهدد بغداد، ووصل إلى الشام حتى حدود مصر، التى كان الفاطميون من ناحيتهم يعملون على إرسال الحملات عليها. ولكن الخليفة العباسى، أرسل قائده مؤنس الخادم؛ كما استعان بالحمدانيين وغيرهم فى طرد جيش أبى طاهر من الشام.

كذلك كان أبوطاهر يعمل على التقليل من هيبة الخلافة العباسية بالإغارة على قوافل الحجاج والفتك بها، ويعامل من يخطفهم من الحجاج كأسرى[7]؛ بحيث امتنع الناس عن الحج. وقد بلغت الجرأة بأبى طاهر أنه استلب الحجر

---

(١) إتعاظ، ص ٢٢٥-٢٢٦.
(٢) انظر. Rise, P. 75 sqq
(٣) إتعاظ، ص ٢٢٩ وما بعدها.
(٤) نفسه، ص ٢٢١؛ العبر، ٤ص ٨٨-٨٩؛ انظر . حسن ابراهيم، عبيد الله، ص ٢١٧ وما بعدها؛ de Goeje :Carmathes t 2, P 69.
(٥) النويرى، نهاية الأدب، ٢٣ ورقات ٧٤-٧٥.
(٦) الكامل، ٦ص ١٧٧.
٧) نفسه.

الأسود من الكعبة فى سنة ٣١٧/٩٢٩[1]، وقلع بابها وحتى الميزاب[2]، وخلع كسوتها وقسمها على أصحابه؛ وذلك ليظهر أن الخليفة السنى لم يعد يستطيع شيئاً، وأنه لا جدوى من بقائه. وقد حاولت الخلافة العباسية إغراء أبى طاهر بالمال لرد الحجر الأسود[3]؛ إلا أنه رفض، وقال. إنا حملناه بأمر من الإمام، وإنما نرده بأمره أو أمر وليّه[4]، لعله يقصد ولىّ العهد. ولدينا رده على الخليفة العباسى بقوله: أنت أمير الفاسقين، أولى بك من أمير المؤمنين. وعلى العكس، لدينا نص آخر، يبين امتعاض المهدى من تصرف أبى طاهر بأخذ الحجر الأسود، حتى أنه أرسل إليه رسالة يلومه على أخذه، ويدعوه إلى رده إلى مكانه[5]. وفعلا رد أبو طاهر الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة، بعد أن كان قد احتفظ به فى جامع الكوفة. وعلى كل حال، بفضل أبى طاهر، نجد أن الدعوة الفاطمية ذاعت فى جميع أنحاء الجزيرة العربية. وبعد موت المهدى اعترف أبو طاهر بخليفته القائم،واستمر على ولائه للدعوة الفاطمية.

ولكن بعد موت أبى طاهر، نجد أن الدعوة فى البحرين، لا تسير بذات التضامن السابق مع الدعوة الفاطمية. فقد وجد فى البحرين فريق مناهض للفاطميين، وهو الفريق الذى تزعمه أبناء أبى سعيد مؤسس دولتهم- إخوة أبى طاهر- ولا سيما أن أبا طاهر لم يترك إلا أبناء صغاراً. يضاف إلى ذلك أن الظروف السياسية كانت قد تغيرت، بظهور البويهيين فى العراق، وهم شيعة أيضاً، وإن كانوا على مذهب مخالف للمذهب الفاطمى، فطمح أبناء أبى سعيد فى تخفيف ولائهم للفاطميين. فنجد أحمد بن أبى سعيد يتولى الوصاية على سابور بن أبى طاهر، الذى ربما قد أوقف الخطبة للفاطميين، وجعلها للعباسيين[6]. وقد استمرت هذه الأحوال العدائية من قبل القرامطة للدعوة الفاطمية قائمة إلى

(١) قطب الدين، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق Wust ، ص ١٦٢.
(٢) عريب بن سعيد، ص ٩٥.
(٣) العبر، ٤ص ٨٩.
(٤) نفسه، ٤س ٢٣٤-٢٣٥؛ الكامل، ٦س ٣٣٥.
(٥) الكامل، ٦ص ٢٠٤-٢٠٥.
(٦) صبح، ص ٢٦٨.

سنة٩٦٨/٣٥٨، وهى السنة التى غزا فيها الفاطميون مصر. ومع ذلك، فإن أحمد لم يقطع صلته نهائيا بالفاطميين، بحيث كان يراسل المنصور والمعز[1].

ولكن بعد موت أحمد بن أبى سعيد، ظهر ابنه الحسن[2]، المعروف بالأعصم أو الأعظم، الذى تولى أيضاً وصاية سابور؛ فإن الدعوة القرمطية فى عهده كشرت نهائياً عن أنيابها للفاطميين، وعادتهم معاداة شديدة. فبدأ الحسن الأعصم بقتل سابور بن أبى طاهر، والإيقاع بأتباعه، وتولى بنفسه حكم القرامطة، وسمى أنصاره باسم: « السادة الراجعين إلى الحق»، أى أنهم لم يعودوا من شيعة الفاطميين. وتحت تحريض العباسيين، خرج فى جمع كبير من أعراب البحرين، ومعهم بنو هلال وبنو سُليم[3]، وهى قبائل رحالة على أطراف العراق والشام، يدفعهم فى الغالب الفقر للاستيلاء على مصر الغنية، والرغبة فى الحصول عليها من المغاربة، بعد أن نقل الفاطميون خلافتهم إليها، واستولوا على الشام. ويقول المؤرخ ابن القلانسى[4]: إن القرامطة انزعجوا من استيلاء المغاربة على الشام، وخصوصا أن الحسن بن طغج، كان قد قرر لهم بعض ما لها؛ كما اتفق الحسن الأعصم مع البويهيين[5]، الذين استقروا فى بغداد، ومع الحمدانيين[6] فى شمال الجزيرة والشام، إذ أنهم جميعاً كانوا يخافون من الفاطميين. وفوق ذلك انضم إليهم بقايا الإخشيديين، وكثير من عرب الشام. ويظهر حماس الأعصم فى قتال الفاطميين من أنه أرسل أيضاً المراكب، التى لعلها جاءت فى البحر الأحمر؛ حيث كان القرامطة يسيطرون على الجزيرة العربية من أيام أبى طاهر.

فخرج هذا الجمع الكبير، المتعدد الأغراض، يحمل رايات الخليفة العباسى المطيع لله. وفعلا نجح الأعصم فى طرد جيش الفاطميين من الشام، وقتل قائده

(١) إتعاظ، س ٢٥٠.

(٢) ابن حماد، ص ٤٦.

(٣) إتعاظ، ص ١٨١؛ العبر، ٦ ص ١٣، ٧٢، ٧٣؛ أنظر.

Ency. de l'Isl, (art. Hilâl) t 2. P. 35-6;(art. Soulaim) t4, P. 542.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ١.

(٥) النويرى، نهاية، ٢٣ ورقة ٩٥، وبعده.

(٦) النجوم، ٤ص ٣٢٦.

جعفر بن فلاح الكتامى بدمشق فى ٣٦٠/٩٧١[1]، وأمر بلعن المعزّ وأظهر التشكيك فى نسب الفاطميين إلى بيت علىّ وفاطمة. ثم تقدم إلى مصر، واحتل الفرَما، مفتاح الديار المصرية، ووصل أمام القاهرة فى أوائل ٩٧٢/٣٦١. ولكن أنقذ الفاطميين سور القاهرة السميك، وخندقها الذى كان جوهر حفره حولها، ومساعدة أبناء مصر بالذات. فيقول المقريزى[2] إن جوهر فرق السلاح على المصريين، مما يدل على تمسك المصريين بخلفاء الفاطميين، وهم الذين دعوهم للمجئ إلى مصر؛ كما ذكرنا. ويبدو أن الفاطميين تمكنوا من إشعال ثورة ضد الأعصم فى البحرين؛ بحيث اضطر القرمطى إلى الانسحاب من مصر، يلاحقه جوهر إلى يافا[3]، التى كانت قد بقيت فيها حامية فاطمية قاومت الأعصم وقت زحفه على مصر؛ وإن بقى القرامطة فى دمشق.

فاسرع المعزّ بإرسال المدد إلى جوهر، ولم يلبث أن جاء بنفسه إلى مصر فى ٧ رمضان ١٢/٣٦٢ يونية ٩٧٣[4]، -أى بعد حوالى أربع سنوات من فتح الفاطميين لمصر- حاملاً معه توابيت آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله، دلالة على عزمه النهائى على نقل الخلافة لمصر، وذلك على الرغم من أن خطر القرامطة لم يقض عليه نهائياً. وقد سعى المعزّ عن طريق الدبلوماسية، من أن يمنع محاولة ثانية للحسن الأعصم من غزو مصر، وكان يسميه اللعين[5] القرمطى؛ فقد أرسل إليه كتاباً يبيّن فيه أن أبا سعيد وأبا طاهر كانا يدينان بالطاعة للأئمة الفاطميين؛ وأن أصل الدعوة الفاطمية والقرمطية واحد، وليس من السياسة فى شئ أن ينضم إلى أعداء الفاطميين، ودعاه إلى طاعته[6]. ولكن القرمطى كان مصمماً على القتال وإخراج الفاطميين من مصر: فجاءها فى جحافل كثيرة فى ٩٧٤/٣٦٣، ومعه هذه المرة كثير من عرب الشام من قبائل الطائيين؛ حيث كان

---

(١) وفيات، ١ص ٢٠٠؛ إتعاظ، ص ٢٤٨-٢٤٩؛ انظر أيضاً: حسن ابراهيم وطه شرف، المعزّ، ص ١١٥ وما بعدها؛ Madelung, Fatimiden und Bahrain- Qarmaten. Islam, XXXIV, 1959, P. 62 sqq.

(٢) ا تعاظ، ١٨٠. يقول: المغاربة والمصريين.

(٣) نفسه، ص ٢٥٠ .

(٤) ابن أيبك، الدرة، ٦ص ١٤٠ . يقال أيضاً فى شوال سنة ٣٦٠/ أغسطس ٩٧٢.

(٥) المجالس المسايرات، تحقيق، ١ص ٢٢٠.

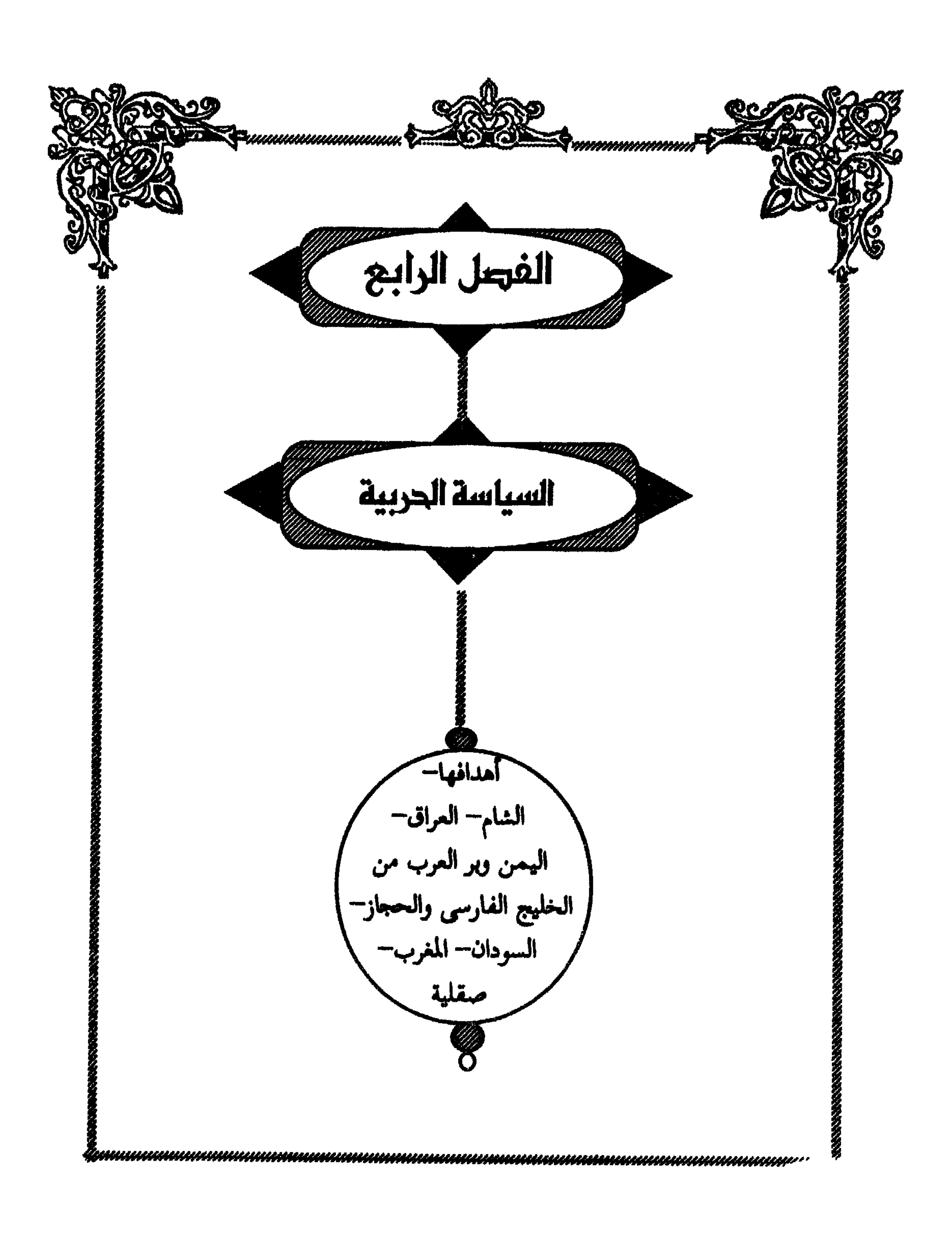
(٦) إتعاظ، ص ٢٥١ وما بعدها.

العداء بين عرب الشام والبربر- كما نعرف- متأصلا منذ أيام الأمويين، الذين حاربوا البربر بقسوة. فأرسل المعزّ لحرب القرمطى ابنه عبد الله، ومعه المظلة شعار الخلافة الفاطمية وإحدى آلاتها الملوكية؛ كما أرسل فى الوقت ذاته إلى حسان بن الجراح زعيم الطائيين، لإغرائه على ترك مساندة القرمطى، مائة ألف دينار، مصنوعة من النحاس، جعلها فى أسفلها الأكياس، بعد أن وضع فى رؤوسها الدنانير الذهب الخالصة(1). فلما نشب القتال انسحب حسان على حسب الإتفاق، فقوى جيش المعزّ على القرمطى، الذى انسحب من جديد إلى الشام. ومنذ ذلك الوقت، توقف خطر القرامطة على مصر، وإن لم يتوقف خطرهم على الشام.

* * *

وبذلك خلصت مصر للفاطميين، واستقرت خلافتهم ثابتة الأركان بالقاهرة قاعدة ملكهم، وأخذوا يتتابعون فيها إماماً بعد إمام.

(1) حسن المحاضرة، 2ص 12؛ ابن أيبك، الدرة، 6ص 159؛ ابن القلانسى، ذيل، ص 3؛ النجوم، 4ص 75.


الفصل الرابع
السياسة الحربية
أهدافها-
الشام- العراق-
اليمن وبر العرب من
الخليج الفارسى والحجاز-
السودان- المغرب-
صقلية

السياسة الحربية

بعد أن اطمأن الفاطميون على خلافتهم، بدأوا فى تنفيذ أهداف سياستهم الحربية، باتخاذ مصر بالذات قاعدة لتحقيق هذه السياسة. فمصر منذ الفتح العربى إلى وقت مجئ الفاطميين، كانت ولاية تابعة للخلافة الإسلامية تنفذ ما تمليه عليها المدينة، ومن بعدها دمشق، ومن بعدها بغداد. ولكن الفاطميين جعلوا من مصر خلافة مستقلة استقلالاً تاماً، تقف على قدم المساواة مع أية خلافة أخرى؛ مما جعل لمصر فى عهدهم سياسة حربية إسلامية خاصة بها. وبذلك عادت لمصر روح الفراعنة القدامى، حينما كانت مصر مركزاً قوياً لتوجية السياسة الدولية.

ولم يكن قصد الفاطميين فى سياستهم الحربية فرض سيطرة عنصر معين، كما فعل الأمويون حينما كان هدفهم فرض سيطرة العنصر العربى، أو العباسيون الذين قاموا بتأييد الفرس، وغيرهم من الشعوبية، ففى الوقت الذى ظهر فيه الفاطميون، كانت حركة الشعوبية أو القوميات قد اختفت والروح الإسلامية قد تمكنت من شعوبها، وجعلتهم إخوة، لا فرق بين عربى وأعجمى؛ بحيث إنه لما ظهرت عناصر جديدة مسلمة، مثل الديلم والترك اندمجت حالا فى هذه الروح الإسلامية. ولكن قصد الفاطميين فى مصر، كان اتخاذ مصر الغنية بمالها ورجالها، قاعدة أصيلة فى الدفاع عن الكيان الإسلامى.

وكانت الخلافة الفاطمية تعتقد بأن الله قد اختارها لتحكم الأرض كلها، أو على الأقل تكون سيطرتها على دار الإسلام، ويتبين هذا الاتجاه من قول الشاعر ابن هانئ عند مدحه للمعز[1]: «وأنت معدّ وارث الأرض كلها». كذلك ورد فى

---

(١) انظر. البيت الشعرى:

وأنت معدّ وارث الأرض كلها   فقد حُمّ مقدور وقد خط مكتوب

ويقول ابن هانئ أيضاً:

الا تلكم الأرض العريضة أصبحت   وما لبني العباس فى عرضها قتر.

ديوان ابن هانئ، تحقيق زاهد عليّ، بيروت ١٣٥٦هـ.

خطبة خطيب الجامع العتيق في الفسطاط عند فتح الفاطميين لمصر: «وورّثه مشارق الأرض ومغاربها»[1]. فكانت الخلافة الفاطمية تعتقد أن الولاية أي الطاعة في دار الإسلام لا يجب أن تكون إلا للإمام الفاطمي: فوجود خليفتين أو أكثر ليس له مكان في عقيدة الفاطميين. فيرى ناصرِ خسرو[2]، الفيلسوف الشيعي، أن حكم الأمة الإسلامية مِلك للإمام وليس لغيره أي حق فيه. فهذه الخلافة الفاطمية إذن لا تعترف بالخلافة العباسية في العراق، أو الخلافة الأموية في الأندلس: مما كان له أثره في توجيه سياستها الحربية، التي وجدت حتى قبل مجيئها مصر.

كذلك كان الجهاد عنصراً من عناصر السياسة الفاطمية الحربية وهو بطبيعة الحال يكون ضد دولة غير مسلمة. فهذا المبدأ الذي اعتبرته السنة ضرورة: فإن الشيعة اعتبرته دعامة من دعائم الإسلام، وركناً من أركانه[3]. والدولة الإسلامية بصفة عامة، تمنع العلاقات السلمية مع شعب لا يؤمن بعقيدتها[4]، وكان هذا المبدأ مطلقاً: بحيث إن الشريعة الإسلامية تميّز بجلاء بين

(١) اتعاظ، ص ١٦٢ : انظر. حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٢٧٤-٢٧٥.
من الطريف أن نورد نص هذه الخطبة التي تدل في كل كلماتها على أهمية مجيء الفاطميين في إنقاذ المسلمين: « اللهم صل على عبدك ووليك، ثمرة النبوة، وسليل العزة الهادية المهدية، عبد الله معد أبي تميم المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الراشدين. اللهم ارفع درجته، وأعل كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته، واجعل الرشاد في موافقته، وورّثه مشارق الأرض ومغاربها، وأحمده مبادئ الأمور وعواقبها: فإنك تقول وقولك الحق ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾. فقد امتعض لدينك، ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ، فأعد للجهاد عدته، وأخذ لكل خطب أهبته، فسير الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل: وقصر المتطاول، وظهر الحق، وزهق الباطل: فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرام، وإزالة الظلم، وبسط العدل في الأمم. اللهم اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية عليه».
(٢) انظر. الخشاب وفي كتابه:
Khachâb : Naciri Khusrau. Le Caire, P. 256.
(٣) النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق أصغر فيضي، القاهرة ١٩٥١، ١ص ٣٩٩.
(٤) المحقق، شرائع الإسلام، ترجمة Querry ، كلكتا ١٨٩٩، ٢ص ٢٠ وما بعدها.

نوعين من البلاد: بلاد الأعداء وتسمى دار الحرب، وبلاد المسلمين وتسمى دار الإسلام[1]. والذى جعل الفاطميين يتمسكون بالجهاد هو أن خلفاء المشرق كانوا قد أهملوا، فكان الخلفاء العباسيون يلجأون إلى الهدنة مع أعداء الإسلام، يتقربون منهم، ولا سيما مع بيزنطة أو الروم، عدوة الإسلام الأولى فى ذلك الوقت؛ حيث عرف ملكهم[2] طاغية الروم. بل إن ضعف العباسيين، جعل هؤلاء يقيمون بينهم وبين الروم دولة حاجزة (Etat Tampon)(Buffer State) : تقوم بالجهاد لحسابهم، وهى دولة الحمدانيين، التى قامت فى منطقة الثغور الشامية والجزرية، وهى أسرة كانت تولت إمرة الأمراء فى بغداد. وقد استفاد الروم من ضعف العباسيين، وعملوا على استعادة أملاكهم التى كانت لهم فى الشرق قبل الفتح العربى؛ فقد كانوا يعتبرون أنفسهم الحراس للمسيحية فى الشرق، بل إن هذه الدولة منذ نشأتها، كانت تعتبر إمبراطورها هو البابا Casarapapiso. وخصوصاً أن الروم كانوا قد سووا مشاكلهم مع جيرانهم من الروس والبلغار، بحيث إن غارات الروم فى بلاد الإسلام وقت ظهور الفاطميين، أصبحت تمثل خطراً شديداً على بلاد الإسلام، واتخذت مظهر نزاع دينى بين المسيحية والإسلام، وهو الذى تطور إلى الحروب المعروفة بالحروب الصليبية. معنى هذا أن الثغور الإسلامية، لم يعد فيها عاصم غير أسرة الحمدانيين، وهذه كانت وسائلها محدودة فى المقاومة. ولذلك كان من أسباب مجئ الفاطميين فى الشرق، على حسب قول المؤرخ ابن تغرى بردى[3]، هو استيلاء الروم على الشام، وكان المعزّ نفسه لما جاء إلى الإسكندرية، يلمح بالكلام عن الحرب المقدسة، مع جماعة من سكان الفسطاط أتت لاستقباله، فقال[4]: إنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال، ولكن سار للجهاد وبقصد الجهاد ضد الروم. وحينما كان المعزّ فى المغرب، قبل أن يأتى إلى

---

(١) انظر . باسهاب ما قاله: Van Berchem La Propriété Térritoriale et l'impôt fonçien (Thèse de Leipzig, 1861), P. 8,

(٢) المجالس والمسايرات، تحقيق، ١ص ١٦٦.

(٣) النجوم، ٤ص ٧٢ س ٧؛ انظر. Canard :
L'Impérialisme des Fatimides et leur Propagande. Annales de l'Inst. d'Et. Or, 6, P. 180.

(٤) وفيات، ط. بولاق، ٣ص ١٢٤.

مصر، حث الإخشيد على الجهاد ضد الروم، الذين استولوا على إقريطش -كريت- وحولوها من مسلمة إلى مسيحية، من يومئذ إلى الآن. ولدينا وثيقة[1] بالعربية؛ تبين تبادل المراسلات بين ملك الروم رومانوس والأخشيد؛ بقصد تصريف التجارة؛ وحتى قبل الأخشيد كان ملوك الروم يراسلون خماوريه[2]. فضلاً عن أن الفاطميين قاموا بالجهاد ضد الروم وهم في المغرب، بما كانوا يرسلون من أساطيلهم في البحر الأبيض.

وكان عصب الجهاد عند الفاطميين، مثلما كان عند جميع حكام مصر المستقلة، هو جعل قاعدته مصر والشام. ويعتبر الفاطميون أول من عملوا على الوحدة بين القطرين في تاريخ مصر الإسلامية، وذلك على الرغم من دسائس أعداء هذه الوحدة من العباسيين في العراق، أو من عرب الشام انفسهم، أو حتى من عرب الحجاز؛ بحيث إن جميع خلفاء الفاطميين قاتلوا في سبيل الإبقاء على وحدة مصر والشام. والدليل على تمسك الفاطميين بوحدة القطرين، توحيد العملة، وجعل ميزانيتهما واحدة، وتوحيد نظام القضاء وغيره من نظم الدولة. وأكثر من ذلك، نشر دعوتهم في الشام على نطاق واسع، وهي الدعوة التي لا تزال باقية للآن، على الرغم من زوالها نهائياً من مصر. فقد كانت وحدة مصر والشام، هي الأساس لما يجب أن يكون عليه الحال، كلما دق ناقوس الخطر، من قبل أعداء الإسلام.

ولنا أن نقول بوجه عام أيضاً، إن موقع مصر الجغرافي كان يتدخل بالضرورة لرسم سياسة الفاطميين الحربية. حقاً إن العالم الذي كان يحيط بمصر قد تغير، فهو لم يعد عالماً بابلياً أو آشورياً أو مسيحياً، وإنما هو عالم إسلامي يرتبط بعضه ببعض بدين واحد ولغة واحدة، ومع ذلك؛ فإن موقع مصر المحوري كان يتدخل دائما في السياسة الحربية لحكام مصر؛ بصرف النظر عن التغيير الذي يحيط بمصر. فهو يجعلهم يتجهون دائماً إلى الشرق، أكثر من اتجاههم إلى المغرب، وذلك لوجود صحاري واسعة في غرب مصر. ونلمس هذا الاتجاه في

---

(١) ليس لدينا نص رسالة ملك الروم للإخشيد، وعلى العكس لدينا رسالة الأخشيد لملك الروم. انظر. الوثائق السياسية والإدارية، بيروت ١٩٧٨،، ص٥ وما بعدها.

(٢) صبح الأعشى ، ٧ص ١٦ .

سياسة حكام مصر المسلمين، أنصاف المستقلين، من الطولونيين والإخشيديين، وذلك قبل مجئ الفاطميين من المغرب. وعلى العكس؛ فإن حكام مصر الإسلامية، لم يهتموا اهتماماً كبيراً بجنوب مصر فى السودان مع أنه كان الشغل الشاغل لحكام مصر القدامى، وذلك لأن السودان بقى مسيحياً فى العصور الوسطى، ولم يشارك المنطقة فى إسلامها واستعرابها. ولكن اهتمام حكام مصر الإسلامية، اتجه على الخصوص نحو الجزيرة العربية؛ فى جنوب شرق مصر، لأنها كانت أرض الإسلام الأولى،وأصبحت الخلافة لا تأخذ صفتها الشرعية؛ إلا إذا ذكرت فى الحرمين: مكة والمدينة.

ونستطيع أن نلمس القوة فى تحقيق أهداف السياسة الحربية الفاطمية إلى النصف الأول من حكم الفاطميين فى مصر، وبالتحديد إلى عصر الخليفة المستنصر بالله، وهو الخامس من خلفائهم فيها. ولكن لما ضعفت الخلافة الفاطمية، منذ هذا الخليفة وبعده –نتيجة لمعاناتها مشاكل داخلية– لم نعد نميز فى تاريخها هذه الأهداف الحربية، التى أصبحت بالأولى مبنية فقط على الدفاع عن كيان الدولة.

*

وكان الشَام أو سُورية أهم مكان ظهرت فيه سياسة الفاطميين، إذ أنه بالنسبة لحكام مصر المسلمين، منطقة أمان لملاصقته أرض مصر، وميدان لجهاد أعداء الإسلام، لوجود الثغور الإسلامية على حدوده الشمالية، التى تلامس أرض الروم أو بيزنطة، عدوة الإسلام الأولى وقتئذ، ثم لأهمية الساحل الشامى فى أى سيطرة بحرية.

وقد واجه الفاطميون كثيراً من الصعاب فى الشام، أتت أغلبها من قبل أهل الشام أنفسهم، وهم من سلالة عربية فى أغلبها، تتوزعهم قبائل كثيرة، سكنت الشام قبل الفتح العربى الأول؛ وإن تغيرت وضعية هذه القبائل قبل الفاطميين، مثل: الطائيين الذين جاءوا إلى الشام[1] قبيل مجئ الفاطميين بقليل وسكنوا بين

(١) انظر.. Van Oppeheim : Die Beduinen vol 1, Leipzig, 1939

معان وعقبة، وحلوا محل لخم وجذام، وكانت الرملة مركزاً لآل الجراح الذين دمروا في فلسطين حتى هاجر منها بنو عقيل إلى بلاد الجزيرة، والكلبيين وهي قبيلة كثيرة العدد، وبني كلاب التي لم تكن في غنى الكلبيين، وكانوا امتدوا منذ الأمويين إلى الشمال. الأولى في فلسطين والأردن، والثانية في وسط الشام، والثالثة في شمالها حتى حلب، وقبائل من قيس جاءتها مع الفتح العربي من الحجاز، وأقامت في الشمال أيضاً، وقبائل من قيس جاءت مع القرامطة من البحرين، حينما غزوا الشام ومصر، مثل بني سُليم وبني هِلال. ونعرف أن عرب الشام لم يكونوا يرحبون بالفاطميين؛ بسبب أن معظمهم كان على المذهب السني المعادي للمذهب الفاطمي، ولأنهم كانوا من قبل سند الخلافة الأموية، عدوة بني هاشم، الذين ينتسب الفاطميون إليهم. وفوق ذلك؛ فإن الفاطميين في أيامهم الأولى، اعتمدوا في فتحهم للشام على عسكر من المغاربة، الذين اعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام وقت الفتوحات الأموية؛ حيث أرسل الأمويون نحو المغرب جيوشاً عربية كبيرة مدة أربعين سنة أو أكثر إلى أن تم لهم فتح المغرب والسيطرة عليه. لذلك وجدنا قبائل الشام تتحالف مع القرامطة، لما غزوا الشام في سنة ٣٥٩/ ٩٧٠[(١)]؛ بل ساعدوهم في غزو مصر أيضاً.

ثم أن هناك بقية الحمدانيين[(٢)]، في شمال الشام وبلاد الجزيرة المجاورة، وهم أسرة ارستقراطية من قبيلة تغلب- أعظم قبائل ربيعة- ولم تكن معروفة أيام الأمويين، ولكن ظهرت أطماعهم بضعف العباسيين، فسعوا إلى الحصول على إمرة الأمراء -وهو الحكم المطلق- في بغداد، ثم أقطعتهم الخلافة العباسية نواحي حلب[(٣)] في شمال الشام، وبعض بلاد الجزيرة، للتخلص منهم، على أن يحموا ثغور المسلمين فيها، وسعى الحمدانيون إلى الاستيلاء على دمشق أيضاً، وإن فضل أهل دمشق بقاءهم مع حكام مصر[(٤)]. ومع أن الحمدانيين من العرب،

---

(١) أنظر. قبله.

(٢) عنهم: وفيات، ٢ص ٦٦-٧٠ ؛ انظر. Canard ؛
Historie de la dynastie des H'amdanides de Jazîra et de Syrie cf.

(٣) حلب مدينة قديمة من بناء السلوقيين، ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق سركيس، بيروت ١٩٠٩، ص ٤٨ وما بعدها.

(٤) ابن العميد، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وتحيط بهم قبيلة بني كلاب العربية؛ فإنهم اعتمدوا في حكمهم على الترك، كما يفعل خلفاء بغداد.

وفي وقت ظهور الفاطميين، كان الحمدانيون في حالة سيئة، فلم يستطيعوا أن يدافعوا عن ثغور الإسلام كما يجب، بسبب التنازع فيما بينهم. ففي الجزيرة كان النزاع بين ناصر الدولة بن حمدان، وابنه أبي تغلب، وفي الشام بعد موت سيف الدولة بن حمدان في ٩٦٧/٣٥٦- مؤسس دولتهم بالشام- الذي اشتهر بفروسيته، وحروبه مع الإخشيد حاكم مصر، تولى ابنه أبو المعالي سعد الدولة، وكان صغير السن، فعمل قائدان من الترك، وهما: قرغوية، وبكجور، في السيطرة على الدولة من دونه، فعين الأول نفسه وصياً على الأمير، والآخر قائداً للجند[1]؛ حيث عمل قرغَويّة على إخراج سعد الدولة من حلب في ٩٦٩/٣٥٨[2]، كما أخرج بكجور بعد حروب بينهما؛ وإن اصطلحا بعد ذلك، وحكما معاً بدون إخلاص كل منهما للآخر. هذا فضلاً عن أطماع أبي تغلب عم سعد الدولة في ضم أملاك ابن أخيه.

ثم إن الحمدانيين انغمسوا في حياة الترف، فكانوا يبنون قصوراً فخمة، مثلما فعل سيف الدولة، الذي حول نهر قُويق[3] -نهر مدينة حلب- وأطافه بقصره، وكانوا يتخذون الجواري الجميلات من بنات الروم[4]، ويجتمع ببابهم الشعراء وشيوخ العصر ونجومه[5] مثل: المتنبي والوأواء وابن جني وابن نباتة وغيرهم، ولذلك وجدنا المعزّ الفاطمي حينما سير جوهراً لفتح مصر والشام، حذره من بني حمدان، وألا يتحالف معهم أو حتى يراسلهم؛ ففي رأيه[6]: يتظاهرون بثلاثة أشياء. وليس لهم فيها نصيب: يتظاهرون بالدين وليس لهم

---

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) الكامل، ٧ص ٣٤ ؛ انظر. Canard، H'amd, I, P. 655 sqq.

(٣) تصغير قاق. ابن الشحنة، ص ٦٠ ، ١٣٤ و ما بعدها؛ معجم البلدان، ٧ ص ١٨٨ .

(٤) وفيات، ٢ص ٦٧ .

(٥) النجوم، ٤ص ١٦ س ١٠ – ١٢ .

(٦) إتعاظ، ص ١٤١ – ١٤٢؛ الخطط، ٢ص ١٦٥؛ انظر. Quat ؛ Vie de Moezz, J. A. 2 . Paris, P. 50 -51 .

فيه نصيب، ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة». ولا ريب أن عداء الفاطميين للحمدانيين على الخصوص راجع إلى أن الحمدانيين ساعدوا القرامطة فى غزوهم للشام ومصر[1]، لطرد الفاطميين.

ووراء كل هؤلاء دولة بيزنطة اليونانية النصرانية، أو ما كان يسميه المسلمون بالروم. فهذه الدولة كانت قد ضعفت بسبب أن المسلمين فى أيام الراشدين والأمويين، نفوها إلى أقصى بلادها فى آسيا الصغرى، وسيطروا على مستعمراتها فى الشرق، بل كادت تمحى من الوجود تماماً على يد العرب ثلاث مرات على الأقل، ولا سيما فى عهد الأمويين، كما أن حدودها فى الغرب كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية، مثل: البُلغار والروس[2]، وهى أمم عظيمة. ولكن بيزنطة قويت بالأسرة المقدونية النشيطة، وبضعف الخلافة العباسية نتيجة لغزوات القرامطة فى العراق والشام، فبدأت تحركها الأطماع فى استرداد مستعمراتها فى الشرق[3]؛ بحيث اعتبرت محاولاتها فى سبيل استرداد بيت المقدس، المرتبط بذكريات المسيحية، المحاولات المسيحية الأولى لغزو الأراضى المقدسة، تمهيداً للغزو اللاتينى بعد ذلك. ولا مراء، فقد كانت دولة بيزنطة تتزعم النصرانية إلى وقتئذ، إذ كانت تعتبر المسيح إمبراطورها "Christos Basilieus"[4]، وأنه نصّب ملكها الأول قسطنطين الأكبر، وأرسل مع ملاك أردية وضعت فى

(١) إتعاظ، ص ١٨٧ س ١٠ .

(٢) عنهم: معجم البلدان، ٤ص ٣٢٨ ؛ ابن العميد، ص ٢٥٦ وبعده. وأيضاً D'Ohsson :
Des peuples du Cauase. Paris, 1828 P. 123 .

(٣) لدينا نص خطاب مكتوب بالعربية، يعرف بالقصيدة الأرمينية؛ لأنه على شكل قصيدة، وربما لأن كاتبه أرمنى يعرف العربية، موجه من إمبراطور الروم نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسى المطيع؛ يأمر فيه الخليفة بالرجوع إلى الحجاز وأرض صنعاء، وإخلاء البلاد التى استولى العرب عليها من الروم، مثل الشام وشمال العراق. ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ ص ٢٤٤ – ٢٤٧؛ السبكى، طبقات الشافعية. ط. الحسينية، ٢ص ١٧٩ – ١٨١. ومن ناحية أخرى رد ابن حزم الأندلسى (ت ١٠٦٤/٤٥٦) على هذه القصيدة بقصيدة إسلامية، عرفت باسم: الفريدة الإسلامية، بيّن فيها مثابرة المسلمين أمام الروم؛ وتذكير بأمجادهم، وبهجومهم السابق على القسطنطينية. ابن كثير، البداية والنهاية، ١١ص ٢٤٧ –٢٥٢؛ السبكى، طبقات الشافعية، ٢ص ١٨٤ – ١٨٩؛ انظر. عمر كمال، يوحنا تزيمسكس، ص ١٧٨ وما بعدها، الملحق الثالث.

(٤) انظر. Guerdron: Vie Grandeurs et Byzance. Paris, 1954. P. 3 . sqq.

كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية العاصمة ليرتديها الأباطرة فى حفلات توليتهم[1].

فإن نقفور فوكاس[2] "Nichephoros Phokas" -وكان أكبر ملوك الأسرة المقدونية- ويسمى طاغية الروم؛ لأنه قتل الأمبراطور رومانوس الثانى "Romanos II" ،وتزوج زوجته ثيوفانو "Theophano" ، وتولى الملك، مع أنه لم يكن من البيت الملكى، ولكن كان حاكماً فى أسيا الصغرى، ووجه كل همه لحرب المسلمين. فغزا الشام غزوات متتالية منذ ٩٦٢/٣٥١؛ فاستولى على أهم مدن الثغور، ثم فتح حلب واضطر سيف الدولة بن حمدان إلى تركها، والهروب أمامه، وطلب الهدنة[3]؛ حتى أن المعزّ الفاطمى نعى على سيف الدولة تخاذله. وكان ما فعله نقفور فى حلب جعل هذه المدينة الزاهرة حطاما إلى وقت طويل، فدمرها وأحرقها ونهبها، وقتل معظم أهلها أو أخذهم أسرى، حتى أن سيف الدولة تركها نهائيا إلى ميافارقين. وبعد موت سيف الدولة فى ٩٦٧/٣٥٦، انتهز نقفور فرصة تنازع قواد الترك الوصاية على أبى المعالى سعد الدولة، ودخل الشام من جديد، ووصل فيه حتى طرابلس، التى أحرقها أهلها، فانصرف إلى جبلة (جبيل حاليا)، وأقام شهرين ثم رجع، بعد أن أخذ أسرى كثيرين بلغوا مائة ألف رأس، فكان يأخذ الصبيان والصبايا، أما الكهول والمشايخ فيقتلهم[4]، وأجبر خلقاً كثيرين على التنصر[5]، كما استولى على أنطاكية[6] وضمها إلى ملكه وهى التى كانت مفتاح عواصم المسلمين أيام الأمويين والعباسيين، وسبى من نسائها وأطفالها نحوا من

---

(١) بورفير وجنيتوس، الإدارة De Administrando ، ترجمة عمران ، ص ٦٦ وما بعدها.
(٢) عنه: الكامل، ٧ص ٣٧ – ٣٨ ؛ النجوم، ٤ص ١٨ – ١٩ ، ٥٥ – ٥٧ .
Synopsis Historiae. Corpus Scriptiorum, Historiae Byzantinae (CSHB).: Cedrenus 18338-9, éd. Bekker, P. 507 sqq;
Léon Diacre, ed Hase (CSHB.) 1828, P. 204 . ;
Un empreur byzantin , au X siècle. Nicephore Phoeas. Paris, 1890. : Schlumberger.;
أسد رستم، الروم، ٢ص ٣٩، وما بعدها؛ عمر كمال ، الإمبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضى المقدسة، الإسكندرية ١٩٥٩ .
(٣) ابن الشحنة، ص ٣٣ .
(٤) ابن العديم، ١ص ١٥٨ – ١٥٩ .
(٥) العينى، تاريخ، ورقات ١٦٧ – ١٦٨ .
(٦) عنها: معجم البلدان، ١ص ٣٥٣ وما بعدها؛ . Cedrénus, P. 513 -4 .

عـشـرين الفـاً. ويقـول ابن الأثيـرعن هـذه الـغـزوة: « دخل ملك الروم الشـام ولم يمنعه أحد ولا قاتله». ولـم ينقذ دولة الـحمدانيين فى الشـام، إلا حينما عقد قرغوية مع نقـفـور هـدنة فى ٣٥٩/ ٩٧٠، نص فـيـهـا على التـعـاون مع الروم، حـتـى ضـد المسلمين، وأن يدفع جـزية كـبـيـرة. وقد أورد ابن الـعـديم (ت٦٦٢/ ١٢٦٤)، مـؤرخ كـتـاب: زبدة الحلب من تاريخ حـلـب، نصـوص هـذه الهـدنة[1] المخجلة لـلـمـسـلـمين. ولحـسـن حظ المسلمين أن نقـفـور لم يلبث أن لقى حتفـه على يد أقـرب الناس إليـه، وهـى زوجـتـه ثيـوفـانو، التى كـانت تكره زوجـهـا الشـرس، فـدبرت مـؤامـرة لقـتله بالاشـتـراك مع شـخـص ارمنى اسـمـه "Tchemeschagugig" ، وإن عـــرف باسـم تزيمسـكس "Tzimiskes" ، و سمـاه العرب: ابن الشـميشـقيق[2]، فقتل تزيمسكس نقفور وهـو يقرأ فى الإنجيل، بسيف أعطتـه له ثيوفانو، فقطعه ثلاث قطع، وتولى الملك بعده، وإن رفض التزوج من ثيوفانو، فأرسلها إلى الدير.

هـذه حال الشـام حينما جاء المعزّ الفـاطمى مصـر، وصـد القرامطة، فقـد كان أهل الشـام فى عداء مع الفـاطميين، وكانـت دويلة الـحمدانيين عاجزة عن الدفاع عن ثغور الإسلام؛ بحـيث إن الروم صـالوا وجالوا فى الشـام. ومع أن الفاطمـيين وجهوا جـيـوشـهـم بعـد طـرد الـقـرامـطـة من مـصـر نحـو فلسطـين واسـتـولـوا عليـهـا، ودخلوا دمـشـق فى ٣٦٣/ ٩٧٣[3]، بل ذهبوا لـحـصـار أنطاكـيـة للقيـــام بـالـجهاد

(١) ابن العديم، ١ص ١٦٣ - ١٦٧. شرطوا أن يحمل الجزية عن كل صغير وكبير وأن الأمر بعد قـرغويه يكون لبكجـور، وبعدهـا ينصب ملك الروم أمـيراً يختاره من سكان حلب، وليس للمسلمين أن ينصبـوا أحداً، ولا يؤخـذ من نصـرانى جزية، وأى مسلم دخل دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه، ويمنع أى مسلم من الغزو فى بلاد الروم، وإن لم يسمح له قاتله، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم لينفذ إليه من يدفعه، ومتى وقفوا على حـال عسكر كبير كـتبـوا للروم، وإذا رغب الملك فى غـزو بلد إسـلامى يتلقـاه بكجـور؛ وإن غـزا الروم غـيـر ملة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره.

(٢) ذيل، ص ١٢ -١٤ ؛ الكامل، ٧ص ٣٨؛ Cedrenus, P. 518-9;

Doc. Arm. (R.H.C) 1, P. 5 sqq: Mathieu; Léon Le Diacrre. P. 238.

؛ أسد رستم، الروم، ٣ص ٤٥ وما بعدها؛ Schlumberger :

L'épopée byzantine á la fin du xe siécle, 1959 (Jean Tzimiscés).

وأيضاً: عـمر كـمال، الإمـبراطور يوحنا تزيمسـكس وسياسـته الشـرقية، الإسكندرية، ١٩٦٦ اختلف فى نطق اسمه قديما وحديثاً؛ كما يظهر.

(٣) ذيل ، ص ٤.

فهزمهم قائد بيزنطى اسمه نيكولاس Nikoloas ، إلا أنهم ما لبثوا أن ارتدوا إلى فلسطين(١)، بعد أن ثارت عليهم العناصر السنية من عرب دمشق، وأخرجوهم منها. وقد انتهز رجل تركى مغامر، اسمه: أفتكين أو ألبتكين أو هفتكين(٢)، وكان فى نزاع مع سادته البويهيين فى بغداد؛ إذ كان الخليفة العباسى يستعين به ضدهم، وكاد يحصل على السيادة فى بغداد دون البويهيين، فعرض عليه الخليفة العباسى الطائع لقب إمرة الأمراء؛ إلا أن أفتكين فضل أن يخرج بفرقة من الجيش التركى، ويمم شطر دمشق؛ حيث أدخله أهلها المدينة، لمنع الفاطميين من العودة إليها. وقد تمكن أفتكين من أن يحتفظ بمركزه فى دمشق؛ بأن تعصب لأهل السنة، وفى الوقت ذاته كاتب المعز بأنه فى طاعته(٣).

وزاد الأمور تعقيداً للفاطميين فى الشام أن تزيمسكس، خلف نقفور، وكان مثل سلفه، تحركه الأطماع فى حرب المسلمين. ولكى ينفذ خططه، قبل مارفضه نقفور مع منافسه فى السيطرة على المسيحيين، أوتو الثانى "Otto II"(٤)، إمبراطور الغرب المسيحى، حتى يتفرغ فيكيل الضربات للمسلمين، كذلك عمل على التحالف مع الأرمن(٥)، ولا سيما أنه كان من أصل أرمنى، وهم الذين خضعوا للأمويين ثم العباسيين، فلما ضعف هؤلاء عاد الأرمن إلى استقلالهم، فى مناطق جبال وأغوار تمتد فى آسيا الصغرى من جهة ساحل البحر الأبيض إلى الفرات. فاجتمع له ملوكهم، وخصوصاً أقواهم الملك أشد (أشوط) الثالث "Aschod III" ، الذى تلقب بشاهنشاه أى ملك الملوك؛ حيث إن هذا اللقب منحه إياه العباسيون، فكانوا يسمونه شاه الأرمن(٦). فأرسل الأرمن عشرة آلاف مقاتل بأسلحتهم غير

---

(١) انظر. Cedrenus,383. انظر رأى مخالف فى مقالة: Walker: A. Byzantine Victory over the Fatimids at Alexandretta . Byzantion, TXLII, 1972, Fasc2, P. 431 - 440.

(٢) النجوم ، ٤ص ١٠٨؛ ابن أيبك، الدرة، ٦ ص ١٦٧ .

(٣) ذيل، ص ١٢ .

(٤) انظر. Cambridge Medieval History IV, P. 81. ؛ عمر كمال، تزيمسكس، ص ٤٤ .

(٥) انظر. Mathieu ؛ Doc. Arm. I, P. 7 sqq. عن أحوال أرمينية: Ency. de l'Isl, (art Arménie) t I, P. 441 sqq.

(٦) انظر. Ibid, I, P. 13; nl .

الازواد. ولكن السريان وهم سكان بلاد الجزيرة، وكانوا على مذهب مخالف لبيزنطة، غير متحمسين للقتال مع الروم الذين سعوا إلى استمالتهم؛ وكان نقفور حاربهم من قبل.

فبدأ تزيمسكس تحركه فى بلاد الجزيرة فى عام ٣٦٣/٩٧٢[1]، فسار فيها فى كل اتجاه، واستباح وقتل وخرب؛ بحيث هرب معظم أهل الجزيرة إلى العراق، وكان سيفه يقتلع المسلمين مثل إقتلاع الحشائش، ودمر كنائس السريان وأديرتهم[2]. وقد بلغ ما هدمه فيها أكثر من ثلاثمائة قلعة أو مدينة، ووصل إلى نصيبين، قرب بغداد. لكن الخلافة العباسية لم تفعل شيئاً؛ لانشغالها مع البويهيين فى نزاع شديد؛ بحيث عزل البويهيون المطيع وولوا الطائع؛ كما أن حمدانى الجزيرة كانوا فى نزاع فيما بينهم، وكانت الروم قد عقدت معهم هدنة كما ذكرنا، ولقد نعى مسلمو بلاد الجزيرة على الخليفة العباسى تخاذله، ورموه بالعجز[3]، ولدينا خطب ابن نباته[4] (ت٣٧٤/ ٩٨٤) الملتهبة التى تدعو مسلمى العراق إلى الجهاد ضد الروم،والدفاع عن بلاد الإسلام. وقد فسر عدم استمرار تزيمسكس فى الغزو فى هذه المنطقة، واكتفاؤه بالسلب والنهب فيها، بأن هدفه الأساسى كان غزو بلاد الشام.

ثم إن تزيمسكس أغار على الشام فى عام ٢٦٣/٩٧٣، منتهزاً اضطراب أحواله، وخصوصاً أنه كان يعتقد باستحالة بقاء الحياة بينه وبين الفاطميين. وكان هدفه ليس فقط بالإغارة فيه، وإنما الوصول إلى بيت المقدس، الذى يرتبط بذكريات المسيح، ومزار النصارى. وقد سهل له السير فيه سعد الدولة، وهو الذى استعاد حلب من قرغوية وبكجور[5]، وقبل الحلف الذى عقد سابقاً بين

---

(١) عن تاريخ هذه الحملة والاختلاف فيه؛ انظر، Canard ؛

La date de expéditions méspotamiennes de Jean Tzimiscès. Mélanges Grégoire I (1950).

؛ عمر كمال، يوحنا تزيمسكس، ص ١٠٥. المهم عندنا هو أنه بدأ بإقليم الجزيرة .

(٢) يحيى الأنطاكى (P.O. 23) ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، نشر Amedroz، القاهرة ١٩١٤ - ١٩١٥، ٢ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٤) ديوان خطب ابن نباته ، ط . بيروت ١٣١١ هـ.

(٥) ابن العديم، ١ص ١٦٩ .

قرغوية ونقفور. فاستولى تزيمسكس على حمص وبعلبك، ثم لما تقدم نحو دمشق أسرع افتكين التركى، الذى عرف للروم باسم: "Phatgan" ، بتقديم خضوعه، وتذلل له، وسلمه دمشق، ولعب أمامه بالسيف. وعلى العكس، قاومت مدن عديدة بمساعدة الفاطميين، مثل: طرابلُس التى خربها تماماً، وجُبيل وبيروت وصَيدا. ثم توجه إلى فلسطين حيث يوجد الجيش الفاطمى، الذى تحصن فى القدس، مدافعاً عنها، ومانعاً الروم من الاستيلاء عليها. ولدينا نص خطاب[1] تزيمسكس إلى أشد (أشوط) الثالث، يبين فيه انتصاراته فى الشام. ولحسن حظ المسلمين أن تزيمسكس ما لبث أن عاد إلى القسطنطينية؛ حيث أقيمت له فيها احتفالات كبيرة، ربما بسبب الاضطراب الداخلى، أو لأنه زهد فى الحكم، وذهب إلى الدير وترهب، لتأنيب ضميره له على قتل نقفور، أو لأنه دُس له السم ومات[2] ولولا رجوعه؛ لكان قد تمكن من دخول القدس.

هذ الغزوة البيزنطية المفاجئة أفهمت العزيز الذى تولى بعد المعز، بضرورة القضاء على العناصر المقاومة للفاطميين فى الشام، حتى يمنع عدو الإسلام من العودة إليه، بالاستفادة من انقسام أهله. فأرسل إلى افتكين يطلب منه الدخول فى طاعته، ولكن افتكين رد على العزيز قائلاً: إنه أخذ دمشق بحد السيف «وما أدين فيه لأحد بطاعة، ولا أقبل منه أمراً»[3]. فأرسل العزيز جوهراً ضد افتكين، الذى استدعى الحسن الأعصم زعيم القرامطة، وهزما جوهراً فى ٣٦٤/٩٧٤[4]، الذى بقى فى فلسطين، وعقد صلحاً مع افتكين، بقصد كسب الوقت حتى تأتيه الإمدادات، وإن كان افتكين لم يقبل مصالحة جوهر؛ إلا بعد أن علق سيفه، ورمح الحسن الأعصم، على باب عَسْقَلان، ويخرج جوهر وأصحابه من تحتهما، ولكن

---

(١) انظر. Op. Cit, P. 13 - 14 : Mathieu . له ترجمة عربية من عمر كمال فى كتاب: الأمبراطور تزيمسكس، انظر، ملحق (١).

(٢) ذيل ، ص ١٤ س ١٤ ؛

Cedrenus, P. 535. ; Doc. Arm,I, P. 22 : Mathieu

(٣) ذيل، ص ١٥ .

(٤) نفسه .

بعد موت الحسن الأعصم ذهب العزيز بنفسه لقتال أفتكين في ٣٦٨/٩٧٩[1]، فدارت الدائرة هذه المرة على أفتكين، ودخل العزيز دمشق، ولما ظهر مغامر جديد اسمه قسّام التراب[2]، لعله من رجال أفتكين، وعمد إلى الاستيلاء على دمشق، ووضع أعلاما وطوارق -أي تروساً- عليها صفة قحف، وهي ما تحمل فيه الزبالة، فقد كان من قبل يعمل على الدواب زبالاً فلم ينكر فقره؛ مما حبب الناس فيه، وإذا رأوه في المسجد التفوا حوله، فإن العزيز تمكن من هزيمته أيضاً. والواقع أنه يرجع إلى العزيز الفضل في توطيد سيطرة الفاطميين في جنوب الشام حتى دمشق.

ثم وجه العزيز همه إلى القضاء على الحمدانيين، الذين قبلوا حماية بيزنطة وأن يكونوا ماجورين لهم، متبعاً في ذلك سياسة أبيه المعزّ. وكان أميرهم سعد الدولة قد انتمى للفاطميين، ودعا للعزيز[3]، حتى أنه زاد في الأذان «حيّ على خير العمل، محمد وعليّ خير البشر[4]». ويظهر أن سعد الدولة منذ أن دخل حلب استفاد من النزاع بين قرغوية وبكجور[5]، ليزيد من سلطته في حلب، فقتل الاول، واضطر الثاني إلى الهروب إلى العزيز. ومع أن سعد الدولة، كان قد رفض[6] الهدنة التي عقدها قرغويه مع الروم حتى أن هؤلاء أرسلوا إليه جيشاً بقيادة بردس الفقاس "Bardas Phokas" ؛ إلا أنه ما لبث أن قبلها، وإن عدّل فيها.

ولما توفي سعد الدولة، وخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة، ووصيه التركي لؤلؤ الكبير[7]؛ فإنهما كانا يحملان المال المقرر والهدايا إلى الروم،[8] لذلك

---

(١) نفسه، ص ١٥-٢١.

(٢) ابن أيبك، الدرة، ٦ص ١٩٥-١٩٦. عاد افتكين مع العزيز إلى مصر؛ حيث عاش فيها إلى أن مات. ومن قبل كان قد استأذن المعزّ في الذهاب إلى مصر، قبل إغراء أهل دمشق له. انظر. يحيى الأنطاكي، بيروت ١٩٠٩، ص ١٤٥؛ ذيل، ص ١٢.

(٣) ابن العديم، ١ص ١٦٩، ١٧٨.

(٤) نفسه، ١ص ١٧٢.

(٥) نفسه، ١ص ١٦٩-١٧٠.

(٦) نفسه، ١ص ١٦٩ وما بعدها، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦.

(٧) نفسه، ١ص ١٨٥ ؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art. Lu'lu') t3, P. 42.

(٨) ابن القلانسي، ص ٤١؛ الروذراوري، ص ٣٣؛ ابن العديم، ص ٢٤٨.

قـرر العـزيـز أن يرسل قـائـده التـركـى منْجُـوتكين فى ٣٨٢/٩٩٣[1]، علـى رأس العـسكر المصـرى؛ ليـثـيـر غلمـان الأتراك فى حلب، فـهـاجم مـنجـوتـكين حلب، وأحاطها بالـحـانات والـحمامات، وصـمـم على الاسـتيلاء عليها؛ بحيث اشـتـد الحصار بالـحـمدانيين. عندئذ اسـتنجـد لولؤ بالروم[2]، وتوسل لـهم بالمعـاهدة التى بينهم وبين الـحـمـدانيين، وكـتب إلى ملـكهم: «متى أخـذت حلب، أخـذت أنطاكـية، ومـتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية».

أخـافـت هذه الأحـوال الروم، فـقـام حـاكم أنطاكـيـة الرومى "Bourtzse" ويسميه العرب البرجى[3] لاسـتنقـاذ حلب إلا أن منـجـوتكين هـزمـه وأجـبـره على الهروب، وعاد لحصـار حلب، فما كان من باسيل الثانى "Basilos II" عظيم الروم، الذى تولى بعـد تزيمسكس- إلا أن عـمـد بنفـسـه إلى القيام بـحـملة كـبـيـرة ضـد الفـاطمـيين، وخصـوصـاً أنه انتـهت حروبه مع الروس، وعاصـمـتـهم كانت كـيـيف "Kiev" وقد اعتنق ملكهـم النصـرانية فى ٣٧٥/ ٩٨٥[4]؛ كما اسـتـولى على أرمينية وهـزم البلُغـار، وهـم قـوم توالدوا بين التـرك والصـقـالبة فى آسـيا وأوربا، وكـانوا وثنيين فأسلم بـعـضـهم[5]، وذلك بعد حـروب اسـتـمرت خـمسـاً وثلاثين سـنة ضـد قـيـصـرهـم صـمـويل Samuel[6]؛ بـحـيث سـمى باسـيل بـقـاتل البلُـغـار "Bulgaroktnos"[7]، وأصـبـح يملكون البلقان. فـأسـرع باسـيل إلى دخـول الشـام، فى جـيش كـبـير عـدده مـائة ألف، يساعـده أسطول كـبـيـر من الشـلنديات[8]، وهـى

---

(١) ابن العميد، ص ١٨٦.

(٢) ابن القلانسى، ص ٤١، ٤٢؛ النجوم، ٤ص ١١٨ وما بعدها؛ انظر.

H'amdanides, 1, p. 856 sqq. ; Canard

Epopé By. T1, P. 58 sqq. ; Sehlamberger

(٣) ابن أيبك، الدرة، ٦ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) ابن العميد، ص ٢٥١.

(٥) الكامل، ٨ص ٣٢.

(٦) الروذراورى، ذيل كتاب تجارب الأمم، تحقيق Amedroz ص ١١٦-١١٧؛ ابن العميد، ص٢١٥.

(٧) انظر، Runciman: La Civilisation Byzantine 330-1453, trad Lévy. Paris, 1952, P. 50 [Kimbaluyon فى موقعة كمبليون].

(٨) عن نوعها، انظر. عبادة، سفن الأسطول، ص٥-٦؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٢٢٣؛ Dozy ; Suppl, 1,783 . مفردها: شلندى.

مراكب حربية كبيرة. فاضطر منجوتكين[1]، الذى كان يحاصر حلب ، ويفصل بينه وبين الروم نهر العاصى أو المقلوب، أن يحرق آلاته[2] ، ويرسل أمامه بأثقاله إلى دمشق؛ فيسرع باسيل بالسير فى أعقابه. فسلمت له حلب وحمص، التى سبى منها عشرة آلاف، ونزل طرابلُس، ولم يستطع فتحها؛ إذ أرسل العزيز إليها المدد من البحر. ولكن باسيل اضطر هو الآخر إلى ترك الشام، لظروف داخلية، ربما بسبب ثورة بردس فوقاس Bardas Phokas .

فلما سمع العزيز الفاطمى زحف ملك الروم جهز أسطولاً كبيراً فى ميناء القاهرة المسمى «المقس»[3]، وهو الأسطول الذى بناه المعزّ من ستمائة مركب. ولكن فى ظروف غامضة احترقت بعض مراكبه ومعها عدة الأسطول وسلاحه، واتهم به جماعة من الروم فى مصر؛ فاستعجل العزيز بناء أسطول غيره. كذلك نادى العزيز بالنفير[4] فى المصريين «الناس»، وجمع منهم أعداداً هائلة؛ كما كتب إلى أهل الشام بالسير نحو ملك الروم، حتى اجتمع بدمشق من العساكر ما لم يجمع من قبل. ولكن العزيز الذى ذهب على رأس عسكر المصريين إلى بِلْبِيس[5]، شرقى الدلتا فى طريق الشام، وكأنه فرعون مصر، توفى فجأة قبل تحرك العساكر فى ٣٨٦/٩٩٦، وإن كان باسيل -كما ذكرنا- هو الآخر قد اضطر إلى ترك الشام.

وفى أول عهد الحاكم، الذى تولى بعد العزيز استغل هذا الاستعداد الضخم للجيش والأسطول الفاطمى فى محاربة الروم؛ بحيث أحرز انتصارات هائلة عليهم، مما لم يقع مثله قبلاً منذ مجئ الفاطميين فى الشرق. ففى عام ٣٨٨/٩٩٨[6]، أفسد الجيش الفاطمى تدخلاً من باسيل فى صور، وهى مدينة

(١) النجوم، ٤ص ١١٦ وما بعدها.

(٢) ابن العديم، ١ص ١٩١.

(٣) الخطط، ٢ص ٣١٧-٣١٨.

(٤) النجوم، ٤ص ١٢١ س ٥.

(٥) عنها : معجم البلدان، ٣ص ٢٦٣.

(٦) يحيى، تحقيق شيخو، ص ١٨١-١٨٢؛ الكامل، ٧ص ١٧٨-١٧٩؛ العبر، ٤ص ٥٧. عن صور، انظر. معجم البلدان، ٥ص ٣٩٧-٤٠٨.

بساحل البحر الأبيض، تقع غربي صيّدا، كانت أشبه بالكف في البحر، لها طريق ضيقة إلى البر، وسورها من كل جهاتها، ولها مرسى. فقد ثار بها رجل ملاح مغامر اسمه علاقة، فأرسل إليه باسيل اسطولاً لمساعدته. فقبض علاقة على الأمور في صوُر، وضرب العملة، ونقش عليها: «عزاً بعد فاقه للأمير علاقة». فأرسل برجوان، وصّي الحاكم وقتذاك، جيشاً حاصر صور؛ كما أرسل الأسطول، الذى استطاع هزيمة أسطول الروم، وأخذ علاقة أسيراً، وأرسل إلى مصر، فسلخ وصلب بها. وفى العام ذاته توغل جيش الحاكم فى أرض الروم فى منطقة الثغور، وقابل جيشاً بيزنطياً بقيادة الدوق داميانوس الدلاسنوس[1] "Ducas Damianos Dalassenos" -ويسميه العرب الدوقس- فقتلوا منه ستة آلاف، كما قتل الدوقس، وأسر أبناؤه.

ويبدو أن سياسة الفاطميين وقتئذ، كانت ترى أنه لا يمكن محاربة الروم، إلا إذا توحد الشام مع مصر، وعملوا على السيطرة فيه. وشجع على ذلك أن باسيل فى آخر أيام العزيز، كان قد بعث برسله بعد رجوعه إلى بلاده، يطلب الصلح. ومن قبل، كان ابن كلس وزير العزيز المشهور، قد نصح خليفته وهو على فراش الموت، بعقد السلام مع الروم[2]. وكانت قد بذلت محاولة سابقة للصلح فى ٣٧٧/٩٨٧[3]، فعقدت هدنة، لم ينقضها غير هجوم باسيل الأخير فى الشام. ولذلك جرت بين برجوان وصّي الحاكم،وباسيل مراسلات وملاطفات، وأرسل برجوان إلى القسطنطينية اريسطس بطريرك بيت المقدس، وهو خال ست الملك أخت الحاكم من أم أخرى مسيحية، مع رسول الروم، وتم عقد هدنة لمدة عشر سنوات فى ٣٩١/١٠٠١، بعد موت برجوان، الذى كان سعى لعقدها. وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم فى بلاد الفاطميين بالحرية الدينية، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم[4]، وحتى بعد أن قبض الحاكم على صولجان السلطة من وصيّه؛ فإنه بقى متمسكاً بالهدنة مع باسيل. فحينما أرسل ملك

(١) عن ذلك ، انظر ترجمة Canard لما أورده ابن القلانسى فى :
Revue des Edutes Byzantines. Paris XIX, 1961, P. 297 sqq.

(٢) الروذراورى، ذيل ، ص ١٨٥.
(٣) النجوم، ٤ص ١٥١-١٥٢.
(٤) يحى (شيخو) ص ١٤٨ .

الروم للحاكم رسولاً فى ٤٠٥/١٠١٤(١)، أحسن الحاكم استقباله فى قصره، فاصطفت العساكر بعددها وأسلحتها، وفرش الإيوان - القاعة ذات الأعمدة للاستقبالات الكبرى- وعلق على حيطانه ستائر الحرير «الديباج» مكللة بالذهب، حتى صار يتلألأ بالذهب؛ كما علّق فى صدره شبه ترس «درقة»، مكللة بفاخر الجوهر. يضيء لها ما حولها، وإذا وقعت عليها الشمس لا تطيق العيون النظر إليها.

ولعل باسيل فكر فى أن ينقض الهدنة، حينما هدم جامع المسلمين فى القسطنطينية(٢)، فما كان من الحاكم إلا أن أصدر أمره بهدم كنيسة القيامة المقدسة فى بيت المقدس فى سنة ٤٠٠/١٠٠٩-١٠١٠. مزار النصارى، الذى صلب فيه المسيح برأيهم وذلك على سبيل الانتقام.ولدينا نص الأمر بذلك؛ فقد أصدر سجلاً إلى واليه على القدس؛ كتبه أحد الأقباط فى مصر، جاء فيه(٣) «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة(٤) -تسمية عربية لكنيسة القيامة- فاجعل سماءها

(١) النجوم، ٤ص ١٩٢؛ اتعاظ، ورقات ١٦٦-١٦٩؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ص ٥٩ وهامش.

(٢) الخطط، ٢ص ١٦٩ س ٩. هكذا يفهم من النص.

(٣) الكامل، ٧ص ٢٤٠؛ يحيى، ص ٢٣٠-٢٣١؛ انظر . عنان، الحاكم ص ٦٩؛ Lane Poole : "Egypt, P. 128. : ماجد ، الحاكم، ص ١٠٠، قيل أيضاً فى سبب هدمها: إن نصارى كنيسة القيامة، عملوا على فتنة المسلمين عن دينهم؛ فكانوا أثناء صلاتهم، وترديدهم كيرياليسون "Kyrie elison" ، يطلقون فجأة فى السماء ناراً، ويعطونها عطراً خاصاً، مظهرين أنها نور ينزل من السماء، لكى يقنعوا المسلمين بحقيقة دينهم، ولا سيما أن تسامح العزيز -والد الحاكم - الذى صاهر بطريريك بيت المقدس، جعل النصارى يتمادون فى إظهار شعائر دينهم، ويقوى من هذا السبب، أن الحاكم فى الواقع لم يهدم غير هذه الكنيسة، فلدينا سجل يمنح الأمان لبقية كنائس بيت المقدس. عن ذلك: ذيل، ص ٦٧. عن هذه النار ، انظر. Krackovski :

Le feu béni, d'après le récit d'al-Birûnî et d'autres auteurs musulmans des Xe- XIIe Siecles. Khristjansky Vostak, III/3 (1915) 226-42.

(٤) هذه التسمية أتت مما يرويه العرب من أن هيلانة «Helena» ، أم قسطنطين الأكبر "Constantinus" . أول إمبراطور لدولة بيزنطة ارتحلت إلى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض وألقيت عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة وبنيت مكانها كنيسة، عرفت باسم: كنيسة القيامة كأنها على قبره، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة. ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.

أرضاً، وطولها عرضاً، فهدمت بعض أجزائها. ومع ذلك؛ فنرجح أن السبب الرئيسي في هدمها هو إزالتها حتى لا تتخذ حجة يتحرك الروم من جديد بسببها إلى بيت المقدس؛ بقصد حمايتها وحماية ذكريات المسيحية الأخرى، إذ أصبحت أمنية الروم الأولى الوصول إلى بيت المقدس. وفي الوقت ذاته أرغم الحاكم جالية الروم في مصر على الخروج منها، وكانت لهم حارة خاصة في القاهرة(١)؛ كما أن نصارى بيت المقدس، من غير العرب، هاجروا أيضاً إلى بلاد الروم(٢).

كذلك سعى الحاكم إلى التقرب من جماعة تعرف بالأبخاز أو الأفخاذ(٣) -لا يعرف أصلهم، ولعل عروقهم سامية عربية؛ إذ لغتهم خليط من الآرامية والفارسية - وملكهم يسمى بالأبخازي، وهم سكنوا في إقليم جورجيا الحالي، وكانوا يحاربون باسيل الثاني، الذي أرسل نحوهم أسطولاً فكاتب جرجس ملكهم الحاكم في أن يتعاضد معه على حرب باسيل الثاني، وأن يقصده كل واحد من جهته. ويبدو أن خطوات الحاكم الانتقامية جعلت باسيل لا يتحرك، وإن أمر باسيل بقطع العلاقات التجارية مع مصر والشام، ثم عمل على التودد للحاكم بعد ذلك(٤).

هذه السياسة السلمية القائمة على اليقظة مع بيزنطة، هيأت الفرصة للحاكم ليسيطر على الشام سيطرة تامة، وهذا لم يحدث قبلاً. فنعرف أن عرب الشام كانوا في عداء مع الفاطميين، حتى بعد استيلاء العزيز على بلادهم. وفي أول عهد الحاكم، ثاروا بزعامة المفرج بن دغفل بن الجراح كبير قبيلة طيئ. ولكن برجوان وصيّ الحاكم أرسل نحو المفرج جيشاً طارده وأسره، وحمله إلى القاهرة(٥)، ثم أطلق سراحه، مع أن ابن كلس وهو على فراش الموت كان قد نصح بقتله(٦).

---

(١) الخطط، ٢ص ١٢.
(٢) يحي، (P.O.) ص ٥١٩ (٣١١)؛ انظر. أسد رستم، الروم، ٢ص ٦٤.
(٣) يحيى، (شيخو) ص ٢٣٩-٢٤٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٢٣-١٢٤؛
Ency. del'Isl, (art. Abkhâz) 2éd, II, P.103
نصرانيتهم تظهر على الإطلاق، بينما تأكد اسلامهم، حتى انهم ارسلوا وفداً منهم للخليفة العباسي يتوسلون إليه إلى الدعوة إلى الجهاد ضد أعدائهم، وظهرت لهم أسرة الأباظيا، التي استمرت تحكمهم قرناً من ٨٥٠ إلى ٩٥٠م، واتخذت سخَم (سخوم) عاصمة لها.
(٤) النجوم، ٤ص ١٩٢؛ انظر. ماجد الحاكم، ص ١٢٣؛
Ency. de l'Isl, (art. al-Hâkim Bi-Amr Allah)2 éd, t 3, P. 79.
(٥) الخطط، ٤ص ٦٨؛ الكامل، ٧ص ١٧٨.
(٦) الروذراوري، ذيل، ص ١٨٥.

ولكن عرب الشام عادوا للثورة من جديد؛ بحيث إنهم احتووا على معظم جنوب الشام إلى الفَرَما، أي مدخل الدلتا المصرية، كما أنهم هاجموا حصون السواحل، التي فيها عساكر فاطمية. وقد أصبح حكم العرب في الشام رهيباً، حتى أن عدداً كبيراً من سكانه غير المسلمين خرجوا إلى بلاد الروم .وقد استمرت ثورتهم مدة سنتين ونصف من ٤٠٢/١٠١١ إلى ٤٠٤/١٠١٣، دون أن يرسل الحاكم نحوهم جيشاً. ولما استفحل خطرهم، بدعوتهم عرب الحجاز- وكانوا خاضعين للفاطميين كذلك- إلى التضامن معهم، أرسل الحاكم نحوهم جيشاً مغربياً قوياً، بقيادة عليّ بن جعفر بن فِلاح؛ كما أمر بقية الجيوش التي كانت بدمشق والسواحل، بالاشتراك في قتالهم. ويبدو أن الحاكم تمكن من قتل المفرج زعيمهم؛ بأن دس له السم، فتمكنت جيوش الحاكم من مهاجمة العرب في كل مكان؛ بحيث هرب أولاده، وخصوصاً حسان بن مفرج، الذي بقي شريداً وقتاً طويلاً، إلى أن جاء إلى مصر في ثياب كان الحاكم منحها لأم حسان، وهو راكب حماراً، طالباً صفح الحاكم[1]. وبذلك قضى الحاكم على أكبر خطر قام به عرب الشام ضد الدولة الفاطمية.

وكذلك نجد الحاكم قد تمكن من أخذ حلب أيضاً[2]، وهذا لم يحدث قبلاً، مع أن حملات أبيه العزيز فشلت في أخذها. وكان لؤلؤ الكبير قد استولى على حلب بعد موت سعيد الدولة في ٣٩٢/١٠٠٢، الذي يبدو أنه مات مسموماً، وضيق على أسرة الحمدانيين، فهرب ابنا سعيد الدولة وهما: أبو الحسن عليّ وأبو المعالي شريف إلى الحاكم في ٣٩٤/١٠٠٤، كما هرب أخو أبي الفضائل سعيد المسمى أبا الهيجاء إلى باسيل؛ بحيث لم يبق من ذرية الحمدانيين أحد في حلب، وانفرد وابنه المنصور بها. ويبدو أن لؤلؤاً قدّر صعوبة موقفه من دولة الفاطميين، بعد عقدها الصلح مع الروم؛ فأعلن الطاعة للفاطميين، وليبين صدق خضوعه، أرسل أولاده إلى مصر، وأعلن الدعوة الفاطمية في دولته.

(١) يحيى (شيخو)، ص ٢٩١-٢٠٢-٢٠٧،٢٠٢؛ الكامل، ٧ص ١٨٠.
(٢) نفسه، ص ٢١٠ وما بعدها؛ نفسه، ٧ص ٢٦١-٢٦٢؛ ابن العميد، ص ٢٥٦؛ النجوم، ٤ص ٢٢٥؛ العيني، تاريخ، ورقات ١٨٤-١٨٥.

ومع أن الحاكم كان قد أرسل جيوشه لمساعدة لؤلؤ في القضاء على أبي الهيجاء؛ الذي حاول استعادة حلب بموافقة باسيل، فإن لؤلؤاً عاد إلى موقف الخصومة، وقطع الدعوة الفاطمية، بل إنه حارب والي طرابلس من قبل الحاكم. لذلك شجع الحاكم ضد لؤلؤ زعماء قبائل بني كلاب المحيطين بحلب، وهم المرداسيون، وكان الحمدانيون قد سيطروا عليهم لما أقاموا دولتهم. فأخذ بنو كلاب بقيادة صالح بن مرداس الكلابي، يغيرون في بلاد لؤلؤ، بتحريض الحاكم.

وبعد موت لؤلؤ في ٣٩٩/١٠٠٨، خلفه ابنه منصور[1]- مرتضى الدولة- فحاربه الكلابيون، كما حاربوا أباه، بحيث استولوا على نصف بلاده، وجعلوه يفر إلى الروم في ٤٠٤/١٠١٣، وبذلك زال ملك بني حمدان على حسب ملاحظة ابن تغري بردي[2]، وقد منح الحاكم صالح بن مرداس بهذه المناسبة، لقب: أسد الدولة. ولكن فتحاً أحد غلمان لؤلؤ، احتفظ بالقلعة في حلب، ولم يرض أن يسلمها لصالح، واتصل بجيش الحاكم؛ فمنح الحاكم فتحاً لقب: مبارك الدولة. ولما دخل جيش الحاكم حلب بالاتفاق مع فتح هذا، واستولى على القلعة والمدينة، زاد الحاكم في لقب فتح، فأصبح يلقّب: مبارك الدولة وسعدها وعزها. فأصبحت حلب لأول مرة خاضعة لنواب الحاكم، الذي ولاها غلاماً لمنجوتكين -القائد الفاطمي السابق- بدلا من فتح، وهو عزيز الملك(الدولة) فاتك[3]، الذي لقّبه الحاكم بأمير الأمراء؛ فحكمها فاتك من ٤٠٧/١٠١٦، إلى نهاية حكم الحاكم. وبهذه المناسبة أخرج الحاكم لأهل حلب سجلاً[4]، يعفيهم فيه من المكوس- وهي ضريبة الإنتاج- والخراج- وهي ضريبة الأرض- ختمه بقوله: « لتعلموا أن ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر، وأن حندس الظلام قد انجاب واندثر».

---

(١) ابن العديم، ١ص ١٩٧.

(٢) النجوم، ٤ص ٢٣٥.

(٣) ابن العديم، ١ص ٢١٨.

(٤) نفسه، ١ص ٢١٤.

وما كاد يتم هذا الانتصار الفاطمى على كل أجزاء الشام، حتى وجدنا الشام ينتفض فجأة فى ثورة عارمة جديدة[1]؛ بقصد الاستقلال عن نفوذ الفاطميين فى مصر، وذلك بعد موت الحاكم. فاتحد ضدهم صالح بن مرداس زعيم الكلابيين فى حلب، وسنان بن عليان زعيم الكلبيين فى دمشق، وحسان بن مفرج زعيم الطائيين فى فلسطين؛ بحيث خرج كل الشام عن طاعتهم من جديد[2]. ولحسن حظ الخلافة الفاطمية وقتئذ؛ أنها وجدت قائداً ماهراً من الترك، تمرس بحرب العرب من قبل فى عهد الحاكم، وهو أنوشتكين، ا لذى اشتهر بالدِزبرى أو التِزبرى[3]، لأنه كان فى خدمة أحد قواد الحاكم الديالمة– وهم من طوائف المشارقة فى الجيش الفاطمى– واسمه تِزبر أو دِزبر وقد تمكن الدزبرى من أن يهزم العرب مجتمعين على شاطئ نهر الأردن فى موضع يعرف بالأقحوانه(أو القُحوانة)، فى ربيع الآخر ١٠٢٩/٤٢٠، فقتل صالحاً وولده الأصغر، وأرسل راسيهما إلى القاهرة، وهرب حسان إلى بلاد الروم–بيزنطة– أما سنان فكان قد توفى فى العام ذاته، وإن أسرع ابن آخر لصالح وهو أبو كامل نصر، وأعلن خضوعه فى حلب للظاهر، ولقب بشبل الدولة.

ومع هذه الظروف السيئة للفاطميين، فإن البيزنطيين أبقوا على علاقتهم السلمية مع الفاطميين « Statu quo »، ورفض باسيل أن يستمع لزعماء الشام الذين طلبوا معاونته[4]. ومن ناحية أخرى؛ فإن أخت الحاكم ست الملك، التى أشرفت على خلافة أخيها، خافت أن ينقض البيزنطيون الهدنة، فأرسلت من قبلها بطريق بيت المقدس إلى باسيل (بسيل)؛ ليطالبه مشافهة بعودة الكنائس إلى النصارى– لعلهم الملكانية، وهم على مذهب بيزنطة– وتجديد كنيسة القيامة المقدسة وسائر البيع فى جميع أرجاء مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها،

(١) عن ذلك بتفصيل: يحيى، تاريخ، ص ٢٤٤ وما بعدها؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ص١٤١، ١٦٠–١٦١؛ ابن العميد، ص ٢٦٩؛ وغير ذلك.

(٢) وفيات، ٢ص ٧٠–٧١.

(٣) ابن العديم، ١ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٤) يحيى، تاريخ. (P.O.) ص ٤٥١–٤٥٢ (٢٤٤–٢٤٥).

واستقامة أمور النصارى بعامة[1]. كذلك جدد الظاهر الهدنة مع قسطنطين الثامن (Constantinus VIII) فى ١٠٢٧/٤١٨، ونص على أن يخطب لهذا الخليفة فى المسجد الكائن بالقسطنطينية لقاء إعادة بناء كنيسة القيامة، التى هدمها الحاكم[2].

ولكن استمرار اضطراب أحوال عرب الشام مدة طويلة كما ذكرنا، جعل الملك رومانوس الثالث "Romanus III Argyrus" (أرمانوس) فى ١٠٣٠/٤٢١؛ يخرج فى ثلثمائة ألف مقاتل، ويفكر فى الاستيلاء على حلب، التى تنازعها الفاطميون والمرداسيون. ولكنه عمل على الاستيلاء على الرُها من بلاد الجزيرة، وأخذ يغير فى أرض الشام، لذلك نادى الظاهر فى الناس بالسجلات فى مصر وسائر الشام بالنفير العام- وهو التعبئة العامة- إلى صد العدو. ولكن رومانوس الذى كان مهتماً أيضاً بتوطيد نفوذه فى إيطاليا، لم يقم بغزو حقيقى ضد الفاطميين، وإن جعل يؤيد ضدهم نصر بن صالح المرداسى، وبقية العرب فى حلب، وخصوصاً أن نصراً أعلن خضوعه للبيزنطيين؛ كما رفض رومانوس عقد معاهدة سلم مع الظاهر[3].

وفى أول عهد المستنصر أصبحت قبضة الدولة الفاطمية فى الشام أكثر قوة بفضل الدزبرى، الذى ذهب وحارب نصر بن صالح وقتله عند حَماه، ودخل حلب فى ١٠٣٧/٤٢٩؛ حيث سكت العملة فيها باسم المستنصر[4]. وبسبب هذا الانتصار الشامل على العرب فى الشام، لقب الدزبرى بألقاب رنانة، هى : الأمير، سيف الإمام، عدة الخلافة، مصطفى الملك، منتخب الدولة؛ كما عين نائباً عن المستنصر فى حكم الشام.

---

(١) نفسه (شيخو)، ص ٢٤٣.

(٢) Dölger : Regesten der kaiserurknnden des Ostromischen Reickes. I, Berlin-Munich; 1924. 824.

؛ أسد رستم، الروم، ٢ص ٦٤؛ Zananiri : L'Egypte et l'équilibre, du Levant au Moyen Age Marseille, 1936. P. 40.

(٣) يحيى، تاريخ (شيخو)، ص ٢٥٤ وما بعدها، ٢٦٨-٢٧١. ولعل ظروفا قاسية سيئة أصابت جنده، قبل أن يهاجم؛ مما جعله يحجم عن الهجوم. العينى، تاريخ، ورقة ١٨٥.

(٤) أنظر. Lavoix : Cat, P. 106 (208).

ولكن الجرجرائي، وهو الوزير القائم للمستنصر، خاف من الدزبرى على نفوذه، ولا سيما أن هذا الأخير كان محبوباً من المستنصر، فسعى فى الدس ضده حتى أن المستنصر -بتحريض من الجرجرائي- كتب إلى الدزبرى سجلاً يؤنبه فيه ويعظه. وأخيراً نجح الجرجرائي فى أن يثير ضد الدزبرى جماعة الأجناد فى دمشق؛ كما قرئ سجل بإسقاط ألقاب الدزبرى، ونعته بالخائن للإمام، وإهدار دمه، فاضطر الدزبرى إلى الهروب من دمشق، والسير إلى حلب والاعتصام بها. وفى خلال اعتصام الدزبرى بحلب، حاول توضيح الحقيقة للمستنصر، والتلطف، وطلب العفو، ولكن عداء الجرجرائي له كان مستحكماً. وكان نتيجة هذا التحامل ضد الدزبرى - وهو القائد المنتصر المخلص- أن أدمن الشراب، وأصيب بمرض تسبب فى موته فى ١٠٤٤/٤٣٦ (أو ١٠٤١/٤٣٣). ولما شب المستنصر، وعرف تحامل الجرجرائي، الذى كان قد توفى أيضاً؛ قرر أن يكّرم قائده المخلص ميتاً، وذلك بعد خمس عشرة سنة فى ١٠٥٦/٤٤٨. فأمر برد ألقاب الدِزبرى، ونقل جسده من حلب، ليدفن فى بيت المقدس، وكان وصوله إلى كل بلد يوما مشهودا.

وكان الشام قد خضع بجميع أجزائه للفاطميين؛ بفضل الدزبرى حتى وقت وفاته، إلا أنه بعد ذلك، كان ولاة الفاطميين يتغيرون باستمرار فى دمشق[(١)]؛ كما أن بعضهم كان يتولاها عدة مرات. كذلك أصبح هم الولاة جمع المال والمكايدة لأشياع سابقيهم من الولاة. وجر عدم استقرار الولاة، وسوء اختيارهم إلى قيام ثورات ضدهم فى دمشق، تنتهى بكوارث للبلد وسكانه، حتى أن الثوار فى إحدى المرات أحرقوا المسجد الأموى الكبير وذلك فى عام ١٠٦٩/٤٦١[(٢)]، الذى هو أروع الجوامع فى دمشق. وقد كانت الخلافة الفاطمية تحرص على بقاء نفوذها فى دمشق، بإرسال عساكرها من طوائف المغاربة[(٣)]، فكان سوء تصرف هؤلاء.

---

(١) مثلا: ذيل، ص ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٩١-٩٢؛ انظر . ماجد، الإمام المستنصر بالله، ص ٧١؛
Ency. de l'Isl, (art Dimashk) 2 éd, t 2, P. 290.

(٢) ذيل، ص ٩٦.

(٣) نفسه، ص ١٠٨.

ومعاداتهم للعرب سبباً فى أغلب هذه الفتن. ومن الطريف أن نذكر أن الدعاء لوالى الفاطميين فى دمشق فى المراسلات أو فى الجوامع كان: «سلّمه الله وحفظه» أو «سلّمه الله ووفقه»(1).

وقد ترتب على ضعف الولاة الفاطميين فى دمشق أن طمعت قبائل بنى كلاب فى الاستقلال بحلب عن نفوذ الفاطميين، بزعامة المرداسيين. فبعد موت الدزبرى تمكن أبو علوان ثمال بن صالح(2)- وهو أخو نصر- الذى لقّبه: معزّ الدولة، من الاستيلاء على حلب، بمساعدة بنى كلاب. فكان المستنصر يرسل ضده جيوشاً بقيادة ولاته فى دمشق، وخاصة من أسرة الحمدانيين العربية، التى سيطرت على حلب قبل المرداسيين، بفضل عبيدهم الترك، ثم غادروها إلى مصر بعد سيطرة الفاطميين عليها. ولكن أهل حلب- الذين كرهوا حكم الحمدانيين وعبيدهم الترك- كانوا يساعدون ثمالاً فى هزيمة الولاة الحمدانيين من قبل الفاطميين. ومع ذلك يبدو أن قواداً آخرين غير الحمدانيين، تمكنوا من هزيمة ثمال، ودخول حلب عدة مرات.

ولذلك: فإن ثمالاً الذى رأى تصميم الفاطميين على توحيد مصر والشام قرر حفظ حلب عن طريق الدبلوماسية. فأرسل إلى مصر ابنه وهو فى السابعة من عمره وزوجته السيدة العلويّة فى ١٠٥١/٤٤٣، ومعها كثير من التحف والهدايا فأعطتها للمستنصر ومعها أربعون ألف دينار، على أن يكتب لها إجازة أملتها بنفسها، لتثبيت زوجها ثمال فى إمارة حلب وما يتبعها(3)، كما سكت العملة باسم المستنصر(4). وفى سنة ١٠١٧/٤٤٩. قرر ثمال أن يتنازل عن حلب

---

(1) نفسه، ص٨٣، ٨٥، ٩٥.

(2) عن ذلك بتفصيل، ٨ص ٣٢، ٤٩، ٥٣؛ ابن العميد، ص ٢٧٢ وما بعدها؛ أبو الفداء، المختصر، ط. الحسينية، ٢ص ١٤١، ١٤٢، ١٨٦؛ انظر. جمال سرور، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، القاهرة ١٩٥٥؛ ماجد، المستنصر بالله، ص ٧١؛
Ency de l'Isl, (art. Halab) t 2, P. 245.

(3) سفر نامه، ص ٦٩ وهامش. يذكر المترجم معلومات بالهامش منقولة عن مخطوط بالمكتبة الأهلية B. N. برقم ٧٢٨، ورقات ٧٢ - ٧٣ .

(4) انظر Lavoix : Catalogue, P. 196(269).

نهائياً، بقصد أن يذهب إلى مصر ليعيش فيها، أو أن يأخذ بدلا منها جُبيل وبيروت وعكا. فأسرع الخليفة بإرسال قائده مكين الدولة بن ملهم والياً على حلب، فتوحد الشام كله مع مصر من جديد. وربما أن قلعة حلب وقتئذ قد أضيفت إليها مبان جديدة أو أنها دعمت، لتبقى سيطرة الفاطميين قوية فى حلب[1].

ولكن المرداسيين من فرع آخر بقيادة محمود، الملّقب عزّ الدولة، وهو ابن نصر بن صالح، الذى قتله الدِزبزى قائد الفاطميين، عمل على أخذ حلب لأسرته بمساعدة الكلابيين. فثاروا علىّ ابن ملهم وأخرجوه من حلب فى ٤٥٢/ ١٠٦٠؛ كما انتصروا على الجيش الذى أرسل لنصرة ابن ملهم. فوجه المستنصر ثمالاً -وهو عم محمود، الذى كان يعيش فى مصر- فتمكن من هزيمة محمود. وربما يكون ثمال فكر فى الاستقلال بحلب، ولكن المستنصر أسرع وأرسل إليه المؤيد فى الدين الشيرازى داعى الدعاة- المسئول عن المذهب ونشره بين أتباعه- الذى ذهب لمقابلة ثمال فى عسكر الفاطميين، وخرج ثمال فى بنى كلاب، فضرب العسكران مصافهم، وتلاقى الرجلان، وكانت النتيجة تجديد البيعة للمستنصر[2]. وقد استمر ثمال خاضعاً للفاطميين حتى وفاته فى ١٠٦٢/٤٥٤[3]، وأوصى من بعده لأخيه عطية الملّقب أسد الدولة، ليقوم مقامه.

ولكن محموداً عاد إلى حلب بجند مرتزقة من الترك ومال بيزنطى وهزم عطية، الذى سار إلى الروم، وأقام بالقسطنطينية حتى وفاته. فبقى محمود يحكم فى حلب حكماً مستقلاً عن بقية الشام الفاطمية. ويبدو أن الذى مكن محمود من ذلك، هو ضعف الخلافة فى مصر، وظهور الترك السلاجقة أو الغز[4]، الذين جاءوا فى هجرات كثيرة من وسط آسيا، وسيطروا على البلاد فى طريقهم إلى العراق، وقووا من الخلافة العباسية، عدوة الخلافة الفاطمية، ولا سيما أن

(١) سفر نامه، ص ١٠. يقول: وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها على الصخر.

(٢) السيرة المؤيدية، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) قيل قتل على يد محمود فى ٤٥٢/ ١٠٦٠ . (الكامل، ٨ ص ٩٠)، أو توفى فى ١٠٦٣/٤٥٥. المصدر ذاته، ٨ص ٩٤.

(٤) أنظر. بعده.

السلاجقة لما أسلموا اعتنقوا المذهب السنى، وهو مذهب العباسيين. ويبدو أن محموداً سعى إلى الابقاء على استقلاله بحفظ التوازن بين جبهة مصر الفاطمية وجبهة العراق السلجوقية. وقد قطع الخطبة للمستنصر، وخطب للقائم فى بغداد خوفاً من السلاجقة، وإن وجد مقاومة من رعاياه الشيعة[1]. بعد وفاة محمود فى ٤٦٣/١٠٧٠، حاول ابنه المسمى نصر أن يسير على سياسة حفظ التوازن وكانت أمه السيدة العلوية قد ذهبت بنفسها إلى السلطان السلجوقى مثلما فعلت من قبل لزوجها مع المستنصر الفاطمى، ولكن الأتراك السلاجقة زاد طمعهم فى حلب، وما زالوا بها حتى سقطت فى أيديهم فى ٤٧٩/١٠٦٦-١٠٦٧.

وعلى كل حال، كان استيلاء الفاطميين على كل الشام على يد الدِزبرى فى أوائل حكم المستنصر، أن جعل ملك بيزنطة ميخائيل الرابع البفلاجونى "Michael IV Paphlagoni" يسعى إلى العودة إلى السلام. فعقد هدنة مع المستنصر فى عام ٤٢٩/١٠٣٨، على أن يرسل مهندسيه لإصلاح كنيسة القيامة، التى يبدو أنها لم تكن قد أصلحت بعد، لقاء فك أسر خمسة آلاف أسير[2]. ويذكر الرحالون[3]، أن التجارة بين الفاطميين والبيزنطيين نشطت حينئذ، فكانت سفن الروم تحمل من مصر الملح المستخرج من وادى النطرون، وتورد بدله الخشب المستعمل فى بناء السفن؛ كما أن سفن مصر والشام كانت تسافر إلى موانىء الروم. وحينما تأتى مراكب إلى موانى مصر فى الإسكندرية ودمياط، أو موانىء الشام فى طرابلس، تدفع ضريبة الخمس أو العشر[4]؛ وذلك على حسب الاتفاق. كذلك كانت قوافل الروم أو المسلمين تمر بالطريق البرى عن طريق حلب.

---

(١) لما لبس المؤذنون السواد– شعار العباسيين– للدعوة لهؤلاء، رفع المصلون الحصر من المسجد، وقالوا: « هذه حصر علىّ بن أبى طالب، فليأت أبو بكر بحصر يصلى عليها الناس». الكامل، ٨ص ١٠٨.

(٢) نفسه، ٨ص ١٦؛ العينى، تاريخ، ورقة ١٨٥؛ Dölger, 834-843؛ انظر . أسد رستم الروم، ٢ص ٦٥؛ ماجد ، المستنصر، ص ٧٥.

(٣) سفر نامه، ص ١٠، ١٢؛ الكامل، ٨ص ٢١؛ انظر Heyd :
Histoire du Commerce du Levant, 1, 1 (5;124)

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٤٦٣–٤٦٤ (ط. وزارة الثقافة ٣ص ٤٥٩–٤٦٠).

ثم إن الموقف الدولي كان قد تغير، نتيجة لوجود الترك السلاجقة أو الغزّ في العراق[1]. وفي أول الأمر خافت بيزنطة من هذه القوة الجديدة؟ فحاولت أن تتقرب من الفاطميين، فعملت بيزنطة على تجديد الهدنة مع الفاطميين في سنة ١٠٤٧/٤٣٩[2]، وحمل كل من ملك بيزنطة وخليفة مصر لصاحبه هدية عظيمة. كذلك كان قد اتفق الوزير الفاطمي اليازوري في ١٠٥٤/٤٤٦؛ عن طريق رسوله أبي عبد الله القضاعي، مع الملك قسطنطين التاسع "Constantine IX Monomachus"، على إرسال بيزنطة لمصر ما مقداره أربعمائة ألف أردب من الحبوب؛ حيث إن مصر كانت تعاني مجاعة عارمة، وهذا دليل على التفاهم التام. ولكن ثيودورا "Theodora" –ابنة قسطنطين الثامن الصغرى التي تولت الملك– رفضت إرسال الحبوب، إلا إذا وافقت مصر على عقد معاهدة دفاعية هجومية، وأن ينجدها المستنصر بعساكر مصر، إذا هوجمت. ولكن الفاطميين الذين يعتبرون السنيين معارضين لمذهبهم لم يكونوا –في رأينا– يتفقون مع البيزنطيين ضد طائفة إسلامية، حتى ولو كانت معارضة لمذهبهم.

عندئذ سعت بيزنطة إلى التقرّب من الترك السلاجقة في العراق، ولا سيما أن السلاجقة كانوا راغبين في ذلك، وأرسلوا سفارة إلى القسطنطينية؛ بحيث ألغيت الخطبة للخليفة المستنصر في جامع القسطنطينية في عهد الملك ميخائيل السادس "Michael VI Strotioticus"، وأعلنت الخطبة للخليفة القائم العباسي، على الرغم من محاولة المستنصر منع ذلك، بإرسال سفارة له إلى القسطنطينية على رأسها أبو عبد الله القضاعي المذكور، بل واتفق السلاجقة مع الروم على أخذ الدولة الفاطمية[3]. فكان هذا التصرف العدائي من قبل بيزنطة نحو الفاطميين، سبباً في فساد العلاقة بينهما، واستمر العداء بمجيء الحروب الصليبية. كذلك

---

(١) انظر. بعده.

(٢) الكامل، الخطط، ٢ص ١٣٧؛ العيني. تاريخ، ورقة ٩٨٦؛ ابن ميسر، ص ٦ وما يليها؛ وفيات، ٢ص ٢٤٣؛ Wust، Dölger, P. 881; 912; Gesch. der Fat, Khalifen 250. ؛ أسد رستم، ٢ص ٦٩، ٧٨، ٧٩.

(٣) السيرة المؤيدية، ص ٩٤–٩٥. وهامش؛ العيني، تاريخ، ورقة ١٨٦؛ ابن الجوزي، عجائب البدائع، مخطوطة بالمكتبة الأهلية، برقم ١٥٦٧، ورقة ١٨٦.

عمل البيزنطيون على مهاجمة الفاطميين؛ بحيث أرسلوا اسطولاً مكوناً من ثمانين قطعة لمهاجمة مدن الساحل الشامي. ولما عرف المستنصر بنيات بيزنطة، استولى على كل ما فى كنيسة القيامة، ومنع وصول الحجاج النصارى إلى القدس، واضطهد الروم، ونادى فى بلاد الشام بالغزو. وقد حاول المستنصر أن يتفق مع محمود المرداسي- الذى كان قد استولى على حلب واستقل بها كما ذكرنا- على غزو بيزنطة؛ إلا أن محموداً كان قد اتفق مع البيزنطيين، واعتذر بمهادنتهم، وإعطائه ولده رهينة لهم(١)، فضلاً عن عداء المرداسيين للفاطميين. وفى الواقع كان بعض أمراء المرداسيين مثل بعض امراء الحمدانيين مترفين يشربون الخمر، وأن بعضهم كانوا خونة مع الروم ضد المسلمين.

يتبيّن من كل هذا أن خلفاء الفاطميين سيطروا فى الشام حتى الفرات، وعملوا على توحيده مع مصر، إلا أن العقبات قامت فى سبيل هذه الوحدة، بسبب المطامع الشخصية لبعض القادة فى الشام، وانقسام عرب الشام؛ مما أضعف جبهة الفاطميين أمام البيزنطيين، مع أن هذه الوحدة كانت كفيلاً دائما لوقفت خطرهم.

*

كذلك كان هدف الفاطميين منذ تكوين دولتهم بالمغرب، تدمير خلافة العباسيين فى العراق. ولكن حين انتقالهم إلى مصر وفتحهم الشام، أحجموا عن ذلك؛ بسبب هجمات الروم فى الشام، ولأن العباسيين كانوا قد سيطرت عليهم أسرة فتية هى الأسرة البويهية. فقد كان العباسيون فى فترة احتضار، وأصبح الخليفة تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الترك الأقوياء. ومنذ ٣٣٤/٩٤٥، لم يقف ضعف الخليفة العباسي عند استيلاء رجل أقوى منه على السلطة، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة بنى بويه(٢)، التى أصلها من عنصر الديلم

---

(١) النجوم، ٥ص ٧٩.

(٢) عنهم: الكامل، ٦ص ٢٣٠ وما بعدها؛ وفيات، ١ص ٩٧-٩٩، ٣ص ٦٥؛ المقريزى، السلوك (الطبعة الثانية)، ١/١ ص ٢٣ وما بعدها؛
انظر. Ency, de l'Isl, (art Buyides) t I P. 827-828 ; 2 éd t I P. 1930. sqq.

الفارسي، وتمكنت من تكوين دويلات بزعامة أفرادها في فارس؛ بسبب ضعف الخلفاء العباسيين، ثم استولت على بغداد من الأتراك المتغلبين عليها، وأصبحت تحكم في بلاد الخليفة العباسي وارثاً عن وارث، معتمدة أساساً على القومية الفارسية.

يضاف إلى ذلك أن بني بويه على عكس قواد الأتراك السنة، كانوا متشيعين؛ فقد كانت القومية الفارسية منذ زمن قد تحولت إلى الشيعة[1]؛ بسبب أن الحسين بن عليّ كان قد تزوج جهانشاه ابنة يزدجرد[2]، آخر ملوك الفرس، ثم إنه بمجيء بني بويه إلى العراق، أصبح العراق ذاته موطناً هاماً للتشيع[3]. ولكن تشيع البويهيين، كان على أساس المبدأ الزيدي، نسبة إلى زيد بن عليّ السجاد ابن الحسين بن عليّ، الذي قتل في أيام هشام الأموي. فكان الزيديون لا يعترفون بخلافة العباسيين؛ إلا أنهم كانوا يقبلون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وقالوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل[4]؛ كما قالوا أن الإمامة غير واجبة شرعاً، وأنها تقليد يمكن الاستغناء عنه، وأن الفقهاء يكونون عوضاً عنها. ومع ذلك يجب أن نقرر أن البويهيين لم يكن لهم إمام حاضر؛ وإن فقه مذهبهم لم يصل إلى درجة الفقه الإسماعيلي والفاطمي في مصر.

معنى هذا أن الفواطم حينما نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وامتد ملكهم نحو العراق بالاستيلاء على الشام، وجدوا تشيعاً في بغداد، مركز الخلافة العباسية والأرض الخاضعة لها في العراق والمشرق، وأن صاحب هذا التشيع –وهم البويهيون– هو صاحب الأمر والنهي. فكان هذا من شأنه ولا ريب ألا يدفع كلا

---

(١) النجوم. ٤ص ١٤٢.

(٢) النوبختي، ص ٥٣؛ انظر. Aubin Le chiisme et la Nationalité perasne. R.M.M. vol. 4. Mars, 908, n. 3, P. 457 sqq; Essai sur lHistoire des Ismaeléens de, : Defrémeny; la Perse, P. 12.

(٣) رسائل الخوارزمي، طبعة القسطنطينية ١٢٩٧هـ، ص ٤٩؛ انظر. متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ط ٢، ١ص ٧٧.

(٤) الخطط، ٤ص ١٧٣، ١٧٥. عن عقيدتهم: النوبختي، فرق الشيعة، ص ٥٨.

من الفاطميين أو البويهيين إلى أن يقضي الواحد منهما على الآخر، ولكن على العكس عمل على التقريب بينهما. ونلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم من قبل البويهيين مما حاول معزّ الدولة أول البويهيين في بغداد بالكشف عما في قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله لما جاء مصر، لولا أن أشار إليه أصحاب النظرة البعيدة من اتباعه[1] بترك هذا الأمر خوفاً على سلطانه وسلطانهم، ونفوذه ونفوذهم. ودليل آخر على رفضهم خلافة العباسيين هو إهانتهم للخلفاء العباسيين: فمعزّ الدولة أهان المستكفي بالله، واقتاده إلى داره واعتقله فيها، ثم أمر بنهب دار الخليفة[2] ، وولى بدله المطيع، ليطيعه. فالخوف على سلطانهم كان الحائل الوحيد في سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم، وتوحيد الخلافة في دار الإسلام؛ وهو الحائل ذاته الذي جر القرامطة إلى مقاومة الفاطميين وحربهم، بل جعل بختيار الذي تولى بعد أبيه معزّ الدولة، يمد القرامطة بالمال والسلاح، لوقف تقدم الفاطميين. ومع ذلك، فالولاء لأئمة الفاطميين من البويهيين أصحاب الأمر والنهي في بغداد، كان يعلمه الملأ في كل مكان، وتحت سمع الخلافة العباسية.

ولعل العلاقات الحسنة بين البويهيين والفاطميين لم تكن من القوة والصفاء، مثلما كانت بين عضد الدولة[3] البويهي والعزيز الفاطمي. وقد احتفظ لنا أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) برسالة بين العزيز الفاطمي رداً على رسالة عضد الدولة، فيها يشكر العزيز عضد الدولة على ولائه وخضوعه؛ كما انتهز عضد الدولة وصول رسول العزيز بهذا المكتوب ليذل الخلافة السنية عدوة الفواطم، فقرأ الرسالة مع ما تحمله من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم في حضرة المطيع العباسي، حتى دهش أبو المحاسن وتعجب، وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لاجتماع البويهيين والفواطم في رمز واحد، وإمام واحد، وهو «علي». ويجمل بنا أن نعرض بعض ما جاء في هذه الرسالة الهامة[4]: «وبعد،

(١) السلوك، ١/١ ص ٢٧س ٨-١٩.
(٢) مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، نشر Amedroz ، ١٩١٤، ٢ص ٨٦.
(٣) عنه، أنظر Ency, de l'Isl, (art. Adud al-Dawla) t I, P. 217-219.
(٤) النجوم، ٤ص ١٢٤-١٢٥.

فإن رسولك، وصل إلى حضرة أمير المؤمنين، مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك، ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين...»، ثم ذكر كلاماً طويلاً فى المعنى. أما بقيه الكتاب، فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل الرأى والمشورة، فيما يحيط بهما فى العالم الإسلامى من خطر الروم، وضعف الحمدانيين فى منطقة الثغور، وهى حدود الشام الشمالية؛ فكتب ابن كلس، الوزير الفاطمى، لعضد الدولة يقول: « وقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين، وخراب الشام وضعف أهله.... فتأهب إلى الجهاد فى سبيل الله».

ولقد شارك عضد الدولة العزيز فى كرهه للحمدانيين، فكما عمل العزيز على محاربة حمدانى الشام، عمل عضد الدولة على القضاء على حمدانى الجزيرة، ولا سيما أنهم كانوا أيضاً فى منازعات داخلية؛ فقد كان أبو تغلب قد قبض على أبيه ناصر الدولة، واستولى على السلطة منذ ٩٧٧/٣٥٦. فغزا عضد الدولة دولة أبى تغلب واستولى عليها، فهرب أبو تغلب إلى الشام، وقتل فيها فى ٩٧٩/٢٦٩[1]. وكذلك لما حدث نزاع بين باسيل الثانى ورجل اسمه برديس سكليروس "Bardas Skléros"؛ فكر عضد الدولة فى مشاركة العزيز فى جهاده ضد الروم، بالمساومة ببردس الذى التجأ إليه، لاسترداد المدن التى فتحها الروم فى منطقة الثغور. ولكن[2] صمصام الدولة، الذى تولى بعد أبيه عضد الدولة، عقد معاهدة مع الروم فى ٩٨٦/٣٧٦[3]، مثلما فعل العزيز فى السنة التالية فى ٩٨٧/٣٧٧.

هذه هى مظاهر العلاقة الرسمية الطيبة بين بغداد والقاهرة. وهناك مظاهر أخرى لهذا التوافق، تتمثل فى اشتراك أهل مصر والعراق من الشيعة فى بعض الأعياد المذهبية، التى تحيى ذكريات الشيعة الأولى، مثل عيد عاشوراء، الذى

---

(١) الكامل، ٧ص ٢٣-٢٤، ٩٥-٩٩.

(٢) عن وعود بردس لصمصام الدولة. انظر. صبح، ١٤ص ٢٠-٢٤.

(٣) ابن العميد، ص ٢٤٤-٢٥٢، انظر. Canard :

Deux documents arabes sur Bardas Skléros. Studi Bizantinie Neoellenci. Vol V/1 Rome, 1939.

سمى هكذا قتل الحسين بن علىّ فى العاشر من المحرم، وهذا العيد كان يحتفل به فى بغداد منذ أن استقر البويهيون فى العراق، أما فى مصر فدخل بدخول الفاطميين، وحتى قبل ذلك. وفى هذه الفترة أنشئت الأضرحة الخاصة بعلىّ والحسين فى العراق، الأولى فى النجف، والثانية فى كربلاء.

ولكن بعد موت عضد الدولة فى ٩٨٦/٣٧٦، ضعف البويهيون فى العراق، وتغير الموقف بين الفاطميين والعباسيين؛ بسبب ما ترتب عليه من تقوية هؤلاء. وقد كان ضعف الدويلات البويهية يرجع إلى عدم تماسكها فهى مثلاً لم تكن لها عاصمة واحدة، وإنما تعددت عواصمها بين أعضاء الأسرة البويهية، وأصبحت تَبريز والرىّ وأصْفهان وبغداد عواصم كل أمير بويهى، ينزع إلى الاستقلال؛ بحيث إن الخليفة الطائع السنى بعد المطيع كان يجلس للمصالحة بينهم، ويجمعهم على الائتلاف[1]. وزاد من ضعف البويهيين اعتمادهم على عناصر غريبة عنهم، طمعت فيهم، مثل: العرب الذين كانوا فى العراق وديار الجزيرة، والأكراد[2] بجوار الجزيرة، وبخاصة عنصر الترك فى بغداد مع أن استيلاء البويهيين على السلطة فى بغداد، كان بطرد الترك، وانتصار العنصر الفارسى. يضاف إلى ذلك، أن المذهب الزيدى كان يبيح الحرية المذهبية، ويجيز المهادنة بين أهل الملتين، فكان هذا من شأنه أيضاً تقوية أمر السنة المتبعة على حساب الشيعة.

وكان مظهر ضعف البويهيين فى العراق، هو أن السنيين فى خلافة القادر بالله الذى تولى بعد الطائع فى ٩٩١/٣٨١؛ أقاموا أعياداً تقابل أعياد الشيعة مثل يوم الغار-وهو المكان الذى اختفى فيه النبى وأبو بكر- وجعلوه بعد ثمانية أيام من يوم الغدير، فى السادس والعشرين من ذى الحجة، وهو اليوم الذى أوصى فيه النبى لعلىّ بإمامة المسلمين بعده، لتبقى فى أسرته إلى يوم القيامة، وقد جعلوا بإزاء يوم عاشوراء، يوم مصرع مصعب بن الزبير، بسبب أنه أحد حوارى

---

(١) الروذروارى، ذيل، ص ١٢٥-١٢٦.
(٢)الكامل، ٧ص ١٩٢ س ١٥.

الرســـول، ولا يقل فى منزلتـــه عن علّى بـن أبى طالـب، وعـمـلوه لأول مـــرة فى ٣٨٩/٩٩٩[1].

كـذلك تدخل الخليفـة العبـاسى القـادر بالله فى أمـور السـيـاسـة فى بغـداد، فأظهر ما يكنه من بغض وحقد نحو الشيعة عموماً ولعنهم. وأوجد ما يسمى بالاعتقاد القـادرى، واعتبـر من خالفـه فـاسـقـاً، ومنع تدريس علم الكلام؛ إذ حـارب الفكر بعامة بدليل أنه هاجم فكر المعتزلة ولعنهم أيضاً. فقد عمل على منع الشيعة فى أحياء الكَرْخ والطَّاق ببغـداد من الاحتفال بيـوم عاشـوراء، والنوح عـلى الحسين فى ٣٨٢/٩٩٢[2]، مع أنه عُمل منذ نحو ثلاثين سنة[3]. ولما حدثت فتنة بين أهل السنة والشـيـعة، وصـاحت الشـيعة: «حـاكم يا منصـور»، إشارة إلى خليـفـة مصـر الحاكم بأمر الله، أنفذ القادر الحراس لنصـرة السنة[4]. بل تمكن أحد قواد التـرك فى بغـداد من حـبس بهـاء الدولة[5] البـويهى بن عـضـد الدولة، وأصـبح الخـليـفـة والقواد الأتراك هم المسيطرون فى بغداد.

ولما تولى الخليـفـة العـبـاسى القـائم بالله بعد القـادر بالله، كان أشد عـداوة للبـويهيين والشـيـعة. فـبعـد موت جـلال الدولة(ت٤٣٥/١٠٤٤)، ابن بهـاء الدولة، الذى كان ضـعيفاً[6]، ومجئ أبى كـاليـجـار-وهو مـلك بويهى آخـر- ليسـيطر فى بغداد والعراق من دون جلال الـدولة؛ فإن الخليفة القائم وجد الشـجاعة فى الامتناع عن استقبال أبى كاليجار[7]، الذى دخل بغداد بعد انتصاره عـلى ولد جلال الدولة. ولكن لسوء حظ الخليفة القائم أن أبا كـاليجار كـان من دون أواخر البويهـيين قوياً؛ بحيث كـان يضـرب الطبل على بابه فى الصلوات الخمس لتكريمه، بينمـا عـضـد

---

[1] ابن العمـاد، شذرات، القـاهرة ١٣٥٠هـ، ٣ص ١٣٠؛ انظر. مـتز، الحضـارة، ١ص ٩١.
[2] ذكر ابن العماد أن أيام الغار كانت فى صفر وربيع الأول.
[3] الكامل، ٧ص ١٤٨.
[4] النجوم، ٤ص ١٦٢س٩-١١.
[5] انظر. متز، الحضارة، ١ص ٩١-٩٢ (ينقل عن مصادر مخطوطة).
[6] النجوم، ٤س ١٦٣.
[7] الكامل، ٨ص ٣٧ س ١٢.
[8] النجوم، ٥ص ٣٧، س ١٨. عن هذا الملك، انظر. مثلاً: العبر، ٣ص ٤٥٢. وما بعدها؛ مرآة الزمان، ٢/١١ ورقات ٥٠٥ وما بعدها؛ Ency. de l'Isl, (art. Abu Kâlidajâr), t Ip. 96-7.

الدولة نفسه ضربها ثلاث نوب[1]، فقد كان ضرب الطبل من علامات السيطرة والحكم. ولما توفى أبو كاليجار فى سنة ١٠٤٨/٤٤٠، ملك ابنه الملك الرحيم خسرو فيروز، رفض الخليفة القائم الاعتراف بتلقيبه بالملك الرحيم؛ بحجة أن هذا اللقب أخص صفات الله تعالى[2]. وقد بقى الملك الرحيم ضعيفاً، بسبب أنه كان فى حروب مستمره ضد أعدائه البويهيين؛ بحيث أصبحت بغداد بدون ملك بويهى. بل زاد الأمور سوءا للشيعة فى العراق بمهاجمتهم فى أحيائهم، حتى إن مشاهد الشيعة أحرقت، واتهم الخليفة بذلك[3]. وقد تطاير الشرر بين الشيعة والسنة فى بغداد ولا سيما فى سنة ١٠٤٩/٤٤١؛ بحيث إن كلا منهما أخذ يبنى الأسوار حول نفسه، وجرت بينهما فتن كثيرة[4]، وزال كل صفاء بينهما، وقد عظمت الفتنة بينهما أضعاف ما كانت عليه قديماً فى ١٠٥١/٤٤٣[5]، فنبشت قبور الأولياء، وأحرقت قبور ملوك بنى بويه ووزرائهم. ومع أن نقيبى العلويين والعباسيين حاولا مصالحة الطرفين فى هذه الفتن المذهبية؛ إلا أن الاتفاق بين الطرفين أصبح غير ممكن استمراره.

كذلك هذا الضعف البويهى كان مشجعاً للخلافة العباسية على أن تهاجم عدوتها الفاطمية فى مصر. فنجد الخليفتين: القادر بالله ومن بعده القائم بالله، يطعن كلاهما فى محضر رسمى فى نسب الفاطميين-أصحاب مصر- قرئ على المنابر، وأرسل إلى جميع ولايات الخلافة العباسية، وسُيّر إلى الآفاق، وهو النسب الذى يجعلهم ينتسبون إلى فاطمة وعلىّ، وتركز سلطة خلافتهم عليه. فظهر المحضر الأول من قِبل القادر بالله ضد الحاكم بأمر الله فى شهر ربيع الآخر من سنة ١٠١١/٤٠٢[6]، والثانى من قبل القائم بالله ضد المستنصر بالله فى ١٠٥٢/٤٤٤[7]. وقد حرص الخليفتان العباسيان على أن يأخذا توقيعات كبار

(١) ابن الجوزى، المنتظم، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ١٣٥٩هـ، ٨ص ١١١.
(٢) الكامل، ٨ص ٤٨ (فى أواخر الصفحة).
(٣) العبر، ٣ص ٤٥٥.
(٤) الكامل، ٨ص ٥٣.
(٥) نفسه، ٨ص ٥٩-٦٠؛ شذارات، ٣ص ٢٧٠؛ المنتظم، ٨ص ١٤٩.
(٦) ابن الجوزى، المنتظم، ٧ص ٢٥٥؛ النجوم، ٤ص ٢٢٩-٢٣٠؛ شذرات، ٣ص ١٦٢-١٦٣، بعده.
(٧) الخطط، ٢ص ١٧٠؛ الكامل، ٨ص ٦٤؛ النجوم، ٥ص ٥٣. وقيل فى سنة ١٠٥٠/٤٤٢. العينى، تاريخ ورقة ١٨٦ب ؛ انظر، ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٨٢.

الأشراف والفقهاء والقضاة والعلماء فى بغداد، وذلك حتى يحوز الطعن الأهمية، ولا يتسرب الشك إلى الناس. فأخذت فيه توقيعات الآتية أسماؤهم[1]: الشريف الرضى، وأخوه المرتضى نقيب الطالبيين، والأبيوردى والاسفرائينى وأبو جعفر النسفى من العلماء، أبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، من أسرة النعمان فى مصر. حقاً إن الخلافة العباسية أو الأموية بالأندلس[2]، كانت تشكك فى نسب الفاطميين منذ ظهورهم؛ ولكن لم يحدث أن ظهر طعن رسمى قبل ذلك.

ومع أن صيغة المحضر[3] ضد الحاكم الفاطمى قد وصلتنا، فإن صيغته ضد المستنصر بالله لم تصلنا، وتشابها فى نسبتهما على الخصوص إلى أصل مجوسى، وبالذات إلى شخص غامض اسمه ديصان. ولدينا معلومات أخرى عن

---

(١) عن المرتضى، انظر: وفيات، ٢ص ١٤ وما بعدها. عن الأسفرائينى. وفيات، ١ص ٣٣؛ انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٤٢.

(٢) كذلك كتب الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى العزيز كتاباً يسبه فيه ويهجوه، ورد فيه: «أما بعد؛ فإنك قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك والسلام». انظر. وفيات، ٣ص ٥٣.

(٣) هاهى صيغة المحضر: هذا ما شهد به الشهود، أن سعد بن إسماعيل المستولى على مصر، هو معدّ بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، وأنهم منتسبون إلى ديصان ابن سعد الدين، ينتسب إلى الديصانية، وأن سعيداً المذكور سار إلى المغرب، ويسمى عبيد الله، ويلقّب بالمهدى، وأن هذا الناجم الحاكم بمصر هو منصور، الملقّب بالحاكم- حكم الله عليه بالبوار والدمار- ابن نزار بن معدّ بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس- عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين- أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب -رضوان الله- ولا يعلقون منه بنسب، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه باطل وزور، ولم يتوقف أحد من أهل بيوتات الظالمين من إطلاق القول فى هؤلاء، لأنهم خوارج أدعياء، وأن هذا الإنكار لنسبهم كان سابقاً بالحرمين، وفى أول أمرهم بالمغرب انتشر انتشاراً عظيماً، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وزنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، ولمذهب الوثنية والمجوسية معتقدون، عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية. وكتب ذلك فى ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة، وشهد بذلك من العلويين الشرفاء: المرتضى والرضى المسويان، وجماعة منهم، وشهد من الفقهاء المعتبرين الشيخ أبو حامد الأسفرائينى، وأبو الحسن القدوى، وقاضى القضاة محمد ابن أحمد، وأبو عبد الله البيضاوى.
هذه الصيغة نجدها تختلف من مصدر لآخر، فضلاً عن الاختلاف فى إيراد أسماء الشهود.

هذا الشخص من مصادر أخرى غير محضر الطعن، ولا سيما مما كتبه الشريف العابد أبو الحسين المعروف بأخى محسن فى أصل الفاطميين، الذى نقل عنه كثير من المؤرخين السنة؛ طعناً فى الفاطميين. والسبب فى أهمية ما كتبه أخو محسن –وقد وصلنا فى كتابات آخرين– أنه كان من العلويين محققاً لأنساب أهل بيته، حتى يتحقق أمر نسبهم. فقد كان يرى أنه كان لديصان ابن اسمه ميمون، اشتهر بالقدّاح[1]، الذى كان مولى جعفر بن محمد الصادق –جد الفاطميين– والقدّاح هو كحال يقدح العين، إذا نزل فيها الماء، أو من يشحذ السهام. وقد اسس القدّاح فرقة تنسب إليه ربما للغلو فى العلويين والدعوة لهم، وأن ميمون كان له ولد هو عبد الله[2]، عرف بتفقهه فى المذهب الشيعى. وربما يكون الطعن محققاً بنسبتهم إلى هذا الأصل بالذات، لأن القرامطة فى البحرين –وكانوا فرعاً من الفاطميين– لما انقلبوا على هؤلاء وحاربوهم فى الشام ومصر، قد نسبوهم إلى ميمون القدّاح[3]. بل إن الفاطميين انفسهم ذكروا القدّاح فى كتبهم؛ فقد تناقلوا أن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، اختفى مع شخص اسمه ميمون القدّاح وابنه عبد الله، وربما كان ميمون بذلك أول حجة للإمام المكتوم[4]. ومما زاد الاضطراب حول أصل الفاطميين، هو أن الفاطميين انفسهم لم يتكلموا عن أئمتهم فى دور الستر، وهى الفترة التى اختفوا فيها أيام العباسيين، واستمر ذلك حتى فترة الظهور، بتكوين دولتهم بالمغرب ومصر. وربما لأنه كان فى اعتقادهم أن فترة الستر موحًى بها؛ فكان إذا سألهم أحد عن هؤلاء الأئمة المستورين لم يجيبوا وقالوا:« هم أئمة قهروا، فاستتروا، ولم

---

(١) عنه: ابن أيبك، كنز الدرر، ٦ص٦ وما بعدها؛ الخطط، ٢ص ١٥٨؛ الحماد اليمانى، كشف أسرار الباطنية، ص ١٦–١٨؛ الفهرست، ص ١٨٨؛ البغدادى، الفرق بين الفرق (ط. مصر)، ص ٢٦٦؛ الجوينى، كتاب تاريخ جها نكشاى، ص ٨٦ وما بعدها؛ انظر. Ivanow ؛ Rise, P. 127 sqq;

Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs London, 1834, P. 43 sqq:.Mamour;

(٢) زهر المعانى (من المنتخب)، ص ٤٧، ٤٩؛ اتعاظ، تحقيق الشيال، طبعة طوب قبو سراى، ص ٢٤–٢٦؛ انظر.

Ency, de l'Isl, (art Abd Allah b. Maymûn) 2 ed t I, P. 49-50.

(٣) النجوم، ٤ص ٧٤ س ١٨.

(٤) انظر. The Origin of Isma ' ilism, P. 63-4.: Lewis

يؤمروا بإظهارهم ولا ذكرهم لأحد[1]، حتى أن علماء كباراً من الفاطميين مثل الرازى والنعمان والمؤيد لا يذكرونهم. كما أن بعضهم تحدث عن هذه الفترة بما يحلو له؛ بحيث جاء حديثهم مضطرباً؛ فاختلف فى أسماء الأئمة المستورين أو حتى عددهم، وإن قيل إن عددهم ثلاثة، وهم أحمد والحسين ومحمد. ويزيد الأمر غموضاً أن بعض الكتب بما فيها الشيعية، تردد أن عبيد الله المهدى لم يكن الإمام الحقيقى، وإنما هو سعيد الخير، وأن الإمام الحقيقى هو ابن عمه علىّ ابن محمد، الذى مات وهو يتأهب للسفر إلى المغرب، فجعل سعيد الخير هذا ستاراً لابنه أبى قاسم، وأبا روحيا له؛ حيث اصطحبه معه؛ واعتبر أبو القاسم بعد موت عبيد الله الإمام الظاهر الأول، بعد فترة التقية[2]. كما أن كتباً سنية أخرى ترى الوصى على سعيد الخير -وهو عبيد الله- فى رأيهم كان عمه محمد المعروف بالشلعلع (أو الشلغلغ)[3]، وأن كليهما ليسا من نسل الفاطميين، وإنما من سلالة عبد الله بن ميمون القدّاح. ويذكر ابن حمّاد السنى، أن أبا القاسم، كان يركب فى أيام المهدى بالمظلة -شعار أئمة الفاطميين- وباسمه كانت تنفذ الكتب والعهود[4]؛ مما يؤيد ما ورد فى الكتب الشيعية والسنية. فيبدو أن العباسيين استغلوا فترة الستر، وروايات الشيعة خاصة بالمهدى وولىّ عهده، لكى يظهروا الفاطميين بمظهر المدعين للنسب الشريف.

والواقع أن نظرة واحدة إلى ما ورد فى محضر الطعن العباسى أيام الحاكم أو أيام المستنصر تكشف عن اضطرابه؛ إذ ليس فيه براهين، وإنما قدح وترهات ملؤها التعصب؛ بحيث لم يخرجوا الفاطميين فقط من النسب الشريف، بل راحوا يخرجونهم من الإسلام قاطبة. ومن رأى المؤرخ الحصيف ابن خلدون فى

(١) كشف، ص ١٩ س ٨-٩؛ انظر. Ivanow ؛
Alleged Founder of Isma' ilism, PP. 7-8
؛ كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، القاهرة ١٩٥٩، ص ١٥.

(٢) غاية المواليد (من المنتخب)، س ٣٦-٣٧؛ زهر المعانى (من المنتخب)، ص ٦٧، وأيضاً؛ الفرائض، (من المنتخب) ص ١١-١٢؛ اتعاظ ، تحقيق جديد، ص ٢٦، انظر . حسن إبراهيم، عبيد الله، ص ٨٠ وما بعدها.

(٣) ابن أيبك، الدر، ٦ ص١٩؛ نهاية الأرب، ٢٦ ورقة ٢٤؛ الخطط، بولاق، ١ ص ٣٤٨.

(٤) ابن حماد، ص ١٤.

مقدمته[1]. أن العباسيين طعنوا فى نسب الفاطميين؛ بسبب أن هؤلاء شاركوهم النسب إلى النبى ثم هو يتعجب من أن رجلا مثل أبى عبد الله الشيعى، الذى أنشأ للفاطميين خلافتهم بالمغرب، يضع نفسه وحياته فى خدمة مدعٍ -أى المهدى- ويرى أن إرسال الخليفة العباسى كتبه لولاته وراء المهدى للقبض عليه، دليل صحيح على صحة نسب المهدى إلى النبى. أما من وافق على هذا الطعن -من الفقهاء وغيرهم- فهو من باب التزلف، وأن شهادتهم كانت على السماع؛ تصديقاً لأحاديث ملفقة. وكذلك المقريزى فى كتابه: الخطط[2]، يقدّم الحجج ذاتها التى تجعله يرفض ما جاء فى محضر الطعن، ويرى أن سبب القدح بالأحرى جاء نتيجة لضعف العباسيين؛ بينما ملك الفاطميون من بنى العباس بلاد المغرب ومصر والشام والحرمين واليمن، فلاذ العباسيون بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن فى نسبهم. ولدينا مقالة شيقة من الأمير الهولندى مامور "Mamour" ، يناقش فيها سبب ظهور الطعن فى عهد الحاكم الفاطمى، وهى تصح أيضاً لمناقشة الطعن فى عهد المستنصر، فى كتابه: "Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs" ، نلخصها فى البنود الآتية[3]:

١- الكراهية المتأصلة فى العباسيين لنسل علىّ وفاطمة، وذلك حينما هددوا سلطانهم.

٢- المرارة من مقاسمة الفاطميين أملاكهم.

٣- الحقد الذى تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين، كمركز للعلم والأدب والفن الإسلامى.

٤- الخوف من امتداد سلطان الفاطميين لما بقى فى أيديهم.

٥- الفرصة مواتية لاختلاف الشيعة وتفرقهم بين فرق مختلفة.

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٦-١٨؛ انظر. Quat ،
Mém. Hist. sur la dyn des kh Fat. Paris, 1838, pp. 10-13

(٢) الخطط، ٢ص ١٥٨-١٦٠.

(٣) انظر. Polemics, P. 16 sqq .

٦- إمكان التأثير على بعض العلويين فى بغداد، وضمهم لجانبهم.

٧- كذلك البويهيون وإن كانوا شيعة، لا يمانعون؛ لأنه قد نالهم الضعف، فقدروا الخطر الفاطمى حق قدره.

٨- إمكان إثارة العناصر السنية، التى توجد فى البلاد، التى امتلكها الفاطميون.

٩- إعلان هذا المحضر من شأنه أن يضعف نفوذ الفواطم، ولا ضرر منه على العباسيين.

ومهما يكن، فقد ظهر أثر هذا الطعن الرسمي بين سكان أملاك الفاطميين ففى مصر يقول أبو المحاسن : إن الحاكم هان فى أعين الناس؛ لكتابة العلماء فى المحضر، وأنه قامت قيامته. وقد يكون هذا القول صحيحاً؛ بحيث إنه لما شاع عن الحاكم دعوى الألوهية، ازداد بعض الناس سخرية منه. فنجد الحاكم يرد ذلك، بأنه كان يذكر نسبه فى كل جمعة وهو على المنبر يخطب، ولا سيما أن الناس من أعداء خلافتهم كانوا يدسون له رقاعاً مختومة بالدعاء عليه، والسب لأسلافه(١).

بل ظهر أثر الطعن فى أن حاكم مكة كان يدعو للفاطميين، فألغى الخطبة لهم. كذلك كان الحاكم قد أباح للسنيين تدريس مذهبهم؛ فإنه لما سمع بالطعن، حظر ما كان قد أباحه. وعلى العكس، لا نسمع مثل هذه الأقوال بالنسبة للخليفة المستنصر؛ مما يبين أن دعوى العباسيين لم تعد تجد لها صدى بين رعايا الفاطميين؛ ربما إدراكاً لتلفيقها وزيفها.

وفى الوقت عينه، لم تقف الخلافة الفاطمية مكتوفة الأيدى أمام هذا النشاط السنى فى العراق، الذى ظهر نتيجة لضعف البويهيين، بل نشطت فى استمالة الأنصار، وذلك عن طريق إرسال رجال متخصصين فى الدعوة للمذهب؛ كما أرسلت الأموال الكثيرة إلى من فى العراق لاجتذابهم(٢) . فعين فى العراق والجزيرة فى زمن الحاكم: حميد الدين الكرمانى، الذى وصف على أنه حجة

---

(١) ابن إياس، ١ص ٥٦؛ انظر . ماجد، الحاكم، ص ١٤٥.
(٢) يحيى، (شيخو) ص ٢٠٦.

العراق. وفى زمن الظاهر، أكثروا من إرسال الدعاة إلى العراق وبثهم فى بغداد[1]. وفى زمن المستنصر، كان الدعاة فى العراق، يقيمون الاجتماعات للتشاور فى رد الوهن، والتأليف بين كلمة الديلم[2]. وقد أحس ملوك البويهيين بحالتهم التى ساءت؛ فكانوا يعملون على قبول دعاة مصر علانية، وأظهروا تقربهم من الفاطميين كوسيلة لإرهاب العباسيين.

ولعل أشهر من أرسل إلى ملوك البويهيين بالعراق، هو هبة الله المؤيّد فى الدين[3]، الذى عرف بالشيرازى نسبة إلى شيراز بفارس، عند الملك أبى كاليجار، أكبر ملوك البويهيين فى العراق. وقد نجح المؤيد فى استمالة أبى كاليجار، الذى قال للمؤيد[4]. «إنى أسلمت نفسى ودينى إليك، وإننى راضٍ بجملة ما أنت عليه»، كما أن أبا كاليجار تقربّ من المستنصر عن طريق المؤيد، وأعلن إيمانه الصريح بإمامة الخليفة الفاطمى[5]. كذلك نجح المؤيد فى إعلان الخطبة للخليفة المستنصر فى شيراز ذاتها؛ حيث صعد ومعه عشرون نقيباً من رجال الدعوة إلى سطح المسجد، وأذنوا: «حىّ على خير العمل[6]». ولكن الخليفة العباسى القائم–الذى هاله نجاح دعوة أعدائه– أرسل إلى أبى كاليجار جماعة من الترك لإخافته؛ بحيث اضطر أبو كاليجار إلى وقف دعوة المؤيد والتملص منها[7]، وأجبر المؤيد على الخروج من شيراز، والرجوع إلى مصر. وقد اعتذر أبو كاليجار فيما بعد للمؤيد

---

(١) الخطط، ٣ص ١٦٩ س ١٩–٢٠.

(٢) السيرة المؤيدية، ص ٦س ١٩–٢٩، ص ٩ س ٢١.

(٣) عنه: إدريس عماد الدين، عيون الأخبار، مخطوطه بمكتبة الهمدانى، ٦ ورقة ٢٩٨؛ انظر. غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر، دمشق، ص ١٧٨–١٨٠؛ Hamdani:
Some unknown Ismâeli authors and their Works. J. R. A. S. Jan, 1933,P. 361-2
وعلى الخصوص: تقديم، ديوان المؤيد، تحقيق كامل حسين، ص ١٧ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين، فى أدب مصر الفاطمية، س ٥٩ وما بعدها. عن شيراز، انظر. معجم البلدان، ٥ص ٣٢٠–٣٢٢.

(٤) السيرة المؤيدية، ص ٤٣.

(٥) نفسه، ص ٧٦. انظر. نص خطاب أبى كاليجار إلى المؤيد. نفسه، ص ٧٦ وما بعدها.

(٦) نفسه، ص ٥٥.

(٧) نفسه، ص ٦٤ وما بعدها.

عن تصرفه، بأنه قصد إبعاد الشر عنه[1]. ولما جاء الملك الرحيم بعد أبى كاليجار، سلّم نهائيا للخليفة العباسى وللترك فى بغداد، ولم يعد له إلا مجرد الاسم[2].

ولما يئس الدعاة الفاطميون من البويهيين وضعفهم، وجهوا نشاطهم إلى استمالة طوائف الترك فى بغداد[3]، وهى التى أصبحت بيدها السيطرة الحقيقية فيها. وقد تكلل نجاح الدعوة الفاطمية باستمالة مقدم الترك وعسكره البغدادى، واسمه أبو الحارث (الحرث) ارسلان بن عبد الله البساسيرى أو الفساسيرى[4]، نسبة إلى بلد فى فارس اسمها بسا أو فسا. وكان البساسيرى شخصية رائعة، فتمكن من إقرار الأمن المضطرب فى بغداد، ولا سيما فى الجانب الغربى منها، الذى انتشر فيه العياريون وهم اللصوص؛ وذلك بعد أن عجز كل الحكام عن قمعهم. كذلك كان يدافع عن بغداد وحدود الخلافة ضد العرب والكرد، حتى لُقّب بالمظفر. وقد قربه القائم، وقلّده الأمور، ولم يكن يأتى أمراً إلا بعد استشارته، وخطب له على المنابر فى الأعمال العراقية والأهواز[5] -وهى خُوزستان فى أيام الفرس- لذلك ذاع اسم البساسيرى، وعظمت هيبته.

ويذكر المؤرخون أن استمالة الفاطميين للبساسيرى؛ جاءت عن طريق المؤيّد فى الدين، الذى كاتبه من مصر بالنيابة عن الخليفة المستنصر[6]. ويبدو أن البساسيرى كان مهيأ لذلك؛ فهو نفسه من موالى الديلم الشيعة؛ فكان مولى لعضد الدولة ولبهاء الدولة بن عضد الدولة. فلما ملك جلال الدولة بن بهاء الدولة، ثم أبو كاليجار وابنه الملك الرحيم، شاركهم جميعاً كل حروبهم، وأبلى معهم بلاء

---

(١) نفسه، ص ٧٨.

(٢) ابن العميد، ص ٢٧١.

(٣) الخطط، ٢ص ١٦٩ س ٢٠.

(٤) عنه: وفيات ١ص ١٠٧-١٠٨؛ نهاية الأرب، ٢٦ ورقات ٦٤ وما بعدها؛ ابن العميد، ص ٦٧١ وما بعدها؛ مرآة الزمان، ١٢/١، ورقة ٤٤ وما بعدها؛ الكامل، ٨ص ٨٣-٨٧؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art. al-Basâsîrî)t' I, P. 686; 2éd 1, P. 1105-7.
يقال إن نسبته إلى هذه البلدة، نسبة شاذة، عن هذه البلدة؛ انظر. معجم البلدان، ٢ص ١٦٧، ٦ص ٣٧٥-٣٧٧.

(٥) عنها: معجم البلدان، ١ص ٣٨٠ وما بعدها. تقع بين البصرة وفارس.

(٦) السيرة المؤيدية، تقدمة، ص ٢٣-٩٦.

حسناً، وإن انفصل عن الملك الرحيم، بسبب ضعف هذا الملك. وقد جر تشيع البساسيري إلى انقلابه على الخلافة العباسية التي قربته، وإن ذكر المؤرخون أن سبب الفساد بينهما راجع إلى جفوته مع الخليفة العباسي؛ وعلى الخصوص إلى دس الوزير ابن المسلمة[1]، الملقب برئيس الرؤساء، وذلك حسداً للبساسيري، فضلاً عن عداء رئيس الرؤساء الطبيعي للشيعة؛ بحكم أنه حنبلي سني المذهب[2]. لذلك عمل البساسيري على معاداة الخليفة العباسي وبطانته، فاسقط مشاهراته، ومشاهرة حواشيه، ومشاهرة رئيس الرؤساء؛ كما جعل الترك يثورون في بغداد؛ بحيث عزم الخليفة على الخروج من بغداد.

وعلى كل حال وجدت الخلافة الفاطمية في نجاح دعوتها بين ترك بغداد فرصتها السانحة، للعمل على تقويض ملك العباسيين، أعداء الفاطميين الألداء، فمشت الرسل بينها وبين البساسيري، الذي كتب إلى المستنصر يعلن طاعته، وعزمه على إقامة الدعوة الفاطمية في العراق، وأنه قادر على ذلك[3] . وقد كان اليازوري وزير المستنصر وقتئذ، الذي اختار المؤيد في الدين الشيرازي-الداعية الذي أرسل إلى العراق- فجهزه، بحمل المساعدة إلى البساسيري من خزائن الأموال والسلاح والثياب؛ بحيث لم يبق شيئا في بيوت المال المصرية. فكان المؤيد- الذي وصف لنا رحلته إلى البساسيري[4]- يستميل جند البساسيري وغيرهم؛ بالأموال والخلع المصرية، التي تفوق الخلع العراقية السانجة، وكان يستحلفهم بإيمان الطاعة؛ كما خلع على البساسيري وقرأ عهد المستنصر له في يوم مشهود، وذلك في صفر سنة ٤٤٨/أبريل-مايو ١٠٥٦؛ وهذا بعض ماورد فيه[5].

«ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره في ديار العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه في فضائل الآفاق، المشمرين عن ساق الجد

---

(١) اسمه: أبو القاسم عليّ بن الحسن بن مسلمة. الكامل، ٨ص ٤٢ س ١٤-١٥.

(٢) نفسه، ٨ص ٥٩ س ١٣. يقول النص لميله إلى الحنابلة.

(٣) ذيل، ص ٨٧.

(٤) السيرة المؤيدية، ص ٩٧ وما بعدها؛ ابن ميسر، ص ٨.

(٥) السيرة المؤيدية، ص ١٢٢-١٢٤؛ انظر. حسن إبراهيم، تاريخ الفاطميين، ص ٢٣٢.

فيما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول ﷺ ناضرة العود، مغسولة درجها من وطء أقدام الأنجاس بماء الإيمان، مقصورة فروقها على الثناء منها على أهل العدل والإحسان، رأى أمير المؤمنين- وبالله توفيقه- أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكل إليك عقدها وحلها». وفي كتاب النجوم الزاهرة نص يؤيد وصول هذه المساعدة[1]: «إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنُشّاب شئ كثير». ومن قيمة هذه المساعدة، وإرسالها على يد المؤيد، يتبّين مقدار حماس الفواطم؛ كما يفسر قبول البساسيري لهذه المساعدة رغبته في الانتقام من أعدائه.

ولما كسبت الدعوة الفاطمية أتراك بغداد ومقدمهم، سعت إلى كسب قبائل العراق وبلاد الجزيرة وأمرائهم، لا سيما وقد قوى العرب نتيجة لضعف البويهيين. فوجهت الدعوة الفاطمية نشاطها بين عرب بلاد الجزيرة في شمال العراق، ومعظمهم من بطون بني عامر، مثل بني عقيل[2]، الذين كانوا قد هاجروا من البحرين واستقروا في بلاد الجزيرة عند الموصل والمدائن، وأصبحوا من رعايا دولة بني حمدان. ولما استولى البويهيون على دولة بني حمدان في الموصل، تمكن بنو عقيل من الاستقرار مكانهم[3]، وكانوا يحاربون البويهيين، والأكراد المجاورين لهم. وقد ظهرت الدعوة الفاطمية بين العقيليين أيام العزيز

---

(١) النجوم، ٥ص ١١-١٢.

(٢) عنهم: العبر، ٤ص ٢٥٤-٥٥٥، ٢٦٣؛ الكامل، ٧ص ١٨١-١٨٢؛ شذرات، ٣ص ١٦٠؛ ابن العميد، ص ٢٥٧؛ الروذراوري، ذيل، ص ٢٣٩ وما بعدها؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art. Okailides), t 3 P. 1939. وبعده.

(٣) قامت دولة بني عقيل في ٣٨٠/ ٩٩٠، بزعامة أميرهم أبي الذواد محمد بن المسيب العقيلي، وكلمة «عقيل» ربما تكون اسما لبطن من الطالبيين في مكة، أو انها أطلقت على مجموعة من الأعراب ممن كانوا يعملون في رعاية الإبل، وهم الذين يربطون البعير عند إناخته، وحتى الآن بعض القبائل يعرفون في الوقت الحاضر بهذا الاسم. خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، رسالة ماجستير لجامعة القاهرة ١٩٦٦، ص ١٦، ١٧ (نشرت عام ١٩٦٨). ومنه: من بعض أنساب العرب، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٠٧.

الفاطمي[1]، وعلى الخصوص أيام الحاكم؛ بحيث لما تولى قرواش بن المقلد أمير عقيل الملقّب بمعتمد الدولة، أعلن الخطبة للحاكم في الموصل والمدائن والأنبار وغيرها سنة ٤٠١/١٠١١؛ كما ضرب اسم الحاكم على السكة والبنود. وقد احتفظ لنا أبو المحاسن بنص الخطبة، وهي اعتراف صريح بالحاكم وأسلافه، وختمها بقوله[2]: « اللهم واجعل نوامي صلواتك، وزواكي بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان، وحصن الإيمان، وصاحب الدعوة العلويّة، والملة النبوية، عبدك ووليّك المنصور أبي عليّ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين، وأكرمت أجداده المهديين. اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته، واحشرنا في حزبه وزمرته، اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته، وبارك له فيما آتيته، وانصر جيوشه، وأعل أعلامه في مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير ». فلما علم القادر بالله –الخليفه العباسي وقتئذ– بذلك، حرض الترك في بغداد على مهاجمة العقيليين؛ وأراد أن يسير نحوهم بنفسه، مما اضطر قرواش أن يلغي الخطبة للحاكم. كذلك عرب نمير في حرّان والرّقّة خطبوا للظاهر، وإن قطعت الخطبة لما تولى المستنصر، وخُطب للقائم. ولكن العقيليين والنميريين عادوا إلى الخطبة للمستنصر[3]، ربما بسبب سيطرة الفاطميين التامة في الشام، أيام ولاية الدِزبري القوي. أما عرب بني أسد وخفاجة، وأشهرهم بنو مَزيد وهم في الحِلّة، مدينة كبيرة جنوبي الفرات بين الكوفة وبغداد، فإن أميرهم نور الدين دبيس بن مزيد[4] كان يميل إلى الفاطميين؛ فنسمع أنه كان يتلقى الخلع من خليفة مصر، وخطب للمستنصر، وكاتبه بالطاعة ٤٤٨/١٠٥٦. وأما عرب ديار بكر المجاورون للكرد، وكان يحكمهم بنو مروان من الكرد[5]؛ فإنهم كانوا على صلة بالفاطميين. ولما قامت حركة

---

(١) النجوم، ٤ص ١٢١–١٢٢. خطب له المقلد العقيلي.

(٢) عن الخطبة: نفسه، ٤ص ٢٢٤–٢٢٧. عن قرواش: فوات الوفيات ٢ص ١٣١.

(٣) الكامل، ٨ص ١٨.

(٤) نفسه، ٨ص ٧٧ .عنه: وفيات، ١ص ٤١٠–٤١١. بتفصيل: أبو البقاء، كتاب المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق درابكة وخريسات، عمّان ١٩٨٤.

(٥) عنهم، انظر .Ency. de l'Isl, (art.Marwânides) t 3 P. 356-7

البساسيرى، نجد المؤيد فى الدين يذهب إلى العرب ويحرضهم ضد العباسيين، فيتبادل مع أمرائهم الكتب[1]، مثل شبيب بن وثاب النميرى، وابن مزيد الأسدى، وابن مروان من ديار بكر، وحتى مع العقيليين، وتقابل مع أمرائهم ومنحهم الخلع والعهود، مثل عهد المستنصر لابن مزيد[2]، الذى لقّبه فيه: «بالأمير، سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفى أمير المؤمنين». كذلك اعلنت الخطبة للمستنصر فى مناطق متفرقة يسكنها عرب، مثل واسط وأعمالها فى ١٠٥٦/٤٤٨، ولدينا رسالة المؤيد الميازورى عن اعلان الخطبة بها للمستنصر، على يد شخص اسمه ابن قائد[3]، وفى الكوفة على يد محمود بن الأخرم فى ١٠٠٧/٤٤٩[4]: حيث خطب للمستنصر، ونقش اسمه على الدنانير والدراهم، وأزيل اسم القائم من الجامع، وكتب مكانه اسم صاحب مصر.

وعلى كل حال، أثمرت الدعوة الفاطمية بين ترك بغداد والعرب فى العراق وديار الجزيرة، وفى قيام ثوره فعليه ضد العباسيين، لصالح الفاطميين. فنجد البساسيرى، الذى كان قد اضطر إلى ترك بغداد نتيجة لدسائس رئيس الرؤساء الذى استعدى الترك الغُزّ، وهم من السنة، واستقر فى بلاد الجزيرة مع العرب منذ ١٠٥٥/٤٤٧، حتى عام ١٠٥٨/٤٥٠، يقوم بمساعدة العرب على الأخص العقيليين بقيادة قريش بن بدران، الذى أصبح زعيم العقيليين بعد قرواش، ومعه أكراد وإيرانيون وأتراك من انصار الدعوة[5]، فى مهاجمة بغداد، مقر الخلافة العباسية فى أواخر سنة ١٠٥٨/٤٥٠[6]. ومع أن السنيين فى بغداد كانوا قد

---

(١) السيرة المؤيدية، ص ١٠٣ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) نفسه، ص ١٣٦-١٣٧؛ الكامل، ٨ص ٧٦-٧٧. لا يذكر ابن الأثير هذا الاسم، وإنما يذكر ابن الملبان، وابن فسانجس.

(٤) السيرة، ص ١٣٥-١٣٦. فى مرآة الزمان ان الذى ارسل بذلك هو بدر بن الأسدى أخو دبيس. مرآة الزمان، ١/١٢ ورقة ١٨.

(٥) السيرة المويدية، ص ١٢٩.

(٦) لا يعرف التاريخ بالتحقيق، فقد خطب للمستنصر فى بغداد فى ١٣ من ذى القعدة. النجوم، ٥ص٦. ويقول ابن الاثير يوم عيد النحر. الكامل، ٨ص ٨٤؛ انظر. الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ٩ص ٣٩٩-٤٠٤.

قطعوا الجسر بين بغداد الغربية وبغداد الشرقية؛ فإن البساسيرى بعد استيلائه على الجانب الغربى تمكن من دخول الجانب الشرقى بمساعدة الشيعة من سكان الكَرْخ والطَّاق، وأضرم النار فى الأسواق[1] . فخرج الخليفة السنى ومعه وزيره وحوله العباسيون للحرب، وقد لبس السواد، وعلى كتفه البردة، وبيده سيف، وعلى رأسه لواء، ولكن البساسيرى تمكن من أسر الخليفة العباسى، وكان البساسيرى يريد قتل الخليفة العباسى، أو إرساله أسيراً إلى مصر[2]؛ إلا أن قريشاً العقيلى حمى الخليفة وأجاره فى خيمته، ومنع البساسيرى عنه، حتى أن هذا الأخير اتهم قريشاً بمخالفة ما استقر بينهما، على الا يستبد أحدهما دون الآخر بشئ، فقال له: « أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه» . كذلك أسر البساسيرى أم الخليفة وهى أرمينية اسمها قطر الندى-وقيل بدر الدجى-كما أسر زوجة الخليفة السلوقية، المسماة أرسلان خاتون[3]. وقبض البساسيرى على رئيس الرؤساء، وتذكر المصادر السنية تشفية فيه. فقد أُركب جملاً، وأُلبس جبة صوف، وطُرطوراً أحمر، وجعل فى رقبته جلوداً، ووراءه من يصفعه، وطوف به فى مجال بغداد، وكان أهل الكرخ الشيعة يبصقون فى وجهه، ثم خيط عليه جلد ثور قد سلخ، وجعلت قرونه على رأسه، وعلق بكلاليب، ولم يزل يضرب حتى مات. وفى أثناء ذلك وقعت مجزرة كبرى فى بغداد بين الشيعة والسنة، إذ استمروا أربعة أيام يتقاتلون.

وحينما دخل جيش البساسيرى بغداد، دخلها بالرايات المصرية، وعليها ألقاب المستنصر، صاحب مصر، وقد جرت فى بغداد مراسم خلع الخليفة العراقى

(١) ذيل، ص ٨٨-٨٩.

(٢) يستبعد المؤرخون الرواية، التى رددها بعض المؤرخين من أن المستنصر بنى فى القاهرة قصراً، ليحبس فيه الخليفة العباسى عدوه اللدود، وهو القصر الغربى، أو أنه هو القصر، الذى كان يسمى أيضاً قصر البحر فى أيام العزيز؛ ليكون خاصاً بست الملك، أخت الحاكم. عن ذلك: الخطط، ٢ص ٣٢٢؛ انظر. Essai sur l'histoire et sur la topographie , Ravaisse du Caire, M.M.A.F. et.; Ency. de l'Isl, (art. Caire) t I, P. 838-9.

ثم لماذا يبنى للخليفة العباسى قصراً، مع عداوته له!!. ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٢٣٣ وهامش ٩٢.

(٣) الكامل، ٨ص ٨٤. هى ابنة أخى السلطان طغرلبك.

« القائم» ومبايعة الخليفة المصرى «المستنصر». فاستكتب البساسيرى الخليفة القائم قبل رحيله مع أحد أتباع قريش إلى منفاه كتابا أشهد عليه العدول -وهم شهود القاضى- أنه لاحق لبنى العباس ولآله من جملتهم فى الخلافة، وأرسل البساسيرى هذا الإشهاد إلى مصر[1]. كذلك جمع البساسيرى قاضى القضاة والخطباء والأشراف من بنى هاشم- الذين كتبوا فى المحضر ضد الفاطميين- وأخذ منهم البيعة للمستنصر، رغم أنفهم[2]؛ وقد خطب للمستنصر صاحب مصر فى يوم الجمعة الثالث من دخول البساسيرى إلى بغداد بسائر الجوامع، وعلى الأخص بجامع المنصور، وقطعت الخطبة لبنى العباس؛ حيث لبس المؤذنون العراقيون البياض -وهو شعار الفاطميين- وأذنوا بحىّ على خير العمل[3]. ولدينا عملة من دار السلام (بغداد) باسم المستنصر فى ٤٥٠/١٠٥٨-٩، سميت: المستنصرية، ونقشت عليها عقيدة الفاطميين: « لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، محمد رسول الله، علىّ ولىّ الله»، ومن الجانب الآخر. «عبد الله ووليّه، الإمام، أبو تميم معدّ، المستنصر بالله، أمير المؤمنين[4]».

وقد أجمع المؤرخون على أنه بسبب إعلان الخطبة للمستنصر فى بغداد قاعدة العراق، كان ما حدث للمستنصر هو تمام سعده[5]. والحقيقة أن ما وقع للمستنصر لم يقع لفاطمى قبله ولا بعده، فقد تحقق هدف الفاطميين فى عهده؛ فى جعل خلافتهم وحدها فى الشرق الإسلامى. وفرح المستنصر بنجاح فتنة البساسيرى فرحا شديداً، حتى أنه لما غنته إحدى القيان أغنية بهذه المناسبة، وهبها هبة عظيمة، جاء فيها:

يا بنى العباس صدوا   ملك الأرض معدّ

ملككم كان معاراً   والعوارى تسترد

(١) الخطط، ٢س ٣٠٣ س ٢٢-٢٤.

(٢) ابن العميد، ص ٢٧٣.

(٣) مثلا: النجوم، ٥ص ٦س ٨. وذلك فى ١٣ من ذى القعدة.

(٤) المنتظم، ٨ص ١٩٦؛ انظر. Lane-Poole ;
Hist of Eg, P. 138' n (3) (Inedita Asiat, Mus. 1847).

(٥) مثلاً: النجوم، ٥ص ١٢.

وقد أرسل البساسيرى إلى المستنصر البردة والقضيب والمنبر والشُّباك[1]؛ من آلات خلفاء العباسيين؛ حيث كان الخليفة العباسى يلبس البردة، ويمسك القضيب -وهى عصا- فى البيعة، ويخطب من على المنبر، ويجلس فى الشُّباك. وأرسل إليه أيضا طيلسان القائم -وهو أشبه بالطرحة- ورداءه وعمامته «منديله»، حيث وضعت هذه الأخيرة فى قالب من رخام، حتى لا تتغير شدتها. وأرسل كثيرا من التحف، منها: ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البللور، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسرَوانى أو الكسروانى أى الملكى، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب. فبقيت هذه الأشياء فى خزائن الفاطميين بمصر، إلى أن انتهبت من قصر الخليفة المستنصر فى إحدى ثورات الجند؛ كما أن صلاح الدين الأيوبى -السلطان- رد ما تبقى منها، حينما أعاد الخطبة للخليفة العباسى السنى فى مصر، بعد قضائه على خلافة الفاطميين. وقد سر المستنصر من البساسيرى، حتى أنه أمر أن يدعى له فى الحرمين[2]، وكان البساسيرى يعرف بالمستنصرى[3]؛ مما يدل على ولاء البساسيرى التام لقضية الفاطميين.

ولكن هذا النجاح فى العراق لفاطميى مصر، وقد استمر أربعين أسبوعا[4]، قضى عليه الأتراك الغُزّ[5]. ومع أن هؤلاء ليسوا أول من عرفهم المسلمون من عنصر الترك، لأن المسلمين عرفوا الترك بشعوبها منذ عهد الدوله الأموية، حينما امتدت دار الإسلام إلى بلاد التُّركستان[6]، أى ناحية الترك؛ كما دخل الترك بلاط الأمويين كعبيد. كذلك دخلوا الجيش فى أيام العباسيين؛ فقد أسقط الخليفة المعتصم حق العرب فى أخذ العطاء[7]، مع أنهم منذ عمر بن الخطاب اعتبروا مادة الإسلام، وأحل الترك وغيرهم محلهم فى الجيش. وأكثر من هذا أن الترك استخدموا فى حكم بلاد الخلافة العباسية؛ فأصبحوا المسيطرين على وظائفها

(١) الخطط، ٢ص ٣٠٢.
(٢) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.
(٣) السيرة المؤيدية، ص ١٥١.
(٤) الخطط، ٢ص ٣٠٢س ١٢ ؛ انظر. Quat. Mém. t 2, P. 328 .
(٥) عنهم: بعده فى الهامش.
(٦) صبح ، ٤ص ٤٣٩ ؛معجم البلدان، ٣ص ٢٧٨ وما بعدها.
(٧) ابن عذارى، البيان؛
Ency. de l'Isl, (art al- Mu 'tasim) t 3, P. 838-839.

الكبرى. وقد مهّد هذا التغلغل التركي، لسيطرة الأتراك على الخليفة في بغداد بحيث منح المستبدين منهم وظيفة إمرة الأمراء[1]، التي تسيطر على كل شيء في الخلافة. وقد كانت السيطرة التركية المتصاعدة، سبباً في إثارة حقد العنصر الفارسي، الذي سعى إلى تكوين دول تقف أمامها، مثل: الطاهرية في فارس والصفارية والسامانية فيما فيما وراءَ النهر[2]، وأخيراً البويهية في إيران والعراق.

ولعل الترك الغُزّ أو الأوغوز في الأصل من قبائل الطُغُزْ غز أو التُغزغز[3]- أي القبائل التسعة- حيث ذكرهم الجغرافيون، وتحد بلادهم ببلاد الصين والتُبّت. ويبدو أن الغُزّ انفصلوا عن بقية القبائل التركية لظروف خاصة -لعلها القحط- بحيث أصبح اسم الغُزّ يطلق بخاصة على قبائل الترك المجاورين لبحر قزوين، بجوار الخزر والبُلغار؛ وإن كان اسم التركمان حل بالتدريج محل اسم الغُز، ليعني بالفارسية انهم أصبحوا تركاً مسلمين؛ وأصبح عندهم منابذة لمن لا يسلم من الترك. وكان الغزّ من البدو لا يعرفون من الحضارة شيئاً، ولا يدخلون تحت طاعة سلطان، وإذا قصدهم سلطان هربوا إلى المفاوز في الصحاري. كذلك يبدو انهم كانوا وثنيين أو مسيحيين؛ حيث عرفوا في أول الأمر بالغُزّ الكفار.

وقد تزعمت الغزّ أسرة عرفت بالسّلاجقة أو السّلجوقية[4]، منذ القرن الرابع الهجري، وهو الاسم الذي غلب على الغُزّ في بلاد الإسلام، وهو على اسم

(١) الكامل، ٦ص ٢٥٤، ظهرت إمرة الأمراء في عهد الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤-٩٤١).

(٢) عنها: معجم البلدان ٧ص ٣٧٠ وما بعدها. المقصود بالنهر جيحون.

(٣) عنهم: معجم البلدان، ٢ص ٣٧٨ وما بعدها؛ الأصطخري، الممالك، تحقيق de Coeje ، ص ٢٧٤ وما بعدها.

Ency de l'Isl, (art Ghuzz) t2, P. 178; (art Turkmènes) t4, P. 943 sqq;

A propos du nom Turkman, : Ibrahim Kafesogulu;

Oriens. vol 2. Leiden, 1958, PP.146-150.

(٤) عنهم : صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال، لاهور ١٩٣٣؛ عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨/ ١٩٠٠، السلوك، ١/١ ص ٣٠ وما بعدها؛ المنتظم، ط.١، حيدر آباد ١٣٥٩هـ، ٨ص ١٠٧ وما بعدها؛

Ency de l'Isl, (art Seljukides) t 4, P 216 sqq;

Le Malik. Nameh et l'Histiore des origines Seljukides. Oriens vol 2, no . I, : Cahen 1949, P. 31 sqq;

، عبد النعيم، سلاجقة إيران في العراق، القاهرة .

سلجوق بن يقاق أو دقاق أو تقاق، بمعنى القوس من الحديد. يبدو أن سلجوق هو الذى جمع شمل الغز، وأول من ادخلهم فى الإسلام. على أساس المذهب السنى الحنفى، الذى كان منتشراً بين الأتراك المسلمين؛ حيث إن المذهب السنى هو مذهب الخلافة العباسية. وقد بدأ ظهور السلاجقة السياسى فى عهد سلجوق هذا، الذى تداخل مع بقايا السامانيين -إحدى الدول الفارسية فى بلاد ما وراء النَهر- إذ أن السامانيين كانوا يطلبون عون سلجوق هذا ضد أعدائهم من القبائل المجاورة، وبخاصة ضد ترك وسط آسيا، الذين لم يتحولوا بعد إلى الإسلام. ولما ساءت علاقة الغزّ بالسامانيين، انتقل الغزّ بقيادة طغرلبك[1] (طغرل بك) حفيد سلجوق إلى خُرَاسان، وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند فى شرقى إيران نتيجة لضعف البويهيين هى الدولة الغزنوية[2]، من عنصر تركي فارسي. ولكن حدث نزاع جديد بين الغزنوية والغُزّ، فحاربت الغزنوية الغُزّ بشدة، حتى أجلوهم عن خراسان فى ١٠٣٩/٤٣١. ولكن الغز ما لبثوا فى ١٠٤٠/٤٣٢، أن عادوا وقتلوا مسعود بن محمود ملك الغزنوية؛ كما أن بقية أفراد هذه الأسرة تقاتلوا فيما بينهم، وعندئذ قامت دولة السلاجقة، التى اعترف بها الخليفة العباسى. وبعد ذلك انتشر الغزّ فى نواحٍ متعددة، حتى إن طغرلبك رأى أن البلاد لا مانع له عنها، فاستولى على بلاد ما وَراء النهر، وبلاد بحر قزوين، وانتشروا فى خراسان، ودقوا أبواب العراق، حيث توجد الدولة البويهية الضعيفة.

وفى أول الأمر اتخذ الخليفة العباسى ظهور هذه القوة التركية السنية الفتية؛ لتهديد البويهيين الشيعة المسيطرين عليه[3]. فنشأ عداء بين البويهيين والسلاجقة؛ فضلاً عن العداء التقليدى بين العنصر الفارسى والتركى؛ بحيث أن أبا كاليجار ملك البويهيين حارب السلاجقة؛ وكان يعتبر وجوده درعاً للشيعة فى

---

(١) عنه: وفيات، ٢ص ٤٣٨ وما بعدها؛ آل سلجوق، ص ١٤. هو اسم مركب من طغرل وبك، وطغرل اسم علم معروف، وبك معناه أمير. آل سلجوق، س ٦ وما بعدها.

(٢) عنها: حميد الله القزوينى، تاريخ كزندة، نشر Browne ، ط. Leiden ، ١٩١٠/١٣٢٨، ١ص ٣٩٦.

(٣) السيرة المؤيدية، ص ٦٤ س ١٧. يتوعد الخليفة أبا كاليجار بطغرلبك التركمانى.

العراق ومصر(١). ولكن البويهيين ضعفوا بحيث إن أبا كاليجار نفسه صالح طغرلبك وزوجه ابنته(٢). أما الملك الرحيم، فقد كان يطلب ودهم، ورضى أن يكون تابعاً للسلاجقة، حتى أنه قبل أن يذكر اسم طغرلبك فى الخطبة. ولما أعلن البساسيرى نياته فى خلع الخلافة العباسية والدعوة للمستنصر الفاطمى، استنجد القائم العباسى بطغرلبك، الذى أسرع إلى نجدته. فأعلن طغرلبك وهو فى طريقه إلى بغداد، عزمه على المسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر(٣)؛ كما وصف نفسه بأنه خادم أمير المؤمنين- الخليفة العباسى- وعبده، ومتصرف على أمره ونهيه(٤). وحينما وصل طغرلبك إلى بغداد فى ٤٤٧/١٠٥٥، هرب البساسيرى إلى العرب فى الجزيرة-ولم تكن فتنته قد أعلنت بعد- وعزم الملك الرحيم على الهروب أيضاً مع البساسيرى، لولا أن الخليفة القائم كتب إليه يدعوه أن ينبذ البساسيرى؛ مما جعل الملك الرحيم يصرف النظر عن الهروب، ويقول ومن معه: نحن لأوامر الديوان متبعون، وعنه منفصلون(٥)، أى عن البساسيرى وعلى العكس خرج رئيس الرؤساء لمقابلة طغرلبك؛ حيث كان يكاتبه بالنيابة عن القائم. وكان أول ما عمله طغرلبك بعد دخول بغداد، هو قضاؤه على الدولة البويهية، فسجن الملك الرحيم البويهى، الذى بقى فى سجنه بالرى إلى أن مات فى ٤٥٠/١٠٥٨، مع أنه كان قد استقر الرأى على التعاون بين الاثنين، وأن تكون الخطبة للملك الرحيم بعد طغرلبك. كذلك عمل طغرلبك على القضاء على مظاهر المذهب الشيعى، فأمر أهل الكَرخ أن يؤذنوا فى مساجدهم: «الصلاة خير من النوم»، وترك الآذان: «حىَّ على خير العمل». وقد اتخذ طغرلبك لقب السلطان(٦)، وعُرف بالسلطان

(١) نفسه، ص ٧٧. انظر . نص خطاب أبى كاليجار إلى المؤيد.

(٢) الكامل، ٨ص ٤٤؛ العبر، ٣ص ٤٥٢؛ انظر. حسين أمين ، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٥٩.

(٣) الكامل، ٨ص ٧٠ وما بعدها.

(٤) المنتظم، ٨ص ١٨٢.

(٥) الكامل، ٨ص ٧١.

(٦)أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٦٨؛ المختصر، ٢ص ٣٢١؛ انظر.

Cataogue of Oriental Coins, cf.:Lane Poole;

Ency de l'Isl, (art. Sultân) t 4 , P. 568 sqq.

الأعظم، ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة، وهو اللقب -أى السلطان- الذى ورد فى القرآن بمعنى القوة والنفوذ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم[1]، ومع ذلك يبدو أن اللقب نودى به طغرلبك وهو فى خراسان سنة ١٠٤١/٤٣٢[2]. وبذلك غير الخلفاء العباسيون المسيطر عليهم، فجعلوه من السلاجقة بدلاً من البويهيين: "Changer de maître"[3]؛ مما جعل كثيراً من جنود الملك الرحيم الديالمة يتوجهون للبساسيرى فى الجزيرة، وينضمون إليه[4].

فى ذلك الوقت، كانت الدعوة الفاطمية قد نشطت بين العسكر البغدادى بقيادة البساسيرى فى الجزيرة، وارسل المؤيد فى الدين الشيرازى بالأموال والسلاح. وقد تمكن المؤيد من جمع العرب الذين التجأ إليهم البساسيرى، ولا سيما أن الغزّ لما جاءوا بغداد، انتشروا نحو الجزيرة وقاتلوا العرب، ودخلوا الموصل. ومع أن قريشاً بن بدران العقيلى كان يدعو لطغرلبك منذ دخل بغداد، فإنه لما انتصر البساسيرى على الغزّ فى موقعة سِنجار[5]، فى أرض الجزيرة انضم إليه، ولدينا كتب الانتصار المرسلة إلى مصر. وقد دعا قريش العقيلى للمستنصر، كما دعا له بقية العرب. ولكن كان أكبر نصر للفاطميين، هو استمالة ينال، الأخ الصغير لطغرلبك من أمه، الذى كان من أنشط إخوته فى غزوات الغزّ، ولأنه عرف بسوء تفاهم سابق مع أخيه طُغرلبك[6]. وقد قيل إن المؤيد هو الذى استمال ينال، أو أن ينال هو الذى بدأ الصلة بالفاطميين عن طريق المؤيد[7] أو أن البساسيرى هو الذى راسل ينال[8]. وعلى كل حال، عرضت على ينال ألقاب الخلافة الفاطمية والخلع، وأن يكون المشرق فى يده، على أن تكون

(١) الطبرى، Annales، ٣: ٤٢٦.

(٢) الكامل، ٨ص ٢٥.

(٣) انظر. ماجد، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٩٦.

(٤) الكامل، ٨ ص ٧٢ س ٢٠.

(٥) نفسه، ٨ص ٧٧؛ السيرة المؤيدية، ص ١٣١-١٣٤.

(٦) الكامل، ٨ص ٥١-٥٢.

(٧) السيرة المؤيدية، ص ١٧٥.

(٨)ابن العميد، ص ٢٧٢؛ ذيل، ص ٨٧ (آخر الصفحة).

الخطبة للمستنصر قبله، فكان ذلك داعياً إلى وقوع الفتنة فى أسرة آل سلجوق ، فانفصل ينال عن أخيه بجيش عظيم وقصد ناحية فارس؛ بحيث إن أخاه طغرلبك خرج وراءه من بغداد، مما سهّل للبساسيرى وللعرب دخول بغداد، وإعلان الخطبة للمستنصر، التى دامت أربعين جمعة؛ كما ذكرنا.

ولسوء حظ خلافة الفاطميين ظهر سوء تصرف من قبل وزرائها، وخيانة فى معالجة الخطة التى يجب اتباعها نحو الثورة فى العراق؛ مما قضى على هذا النجاح. فنسمع أن اليازورى وزير المستنصر، أصبح يكاتب طغرلبك، وأعلن أنه فى طاعته، وأن البلاد بحكمه، وأنه لا يتكلف فى قتال؛ بحيث إن المستنصر قبض على اليازورى وقتله(١). بل لما طلب البساسيرى الحضور بشخصه إلى مصر، للاتفاق على تدبير أمر الثورة، رفض الوزير طلبه. كذلك الوزير الذى جاء بعد اليازورى ، وهو أبو الفرج المغربى؛ فإنه بدلاً من إرسال الأموال للصرف على ثورة البساسيرى، منع الأموال عن البساسيرى، وترك أجوبته(٢).

وكان طغرلبك قد انتصر على أخيه وخنقه بوتر قوسه(٣)، وعاد إلى بغداد فى جمادى الآخرة سنة ٤٥١/١٠٥٩؛ مما اضطر البساسيرى إلى الخروج منها ، واحترقت الكَرْخ حىّ الشيعة فيها(٤). واستمال طغرلبك العرب(٥)، مثل: ابن مروان سيد ديار بكر، ودبيس، فى الحِلة؛ كما اتصل بقريش العقيلى، حليف البساسيرى. وقد أصبح هَمّ طغرلبك بعد عودته إلى بغداد، تخليص الخليفة القائم من أسره، وإحضاره إلى بغداد. فقد كان الخليفة القائم لما اختلف على مصيره البساسيرى وقريش، نقل إلى بلدة حَديثة عـانة على الفرات -وهى جزيرة وسط

(١) ابن حجر العسقلانى، رفع الاصر عن قضاة مصر، مخطوطة بدار الكتب، برقم ٥٠٠ ١ تاريخ، ورقة ٨٥؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ٢٩-٣١.

(٢) النجوم ، ٥ص ١١.

(٣) الكامل ٨ص ٨٥ س ١١.

(٤) نفسه، ٨ص٨٨.

(٥) نفسه ٨ص ٨٦.

النهر كانت فيها قلعة- وسلّم إلى أحد أمراء العقيليين واسمه مهارش العقيلى، إلى أن يتقرر لهما عزم[1]. ويبدو أنه من هناك أرسل الخليفة العباسى ورقة، لتعلّق على الكعبة مستعديا فيها الله على البساسيرى، عنوانها: « إلى الله العظيم، من المسكين عبده»، فبقيت الورقة هناك إلى أن خرج القائم من الاعتقال[2]. فساوم قريش بالخليفة القائم، وصالح طغرلبك، وسلم إليه الخليفة. وحينما وصل الخليفة إلى بغداد، خرج طغرلبك بنفسه لاستقباله، وأخذ بلجام بغلة الخليفة، وأجلس الخليفة على سرير الخلافة الذى بقى فى منفاه مدة عام، وكان ذلك فى اليوم عينه الذى خرج فيه الخليفة، وعدّ ذلك من غرائب الاتفاق[3]. وبعد ذلك خرج طغرلبك وراء البساسيرى؛ حيث قال: « أنا أمضى خلف هذا الكلب»، فسار وراءه إلى واسط، وتمكن من قتله هناك، وحمل رأسه إلى بغداد، وطيف به فيها، وعلقها بإزاء دار الخلافة، وكان ذلك فى ذى الحجة ٤٥١/ ١٠٦٠[4]. واعترافاً بجميل طغرلبك على الخلافة العباسية لقبه القائم:«ركن الدين»[5]؛ كما أنكحه ابنته[6].

ثم عمد طغرلبك إلى الانتقام من الفاطميين لسوء فعلهم بالخلافة العباسية، بحيث قال: « وأفعل فى حق صاحب مصر ما أجازى به فعله»[7]. بل يبدو أن السلاجقة فى عهد طغرلبك اتفقوا مع البيزنطيين على أخذ دولة الفاطميين[8]، حتى أن البيزنطيين قطعوا خطبة الجمعة للفاطميين فى مسجد القسطنطينية، وأعلنوها للعباسيين، كما ذكرنا. ولكن ألب أرسلان[9]، الذى خلف طغرلبك، اتبع

---

(١) السيرة المؤيدية،ص ١٨٢؛ انظر، ماجد، المستنصر، ص ٩٨.

(٢) ذيل ، ص ١٠٧؛ المنتظم، ٨ص ١٩٥. لدينا نص تاريخى للاستغاثة،انظر.

(٣) وفيات، ١ص ١٠٨. عن ذلك: خاشع المعاضيدى بعض أنساب العرب، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٠٧.

(٤) نفسه. قيل فى ١٥ أو ١١ من ذى الحجة.

(٥) راحة الصدور، ص ١٧٥.

(٦) الكامل، ٨ص ٩٢-٩٤.

(٧)نفسه، ٨ص ٨٦ س ٨-٩.

(٨) السيرة المؤيدية ص ٩٥، تقدمة ص ٢٣؛ انظر. قبله.

(٩) عنه، التفصيل: وفيات، ٢ص ٤٤٢ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Ist, (art. Alp Arslân)t I, P. 324; 2 éd t I, P. 420-1.

سياسة أخرى هي الاستحواذ أولا على ثقة الشعوب الإسلامية بمهاجمة البيزنطيين، ثم محاربة الفاطميين. فقد انساح السلاجقة. في عهد ألب أرسلان من العراق إلى شمال الجزيرة. وواصلوا الزحف إلى أبواب آسيا الصغرى بجيش عدده أكثر من ستمائة ألف فارس سوى أتباعهم، فحاربوا ملك بيزنطة رومانوس ديوجنيس "Romanos Diogenes" – يسميه العرب أرمانوس– في موقعة ملاذ كِرد أومَناز كرد في ٤٦٣/١٠٧١[١]– بلدة على الفرات الأعلى في مدخل آسيا الصغرى– الذي جاء في ثمانين وخمسمائة ألف بطريق، مع كل بطريق أكثر من ألفي فارس، ومائة ألف نقاب وحفار، ومعهم العرادات والمسامير والمجانيق، منها منجنيق عليه ألف ومائتا رجل، واقطع البطارقة حتى بغداد، وبعد حرب شديدة في يوم الجمعة، تمكن أحد أتباع ألب أرسلان–واسمه شادي– من أسر الإمبراطور، وهو أول إمبراطور بيزنطي يؤسر، الذي وقع بين يدي ألب أرسلان ورمى به على الأرض، مكبلاً في الحديد، ضربه هذا الأخير بيده بالمقارع، ورفسه، وقال له: « ألم أرسل لك في السلام، فأبيت» . وقد كان هذا النصر السلجوقي من المعارك الحاسمة؛ سبباً في فتح أبواب آسيا الصغرى أمام شعوب الترك، الذين بقوا فيها إلى وقتنا الحاضر، وقضى نهائياً على خطر بيزنطة على الشرق الإسلامي.

وفي عهد ملكشاه[٢] الذي خلف ألب أرسلان، أصبح هم السلاجقة التالي هو القضاء على الفاطميين. فقضوا على سيطرة القبائل العربية في بلاد

---

(١) مثلاً: آل سلجوق، ص ٣٥ وما بعدها؛ الكامل، ٨ص ١٠٩–١١٠؛ العيني، تاريخ، ورقات ١٨٨–١٨٩؛ ابن العديم، زبدة ٢ص ٢٤؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art. Malâzgerd) t 3, P. 214-215;

Byzance et les Seljoucides, P. 65.: Laurent;

La Campagne de Mantzikert. Byzantion, 1934, 636-639.: Cahen

Decisive Moments in the history of Islam, 3 ed Cairo, 1948, P. 98-105.: Enan

، أسد رستم، الروم، ص ١٠٨ وما بعدها؛ وأيضاً من فايز اسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاز كرد (١٠٧٨/٤٦٣) في مصنف نقفور بريينوس، دراسة مقارنة للمصادر، الإسكندرية ١٩٨٤، أيضاً معركة ملاز كرد وصداها في القسطنطينية، الإسكندرية ١٩٨٨.

(٢) عنه: وفيات، ٢ص ٥٨٦ وما بعدها.

الجزيرة[1]، وهى القبائل التى كانت تساند الفاطميين فى ثورة العراق، واستولوا على الموصل من العقيليين، ووصلوا إلى حدود الشام. وزاد الخطر على الدولة الفاطمية بتولية ملكشاه لأخيه تُتش بن ألب أرسلان؛ حيث قرر له فتح الشام وديار مصر وبلاد المغرب[2]. فكان أتسز- المعروف بالأقسيس- وهو أحد قواد الترك الفاطميين سابقاً، يعمل لحساب تُتش هذا. فاستولى أتسز على دمشق، وخطب فيها للخليفة العباسى فى ٤٦٧ أو ١٠٧٥/٤٦٨-١٠٧٦[3]، ولم يخطب فيها للمصريين بعد ذلك أبداً، وقد منع فيها الأذان بحىّ على خير العمل، وفرح أهل دمشق فرحاً عظيماً لرجوع السنة إليها، ولتخلصهم من تصرف الولاة الفاطميين. ولدينا نقوش منذ ذلك التاريخ باسم الخلفاء العباسيين[4]؛ كما أنه لم يظهر للفاطميين عملة فيها[5]. كذلك سقط بيت المقدس فى يد أتسز فى ١٠٧٦/.٤٦٩[6]، وهو الذى كان فى أيدى الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر، كما سقطت حلب التى كانت فى أيدى المرداسيين فى أيدى السلاجقة فى ١٠٨٦/٤٧٩[7]، وهى التى هوجمت من قبلهم فى عهد ألب أرسلان. ويذكر المؤرخون أن مملكة الفاطميين اضطربت بفتح السلاجقة بلاد الشام الفوقانى[8]، بل ما لبث أتسز أن تغلب على أكثر الشام وأصبح على حدود مصر.

ومجمل القول: أن الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر، أتيحت لها الفرصة فى ضم العراق إلى ملكها، والقضاء على الخلافة العباسية عدوتها اللدود، وتوحيد

---

(١) ابن الأثير، الدولة الأتابكية ، ص ١٢، ١٧.

(٢) آل سلجوق ، ص ٦٥؛ الكامل، ٨ص ١٢٦. (هذا الأخير يقول اقطعه الشام).

(٣) الكامل، ٨ص ١٣٢.

(٤) أنظر. Répertoire t 7, P. 214 ;
Van Berchem : Inscr. Arabes de Syrie, P. 12 Suiv, 90 Suiv. ;
Ency. de Isl, (art. Damas) t I, P. 930.

(٥) أنظر. Lane-Poole : Hist. of Eg. P. 161, n(1)

(٦) الكامل، ٨ص ١١٠، ١٢٣.

(٧) نفسه، ٨ص ١٢٦. ربما استولى عليها ألب أرسلان فى ١٠٧٠/٤٦٣.

(٨) سير الآباء، ٣ ورقة ٩٣.

جبهة المسلمين تحت قيادتها. ولكن ظهور المارد السلجوقي قضى على نجاحها في العراق، فكان هذا النجاح الفاطمي أشبه بالسراج، الذي يلتهب عند إطفائه[1]، بل إن هذا المارد السلجوقي ما لبث أن استولى على أكثر أجزاء الشام، التي تعب الفاطميون في توحيدها مع مصر، وأصبح يهدد خلافة الفاطميين في مصر.

*

أما سياسة الفاطميين نحو بلاد الجزيرة العربية، فقد اتسمت هي الأخرى بالنشاط والنجاح؛ وإن كان يبدو أن نجاحها لا يرجع إلى المجهود الحربي، بقدر ما يرجع إلى شخصيات قوية من الدعاة الفاطميين في الجزيرة العربية، الذين أعلوا من شأن الدعوة الفاطمية فيها. ولا ريب ؛ فإن ثورة الشيعة كانت محفورة في أذهان الجزيرة العربية منذ مقتل الحسين وغيره من أبناء عليّ؛ فضلاً عن وجود الكوفة -مركز التشيع- على حدودها؛ مما كان سبباً في أن غمرتها الدعوة الشيعية في جميع أنحائها.

فمنذ وقت مبكر انتشر التشيع الإسماعيلي في اليمن حوالي سنة ٨٨١/٢٦٨ على يد دعاته الأوائل[2]، وهما: أبو القاسم بن حوشب، الذي هو من نسل الحميريين، نزل جنوبي صنعاء، وعليّ بن الفضل الجدني (أو فضل)، الذي نزل قرب البحر الأحمر. فزحفا بالجيوش وفتحا المدن، فاشتهر ابن حوشب بالمنصور أو منصور اليمن؛ ربما لسيطرته فيها، كما أطلق الشيعة عليه فجر الدعوة المتنفس. فكان الدعاة[3] معهما يخرجون من اليمن إلى كل مكان في السند والهند ومصر والمغرب[4] معهما؛ فأبو عبد الله الشيعي الصنعائي مثلاً، خرج من اليمن إلى المغرب، وهذا يدل على أهمية اليمن في الدعوة الإسماعيلية. وكان

---

(١) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.

(٢) كشف أسرار الباطنية، ص ٢١ وما بعدها؛ افتتاح الدعوه، ورقة ٣ وما بعدها؛ انظر الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، (من سنة ٢٦٨هـ إلى سنة ٦٢٦ هـ)، ص ٢٩ وما بعدها. وهو أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي.

(٣) الكرماني، الرشد والهداية، تحقيق كامل حسين؛ انظر.

(٤) إفتتاح ، ورقة ١٩؛ قبله.

الخلفاء الفاطميون فى وقت ما يفكرون أيضاً فى الاستقرار باليمن؛ وأن تكون خلافتهم فيها، بدلاً من إنشائها بالمغرب[1].

وقد كان بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية، ووعورة طرقها من أهم الأسباب التى حالت بين الخلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش لإنقاذها من دعاة الفاطميين. يُضاف إلى ذلك، أن بعد اليمن عن مركز الخلافة فى بغداد، كان سبباً فى أنها قسمت إلى مقاطعات صغيرة، موزعة بين حكام عديدين كانوا فى منازعات داخلية دائمة، يشبهون الأذواء والأقيال السابقين، حتى أن المأمون العباسى فى ٢٠٣/٨١٨، أرسل قائده محمد بن زياد[2]، وشجعه على إنشاء دولة، اتخذت زبيد عاصمة لها، عرفت بالزيادية، أخذت تمد نفوذها تدريجياً على المخاليف وهى الأقطار الواسعة، فمدت سيطرتها على كل جنوب الجزيرة مثل حضرموت وشهر وعدن، وحتى نجران شمالاً، وأذعن لها القبائل والملوك. وكان وقوع اليمن على طريق التجارة الهندية والصينية سبباً فى تمكنها من الاستقلال عن الخلافة العباسية .وقد انتعشت اليمن بوجود هذه الدولة، فاشتهرت عدة مدن مثل. المَخا[3]، وعَدن التى سماها المؤرخون فيما بعد دهليز الصين[4]. وقد استقلت هذه الدولة فى عهد محمد بن زياد استقلالاً نصفياً إلا أنها فى عهد ابنه أبى الجيش إسحق، أصبح استقلالها حقيقياً؛ بسبب اضطراب أحوال العباسيين، بقيام ثورة الزنج؛ مما جعل العباسيين يشجعون رجلا اسمه جعفر بن يعفر، يقوم فى صنعاء وينشئ دولة عرفت باسم اليعفرية. فكان هذا الاضطراب السياسى عاملا على نجاح الدعوة الإسماعيلية فى اليمن.

---

(١) سيرة جعفر الحاجب، ص ١١٠؛ انظر. الهمدانى، الصليحيون، ص ٣٩.؛ وقبله.

(٢) هو محمد بن ابراهيم بن عبيد الله بن زياد. ابن الواردى، تاريخ، ١ص ٢١٣؛ ابن أبى مخرمة، كتاب ثغر عدن، ١ ص٩.

(٣) معجم البلدان، ٧ص ٢-٤ . بين زبيد وعدن.

(٤) نفسه، ٦ص ١٢٦ وما بعدها.

ولكن الدعوة الشيعية باليمن لم تستمر فى نجاحها، فعلىّ بن فضل خرج على ابن حوشب ودعا لنفسه(1)، فحاربه ابن حوشب وانتصر عليه. ومع أن ابن الفضل مات مسموماً، ولم يلبث ابن حوشب هو الآخر أن مات حوالى٣٠٢/ ٩١٥؛ فإن أولاد ابن حوشب هم الآخرون انقسموا على أنفسهم، ومنهم من دعا للعباسيين؛ بحيث إن جعفر بن منصور اليمن–الذى ترك لنا سيرته– هرب إلى المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمغرب، نتيجة لسوء سياسة إخوته، وخروجهم على الدعوة الفاطمية(2).

حقاً إن الدعوة الإسماعيلية ما لبثت أن عادت إلى اليمن على يد القرامطة، الذين نشأوا فى البحرين، وسيطروا على معظم الجزيرة العربية كما ذكرنا. ولكن انقسامها السابق كان قد أعاد الدويلتين السنتين المؤيدتين من قبل العباسيين، وهما: الزيادية فى زبيد، واليعفرية فى صنعاء؛ حتى أنهما تعاونتا على المعاضدة والمنافرة فى القضاء على بقايا القرامطة وأذيالهم من الشيعة؛ وإن كان كلاهما ضعيفاً، وخصوصاً أن ملوك بنى زياد كانوا قد خضعوا لعبيدهم من الحبش، فاستطاع أحد العبيد واسمه نجاح، تكوين أسرة حاكمة فى زبيد ٤١٢/ ١٠٢١، عرفت ببنى نجاح، أن تقوم على أنقاض بنى زياد؛ حيث منحهم الخليفة العباسى التقليد، كما كان يفعل مع بنى زياد؛ وإن كان بنو نجاح ما لبثوا أن ضعفوا بدورهم، فانتقل الملك إلى عبيد عبيدهم(3).

ولا يعنى هذا أن الدعوة الإسماعيلية زالت من اليمن، نتيجة لخروجها من بيت ابن حوشب، ومن انسحاب القرامطة، وإنما تحولت سرية فى مناطق الجبال. حقاً إنه لم يعد فى اليمن دولة شيعية؛ إلا أنه طوال عهد الخلفاء الفاطميين بالمغرب ومصر، كان كل داعية لهم باليمن، يحافظ على حسن العلاقة بينه وبين الإمام الفاطمى الحاضر، ويحرص على أن يأتيه التعيين الرسمى منه، كما يرسل له مال

(1) كشف ، ص ٣٢ وما بعدها؛ انظر. الهمدانى، الصليحيون، ص ٤١ وما بعدها.
(2) سلوك (تاريخ اليمن) ، مختصر كاى Kay ، ص ١٥١ ؛ انظر. الهمدانى، الصليحيون. ص ٥٢.
(3) ابن الوردى، تاريخ، ١ص ٢١٤.

المستجيبين لدعوته. وربما قويت الدعوة الإسماعيلية في اليمن عن ذي قبل، لما انتقل الخلفاء الفاطميون من المغرب إلى مصر؛ حيث نسمع أنه خطب للعزيز[1] الفاطمي باليمن، على يد قحطان اليعفري. ولدينا أسماء بعض الدعاة زمن الحاكم والظاهر ، وأشهرهم: هرون بن محمد بن رحيم، الذي تولى الدعوة زمن العزيز والحاكم. ولدينا سجل إلى هرون[2]، يبلغه الحاكم فيه بوصول مال الدعوة من ذهب وقرابين، وينقل إليه أوامره إلى الدعاة الآخرين، ويعلمه بإرسال رسول من قبله إليه. وبعد موت هرون خلفه داعية آخر اسمه: يوسف بن أحمد بن الأشج (أو الأمشج) ، ثم خلفه عامر بن عبد الله الزواحي[3]، وقد استمر هذا الأخير يدعو للحاكم وابنه الظاهر.

ولكن الدعوة الفاطمية عادت إلى أوج قوتها من جديد في عهد المستنصر، مما ترتب عليه إنشاء دولة فاطمية في اليمن؛ وقد تم ذلك على يد داعية كبير اسمه: أبو الحسن عليّ بن محمد الصليحي[4]، الذي وصف بأنه شاب أشقر اللحية أزرق العينين، وليس باليمن أشقر أزرق غيره. وكان أبوه قاضياً سنياً في حَرَاز[5] من بلاد همدان اليمنية، قرب زبيد، ولكن عامر بن عبد الله الزواحي- الداعي السابق- تمكن من استمالة عليّ الصليحي إلى المذهب الفاطمي وهو دون سن البلوغ، وجعل منه أحد دعاته. وقد سلّم سليمان قبل موته إلى عليّ الصليحي مالاً كثيراً كان قد جمعه من أهل المذهب، وأوصى بكتبه إليه، وجعله خليفته؛ بحيث أصبح علّي الصليحي زعيم المذهب الفاطمي في اليمن بعده. فتمكن

---

(١) النجوم، ٤ص ١٢٢ س ١-٢.

(٢) عيون الأخبار، ٦ ورقات ٣٧٢-٣٧٣؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٥٦ وملحق ص ٣٠١؛ ماجد ، الحاكم، ص ١٤٨، وملحق ص ٢٣٩- ٢٤٠.

(٣) كشف الأسرار الباطنية ، ص٤٣؛ انظر. الصليحيون، ص ٥٧-٥٨ وهامش (٢).

(٤) عن حياته: وفيات، ٢ص ٧٣ وما بعدها؛ عيون ، ٧ ورقة ٧ وما بعدها؛ انظر. الصليحيون، ص ٦٤ وما بعدها؛

Ency de l'Isl, (art Sulaihides) t 4 , P. 540 sqq.

(٥) عنها : انظر معجم البلدان، ٣ص ٢٤٠ ؛انظر.

Ency (art Hamdânides) 2 éd, t 3. P. 128.

عليّ الصليحي بعد أن كثر أتباعه- حيث كانت طليعته ٩٥٠ رجلاً- من رفع راية العصيان على جبل مسار- أعلى جبال اليمن- في أرض حرّاز؛ فألقى فيهم خطبة يحضهم على العصيان، وذلك في ١٠٣٧/٤٢٩[١]. وقد جاءه أعوانه من كثير من البقاع التي فيها شيعة من أتباع المذهب؛ كما اجتمع إليه خلق كبير من العرب الجائعين، ولا سيما أن العرب أخذتهم الحمية إلى عدم الخضوع للعبيد من دولة بني نجاح السنية.فلما استقر عليّ الصليحي بالجبل، كتب إلى المستنصر وأرسل إليه الهدايا، فوجه إليه المستنصر الرايات والألقاب وأذن له بعلنية الدعوة. وقد استمرت دعوة عليّ الصليحي مدة في الجبال، فلما ظهرت كلمته، أرسل إلى المستنصر يعلمه ما هو عليه من ظهور الكلمة، ويستأذنه في النزول بالعساكر إلى تهامة ومقاتلة أهلها، وهي أرض سهول تجاور ساحل البحر الأحمر؛ فأذن له، وذلك في أيام وزارة البازوري[٢].

وفي أول الأمر أخذ عليّ الصليحي يلاطف نجاحاً، فأرسل إليه جارية جميلة قتلته بالسم في ٤٥٢/ ١٠٦٠[٣]، فهرب أولاد نجاح إلى جزيرة دَهْلَك[٤] في البحر الأحمر- وهي المكان الذي كان ينفي الأمويون فيه أعداءهم. قوى ذلك من مركز عليّ الصليحي، الذي استولى على التهائم والنجود وهي المناطق الجبلية. ولم تخرج سنة ٤٥٥/ ١٠٦٤؛ إلا وقد ملك اليمن كله، سهله ووعره، وبره وبحره، وهذا ما لم ير مثله في الجاهلية ولا في الإسلام[٥]. وقد استقر في صنعاء، واتخذها حاضرة له، ومعه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، حيث ولّى في الحصون غيرهم. كذلك ذاعت الدعوة الفاطمية في كافة أرجاء اليمن، وعادت بالقوة السابقة

---

(١) عيون، ٧ ورقات ٧-٨؛ انظر . الهمداني، الصليحيون، ص ٧٦- ٧٨. يقول الحمادي سنة ١٠٤٧/٣٣٩. كشف ، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن حجر، رفع الإصر ، ورقة ٨٥ ب.

(٣) مثلا: العبر، ٤ص ٢١٤؛ عمارة / كاي ، ص ١٦. أما إدريس عماد الدين فلم يذكر شيئاً عن هذه الحيلة. أنظر. الهمداني، الصليحيون ٨٤ هامش.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٤ص ١١٤-١١٥.

(٥) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠؛ عمارة / كاي ، ص١٨؛ وفيات، ٢ص ٧٤.

ذاتها، وبقيت من وقتئذ إلى يومنا الحاضر. وكان يخطب في اليمن للمستنصر خليفة مصر، ثم لعليّ الصليحي، ثم لزوجة عليّ الصليحي -وهي ابنة عمه- أسماء بنت شهاب، فيقال لها: « اللهم وأدم أيام الحرّة، الكاملة، السديدة، كافلة المؤمنين»[1]. وقد بلغ من تعلق علي الصليحي بالإمام المنتصر أن أرسل إلى المستنصر هدية عظيمة القدر في ١٠٦٢/٤٥٤، لم يسمع بمثلها؛ فشحنت في المراكب ثلاثين يوماً، وفيها فنون كثيرة من الذهب والفضة والسلاح والوشي والمسك والعنبر ،والكافور والعود الهندي الرطب والأستاذين والجواري وكثير من الأمتعة، يبعد حصرها، ويعظم أمرها[2]. كذلك كتب إليه يستأذنه في السفر إلى مصر ليحظى بلقائه، فأرسل إليه المستنصر كتابا[3]، يأذن له بالمجيء إلى مصر، في جمادى الآخرة من سنة ٤٥٩/ أبريل سنة ١٠٦٧.

وكان المستنصر يشجع داعيته المظفر، الذي أخضع له اليمن. فكان يمنحه الألقاب الفخمة، التي لم تعرف قبلاً؛ فأصبح عليّ الصليحي يلقّب: بالأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين[4]. ثم زاد في ألقابه ألقاباً أخرى أكثر فخامة، مع احتفاظه بألقابه القديمة، فصار يعرف: الأمير، الأجل، الأوحد، أمير الأمراء، عمدة الخلافة، شرف المعالي، تاج الدولة، سيف الإمام، المظفر في الدين، نظام المؤمنين[5]، وكان المستنصر يلقّب كل أفراد أسرة الصليحي، فلقب عقيلة الصليحي، بلقب، الحرّة، التقية، كافلة المؤمنين، الساعية في مصالح الدين؛ ولقّب ابنته؛ بالفاضلة، ولقب أبناءه واحداً

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٢ ورقة ٨٨ب ؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ٦٧.
(٢) عيون، ٧ ورقات ٦٦-٧٢؛ الصليحيون، ص ٢١٨. يقول العمادي سنة ١٠٤٧/٤٣٩. ووجه إليه بهدايا سبعين سيفاً، مقابضها عقيق، واثني عشر سكيناً عقيق. كشف، ص ٤٢.
(٣) سجل ورد في عيون الأخبار ، ٧ ورقات ٨٢-٨٦؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ص ٩٧، الملحق رقم رقم ٥ ص ٣٠٥-٣٠٧.
(٤) السجلات المصرية، سجل رقم ٤ ص ٢٢٥. وهامش
(٥) سجل ٨ ص ٢٢٠.، وهامش

واحداً[١]. وكان المستنصر يرسل لعليّ الصليحي رايات الخلافة وألويتها، وملابسه الخاصة كبركة له ولأبنائه، ويكتب لهم تعويذات، ويدعولهم[٢]. بل كان يرسل لهم باللحوم بعد النحر. حيث كانت ترسل لهم مقدّدة[٣]، فتفرّق من وزن نصف درهم، إلى ربع درهم، على سبيل البركة. ولما رغب عليّ الصليحي في ولاية عهده لابنه محمد في ٤٥٦/١٠٦٤، وافق المستنصر، وأرسل إليه سجل التولية[٤]؛ ونصحه أن يعتمد دائماً على إخوته. وبعد أن كان لقب محمد: منتجب الدولة وصفوتها، ذا المجدين، أضاف المستنصر إليه لقب: الأمير، الأعز، شمس المعالي، ولكن محمداً توفى بالحمى، فأسرع المستنصر بالموافقة على تولية الابن الأوسط أحمد المكّرم، وورد سجل التولية من قبله[٥].

ومن ناحية أخرى، نجد أن المستنصر لم يتردد في أن يستغل علياً الصليحي؛ لبسط نفوذ خلافته في أنحاء الجزيرة العربية، وبخاصة في الحجاز، الذي سادته الفوضى، بسبب منافسة العباسيين لهم عليه كما سنرى؛ بحيث إن نفوذ الخليفة العباسي عاد إليه، وخطب له فيه على منابرها. فجميع السجلات، التي وجهت من المستنصر إلى عليّ الصليحي، تبيّن الأهمية الكبرى للأماكن المقدسة عند فاطميي مصر، وإن المستنصر يريد ألا تراق الدماء في مكّة، حرصاً على قداستها[٦]. وقد خرج علّي الصليحي بجيش إلى الحجاز، وتمكن من إخضاعها للفاطميين؛ إلا أن أعداءه من العبيد أتباع دولة بني نجاح المهزومة بقيادة سعيد بن نجاح الأحول، يساعدهم بنو يعفر، تربصوا بالصليحي، وقتلوه في

(١) سجل رقم ٢، ٣، ٤.
(٢) سجل رقم ٦١ ص ٢٠٢. وردت في صدر كتاب للمكرم.
(٣) صبح، ٣ ص ٥١٥-٥١٦.
(٤) سجل رقم٢ ص ٣٢-٣٣؛ وسجل رقم ١٠ ص ٥٣-٤٤؛ وسجل ورد في عيون الأخبار، ٧ ورقة ٨٦؛ انظر. الهمداني، الصليحيون، ملحق رقم ٣ ص ٣٠٢.
(٥) عيون الأخبار، ٧ ورقات ٧٩-٨٠؛ انظر. الصليحيون، ملحق رقم ٣ ص ٣٠٣، وملحق رقم ٥ ص ٣٠٥ -٣٠٧.
(٦) سجل رقم ٧.

٤٥٩/١٠٦٦[١]؛ وأسروا زوجته. ولدينا وصف قتله فى رسالة من ابنه أحمد المكّرم إلى المستنصر[٢]. وقد حزن المستنصر على قتل علّى الصليحى، فسمح بإقامة عزائه فى حضرته[٣].

ومع أن الدعوة الفاطمية كادت تزول من اليمن بقتل علىّ الصليحى، فإنه يجب أن نقرر أن تسامح علّى الصليحى مع السنيين-شأنه فى ذلك شأن الخلافة الفاطمية- سمح بإظهار المذهب السنى؛ إلا أن تصرف المستنصر السريع كان من عوامل بقاء الدعوة فى اليمن. فحينما وصل خبر قتل علّى الصليحى، أسرع المستنصر بتعيين أحمد المكّرم مكانه، فأرسل إليه التشاريف والأعلام[٤]. ولدينا سجلات تبادلها المستنصر مع أحمد المكّرم، يظهر فيها مثابرة أحمد المكّرم للأخذ بثأر أبيه. فقد تمكن من قتل قاتل أبيه سعيد الأحول[٥]، كبير بنى نجاح، وإن هرب جياش أخو سعيد إلى الهند، ليعود من جديد للمقاومة فى تَهامة، كما فتح المكّرم زبيَد وخلّص أمه من الأسر، وأقام لعلىّ فى زبيَد مشهداً ؛ ومشهداً له آخر فى صنَعاء[٦]. ويبدو أن أهل حَراز من رجال الدعوة الأول، وآل زريع من قبيلة همدان فى ناحية عدن[٧]، كانوا أكبر عون له فى هزيمة أعداء الصليحيين.

وقد استمر المستنصر فى تشجيع أحمد المكّرم بكل الوسائل كما فعل مع علّى الصليحى من قبل؛ فكان يرسل إليه السفارات والتشاريف وملابسه الخاصة، على سبيل البركة. كذلك لقّبه بألقاب[٨]، منها: الأمير، الأجل، المكّرم، شرف

---

(١) سجل رقم ٤٠، انظر. مقدمة السجلات، ص ١٩. يؤيد كثير من المؤرخين موته فى هذا التاريخ. عيون، ٧ ورقة ٩٠؛ الكامل، ٨ ص ١٠٦؛ عمارة/ كاى، نص ص ٢٢، ترجمة ص ٣٠. هذا الأخير يقول هى رواية صحيحة، بينما يجعلها أبو الفدا (المختصر، ط الحسينية، ٢ ص ١٨٢) فى ٤٧٣/١٠٨٠.
انظر الهمدانى، الصليحيون، ص ١٠٣.

(٢) القمى، رسائل، مخطوطة، بمكتبة الهمدانى الخاصة، ورقات ٣٦-٧٢، انظر، ملحق، (الصليحيون)، برقم ٦ص ٣٠٨ وما بعدها؛ ابن أبى مخرمة، كتاب تاريخ ثغر عدن، تحقيق Leyden ،١٩٣٦، ٢ص ٩-١٠. وهى على لسان الملك أحمد المكرم، وموجهة للمستنصر.

(٣) عيون ٧ ورقة ١٠٣؛ انظر. الهمدانى، الصليحيون، ص ٢١٦.

(٤) سجل رقم ٤٠،٤٢.

(٥) على الخصوص، سجل ٦٠ ص ٩٨؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ ص ١٥٤.

(٦) عمارة /كاى، ص ٣٩.

(٧) عيون، ٧ ورقة ٩٦؛ ابن أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ١ص ٤٠

(٨) سجل رقم ٣٩.

الأمـراء، عز الملك، منـجب الدولة وغرسـهـا، ذو السيـفين. ثم بعـد ذلك لقّبه بألقـاب كثيرة، حـتى زادت عن ألقاب أبيه، منها[1] : الملك، الأجل، الأوحد، المنصـور، العادل، المكّرم، عمـدة الخلافة، تاج الـدولة، سيف الإمام، المظفـر فى الدين، نظام المؤمنين، عماد الملة، وغياث الأمة، شرف الإيمان، مؤيد الإسلام، عظيم العرب، سلـطان أمير المؤمنين وعـمـيـد جيوشـه. كمـا لقّب المسـتـنصـر زوجـة المكّرم، وهـى سيـدة أروى. بنت أحمـد بن جعـفر بن موسى الصليـحى- التى ولدت عام ١٠٤٨/٤٤٠، وربتـها أسمـاء بنت شهاب- أم المكّرم- بألقاب[2] منها: الحـرة، السيدة، السـديدة، المكينة، ذخيـرة الدين، عمدة المؤمنين، كـهف المستـجيبين، صنيـعة أميـر المؤمنين. بل كان المستنصر يكاتب أسماء أم المكّرم، بالألقاب التى كان قد خلعها عليها[3].

ولكن أحـمـد المكّرم نفسـه لم يلبث أن زهد فـى الحكم ربما بسـبب مـرضـه بالشلل، نتيجة لجراح كـان قـد أصيب بهـا فى مـحاولة إنقـاذ أمه، وإن قـيل اشـتـغل بالأكل والشـراب؛ فكانت زوجتـه سيـدة أروى تحكم مـعه. فـيذكـر عمـارة المؤرخ أن أحمـد المكرّم فوض زوجته فى الحكم، فاستـبدت بالأمور، واسـتـعفته فى نفسـها، وقـالت لزوجـهـا: « إن امـرأة تراد للـفـرش، لا تصـلح لتـدبيـر أمـر، فـدعـنى ومـا أنا بصدده[4]». وقـد يكون اسـتقـلالهـا بالحكم ابتداءً من سنة ١٠٧٨/٤٧١؛ حـيث إن المسـتنصـر يوجـه إليهـا السـجلات رأسـاً، ويبيّن[5] لهـا وسـائل الحكم المثـالية[6]، ويعـتـبرهـا مـثـالاً أعلى للمـرأة لتـقلدهـا قـلائد التـقـوى، ولكفـاءتها فى إدارة شـئـون البـلاد، ولـيـقظتــهـا فى أمـور الـدعــوة، ولذلك لا يعـدهـا من ضـمـن زمـرة ربات الحجاب[7]. كـذلك تراسلها أم المسـتنصـر، وتخـاطبـها بقـولها: « فـاقمت للسـيـاسـة عمادها، وسلّمت إليك الكافة قيادها[8]». ومع ذلك كان المسـتنصـر يرسل إلى الملكة أروى برأيه فى الأمور، يطالبها بأن تسلك مسلك أسماء والدة المكّرم[9].

---

(١) سجلات: ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٩، ٤١، ٥٤، ٥٦، ٥٨، ٥٩.
(٢) سجل رقم، ٤١ ص ١٤٢.
(٣) سجل رقم ٥٥ ص ١٨٠-١٨١.
(٤) عمارة/ كاى، ص ٣٥؛ عيون الأخبار، ٧ ورقة٨٢ ؛ انظر.
Dâ'î Hâtim. Oriens. 1974, P. 863. : Abbâs Hamdanî,
(٥) عمارة / كاى ص ٢٩؛ انظر. الصليحيون، ص ١٤٨.،
(٦) سجل ٤٤ ص ١٥٢-١٥٤.
(٧) سجل ٢٠ ص ٧٦.
(٨) سجل ٥١، ص ١٧٠.
(٩) سجل ٢٠ ص ٧٦-٧٨.

وحينما مات أحمد المكّرم فى ٤٧٨/١٠٨٥؛ اختلفت آراء الأمراء والسلاطين فى اليمن، فيمن يتولى الحكم بعد المكّرم. ولكن المستنصر كان يريد أن يؤثر بالولاية فى اليمن سلالة علّى الصليحى، وذلك لأنه رأى فى السيدة الحّرة من القوة والكفاية لتنفيذ رغباته ما يرضيه. لذلك أرسل إليها سجلاً بإقامة ولدها أبى الحسن علىّ بن المكّرم[1]، الذى تسمى باسم: عبد المستنصر، وذلك تودداً إلى المستنصر. وعلى الرغم من صغر سن عبد المستنصر؛ فإن المستنصر لقّبه بألقاب أبيه، بما فيها: عمدة الخلافة، وأرسل إليه ملابسه الخاصة وألويته وسيوفه ودواة لسها، وذلك ليعلى من شأنه[2]. وبعث المستنصر إلى الصليحيين، وغيرهم من الزواحيين-وهم سلالة دعاة اليمن قبل الصليحيين- برسالة يدعوهم فيها إلى الائتلاف، ويخوفهم من ضياع الملك من أيديهم إذا تفرقت كلمتهم، ويحضهم بشدة فى الوقت ذاته على طاعة السيدة الحّرة وابنها عبد المستنصر؛ حيث إن سنه الصغيرة لا أثر لها، لأن أمير المؤمنين يرعاه فضلاً عن رعاية أمه له[3]. وأرسل المستنصر إلى أخيه محمد بن المكرم، الذى تسمى هو الآخر بعبد الإمام، كتاباً يطالبه فيه بالتعاضد مع أخيه[4] وإن كان عبد الإمام ما لبث أن توفى[5]. وقد نجح المستنصر فى حفظ الملك فى البيت الصليحى، حتى إن السيدة الحرة نقلت إلى الإمام قبول السلاطين خضوعهم لها ولابنها عبد المستنصر[6]. حتى بعد موت ابنها، الذى لم يعمر طويلا، ظلت السيدة الحرّة تحكم فى اليمن، فهى فى رأى المستنصر بيدها الحل والعقد والإبرام والقضاء والإعطاء.

ولكن يبدو أن السلطان أبا حمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن علىّ الصليحى كان يتوق إلى حكم اليمن عن طريق الزواج من السيدة الحرّة. وقد كانت العقبة

---

(١) سجل ١٤، ص ٦١، ٢٦ ص ٩١، ٤٦، ص ١٥٩، ٤٨ ص ١٦١-١٦٥.
(٢) سجل ٣٧ ص ١٢٧.
(٣) سجل ٣٨ ص ١٢٨-١٣٤.
(٤) سجل ١٧ ص ٦٩ -٧١.
(٥) سجل ٢٤ ص ٨٦-٨٧.
(٦) سجل ٢٢، ٣٦.

أمامه في وجود سليمان بن عامر الزواحي، الذي أخذ ينافسه؛ إلا أنه تصالح معه[1]، مما مهّد لأبي حمير تحقيق أطماعه. ويبدو أن السيدة الحرّة هي الأخرى كانت تميل إلى أبي حمير[2]؛ بحيث إنها أبلغت المستنصر، أن أبا حمير كان أول السلاطين إسراعاً للطاعة، وأنه يمكنه أن يعتمد عليه. وقد فهم المستنصر ميل الإثنين إلى بعضهما البعض، فعمل على تزويجهما عن طريق رسوله، الذي قال للسيدة الحرّة: « وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد، المنصور، المظفر، عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي، على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عيناً، وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف ولطائف وطيب وكساوي[3]. لذلك يعتبر المؤرخون سبأ آخر ملوك الصليحيين[4]؛ فقد ظل يحكم مع السيدة الحرة من٤٨٤/١٠٩١ إلى ٤٩٢/١٠٩٨-٩، أما السيدة الحرّة، فقد عاشت بعد سنة ٥٣٢/١١٣٧. ولا ريب أن هذا الزواج كان كفيلاً ببقاء الدعوة الفاطمية طوال أيام المستنصر، وحتى بعد موته.

ولكن بعد موت زوجها، أرسلت الخلافة في مصر زمن الخليفة الآمر الفاطمي داعياً مصرياً اسمه: أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن نجيب الدولة المصري في ٥١٣/١١١٩[5]؛ ليقف بجانبها، بعد أن أرسلت معه جماعة من السودان، أي فرقة من الجيش المصري؛ بحيث عادت الأمور إلى حالها، والطاعة لها. فكان ابن نجيب الدولة بمثابة الوزير لها، وقويت شوكته، وكان يغزو في بلاد اليمن بجيش مصر، وانقمع أهل اليمن المتمردون. ولكن ابن نجيب الدولة تكبر على أهل اليمن[6]، حتى أنه رمى السيدة الحرّة بالخبل، وقال: « قد خرفت، واستحق عندي أن يحجر عليها[7]»؛ مما جلب عليه كره اليمنيين له ،وغضبت عليه الخلافة

---

(١) سجل ٢٦ ص ١٢٠، ٢٢ص ٨١-٨٢.

(٢) نفسه ص ١٢٠-١٢١.

(٣) عيون، ٧ ورقة ١٤٣؛ عمارة/ كاي، ص ٣٥؛ أنظر. الصليحيون.ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) أبو الفدا، المختصر. ٢ص ١٨٢.

(٥) عمارة/ كاي، ص ٤٣-٤٤، اسمه بالكامل: علي بن إبراهيم بن نجيب الدولة.

(٦) عمارة/كاي، ص ٤٦-٤٧.

(٧) نفسه، ص ٤٣-٤٤؛ أنظر. الهمداني، الصليحيون، ص ١٧١.

الفاطمية أيضاً، وسعت إلى قتله. ويبدو أن السيدة الحرّة بعد هذه الحوادث، انفصلت عن نفوذ خلفاء الفاطميين فى مصر وقت وفاتها(١).

ومن ناحية أخرى، عادت اليمن إلى فوضاها السياسية والدينية، نتيجة لضعف الصليحيين وانفصالهم عن نفوذ مصر، فتوزعت مدن اليمن بين حكام عديدين، وفتحت الطريق أمام المخاطرين، الذى أصبح كل واحد منهم يسعى إلى السيطرة على اليمن. فظهر فى زبيد من أرض تهامة، رجل اسمه علىّ ابن مهدى(٢)(ت٥٥٤/١١٥٩)، يبدو أنه كان يعتنق دعوة الفاطميين فى مصر، وظهر المذهب الزيدى فى صعدة شمال صنعاء فى ٥٣٢/١١٣٧-٨، على يد رجل أو مصلح، اسمه الإمام المتوكل أحمد، من نسل الهادى إلى الحق يحيى مؤسس المذهب الزيدى فى اليمن، وهو المذهب الشيعى الذى كان لا يتعارض كثيرا مع المذهب السنى، وكان اعتنقه البويهيون فى العراق كما ذكرنا، أما صنعاء ذاتها، التى كانت عاصمة الصليحيين إلى سنة ٤٨١/١٠٨٨-٩، ثم بعد ضعفهم نقلوا العاصمة إلى ذى جبلة، فقد سيطرت عليها قبيلة همدان الكبيرة(٣)، التى كان منها الصليحيون، إذ كانت هذه القبيلة منذ أيام الإسلام الأولى أكبر مناصرة لعلى وخلفه فى العراق، حينما انتقل فرع منها إلى الكوفة(٤)، وآل زريع ظهروا فى عدن، الذين أصبحوا دعاة لخلافة الحافظ فى مصر، ليقاوموا بها الدعوة الطيبية نسبة إلى ابن الآمر، حتى أن أحدهم وهو محمد بن سبأ الزريعى لقبه الحافظ: الداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين(٥)، الذى كان يسعى إلى شراء قلاع الصليحيين، أما الصليحيون أنفسهم، فلم نعد نسمع عن سلالتهم إلا نادراً بعد السيدة الحرّة.

وقد بقى الحال هكذا فى اليمن من الفوضى السياسية والدينية إلى أن أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه بعد أن كان قد قضى على الخلافة الفاطمية فى مصر

---

(١) لا تزال تذكر فى اليمن للآن باسمها أروى، وليس بلقبها السيدة الحرة، ولها جامع على اسمها، وحتى طريق باسمها: طريق الملكة أروى.

(٢) عمارة، ص ٢٩-٣٠؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ص ١٥٤.

(٣) انظر. Ency. de l'Isl, (Hamdanides) 2 ed t 3, P. 128.

(٤) انظر. Ibid , (art . Hamdan) 2 ed, t 3, P. 125-6.

(٥) العبر، ٤ ص ١٩.

فدخل توران شاه اليمن بناء على دعوة من شيوخ قبيلة همدان؛ كما أزال علّى بن مهدى؛ وبذلك قضى على كل اثر للمذهب الفاطمى ، وبالتالى فتحت الطريق أمام المذهب الزيدى.

ومن المحقق أن أفراد أسرة علىّ الصليحى جميعاً، كانوا الدعاة المخلصين للفاطميين فى اليمن فكانوا يحرصون على إظهار ولائهم الذى لا يتزعزع للخليفة الفاطمى كإمام روحى لهم، فكانوا يرسلون أموال الدعوة من أتباع المذهب من نجاوى وقرابين وفطر، كذلك كانوا يرسلون باستمرار سفارات دينية إلى القصر الفاطمى بالقاهرة، فقد ذهب لمك بن مالك الحميرى[1]- وهو قاضى قضاة اليمن وداعيته- وغيره إلى مصر، واتصلوا بالإمام وداعيته المؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى، وأقام لمك بمصر خمس سنوات فى دار العلم، مركز الدعوة الفاطمية، وكان المستنصر يعتبر لمك ضمن حاكمى اليمن[2]، وبسبب انتشار دعوة الفاطميين فيها، فسمى فى عهد المكّرم: « داعى القلم»[3]، واستقبله قبل رجوعه، ومنحه ٢٧[4] خلعة؛ كما أن يحيى بن لمك استمر في الدعوة بعد أبيه. ولعل لمك والمؤيد فى الدين، وقد رأيا اضطراب أحوال مصر الداخلية، بتغيير وزرائها وتضعضع الدولة[5]، فحولا التراث المذهبى الفاطمى إلى اليمن، وهذا يفسر انتقال الكتب الفاطمية إلى هناك.

---

(١) سجل ٤٢، ص ١٤٤، ٥٥ص ١٨١، ٦١ ص ٢٠٢؛ عيون الأخبار، ٧ ورقة ١٠٢-١٠٤؛ أنظر.

The history of the Ismaili Dawa and its Literature, during the last phase of-:Hamdanî the fatimid empire J.R.A.S. Jan, 1923, P. 135;

Some unknown Isma'ili authora and theis works J.R.A.S. Jan, 1933, cf.

(٢) سجل ٥٥ ص ١٨١.

(٣) عيون، ٧ ورقة ٨٣؛ أنظر. الصليحيون، ص ١٧٩؛ عيون، ص ٧ ١٠٢-١٠٤.

(٤) نفسه، ٧ ورقة ١٤٤؛ أنظر. نفسه، ص ١٨١.

(٥) أنظر بعده.

ومن الأهمية أن ندرك أنه بفضل الصليحيين وارتباطهم بدعوة الفاطميين أصبح اليمن جزءاً من دولة الفاطميين فى مصر. كذلك توثقت العلاقات التجارية بين مصر واليمن، تلك العلاقات التى تمتد إلى أيام الفراعنة، فأصبح التجار يرحلون من مصر إلى اليمن، فاستقر كثير من كبار تجار مصر فى مدن اليمن، واتخذوها وطناً ثانياً لهم، كبنى الخطاب، وهم تجار من أهل مصر، وكان ثغر عَدَن[1]، وهو مكان محاط بالجبال، ولا يدخل إليه إلا من البحر، أهم موانى التجارة اليمنية للمصريين. أما مصر فقد كان عيْذاب وهو على البحر الأحمر، «القلزم»، مرسى للتجارة الواردة من عدن، حتى أن ناصِر خسرو ذكر أنه كان تابعاً لليمن[2].

وأخيراً نذكر أنه منذ نشأة الدعوة الفاطمية، فإن دعاتها فى اليمن يعتبرون عناصر رئيسية لنشرها فى الهند، ويقصد بها السند أو المنطقة الغربية من الهند، التى يجرى فيها نهر السند. فقد كان الفاطميون يرسلون إلى الهند الدعاة منذ أيام ابن حوشب[3]؛ بحيث كوّن الشيعة فى الهند دويلات أشهرها الْمُلتان[4]، فكان حكامها يرسلون الهدايا وأموال الدعوة إلى أئمة الفاطميين بمصر. ولكن لما قامت دولة الغزنويين السنية على حدود الهند (أفغانستان)، ثم توسعت باستيلائها على إقليم ما وراء النهر من السامانيين[5]، غزت دولة الغزنويين دويلات الشيعة، بما فيها الْمُلتان فى ٣٩٦/ ١٠٠٥[6]، وعمدت إلى قتل الشيعة؛ بحيث أصبحت غَزْنة عاصمة الغزنويين، مصيدة لكل شيعى من الهند أو غيرها. وقد حاول الفاطميون فى عهد الحاكم والظاهر استمالة الغزنويين للتخفيف عن أنصارهم، ولا سيما

(١) ابن أبى مخرمة، ثغر عدن، ص ٤، ٧، ٩، ١٠، ١٥.
سميت عدن من العدون وهى الإقامة، أو من عدنان مما يدل أصلها العربى، أو حتى من المعدن. نفسه، ص ٢، ٤، ٢٩، وأيضاً: معجم البلدان، ٦ص ١٢٦ وما بعدها.

(٢) سفر نامه، ص ٧٢؛ معجم البلدان٦، ص ٢٤٦.

(٣) إفتتاح، ورقة ١٨-١٩، عيون، ٦ ورقات ٣٨-١١٤-١٧؛ انظر.
؛Ismâ'îlî Propaganda and the Fatimid rule in Sind Ic. oct 1949, PP. 298-307.: Stern The beginnings of the Ismâ'îlî da' wa in Northern India. Cairo, : Ahbâs al-Hamadânî 1959.

(٤) المقدسى، أحن التقاسيم، ط . Leiden ، ص ٤٨١؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art. Multân) t 3, P. 771; (art Hind) 2 éd, t 3, P. 447.

(٥) الكامل،٧ ص ١٩٧.

(٦) الفرق بين الفرق، ص ٢٧٧.

محمود الغزنوى، فيقول ابن كثير[1] : «وكانت رسل الفاطميين فى مصر تفد إليه بالكتب والهدايا لأجل أن تكون فى جهتهم، فيحرقهم ويحرق كتبهم وهداياهم». ولكن بسبب ظهور الصليحيين فى اليمن فى عهد المستنصر، فإن الدعوة الفاطمية عادت إلى الهند من جديد؛ حيث خول المستنصر الصليحيين تعيين الدعاة فيها. فكثير من السجلات[2]، تبيّن سيطرة الفاطميين على شئون الدعوة فى الهند، بفضل المكّرم الصليحى والسيدة الحرّة.

*

كذلك نجحت الدعوة الفاطمية منذ وقت مبكر-مثلما فى اليمن- فى البلاد الواقعة عند بر العرب من الخليج الفارسى؛ حيث بلغت غاية نجاحها فى البحرين[3] بين عرب القيسية. وقد بلغت الدعوة غاية نجاحها على يد القرامطة الأوائل، مثل أبى سعيد الجنابى، وابنه أبى طاهر، بتأسيسها دولة إسماعيلية قوية؛ كما ذكرنا[4]. ولكن كان قد ظهر بين القرامطة منذ أيام أبى طاهر فريق مناهض للفاطميين، وقوى بعد موت أبى طاهر، الذى لم يترك إلا عشرة أبناء صغار.فقام أحمد بن أبى سعيد الجنابى، المسمى أبا منصور، بالوصاية على سابور بن أبى طاهر، حيث ظلت علاقة القرامطة بالفاطميين غير واضحة زمن وصايته إلى سنة ٣٥٨/ ٩٦٩، وهى السنة التى فتح فيها المعزّ مصر. فقبض سابور على عمه أحمد، غير أن أحمد توفى بتدبير شيعة سابور. ولكن الحسن ابن أحمد -المعروف بالأعصم أو الأعظم- قتل سابور فى ٣٥٩/ ٩٧٠، وأوقع بأتباع الفاطميين، وخرج فى حملة على الشام ومصر؛ حيث صدّ المعزّ الفاطمى. ومع أن هذا الأخير كتب إلى الأعصم كتاباً طويلاً يدعوه فيه للموادعة والطاعة لإمامه؛ فإن الأعصم استمر فى عدائه[5].

(١) ابن كثير، النهاية، ٢ص ٢٩؛ النجوم ٤ص ٢٥١؛ انظر. نص الكتاب من محمود الغزنوى للخليفة القادر فى ٤٢٠/١٠٢٩.

(٢) انظر. السجلات: ٥٠ ص ١٦٨، ٦٣.

(٣) عن البحرين: معجم البلدان، ٢ص ٧٢ وما بعدها.

(٤) العبر، ٥ص ٨٨ وما بعدها؛ انظر.

قبله: Ency de Isl, (art Karmates) t 2, P. 8/2 sqq.

(٥) إتعاظ، ص ٢٥١ وما بعدها؛ تحقيق جديد، ص ١٨٩ وما بعدها.

ولكن لما حارب العزيز أفتكين استنجد أفتكين بالأعصم القرمطي ضد جوهر، وهزموه؛ فلما مات الأعصم خرج العزيز بنفسه وهزم أفتكين وجعفر ابن الأعصم القرمطي، الذى هرب إلى الرملة بأرض فلسطين . فأرسل العزيز- الذى صالح أفتكين واستماله إليه- يعرض الصلح على القرمطي بمبلغ ثلاثين ألف دينار، تحمل له ولأصحابه كل سنة، ويعده بالصفح. فقبل القرمطي شروط العزيز، وذهب جوهر بنفسه، إليه، واستحلفه بالطاعة للعزيز. فعاد الأعصم إلى الأحسَاء بالبحرين[1]، فكان المال يحمل إلى القرمطي كل سنة إلى وقت وفاته، التى ذكر بعض المؤرخين انها عام ٩٧٧/٣٦٦[2]. وقد قام العزيز بعد أن ترك الأعصم الشام بنقل أشياع القرامطة من بنى سُليم وهِلال من الشام إلى الصعيد[3].

وبعد موت الأعصم، قام عرب البحرين بثورة ضد بيت أبى سعيد الجنابى بسبب أنه لم يعجبهم تصرف أفراده بالدعاء للخليفة العباسي، فأخرجوا الأمر منهم، وأرسلوهم إلى المنفى فى جزائر الخليج العربى (الفارسى)، وأقاموا لحكمهم نظام السادة، أى زعماء القبيلة، وهم من قبيلة سُليم، فاختاروا ستة منهم، جعلوا لهم ستة وزراء[4]. وقد تمكن هؤلاء السادة من إعادة علاقة الود مع الخلفاء الفاطميين؛ كما كانوا يتدخلون فى منازعات أمراء البويهيين؛ بحيث كان لهم نائب فى بغداد. وحينما ضعف البويهيون، كانوا يهاجمون مدن العراق، فهاجموا البصرة فى ٩٨٤/٣٧٤، والكوفة فى ٩٨٥/٣٧٥، ولم يحج أحد من العراق؛ خوفاً من القرامطة فى ٩٩٥/٣٨٤، وعادوا إلى مهاجمة البصرة فى ٩٩٦/٣٨٥[5].

ولكن فى حوالى سنة ١٠٠٧/٣٩٨[6]، تمكن الأصفر بن الحسن الثعلبى من قبيلة ثعلب القوية، أن يقضى على نفوذ السادة، الذين ربما كان معظمهم من

(١) ذيل، ص ٢٠-٢١.
(٢) النجوم، ٤ص١٢٨.
(٣) ذيل، ص ٣٠-٢١؛ وبعده.
(٤) العبر، ٤ص ١٠١؛ الروذراورى، ص ١٠٩ س ٣-٤.
(٥) الروذراورى، ص ١٠٩؛ النجوم، ٤ص ١٤٥، ١٦٧، ١٦٩.
(٦) العبر، ٤ص ٩١-٩٢، ص ٧٢.

قبيلة بنى سُليم، وأعلن الدعوة للعباسيين بدل الفاطميين، كذلك طرد الثعلبى بطون بنى سُليم من البحرين، ومنها عشيرة بنى عقيل، الذين ساروا إلى الجزيرة،وتغلبوا على بقايا الحمدانيين، وأعلنوا الدعوة الفاطمية لخلفاء مصر كما ذكرنا، ويبدو أن السادة قد عادوا إلى حكم البحرين؛ فيذكر الرحالة ناصر خسرو[1]، الذى زار مدينة، لحسا أو الأحساء فى ١٠٥١/٤٤٣؛ أن حكم السادة كان قائماً، وأنهم يعتمدون على الزنوج والحبش، وأن مذهبهم الدينى قد اختلط بعقائد باطلة، فهم يعتقدون برجعة أبى سعيد الجنابى -مؤسس دولتهم- ويسمون أنفسهم أبا سعيديين، وأنهم لا يصلون ولا يصومون.

كذلك بلاد عُمان المجاورة للبحرين، ومعظم سكانها من قبائل الأزد، استقلت عن سلطة العباسيين، مثلما كانت أيام الأمويين؛ حيث كانت ملجأ لدعوة الخوارج النجدية، ومن بعدهم الخوارج الأباضية. ومع أن الأمويين تغلبوا على هؤلاء؛ إلا أنهم عادوا إلى السيطرة فى أيام العباسيين[2] . وقد حاولت الخلافة العباسية استرداد عُمان، وأرسل هارون الرشيد أسطولاً، وحاول الخلفاء العباسيون ذلك بعده. ويبدو أن أسرة بنى شامة كونت فيها مع البحرين واليمامة المجاورة عملاً واحداً، يخضع للعباسيين. ولكن اختلاف بنى شامة مهّد لسيطرة قرامطة البحرين عليهم، فاستولى على بلادهم أبو طاهر فى ٩٢٩/٣١٧؛ حيث ملكها القرامطة إلى سنة ٩٨٥/٣٧٥ . وبعد ذلك سيطرت على عُمان أسرة بنى مكرّم، الذين حكموا باسم الشيعة البويهيين، ولكن فساد أسرة بنى مكّرم بتغلب النساء والعبيد عليها؛ جعل الملك البويهى أبا كاليجار يرسل عسكرًا من البحر، استولى على عُمان فى ١٠٤١/٤٣٣[3]. وبضعف البويهيين تمكن أحد الخوارج واسمه ابن راشد من الاستيلاء على عُمان فى ١٠٥٠/٤٤٢، والقضاء على أسرة بنى مكّرم، وتسمى بالراشد بالله، وربما سيطر على البحرين

---

(١) سفر نامه، ص ٩٢-٩٥.

(٢) عن ذلك بتفصيل: العبر، ٤ص ٩١-٩٢؛ الكامل، ٨ص ٥٥؛ معجم البلدان، ٢ص ٧٣. عن عُمان؛ انظر. معجم البلدان، ٦ص ٢١٥-٢١٦.

(٣) الكامل، ٨ص ٣٢، ٥٥.

أيضاً[١]، وذلك كما يظهر من أحد السجلات المستنصرية بتاريخ ٤٥٦/١٠٦٤، التى تبين استيلاء الخارجى على هَجر.

ومعنى هذا أن الدعوة الفاطمية التى قامت فى البر العربى من الخليج الفارسى قضى عليها عن طريق السنة أو الخوارج؛ إلا أنها عادت من جديد فى زمن المستنصر بالله بالذات[٢]. ويبدو أن عودة الدعوة الفاطمية يرجع إلى الظروف القلقة فى هذه البلاد؛ وبخاصة إلى قيام أسرة الصليحيين القوية فى اليمن. فنجد أن المستنصر بناء على طلب أهالى البحرين وعُمان، يعين الدعاة فيهما، ويجعل الإشراف على الدعوة للمكرّم الصليحى: « ولاية تلك الأعمال-الأحَساء وعُمان- جميعها: دانيها وقاصيها، مطيعها وعاصيها[٣]»، وعلى أن يعتبر دعاة القطرين نواباً عن المكرّم. وكان انشغال المكرّم بظروف دولته؛ مما منعه من الاهتمام بأحوال الدعوة فى القطرين؛ فكان المستنصر يستحثه على بذل الجهد لنشر الدعوة الهادية المستنصرية فيهما. ونعرف من شخصيات الدعوة الفاطمية فى البَحْرين عبد الله بن علىّ العلوى فى الأحَساء، الذى لقّبه المستنصر: بالأمير، مستخلص الدولة العلويّة وعدتها، وفى عُمان يوسف بن حسين الصدابوارى وابنه، اللذين لقّبهما المستنصر بلقب غرس الدين. وربما يكون هؤلاء الدعاة قد حكموا القطرين باسم الفاطميين، فنسمع أن رئيس الدعوة فى البَحْرين كان يحارب الخوارج وغيرهم؛ كما قد يكون المكرّم الصليحى أشرف إشرافاً تاماً على عُمان؛ حتى من ناحية إدارتها.

ولكن بعد ذلك سقطت البحرين فى أيدى السلاجقة فى سنة ٤٧٠/١٠٧٧[٤]، الذين سيطروا فى العراق والشرق الإسلامى أيضاً؛ كما أنه لما طرد السلاجقة بنى عقيل من الجزيرة، عاد بنو عقيل إلى البحرين بلدهم الأصلى[٥]. أما عُمان؛ فإنها بقيت تحت إشراف المكّرم، الذى عين لها داعية جديداً فى ٤٧٦/١٠٨٣، اسمه إسماعيل بن إبراهيم بن جابر[٦]. ولما انصرف هذا الداعى عن الدعوة باحترافه التجارة، اقترحت الملكة الحرّة التى تولت الحكم فى اليمن بعد

(١) سجل ٤س ٣٩.
(٢) انظر. ماجد، الإمام المستنصر، ص ١١٣.
(٣) سجل ٥٤ص ١٧٩.
(٤) النجوم، ٥ص ١٠٦ س ١.
(٥) العبر، ٤ص ٩٢.
(٦) سجل ٩٣ ص ٢٠٥.

المكرم تعيين حمزة بن سبط حميد الدين، فجاء سجل إلى الملكة بتعيينه فى ٤٨١/١٠٨٨[١]؛ وشكرها المستنصر على تبنيها لمصالح الدعوة فى هذه البلاد.

والخلاصة أن الدعوة الفاطمية عادت إلى البَحْرين وعُمان فى عهد المستنصر، ولكن النفوذ الفاطمى ضاع منها بظهور السلاجقة، الذين استولوا على البَحرين؛ كما أصبحت الدعوة فى عُمان للمذهب وحده، وليس من ناحية الإشراف عليها، ولا سيما أن الصليحيين انقسموا بموت المكرّم.

*

أما فى الحجاز وسط الجزيرة العربية، فقد كان همّ الفاطميين أن يدعى لهم فى الحرمين، بسبب أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان ملكاً للحرمين[٢]؛ وذلك لأن الحجاز هو قِبلة المسلمين جميعاً. ثم بالنسبة للفاطميين على الخصوص لوجود قبر فاطمة الزَهراء بالمدينة[٣]، التى تنتسب إليها خلافتهم.

ولكن التشيع لم يلق فى الحجاز مثل النجاح الذى لقيه فى اليمن أو البر العربى من الخليج الفارسى؛ بسبب تمسك الخلفاء السنيين بالسيطرة الاسمية عليه. وكان الحجاز قد فقد مركزه السياسى بقيام الأمويين، الذين نقلوا مركز الحكم من المدينة إلى دمشق، فعادت إليه المنازعات القبلية، التى كان الإسلام قد أنقذها منها، وقد استغل الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون ذلك؛ بالإبقاء على سيطرتهم فيه. وهذه البلاد كانت تحظى بزيارة الخلفاء إليها للحج، وإن امتنعوا منذ هرون الرشيد، وكانوا يكتفون بإرسال الكسوة «الشمسية» للكعبة، التى لونها أسود، شعار العباسيين، وكذلك إرسال الهبات والأموال.

ومع ذلك؛ فإنه ظهرت فى الحجاز أسرة علوية غير فاطمية. فظهر بنو الحسن أو الحسنيون أو الطالبيون بمكة[٤]، من نسل الحسن بن علىّ فى أيام الخليفة العباسى المأمون، حيث كونوا فيها دولة السليمانيين، نسبة إلى بنى سليمان بن داوود بن حسن (الحسن) المثنى بن الحسن السّبط بن علىّ، وهى

---

(١) سجل ٥٠ ص ١٦٨.

(٢) المسعودى، مروج الذهب (التحقيق الأوربى) ١ص ٣٦٢؛ انظر متز، الحضارة الإسلامية، ترجمة أبى ريدة، ط ٢، ١ص ٤.

(٣) سفر نامه، ص ٦٦ (فى آخر الصفحة).

(٤) عنهم. العبر، ٤ص ١١، ٩٩ وما بعدها؛ صبح، ٤ص ٢٦٧ وما بعدها؛ انظر. Ency de l'Isl, (art Mekka) t 3, P. 512 sqq.

شيعة إمامية؛ وإن كانوا خطبوا لأنفسهم فى خلافة المقتدر العباسى فى ٩١٣/٣٠١ . ثم استولى أبو طاهر القرمطى على مكة من السليمانيين باسم الخليفة المهدى الفاطمى، أول خلفاء الفاطميين بالمغرب فى ٩٢٩/٣١٧ . ولكن خروج القرامطة على دعوة الفاطميين بعد موت أبى طاهر مهّد لعودة العباسيين، عن طريق ضمها إلى ولاية العباسيين فى مصر، ولا سيما الإخشيديين[1]، الذين كانوا يرسلون للأشراف فيها المال والقمح، وإلا فالويل للحجاج[2] وما لبثت دولة السليمانيين أو الأشراف أن عادت إلى سيطرتها فى أيام كافور، وكانوا يدعون للعباسيين، وإن أصبحوا يعرفون بالموسويين[3]، نسبة إلى موسى بن عبد الله، فرع من السليمانيين، وأيضاً بالأشراف.

أما فى المدينة، فقد كان يقيم أفراد من بنى الحسين بن علىّ، الذين عملوا على تأسيس دولة لهم بزعامة طاهر بن مسلم من أحفاد الحسن بن علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ فى ٩٧٠/٣٦٠[4]، وكانت إسماعيلية. وقد كان لمحاولة الخلافة العباسية السيطرة على هذه البلاد من ناحية، والنزاع بين الحسنيين والحسينيين، وبين بعضهم البعض من ناحية أخرى، أثره مما جعل الحج فوضى.

مهما يكن نجد المعزّ فى الوقت ذاته-الذى كان يستعد فيه لغزو مصر- يتدخل بطريق مباشر فى وقف فوضى الحج؛ نتيجة لنزاع فى مكة بين السليمانيين وجماعة أخرى من الحسنيين من نسل جعفر بن أبى طالب، فأرسل إليهما الأموال الطائلة، لشراء ديات المقتولين من الطرفين فى ٩٥٩/٣٤٨[5]؛ مما مهّد إلى عقد السلام بينهما، ولا ريب أنه كان من أسباب سير الفاطميين إلى الشرق، عزم المعز تأمين الحج[6]، الذى هو فريضة دينية، ويعتبر فى تلك العصور تذكرة الجنة. وحينما تم لجوهر فتح مصر فى ٩٦٨/٣٥٨، أعلن أمير

---

(١) الخطط، ٤ ص ١٥٥.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٥٢.

(٣) هو موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب.

(٤) العبر، ٤ص ١٢؛ انظر. سرور؛ النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ط١، ص ١٤. هو طاهر بن محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن على ابن الحسين بن علىّ بن أبى طالب.

(٥) اتعاظ، ص ١٤٥-١٤٦، ط جديدة، ص ١٠١، العبر، ٢ص ١٠١.

(٦) انظر . صيغة أمان جوهر للمصريين. اتعاظ، ص ١٤٩.

مكة الخطبة للمعزّ على منابرها، وأرسل إليه المعز التقليد من المغرب؛ كما أقيمت الخطبة لهذا الخليفة فى المدينة[1]. ولما انتقل المعزّ من المغرب إلى مصر، عمل على إرسال الكسوة إلى البيت -وتسمى شمسية[2] بعد أن كان يرسلها العباسيون من العراق. ويصف لنا المقريزى أول كسوة فاطمية أرسلت إلى البيت، وهى من الحرير الأحمر، ثبتت فيها الأهلة من الذهب، وكتبت فيها آيات الحج بزمرد أخضر، ورصّعت بالدر كبيض الحمام، وبالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وبخرت بالمسك، وقبل إرسالها نصبت فى أعلى مكان فى قصر المعزّ بالقاهرة.

ويبدو أن دعوة الفاطميين وقفت فى الحرمين فى آخر أيام المعزّ، وأول حكم العزيز؛ بسبب هجوم القرامطة فى مصر والشام؛ وإن ذكر بعد ذلك أن العزيز استولى على مكة من الخلفاء العباسيين. فقد أرسل أحد قواده المغاربة وهو إدريس بن زيرى الصنهاجى أميراً للحاج فى ٩٧٧/٣٦٧، فاستولى على الحرمين، وأقام الخطبة للعزيز[3]. ولا ريب أن الذى ساعده على الدعوة للعزيز فى الحرمين، أن البويهيين المسيطرين فى العراق -وهم شيعة- اعترفوا بإمامته، ولا سيما عضد الدولة البويهى. وقد مهّد التفاهم بين الفاطميين والبويهيين أنه كان يحج العراقيون أيضاً[4]. ونحن نعرف فى عهد عضد الدولة الطريق التى كانت تسلكها قوافل حجاج العراق، وهى من بغداد إلى الكوفة والنّجف والقَادسّية، ومحاذاة نجد حتى الحجاز، حيث مكة.

ولكن الحجاز خرج عن السيطرة الفاطمية فى عهد الحاكم حوالى سنة ١٠٠٩/٤٠٠[5]، حينما أعلن أمير مكة أبو الفتوح الحسنى الخطبة لنفسه، وتلقّب بأمير المؤمنين الراشد بالله، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة،

(١) عن الخطبة فى هذه الأخيرة: عبد القادر الأنصارى، درر الفرائد المنظمة، مخطوطة بدار الكتب، ورقة ٢٠٢ (ينقله سرور). انظر. سرور، النفوذ، ص ١٥.

(٢) إتعاظ، ص ١٩٣؛ انظر.

;Vie du Calife Moézz, P. 172-3 : Quat

; Mekka. Le Haye, 1888-89, P. 53 sqq.: Snouck Hungronje,

ماجد ، نظم الفاطميين، ٢ص ١٣٠-١٣١.

(٣) العبر، ص ١٠١.

(٤) الروذراورى، ص ٥٧.

(٥) عيون الأخبار، ٦/٧ ورقة ٢٤٥، وما بعدها؛ الروذراورى، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ الخطط، ٣ص ٢٥٥-٢٥٦، ٤ص ٧٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٥٢-١٥٣.

وضرب نقوداً باسمه؛ كما استولى على المدينة من الحسينيين. وربما يكون سبب ذلك تحريض الوزير عليّ بن الحسين المغربي، الذى غضب عليه الحاكم لسوء تصرفه، فهرب إلى مكة واجتمع بأبى الفتوح، فحمله على الخلاف. وكذلك نجد أبا الفتوح يذهب إلى الشام للانضمام لعربها الثائرين بقصد غزو مصر، مثلما فعل عرب البحرين من قبل أيام المعزّ . فلما وصل إلى الشام، أجابته طيئ، وخلق عظيم من عرب الشام، وخطبوا له. وقد استخدم أبو الفتوح ما كان يدفعه من أموال لمساعدة عرب الحجاز، وفى استمالة العرب فى الشام؛ كما أنشأ كتاباً قرئ على الناس بألا يقبّل له أحد الأرض، وخطب فى الناس خطبة وصف فيها الحاكم بأنه فرعون علا فى الأرض.

ولكن الحاكم -وكان داهية فى سياسته- أسرع إلى العمل، فاستمال عرب الشام، ولا سيما أن مال أبى الفتوح كان قد نفد، فتفرق العرب عنه. كذلك دس بين أفراد أسرة بنى الحسن، وأنفذ لشيوخها مالاً وثياباً، وكاتب أبا الطيب ابن عم أبى الفتوح. فلما رجع هذا الأخير من الشام-بعد أن تخاذل عنه عربها -اجتمع الناس وأشهد بخلع نفسه، وأن الإمامة للحاكم؛ متنصلاً مما اقترف طالباً العفو. فصفح الحاكم عنه، وما لبث أن جاء أبو الفتوح بنفسه إلى مصر متذللا، وهو راكب حماراً، فأمر له الحاكم، بالكساء وأنعم عليه. أما الوزير علّى المغربى؛ فإنه هرب إلى العراق، وأرسل هو الآخر قصيدة يطلب فيها الصفح؛ فصفح الحاكم عنه، ودعاه إلى الحضور، إلا أنه مات قبل أن يحضر.

ومع ذلك، بقى إحساس أبى الفتوح عدائياً نحو الفاطميين طوال مدة حكمه التى امتدت إلى ١٠٣٨/٤٣٠، وإن لم يعلنه صراحة. كذلك فسدت أحوال عرب مكة(١) ، وتحاربوا مع حسينيى المدينة من نسل طاهر – من أحفاد الحسن–، مما أدى إلى عودة الفوضى فى مكة، وتوقف الحج إليها. فتعطلت قوافل الحج فى أواخر حكم الحاكم وأوائل حكم الظاهر(٢)، حرصاً على سلامة الحجاج، كما انقطع

(١) حسن المحاضرة، ٢ص ١٥٢-١٥٣س ٢٤.
(٢) ابن الجوزى، عجائب البدائع، ورقة ١٤٨.

إرسال الكسوة، وإن نسب أعداءالحاكم تعطل قوافل الحج إلى انحراف الحاكم عن الدين[1]. وحينما ضرب أحد غلاة الحجاج الحجر الأسود بدبوس- أى عصا- اعتقاداً أنه لا يجب تقبيله، ثار العرب بحجاج مصر، ولكن الخليفة الظاهر الفاطمى أسرع بالتملص من هذا الفعل، ونفى حدوثه من حجاج مصر، واتهم به الحجاج من العراق[2]، أو من فرقة النصيّرية الغلاة[3]، وهى فرقة غير فاطمية. ومع ذلك لم يقطع أبو الفتوح الخطبة لخلفاء مصر من الحاكم إلى المستنصر.

ولكن فى أول عهد المستنصر؛ تغيّرت الأحوال فى الحجاز لصالح الخلافة الفاطمية عن ذى قبل. فبعد وفاة أبى الفتوح، تولى ابنه أبو عبد الله شكر فى ٤٣٠/١٠٣٨، الذى جمع الحرمين مثل أبيه، بمحاربة الحسينيين بالمدينة[4]، وقد ظهر شكر بأنه أقل عداوة من أبيه للخلفاء الفاطميين؛ فبايع المستنصر وخطب له طول مدة ولايته فى مكة. فكانت استمالة المستنصر لشكر عن طريق المال الكثير، الذى يدفعه له، فيدفع له ثلاثة آلاف دينار فى الشهر، ويرسل إليه الخيول والخلع مرتين فى السنة فى سفينة[5].

وقد هيأ ذلك تنظيم شئون الحج بشكل لم يحدث قبلاً. فكان المستنصر يرسل الكسوة مرتين كل سنة[6]، مع أنها كانت ترسل مرة فى السنة، ويذكر الرحالة ناصرِ خسرو. أن الفاطميين كانوا يقومون بدعوة واسعة إلى الحج، فإذا أهلّ موسم الحج قرئت فى المساجد مراسيمه، ويكون ذلك فى منتصف رجب وفى رمضان،وهى[7] : «يا معشر المسلمين حل موسم الحج، وسيجهز ركب

---

(١) يحيى، ص ٢٢٤؛ انظر. ماجد ، الحاكم، ص ١٥٣.
(٢) العبر، ٤ص ١٠٢. يقول العينى: «.... طاف هذا الرجل بالبيت، وانتهى إلى الحجر الأسود ليقبله، فضربه بدبوس، وقال: إلى متى يعبد الحجر ولا محمد ولا علىّ، فمن يمنعنى عما أفعل؛ فإنى أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين، وتأخروا عنه، وكان رجلاً طويلاً، أسمر اللون أشقر الشعر، وكان جماعة من الفرسان وقوفاً ليمنعوه... فقتله رجل بخنجر، وتتبعه أصحابه». العينى، تاريخ، ورقة ١٨٣.
(٣) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٦.
(٤) نفسه، صبح ، ٤ص ٢٦٩.
(٥) سفر نامه، ص ٦٨.
(٦) نفسه، ص ٦٦. ربما كانت الكسوة تصنع فى شطا مدينة عند دمياط، اشتهرت بصناعتها أيام سيطرة العباسيين فى مصر. الخطط، ١ص ٣٦٤-٣٦٥؛ معجم البلدان، ٥ص ٢٦٤.
(٧) سفر نامه، ص ٦٥

السلطان كالمعتاد، وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد» . وقد بلغت النفقة على قافلة الحج فى عهد المستنصر ووزيره اليازورى مائتى ألف دينار[1]، مع أنها قبل ذلك كانت مائة ألف وعشرون ألفا، ولم تبلغ هذه النفقة مثل ذلك فى دولة من الدول؛ حيث كانت تشمل ثمن الطيب والشمع، والحماية، والصدقة، وأجرة الجمال، ومعونة خدم القافلة، ومن يسير معها من العسكر، الذين بلغت نفقاتهم فى عهد المستنصر ستين ألف دينار فى اليوم[2] . والواقع أن الفاطميين كانوا يبالغون فى تجهيز قوافل الحج؛ حتى أنهم كانوا يرسلون كل شئ يحتاجه الحجاج، بما فيه الثلج.

وكان الحجاج ينزلون قبل مسيرة القافلة، فى منطقة بقرب القاهرة عرفت من أجل نزولهم بها:«ببركة الحجاج»، فلا تسير قوافلهم منها إلا فى حضرة الخليفة[3] . ويبدو أن هذا المكان كان موضع نزهة أو عبارة عن بركة ماء وحدائق، حيث بنى فيه قنطرة. فكان الخليفة المستنصر فى هذه المناسبة يتجه فى زيِّه الرسمى، وعلى رأسه عمامته بالجوهر، والمظلة– من شعار الأئمة– منشورة عليه، فيجلس فى توديع الحجاج على دكة، تسمى: دكة الوقار[4]. وقد كان الحاج إذا ساروا فى الطريق البرى، يبلغون مكّة فى خمسة وعشرين يوماً، ويمكثون بها عشرة أيام، ثم عيّذاب، ثم يعودون إلى مصر فى خمسة وعشرين يوما[5].

---

(١) الخطط، ٢ص ٣٨٨؛ انظر. الإمام المستنصر، ص ١١٩.
(٢) سفر نامه، ص ٥٦.
(٣) الخطط، ٢ص ٣٨٣، ٣ص ٢٦٥–٢٦٦؛ انظر. ماجد ، نظم الفاطميين، ٢ص ١٣٠–١٣١. عرفت هذه البركة أولا: « بجب عميرة»؛ لأنها كانت معسكراً لعشيرة عميرة من قبيلة تميم، ثم قيل لها: « أرض الجب»؛ ثم عرفت فى العصر الفاطمى: «ببركة الحجاج» من أجل نزول الحجاج فيها.
(٤)أبو صالح، تاريخ الكنائس، ٢٤ص ٣٢. يظهر مما ينقله المقريزى عن ابن ميسر أنه جرت عادة الخليفة المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة مع نسائه وحاشيته إلى « بركة الحجاج»، فيحمل معه الخمر فى روايا كبيرة على الجمال، ليسقيها لمن حوله. ولكننا نشك فى صحة هذه الرواية لأننا لا نعرف عن المستنصر أنه كان ماجناً فاسقاً، ولكن تعصب المؤرخين السنيين، جعلهم يبتدعون حكاية مثل هذه الرواية. كذلك ينكر أبو صالح أن الخليفة فى هذا المكان، كان يحب أن يأكل السمك، الذى يعده له أحد الأقباط، واسمه منصور.
(٥) سفر نامه، ص ٦٦.

ولما حدثت مجاعات بمصر، كان الحجاج يركبون فى النيل من الفسطاط إلى قُوص –مدينة بأقصى الصعيد– ثم الإبل من قُوص فى الصحراء المسماة عَيْذاب، ومن ميناء عيذاب إلى جدة فى البحر؛ حيث يركبون الجِلاب[1]، وهى نوع خفيف من المراكب الشراعية. ومن الطريف أن نذكر أنه لم يحج أحد من خلفاء الفاطميين؛ كما لم يحج أحد من العباسيين منذ هرون الرشيد، وإن كنا نقر بأنا لا نعرف السبب فى ذلك بالنسبة للخلافتين[2].

ويبدو أن القحط فى بلاد الإسلام فى الحجاز بالذات، كان أيضاً العامل الأساسى على وقف الحج واختلاله. فمثلاً لم يحج أحد من مصر فى ١٠٣٦/٤٢٨، وفى ١٠٣٨/٤٣٠؛ كما تعطل الحج من الأقاليم بأسرها، فلم يحج أحد من الشام ولا من العراق ولا من خراسان. وفى سنة ١٠٣٩/٤٣١ التى تليها، تفرد أهل مصر بالحج، ربما لقرب مصر وغناها[3]. وقد بلغ القحط فى الحجاز مداه فى سنتى ١٠٤٧/٤٣٩ و١٠٤٠/٤٤٠[4]، حتى أنه قرئ فى كل منهما على الناس فى مصر المرسوم التالى بمنع الحج: «يقول أمير المؤمنين: إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام، فإن به قحطاً وضيقاً، وقد هلك به خلق كثيرون، وإنى أقول هذا شفقة بالمسلمين». وقد بلغ الأمر بأهل الحجاز أنفسهم أن هاجر منهم إلى مصر خمسة وثلاثون ألف آدمى، فأجرى المستنصر عليهم الرزق سنة كاملة، ولما أمطرت السماء فى بلادهم و كثر الطعام كساهم صغيرهم وكبيرهم، وأغدق عليهم الصلات، ثم رحلّهم إلى الحجاز.

---

(١) الخطط، ١ص ٣٢٦–٣٢٨. عن نوع هذه المراكب: رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، ص٤٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٢٢٥.

(٢) المقريزى، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء الملوك، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٥٥، ص ١٢–١٣، مقدمة، ص ٥٨.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ص ١٥٣.

(٤) سفر نامه، ص ٦٦–٦٧.

بيد أن موت أبى عبد الله شُكر عقّد الأمور للخليفة المستنصر فى الحجاز، فحدثت فترة اضطرب فيها حبل الولاء لبيته، واستمر ذلك إلى آخر عهده. فقد توفى شُكر ولم يعقب، فانتهى بيت الموسويين، وآلت الزعامة فى مكة إلى بيت الهواشم -وهم زيدية- بزعامة محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد (محمد بن أبى هاشم)، وهو زوج ابنة شُكر. فقام محمد بن جعفر[1] بطرد بنى سليمان من الحجاز، فهاجروا إلى اليمن؛ وأخذوا معهم الذهب الذى كسيت به الكعبة، وذلك فى ١٠٦٢/٤٥٤. كذلك يبدو أن بنى مهنى وهم من الحسينيين أيضاً ظهروا فى المدينة، وتمكنوا من الاستقلال بها. ومع أن ابن أبى هاشم بدأ حكمه بإعلان الخطبة للمستنصر؛ إلا أنه مالبث أن عاد وخطب للعباسيين، وأظهر عداءه التام للفاطميين؛ كما فعل أمير المدينة من بنى مهنى[2].

ولكن لحسن حظ المستنصر - فى ذلك الوقت- ظهور الصليحيين الأقوياء فى اليمن[3]، الذين كان لهم فضل إرجاع الدعوة للمستنصر فى الحرمين. فنجد أن المستنصر طلب من علىّ الصليحى إزالة هذه الأسرة المعادية من مكة. وقد أطاع علىّ الصليحى أمر الخليفة، فتوجه فى ذى الحجة من سنة ١٠٦٢/٤٥٤[4]، ودخل مكة هو وزوجته أسماء، التى اصطحبت معها مائتى جارية. ولما دخلها علىّ الصليحى كسا البيت بثياب بيض -شعار الفاطميين- كما رد حلى البيت التى

---

(١) العبر، ٤ص ١١، ١٠٢-٣، ١٢٢؛ صبح، ٤ص ٢٧٠. هو محمد بن جعفر بن أبى هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن أبى الكرام بن موسى الجون بن عبد ابن حسن بن الحسن السبط. العبر، ٤ص ١١-١٢؛ صبح، ٤ص ٢٧٠.

(٢) صبح، ٤ص ٢٧٠؛ العبر، ٤ص ١٠٣.

(٣) انظر. قبله.

(٤) العبر، ٤ص ٢١٥؛ أبو الفدا، المختصر،٢ ص ١٥٤؛ الكامل، ٨ص ٩٦، ١٠٦؛ النجوم ٥ص ١١٢؛ عيون ،٧ ورقة ١٩؛ انظر. الهمدانى، الصليحيون، ص ٩٠ وهامش (٢). يذكر المؤرخون خروج علىّ الصليحى فى ١٠٦٣/٤٥٥، ولكن إدريس يذكر تاريخ ١٠٦٢/٤٥٤. وقد استنتج صديقنا المؤرخ المرحوم الهمدانى صحة هذا التاريخ من سجل ورد فى عيون الاخبار، ومن سجل من السجلات المستنصرية، برقم٧ ص ٤٧-٥٠؛ حيث ورد فيه عودة علىّ الصليحى من مكة، فى شهر ربيع الآخر سنة ١٠٦٣/٤٥٥؛ مما يؤكد ذهابه إلى مكة فى ذى الحجة.. ويؤيد ذلك أيضاً السجل رقم ٤ ص ٣٩، الذى جاء فيه رجوع علّى الصليحى، ووصول خطابين منه للمستنصر، أحدهما صدر من صنعاء فى شهر شعبان سنة ١٠٦٣/٤٥٥، والآخر صدر من الهجر فى شوال من السنة ذاتها.

كان بنو سليمان قد أخذوها، فابتاعها منهم، وهي قناديل الكعبة وستورها، وصفائح باب الكعبة والميزاب[1]. ويذكر المؤرخون أن علياً الصليحي لما ملك مكة جلب إليها الأقوات ورفع الظلم، فأدب القبائل التي تعتدي على الحجاج، وظهرت له أفعال جيدة. ومع أن علياً الصليحي لم يستطع إزالة الهواشم من مكة؛ إلا أنه أخضعهم على ما يبدو وفعلا يكتب محمد بن جعفر إلى المستنصر، يشيد بما فعله على الصليحي[2]؛ كما أن المستنصر شكر علياً الصليحي. كذلك يبدو أن وجود الصليحي في مكة جعل الدعوة الفاطمية تعود إلى المدينة. وقد أراد المستنصر كعادته استمالة الأمير الهاشمي الجديد في مكة؛ فشجعه بمنحه الألقاب والتشريف، فلقبه بلقب: الشريف، الأجل، نسيب الدولة وعزها، مجد المعالي، ذي الفخرين[3].

ولكن محمد بن جعفر أراد أن يستفيد لصالحه من وجود الخلافتين المتنافستين- العباسية والفاطمية- بالاستقلال عن أي نفوذ، ويجمع المال الوفير، وقد وصفه أبو المحاسن بأنه كان خبيثاً متلوناً تارة مع العباسيين، وتارة أخرى مع الفاطميين[4]. وكان علي الصليحي يريد العودة إلى حربه لتأديبه، ولكن بسبب رغبة المستنصر في عدم إراقة الدماء بالحرم، والإخلال بشعائر الحج، والخوف من تدخل العباسيين؛ اضطر إلى الرجوع دون قتال[5]. ولكن محمداً نفسه لم يلبث أن هاجم مدينة حَلْيٍ[6] من مدن اليمن على البحر الأحمر، مع أنه كان للصليحي بها أموال ومتاع، كما خطب للعباسيين. ولما قرر الصليحي الذهاب إلى مكة، قتل كما ذكرنا، على يد عبيد بني نجاح[7].

---

(١) ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٢/١ ورقة ٨٨.

(٢) سجل ٣ص ٣٧.

(٣) سجل ٤٠ ص ١٣٩.

(٤) النجوم، ٥ ص ١٤٠ س ٧-٨.

(٥) سجل ٧ ص ٤٨-٤٩.

(٦) سجل ٤ص ٤٠. عنها؛ انظر. معجم البلدان، ٣ص ٣٣٢.

(٧) انظر. قبله.

وبمقتل عليّ الصليحي قُطع كل ولاء للفاطميين، فاستولى محمدًا بن جعفر على الأموال التي كان الصليحي قد تركها للإنفاق على الحرم، وذلك في ١٠٦٧/٤٦٠[1]. ولم يلبث أن أرسل محمد بن جعفر ابنه إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان في ١٠٦٩/٤٦٣[2]، ليساومه في إعلان الخطبة للقائم العباسي، وقطعها للمستنصر الفاطمي. فأرسل إليه السلطان مبلغ ثلاثين ألف دينار وخلعة، وأجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار، ووعد أمير المدينة مثل ذلك إن فعل ذلك، فيأخذ عشرين ألف دينار، وفي كل سنة خمسة آلاف دينار. ويبدو أن أمير المدينة لم يقبل؛ فما كان من محمد بن جعفر إلا أن زحف بمساعدة الأتراك السلاجقة إلى المدينة، وأخرج منها بني الحسين[3]. ويذكر المؤرخون أن الخطبة للقائم استمرت حوالي أربع سنوات أو خمسة[4]، وإن استمر الأذان في مكة: بحيّ على خير العمل- وهو أذان الفاطميين- واعتبره محمد بن جعفر أذان عليّ ابن أبي طالب[5].

ولكن لما توفي القائم العباسي، وتولى المقتدي العباسي، سعى المستنصر من جديد لإعادة الخطبة باسمه في الحرمين. فأراد استمالة محمد بن جعفر؛ بأن أرسل إليه هدية جليلة، وكتب إليه في ١٠٧٤/٤٦٨: «إن إيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان، وقد ماتا[6]». كذلك أمر المكرّم -واليه على اليمن- بحمل عشرة آلاف دينار كدفعة أولى إلى محمد بن جعفر في ١٠٧٥/٤٦٨: «تلمظهم بنفقة من عندك يتمززون بها»[7]، وذلك مع الوعد بإرسال المقرارت إليهم. وقد دعا ذلك ابن جعفر إلى أن يقطع الخطبة للعباسيين، ويعيدها للمستنصر[8]. وفي ذلك الوقت كان المكرّم قد تمكن من تنظيم أحوال اليمن، التي

---

(١) سجل ٤٠ص ١٣٩.

(٢) الكامل، ٨ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) العبر، ٤ص ١٠٣؛ صبح، ٤ص ٢٧٠.

(٤) ابن ميسر، ص ٢٤.

(٥) النجوم ٥ص ٨٩؛ انظر. سرور، النفوذ الفاطمي، ص ٢١.

(٦) الكامل، ٨ص ١٢١.

(٧) سجل ٦٢ ص ٢٠٣.

(٨) سجل ٥٧ ص ١٨٧-١٨٨.

اضطربت بسبب مقتل عليّ الصليحي، فاستولى المكّرم على المدينة وخطب فيها للمستنصر، في ٤٦٩/١٠٧٦[1]. ويبدو أن السيطرة الفاطمية على الحرمين عادت- كما كانت أيام عليّ الصليحي- حتى أن المستنصر في سجل صدر عام ٤٦٩/١٠٧٦؛ جعل الأعمال الحجازية واليمنية واحدة[2].

ولكن محمد بن جعفر عاد إلى قطع الخطبة للفاطميين في سنة ٤٧٠/١٠٧٧، وعاد إلى التلون والمساومة[3]. فخلع الصفائح التي كانت باسم الخليفة المستنصر على باب الكعبة، وكتب عليها اسم المقتدي بالله العباسي. فأرسل المقتدي بالله أميراً للحج من الترك، فكان هذا تقليداً جديداً. ثم أعاد ابن جعفر الخطبة للمستنصر، ثم عاد للخطبة للمقتدي العباسي، ولما بويع للمستظهر العباسي بن المقتدي خطب له أيضاً. ويبدو أن شجعه على ذلك ضعف الصليحيين، ولا سيما بعد موت المكّرم. ومع ذلك؛ فإن مشايخ اليمن وعلى رأسهم عبد المستنصر بن المكرم، قرروا مهاجمة الحجاز[4]، ولكنهم كانوا أضعف من أن يفعلوا ذلك. وقد ترتب على إطلاق يد محمد بن جعفر في شئون الحج أن ساءت أحواله، ولا سيما أنه كان لا يتردد في سلب الحجاج وقتلهم. وقد بقي محمد بن جعفر متلوناً سفاكاً لصاً إلى وقت وفاته في ٤٧٨/١٠٩٤؛ بحيث فرح المسلمون بموته[5]، وإن توقف نفوذ الفاطميين فيها بعد ذلك إلا من فترات قصيرة[6].

من هذا يتبيّن أنه كانت هناك منافسه شديدة بين خلافتي العباسيين والفاطميين للخطبة لهما في الحرمين، ولتوطيد نفوذهما في دار الإسلام،ولكن حكام مكة الخصم الثالث، استفادوا من هذه المنافسة للاستحواذ على المال والنفوذ.

*

(١) المنتظم، ٨ص ٣٠٤.
(٢) سجل ٥٤ ص ١٧٧.
(٣) العبر، ٣ص ١٠٣.
(٤) سجل ٢٢ص ٨٣.
(٥) النجوم، ٥ص ١٤٠؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٣/١٢ ورقة ٣١٤.
(٦) صبح، ٤ص ٢٧٠.

أما سياسة الفاطميين الحربية نحو جنوب الوادى، فهى امتداد لسياسة مصرية ترجع إلى عهد المصريين القدماء. فقد كانت هذه المنطقة قديماً يطلق عليها تا-نحسو[1] أى أرض السود، ثم أطلقت وات على الجزء الشمالى، وكوش على الجزء الجنوبى منها، مثلما أن شمال مصر عرف بمصر السفلى، وجنوبها بمصر العليا، وهذه المنطقة استوطنها المصريون القدماء منذ الأسرة السادسة، ثم نقلوا إلى سكانها لغتهم وديانتهم وحضارتهم[2].

ويبدو أنه بعد العصر الفرعونى، انتقلت إلى هذه المنطقة هجرات من داخل أفريقيا، يسميهم العرب: «أساود»[3] أو «النوبة»[4] أو «البرابرة». مجهولة الأصل، تجرى فى عروقهم الدماء الزنجية، وتتكلم لغة خاصة، استطاعت أن تكون فى جنوب مصر عدة ممالك ذكرها الرحالون العرب وغيرهم منها:[5] النوبة "Nobatae" ، ومقّرة Makoritae ، وعلوة، أو علوا "Alodaie" ، أما شرقى النوبة ، بين النيل والبحر الأحمر فكان يسكنه عنصر بدوى أسود يعرف بالبُجة أو البُجاة، وهم البليميون "Blemonyes" . وكما فى العهد الفرعونى حرص المصريون المسيحيون على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية أو اليعقوبية بينهم[6]، وذلك على

---

(١) انظر. Drioton et Vandier : L'Egypte, P. 3.
يذكر الإدريسى أنه وجد بالسودان بلدة اسمها كوشة. انظر. المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق de Coeje و Dozy ، ط Leyde ، ١٩٦٦، ص ١٤.

(٢) انظر. Driot et Vand : Op, Cit. P. 208; 377-378.

(٣) معجم البلدان، ٤ص ٨٢ ص ٩. يطلقه العرب على سكانها.

(٤) نفسه، ٨ص ٣٢٣ ؛انظر أيضاً: Mac Michael :
A History of the Arabs in the Sudan. Cambridge, 1923, P. 14 sqq;
Islam In the Sudan. London, 1949, P. 39. : Trimingham;
Ency. de Isl, (art Nûba) t3, P. 1008 sqq.

يقول ياقوت إن ملوكهم من حمير.

(٥) معجم البلدان، ٨ص ٣٢٣؛ الخطط، ١ص ٣١٣، ٣١٨، ٣٢٠؛ الأدريسى، المغرب وأرض السودان، ص ١٣-١٤ و ٢٠-٢١ و ٢٦؛ انظر.
Ency de l'Isl, (art Alwa) 2 ed t I, P. 425; (art Bedja) I ed, t I, P. 705;
ومصطفى سعيد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٥٦-٥٧ [يذكر مصادر قديمة].

(٦) سعيد بن بطريق ٢ص ٤٦؛ انظر. Bonet-Maurg :
Le Christianisme en Afrique, P. 46.

الرغم من أن البيزنطيين كانوا يعملون من جانبهم على نشر عقيدتهم الملكانية[1]، ويعارضون انتشار العقيدة المصرية. ولكن بقيت أغلبية سكان جنوب الوادى تعيش عيشة بدائية، فهم عراة لا يلبسون شيئاً، ولا ديانة لهم إلا الاعتقاد فى السحر، وفى بعض عقائد الأجداد الفطرية[2].

بعد ذلك تأتى مرحلة الفتح العربى، ويستحسن أن نعرض لها بشئ من التفصيل، نظراً لأهمية الشروط التى وضعها العرب لتنظيم العلاقة بين الشمال والجنوب، وهى الشروط التى حددت العلاقة بينهما طوال العصور الوسطى، ومع أن معلوماتنا عن غزوات العرب الأولى للجنوب مضطربة؛ إلا أنه من المؤكد أن عمرو بن العاص، أرسل حملته بعد فتح مصر فى ٢١/٦٤٢[3]. ولكن النوبيين قاوموا هذه الحملة؛ بحيث اضطر العرب إلى التقهقر بعد أن لحقت بأغلبيتهم الجراحات وفقدوا حدقهم من سهام النوبيين، حتى أنهم سموهم: « رماة الحدق»[4]. وفى عهد الخليفة عثمان، توجه عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح بحملة قوية نحو النوبة فى سنة ٣١/٦٥٢[5]، استطاعت أن تصل إلى دنُقلة أو دُمقلة[6]، التى على ما يظهر كانت وقتئذ عاصمة النوبة ومقره متحدتين[7]، فوضع أمامها المنجنيقات ، ودمر الكاتدرائية. لذلك سعى الملك المسمى قليدوروث (قليدوز) إلى طلب الصلح[8]، وقبل ابن أبى سرح -الذى أنهك القتال جيوشه-

(١) انظر. Ency de l'Isl, t3, P. 1009.

(٢) انظر. Ency. de l'Isl, (art Sudan) t4, P. 519.

(٣) الخطط، ١ص ٣٢٣س٥.

(٤) فتوح البلدان، ص ٢٣٧؛ انظر. Quatremere :

Mém, Sur l'Eg. et sur qnelques Contrées Voisines. Paris, 1811, 2, P. 42 Suiv

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ١٨٨.

(٦) مدينة كبيرة على شاطئ النيل. معجم البلدان، ٤ص ٨٢، ٨ص ٣٢٣.

(٧) لقب ملك النوبة يدل على ذلك. نفسه، ٨ص ٣٢٣.

(٨) الخطط، ١ص ٣٢٣ س ١١.

عقد الهدنة. فاتفق الطرفان على ما عرف بالكلمة المبهمة: «بقط»[1]، وهي أن يكون بينهما هدنة وأمان، وأن تحمل النوبة كل سنة إلى ولاة مصر ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق غير المعيب المتوسط العمر. ويبدو أن النوبة تعودت من جانبها- وإن لم تذكر المعاهدة ذلك- أن تأخذ من مصر قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً عند دفع البقط.[2] ومثل هذا الاتفاق جعل أهل النوبة في نظر العرب: « مصالحين[3]». وهو ما عرّفه الفقهاء باسم : « أهل العهد»[4]. فكانت هذه أول مرة يوافق فيها العرب على التحالف مع دولة غير إسلامية، والسبب في هذا أن النوبة لم تهزم.

وقد ترتب على عقد هذه الهدنة أن زاد نفوذ الكنيسة المصرية في النوبة، وهي التي أصبحت وحدها مسيطرة في مصر بسبب زوال الدولة البيزنطية؛ بحيث إنه لما طلبت النوبة إرسال أساقفة، أرسل إليهم البطريرك المصري أساقفة من اليعاقبة[5]؛ كما امتد نفوذ هذه الكنيسة حتى علَوة (علوا) في الجنوب[6]. وفوق ذلك تحولت الحبشة التي كانت حليفة بيزنطة، وعلى عقيدتها إلى اليعقوبية

(١) نفسه، ١ص ٣٢٢ وما بعدها؛ فتوح البلدان، ص ٢٣٧-٢٣٨، ابن عبد الحكم، ص ١٨٨؛ انظر. حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة ١٩٤١، ص ٢٧٨-٢٧٩؛ سيده كاشف، مصر في فجر الإسلام،ص ١٥ وهامش (٥)؛
Ency. de l'Isl, (art. Bakt) t I, P. 621.
أصل هذه الكلمة غير واضح؛ فلعلها من العربية «بقط»؛ بمعنى البقل والعشب (الخطط، ١ص ٣٣٢)، أو من اللاتينية: (Pactium) أي اتفاق. انظر . Trimingham L'Islam in the Sudan. London 1949 P. 62.).
أو من الكلمة المصرية القديمة «باك» بمعنى عبد (انظر. Ency. de l'Isl, TI, P. 621). وهذا العهد لا يشمل علوة، وإنما النوبة إلى حدود علوة فقط (الخطط، ١ص ٣٣٤)؛ وإن كتب عهد مشابه مع البجه. المصدر السابق، ١ص ٣١٦.

(٢) الخطط، ١ص ٣٢٤ س ٧-٨.

(٣) نفسه، ١ص ٣٢٤س ٢٦.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٣؛ انظر Cheira :
Les Statuts des Pays des Ahd, aux 7 e et 8 e Siècles. Annals of the Fac of arts. Ibrahim Univ Vol 1. 1951, P. 43 sqq.

(٥) الخطط، ٤ص ٣٩٥-٣٩٦.

(٦) سعيد بن بطريق، ٢ص ٤٦ س ٢-٣.

المصرية، فكانت مصر ترسل إليها أساقفتها أيضاً، وكان ملكها يلقّب: « بأوحد ملوك اليعقوبية»[1]، وما زالت الحبشة تخضع روحياً للكنيسة القبطية حتى الآن. ولا ريب أن بقاء النوبة مسيحية فترة طويلة، كان سبباً فى أن الإسلام لم ينتشر فى أعماق قارة أفريقيا؛ بحيث إن بعض سكانها مازالوا وثنيين إلى الآن.

وقد كان من نتائج تحول النوبة، وما حولها إلى مذهب اليعقابة المصرى، أن أصبح أهلها سنداً لانتفاضات المصريين ضد ولاتهم المستبدين. فكان ملك النوبة يأتى لمحاربة الولاة، أو يقوم بتأخير البقط؛ ففى مرة، فى أيام الأمويين، جاء ملك النوبة إلى مصر على رأس مائة ألف، بسبب أن الوالى عبيد الله(عبد) ابن الحبحاب[2]، كان سجن البطريرك المصرى بسبب جباية الجزية؛ مما اضطر الوالى إلى إطلاق سراح البطريرك. ولكن لما بدأ الإسلام ينتشر بين المصريين؛ فإن الولاة فى مصر كانوا يهاجمون فى النوبة؛ كما كان ملك النوبة يغزو فى مصر فى وقت الضعف. ومن ناحية أخرى؛ فإن الإسلام انتشر بين البجة فى وقت مبكر منذ عهد الأمويين[3]، وهم[4] نوع من بدو السودان يقيمون بين النيل والبحر الأحمر، ومن أهم قبائلهم الإسلامية، العبابدة والبشاريون والهندودة... وقد أصبح انتشار الإسلام بينهم تاماً؛ حينما أرسل ابن طولون-والى مصر من قبل العباسيين- قبائل بدوية من ربيعة وجهينة[5]، كانت انتقلت من الفرات إلى مصر؛ كما أن ابن طولون نفسه استخدم كثيراً من السود فى جيشه[6].

وحينما جاء الفاطميون مصر، كان من المنتظر، وهى دولة جاءت للجهاد، أن تحارب النوبة المسيحية؛ لكن هذا الجهاد لم يوجه ضد النوبة؛ لوجود اتفاقية البقط السابقة. ثم إنه لم يكن يوجد خوف من اتفاق النوبة مع الروم- الأعداء الألداء

---

(١) صبح الأعشى، ٦ص ٨٥.

(٢) الخطط، ١ص ١٢٧.

(٣) نفسه، ١ص ٣١٥ س ٢٦.

(٤) ابن جبير، رحلة، ص ٣٣؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art Bedja) 2 ed t I, d, 1192-3.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٥.

(٦) الخطط، ١ص ١٥٢ س ٦ وما بعدها؛ وقبله.

للإسلام وقتئذ– بسبب اختلاف مذهب كل منهما عن الآخر، ولخضوع كنيسة النوبة وما حولها لبطريرك مصر القبطي. لذلك سادت علاقات طيبة بين مصر والنوبة بمجيء الفاطميين؛ فقد أرسل جوهر–قائد الفاطميين– لما فتح مصر رسوله إلى چورچ الثانى ملك النوبة، يطالبه بدفع البقط[1]، على أساس أن الفاطميين أصبحوا حكام مصر، فاستجاب له ملك النوبة. كذلك كان الآباء البطاركة المصريون يكاتبون ملوك النوبة والحبشة دفعتين فى السنة؛ بما يعنى استقامة أحوال الكنيسة فى مصر، ويرسلون لهم أساقفة من مصر[2]. واحتياطاً، نجد أن الفاطميين، يقيمون بصفة دائمة فى ثغر أُسوان من ناحية الشلال الأول رجالا من العسكر[3]، مستعدين بالأسلحة، لحفظ الثغر، وكفالة حكمه لوالٍ مصرى أو لرئيس قبيلة ربيعة الذى لُقّب بكنز الدولة[4]، منذ عهد الحاكم؛ بحيث ما لبث أن ظهرت أسرة أو دولة داخل الدولة. عرفت بدولة الكنز أو الكنوز أو كنوز الدولة، اتخذت أُسوان عاصمة لها.

ومع ذلك،ففى خلال خلافة الحاكم حدث سوء تفاهم مع ملك النوبة؛ بسبب أن هذا الخليفة طبّق الشروط العمرية[5]، التى وضعت لتحديد علاقة المسلمين بأهل الذمة، منذ أيام عمر بن الخطاب، فميّز القبط واليهود بعلامات خاصة «غيار»[6]، وهدم كنائس القبط الملكانية[7]، الذين هم على عقيدة بيزنطة،

(١) المقريزى، المقفى، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٣٢٧ تاريخ، المجلد الرابع، ورقة ٢٢٧؛ انظر. مصطفى مسعد، فجر الإسلام والنوبة، ص ١٣٢.
(٢) أبو صالح، الكنائس، ١٢٤ (١٠٦).
(٣) الخطط، ١ص ٣٢١.
(٤) أبو صالح، كنائس، ص ١٢٨؛ انظر. عوض خليفات، مملكة ربيعة العربية فى وادى النيل، عمان ١٩٨٣.
(٥) وفيات، ٣ص ٥س ١٤؛ الكامل، ٧ص ٢٤٠ وهامش؛ انظر. ماجد الحاكم، ص ٩٥ وما بعدها. عن الشروط العمرية، انظر بتفصيل: ابن قيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، تحقيق صبحى الصالح، دمشق ١٩٦١.
(٦) من مصادر متعددة: يحيى (شيخو)، ص ٨٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢–٢٠٣؛ سير الآباء، ٣ ورقات ٥٤–٥٥؛ ابن حماد، ص ٥٢؛ الخطط، ٤ص ١٥٧– ١٥٨. وذلك بوضع زنانير ملونة، ولبس العمائم السود، وتلفيعات سوداء. بتفصيل، انظر. ماجد، الحاكم، ص ٩٧.
(٧) الخطط، ٤ص ٣٩٩ س ٢٥.

واستولى على أوقافها، وخيّرهم فى الهجرة، إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة[1]، وهدم كنيسة القيامة؛ كما ذكرنا. وفوق ذلك منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة أو الحبشة، أو حتى مكاتبة ملوكها، حتى بلغ من قلة أساقفة هذه البلاد، أن اغلقت كنائسها أبوابها[2]. فنجد ملك النوبة يتراسل مع ملك الحبشة بشأن قبط مصر[3]، ولا يبدو إطلاقاً أن هدم كنيسة القيامة أثار ثائرتهما، مثلما أثار ثائرة الروم ونصارى الفرنجة على الخصوص. ولكن الحاكم سرعان ما كف عن تطبيق هذه الشروط[4]، وأعاد للنصارى كنائسهم وأوقافها، بل وسمح لمن أسلم بالرجوع إلى دينه[5]. وربما يكون تراجع الحاكم لخوفه من أن تساء معاملة المسلمين فى البلاد النصرانية، حتى أن ملك الحبشة كان يجعل مسلمى بلاده يدفعون الجزية، ويضع حول أعناقهم الحديد، وعليه ختم الملك. فكان الحاكم إذا حضر كتاب من ملك الحبشة أو النوبة أمر البطريرك بمكاتبتهما بما للنصارى من الجلالة والإكرام فى بلاده[6]، ويدعوهما أن يستوصيا بالمسلمين تحت رعايتهما. ومن الجدير بالذكر أن الحاكم وضع سياسة نشر الإسلام فى النوبة، وشجع أسرة الكنوز العمل على ذلك؛ بحيث أصبحت النوبة تُعرف باسم بلاد الكنوز[7].

وقد بلغت العلاقات الطيبة أوجها بين الفاطميين والنوبة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى؛ بسبب أن أمه كانت نوبية سوداء، وهو نفسه أسمر اللون، فاستكثر من جند السودان، الذين صار عددهم زيادة على خمسين ألفاً أو ستين ألفاً[8]، نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشراء أو الشرى[9]، أى

---

(١) الكامل، ٤ص ٢٤٠، سير الآباء، ٣ ورقة ٥٦.
(٢) أبو صالح، كنائس، ص ١٣٤ (١٠٧ب).
(٣) سير الآباء، ٣ ورقه ٥٠؛ انظر . ماجد ، الحاكم ، ١٠٤.
(٤) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٨-٢٢٩.
(٥) نفسه، ص ٢٣٢ س ٥-٦.
(٦) أبو صالح، كنائس، ص ١٣٤(١٠٦ب).
(٧) ابن شاهين، زبدة . ص٣٣؛ النجوم، ٦ص ٥٤؛ انظر القوصى، الكنوز، القاهرة ١٩٧٦.
(٨) الخطط، ٢ص ١٣٨س ٩-١٠.
(٩) سفر نامه، ص ٥٣؛ انظر. ماجد، نظم، ١ص ١٩٩-٢٠٠.

الذين يشترون بالمال؛ فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء البجة لبيعهم للفاطميين(1). وقد سكنت طوائف السودان فى وقت المستنصر حارات عديدة معروفة فى القاهرة، مثل: الحسينية والفرحية والميمونية والريحانية، وكانت الريحانية وحدها عدة حارات(2). وقد سيطر السودان فى دولة الفاطميين إلى وقت سقوطها، حتى أن الخليفة الفاطمى عرف بهم: صاحب السودان(3). وفى عهد الخليفة المستنصر؛ حينما ترك سلمون النوبى المُلك لابن أخته جرجه؛ لينفرد هو للعبادة والنسك، دُعى سلمون إلى مصر؛ حيث تلقاه رجال الدولة المصريون بالطبول والبوقات، وأكرم فى مصر إلى وقت موته(4). وربما أن الدولة العباسية حرضت ملك النوبة على الامتناع عن دفع البقط، ولكن ملك النوبة لم يوافق، وعلى العكس أرسل الهدايا إلى سلطان مصر، وبالتالى لم يذهب جيش مصر إلى النوبة ليؤذى أهلها.

وقد استمرت علاقة النوبة بالفاطميين علاقة ودية؛ فكان ملك النوبة يرسل البقط، وحتى الهدايا، التى أرسلت إلى العاضد آخر الفاطميين. كذلك بقى تاريخ النوبة لا يتغير، حتى مجئ المماليك، الذين عملوا على غزوها بإرسال القبائل العربية(5) نحوها؛ مما جعلها تتحول إلى الاسلام، وبذلك أصبح السودان جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى المسلم، من وقت المماليك.

*

بقى أن نعرف سياسة الفاطميين نحو المغرب، الذى تركوه إلى مصر، ليتخذوها قاعدة لهم فى تنفيذ خططهم فى المشرق؛ إذ لم تكن بلاد المغرب إلا خطوة تمهيدية فى البرنامج الذى وضعوه لأنفسهم. ولعل عدم تمسك الفاطميين بالبقاء فى المغرب راجع للأسباب الآتية:

أولاً: انزواء المغرب فى ركن قصى بعيد عن قلب العالم الإسلامى. وقبل الفاطميين نجد روما لا تتمسك باستعمار المغرب بقدر رغبتها فى القضاء على

(1) سفر نامه، ص 73.
(2) الخطط، 3ص 33-34.
(3) على الخصوص المصادر الصليبية؛ أنظر.
(4) سفر نامه، ص 71.
(5) المقريزى، البيان والإعراب، تحقيق عبد الحميد، القاهرة 1971 .

قرطاجنة، كما أن العرب أنفسهم تأخروا فى فتح المغرب إلى عهد الأمويين، وحتى الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر، لم يكونوا فى أول الأمر متحمسين للبقاء فيه، وإن زادت أهمية المغرب بعد ذلك فى أعينهم، حتى تمسكوا بالبقاء فى كل أجزائه.

ثانيا: إن الفاطميين لم يسلس لهم حكم المغرب؛ بسبب وجود عناصر معادية لهم فيه. فهم أنفسهم لم ينشئوا خلافتهم فيه إلا بالاستفادة من عداء عنصرى بين سكانه، الذين يتكونون من البتر أى البدو، ومن البرانس أى الحضر. ويظهر أن الفاطميين نجحوا فى ضم البرانس من صِنهاجة وكِتامة فرعها على الخصوص إلى دعوتهم، وفشلوا فى ضم البتر من زناتة وغيرهم، الذين يسكنون من أواسط المغرب إلى المحيط الأطلسى، وبقوا أعداء لدعوتهم. فلعل المعزّ لم يستطع أن يحكم المغرب، كما يجب، وليس أدل على ذلك من وصفه سكان المغرب بقوله:«الهمج الرعاع»(1).

ثالثا: أنه كانت توجد دول فى المغرب، تقف موقفاً معادياً منهم، منها: دولة بنى مدرار أو بنى واسول الصفرية فى سجِلْمَاسة، ودولة الرستمية الأباضية فى تَاهَرت، وكلتاهما من الخوارج، ودولة الأشَراف الأدارسة فى المغرب الأقصى حول فَاس وتِلْمسان، وهى دولة علويّة زيدية غير إسماعيلية، وإن كانت غير ثابتة على مبدأ واحد، وأن رعاياها كانوا من السنة ومن ورائها توجد الدولة الأموية فى الأندلس، التى تحولت إلى خلافة فى عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٥-٣٥٠/٩١٧-٩٦١))، عقب إعلان الفاطميين خلافتهم فى إفريقية؛ حيث كان عداؤها للفاطميين، امتداداً للعداء القديم بين بنى هاشم وبنى أمية. لذلك ما أن استقر الفاطميون فى إفريقية؛ حتى أخذت الدولة الأموية فى الأندلس تعاديهم، تارة بإثارة القبائل البتر من زناتة، وتارة بالتقرب من الأدارسة. ولقد أصبحت قُرْطُبة مركزاً للدس ضد الفاطميين، الذين يُلعنون(2) من على منابرها. بل سعى الأمويون إلى الاستيلاء على سَبتة، وهى مدينة ذات موقع استراتيجى هام فى المغرب.

---

(1) نفسه، ص ١٠٧.

(2) المجالس والمسايرات، تحقيق، ١ص ١٧٦ وما بعدها.وهو ما يلومه المعزّ عليهم.

فكان هؤلاء الأعداء جميعاً يجابهون الفاطميين منذ وصولهم إلى شمال إفريقيا، وكادوا ينجحون في القضاء عليهم بثورة يزيد بن مخلد بن كيداد، المعروف بصاحب الحمار، الذي تزعم قبائل البتر كما ذكرنا، وكان يرسل بأنباء نصره على الفاطميين إلى الأمويين أولاً بأول؛ بحيث أنه لم يبق للفاطميين في أثناء فتنته غير المهّدية، التي كانت قد بناها المهدي عبيد الله بعد فتحه إفريقية،. وقد شغل هؤلاء الأعداء جميع خلفاء الفاطميين إلى وقت انتقالهم إلى مصر.

وقبل أن يرحل المعزّ إلى مصر ذهب بنفسه لمقاتلة الثائرين في جبل أَوْرَاس[1]، التي تقع في جنوب بلاد إفريقية، وهي منطقة مملوءة بالأحراش؛ كما توجه قائده جوهر في ٩٥٨/٣٤٧[2]، ليهزم الخوارج في تَاهرت، وليقتل ثائراً في سِجِلْمَاسة لقّب نفسه بالشاكر بالله، ويناديه أصحابه بأمير المؤمنين، ووصل إلى المحيط الأطلسي؛ حيث اصطاد من سمكه، ووضعه في قلال أرسلها إلى خليفته المعزّ، دلالة على سيادته على كل المغرب، وإن عاد إليه من جديد في ٣٤٩/ ٩٦٠. وبعد سفر جوهر إلى مصر، سار المعز بنفسه من جديد في ٩٦٨/٣٥٨[3]؛ لمحاربة شخص اسمه أبو خزر الزناتي، الذي لم يلبث أن دخل في طاعته.

ويظهر أن المعزّ تردد في كيفية حكم بلاد المغرب إذا ما تركها إلى مصر، وخير وسيلة للاحتفاظ بها. وقد أُقترح عليه أن يترك أحد أولاده ليحكم في المغرب، ولكن المعزّ لم ير ذلك؛ فالمغرب لم يستقر بعد وهو فيه، فما باله بابنه. كذلك فكر في أن يوليه لأسرة أندلسية مخلصة لبيته، وهي أسرة عليّ ابن حمدون الجذامي، الذي وفد إلى المغرب من الأندلس، واتصل بالمهدي ثم القائم، وقتل في فتنة يزيد عام ٩٤٥/٣٣٤، وكان لأولاده فيها جولات دفاعا عن الفاطميين. فأراد أن يوليه لجعفر بن عليّ بن حمدان، أمير الزاب، وكان ابن هانئ الأندلسي الشاعر[4] مدحه؛ مما يدل على قيمته، لولا أنه وجد معارضة من

---

(١) نفسه، ص ٨٤.

(٢) العبر، ٤ص ٤٦.

(٣) سيرة جوذر، ص ١٠٧-١٠٩؛ الكامل، ٧ص ٣٥.

(٤) ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط، يشمل القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤، ص ٦٦.

المغاربة في أن يتولى عليهم أحد الأندلسيين، فضلاً عن أن جعفراً لم يوفق في رده على المعزّ لما اقترح عليه ولاية المغرب؛ إذ قال: اترك معي أحد أولادك أو إخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر، ولا تسأل عن شيء من الأموال، لأن ما أجبيه بإزاء ما أنفقه، وإذا أردت أمراً فعلته دون أن انتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره لي...». ولقد غضب المعزّ وقال: «يا جعفر عزلتني عن ملكي، وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمرى، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظك»[1].

وفهم المعزّ نوايا أهل المغرب في أن يحكمه أبناؤه، ووجد في ذلك خير وسيلة للاحتفاظ به، وخصوصاً أن المغرب لم تحكمه أسرة مغربية على كثرة ثوراته منذ الفتح العربي، وإنما كانت تحكمه أسر تأتيه من الخارج من شيعة وخوارج. فأراد المعزّ قبل مغادرته المغرب، أن يعبر عن جميله للمغاربة، الذين ساندوا دولته، بأن يترك شئون المغرب لأهله. ولم يول المعزّ حاكماً من قبله من كتامة، مع أنها أشد القبائل المغربية تعلقاً بالفاطميين- كما يظهر من وثائق «توقيعات» الخلفاء الأوائل بالمغرب- بحيث كانوا كالخراسانيين للعباسيين، حتى يقول المنصور أبو المعزّ: «أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا، يا كتامة[2]»، ذلك لأن المعز أخذ معظم كتامة معه إلى مصر. ولكن المعزّ أعطى المغرب لصنهاجة[3] بالذات، لأنها لم تكن مجرد قبيلة، وإنما كانت شعباً عظيماً يتألف من بطون بلغت السبعين، حيث كانت كتامة فرعاً منها، وهي قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه، وتنقسم قسمين عظيمين، أحدهما قريب من الساحل، والآخر يسيطر على جنوب المغرب حتى السودان، وكانت منهم جماعات بترية أشهرها الطوارق، التي لا تزال باقية إلى الآن. يضاف إلى ذلك أن صنهاجة، أظهرت إخلاصاً في أيام نشأة دولة الفاطميين في المغرب، وإذ كان معظمها من الحضر أو ما يعرف بالبرانس- ربما لتميزهم بزيّ البرنس- في عداء ضد البتر من قبيلة زناتة،

(١) العبر، ٤ص ٣٢و ٨٢-٨٣.

(٢) أبو على منصور، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق كامل حسين وشعيرة، ص ٥٩. عنهم: العبر، ٦ص ١٤٨ وما بعدها؛ قبله.

(٣) عنها: العبر، ٦ص ١٥٢ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art Sanhâdja) t 4, P. 158.

انصار الأمويين بالأندلس أعداء الفاطميين؛ إذ يظهر ان عداء صنهاجة لزناتة يمتد إلى قديم الزمان(١).

وقد وقع اختيار المعزّ على أبى الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى(٢)، ذلك لأن أباه زيرى(٣)، كان من زعماء صنهاجة مثل أبيه مناد، واظهر إخلاصه فى الساعات المخيفة وقت ثورة يزيد بن مخلد، كما أثبت ولاءه فى حملاته فى المغرب مع جوهر. واشتهر يوسف أيضاً باسم: بلُكّين أو بلقين، كما منحه المعزّ لقب، أمير إفريقية ٣٦١/٩٧٣، وجعل خاتمه فى يده(٤)، فكان بلّكين مؤسساً للبيت الزيرى. وقبل أن يترك المعز المغرب، وضع شروطاً على بلُكين، تكفل بقاءه وخلفه من بعده خاضعين للخلافة الفاطمية. فجعل المعز القضاء والخراج فى بلاد المغرب تابعين لخلافته بالقاهرة؛ بحيث إن سجلات القضاة بمصر كانت تشمل المغرب، كما أنه عين عاملا لجباية الأموال، وأن تكون العملة باسم خلفاء الفاطميين. وفى الوقت ذاته، فصل طرابلُس وبرَقة، وجعل عليهما ولاة من الكتاميين خاضعين له مباشرة. وكذلك رسم السياسة التى يجب أن يسير عليها بلُكين، وهى عدم رفع السيف أو الجباية عن البتر من أهل البادية -يقصد قبيلة زناتة بالذات- ومعاملة البرانس (أهل الحاضرة) معاملة خاصة، وكلفه بأن يقوم بحملة ضد البتر لإرهابهم، حتى لا ينتهزوا فرصة خروجه إلى مصر للاستيلاء على المغرب(٥)وأخيراً أمره الا يولى أحداً من إخوته وبنى عمه؛ فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منه.

بقى بلُكّين على سياسة التبعية للمعزّ، بعد انتقال الخلافة إلى مصر، واستمر على إخلاصه للعزيز بن المعزّ؛ فأعلن بلكين للعزيز الطاعة، وأرسل إليه

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٦٢.

(٢) العبر، ٦ص ١٥٥-١٦٠. عنه؛ وفيات، ١ص ١٦٤؛ حسن محمود، بنوزيرى وسياستهم الداخلية؛ أنظر.

(٣) عنه: وفيات، ١ص ٣٥١-٣٥٢؛ الكامل، ٧ص ٤٧.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٥٩.

(٥) العبر، ٦ص ١٥٥-١٥٦؛ إتعاظ، ص ١٤٣، ١٤٤-١٤٥؛ الكامل ٧ص ٤٦؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ٦٩.

هدايا صحبها بنفسه إلى مسافة طويلة فى ٣٦٥/٩٧٦. وكان بلكين يجمع المال ويرسله إلى العزيز، الذى كان يرده إلى أصحابه زيادة فى استمالته[١]. وفوق ذلك نفذ بلُكين سياسة المعز، فكان يغزو البتر من زناتة، وكانت سجلات العزيز تشجعه على ذلك وتصله بالبريد[٢]، فقد قابل بلكين بنى خزر من زناتة، يساندهم جعفر بن علىّ بن حمدون، الذى كان قد رُشح لولاية المغرب، ولجأ هو وأخوه لبلاط الخليفة الأموى الحكم المستنصر[٣]، فقتله بلكين، وشرد زناتة من ٣٦٨/٩٨٧ إلى ٣٧٣/٩٨٣. ولقد هيأت حملاته السيطرة على معظم المغرب؛ وإن لم يستول على سبْتة، التى بقيت تحت نفوذ الأمويين، وإن أخاف هؤلاء[٤].

كذلك استمرت العلاقة ودية بين خلف بلُكين وخلفاء الفاطميين. فبعد موت بلُكين، وافق العزيز على تولية أبى الفتح المنصور بن بلكين فى ٣٧٤/٩٨٤[٥]؛ كما انه وصل سجل بولاية العهد لأبى مناد باديس فى ٢٨٢/٩٩٢، وأرسل العزيز للمنصور هدية قيمة، ومعها فيل عظيم، وبعض رءوس القتلى من الروم، لتعرض فى بلاده[٦]. كما أرسل المنصور إلى العزيز هدية مقدارها مليون دينار[٧]. ويبدو أن نفوذ المنصور فى المغرب الأقصى قد ضعف، فعادت زناتة إلى قوتها؛ بعد أن نفضت عنها سيطرة الزيريين وحتى الأمويين، وخصوصا أن الأمويين كانوا قد قضوا على الدولة الإدريسية؛ بحيث لم تتعد سيطرة الزيريين فى عهده المغرب الأوسط.

ولما توفى المنصور فى ٣٨٦/٩٩٦- وهى السنة ذاتها التى توفىّ فيها العزيز- وصل سجل التولية من الحاكم بولاية أبى مناد باديس[٨]، ولقّبه الحاكم بنصير الدولة، وسجل ثان يخبره فيه بوفاة أبيه العزيز، وثالث لأخذ البيعة للحاكم؛ كما أرسل هدية عظيمة فجلس باديس ودعا وجوه الصنهاجيين،

---

(١) ابن عذارى، البيان، ط بيروت، ١ص ٣٢٧-٣٢٩.
(٢) نفسه، ١ص ٣٣٨.
(٣) العبر، ٤ص ٣٢ و ٨٢-٨٣.
(٤) البيان، ١ص ٣٤.
(٥) العبر، ٦ص ١٥٦-١٥٧.
(٦) البيان، ١ص ٣٥٣-٣٥٤.
(٧) نفسه، ١ص ٤٤٣-٢٤٤.
(٨) نفسه، ١ص ٣٥٧؛ العبر، ٦ص ١٥٧-١٥٨. عنه بتفصيل؛ وفيات، ١ص ١٥٢-١٥٣؛ انظر. ماجد الحاكم، ص ١٥٦.

Ency de l'Isl, (art. Badîs) 2 éd, 1 P. 884.

وأخذ عليهم الطاعة للحاكم. ومن ناحية هذا الأخير، فإنه أغدق على الزيريين الألقاب، وبالغ فى استقبال رسلهم، والاحتفال بالحجاج المغاربة؛ وذلك بقصد الإبقاء على خضوع المغرب، الذى يعتبر مستودع جنود الفاطميين منذ نشأة دولتهم .

ولكن ظهرت بوادر فتور بين الفاطميين والزيريين فى عهد باديس هذا. فمن قبل لاحظ ابن الأثير وغيره أن الزيريين مستقلون؛ فحينما أتى أهل القيروان يهنئون المنصور بالولاية، قال لهم[1]: « إن أبى يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالاحسان، ولست ممن يولى بكتاب، ويعزل بكتاب» ، يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب. بل إن بلكين ومن بعده المنصور كانا قد طمعا فى ولاية طرابلس أو أطرابلس[2]، المجاورة لهم فى إفريقية، والتى كان المعزّ أخرجها هى وبرقة عن نفوذهم. والواقع أن هذه المنطقة خضعت دائما لمن يحكم فى مصر منذ الفتح العربى، وسكنتها قبائل بربرية-مغاربة- معظمها من السنة، مثل: مِزاتة وزَناتة ومَغراوة ولا سيما لَواتة، التى سكنت برقة منذ الفتح العربى وتفرقت منها فى المغرب وبلغت أقصاه[3]؛ ولما جاء الفاطميون فى إفريقية(تونس)، ضموا طرابلس، وملكها المهدى بسبب إهمال ولاة مصر من قبل العباسيين، فأرسل إليها ولى عهده أبا القاسم فى ٣٠٣/ ٩١٥، وأبقى والياً عليها من قبله، ثم ضم برقة أيضاً[4]. فكان والى برقة فى أيام المعزّ أفلح بن ناشب الصقلى، ووالى طرابلس عبد الله ابن يخلف الكتامى[5].

---

(١) الكامل، ٧ص ١٢١؛ البيان، ١ص ٢٤٣،

(٢) عنهما: معجم البلدان، ٢ص ١٣٣ وما بعدها، ٦ص ٣٤ وما بعدها.

(٣) الخطط، ٤ص ٧٠؛ محمد بن غلبوم، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق طاهر الزاوى، القاهرة ١٣٤٩هـ، ص ١٢؛ انظر. Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 1942, P. 124.

(٤) التذكار، ص ١٦ وما بعدها؛ البيان، ١ص ١٠٨.

(٥) وفيات، ١ص ٢١٠؛ العبر، ٦ص ١٥٥.

ولكن بلكين طلب من العزيز أن يضيف إليه ولاية طرابلس فى ٩٧٧/٣٦٧[1]، فأجابه العزيز إلى ملتمسه، فعين بلكين فيها عوصلة بن بكار نائباً عنه. فلما توفى بلكين وخلفه المنصور، أقر العزيز المنصور على ولايتها. ولكن الحاكم أحس بسعى الزيريين للاستقلال، فعمل على وضع حد لأطماعهم ووقف منهم موقف المناضل، وقد جاءت الفرصة حينما أراد عوصلة بن بكار تسليم طرابلس بدون علم باديس إلى الحاكم، فأذن الحاكم لعوصلة بالالتجاء إلى مصر، وأرسل يانساً العزيزى-وهو صقلبى- ليحكم طرابلس باسم الخلافة، كما كانت فى أيام المعز، بحيث لم يشعر باديس، حتى قدم يانس من مصر. فحارب باديس يانساً وقتله فى ٣٩٠/ ١٠٠٠، فأرسل الحاكم جيشاً آخر بقيادة يحيى ابن علّى بن حمدون الأندلسى من الأسرة المنافسة للزيريين فى ٣٩٣/١٠٠٣-٣، وإن كان هذا الجيش قد رجع[2]، وأكثر من هذا شجع الحاكم البتر من زناتة، حتى أن أسرة زناتية تعرف ببنى خزرون سادت بقيادة شخص اسمه فلفل بن سعيد فى طرابلس، وحاربت باديس، ولكن قبيلة مغراوة المحالفة لصنهاجة أرادت أن تسترد طرابلس لباديس، وإن لم تنجح فى أخذها من زناتة، وعلى العكس، يبدو أن برقة استمرت دائماً خاضعة للفاطميين، فوليها فى عهد الحاكم صندل الأسود فى ٣٩٤/١٠٠٤[3].

ويبدو أن باديس أراد الانتقام لما فعله الحاكم فى طرابلس، فشجع أحد الثوار فى برقة، وهو الوليد بن هشام(هاشم)[4]، الذى انتسب إلى بنى أمية من بنى

(١) العبر، ٦ص ١٥٦؛ انظر. الزاوى، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٧٧-١٧٨.

(٢) عن كل هذا: البيان، ١ص ٣٦٨، ٣٧٢؛ العبر، ٤ص ٥٩؛ الكامل ٧ص ٢١٨؛ انظر. الزاوى، تاريخ الفتح، ص ١٧٨ - ١٨٢ .

(٣) الخطط، ٤ص ٦٩ .

(٤) عن ثورته: عيون، ٧/٦ ورقات ٢٣١ وما بعدها؛ العبر، ٤ص ٥٨-٥٩ يحيى،(شيخو)، ص١٨٨ وما بعدها؛ البيان، ١ص ٣٧٠ وما بعدها؛ الكامل ٧ص ٢٣٤-٢٣٧؛ النجوم، ٤ص ٢١٥-٢١٧، ابن حماد، ص ٤٩؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٥٧-١٦٣؛

Druzes , CCCXVI sqq: De Sacy

مروان، إذ لما قبض الوزير المستبد المنصور بن أبى عامر على السلطة فى عهد المؤيد الخليفة الأموى الأندلسى، أخذ يتعصب ضد أهل المؤيد، فكان الوليد ممن هربوا من الأندلس. فجاء الوليد إلى مصر وسمع الحديث بها، ثم أقام بمكة، وسار إلى اليمن، وعاد إلى مصر قبل أن ينتقل إلى القيروان، ومنها إلى برقة. وقد عرف الوليد بأبى ركوة لأنه كان يظهر النسك، ويحتفظ بركوة معه وهو وعاء من الجلد للوضوء على عادة الصوفية، أو ربما تكون من تلقيب أهل مصر إذ جروا على عادة السخرية من أعدائهم(١).

واستطاع أبو ركوة أن يجمع عناصر غاضبة على الفاطميين بين البربر السنيين القاطنين بها، وبين قبائل عربية كانت ببرقة. يضاف إلى ذلك أن قبائل زناتة من البتر، عدوة الفاطميين وأنصار الأمويين بالأندلس، كانت قد تسربت إلى برقة فى أثناء النزاع بين يانس وباديس. وساعد على ذلك أن أبا ركوة قد عمل معلماً لأولادهم، فأخذ يحرضهم على الحاكم، وأظهر أن غرضه ليس إلا نصرة الإسلام، والثأر لأصحاب الشريعة، الذين يسبهم الحاكم-يعنى أعداء الشيعة- بحيث أن أهل برقة انضموا معه فى حرب عسكر والى الحاكم، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٠/مارس -أبريل ١٠٠٥.

وقد بدأ أبو ركوة حركته فى برقة، بالاستيلاء علي عدة بلاد فيها مثل مَكّة من أعمال برقة، التى قتل من فيها. ثم ذهب إلى قَرنة- لعلها قرينى- مدينة عامرة، فحاول أهلها الدفاع عنها، ولكن القبائل البربرية الهائجة اقتحمتها، وقتلوا من فيها، وهدمها أبو ركوة. ثم سار نحو برقة ذاتها، فقاتله عسكرها قتالاً شديداً، ودفعوه أول الأمر. وفي أثناء ذلك جاء عسكر من البربر اللواتيين، فأسرع أبو ركوة لمقاتلتهم، ووقع قتال شديد بينهما، حتى اضطرهم إلى التفرق فى الشعاب. ثم عاد بنفسه لحصار برقة بشدة، وكان أهلها قد بنوا السور الخندق، وقاتلوه قتالاً شديداً، مع أنه فَرق العسكر على السور، ونصب عليه المنجنيقات والعرادات لدك السور. وقد ضيق على أهلها؛ واشتد بهم الجهد، وماتت الخيل، وبقيت برقة عدة شهور محاصرة.

---

(١) يحيى، (شيخو)، ص ١٨٩ س ٢٥.

وحاول الحاكم أن يستدرجه، فأمر بعض المغاربة بالكتابة إليه[1]، ولكن دون جدوى، فجهز الحاكم لحربه جيشاً من المشارقة، أى الأتراك والمغاربة -أى البربر- بقيادة ينال أحد قواد الأتراك فى مصر. فلما سمع أبو ركوة بأخبار وصول ينال ومن معه، أضرم النيران فى المنجنيقات والعرادات، ونادى بالرحيل رافعا الحصار عن برقة قاصدا ينال. ولم يكن ينال على معرفة بطبوغرافية الأرض التى يحارب عليها، فضلله أتباع أبى ركوة، وساروا به بين التلال العالية؛ حيث هاجمه أبو ركوة فى موضع يعرف بعيون النظر، بإلقاء الصخور من على التلال. ثم إن حماس المغاربة للقتال تحت راية أحد قواد الأتراك المشارقة كان ضعيفاً، وبخاصة أن الفاطميين منذ العزيز بدأوا يتحولون عن المغاربة وأحلوا المشارقة مكانهم؛ بحيث أن أحد وزراء الحاكم واسمه برجوان (أو أرجوان) عرف بعداوته الشديدة للبربر[2]؛ فضلاً عن أن جيش أبى ركوة كان معظمه من المغاربة، فتخاذل مغاربة ينال وفروا. فوقع ينال أسيراً فى يد أبى ركوة، الذى أمره بلعن الحاكم، فلما رفض بأن بصق فى وجه أبى ركوة، أمر أبو ركوة فقطع إرباً إرباً.

وقد ترتب على هزيمة ينال أن أسلم أهل برقة المحاصرون إلى أبى ركوة فى ذى الحجة من سنة ٣٩٥/يوليو ١٠٠٥؛ كما خرج منها رجال الحاكم وواليه صندل عن طريق البحر، فتوجه بعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى المغرب. فلما دخل أبو ركوة برقة انتقم من الشيعة فيها، فتتبعهم بالفتك؛ كما نهب كل ما فى البلدة، بحيث أصبح أهل البادية الذين معه بعد فقرهم من أصحاب الجوارى والكساء والخيل. وقد أعلن أبو ركوة فى برقة مذهب السنة، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر للدين، ونقش ذلك على السكة (العملة). كذلك استخلف على برقة رجلاً بربرياً اسمه بن ماواس، الذى أساء الحكم؛ بحيث أكل الناس بعضهم بعضاً فيها، واضطر معظم أهلها إلى الخروج منها وأولادهم إلى الإسكندرية. فأرسل الحاكم إلى أبى ركوة جيشاً معظمه من المشارقة بقيادة فاتك؛ فلما سمع به أبو ركوة أرسل إليه جيشاً قاتله فى جهة اسمها الحمام.

(١) البيان، ط Colin و Lévi ، ١ص ٢٥٨.

(٢) الخطط، ٢ص ١٨ س٢؛ انظر. ماجد. الحاكم، ص ٣١.

وبعد ذلك، نهض أبو ركوة إلى مصر فى رمضان٣٩٦/ يونية ١٠٠٦ ،ومعه عساكر كثيرة من كل البقاع، وقبائل جائعة يجتذبها غنى مصر، غير أن أبا ركوة اعتبر أرض مصر دار حرب للكفار، ومنح جنده حق نهبها واستباحة الحرمات فيها. فتوجه أبو ركوة لحصار الإسكندرية، فخرج إليهم عسكر الحاكم فيها وهزموه، فانتشر بجنده فى قرى مصر ينهبونها ويسبون حريمها. ولكن استفحل أمر أبى ركوة، حينما انضمت إليه قبائل عربية عديدة من ريف مصر، مثل: بنى قُرّة[1]، فى نواحى الإسكندرية- الذين كان الحاكم قد حاربهم بعساكره، وحبس منهم جماعة من أعيانهم وقتل بعضهم فى ٣٩٥/ ١٠٠٤-١٠٠٥، ربما بسبب كثرة اعتداءاتهم على الفلاحين. كما انضم إلى أبى ركوة عرب كانوا قد جاءوا مع القرامطة من بنى سليم وبنى هلال[2]، الذين نقلهم العزيز إلى الصعيد. وقد كان أبو ركوة يقطع من اجتمع إليه من الأعراب الضياع، ويكتب لهم السجلات، غير أن العرب جميعهم اتفقوا ضد الحاكم، بحيث اقتسموا ملكه، فيأخذ أبو ركوة ومن معه مصر، والعرب يأخذون الشام[3].

فجهز الحاكم من جديد جيشاً كبيراً من عرب الشام أعداء البربر، وفيه كثير من الترك والديلم والسودان، بقيادة الفضل بن الحسن بن صالح(أو الفضل ابن عبد الله). وذكر المؤرخون أن الحاكم تنازل وقتئذ عن شدته مع المصريين فى شئون الحسبة[4]، وهى مراقبة الأخلاق والأسواق. كذلك أقبل المصريون على الانضمام إلى جيشه، لما رأوا من تخريب جيش أبى ركوة الذى ذكرهم بتخريب القرامطة؛ كما وضعوا أموالهم كلها تحت تصرفه[5]. ونجد من معاونة المصريين للحاكم لصد هذا الخطر، أن الأسعار توقفت عن الزيادة[6]؛ مما يدل على أنهم لم يزيدوا الحالة سوءاً للحاكم. ولدينا روايات مغرضة تذكر أن الحاكم وقتئذ عزم

---

(١) الخطط، ٤ص ٦٩ (فى آخر الصفحة)؛ عيون ٦/٧ ورقة ٢٣٧.

(٢) العبر، ٦ص ١٣؛ انظر.

Ency de l'Isl t 2, P. 325-6, 4 P. 542-3.

(٣) الكامل ١ص ٢٣٦س٦.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ١٩٢ س ١ وما بعدها.

(٥) عيون ٦/٧ ورقة ٢٣٩.

(٦) يحيى (شيخو) ص ١٩١ س ٦-٧.

على الفرار إلى الشام ونقل خزائنه إلى بلبيس، إلا أن أشير عليه بالعودة إلى مصر فعاد[1]. وعلى النقيض تذكر روايات أخرى أن الحاكم كان يتميّز بالثبات والشجاعة، فكان يدعو الناس للجهاد، ويخطب على المنابر. ولا ريب، فالحاكم كان هو الخليفة الوحيد الذى كان يسير وحده فى القرى والفلوات؛ مما يدل على شجاعته[2].

على العموم هزم جيش الحاكم أبا ركوة فى الفيوم، فانسحب أبو ركوة إلى الجيزة بقصد أخذها؛ بحكم أن جنود الحاكم فى الفيوم. فجاء إلى أبى ركوة عامل الجيزة فهزمه، فاضطر أبو ركوة إلى العودة إلى الصعيد، منتظراً أن يأتيه المدد من كل مكان، ولا سيما من عرب الصعيد. فرجع أبو ركوة بأكثر من سبعين ألفاً بين فارس وراجل لمقاتلة الفضل بن الحسن، الذى كان قد رجع إلى القاهرة، فحدثت موقعة فاصلة فى مكان يعرف براس البركة؛ حيث منع الفضل العرب من الاشتراك فيها. فانهزم أبو ركوة ومن معه، وقتل أكثر البربر، وتفرقت الطوائف التى انضمت إلى أبى ركوة وجاءت إلى الحاكم تائبة، ولم يفلت إلا نفر قليل من النساء والصبيان، حملوا أسرى إلى القاهرة، وأطلق سبيلهم، ولا سيما أنه قد تفشى فيهم الجدرى والوباء.

ولكن أبا ركوة هرب إلى النوبة، وكان ملكها قد توفى، فسلمه ابنه واسمه روفائيل إلى الفضل[3]، وذلك بناء على هدنة البقط التى كانت قد عقدت منذ أيام عمرو بن العاص، ونصت على تسليم الهاربين، وربما حارب روفائيل أبا ركوة وهزمه، لما قصد بلاده، وذلك فى مكان اسمه: بوسقا[4]، وكان يوجد فيه دير، أو لعله حاربه فى أسوان مع بنى كنز بزعامة أبى المكارم المعروف بالأهوج المطاع. وكان الفضل يريد تقديم أبى ركوة حيًا إلى الحاكم، فتركه يكتب إلى الحاكم يطلب منه العفو؛ كما أحسن معاملته. فلما وصل به أبو الفضل إلى القاهرة، احتفل الحاكم بهذا النصر المشهود من مكان مرتفع؛ فشهر بأبى ركوة على جمل، وقد

---

(١) النجوم، ٤ص ٢١٢ س ٥-٦؛ انظر ماجد، الحاكم، ص ١٦٠.

(٢) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٦٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦١.

(٣) أبو صالح، ص ١٢١ (٩٥ب). أما عن معاهدة البقط: الخطط، ١ص ٣٢٢ وما بعدها.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٦٤-٦٥؛ انظر عطية القوصى، تاريخ دولة الكنوز، ص ٥٤.

البس طرطوراً طويلاً، وخلفه قرد وبيده درة؛ فقد كان حماس المنتصر فى أمم الإسلام فى العصور الوسطى، يغريه أحياناً بمسلك غير إنسانى. ولكن حينما أنزل أبو ركوة من على جمله كان ميتاً فقد روحه، وإن كانت رواية أخرى تذكر أن أبا ركوة ضربت عنقه، ثم رفع على الأعواد وصلب، وأشعل العود الذى صلب عليه. وبسبب هذا النصر جاءت الوفود إلى الحاكم مهنئة، كما أرسلت البشائر(1) إلى سائر الأعمال، بقتل أبى ركوة.

وبذلك تخلص الحاكم من خطر أبى ركوة، الذى كان مثل تهديد الحسن الأعظم القرمطى فى عهد المعز. ولعل السبب فى نجاحه هو ثباته، ومساعدة المصريين له، الذين كانوا ساعدوا المعز من قبل ضد القرمطى، ولأن الخلافة الأموية فى الأندلس، التى كانت تؤيد أبا ركوة أصبحت على وشك السقوط، وتغلب عليها ملوك الطوائف(2)، الذين أصبح بعضهم على علاقة ودية بالفاطميين(3)؛ فضلاً عن أن قبائل بنى قرة العربية، كانت قد اتفقت سراً مع قبائل عربية فى جيش الحاكم.

وفى أثناء هذه الهجمات، نجد موقف الزيريين غامضاً؛ فلا نسمع عن مجيئهم لنصرة الحاكم، كأنهم يرغبون فى ضياعه؛ وهذا ولا ريب يدل على أن دولتهم كانت تسعى للاستقلال. كذلك قد يكون عدم وقوفهم بجانب الحاكم؛ لأن الحاكم أساء معاملة المغاربة فى جيشه، أو أنه توجس خوفاً منهم؛ بسبب أن جيش أبى ركوة كان معظمه من المغاربة. وينقل إلينا المؤرخون أن باديس وصل القاهرة فى طريقه للحج أثناء قيام ثورة أبى ركوة فى ٣٩٦/ ١٠٠٥؛ كأنه أراد أن يتخلص من الموقف الحرج، فسأل الحاكم باديس عن أبى ركوة-وكان أبو ركوة لا يزال فى برقة- فعظم باديس حاله، وذكر قوته وكثرة جموعه، والحاكم صامت. فلما رجع باديس إلى مصر بعد الحج، واستأذن الحاكم فى المسير، أخره الحاكم الذى كان قد انتصر على أبى ركوة، ليشهده احتفالات النصر. ولعل الحاكم قصد بتأخير باديس إرهابه بطريق غير مباشر، أو على الأقل عتابه(4).

(1) الخطط، ٤ص ٧٠س ٢٠.
(2) الكامل، ٧ص ٢٩٠.
(3) تبودلت رسائل ودية بين علىّ بن مجاهد العامرى صاحب دانية والخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى سنة ٤٥٢/ ١٠٦٠. ابن الأبار، التكملة، ص ٦٢٢.
(4) عيون، ٧/٦ ورقات ٢٤٤-٢٤٥.

ومع ذلك بقى المغرب مرتبطاً برباط الود التقليدى بالحاكم.ففى سنة ١٠٠٩/٤٠٠، ذهب باديس إلى طرابلس واستولى عليها، ولا سيما أن بنى خزرون من زعماء زناتة، انشقوا على أنفسهم بعد موت زعيمهم فلفل فى ١٠٠٩/٤٠٠[١]. ولعل الخليفة الحاكم أخيراً لم يجد بداً من استمالة باديس بطريقة ودية-مثلما فعل المعزّ والعزيز من قبل- فأضاف إلى باديس أيضاً برقة وأعمالها فى ١٠١٢/٤٠٣[٢]. ويبدو أن هذا التصرف جعل العلاقة ودية بين باديس والحاكم إلى حد ما. ففى سنة ١٠١٤/٤٠٥، أخرج باديس هدية للحاكم، كما وجهت أخت باديس هدية إلى أخت الحاكم[٣].

ولكن لما تولى المعزّ بن باديس[٤]، الذى يظهر من اسمه إخلاصه للفاطميين، إذ هو قد سمى على اسم المعزّ الفاطمى؛ فإنه مع ذلك زادت عوامل القطيعة، بسبب تحول المعزّ بن باديس ورعيته من المذهب الفاطمى، إلى المذهب السنى، وانشغال الحاكم بالانشقاق المذهبى، الذى حدث فى عهده[٥].ولكى نستقصى التحول عن مذهب الفاطميين فى عهد المعزّ بن باديس، يجب أن نجده فى مذهب أهل إفريقية(تونس)، على الخصوص قبل مجئ الفاطميين. فقد كان أهل إفريقية على مذهب أبى حنيفة، ولكن سحنون بن سعيد[٦] (١٦٠-٧٧٦/٢٤٠-٨٥٤)، الذى قدم القيروان فى ٨٠٧/١٩١، وألف كتاباً فى المذهب المالكى اسمه المدونة، عمل على نشر المذهب المالكى، الذى أصبح يتفق مع طبائع أهل إفريقية. والواقع أن أهل إفريقية أيدوا الخلافة الفاطمية، لرغبتهم فى

---

(١) الكامل، ٧ص ٢١٨؛ البيان، ٦ص ٢٧٢.

(٢) البيان، ١ص ٤٧٣-٤٧٥.

(٣) نفسه (ط. L)، ١ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٤) عن توليته: الكامل، ٧ص ٢٧٧-٢٧٩؛ وفيات، ٢ص ٥٥٢ وما بعدها.

(٥) أنظر. بعده.

(٦) عن ذلك بتفصيل، انظر. الدباغ، معالم الإيمان فى طبقات فقهاء القيروان، تونس ١٣٢٠هـ-٢ وما بعدها؛ طبقات علماء إفريقية، ٤ص ١٣٠ وما بعدها؛ الخطط ٤ص ١٤٤؛ انظر.

Coup d'oeil sur l'Islam en.: Bel Berbérie. Paris, 1917, P. 4 sqq

Hist. of the Fatimids, P. 200: Qleary ;

التخلص من حكم ولاة الخلافة العباسية، ومن الفوضى الضاربة فى بلادهم. ويبدو أنه بفضل الدعوة الفاطمية وحدها انتشر المذهب الفاطمى على الأقل رسمياً؛ ولذلك شدد المعزّ الفاطمى على أئمة المساجد والمؤذنين، أن يراعوا المذهب ونصوصه[1]. وبعد رحيل الفاطميين إلى مصر، أصبح الزيريون ولاة الفاطميين يمثلون وحدهم المذهب الشيعى فى عاصمتهم المنصورية؛ أما فى القيروان وغيرها من مدن إفريقية، فقد عادت السنة ممثلة فى المذهب المالكى إلى قوتها. وتظهر قوة السنة المبكرة من أن العزيز لما طلب عزل أحد القضاة السنة وإرساله إلى مصر، عارض أهل القيروان ومنعوا إخراجه، فلما توفى العزيز، لم يرسل القاضى[2]. ولا ريب؛ فإن ضعف مذهب الفاطميين بإفريقية، راجع إلى ما حدث من ضعف الفاطميين بغزوة أبى ركوة، وقد شد من أزر السنة، حتى فى المنصورية- عاصمة الزيريين- أن المعزّ بن باديس لما تولى كان صغيراً، عمره حوالى ثمانى سنوات ونصف، فسيطر عليه فقيه سنى اسمه الحسن بن علىّ ابن أبى الرّجّال[3](ت٤٢٥/ ١٠٣٤)، كان كافلا للمعزّ بن باديس قبل ولايته، وأن الفاطميين لم يكونوا يعلمون ذلك عنه.

وكان مظهر التحول عن مذهب الفاطميين فى عهد المعزّ بن باديس، وقوع مصادمات بين السنة والشيعة، ولا سيما فى عام ١٠١٢/٤٠٧؛ بحيث أن ابن عذارى المؤرخ يذكر أن الدم جرى غزيراً فى القيروان، فكانت السنة تهاجم الشيعة فى الأسواق[4]؛ خصوصاً أن القيروان اضحت مركزاً علمياً قوياً للمالكية؛ بسبب

---

(١) البيان، ١ص ٢١٧.

(٢) نفسه، ١ص ٣٥٥-٣٥٦.

(٣) نفسه، ١ص ٣٩٥، هذا مذهب الفقيه كان شاعراً ومؤلفاً عرفه الأوربيون باسم Albenragal) وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللغات الأروبية، مثل: البارع فى أحكام النجوم، ترجمة إلى الأسبانية فى ١٢٥٦م، وإلى اللاتينية فى ١٤٨٠م، كما أهداه ابن رشيق - المؤلف المعروف- كتابه المشهور: العمدة.

(٤) نفسه، ١ص ٣٨٧-٣٨٨ (ط ليدن)، ص ٣٨٥؛ الكامل، ٧ص ٣٩٤-٣٩٥؛ انظر. حسن محمود، محنة الشيعة بافريقية فى القرن الخامس الهجرى، فصله من مجلة كلية الآداب بالقاهرة، مجلد ٢/١، ديسمبر ١٩٥٠، ص ٩٤-٩٥.

مـرور العلماء الأندلسيين المالكيين، حتى أصبحت زعيمة المالكية[1]. وقـد قلدت أغلب مدن إفريقية القيروان، مثل المهديّة عاصمة الفاطميين السابقة، فانبسطت أيدى العامة فى الشيعة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بالنار، ونهبوا ديارهم؛ بحيث حاول الشيعة الهروب إلى صِقلّيّة، وكان السنة يسمونهم المشارقة، نسبة إلى أبى عبد الله الشيعى، الذى كان من المشرق، أو أتباع بنى عبيد الله المهدى نسبة إلى عبيد الله المهدى -عبد الله- وحتى لا ينتسبوا للفاطميين. ويذكر المؤرخون أن المعزّ بن باديس هو الذى حمل أهل مملكته على مذهب مالك[2]، ويؤيد ذلك، أن العملة التى صدرت بالمهديّة، مكتوب عليها: «محمد رسول الله؛ أرسله بالهدى ودين الحق»، ولا تظهر عليها عقيدة الفاطميين: «علّى ولّى الله[3]».

ومع هذا الميل السنى؛ فإن المعـزّ بن باديس لم يقض على الولاء الاسمى للحاكم أو لخلفه فى أول الأمر. وكانت حجة المعزّ على حد قوله: «ما أبقيت السكة إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين[4]». ومع ذلك؛ يبدو أن السبب الرئيسى هو انشغاله بانقسام فى دولته؛ فلم يسع إلى القطيعة التامة، حتى لا يقع بين شقى الرحا. فمن قبل، كان أبوه باديس قد تناسى نصيحة الخليفة المعز لجده بُلكين، حينما كفل الدفاع عن المغرب الأوسط ضد البتر من زناتة لعمه حَمّاد بن بلُكين(ت٤٤١/١٠٤٩). ولكن حماداً الذى كان يبنى القلاع ومنها قلعة عظيمة أقيمت على قمة جبل عال، فخرج عن طاعة ابن أخيه فى ٤٠٥/١٠١٤[5]،

(١) عن موقف الفقهاء المالكية من المذهب الفاطمى، انظر. المالكى، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١؛ أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، تحقيق ابن شنب، الجزائر ١٩١٤.

(٢) النجوم، ٥ص ٧١ س ١٣-١٤.

(٣) انظر. Lavoix : Cat, T I, P. 78-79 (92).

(٤) الدباغ، معالم الإيمان، ٣ص ٢٠٩.

(٥) الكامل، ٧ص ١٨٢، ١٩٨-١٩٩، ٢٧٦-٢٧٩، ٨ ص ١٠١؛ أبو الفداء، المختصر، ٢ص ١٢١-١٣٣؛ انظر Beylié :

La Kal'a des Beni Hammâd: Ùne Capitale.
berbère de l'Afrique du Nord au XIe Siécle. Paris 1909;
La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946, P. 163 sqq.:Marçais

عن القلعة: معجم البلدان، ٧ص ١٤٩؛ انظر، ماجد والبنا، الأطلس التاريخى القاهرة ١٩٦٧، الطبعة الثالثة، خريطة (١٠).

وكون دولة مستقلة، عُرفت بدولة بنى حماد. فذهب باديس ليعاقبه، ولا سيما أن حماداً كان متوحشاً يقتل الأطفال والنساء والأسرى. وقد تمكن باديس من هزيمة حمّاد، إلا أن باديس توفى وهو يحاربه فى عام ٤٠٦/١٠١٥. وقد كان حماد، ضد تولية المعزّ بن باديس، ويريد تولية أخ لباديس؛ مما اضطر المعزّ ابن باديس إلى محاربته، واضطره إلى الصلح فى ٤٠٨/١٠١٧، على أن يقتصر حماد على ما فى يديه. ومع ذلك بقى حمّاد سيفاً مصلتاً على دولة المعزّ بن باديس. كذلك قامت زَناتة من البتر فى طرابلس، بزعامة بنى خزرون يهاجمون بلاده، حتى أنهم هاجموا عاصمته المنصورية أيام المستنصر فيما بعد.

أما من ناحية الحاكم؛ فإنه كان قد شغل بشئون المذهب، فلم يتخذ إجراء حاسما ضد المعزّ بن باديس. فاكتفى بأن يرسل إليه يستعلم عن سبب سفك دماء الشيعة، فأرسل المعزّ بن باديس يعتذر عما حدث، ويلقى اللوم على العامة الذين لم يستطع ان يكبح جماحهم[1]. وربما يكون الحاكم اضطهد المالكية فى مصر من باب المعامله بالمثل، ولكنه عدل عن ذلك لما طلب المعزّ بن باديس أن يعدل عن اضطهادهم[2]. ونجد أن الحاكم قد الغى الألقاب؛ إلا لقب المعزّ بن باديس، الذى تلقب بشرف الدولة فى ٤٠٨/١٠١٧[3]؛ كما نجد أن المعزّ بن باديس يعلن للحاكم نهاية الخلافة الأموية بالأندلس، وأن الحاكم يرسل إليه سيفا مكللاً بنفيس الجوهر، وخلعة من لباسه. فلقى المعزّ بن باديس هدية الحاكم فى اجل زى واكمل هيئة، فقرئ على المعزّ بن باديس سجل التشريف، ورد المعزّ على الحاكم رداً هائلا[4].

كذلك ابقى المعزّ بن باديس سياسة الولاء الاسمية ذاتها للظاهر بن الحاكم والمستنصر بن الظاهر من بعده. فلدينا عملة ضربت بالمهدية من زمن الظاهر[5]. ولما زاد الظاهر لقب المعزّ بن باديس، فسماه شرف الدولة وعضدها،

(١) السلاوى، الاستقصاء، ص ١٦٧؛ انظر. محنة الشيعة، ص ٩٨.

(٢) النجوم، ٤ص ١٧٨س ١٥ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦٥.

(٣) يحى، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٤) البيان، ١ص ٣٨٩.

(٥) انظر. Cat, P. 98 (247): Lavoix . وذلك فى ٤٢٠/١٠٢٩.

وأرسل إليه هدايا ثمينة، منها كسوة لبسها الخليفة نفسه، وأفراسا من خيله، وبنوداً مذهبة، مما لم ير له مثيل من قبل: فإن المعزّ بن باديس أحسن كعادته استقبال التشريف الخلافى، وقرئت السجلات -بما فيها سجل التلقيب- بين يديه وفى كل مكان، بما فيها مسجد القيروان[١]. كذلك يذكر المؤرخون أنه كان للمعزّ بن باديس بالقاهرة نائب، يتولى أموره أمام المستنصر[٢]، وكانت العملة فى إفريقية تسك باسم المستنصر.

ولكن المعزّ بن باديس قرر فجأة الانحراف فى سياسته، والقطيعة نهائيا بين مصر والمغرب، وذلك فى عهد المستنصر بالذات، أو ما يسميه المستشرق الفرنسى مارسيه "Marçais" : بالطلاق بين الشرق والغرب[٣]. ويبدو أنه اتخذ هذه الخطوة بناء على إجماع شعبه السنى؛ بحيث إن أهل القيروان امتنعوا عن صلاة الجمعة، بسبب إبقاء الدولة على المذهب الشيعى؛ فأقفرت المساجد، وكان الواحد منهم يصلى الظهر أربعاً فى بيته[٤]. ويبدو أيضاً أن الخلافة العباسية كانت تحرضه ضد أعدائها الفاطميين؛ إذ يذكر المؤرخون أنها كانت تهدى إليه الهدايا[٥]. وربما كان انحرافه بغية الإستقلال التام، ولا سيما أنه كان شخصية مغرورة؛ فقد كان يقتنى السباع وتخرج بين يديه، وأنه دفع إلى أحد الشعراء فى دفعة واحدة مائة ألف دينار[٦]. ويذكر المؤرخون أنه أخذ يعمل فكره فى ذلك[٧]؛ فقضى على الشيعة فى بلاده، حتى أنه تباهى بأنه يقتل المشارقة فى السر[٨]. ثم لأن صنهاجة أخلصت للفاطميين؛ فإنه عمل على التخلص من أكثرهم فى جيشه، فطلب منهم

(١) البيان، ١ص ٣٩٢. وذلك فى ٤١٤/١٠٢٣.

(٢) الدول المنقطعة، ورقة ٦٨؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ١٣٢.

(٣) انظر . كتاب: La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946, P 136 sqq.

(٤) البيان، ١ص ٤٠٠.

(٥) السيرة المؤيدة، ص ٥٦.

(٦) البيان، ١ص ٤٠٢، ٤٥٦.

(٧) نفسه، ١ص ٣٩٦ س٢.

(٨) الدباغ، ٣ص ٢٠٩.

الخروج من القيروان إلى المنصورية العاصمة[1]، ربما ليكونوا تحت مراقبته، وكون جشياً خصوصيا من العبيد، بلغ ثلاثين ألف مملوك[2].

ولدينا تواريخ مختلفة لهذه القطيعة في ٤٣٣/١٠٤١[3]، وفي ٤٣٥/١٠٤٣[4]، وفي ٤٤٢/١٠٥٠[5]، وفي ٤٤٣/١٠٥١[6]، وفي ٤٤٨/١٠٥٧[7]. ويذكر "Marçais" أن هذا الاختلاف في التواريخ معناه أن العداء كان متجها إلى الشدة، ضد الفاطميين[8]. ونحن نرجح تاريخ ٤٤٠/١٠٤٨ أو بعده؛ لأنه يتوافق مع الاتساق التاريخي؛ لأن الرحالة ناصرِ خسرو الذي بلغ مصر في ٤٣٩/١٠٤٧[9]، يذكر أن بلاد إفريقية كانت تابعة لخليفة مصر. وبعد ذلك يكون المعزّ بن باديس قد قضى على كل صلة بين الفاطميين والمغرب، بعد مائة وخمس وأربعين سنة ابتداء من ٢٩٦/٩٠٨.

وكان المظهر الأساسي لقطع العلاقة مع الفاطميين، هو إسقاط الخطبة للخليفة المستنصر من منابر المساجد في بلاد المعزّ بن باديس. وقد لعن الفاطميين وسبهم بأبشع السب، منه [10]: «اللهم والعن الفسقة الكفار، المارقين الفجار، أعداء الدين، وأنصار الشيطان، المخالفين لأمرك، والناقضين لعهدك، المتبعين غير سبيلك، والمبدلين لكتابك، اللهم والعنهم لعناً وبيلاً، وأخزهم خزياً عريضًا طويلاً، اللهم وإن سيدنا أبا تميم المعزّ بن باديس بن المنصور، القائم لدينك، والناصر لسنة نبيك، والرافع للواء أوليائك، يقول مصدقا لكتابك، وتابعا

---

(١) البيان، ١ص٣٧٦.
(٢) الكامل، ٨ ص ٥٥ (آخر الصفحة).
(٣) البيان، ١ص ٣٩٧.
(٤) الكامل، ٨ص ٣٩؛ أبو الفداء، المختصر، ٢ص ١٦٧؛ وفيات، ص ٥٥٠.
(٥) البيان، ١ص ٣٩٩؛ الكامل، ٨ص ٥٥.
(٦) البيان، ١ص ٤٠٥؛ النجوم، ٥ص ٥٠-٥١.
(٧) البيان، ١ص ٣٩٧؛ وفيات، ٢ص ٥٥٠؛ أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٦٩.
(٨) انظر. Marçais ، La Berbèrie P. 168.
(٩) سفر نامه، ص ٤٤.
(١٠) البيان، ١ص ٤٠١. هكذا ذكر باسقاط قل وآخرها، وهي ملاحظة ابن عذارى.

لأمرك، مدافعا لمن غير الدّين، وسلك غير سبيل الراشدين.[يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ١٠٩: ١-٢]. كذلك ظهرت أقوال وقصص ألفت لأهل إفريقية (تونس)، يرددها ابن عذارى عن خلفاء مصر وأصلهم[1] مثل تلك التى قيلت عنهم فى العراق، من أنهم ليسوا من أسرة النبى، وأنهم ميمونية نسبة إلى ميمون القداح، وأن مذهبهم يدعو إلى وضع الفرائض، وإعلان الزنا واللواط، والكذب وشرب الخمر؛ وأن جد المستنصر -وهو الحاكم- ادعى الربوبية.

ولما كان الحكام وقتذاك، لا يكون حكمهم شرعياً إلا باعتراف خليفة؛ فإن المعزّ بن باديس سعى إلى التقرّب من خليفة العراق القائم بأمر الله، عدو الفاطميين. فدعا له من على المنابر؛ ودعا للعباس بن عبد المطلب، وللخلفاء الأربعة وبقية العشرة الذين وعدهم الرسول بالجنة[2]؛ وكلهم من المنافسين لآل علىّ والفاطميين. كذلك أرسل المعزّ بن باديس إلى القائم المنشور، الذى قطع فيه الخطبة للفاطميين، ومعه بعض الهدايا. فأسرع القائم بإرسال التقليد الشرعى-وهو طويل- وبه اعتراف بشرعية حكم المعزّ بن باديس فى إفريقية وأيضاً ما يفتحه، كما أن التقليد الذى منحه له ورد فيه [3] «من عبد الله أبى جعفر القائم بأمر الله، أمير المؤمنين، إلى الملك، الأوحد، ثقة الإسلام، وشرف الإيمان، وعمدة الأنام، ناصر دين الله، قاهر أعداء الله، ومؤيد سنة رسول الله، ﷺ، أبى تميم المعزّ ابن باديس بن المنصور ولى أمير المؤمنين. بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين».

ولم يكن وصول التقليد -كما يبدو- ميسراً فى أول الأمر؛ بسبب وجود الفاطميين بين العراق والمغرب، ووجود بيزنطة التى كانت على علاقة طيبة بالفاطميين؛ بحيث إن ملك الروم قبض على الرسول العباسى واسمه غالب

---

(١) نفسه، ١ص ٤٠٦ وما بعدها.

(٢) مثلاً: نفسه، ١ص ٣٩٩؛ شذرات، ٣ص ٢٦٤؛ العينى، تاريخ، ورقة ١٨٦

(٣) الكامل، ٨ص ٣٩.

الشيرازى؛ الذى كان يحمل التقليد وبعض الهدايا للمعزّ بن باديس؛ وأرسله إلى المستنصر الفاطمى؛ فدخل الرسول غالب القاهرة على جمل؛ وأحرق التلقيد وما معه من هدايا فى حفرة فى ميدان بين القصرين[1] . وهو براح واسع بين القصور الفاطمية- ومع ذلك؛ فقد ذكر المؤرخون أن التقليد ومعه الأعلام العباسية والخلع وصل بحراً عن طريق القسطنطينية فى البحر[2]؛ وهذا يدل بوضوح على موافقة ملك الروم بعد ذلك؛ الذى كان يسره انقسام المسلمين.

ولما كانت الدولة الزيرية مثل غيرها من دول الإسلام فى العصور الوسطى طابعها دينى؛ فقد قرر المعزّ بن باديس إزالة المظاهر الدينية الفاطمية من بلاده. وفى أول الأمر سأل فقيها عن شرعية الطرز مما يلبس أو يصلى فيه، وعليها اسم الفاطميين؛ فأفتاه بخلعها[3]. فأمر المعزّ بن باديس بلبس السواد شعار العباسيين، وخلع البياض شعار الفاطميين؛ كما أحضر جماعة من الصباغين، وأخرج لهم ثياباً بيضاً من الكتان، وأمرهم أن يصبغوها بالسواد، وكسا بها الفقهاء والمؤذنين والخطباء فى المساجد[4]. كذلك أمر بحرق أعلام الفاطميين بما عليها من أسماء المستنصر[5]. ثم إنه أزال العملة الفاطمية «السكة»، على الرغم مما جره ذلك إلى اضطراب النقد فى بلاده؛ بحيث كانت آخر عملة للمستنصر فى سنة ٤٣٨/١٠٤٦-٧[6].

ومع ذلك كانت العملة الزيرية من قبل على يد المعزّ بن باديس، ترد أحياناً، كما حدث فى أيام الحاكم؛ خالية من العقيدة الشيعية «علىّ ولى الله»، ويكتفى فى نقشها بالآتى: « محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق»[7]. ولكن هذه المرة نقش فى أحد وجهيها[8]: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً، فلن يقبل منه، وهو

---

(١) المقريزى، اتعاظ، مخطوطة قبو سراى، لوحة ٨٨؛ انظر. مختار العبادى، السياسة الفاطمية، ص ٢٢٢-٢٢٣. عن ميدان بين القصرين: الخطط، ٣ص ٤٤؛ انظر. Ravaisse، Essai sur l'Histoire et sur la Topogaphie du Caire M.M.A.F.I., 1. P. 439.

؛ ماجد ، نظم الفاطميين، ٢ص ٨٧-٨٨.

(٢) مثلاً: أبو الفدا، المختصر، ٢ص ١٦٧.

(٣) ابن غلبون، التذكار، ص ٢٣.

(٤) البيان، ١ص ٤٠٥.

(٥) نفسه، ١ص ٤٠٢-٤٠٣.

(٦) أنظر. Lane-Poole، Egypt, P. 138; n(I).

(٧) أنظر. Lavoix، Cat, t I, P. 78-79(92): ؛ ماجد، الحاكم، ص ١٦٥.

(٨) البيان، ١ص ٤٠٢؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ٧٤.

فى الآخرة من الخاسرين»، وفى الوجه الآخر العقيدة السنية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». كذلك أمر المعزّ بن باديس أن يسبك ما كان عنده من الدنانير الفاطمية، ونادى مناد بأن من تصرف بمال فاطمى نال عقوبة شديدة.

وفى أول الأمر؛ وقفت الخلافة المستنصرية مكتوفة اليدين، إزاء هذا الانفصال، بسبب مشاريعها فى العراق والشام، ولظروفها الداخلية من مجاعات وثورات جيشها، وفساد الحكم بتدخل أم المستنصر فى شئونه[1]. ولما تولى اليازورى الوزارة فى ٤٤٢/ ١٠٥٠، استخدم السياسة، لعل المعزّ بن باديس يرجع عن قصده. فبعث إلى المعزّ بن باديس سفارات، وكتب المستنصر إلى المعزّ ابن باديس، يقول له. « هل اقتفيت آثار آبائك فى الطاعة والولاء». ولكن المعزّ ابن باديس– الذى وجد أن رعيته ضد الشيعة– رد فى جوابه على المستنصر: « إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك، ولهم عليهم من الغدم أعظم من التقديم، [2] ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم[3]»؛ كما عمل تحقير الوزير، وبدلاً من أن يكتب إليه كما هو المعتاد: عبده، كان يكتب له: صنيعته، ووصفه: بالفلاح[4]؛ لأن اليازورى كان فى أصله فلاحاً. فنجد اليازورى لكى ينتقم يعمل على إرهاب المعزّ بن باديس، فيدس عليه من يأخذ نعله، كما تمكن من أخذ سكين دواته–التى يقطع بها الورق– وردها إليه قائلاً« إننا كما تلطفنا فى أخذها، نتلطف فى ذبحه بها»، وكان يسميه: البربرى الأحمق[5].

وأخيراً عولت الخلافة الفاطمية فى وزارة اليازورى هذا على حرب المعزّ ابن باديس. ولما كانت لا تستطيع إرسال جيشها ضده، بسبب انشغالها بمشروعاتها فى الشام والشرق، ولأن طوائف هامة فى جيشها كانت من المغاربة من نفس جنس جيش المعزّ بن باديس، ولا سيما أن الدولة أهملتهم منذ أيام

---

(١) نفسه، ١، ص ٤٠٣.
(٢) انظر. بعده.
(٣) ابن خلكان، وفيات، (ترجمة المستنصر).
(٤) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٦٨.
(٥) نفسه، ورقة ٦٩.

العزيز[1]؛ فإنها عملت على أن ترسل ضده قبائل عربية، من سلالة القبائل التى هاجرت إلى مصر مع الفتح العربى، أو جاءت مع القرامطة إلى الشام، ونقلها العزيز إلى الصعيد، كما ذكرنا[2]. وكانت هذه القبائل غير مرغوب فيها فى مصر؛ لأنها كانت تضايق أهلها بفتنها[3]، وتستطيل بالأذى عليهم؛ بحيث أصبحت كلمة عربى أو عربان من أيام الأمويين تدل على الرجل غير المتدين، وغير صحيح الإيمان[4]؛ كما أن معظم هذه القبائل كانت تعاون أعداء الفاطميين مثل أبى ركوة. فوجد اليازورى فى إرسال عرب مصر نحو شمال إفريقيا، ضرب عصفورين بحجر؛ بقصد التخلص منهم، وإرجاع المعزّ بن باديس إلى الطاعة. وينسب للمستنصر قوله: « والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة»، فدعا العرب وأباح لها مجاز النيل إلى المغرب، وكان ممنوعاً عنها قبل ذلك. فعبر منهم خلق عظيم.

وقد اختلف فى أسماء القبائل العربية الغازية، وعددها. ويبدو أن هذه القبائل كانت قد تكاثرت فى مصر الغنية، وانتشرت فى كل مكان فيها، ولا سيما فى الصعيد؛ بحيث أصبحت تمثل معظم فروع شجرة النسب[5]. العربية؛ فمثلاً الفيوم أصبح أكثر أهلها عرباً، وإن وجد بجوارهم القبط[6]. ونعرف من السجلات المصرية المستنصرية وكتب المؤرخين، أسماء بعض القبائل التى أرسلت نحو المغرب مثل[7]: رياح وزغبة والأثبج (الأسبج) وعدىّ وصعصعة وسلُيم ومع ذلك، فإنه غلب على غزوة العرب للمغرب اسم الغزوة الهلالية؛ ربما بسبب أن هذه القبائل السابقة، من أحياء بنى هلال[8]. وقد قدر عدد الغازين بخمسين ألفاً، أو

---

(١) انظر. بعده.

(٢) العبر، ٦ ص ٥٦ س ١٣ س ٩-١٠؛ انظر. يونس، الهلالية، القاهرة ١٩٥٦، ص ٧٤.

(٣) إغاثة، ط٢، ص ٢٤ س٦.

(٤) الطبرى، ٢ص ٩٤.

(٥) أهم مصدر هو المقريزى، البيان والأعراب، انظر.

(٦) الصفدى، تاريخ الفيوم وبلداه، القاهرة ١٨٩٨، ص ١٢-١٣، ٢٤.

(٧) سجل ٥، ص ٤٣ س ٢٠؛ العبر، ٦ص ٥ وما بعدها، ١٤ وما بعدها؛ الكامل، ٨ص ٥٥-٥٦، ١٠١؛ البيان، ١ص ٤٢٥٤؛ ابن خليون، التذكار، ص ٢٤؛ أبو الفدا، المختصر، ٢ص ١٧٠؛ أعمال الأعلام، ص ٧٧؛ انظر؛

;Les Arabes et Berbérie du XIVe Siècle. Constantine- Paris, 1913. P. 39 sqq.: Marçais
Ency de l'Isl, (art. Riyâh) t 3, P. 1242.

(٨) العبر، ٦ص ١٢-١٣ ، ٢٤ . عن هذه القبائل على الخصوص، انظر.
Ency de l'Isl, (art. Hilâl) t 2, P. 325-326; 2 éd t 3, P. 398-400;
; كحالة، قبائل العرب (هلال)، ٣ص ١٢٢١ وما بعدها؛ يونس، الهلالية، ص ٦٧-٦٨؛
Die Benî Hilâl. Geschichfe das Zeitschrit Fur Afrika und Qcean Sprachen. ; Hartmann
Iv, 289 sqq.

حتى بمليون نسمة، وهو رقم -على مايبدو- مبالغ فيه؛ بدليل بقاء بعض الهلالية فى مصر إلى أيام ابن خلدون[1]. ويحاول بعض المؤرخين القدامى والحديثين أن يحطوا من شأن عرب هذه القبائل، ويصفوهم بأنهم جماعات من المشردين[2]، الذين يشبهون الجراد، لأنهم كانوا يأتون على كل شئ فى طريقهم. ولكن من السجلات المستنصرية وغيرها؛ يظهر أن هذه القبائل وإن كانت غير نظامية، إلا أن الخلافة أرسلتها بقصد غزو منظم؛ فقد زودت قبل ذهابها بالسلاح والعتاد والمال.

وقد داعبت الأحلام جفون الخلافة الفاطمية، فحينما تحركت جموع العرب فى ٤٤٢/ ١٠٥٠[3]، وأرسل اليازورى إلى المعزّ بن باديس قائلا: « أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليها رجالا كهولاً، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً». فسيطرت هذه القبائل فى برقة، التى عرفت بثوراتها ضد الفاطميين أيام الحاكم، ولا سيما أنها أعلنت الطاعة للمعزّ بن باديس، وأحرقت المنابر التى كان يخطب فيها للفاطميين، وأحرقت راياتهم، وأعلنت دعوة القائم العباسى[4]. ثم استولت هذه القبائل على طرابُلس من زناتة، وقد بقيت فيها زُغبة. ثم دخلت إفريقية (تونس)؛ حيث أخذت مدنها تسقط الواحدة بعد الأخرى. ويذكر شاهد عيان أن العرب ما كانوا يمرون بقرية؛ « إلا وقد سحقت وأكلت، وأهلها عراة أمام حيطانها»[5]. ولدينا وصف استيلاء العرب على القيروان- العاصمة العربية القديمة- فقد استولوا عليها بقيادة مؤنس بن يحى الرياحى، بناء على خطة محكمة[6]؛ إذ كان العرب لا يبادرونها بالمهاجمة، وإنما يهاجمون ضواحيها، حتى

---

(١) العبر، ٦ص ٥. هو تقدير ابن رقيق. انظر. Marmol Caravajal ,I, l'Afrique; Paris, 1977
Histoire et Description de l'Afrique; trad Pary. London, 1895, : Leon l'African P.275 ; Les Arabes, P. 113.: Marçais , I, P. 139

(٢) مثلا: للبعض من القدامى: ابن خلدون؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art. al-Mustansir) t 3 , P. 832.

(٣) مثلا: الكامل، ٨ص ٥٥ وما بعدها؛ البيان، ١ص ٤١٧ وما بعدها .

(٤) البيان، ١ص ٤١٦.

(٥) نفسه، ص ٤٢٢.

(٦) فقد أراد العرب أن يتقدموا لمحاصرة القيروان؛ فقال لهم مؤنس: ليست المبادرة عندى برأى، فقالوا: كيف تحب أن نصنع؟ فأخذ بساطا فبسطه، ثم قال لهم: من يدخل وسط البساط من غير أن يمشى عليه؟ قالوا: لا يقدر على ذلك، قال: هكذا القيروان، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها؛ فحينئذ قالوا: إنك شيخ العرب وأميرها.

اضطر أهلها إلى الفرار. ومع أن المعزّ بن باديس لم يهتم بالعرب فى أول الأمر، إلا أنه عمل على أن يدخل ضدهم فى موقعة حاسمة دفاعا عن القيروان. فخرج فى ثلاثين ألف فارس ومثلها رجالة من عبيده ومعه عرب القيروان وصنهاجة وزِنّاتة، ولكن اتفق عرب القيروان مع عرب مصر بحكم ميل العرب بعضهم إلى بعض؛ كما أن صنهاجة انسحبت أوفرت بسبب أنها حليفة الفاطميين؛ مما مهّد إلى هزيمة المعزّ بن باديس. وقد سميت الموقعة بالعين؛ بسبب أن جند المعزّ كانت تلبس الكُزاغندات[١] مفردها كزاغند – وهى سترات مبطنة أى دروع، والمغافر– مفردها مغفر– وهى خوذات أو أردية، فلم يكن هناك مجال إلا بضربهم فى الأعين. ويبدو أن المعزّ بن باديس حاول من جديد صد العرب عن القيروان دون جدوى، وبعدها هرب المعزّ بن باديس إلى المنصورية–عاصمة الزيريين– فسار العرب إليها وحاصروها، وسقطت فى أيديهم. فانتقل المعزّ بن باديس إلى المهدية عاصمة الفاطميين الأولى بالمغرب، فحاصروه فيها سنة ١٠٥٧/٤٤٩.. وقد كان يتبع سقوط المدن فى أيدى العرب، تعامل أهلها بالسكّة– أى العملة–المستنصرية، وإعلان الخطبة للمستنصر؛ كما كان يولى عليها ولاة من قبل الخلافة الفاطمية[٢].

ولكن العرب اختلفوا وهم الذين كانوا دائمى الاختلاف فيما بينهم، حتى أنهم لم يرتحلوا من مصر، قبل أن يصالح اليازورى زغبة ورياح[٣]، وربما يكون المعزّ ابن باديس هو الذى دس بينهم. فأسرع المستنصر كما يظهر من سجل له صدر فى ١٠٦٣/٤٥٥[٤]، بإرسال مندوب عنه اسمه: الأمير أمين الدولة ومكينها

---

(١) الكزاغند سترة مبطنة بالقطن والحرير. عن الكزاغندات؛ انظر.

؛Suppl, 2, P.462 : Dozy

Die Waffen. Leipzing, 1886, P. 334. : Schwarzlose

؛ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٣٢١ وهامش.

عن مغافر، انظر. Dozy ، Suppl, 2, P. 21. هى كلمة تعنى العمائم أو الأردية.

(٢) سجل، ٥ ص ٤٤.

(٣) أبو الفدا، المختصر، ٣ص ١٧٠ عن قبيلة رياح، انظر.

Ency de l'Isl, (art. Riyâh) t 2, P 1242.

(٤) سجل ٥، ص ٤٢–٤٥

-حسن بن عليّ بن مُلهم- ليؤلف بين قلوب العرب على قتال المعزّ بن باديس. وقد نجح هذا الأمير في مهمته، وعادت قبائل العرب إلى الهجوم بقوة؛ فاستولت على مدن كثيرة« في حصون البحر وضواحي البر» ، منها قابس[1] قرب المهديّة، بحيث منعت ابن باديس- ويسميه في السجل اللعين- « أن يبل ريقاً، وسد لأنفاسه طريقاً» . كذلك يذكر السجل ذاته، أن بعض أسرة المعزّ بن باديس أسرعوا إلى التسليم، بمن فيهم من شخصيات هامه مثل ابن بلْكين صهر المعزّ وزوج أخته، وابن يلمو، وابن حمّاد من كبار القوم؛ كما أن عدداً كبيراً من شيوخ صنهاجة، وحجيجا كثيراً كانوا انقطعوا عن الحج منذ أن قطعت العلاقات وردوا مصر. كذلك يذكر المقريزى في مخطوطة طوب قبو سراى الموجودة بتركيا؛ أنه أرسلت إلى القاهرة تحف وأسلحة وعدد وآلات وخيام وغيرها؛ مما نهب من قصور بني باديس- مثلما حدث حينما نجحت ثورة البساسيرى في العراق- حيث كان ليوم دخولها إلى القاهرة، أمر عظيم من اجتماع الناس[2].

ويبدو أن موقف المعز بن باديس صار حرجاً؛ بحيث إنه أصبح على وشك السقوط، كما يذكر السجل. ولم يقف الأمر عند هجوم العرب عليه، بل نافقت عليه المدن الخاضعة له مثل سوسة، على البحر بإفريقية[3]. ومع ذلك لم تذهب دولته نهائياً، كما يذكر الإدريسى، بل لعله عاد إلى طاعة المستنصر وتاب[4]. ولا يمكن أن يكون المعزّ بن باديس توفى في ٤٥٢/ ١٠٦٠ أو في ٤٥٣/ ١٠٦١ أو في ٤٥٤/ ١٠٦٢[5]؛ وإنما هو بعد سنة ٤٥٥/ ١٠٦٣، أو في هذه السنة، بدليل السجل السابق وروايات مؤرخين آخرين، وقيل إن موته كان بالبرص.

فتولى بعده ابنه تميم[6] (ت٥٠١/ ١١٠٨)، الذى ذكر عنه أنه كان عاصياً على أبيه. وقد كان في نزاع دائم مع بعض مدن دولته المتفرقة مثل

(١) عنها: معجم البلدان، ٧ص ٢-٣؛ انظر. ماجد والينا، الأطلس، خريطة.
(٢) انظر. مختار، السياسة الفاطمية، ص ٢٢٤. يعتمد على نص مخطوط.
(٣) البيان، ١ص ٤٢٨. عنها: معجم البلدان، ٥ص ١٧٣؛ انظر. ماجد والينا، الأطلس، خريطة، رقم ١٠.
(٤) عيون الأخبار، ٧ ورقة ٧٥؛ انظر. H.R.Idris،
Sur le retour des Zirides à l'obédiehce fatimide, dans. AIEO. Alger 1934
(٥) الكامل، ٨ص ١٥٨ س ٣٢؛ المختصر، ٢ص ١٨٠؛ البيان، ١ص ٤٢٧؛ شذرات، ٣ص ٢٩٤.
(٦) عنه: وفيات، ١ص ١٧٢-١٧٤؛ البيان، ١ص ٤٣٥.

سفاقس[١]، الواقعة على ضفة البحر بجوار المهدية؛ حيث ثار فيها أحد أفراد أسرته، كما استولت قبيلة بربرية، اسمها هوارة على بعض بلاده[٢] بل كان تميم نفسه يطلب معاونة العرب، وأنكح بناته أمراءهم؛ إذ كان لديه أسرة كبيرة، له فيها مائة ولد[٣] ويبدو أنه بقى فى المهدية كعاصمة له، إذ توفى بها فى ٥٠١/١١٠٧؛ وإن كان العرب قد عادوا إلى حصارها فى ٤٧٦/١٠٨٣[٤]؛ ولكنهم هزموا. ولعله هو الآخر اعترف بالخلافة الفاطمية؛ حيث عادت العملة باسم المستنصر إلى الظهور فى المهدية من ٤٥٤/١٠٦٢ إلى ٤٥٧/١٠٦٥[٥]. ولكن لما ظهرت دولة بربرية عرفت بدولة المرابطين[٦] أو الملثمين فى جنوب المغرب ملاصقة للصحراء، من قبيلة صنهاجة فى الجنوب فى ٤٤٧/١٠٥٥ أو فى ٤٤٨/١٠٥٦ ، خضع لها. ولما تولى بعده ابنه يحيى بن تميم اعترف بالفاطميين أيضاً، ووصلته هدية منهم؛ كما تسلم علّى بن يحيى هو الآخر هدية[٧]. أما ولده حسن؛ فإنه لما هاجم الفرنجة المهدية –العاصمة– أراد الرحيل إلى مصر ليلتجئ إلى الحافظ الفاطمى[٨]؛ وإن كان ما لبث أن خضع للموحدين الذين سيطروا فى المغرب بعد المرابطين، وهلك فى رحلته إلى مراكش عاصمتهم، وهو آخر من ملك إفريقية من أسرته، وعلى يده انقرضت دولة الزيريين. كل هذا يدل على أن الزيريين. اضطروا أمام غزوة الهلاليين إلى العودة إلى طاعة الفاطميين والسعى إلى مودتهم.

(١) البيان ١ص ٤٢٨؛ الكامل، ٨ص ٩٥–٩٦. عنها، انظر. معجم البلدان ٥ص ٨٧–٨٨.

(٢) الكامل، ٨ص ٤ ١ ١٤٧

(٣) العبر، ٦ص ١٥، ١٦، ٢٩

(٤) البيان . ١ص ٤٢١

(٥) انظر Lane- Poole ، Hist, P. 138 n(I).

هى عملة زيرية، ليس عليها اسم الزيريين؛ وإن كانت باسم المستنصر بالله.

Catalogue .B.EO t XXIV Damas, 1971, P 24.: Launois.

(٦) وهى نسبه إلى الرباط الذى أنشأه فقيه اسمه عبد الله بن ياسين، كان ينشر أحكام الشرع بين القبائل، ونسبة إلى اللثام، الذى كان البربر يلبسونه فى الصحراء من الحر والبرد الكامل، ٨ص ٧٤–٧٦، انظر حسن محمود قيام دولة المرابطين القاهرة ١٩٥٧ أنظر

(٧) البيان، ١ص ٤٣١ ٤٤٢

(٨) العبر ٦ صفحة ٦٠ البيان ١ص ٣١٣ ابن القطان نظم الجمان ص ٢٤ وهامش

وفى الوقت الذى تمكن العرب فيه من القضاء على سلطان الزيريين، عملوا على السير نحو المغرب الأوسط ضد دولة بنى حمّاد، ولا سيما من ٤٥٧/١٠٦٥، وكان انسياحهم فيها يشبه انسياحهم فى دولة الزيريين؛ وإن كان أكثر صعوبة بسبب كون دولة بنى حمّاد جبالا وعرة، وتكثر فيها القلاع. ومع ذلك استولى العرب على هذه القلاع، ولا سيما قلعة حمّاد ذاتها؛ بحيث بنى الناصر بن علناس بن محمد بن حمّاد مدينة بِجَاية (باغاية) على البحر[١]، وتعرف أيضا باسم الناصرية على اسم بانيها كعاصمة. وكما لم يقض العرب على الدولة الزيرية، لم يقضوا على دولة بنى حماد؛ وكانت هى الأخرى تصالحهم، وتدفع لهم الإتاوة. بل إن دولة بنى حماد استفادت من كسر شوكة صنهاجة؛ بحيث أن تميماً سعى إلى مصالحتها فى ٤٧٠/١٠٧٧[٢]. ولكن لا يبدو أنه حدث اتفاق جدى بين الدولتين للقضاء على الخطر الفاطمى عليهما، بدليل استعانة الطرفين بالعرب فى منافستهما.

كذلك انتشر العرب فى المغرب الأقصى؛ حيث حدثت مصادمات عنيفة بين قبائل بنى هلال العربية وزناتة من البربر، خلّدتها قصة بنى هلال، التى وصفت لنا البطل أبا زيد الهلالى وعدوه خليفة الزناتى، وهذه القصة كبّرها المصريون، بما أضافوه إليها من خيالهم[٣]. وربما يكون حكام الأندلس سعوا إلى الاستعانة ببنى هلال ضد الأسبان[٤]، الذين كانوا يقومون بحركة الاسترداد "Reconquista"؛ إلا أنهم خافوا إذا وصلوا أن يخربوا البلاد، ويهاجموا سكانها من دون الفرنجة.

وعلى كل حال نجحت الدولة الفاطمية -بإرسال العرب- فى القضاء على نفوذ أعدائها الزيريين والحماديين .ولكن مثلما حدث فى العراق؛ لم تنتفع الدولة

---

(١) البيان، ١ص ٤٢٩-٤٣٠؛ الكامل، ٨ص ١٠٢؛ العبر، ٢ص ٤٦؛ انظر. Op.Cit.P.198.Marçais ؛ يونس ، الهلالية، ص ١٠١ وما بعدها. عن بجاية: معجم البلدان، ٢ص ٦٣.

(٢) الكامل، ٨ص ١٢٤-١٢٥؛ البيان، ١ص ٤٣٠.

(٣) عنها بالتفاصيل، انظر يونس ، الهلالية.

(٤) الكامل، ٨ ص ١٤١ س ٢٦-٢٧.

الفاطمية بهذه الانتصارات الباهرة. وقد كان السبب الأكبر هذه المرة -مثلما كان بالنسبة للعراق- سوء التصرف، ولا سيما ما حدث من كوارث للخلافة فى مصر من فساد السلطة التنفيذية، وثورات للجند ومجاعات؛ مما كان يشغلها عن الاهتمام بالمغرب. يضاف إلى ذلك أن العرب لما بعدوا عن مصر، لم يعد يربطهم بها شئ؛ كما أن هذه القبائل نفسها لم تتحد فى دولة؛ فأخذت كل قبيلة تعمل لحسابها، وتبيع المدن التى تستولى عليها للقواد المغاربة مثل القيروان[1]؛ كما تحولت إلى قبائل يقاتل بعضها بعضاً، فمثلا فى ٤٦٧/ ١٠٧٤، قامت حرب شديدة بين بنى رياح وزغبة[2]؛ إذ يبدو أن عداوتها لم تنته على الرغم من مصالحة الخلافة الفاطمية بينهما، ونتيجة لفوضى العرب تحولت البلاد التى نزلوا بها إلى أتون ملتهب من الاضطراب[3]. ومع ذلك، فإن غزو العرب للمغرب يعتبر حدثاً هاماً فى تاريخه "Tournant de l'histoire"؛ لما ترتب عليه من تغيير عنصرى، بحيث تحول الجزء الأكبر من أهله إلى عرب ومسلمين[4]، نلمس أثره حتى الآن[5]، حيث أثرت لغة التخاطب لقبائل بنى هلال فى اللسان البربرى بالتدريج، الذى كان طاغياً على اللسان العربى، وسارت عملية الاستعراب بسير عملية المزج والاحتكاك من وقتذاك.

*

وإذا تكلمنا عن المغرب، يجب أن نذكر صِقِلّيّة، وهى جزيرة مثلثة الشكل، مقابلة لساحل المغرب. وقد سعى المسلمون إلى السيطرة عليها منذ أن فتحوا المغرب، وقدّروا أهمية موقعها الجغرافى، لقربها منه، ولا سيما أن الروم كانوا قد

---

(١) نفسه، ٨ص ١٠٤.

(٢) نفسه، ٨ص ١٢١.

(٣) الدباغ، معالم الايمان، ٣ص ٢٥٢.

(٤) انظر. Bel ؛ Coup d'oeil sur l'Islam en Berbérie. Paris, 1913, P. 24.

(٥) انظر. Marçais ؛ Op. Cit, P. 205 sqq

انسحبوا إليها بجيوشهم من المغرب، واتخذوا من موانيها قواعد للقرصنة، وانشأوا فيها مخابئ لمراكبهم، فأغار العرب عليها منذ عهد معاوية.

ولكن لم يتيسر فتحها، إلا فى عهد دولة الأغالبة، وهى التى كانت قد استقلت بإفريقية (تونس)، قبل مجئ الفاطميين، فقد انتهزت دولة الأغالبة وجود ثورة فى صِقلّية ضد حكامها الروم؛ فقامت بغزوها فى ٢١٢/ ٨٢٧[١]؛ كما استولت على مالطة[٢] فى ٢٢١/ ٨٣٥ -٣٦ أو فى ٢٥٦/ ٨٦٩-٨٧٠. فضلاً عن انها استولت على جنوب إيطاليا؛ وهى كالبريا التى سماها العرب قلُّورِيَة[٣]، فاستولوا عليها فى غارات متعددة، ووصلوا إلى رُومية (روما) فى الأرض الكبيرة (أوربا) فى سنة ٢٣١/ ٨٤٦، وبها يسكن البابا الذى هو رئيس النصرانية الغربية، فدخلوا نهر التيبر، وأحرقوا المدينة، ونهبوا كنائس القديس بطرس "Pietro" وبولس "Paolo"، واضطر البابا ليو الرابع "Leo IV" أن يختبئ[٤]. وبفضل توسع الأغالبة فى الأرض الكبيرة، أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية، فكانت لا تسبح للنصرانية فيه سفن[٥].

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى المغرب بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صِقلّيَة ومَالطة وقلُّورِيَة، عن طريق مؤيديهم من البربر؛ كإرث عن دولة الأغالبة[٦]، التى تغلبوا عليها. هذا فضلاً عن إدراك الفاطميين أهمية هذه الجزيرة فى الجهاد، الذى جعلوه دعامة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعية.

(١) أمارى، المكتبة الصقلية؛ Biblioteca Arabo-Sicula، ص ٤٢٨؛ الكامل، ٥ص ١٨٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Sicile) t 4, P. 414 sqq.;

إحسان عباس، العرب فى صقلية، ط. دار المعارف، ص ٣١ وما بعدها. عن صقلية، انظر. معجم البلدان، ٥ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) عن مالطة؛ الكامل، ٨ص ١٥٩ (يفهم ضمناً استيلاء المسلمين عليها)؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art. Malte) t 3., P. 227 sqq.

(٣) الكامل ٥ص ٢٥٢، ٢٦٧. عنها؛ معجم البلدان، ٧ص ١٥٢-١٥٣.

(٤) لم يرد عن ذلك شئ فى المصادر العربية القديمة. انظر. Lauer، Le poéme de la destruction de Rome Mélange de l'Eeole de Rome, XIV, 1899, pp. 307-91.؛ نقولا زيادة، صور من التاريخ العربى، ص ٤٨؛ Reinaud: Invasions, P. 63. عن رومية، انظر. معجم البلدان، ٤ص ٣٣١ وما بعدها.

(٥) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٠١.

(٦) نفسه.

وقد ترددت أحاديث نبوية، نقلت عن الأئمة الفاطميين أنفسهم عن أخذ روميّة، وهى غير الأحاديث النبوية التى ترددت عن أخذ القسطنطينية، وأن أخذ روميّة يكون على يد المهدى أو الفاطمى المنتظر، ويقصد به مهدى الفاطميين؛ كما ورد فى مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس (B.N) ، بعنوان: شموس الغيوب من حناديس القلوب[1]. ولا ريب فقد احتلت روميّة مركزاً مهما فى أوربا؛ بسبب اعتمادها فى نفوذها على الفرنجة، الذين أصبحوا منافسين أقوياء للروم، فى ميدان الزعامة على المسيحية.

ولذلك نجد أن الفاطميين يستولون على صِقلّية إثر فتنة ضد واليها الأغلبى، وهى فتنة تبدو مؤيدة من قبل البربر -المغاربة- الذين يكونون غالبية الغزاة فى صِقلّيَة، إذ أيد البربر -كما نعرف- الفاطميين، وساعدوا على قيام دولتهم فى إفريقية مكان الأغالبة. فولى المهدى- أول خلفاء الفاطميين- على صِقلّية والياً اسمه: الحسن بن أحمد بن أبى خنزير الكتامى[2]، مكافأة للكتاميين، الذين كانوا أول من عمل على قيام دولة الفاطميين. ولكن العرب من جند صِقلّيَة ثاروا على الوالى المغربى، وأقاموا والياً عليهم اسمه أبو الفوارس؛ وإن نجح البربر فى أن يولوا والياً جديداً اسمه علّى بن عمرو البلوى.

وكان من عدم استقرار مُلك الفاطميين فى أواخر حكم المهدى، أن جعل حكم صِقلّية من قبلهم أيضاً غير مستقر. فحدثت فى صِقلّيَة فتن كثيرة، أهمها فتنة أحمد بن زيادة الله بن قرهب فى سنة ٩١٢/٣٠٠، وهو من أقارب الأغالبة[3]، الذى رفض أن يتولى على أهل صقلية فى أول الأمر، ولكن العرب عملوا على توليته. وكان ابن قرهب فى أول ولايته، يخضع للمهدى الفاطمى، ولكنه انقلب عليه بعد ذلك، ولم يكتف بالاستقلال بصِقلّيَة؛ وإنما جعل الخطبة

(١) وهى برقم ٢٦٦٩، ورقة ١٤٨؛ انظر. Abel :
Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatologique de l'Islam. Arabica, tv . Jan, 1958. Fasc 1, P. 1 sqq.
؛حسن ابراهيم، عبيد الله المهدى، مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب، بالاشتراك مع طه شرف، القاهرة ١٩٤٧، ص ١٩٩؛ ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ١٠٦. عن ذلك، انظر. مقدمة ابن خلدون، ص٢٠٧-٢٠٨.
(٢) المكتبة الصقلية، ص ٣٥٠ وما بعدها. نقلاً عن الكامل لابن الأثير.
(٣) ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٠.

على المنابر للعباسيين أعداء الفاطميين، وأرسل ضد هؤلاء أساطيله نحو إفريقية. ثم حدثت فتنة ضد ابن قرهب بتحريض من المهدى، فأراد ابن قرهب الهروب إلى الأندلس، ولكن جند صقليّة من البربر سلموه للمهدى الذى قتله فى ٩١٦/٣٠٤[1]، ولم يلبث المهدى أن أرسل أسطوله ليحارب العرب فى صِقلّيّة، وأخضع العرب للبربر.

ولما قلب البربر ظهر المجن للفاطميين فى المغرب، فى عهد القائم، ومن بعده المنصور-ولا سيما فتنة أبى يزيد، الملّقب بصاحب الحمار- ضعف مركز الفاطميين فى صقلّية، فكان يتولاها الولاة المتغلبون. يضاف إلى ذلك، أن أهل المدن المسيحية فى صقلّية، انتهزوا الاضطراب بتنازع العرب والبربر للقيام بالثورة ضد الحكم الإسلامى، وبخاصة أن بعض مدن صقلية لم تكن قد فتحت بعد، فكانت تستعين فى ثورتها بالروم. وكان المؤيدون للحكم الفاطمى فى صِقلّية، يحاربون سكان المدن المسيحية الثائرة. ويحاربون فى الوقت عينه البربر، الذين أصبحوا أعداء الحكم الفاطمى.

ولكن فى حوالى سنة ٩٤٥/٢٣٤، ولى المنصور الفاطمى الذى تغلب على فتنة مخلد بن كيداد، والياً على صقلّية من أصل عربى أو عربى بالولاء، اسمه: حسن (الحسن) بن علّى بن أبى الحسين الكلبى الكتامى[2]؛ حيث كان لأفراد أسرته مواقف جليلة فى خدمة الخلافة الفاطمية فى أثناء فتنة أبى يزيد. وقد تمكن الحسن بنفوذه ودهائه أن يعيد السلام إلى ربوع الجزيرة بين العرب والبربر، وأن يعود إلى الجهاد الداخلى والخارجى.

وفى الواقع إن الفاطميين فى ظل بنى أبى الحسين الكلبيين، استطاعوا أن يجاهدوا جهاداً لم يتهيأ لهم مثله فى أيام دولتهم. فكانوا يغزون مدناً رومية فى صقلية؛ كما أرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت المجاز من مسينى، وثبتت سيادة المسلمين فى قِلّوريّة[3]. كذلك عادوا إلى غزو السواحل الإيطالية، ففتحوا

---

(١) نفسه، ص ١٩٦، ٢٥١ وما بعدها، ٣٦٤ وما بعدها. نقلاً عن يحيى بن سعيد الأنطاكى؛ ابن الأثير؛ وعن البيان المغرب. انظر. إحسان، العرب فى صقلية ص ٤٠-٤١؛ Ency. of Isl, (art. Fâtimids) 2ed. t3, P. 853.

(٢) العبر، ٢ص ٢٠٨. عن تتابع أسرته، انظر. زامباور، معجم الانساب، ترجمة عربية، ص ١٠٧.

(٣) المكتبة الصقلية، ص ٢٥٣. نقلا عن الكامل لابن الأثير.

جنوا فى ٣٣٣/ ٩٤٥[١]، وأغاروا على قُورسقة وسَرَدانية[٢]؛ كما غزوا ساحل الريفييرا، وهو الذى عرفه العرب باسم: البر الكبير من العدوة الشمالية، والعدوة هى المكان المتباعد. بل أرسل المعزّ الفاطمى - الذى ولّى بعد المنصور من صقلية أسطولاً للمريّة - الميناء الأندلسى - أحرق جميع ما فيه من المراكب فى ٣٤٤/ ٩٥٥[٣]، للانتقام من الخلافة الأموية فى الأندلس التى كانت تثير الفتن فى المغرب، واختطفت مركباً فاطمياً، وتتحالف مع الروم[٤] ضدهم، وعلى العكس من نجاح الفاطميين فى جهادهم، نجد الروم الذى قووا بفضل الأسرة المقدونية التى تحكمهم، قد استولوا على الجزائر، التى كانت تخضع -ولو اسمياً- للعباسيين الضعاف، فاستولى الروم على أقريطش (كريت) فى ٣٥٠/ ٩٦١. وبعد خمس سنين استولوا على قُبرس[٥]، حتى لم يعد للمسلمين سيطرة فى شرقى البحر الأبيض، الذى عرف باللیڤانت "Levant" . ولعل الروم أرادوا استعادة صقلية، وكان من الممكن أن يغزوها؛ حيث بقيت فيها مدن مسيحية كثيرة، وبالفعل أنزلوا فيها جيوشهم، ولكن الخليفة المعزّ ثبت لهم[٦]. وتصف لنا سيرة جوذر اهتمام المعزّ البالغ بالأسطول[٧]، بإنشاء المراكب الحربية فى المهدية، وشراء حوائج الأسطول، وحمل العدة والسلاح والأطعمة إلى صقلية لنصرة العساكر. ويصف لنا ابن هانئ الشاعر(ت٣٦٢/ ٩٧٣)، الأسطول الفاطمى فى غاراته، بقوله[٨]:

(١) المقدمة لابن خلدون، ص ٢٠١س٣؛ العبر، ٤ص ٢٠٨؛ المكتبة الصقلية، ص ٤٦٢. نقلاً عن كتاب العبر لابن خلدون.

(٢) المكتبة الصقلية، ص ٢١٧. نقلاً عن الكامل لابن الأثير. انظر.
Ency de l'Isl, t4, P. 167.

(٣) النعمان، المجالس والمسايرات، مخطوطة بجامعة القاهرة، برقم ٢١٦٦، ورقات ٢٣٥-٢٣٩؛ تحقيق، ١ص ١٦٥؛ المكتبة الصقلية، ص ٤٦٤؛ الكامل، ٦ص ٣٤٩؛ انظر. العدوى؛ الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧، ص ١١٦ -١١١٧.

(٤) بدليل ذلك استقبال عبد الرحمن الناصر لرسل قسطنطين السابع، البيان، ٢ص ٣١٩-٣٣٢.

(٥) معجم البلدان، ١ص ٣١١-٣١٢، ٤ص ٢٩٩-٣٠٠، ٧ص ٣٦.

(٦) انظر . التفاصيل فى : Ency de l'Isl, (art Sicile) ef.

(٧) سيرة جوذر، ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١١٩.

(٨) تحقيق زاهد علىّ، بيروت ١٣٥٦هـ، ص ٢٦.
لدينا شعر من الشاعر علىّ بن محمد الأيادى التونسى يصف فيه قوة الأسطول الفاطمى فى عهد القائم. المقرى، نفح الطيب، ٥ص ١٩٩-٢٠٠؛ انظر. مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٨-٦٩.

عليها غمام، مكفهر صبيره   لــــه بارقــات جــمــة ورعـــود

إذا زفرت غيظاً، ترامت بمـــارج   كـما شب من نار الجحيم وقود

فأفواههن الحاميات صواعـــق   وأنـفـاسـهن الـزافـرات حديد

ولما أنتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر لم يرضوا التخلى عن حكم صقلية للمغاربة؛ كما فعلوا بالمغرب، وإنما فصلوا صقلّية عن حكم المغرب، وجعلوها خاضعة لهم مباشرة، وذلك للاستمرار فى الجهاد من ناحية، ولتكون قاعدة قد تهدد المغرب إذا حاول الانفصال. فأبقى المعزّ صقلّية لأسرة بنى الحسين الكلبيين السابقة، فولاها لأحمد بن حسن فى ٣٥٢/٩٦٣؛ حيث جاء إلى المعزّ قبل مغادرته المغرب وحلف له يمين الولاء[1]. فكان حكم صقلّيّة بهذه الأسرة، سبباً فى استقرار أحوال الجزيرة، والاشتداد فى الجهاد، فكان أفرادها يخرجون بأنفسهم للجهاد، حتى أن أبا القاسم بن حسن بن علىّ بن أبى الحسين، قتل فى معركة مع الفرنجة فى ٣٧١/٩٨٢[2]، وعرف بالشهيد لأنه استشهد فى غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا؛ وذلك بعد أن بقى فى ولايتها اثنتى عشرة سنة، وهو الذى كان قد دوخ السواحل. ثم وليها من قبل العزيز يوسف بن عبد الله ابن محمد بن أبى الحسين، فلما أصابه فالج استناب ابنه جعفراً فى ٣٨٨/٩٩٨[3].

والذى جعل أمور الجهاد تسير بنشاط أيضاً، هو وجود دور صناعات السفن فى مصر؛ حيث أن نواة الأسطول الفاطمى الكبير نشأت فى مصر، على يد صناعها المصريين. والمعزّ نفسه أنشأ دار صناعة فى مكان على النيل اسمه: المقّس[4]، كان من أكبر دور الصناعات البحرية؛ إذ كان يتسع لستمائة سفينة، ولم

---

(١) الكامل، ٦ص ٣٣٩؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، س ١٤٤ وهامش (٤)؛ ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٣.

(٢) المكتبة الصقلية، ص ٢٦٩. نقلاً عن ابن الأثير. الكامل، ٧ص ١٠٩؛ البيان، ط. بيروت. ١ص ٢٣٨. يقول ٣٧٢/٩٨٢. وأيضاً ابن الخطيب، أعمال، ص ١٢٤.

(٣) الكامل، ٨ص ١٥٧؛ انظر. Amari ؛ Storia dei Musulmani di Sicilia. Firenze, 1858, 2, P. 360 sqq.

(٤) الخطط، ٣ص ٣١٧-٣١٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين الجزء الأول، فصل الأسطول.

تر مصر مثل هذا العدد من السفن من قبل. وكان لهذا الأسطول ديوان يسمى: «ديوان الجهاد»، ورجاله يسمون: «المجاهدين فى سبيل الله»، وكان الخليفة الفاطمى يقوم بموادعة الأسطول، وتقام لذلك حفلة وداع توزع فيها النفقة والخلع والألقاب على رجال الأسطول. ولكن هذا الأسطول الضخم، أحرق فى أيام العزيز، واتهمت به جالية الروم فى مصر؛ وإن كان العزيز قد أمر بإعادة بنائه، وجمع الأخشاب من سائر أنحاء البلاد؛ حيث كانت مصر تزرع الغابات[1]، كما طرد جزءاً كبيراً من جالية الروم فى مصر. فكان أسطول الفاطميين فى مصر هو الحارس لصقلّية العربية.

وقد بقيت صقلّية خاضعة للحاكم بعد العزيز؛ بالأخص بفضل أساليب الحاكم الماهرة. فلكى يبقى على ولاء يوسف وابنه جعفر، منح يوسف لقب ثقة الدولة وولده جعفراً: تاج الدولة[2]. ولما اسقط الحاكم الألقاب جميعها، لم يسقط لقب صاحب صقلّية وولده، كما لم يسقط لقب صاحب إفريقية كما ذكرنا. وقد كانت صقلّية تذكر فى سجل قاضى القضاة. فقد ذكرت فى سجل ابن أبى العوام سنة ٤٠٥/١٠١٤[3]؛ ولدينا من صقلّيّة عملة مسكوكة باسم الحاكم[4].

وقد بقى جعفر–نيابة عن أبيه– ضابطاً للبلاد تخضع للخلافة الفاطمية. وذلك على الرغم من ثورات المغاربة، الذين كانوا قد قلبوا للفاطميين ظهر المجن فى كل مكان. فلما قام المغاربة بفتنة كبرى فى صقلّية عام ٤٠٥/١٠١٤. تغلب عليهم جعفر، ونفاهم إلى إفريقية. ولكن المغاربة ما لبثوا أن أجبروا يوسف على نفى ابنه جعفر إلى مصر فى ٤١٠/١٠١٩، فأرسله يوسف إلى الحاكم ومعه أموال كثيرة، وولى بدله ابنا آخر هو أحمد المعروف بالأكحل، الذى بقى على ولائه للفاطميين. على الرغم من استمرار ثورات المغاربة ضده مما مهّد إلى ضعف سيطرة الفاطميين على صقلّيّة.

---

(١) الخطط، ١ص ١١٨، ٣ص ٣١٥؛ انظر. Bahgat :
Les Forêts en Egypte. Mém de l'Inst. Eg. Le Caire, 1900, P. 141 sqq

(٢) يحيى، ص ٢٢٢–٢٢٣؛ انظر. ماجد ، الحاكم، ص ١٦٧.

(٣) ولاة، ص ٦١١.

(٤) انظر. Lavoix: Catalogue, P. 65; 67 (156-160).

وفى عهد الظاهر زادت المنازعات فى الجزيرة بين المغاربة من ناحية وجند نائب الفاطميين من ناحية أخرى. فقد ترك يوسف صقلية، وذهب إلى مصر ومات بها؛ وإن بقى فيها الأكحل وحده يحاول إبقاء الخيط الواهى، الذى يربط الجزيرة بالفاطميين؛ فوصلتنا عملة باسم الظاهر[١]. وفوق ذلك؛ انتهز الروم هذه المنازعات؛ فأرادوا تحقيق مغانم خاصة، وتهديد السيطرة الفاطمية. فنجد ملك الروم باسيليوس الثانى"Basilios II Bulgaroctonos"(بسيل) فى ٤١٦/١٠٢٥ -الذى كان يعادى الظاهر- يملك ما كان للمسلمين فى جزيرة قلورية[٢] (كالبريا). ولما كان الظاهر منشغلاً بمشاكله الداخلية -فى الشام على الخصوص- فإن المعزّ بن باديس والى المغرب جهز أسطولاً عدده أربعمائة قطعة من المتطوعين. ولكن هذا الأسطول لما قرب من جزيرة قوصرة المجاورة لساحل إفريقية؛ هبت عليه ريح شديدة ونوء عظيم. فغرق أكثره. وكذلك فعل رومانوس "Romanus III Argyrus" (أرمانوس) بمشروعاته فى غزو صقلّية، وكان يحارب الظاهر فى الشام[٣]. وقد كانت صقلّية هى السبب فى بقاء العداء قائما بين رومانوس والظاهر- حتى بعد توقف العداء فى الشام- فقد رفض الملك الرومى أن يعقد مع الظاهر هدنة. إلا إذا تركه حراً فى محاربة صاحب صقلية. ولكن الظاهر-الذى كان شديد الرغبة فى مصالحة الروم- رفض الموافقة على ذلك[٤].

وبعد ذلك، عقدت أرملة الظاهر -وهى أم المستنصر- حلفاً مع ميخائيل الرابع "Michael IV" فى ٤٢٩/١٠٣٨، فقد كان ميخائيل يسعى للمصالحة، لإعادة بناء كنيسة القيامة، كما عقد الأكحل أمير صقلّية حلفاً معه[٥]. ولكن ساءت الأحوال نهائيا، بالنسبة لسيطرة الفاطميين فى الجزيرة، بسبب تدخل المعزّ ابن باديس، الذى كان يسعى إلى الانفصال، فكان يدس فيها ضد الفاطميين، حتى

---

(١) انظر :. Ibid, P. 87(217); 89(222); P. 93 (234-235). ؛ Storia, II, 276-7: Amari.

(٢) الكامل، ٧ص ٣٢٣.

(٣) انظر. قبله.

(٤) يحيى، ص ٢٧٠-٢٧١. وهذا ينفى قول "Cahen" إن إتفاقا بين الظاهر والروم كان ممكنا. انظر. Ency, (art. Fatimides) t 2, P. 872.

(٥) انظر. Dölger ، Regesten, 841 ؛ أسد رستم، ٢ص ٦٦؛ ماجد، الإمام المستنصر، ص ١٤٦.

حدث بين الأكحل نائب الفاطميين وأهل صقليّة وحشة، فأرسلوا إلى المعز ابن باديس يستعدونه على الأكحل[1]، فأرسل جيشاً عليه ابنه عبد الله فى ٤٢٧/١٠٣٥، فحصروا الأكحل وقتلوه، وحملوا رأسه إلى المعزّ بن باديس. ولكن أهل صقليّة كرهوا عسكر المعزّ بن باديس فقاتلوهم، وأرجعوهم بالمراكب، وولوا أخا الأكحل الصمام بن يوسف.

ولم تلبث الأحوال أن اضطربت فى الجزيرة نهائياً، وانفرد كل إنسان ببلد، وأصبحوا أشبه بملوك الطوائف فى الأندلس. وقد كان أشهرهم هو ابن الثمنة[2]، الذى حكم سَرَقُوسة -عاصمة الحاكم الرومى السابق- وغيرها من مدن كثيرة، وتلّقب بالقادر بالله، وأصبح يعرف بصاحب صقليّة. ولكى يحتفظ هؤلاء الحكام بأملاكهم من طمع المعزّ بن باديس، الذى انفصل نهائيا عن سيطرة الفاطميين، كانوا يبقون على الخيط الواهى الذى يربطهم بالفاطميين، فيصدرون عملة باسم المستنصر، واستمر ذلك إلى آخر سنة ٤٥٦/١٠٦٤[3]. كذلك كان بعضهم يحمل المال إلى المستنصر؛ فكانت تغادر صقلّية كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر؛ كما كان يجلب منها كتان رقيق وثياب منقوشة[4]. وقد استغل الفاطميون من جانبهم هؤلاء الحكام بالتحريض ضد المعزّ بن باديس فى إفريقية؛ فقد حرض اليازورى أهل صقلية ضد المعز بن باديس[5].

وبسبب تطاحن أهل صقلية من ناحية؛ ودس المعزّ باديس من ناحية أخرى، تشجع أعداء المسلمين بالهجوم على الجزيرة. فقد غزا الروم صقليّة من جديد بقيادة منياكس "Maniakes" فى أوائل عهد المستنصر فى ٤٣٠ إلى ٤٣٢/١٠٣٨-١٠٤٠[6]، ولكنه فشل وقوى المسلمون الذين طردوا كل رومى من

---

(١) العبر، ٤ص ٢١٠.

(٢) نفسه، ٤ص ٢١١.

(٣) أنظر . Lavoix ؛ Cat, P. 122(320). قيل إلى آخر سنة ٤٤٨/١٠٥٧. انظر. Lane-Poole ؛ Hist, P. 138n (2).

(٤) سفر نامه، ص ٤٥. كانت صقلية على بعد عشرين يوما بالسفن من مصر.

(٥) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٨٥.

(٦) العينى، تاريخ، ورقة ١٨ ب؛ انظر. Michel Psellos ؛
Chronographia, ed et trad. Reinaud. Paris, 1828, 11, P. 31-46;
L'épopée byzantine à la fin du Xe siècle, t3, 1905 P. 227 sqq. :Schlumberger
؛ أسد رستم، الروم، ٢ص ٦٦؛
Le Monde Oriental, t 3 , P. 545. ؛ Diehl et Marçais

الجزيرة، وكان ذلك بمساعدة الزيريين، وليس الفاطميين؛ فقد كان جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن المعز بن باديس. وما لبث أن هدد صقلية عنصر قوى من أهل أوروبا عرف بالنورمان وسماهم العرب بالتسمية العامة بالفرنج[1]. وقد ظهر النورمان فى الوقت الذى ظهر فيه السويديون، وغزوا إنجلترا فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى وتحولوا فيها إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى فرنسا واستقروا فيها بالمنطقة الشمالية، التى عرفت باسم نورمنديا «أرمَندية»، ثم هجموا على سواحل الأندلس، التى بها المسلمون فى سنة ٢٢٩/ ٩٤٤[2]، وعرفوا باسم المجوس؛ كما هجموا على سواحل المغرب فى مدينة أصيلا (أَزِيلة)[3]، وذلك فى أيام الأدارسة قبل مجئ الفاطميين. وبعد ذلك دخلوا البحر الأبيض، وركزوا هجومهم على سواحل الأدرياتيك ضد مملكة الروم بقيادة زعيمهم روبر جسكارد "Robert Guiscard" وحاولوا أن يقضوا على نفوذها فى هذه الناحية ولكن الروم بقيادة قسطنطين التاسع "Cosantinus Monomachus" المعاصر للمستنصر -أوقفوا تقدم النورمان نحو القسطنطينية[4]. لذلك ركز النورمان جهودهم ضد صقلية، ابتداء من سنة ٤٤٤/١٠٥٢، فأخذوا يستولون عليها، ويهجرها أهلها المسلمون.

وقد تطوع ابن الثمنة-أحد الولاة[5] المستقلين أن يملّك النورمان صقلّية. ولعل السبب فى ذلك أن ابن الثمنة بعث يطلب مالاً من المستنصر، وكان المستنصر عاجزاً عما طلب منه للأزمة الاقتصادية فى مصرفى فى ذلك الوقت؛ فبعث ابن الثمنة إلى الفرنج، وفتح لهم الأبواب. وقد حاول المعزّ بن باديس أن ينقذ صقلّية بأسطول كبير شحنه بالرجال؛ إلا أن الأسطول غرق[6]. فكان غرقه مما

---

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٣٢٢.

(٢) الكامل، ٥ص ٢٧٢.

(٣) البيان، ١ص ٣٣١-٣٣٢

(٤) انظر. Anne Comnéne, Alexiade II, 17-57. Bréhier Byzance, P 278-9 ، أسد رستم، الروم، ٢ص ٩ ١ ١٢٢

(٥) النجوم، ٥ص ٨٧

(٦) الكامل، ٨ص ١٥٨ انظر Amari Stiona di Sicilia, 2, pp 423 sqq

أضعف المعزّ بن باديس أمام العرب؛ بحيث سهّل انشغاله عن صقلية غزو النورمان. كذلك حاول تميم بن المعزّ أن ينقذ الجزيرة من النورمان، فأرسل أسطولاً بقيادة ابنيه أيوب وعلّي؛ ومع أن المسلمين فى صقلية سروا بمقدم هذه المعونة؛ ولكن بسبب وجود العبيد فى جيش تميم، كرههم على صقلية، ورجع الأسطول فى ٤٦١/١٠٦٨؛ بحيث تركت صقلية للنورمان يتوغلون فيها، ولم يبق للنورمان مانع. فاستولى ملكهم رجار الأول (Rogerol) على الجزيرة بأجمعها فى سنة ٤٨٤/١٠٩١(١)، وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين؛ كما أنه استولى على مالطة فى ٤٨٣/ ١٠٩٠. ولم يكتف النورمان بأخذ صقلّيّة من المسلمين؛ وإنما هاجموا ساحل المغرب(٢) ومعهم الروم والجنويون والبيزيون؛ فكان الجنويون(٣) يقومون بمعارك بحرية مستمرة مع الفاطميين. فاستولوا على طرابلس الغرب فى ٥٤١/١١٤٦؛ والمهدّية عاصمة الفاطميين السابقة فى ٥٤٣/١١٤٨، ووصلوا حتى نَويلة فى الجنوب. وقد استمرت طرابلس والمهدّية فى أيدى النورمان إلى أن طردتهم منهما دولة الموحدين المغربية، التى نشأت فى المغرب الأقصى، وقد كان أخذ النورمان هاتين المدينين، وإغارتهم على غيرهما من مدن المغرب، سبباً فى جعل حدود الدولة الفاطمية تقف عند برقه.

وعلى العكس لم يحاول الفاطميون العمل على محاربة النورمان أو التعاضد مع الزيريين فى سبيل ذلك؛ بسبب سوء أحوال دولتهم فى آخر أيام المستنصر وبعده. بل وجدنا الخلفاء الفاطميين بعد المستنصر يقيمون علاقات سلمية مع النورمان وكذا تجارية. ولدينا خطاب مرسل من الحافظ إلى روجر الثانى"Rogero II"(٤)، يتبيّن منه العلاقات السلمية بين الفاطميين والنورمان، وخصوصاً أن

---

(١) الكامل، ٨ص ١٢٩.

(٢) البيان، ١ص ٤٣٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٠١؛ الكامل، ٨ص ١٤٧، ١٥٠؛ العبر، ٦ص ١٦٢؛ انظر.

Storia, 2, P. 170. : Amari

Ency de l'Isl, (art. Tripoli) t 4, P 858;

Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1952, P. 107: Julien;

(٣) انظر. Krusger: Genoese Trade with, north west Africa in the Twelfth Century Speculum, VIII, 3, July, 1933, P. 377 sqq.

(٤) صبح، ٦ص ٤٥٨-٤٦٣؛ انظر. Canard :

Une lettre du Calife Fatimite al-Hâfiz (524-542-1130/1149) à Roger II, Palerme, 1955, P. 125-146;

La Politique arabe des Normands de Sicile. Sivdia Islamica.IX, Paris,: Gabrieli 1958,P. 86.

: ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ١٢٦.

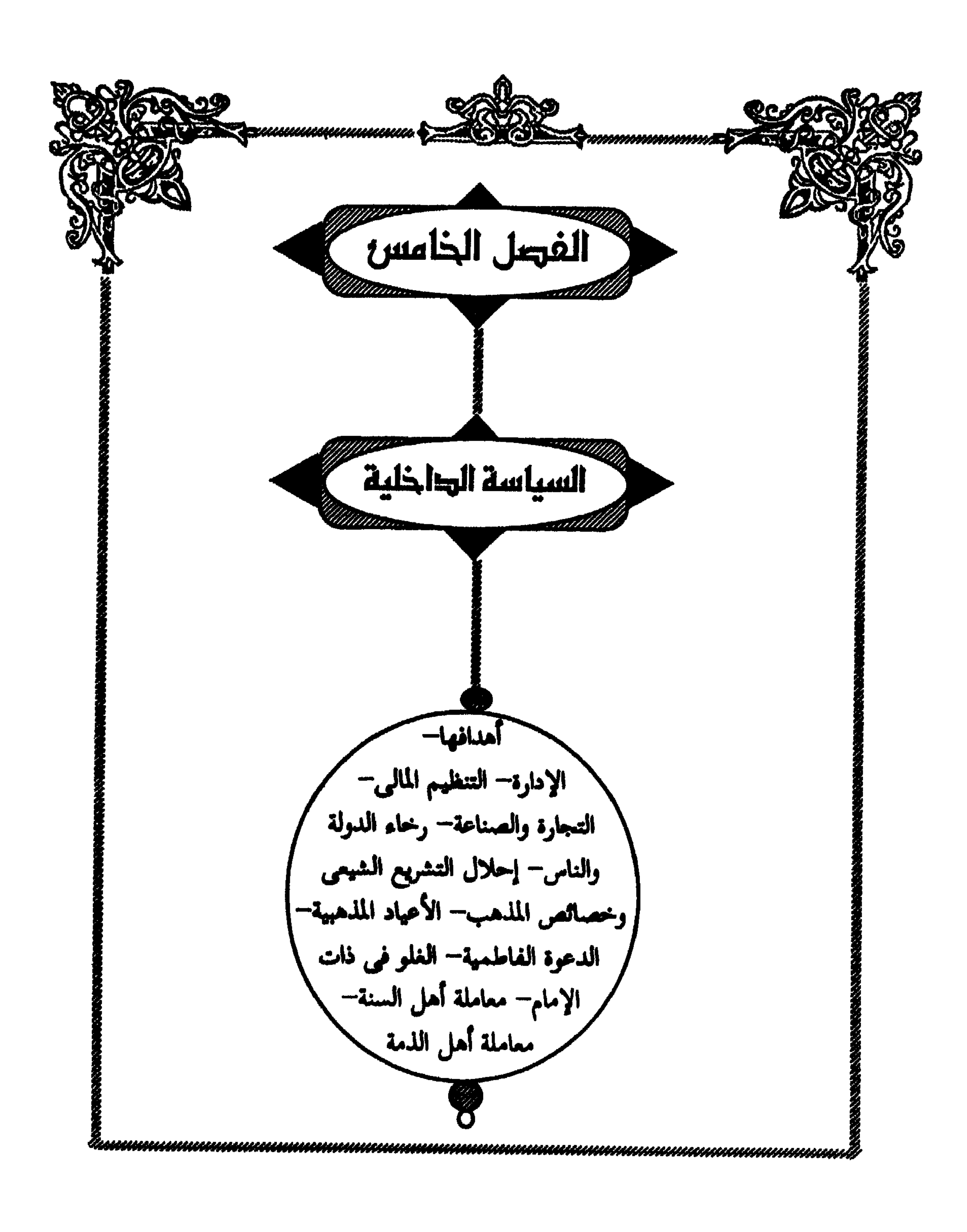
هؤلاء بسبب وجود رعاياهم المسلمين، عملوا من ناحيتهم على تحسين علاقاتهم بالمسلمين خارج صِقلّيّة. ولكن ظهور ملوك متعصبين منهم، ومشاركتهم الصليبيين الذين هددوا الشَرق الأوسط؛ جعلتهم يغيرون من سياستهم نحو الفاطميين، حتى أنهم أغاروا على موانى مصر، مثل: تنّيس ودمياط والإسكندرية[1]، فى آخر أيام الدولة الفاطمية.

* * *

وبالإجمال؛ فإن الأملاك الواسعة التى ورثتها الخلافة الفاطمية بدأت تتقلص، وإن كان مجهودها فى الاحتفاظ بها كان كبيراً.

---

(٣) انظر. Amari ، cf. Storia Index ،
Ency.(art. Fatimides) tp 875.
وذلك فى سنة ٥٤٨/١١٥٣ و ٥٥٠/١١٥٥ و ٥٦٥/١١٦٩و ٥٦٩/١١٧٤


الفصل الخامس
السياسة الداخلية
أهدافها-
الإدارة- التنظيم المالى-
التجارة والصناعة- رخاء الدولة
والناس- إحلال التشريع الشيعى
وخصائص المذهب- الأعياد المذهبية-
الدعوة الفاطمية- الغلو فى ذات
الإمام- معاملة أهل السنة-
معاملة أهل الذمة

السياسة الداخلية

بعد ذلك نلقى نظرة شاملة على سياسة الفاطميين فى مصر، التى اتخذوها قاعدة لحكمهم، ومركزاً لتحقيق اهدافهم، وخصوصاً أن المعزّ الفاطمى حينما دخل مصر، دخلها ومعه توابيت آبائه[1] ، الذين ماتوا بالمغرب؛ مما يدل على أنه كان يستهدف الاستقرار نهائياً فى مصر.

ولا ريب أن المصريين قبلوا حكم الفاطميين عن رضاء تام، فنعرف أن هؤلاء جاءوا إلى مصر بناء على دعوة أهلها[2] ، ولم يكن العصر عصر القوميات، حتى يظهر مصرى، يحصل لبلاده على حكم مصرى خالص. فهذه الأفكار فى الوطنية لم يكن لها وجود فى ذلك العصر؛ لأن الفكرة المسيطرة على الناس وقتئذ، هى أن تضمهم الخلافة الإسلامية، التى ينضوى تحت لوائها جميع المسلمين فى دار الإسلام، ومن المفروض أن تكون عصبيتها فى قريش، على حسب ما سن فى سقيفة بنى ساعدة، بعد وفاة النبى. لذلك لم يطمع المصريون فى حكم أنفسهم بأنفسهم بقدر ما يطمعون فى أن تحكمهم أسرة من سلالة النبى من قريش. ولو لم يقبلوا ذلك، لاعتبروا خارجين على مبدأ الخلافة، أو بمعنى آخر على المبدأ الدستورى القائم، الذى كان يحكم بلاد الإسلام، طوال العصور الوسطى.

ومن ناحية الفاطميين أنفسهم؛ فقد كان همهم استمالة المصريين، حتى يتفرغوا لأهدافهم الثورية فى توحيد الإسلام تحت رايتهم، وفى نشر مذهبهم الشيعى، وهى الأهداف التى من أجلها انتقلوا من المغرب إلى مصر. لذلك حينما دخلوا مصر لم يدخلوها دخول الغزاة المنتقمين، وإنما كان همهم اكتساب أهل مصر إلى جانبهم، فأعلنوا لأهلها الأمان بمجرد أن طلبوه[3] ، وجددوه لهم عدة مرات، بقصد إظهار نياتهم الأكيدة فى التقرب إليهم. وحتى لا يتضايق المصريون، فإنهم لم يسمحوا للمغاربة الذين يكونون معظم جيشهم، بالسكن فى مدينة

---

(١) أنظر. قبله.
(٢) إتعاظ، ص ١٤٦ -١٤٧.
(٣) أنظر . قبله.

الفُسْطاط فكان منادى جوهر[1] -قائد الجيش- ينادى كل عشية، لا يبقى فى المدينة أحد من المغاربة، وجلد بعض المغاربة، الذين ضايقوا المصريين. وقد أثار المغاربة بعض الاضطراب بمجئ المعزّ ، ولكن الخليفة أقر سكناهم خارج مصر، وأسكنهم القاهرة[2]، المدينة التى بناها جوهر. ولما نزل بعضهم فى دور المصريين، أنكر المعزّ ذلك، ونقلهم إلى عين شمس بعيداً، وركب بنفسه، حتى يشاهد المواضع التى ينزلون فيها[3] . ولا يعنى هذا أن الفاطميين كانوا يريدون تدليل أهل مصر؛ فقد كانوا يحكمونهم كما يحكم أغلب الملوك شعوبهم فى العصور الوسطى، وهو الحكم الذى يتلخص فى هذه العبارة :أنا الملك الزوج، والشعب زوجتى الشرعية، كناية عن تصرف الحاكم بالشعب على حسب هواه.

*

فهم وإن جعلوا الدواوين -وهى المصالح الحكومية- فى القصر الفاطمى[4]؛ لتكون تحت إشرافهم المباشر؛ إلا أنهم أبقوها فى أيدى الموظفين المصريين، كما كان الحال قبلهم، وبخاصة فى أيدى القبط، الذين يكونون نحو ثلث سكان مصر؛ حيث لم يكن الإسلام قد انتشر بعد على نطاق واسع، فكانت معظم مصالح الدولة فى أيدى القبط. ولدينا أمثلة كثيرة، تشير إلى استخدام القبط فى مختلف الدواوين، وفى أعلى المناصب الإدارية، وأنه زاد عددهم عن ذى قبل[5].

حقا إن جوهرا عند وصوله مصر، عين بعض المغاربة من أتباع الدولة المخلصين فى المراكز الرئيسية فى الإدارة؛ بحيث يقول المقريزى: إنه لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه[6]؛ إلا أن المغاربة، الذين كانوا يجهلون شئون الإدارة المصرية، لم يبقوا فيها إلا فى أوائل حكم الدولة، حينما لم تكن الدولة قد استقرت بعد، بقصد زيادة قبضتها على البلاد. وخصوصا أن تحول المغاربة عن الإخلاص للدولة الفاطمية فيما بعد؛ جعل الخلافة تبعدهم عن كل سيطرة؛ لذلك بقيت الإدارة فى مصر يعمل فيها المصريون.

---

(١) إتعاظ، مخطوطة، نقلاً عن الوثائق الفاطمية، جمع الشيال، ص ١٩٥.

(٢) نفسه، ص ٢٠٣.

(٣) نفسه، ص ١٩٧؛ ابن ميسر، ص ٤٥.

(٤) الخطط، ٢ص ٢٣٦؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٩٥.

(٥) يحيى (P.O.)، ص ٩٠٥-٥١٠؛ حسن المحاضرة، ٢ص ١١٦ س ٧.

(٦) اتعاظ، ص ٨٧.

وكان هم الفاطميين أن يشعروا المصريين بأن طريقة حكمهم صالحة، تختلف عن طريقة حكم ولاة الخلافة العباسية قبلهم. فنجد جوهراً والمعزّ وخلفه يهتمون بالمظالم، وهو نظام قضائي معروف؛ بقصد تطهير أداة الحكم من فساد الموظفين في العاصمة والولايات، وكان القيام به وسيلة ناجحة للمحافظة على سمعة الدولة، بسعيها إلى إقامة العدل بين الرعية. فكان الخليفة الفاطمي يقوم به في قصره؛ حيث خصص له فيه مكاناً يعرف بالسقيفة -أي موضع له سقف- بباب الذهب[1]، فضلاً عن أنه عين له قاضياً متخصصاً يعرف بقاضي المظالم[2]، أو كان يكفله لأحد كبار موظفيه، وإن كان لابد أن يكون معه ممثلان عن الخليفة؛ أحدهما صاحب القلم الدقيق والآخر صاحب القلم الجليل، وذلك للتوقيع نيابة عن الخليفة. فكان المتظلمون من أبناء الشعب المصرى يأتون إلى القاهرة، ومن جميع أنحاء البلاد المصرية؛ يتظلمون من تعسف الإدارة، وظلم الموظفين.

وكان خلفاء الفاطميين في أول أمرهم يشرفون بأنفسهم على الحكم[3]؛ حتى أن جوهراً رفض أن يعترف بالوزير ابن الفرات، الذى كان وزيرا في عهد الإخشيديين، ولما جاء المعزّ لم يتخذ وزيراً، وإنما اعتمد على كبار كتّاب الدواوين من المصريين، ولقّبهم بألقاب منها: الموقع أو المدبر[4]؛ بمعنى أنهم يتصرفون في الأمور بعد الرجوع إلى الخليفة. ومنذ العزيز ظهرت رتبة الواسطة أو الوساطة[5]؛ أي من يتوسط بين الخليفة والرعية، ومن يتولاها يتسمى بالوسيط أو السفير، كما ظهرت أيضاً رتبة الوزير[6]، بمعنى الذى يتحمل عبء الحاكم. وقد فكر الخليفة الحاكم في أن يسير في حكمه على أسس إسلامية؛ فجمع مجلسا للشورى من أعيان الدولة والمصريين، ولكن ما لبث أن أبطله[7]، وعاد إلى الاعتماد

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٤٥.

(٢) ولاة، ص ٥٨٤.

(٣) انظر. الفصل الخاص بالوزارة في كتابنا: نظم الفاطميين، ١ص ٧٨ وما بعدها.

(٤) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، ص ٢٥، ٢٦، ٢٩.

(٥) نفسه، ص ٢٩، ٣٠، ٣٤؛ صبح، ٣ص ٤٨٩، ٢ص ١٤٩.

(٦) حسن المحاضرة، ٢ص ١١٦.

(٧) الخطط، ٤ص ٦٨ (في آخر الصفحة)؛ انظر. ماجد، الحاكم ص ٤٦.

على الوسيط أو الوزير، وهذا المنصب الأخير استمر إلى وقت سقوط الدولة الفاطمية.

ومع أن منصب الوزير هو المنصب التالي للخليفة الفاطمى؛ فإنه كان يتولاه المصريون من المسلمين أو القبط[1]؛ بحيث أن أغلب وزراء مصر من هؤلاء فى العهد الأول من حكم الفاطميين. ولا ريب؛ فإن المصريين أدرى بحكم أنفسهم من غيرهم، وإن لم يمنع ذلك من إن يبحث الفاطميون عن كفاءات أخرى بين أفراد ليسوا من المصريين. وفى واقع الأمر؛ فإن المصريين كانوا هم الذين يحكمون فى دولة الفاطميين بوجودهم فى الإدارة وفى منصب الوزارة.

ومن الطريف أن نذكر أن دولة الفاطميين كانت تمنح الألقاب لسائر موظفيها بجميع طبقاتهم؛ للقبط والمسلمين على السواء؛ بجميع أنحاء ولايات الخلافة؛ فكانت بعض الألقاب تميّز كل منصب عن الآخر. والواقع أن الألقاب فى عهد الفاطميين انتشرت بشكل لم يحدث من قبل، وأن بعضها كان يصل إلى عشرة ألقاب أو أكثر. وحينما فكر الخليفة الحاكم بأمر الله فى إسقاط الألقاب، بقصد المساواة بين الجميع، وجد أن ذلك يفقده نفوذه فأعادها، وإن كان الحاكم كان يعاقب بسلب لقب الشخص، فيصير الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه، فيكون عيداً عند الرجل.

*

بالإضافة إلى ذلك، اهتمت الخلافة الفاطمية بكل ما يتعلق بشئون المال فعملت على تنظيم ضريبة الأرض، وإن جعل هذا التنظيم الأرض فى مِلْكِ الدولة، مثلما كان الحال فى عهد الأمويين أو العباسيين، والفراعنة من قبل. وقد استحدثت الخلافة قصبة لقياس مساحة الأرض، عرفت بالقصبة الحاكمية[2]، أصبحت المقياس المعترف به، حتى بعد سقوط دولتهم. فكانت الأرض فى عهد الخلافة الفاطمية تؤجر إلى كبار المزارعين المسلمين والقبط على السواء، بصفتهم

(١) الإشارة؛ أنظر.

(٢) صبح، ٣ص ٤٤٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٣.

مُتقبِّلين أو ضُمَّان[1]، يتعهدون بدفع ما عليها من ضريبة لقاء استغلالها. وكانت قبالات الأرض -مفردها قبالة- تتم بطريقة التزايد عليها، وذلك لمدة أربع سنين، حتى تتاح الفرصة للمتقبل أن يعوض النقص فى حالة المحصول السيئ. أما بقية سكان مصر من غير كبار المزارعين؛ فإنهم فى الواقع كانوا أشبه برقيق الأرض، وإلى عهد الفاطميين كان الصراع جاريا ضد الهاربين من المزارعين. وكان المال على الأراضى يؤخذ على حسب السنة الخراجية أو الشمسية؛ إلا أنه قرئ مرسوم فى سنة ٤٩٧/ ١١٠٣[2]، يفرض الجباية على حسب السنة الهلالية بدلا من الشمسية؛ وإن لم يتجاوز هذا القرار غير قراءته. وفوق ذلك لا نسمع بوجود إقطاعات كثيرة فى عهد الخلافة الفاطمية، مثلما حدث فى العهود التالية لهم من الأيوبيين والمماليك. ويلاحظ أن هذه الإقطاعات كانت قليلة جداً فى عهد الدولة الفاطمية؛ إلا أنها تضاعفت فى آخرها[3]؛ بسبب سيطرة رجال الجيش وقت ضعفها؛ وإن حددت مدتها إلى ثلاثين سنة[4].

كذلك نظمت الخلافة الفاطمية الضرائب على الإنتاج من الوارد والصادر[5]، وغلب عليها فى عهدها أسماء عديدة، منها: المكوس[6] التى فرضت على البضائع فى المدن والسواحل على البضائع الواردة إلى الموانئ، والعشر على بضائع المسلمين، والخمس على بضائع الأجانب. وكانت هذه الضرائب تأتى بحصيلة

---

(١) الخطط، ١ص ١٣٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١١٤.

(٢) سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٦؛ انظر. بهجت، مقدمة قانون ديوان الرسائل، ص ١٥ وما بعدها. نقلا عن المقريزى.

(٣) الخطط، ١ص ١٣٨ س ٣-٤.

(٤) نفسه. (بولاق)، ١ص ١٣٣ س ٢٧.

(٥) بتفصيل، انظر. ماجد ، نظم الفاطميين، ١ص ١١٧-١١٩.

(٦) الخطط، ١ص ١٦٦-١٦٧. كلمة «مكس» بمعنى ضريبة أسواق، كانت معروفة من قبل، فى العصر الجاهلى. انظر. Dozy : Suppl. 2, P. 806. وقبل مجئ الفاطميين، كانت تعرف باسم: « الهلالى»؛ لأنها تستأدى على حكم الشهور الهلالية، وأيضاً باسم: «المواقى»، و«المعادن». ولعل اسم قرية « مقس » على النيل ، وهى تحريف لكلمة «مكس»، لأن الماكس كان يقعد بها ليستخرج «المكس». عن هذه القرية، انظر. المقريزى، الخطط، ٣ص ١٦٩.

وافرة من المال؛ إذ كانت تفرض على كل شئ بملاحظة المقريزى، وفيما عدا الهواء الذى أطلق سراحه، وترك حراً. لذلك وجدنا الخليفة التقى الحاكم بأمر الله، يعمل على تخفيفها، فألغى منها المكوس[1].

وعلى العكس؛ وجدنا أن الضريبة، التى كانت تفرض على أهل الذمة، واعتبرت من أهم مصادر المال فى عهد الخلافة الإسلامية الأولى، لم تعد كذلك فى عهد الفاطميين فى مصر، وذلك بسبب تحول معظم المصريين للإسلام، حتى انها أصبحت تسمى:«الجوالى» فى عهدهم، بدلاً من اسمها القرآنى الجزية؛ مما يدل على قلة عدد أهل الذمة، ويذكر القلقشندى أنه كان لها ديوان اسمه: «ديوان الجوالى»[2].

ومن ناحية أخرى، تدفق المال على خلفاء مصر الفاطميين من كنوز مصر الدفائن، إذ كان اغلب حكام مصر الإسلامية يسعون إلى التنقيب عنها. ومنذ عهد الفاطميين، نظمت عملية التنقيب عن الآثار المصرية القديمة. ويبدو أن ذلك كان فى عهد الحاكم بأمر الله[3]؛ وإن وجد البحث عن آثار مصر وكنوزها من أيام الطولونيين؛ بحيث كون الباحثون لها نقابة حقيقية أصبحت من نقابات الحرف، كما سعى بعض المصريين إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة مثل المتصوف الكبير ذا النون المصرى[4](ت٢٤٥/٨٥٩)، وهو من أبناء أخميم فى الصعيد. فكان الخليفة يأخذ الخمس منها، يدفعه له شيخ الباحثين، وهو أمير تابع له، تحت يده الحفارون، أو ماكان يسمى بالمطالبين. وفى سبيل ذلك، كان الخليفة يأتى برجال من المغاربة والمصريين وأهل الشام، ينفقون المال الكثير، ويتحملون المشاق فى تلال مصر ومحاجرها، فأحياناً يجدون الدفائن والكنوز، وأحياناً لا يهتدون. ومن كثرة ما جمعه منقبو الآثار فى عهد الخليفة المستنصر؛ فإنه لما نقلت ثروة أحد زعماء الحفريين إلى خزائنه، استمر النقل مدة شهرين[5].

(١) نفسه، ٣ص ١٩٦ وما بعدها ؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٣.

(٢) صبح، ٣ص ٤٦٩.

(٣) نقلا عن ابن حماد . انظر. توفيق اسكندر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى. ترجمة، القاهرة.١٩٦١، ص ٦٩.

(٤) عنه: الشعرانى، الطبقات الكبرى، القاهرة ١٢٩٦هـ، ١ص ٧، ٤٩.

(٥) سفر نامه، ص ٦٩؛ انظر. ماجد، المستنصر، ١٥٤.

وكان المبدأ السائد فى هذا العصر، هو ألا تذهب إيرادات الدولة بأنواعها المختلفة إلى بيت المال لتخزن؛ وإنما يخصص كل إيراد لنفقه معينة، وأن بيت المال لا يستعمل إلا فى تخزين الفائض أو الاحتياطى. وكان الفاطميون مثل غيرهم من حكام الدول الإسلامية المتقدمة، يحرصون على تقديم الميزانية كتابة؛ لإحصاء قدر الارتفاع فى النفقات. وفى سبيل ذلك، أقاموا ديوانين: ديوان النظر للإشراف، وديوان التحقيق[1] للمراجعة. فكان ربط الميزانية يتم على حسب السنة الشمسية؛ لأن الخراج الذى يكون الجزء الأكبر من الدخل، كان يجبى على حكم السنة القبطية أو الشمسية.

وأخيراً؛ فإن الفاطميين عملوا على تجويد العملة فى التداول، وكانوا قد وعدوا بها المصريين فى الأمان، الذى أصدروه لهم. ولم يلجأوا فى أول الأمر إلى منع العملة السنية، حتى لا يحدثوا اضطراباً فى التعامل، أو خسائر فادحة لمن يملكونها، وإنما أبقوا عليها مثل: الدينار «الراضى»[2]، نسبة للخليفة الراضى العباسى، والدرهم «الرباعى»[3]، المضروب فى عهد المأمون، العباسى، والدينار«الأبيض»[4] اى النقى ، الذى سك فى عهد الأمويين[5]، وبقى حتى مجئ الفاطميين. ولكنهم منعوا العملة ذات الفئة الصغيرة، مثل: «المثقال»و «القطع»[6]، التى لم تعد لها قيمة بسبب ارتفاع الأسعار. ولما كان إصدار العملة يدل على سيادة الدولة[7] السياسية؛ فإن الفاطميين عملوا على إصدار عملة خاصة بهم، تحمل بالضرورة عقيدتهم الشيعية، وأسماء خلفائهم وألقابهم، وتواريخ الإصدار، ولفظة عالٍ أو عالٍ غاية[8] -وهو ما يعرف بالعلامة أو الرمز- الذى يبيّن صرفها على المعيار الرسمى.

---

(١) صبح، ٢ص ٤٩٣، ١ص ٤٠١؛ الخطط، ٢ص ٢٤٢؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١١٢،١١٣-١٤٥.

(٢) الخطط، ٣ص٨س٢.

(٣) نفسه، ٢ص ٣٣٧ س ٨؛ ٣٢١س١٣؛ المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٤٠.

(٤) الخطط، ٣ص ٨ س ؛ ابن ميسر، ص٤٥.

(٥) انظر. انستاس مارى، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩، ص ٤٢-٤٣. سك الحجاج هذا الدينار.

(٦) المقدسى، أحسن، ص ٣٠٤.

(٧) انظر . ما كتبناه عن العملة الفاطمية فى كتابنا: نظم الفاطميين، ١ص ١٣٦ ما بعدها.

(٨) انظر. Laviox. : Catalogue des monnaies de la Bibliothèque, Nationale, continué par Casanova, t 3, P. 154; 156;162; 169.

وكانت عملتهم ثنائية جيدة، لا تضرب إلا من المعدنين القيمين الذهب والفضة؛ كما حددوا مقادير كل منهما، ونسبة الواحد منهما إلى الآخر. فنعرف من عملتهم الجديدة: الدينار «المغربي»[1] الذى ادخله الفاطميون من المغرب، والدينار «المعزّى»[2] نسبة إلى المعزّ الفاطمى. ويبدو أن الصيارفة لم يعجبهم تحديد الدولة مقادير كل عملة، فقاموا بثورة إلا أن جوهراً هدد بحرق مكان الصيارفة[3]؛ مما جعلهم يخضعون للأمر الواقع. ثم إن العزيز عمل على سيادة العملة الفاطمية وحدها فى التداول؛ فاشترط أن تكون جباية الخراج بالدنانير والدراهم الفاطمية[4]؛ فكان هذا عاملاً على تضعضع العملة السنية، وتحول المصريين عنها .وقد ترتب على ذلك أن سادت العملة الفاطمية فى جميع أنحاء مصر والإمبراطورية؛ بحيث إنها كانت تسك فى دور السكة التى أقيمت فى طول البلاد اوعرضها بشكل لم يعرف قبلاً: فى القاهرة ومصر والإسكندرية وتِنِّيس؛ فضلاً عن سكها فى كافة ارجاء دولتهم: فى صُور وعَسقلان وطَبرية ودمشق والمهدّية والمنصورية وصقلّية[5]. ويذكر المخزومى أن دار الضرب بثغر الإسكندرية كان يرد إليها الذهب الرومى على اختلاف أصنافه من الدنانير وغيرها، والسبائك، والدنانير الطرابلسية، والرباعية، والمهدوية، والصقلّيّة القديم، والدنانير المرابطية، والمكسرة، و«المصاغ». فيعقد عليها فى الأتون، وتصير ذهباً نقياً، أو فضة ماء واحداً، وتسبك سبيكة واحدة، أو تقلب قضباناً، ويكون المعيار بالميزان، ثم تختم بختم السكة [6].

وكانت الخلافة الفاطمية تستهدف الاهتمام بالتجارة والصناعة، وكان مجهودها فى هذا المجال كبيراً؛ مما يدل على فهم واسع لمسائل الاقتصاد فى عصرها؛ كما كان بناء عاصمة جديدة، وهى القاهرة، بجوار مصر أو الفسطاط، العاصمة القديمة، أثر فى نهضة البلاد الاقتصادية فى أيام الفاطميين، ونمت

---

(١) سفر نامه، أنظر.
(٢) ابن ميسر، ص ٤٥؛ الخطط، ٢ص ٨ س٢.
(٣) إتعاظ، ص ٩٣.
(٤) الخطط، ٢ص٨.
(٥) أنظر. Op. Cit. cf.: Lavoix
(٦) المخزومى، المنهاج، تحقيق، ٣٠-٣١.

المدينتان معاً. وأصبحتا مركزاً اقتصادياً لإمبراطورية واسعة؛ يشهد بذلك الرحالون وقتئذ. فيروى ناصر خسرو أن القاهرة، كانت مدينة كبيرة، قل نظيرها من المدن، فكان فيها أكثر من عشرين ألف دكان[1]، ملكاً خاصاً للخليفة، كل منها يؤجر بعشرة دنانير. وليس فيها من تقل أجرته عن دينارين، ويشير الرحالة نفسه إلى مصر أو الفسطاط[2]، وتميّزها بتوافر جميع وسائل الحياة فيها، وجميع ما هو جيد وجميل، ويضيف بأن أسواقها مملوءة بكل ما في العالم من المنتجات، حتى النادرة منها والثمينة؛ فهي تفيض بالبضائع، التي تأتيها من جميع أجزاء العالم.

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر مدن أخرى كثيرة في طول البلاد وعرضها، تعتبر مراكز اقتصادية نشيطة، مثل: الإسكندرية ودمياط، اللتين اشتهرتا بتصدير المنتجات منها إلى بلاد الروم والفرنجة، وعَيْذَاب[3] على بحر القُلزم أو الأحمر، وهي من أهم الموانى، التي تتلقى تجارة الهند والصين، وتِنّيس[4] التي كان فيها على حسب ما يروى ناصر خسرو ما يزيد على عشرة آلاف دكان عطار؛ مما يدل على اتساع تجارة التوابل الهامة في العصور الوسطى، وقُوص في أقصى الصعيد، التي أصبحت مركزاً هاماً للتجارة في جنوب مصر؛ وبنيت فيها دار للسكة الذهبية، إذ كانت قريبة من مناجم الذهب في النوبة[5].

بيد أنه يرجع إلى الفاطميين الفضل في خلق مركز مصر الدولي الاقتصادي المتفوق في العصور الوسطى. إذ أنهم عرفوا مزايا الموقع الجغرافي لمصر في مفترق القارات بين أفريقيا وأسيا وأوروبا. ولكي يسهّلوا نقل التجارة بين الشرق والغرب؛ فتحوا القنال بين النيل والبحر الأحمر، وهو الذي كان يوجد منذ الفراعنة، وأعاد حفره البطالمة، ثم حفره المسلمون في عهد عمر بن الخطاب، وعُرف بلقبه: خليج أمير المؤمنين، ثم أعيد حفره في عهد الحاكم بأمر الله، فعرف

(١) سفر نامه، ص ٤٨.
(٢) نفسه، ص ٥٩ وما بعدها.
(٣) الخطط، ١ص ٣٢٧-٣٢٨.
(٤) سفر نامه، ص ٣٨.
(٥) ابن بعرة، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي، ١٩٦٦، ص ٤٩-٥٠.

باسمه: الخليج الحاكمي[1]، أو باسم: خليج مصر. كما أن الفاطميين أشرفوا على باب المندب منذ عهد المستنصر، لخضوع اليمن للصليحيين كما ذكرنا. وللغرض ذاته أعاد الفاطميون حفر خليج الإسكندرية، بعد أن طُم الجزء الأول عند خروجه من فرع رشيد. كذلك انشأوا أساطيل تجارية كبيرة؛ بقصد التجارة العالمية، بنيت في مصر وفي أماكن أخرى في دولتهم الواسعة في دور« الصناعة»[2]، تجوب في كل البحار. فكان في تنّيس وحدها ألف مركب منها ما هو للتجار، وكثير منها للخليفة[3].

ويبدو ازدهار التجارة في مصر في عصر الفاطميين، من التعابير المختلفة التي ظهرت في أيامهم، لتدل على أماكنها، مثل: فندق، وخانه، ورباع، وبازار، ودار الوكالة، وقيسارية، فمثلاً: «الفنادق»؛ تعني مكان التجار الأجانب، وتتكون من غرف مختلفة وصحن مكشوف ومخازن، وقد انتشرت انتشاراً كبيراً في كل مكان في مصر. فكانت توجد من الإسكندرية إلى أُسوان، التي يذكر الرحالة ابن جبير أنه يوجد فيها فندق كبير[4]. كما أن الخانات توصف بأنها عبارة عن ساحات واسعة[5]، والقيساريّة[6] أو القيصاريّة، ولعلها محرفة من اللاتينية "Caesares" ؛ حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لبضائعهم، وتكثر حجراتها ، وكثرت بمصر حتى أن المقريزي يذكر أسماء قياسر كثيرة.

ولعل أهم أنواع التجارة في عهد الفاطميين بمصر: التوابل، التي كانت تنقلها مصر من الهند[7] أو الصين التي استقرت فيها طائفة من العلويين تعلمت

---

(١) الخطط، ٣ص ٢٢٧؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٣ص ١٠٧ وما بعدها. يقال إنه احتقر بعد أن طم.

(٢) الخطط، ٣ص ٣٠٦ وما عبدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٢١٨ وما بعدها.

(٣) سفر نامه، ص ٣٩ .

(٤) رحلة ابن جبير، ص ٣٧.

(٥) الخطط، ٣ص ١٤٩.

(٦) نفسه، ٣ص ١٤٠ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Kaisâriya) t 2, P. 700-701. ;

Suppl, 2, P. 32. : Dozy

(٧) انظر. Lewis : The Fatimids and the route to India. Rev,

de la Fac. des Sc. Econom. de l'Univ. de Istanbul. 1953, P. 53.

لسان الصين واشتغلت بتجارة التوابل[1]؛ كما إن طبقة من التجار ظهرت في مصر تخصصت لها؛ عرفت من أيامهم باسم[2]؛ تجار الكارم أو الكاريمي أو الأكارم أو الكارمية؛ ربما نسبة إلى تجار من كَانم، جماعة سودانية الأصل، كانت تعيش في مصر، وأصبحت التسمية تطلق على كل من يتاجر في التوابل. فلعل ظهور هذه الطبقة في عهد الفاطميين أو حتى قبلهم؛ إذ شارك الخلفاء الفاطميون في الاتجار بالتوابل؛ حتى أنه أصبح لا يفَرق بين الدعاة والتجار، فكانوا يطلقون عليهم في الهند اسم «بوهرا»، وهي كلمة معناها تاجر البهار. وقد كانت عَيْذاب على البحر الأحمر، وقُوص البلدة الهامة في الصعيد ، طريق التجارة الواردة من الهند، لكي تصعد في النيل إلى الموانئ، لتبحر بعدها إلى أوروبا، ولا سيما إلى المدن الإيطالية النشيطة[3] مثل: بِيزة وجنُوه والبندقية، التي بدورها تورد لمصر منتجات أوربا ومحصولاتها، ولا سيما الأخشاب التي كانت مصر تفتقر إليها في صناعة المراكب؛ إذ كانت غابات مصر لا توجد فيها إلا غابات خشب السنط[4]، في البهنساوية والأشمونية والأسيوطية والأخميمية والقوصية.

وكانت معظم أسواق القاهرة أو مصر مبلّطة[5]، ويكون في جانبيها إفريزان، يمشي عليها الناس في زمن الشتاء، كما أن أغلبها مغطى بالسقائف وبعضها يضاء ليلاً ونهاراً بالقناديل، لأن الضوء لا يصل إلى داخلها[6]. والواقع أن القاهرة لم تضأ ليلاً[7]؛ إلا زمن الفاطميين، في وقت الحاكم بأمر الله، الذي أمر

---

(١) شرفاء الزمان (حوالي ٥٤١ هـ) طباع الحيوان، تحقيق Minorsky ، ط. London ، ١٩٤٢، ص ٥-٦.

(٢) وردت هذه اللفظة في وثائق الجنيزة، التي ترجع إلى العهد الفاطمي. عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم من واقع وثائق الجنيزة، المجلة التاريخية المصرية، ٢٢، ١٩٧٥، ص ١٧ وما بعدها؛
صبح ، ٣ص ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤ص ٣٢، ٥ص ٢٨٠-٢٨١؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٧٤، ١٢٥؛ انظر. Goitein ؛
New light on the Beginnings of the karimi Merchants. J.E.S.H.O.I, 1958. P. 175-185.

(٣) انظر. Heyd : Commerce du Levant I, P. 99, 104

(٤) الخطط، ١ص ١٧٨س ٢١؛ انظر. Alf Bahgat ؛
Les foréts en Egypt et leur administrition au Moyen Age. Bull. de l'Inst. d'Egypte, 4 Serie 1901, P. 141-58.

(٥) الشيزري، نهاية الرتب، تحقيق الباز، ص ١١.

(٦) سفر نامه، ص ٥٨.

(٧) الخطط، ٣ص ١٥٧-١٧٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٩٢.

بإضاءة الشوارع والأسواق والحوانيت والمحال بمصر والقاهرة ليلاً، وكان ذلك لا يعمل قبل ذلك، بحيث كان الناس يدعون له، لاتساع أرزاقهم. ولتسهيل الانتقال فى أسواق مصر والقاهرة، وجدت على نواصيها الحمر المسرجة، عليها براذع مزينة، لتكون فى خدمة من يريد الركوب[1]. يذكر الرحالة ناصرِ خسرو[2]، أن دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجوهر والفضة والأمتعة المختلفة، وأنه يجتمع فى الأسواق كل ما هو متصور من خريفى وربيعى وصيفى وشتوى.

ولزيادة الرخاء الاقتصادى اهتمت الدولة الفاطمية أيضاً بالصناعة، ويشير الرحالة ناصرِ خسرو إلى أن حالة الصناع فى عهدها فى مصر أحسن من حالتهم فى البلاد الأخرى؛ حيث لا توجد سخرة[3]؛ فقد اشتهرت فى عهدها صناعة النسيج، فى المصانع المسماة «طرازاً» مثل[4]: القماش الحريرى الموشح «ديباج»[5]؛ حيث كانت له دار كبرى فى القاهرة، تعرف بدار الديباج، وقماش كتانى رقيق «شرب»[6]، وقماش مزركش مصنوع فى دَبِق من قرى دمياط «دبيقية»[7]، أصبح يطلق على أنواع له تصنع فى مدن أخرى وبلاد غير مصر و«قصب»[8] ملون ينسج فى تنّيس، يستخدم فى لبس عمائم رجال الجيش، ولا ينسج فى جهة أخرى غيرها؛ وإن كان الأبيض منه ينسج فى دمياط،

---

(١) سفر نامه، ص ٦١-٦٢.

(٢) نفسه، ص ٦٠-٦٢.

(٣) نفسه، ص ٤٠.

(٤) عن ذلك بتفصيل؛ انظر. ماجد، نظم، ٢ص ١٥-١٦، وأيضاً؛
Les Manufactures d'étoffes en Egypte au: Alf Bahgat
Moyen Age. Mém. de l'Insl, Egyptien. ef.

(٥) الخطط، ٣ص ٣٤٢-٤؛ انظر. Dozy ،Suppl, I, P. 421؛
Ency. de l'Isl, (art. Dîbâj) t I, P. 993.
هو حرير رقيق يعتبر تقليداً للحرير الصينى، وهى كلمة فارسية تعنى لباس الروح.

(٦) انظر. Dozy ؛ Suppl, I, P. 740. تدخله خيوط حريرية أو مذهبة.

(٧) الخطط، ١ص ٣٦٥، معجم البلدان، ٤ص ٣٤؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art. Dâbik) 2 éd, t 2, P. 74.

(٨) سفر نامه، ص ٣٨. لم تعد توجد على الخريطة، ولعلها هى وشطا وتِنّيس، كانت توجد فى جزر فى بحيرة المنزلة، واختفت.

والبُوقلُمون(١)؛ الذى لا ينسج فى أى مكان آخر غير مصر، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، و«السِقْلاَطون»(٢)، وهو موشح بالذهب.

ومن الصناعات الأخرى، التى اشتهرت بها مصر فى عهد الفاطميين؛ صناعة الزجاج(٣)، الذى يوجد منه نوع شفاف جداً، يشبه الزمرد فى نقاوته، وقد دخلته لأول مرة الزخرفة بالكتابة والرسوم، ويموه بالمينا وهى مادة كالزجاج. وصناعة الفخار، التى اتخذت أساليب مختلفة، ودخلها البريق، وتلون بألوان متعددة، ويلغ من لطفها أنه إذا وضعت يدك من الخارج ظهرت من الداخل، ومن جمالها تباع بالوزن(٤). وصناعة الصينى التى وصلت إلى درجة متقنة جداً؛ فنسمع بصناعة أجاجين—وهى أوان لغسل الثياب— لها أرجل على صورة الوحوش، ومرايا من الصينى،وأزيار، وجماجم أى قوارير(٥). وصناعة التحف البللورية ، وهذه على ما يظهر تقدمت تقدما كبيراً على أيدى الفاطميين، الذين خصصوا لها خزانة خاصة تسمى: خزانة البللور(٦)، إذ البللور يوجد فى مصر عند بحر القُلْزم، أو أنهم يأتون به من المغرب(٧)، فكان البللور يخرج من أيدى صناعة فى غاية الصفاء؛ فضلاً عن أنه كان ينقش ويلون. بل وجدنا من خلفاء الفاطميين مثل العزيز(٨)، من كانوا يتذوقون هذا الفن ويقدرونه، بحيث اعتبر هذا الخليفة خبيراً فى هذه الصناعة.

ومن الصناعات صناعة المعادن والجوهر، وهى لا تقف عند صنع الأوانى والثريات والشمعدانات ولكن صنعوا منها تحفاً وزخرفوها بالحز—وهو أبسطها— أو بتنزيل الذهب والفضة والمعادن الثمينة، وذلك بإلصاقها أو تلبيسها، وهو ما

---

(١) نفسه. أو الأبوقلمون.

(٢) الخطط،٢ص ٣١٥ س ١٢. نسبة إلى بلد بالروم DOZY ؛ Suppl, I, P. 663 . كان يصنع فى أماكن متعددة فى العالم الإسلامى، وخارج العالم الإسلامى، فهو بالألمانى "Cicalt" ، وبالفرنسية والإنجليزية "Siglaton" ، بالأسبانية "Ciclaton" . أنظر. ماجد، الحضارة الإسلامية، ص ١١٣.

(٣) توجد منه نماذج فى المتحف الإسلامى.

(٤) سفر نامه (ترجمة عربية)، ص ٦٠.

(٥) الخطط، ٢ ص ٢٦٤ س ٦؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٩.

(٦) نفسه، ٢ص ٢٦٣؛ انظر. نفسه، ٢ص ١٨-١٩.

(٧) سفر نامه، ص ٦٠.

(٨) الخطط، ٢ص ٢٦٣ س ١٩.

أطلق عليه التزميك او التكفيت[1]، اى التطعيم. وقد وجدت فى القصر الفاطمى تحف معدنية؛ يبدو أنها كانت فى غاية الروعة مثل[2]: تمثال الطاووس من الذهب المرصع بنفيس الجوهر، وعيناه من الياقوت الأحمر، وريشه بالذهب على الوان ريش الطواويس، وديك من الذهب ذى عرف كبير مفروق من الياقوت، وغزال مرصع بنفيس الجوهر ذى بطن أبيض منظوم بالدر، وسفينة نيلية من الفضة، وبستان من الفضة، مزروع بأنواع الشجر، كله من المعدن .ويبدو أن القاهرة استمر لها أسلوب خاص فى صنع النحاس، الذى صنعوا منه تحفاً مختلفة؛ بحيث إن أى بيت لا يخلو من قطع نحاس مكفت، منها: الأبارق والمباخر والثريات والطاسات والمسارج والأوانى والموائد[3] وحتى صناعات حديدية، منها المقراض والسكين وغيره[4]؛ فضلاً عن الصناعات الحربية[5]، بكافة أنواعها.

*

هذا المال المتدفق نتيجة التنظيم الدقيق، والفهم الواعى لمسائل الاقتصاد فى ذلك الوقت، مهّد للرخاء. فبنيت المبانى الفخمة ولا سيما القصور المسماة القصور الزهراء[6]، وإن أطلق على مجموعها القصر؛ بحيث عرفت دولتهم بسبب كثرة القصور بالدولة العلوّية القصرية[7] . وكانت عبارة عن اثنى عشر قصراً متصلاً بعضها ببعض، فشبهت بالجبل لكثرة ما فيها من الأبنية المرتفعة منها: القصر الكبير الشرقى، الذى بناه جوهر، والقصر الصغير الغربى أو البحرى الذى بناه العزيز وأتمه المستنصر، وقصر الزمرد، وقصر القرافة، وقصر الحريم، وقصر الشجرة....إلخ، فضلاً عن بناء منازل العزّ، وهو قصر على شاطئ النيل، وقصر

---

(١) نفسه، ٣ص ١٧٠.

(٢) نفسه، ٦ص٢٦٦ ، انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٩.

(٣) الخطط، ٣ص ١٧١.

(٤) سفر نامه، ص ٤٠.

(٥) لدينا رسالة من أول عصر صلاح الدين، من مؤلف مجهول، يبدو انه من أيام الفاطميين، وذلك عن صنع الأسلحة بأنواعها، وقد نشرها وترجمها Cahen بعنوان:
Un traité d'armurerie. B.E. O. t XII. années, 1947-8, P. 1(3-163)

(٦) الخطط، ٣ص ٢١٤ وما بعدها، سفر نامه، ص ٤٨، ٦٣؛ انظر.
Essai sur l'Histoire et sur la topographie du Caire, d'après Maqrîzî (Palais :Ravaisse des Califes Fatimides) M.M.A.F. t I, I. III, 2. Paris, 1887-90.
لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن وعلى ابراهيم، ط٣، ص ١٣٥ وما بعدها.

(٧) القفطى، أنباء الرواة على أنباه النحاة، تحقيق أبو الفضل، القاهرة ١٣٦٩/ ١٩٥٠، ٢ص ٧٣ س ٨، ص ٩٥ س ٧

آخر فى جزيرة الروضة. والمناظر العديدة التى بداخلها الطيور[1]. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الجوامع، لا تزال توجد تحت نظرنا إلى الآن، بلغت ستاً وثلاثين ف جامع فى عهد المستنصر؛ كما بنى الفاطميون البيوت الشعبية-وهذا أول ما حدث فى تاريخ الدول- ليسكن فيها الناس بأثمان زهيدة. فيقول ناصر خسرو إنه بنيت فى مصر والقاهرة ثمانية آلاف بيت[2]، تؤجر للناس برغبتهم، ويحصل الخليفة على أجرتها كل شهر. كذلك اهتمت الدولة بالمشروعات العامة: كالجسور والقنوات وبناء المقاييس؛ حيث لا يزال مقياس الروضة باقياً يذكر بعهدهم. ويكفى أن نذكر أن الخلافة الفاطمية قد خصصت فى ميزانية الدولة حوالى مائة ألف دينار[3]، للإنشاء والتعمير.

*

وحتى فى حياة الخلفاء المعيشية ظهر فيها الرخاء .حقاً إن الخلفاء الفاطميين فى المغرب فى أول الأمر كانوا يعيشون بتقشف، فكان المعزّ مثل سلفه يمقت حياة الترف، ويقيم فى حجرة متواضعة[4]، فرشت بالصوف والشعر «اللبود»، ويلزم الواحدة من النساء. ولكن المعزّ وخلفه لما نقلوا خلافتهم إلى مصر، تغيروا تغيراً كبيراً، ومالوا إلى البذخ ولين الحياة؛ بحيث إن بلاطهم فى القاهرة نافس بلاط بغداد، وزود بكل ما يحتاج إليه من قاعات واسعة أو خزائن، استخدمت فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء، وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها من الكنوز الثمينة[5]، التى جلبت من جميع بقاع الدنيا، أو صنعت فى مصر. ولم يقف هذا الغنى عند الخلفاء وحدهم؛بل تعداهم إلى سائر أهلهم من

---

(١) الخطط، ٢ص ٣٧٩؛ ابن دقماق، الانتصار لواسطة، عقد الأمصار، القاهرة ١٣٠٩/١٨٩٣، ٤ص ١٠٩، ١١٤، ١١٦.

(٢) سفر نامه، ص ٤٨.

(٣) الخطط، ١ص ١٣٣س ٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٥٧. يدخل فيها ما يقام الضيوف الواصلين.

(٤) الخطط، ٢ص ١٦٤.

(٥) نفسه، ٢ص ٢٥٣ وما بعدها؛ القاضى الرشيد بن الزبير، كتاب الذخائر والتحف، تحقيق حميد الله، كويت ١٩٥٩؛ Ouatremère؛

Mém. geogr et hist sur l'Egypte II, 366 sqq;

; Torzestvennig vezd fatimidskhalifov. St. Pétersburg, 1905, 92 sqq. : Inostrantsev;

Die Schatze der Fatimiden, Z.D.M.C. XIV (1935) 329 sqq. :Kahle.

، ماجد، نظم الفاطميين، الجزء الثانى؛ انظر.



رجال ونساء على السواء، وإلى كبار رجال دولتهم؛ بحيث إن خزائن ابن كلس[1] وزير العزيز، وخزائن الأفضل[2] وزير الآمر، شابهت خزائن الخلفاء.

وقد أصبح من يقومون بأعمال قصورهم المختلفة، فرقة هائلة من الناس، بلغت فى عهد المستنصر ثلاثين ألف نسمة[3]، لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل، يعرفون بالأستاذين[4]، جمع استاذ، وهى كلمة من أصل فارسى، تعنى عبيد القصر الذين يقومون بأعماله المختلفة. وكان يشرف على هذا الجهاز الضخم فى القصر رؤساء لهم، يعرفون بالأستاذين المحنّكين، لتميّزهم عن غيرهم بزىّ الحنك، وهو أن يمر طرف العمامة تحت الحنك؛ ليصعد من الجهة المقابلة ويلتف من جديد حول الرأس. فكان هؤلاء يكونون« الخاصة» للخليفة، ولهم نفوذ كبير، إذ كان الواحد منهم له حق التلّقب بلقب الأمير؛ كما أن الخليفة والوزير يشتركان معهم -أحياناً- فى لبس زيّهم المميّز؛ مما يدل على خطورة مناصبهم. هذا بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الجوارى والنساء، بعضهن لهن وظائف محددة.

وقد انتشرت فى عهد الفاطميين الحفلات الرسمية، بشكل لم يعرف فى أى بلاط إسلامى سابق أو لاحق، وهى المعروفة باسم: الرسوم، التى هى مأخوذة من تقاليدحكام مصر منذ الفراعنة، أو من رسوم العباسيين[5]، أو حتى من رسوم الفرس والروم، وذلك بأن يشترك فيها الخليفة وخاصته ورجال الدولة والجيش، فى أيام مشهودة، فى أثناء العام. ويقول المؤرخ ابن تغرى بردى عن هذه الرسوم: إن المعزّ هو أول من استسنها[6]. وهذه الرسوم تختص بأعياد قومية مصرية، وحتي بأعياد قبطية، وأخرى مذهبية. وقد كانت هذه الأعياد

(١) الخطط، ٣ص ٨.

(٢) ابن ميسر، ص ٥٧ وما بعدها.

(٣) سفر نامه، ص ٤٧.

(٤) صبح، ٣ص ٤٨١؛ انظر ماجد ، نظم الفاطميين، ٢ص ١١-١٢.

(٥) انظر. Sourdel: Question de Cérémonial Abbaside. Revue des Etudes Isalmiques .1960, P 121-148.

(٦) النجوم، ٤ص ٧٩ص ٦.

فرصة للإعلان عن عظمة دولتهم؛ بما يظهرونه فيها من بذخ، وبما يوزعونه من الملابس على موظفيهم، من السروال إلى العمامة، مما لم يحدث له مثيل من قبل، بحيث إنهم انشأو داراً خاصة بتوزيع الكسوة، سموها دار الكسوة[1] ؛ حتى أن عيد الفطر بسبب كثرة ما يوزع فيه من ملابس على رجال الدولة وغيرهم سمي :عيد الحلل، أما الخليفة نفسه فكانت له كسى خاصة تصنع له في الاحتفالات والأعياد، وتختلف في كل مناسبة، أو حتى يغيرها في المناسبة الواحدة عدة مرات؛ فيلبسها بمساعدة سيدة يعاونها ثلاثون خادمة[2].

وكانت المواكب العظام أهم هذه الرسوم، وتسمى أيضاً المواسم والركوب[3] ، وهي خروج الخليفة ورجال البلاط وطوائف الجيش والأسطول والموظفين أمام الشعب. فتخرج من خزائن القصر، شارات الخلافة، أو ما عرفت بالآلات الملوكية[4]، لتعرض على أنظار الناس في الشارع، وهي: أسلحة من كل نوع مذهبة أو مفضضة أو مغطاة بالجلد « الكيمخت»[5]، وأعلام كثيرة من الحرير المخطط بالذهب، وملّبسة أعوادها بأنابيب الذهب، وهوادج أو ما يسمى عماريات، تحيط بها ستائر حمراء أو صفراء، مرصعة بالذهب والجوهر، وموشاة باللؤلؤ، يحملها الخدم أو الجمال أو البغال لنقل الأشخاص، وأطقم أو ما يسمى مركبات برسم الدواب الكثيرة، التي تعد بالآلاف، قد تبلغ عشرة آلاف، ليس بينها ما لونه أسود وهو اللون الذي يرمز لأعدائهم العباسيين، من سروج محلاة بالفضة والذهب، وأطواق وألجم من الذهب وقلائد من عنبر، وجلاجل من ذهب وفضة، ودروع للخيل عبارة عن صدر بغير ظهر اسمها «جواشن»[6]، وخوذ للخيل لعلها لرأسها، وأيضاً نقارات وصفافير وصنوج وأبواق ومباخر بأعداد كثيرة.

---

(١) الخطط، ٢س ٢٥٥.

(٢) نفسه، ٢ص ٣٦٣.

(٣) بتفصيل: النجوم ، ٤ص ٧٩ وما بعدها؛ صبح ، ٣ص ٥٠٣ وما بعدها؛ الخطط، ٢ص ٣١٣ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ٤٥ وما بعدها.

(٤) مثلاً: صبح، ٣ص ٤٧٢، وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ٧٤ وما بعدها.

(٥) هي كلمة فارسية، تعني نوعاً من الجلد يشبه ما كان يصنع في خوارزم؛ كما كان يصنع في مصر جلد مثله. انظر. هامش (٣) من كتابنا: نظم الفاطميين، ٢ص ٧٥، ومصادر كثيرة منها: المقدسي، أحسن التقاسيم، B.G.A. ، ص ٣٢٥س٣.

(٦) هي كلمة فارسية. ابن هذيل، حلية الفرسان، تحقيق عبد الغني، ص ٢٣٧؛ انظر. ماجد ، نظم الفاطميين، ١ص ٢١١ وهامش (٦).

فيجتمع موظفو الدولة وطوائف جيشها ورجال الأسطول، وقد تأنق الجميع، فلبسوا أغلى الملابس وأروعها، يشملها زيّ مصري عام هو أكمام واسعة[1]، في ميدان بين القصرين الكبير والصغير، وهو ميدان واسع. فيخرج معهم الخليفة على رأس الموكب. وهو راكب على فرس قد عود أنه لا يبول ولا يتغوط، وقد اعتم بالعمامة الجوهر أو التاج، عبارة عن عمامة عظيمة، شدت بترتيب خاص على حسب الموكب، مثل: شدة الوقار أو الشدة العربية أو الشدة الدانية غير العربية؛ فهذه الأخيرة يبدو أنها أقل حجماً وتكون للمواكب المختصرة، وقد أسدل من ورائه ذؤابة، ووضع في أمام العمامة بين عينيه جوهرة تعرف باليتيمة لا تقدر بثمن، وحولها جواهر أخرى في شكل حافر، وإن كان منذ عهد المستنصر استبدلت الجواهر بلؤلؤة كبيرة[2]، وأمسك بيده سوطاً ثميناً[3]، أو ما يعرف بقضيب الملك عبارة عن عصا مرصعة بالدر والجوهر وملبسة بالذهب، وكأنه أحد فراعنة مصر، وأحاط به حرسه المسمى «الرّكابية» كالجناحين، وقد لبسوا ثياباً مذهبة، وحزموا خصورهم، وعصبوا سيقانهم[4]، وأمامه جملة من آلاته الخاصة، مثل: المظلة المرصعة بالأحجار الكريمة، والمذبتين العظيمتين كالنخلتين، والسيف الخاص المرصعة قبضته بالجوهر، والرمح الخاص في غلاف منظوم باللؤلؤ، والدرقة المزينة بالذهب، التي كانت لحمزة عم النبي، والدواة من خالص الذهب.

فيتجه الجميع إلى مسجد أو مصلى يصلون فيه؛ حيث كان من رسم الصلاة في المواكب الكبرى، أن يقوم الخليفة بالخطبة والصلاة بنفسه، فكانوا بهذا على عكس الحكام في وقتهم، الذين انفصلوا عن شعوبهم في المقاصير المقفولة؛ مما حبب المصريين فيهم. كذلك كانوا يدعون كبار شخصيات الدولة للصعود معهم على المنبر، بقصد تشريفهم[5]، فكان قاضي القضاة -أي كبير القضاة- هو القارئ الذي يعلن اسم من مصعد، مع نعوته المقررة ودعائه. وبعد هذه القراءات كان يأخذ كل من صعد على المنبر بجزء من لواء مركز في جانبي

(١) سفر نامه، ص ٥٤ س ١٧.
(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٥٣،
(٣) سفر نامه؛ صبح، ٣ص ٣٧٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين ٢ص ٦٥-٦٧.
(٤) سفر نامه، ص ٥٤.
(٥) صبح، ٣ص ٥١٣ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ٩٩-١٠٠.

المنبر، فيستر الخليفة ويستترون. فيخطب الخليفة، فإذا فرغ الخليفة من الخطبة، ألقى كل واحد بجزء من اللواء الذى بيده خارج المنبر، فينكشفون وينزلون القهقرى أولاً بأول، فإذا خلا المنبر منهم هبط الخليفة، وكان التجار يزينون الطرق التى يمر منها موكب الخليفة، بأشياء من تجارتهم لطلب البركة من نظرته[1]؛ كما يسجد الناس، ويدعون له كلما قرب منهم[2].

ويجمع الرحالة والمؤرخون على أن الموكب لفتح الخليج[3]، كان من أعظم الأعياد الرسمية فى مصر، وهو النهر الآخذ من النيل غربى القاهرة «فم الخليج»، الذى عرف من وقت الحاكم باسم: الخليج الحاكمى، فيكون فتحه إيذاناً بفتح السدود التى تكون مقفولة لإرواء أرض مصر. وقبل الاحتفال بأيام كان يطوف منادون فى القاهرة ينادون بأن الله تعالى قد زاد فى النيل كذا أصبعاً، ويذكرون مقدار الزيادة كل يوم، حتى تبلغ الزيادة المعهودة، وهى ثمانى عشر ذراعاً[4].

فكان فى هذه المناسبة ينصب على حافة الخليج للخليفة ولرجال الدولة سرادق عظيم التكاليف من القماش الموشح «ديباج»، موشى بالذهب، ومكلل بالجواهر، فيوضع فيه العرش «سرير الملك»، وتوضع عليه مرتبة عظيمة ليجلس عليها، ويوضع للوزير كرسى، أما كبار رجال الدولة فيقفون صفين من سرير الملك إلى باب الخيمة. وكان الاحتفال يبدأ بالاستماع إلى القرآن الكريم من قراء مخصوصين بالقصر؛ فإذا فرغوا ألقى شعراء الدولة قصائدهم العصماء، بترتيب درجاتهم واحداً واحداً، فكان الحاضرون ينقدون لكل شاعر، ويحسنون ما حسن، أو يعيبون ما يعاب.

---

(١) الخطط، ٢ص ٣١٤ س ١٢؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٦٩. قبل ذلك فى عهد الآمر.

(٢) سفر نامه، ص ٥٥. يذكر فقهاء الفاطميين أن هذا السجود هو سجود الطاعة، ويكون بالايماء؛ إذ لا ينبغى لأحد أن يضع جبهته على الأرض إلا لله تعالى، وهو أشبه بسجود الملائكة لآدم. السيرة المؤيدية، ص ٣٣.

(٣) بتفصيل: سفر نامه، ص ٥١ وما بعدها؛ صبح، ٣ص ٥١٩-٥٢٠؛ الخطط، ٢ص ٣٥٣ وما بعدها؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢ص ١٠٧-١٠٩.

(٤) مثلاً: الخطط، ١ص ٩٥ (أسفل الصفحة).

بعد ذلك؛ ينتقل الخليفة إلى الخليج وبيده حربة، ليضرب بها السد، ثم يعجل الرجال بهدم السد بالمعاول والفؤوس، حتى ينساب الماء فى الخليج. وعندئذ تضرب من البرين الطبول والأبواق الكثيرة، وتدخل فى الخليج العشاريات[1] -مفردها عشارى- وهى مراكب مزينة بالستور الملونة، وتحلى بالأهلة الذهبية، وبقلائد العنبر والخرز الأزرق والفوانيس، طول كل منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً، ذات ألوان مختلفة أحمر وأصفر وأخضر ولازوردى، وقد بلغ عددها إحدى وعشرين، أوستاً وثلاثين؛ وإن كان أهمها الذهبى، الذى كان يوضع فى وسطه بناء «بيت»[2]، مثمن من العاج، سقفه على شكل قبة من خشب ملبس بصفائح الفضة والذهب. فيذهب الخليفة بصحبة الوزير إلى منظرة قريبة على رأس الخليج، وهى قصر فخم؛ بينما يقام لرجال الدولة خيام مختلفة الأشكال والألوان على قدر مراتبهم. فيقدم لهم طعام خفيف حضره صاحب المائدة الملكية فى موكب يتكون من مائة رجل، ومعهم الطعام محمولاً فى صوان «طيافير» كبيرة مذهبة، وهى مغطاة بالطرح النفيسة، وريح المسك والتوابل تفوح منها، فيوزع الطعام على رجال الدولة على قدر مراتبهم، كذلك يقدّم للحاضرين تماثيل -لعلها من الحلوى- على أشكال مختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزراف. فإذا انتهى الاحتفال، وصلى الخليفة صلاة العصر، لبس ثياباً جديدة غير التى عليه أول النهار، وغير المظلة لتكون مناسبة لثيابه فيركب إلى قصره.

كذلك، كانت الدولة الفاطمية تقيم المآدب الفخمة فى العيدين وفى شهر رمضان المسماة: السماط[3]، حيث يجلس الخليفة فى إحدى القاعات الكبرى بالقصر ذات الأعمدة: «الإيوان الكبير»، أمام مائدة يقال لها المدورة، ثم يمد حولها موائد أخرى وأطئة أشبه بالدكك. فيفرش الموائد بالأزهار، وترص عليها أوانٍ عديدة من الفضيات والذهبيات والصينى والخزف، وتملأ بالأطعمة الممتازة،

(١) سفر نامه، ص ٥٥؛ الخطط، ٢ص ٣٦١ وما بعدها. كان لها حوض خاص واسع قرب القصر

(٢) الخطط، ٢ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٣) نفسه، ٢ص ٢٢٠-٢٢١؛ سفر نامه، ص ٦٣-٦٤؛ ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٠١-١٠٢.

الفائحة الرائحة من فراخ ومشويات، فى أطباق تبلغ قامة الرجل، أما الخبز فيرص على حافتى الموائد، كل واحد يزن ثلاثة أرطال، وله بريق. وكانت أصناف الحلوى متعددة، على الصور والتماثيل، بعضها يمثل الأشجار بكل غصونها وأوراقها وثمارها، وكان يوزع على الحاضرين الماء المبخر، أو الماء المثلج فى الصيف؛ حيث كان معروفاً لهم، ويجلبونه من الشام. ويحملونه معهم فى مواكب الحج، وحتى فى ساحات القتال. ولقد ضرب بمطبخ الخليفة المستنصر الأمثال، وهو يقع خارج القصر، ويتصل به بنفق تحت الأرض، ويعمل فيه دواماً خمسون طاهياً.

وبالإضافة إلى السماط فى عيد الفطر؛ فإنه كانت تعمل الفطرة العامة. وهى حلوى من دقيق وفستق ولوز وبندق وتمر وزبيب وعسل، وكان العزيز أول من رتب صنعها فى دار خاصة عرفت بدار الفطر[1]؛ لتحضر إلى القصر يوم هذا العيد. وتنشر كالجبل الشاهق على مائدة طويلة بإحدى القاعات الكبرى «الإيوان الكبير» . فكان الخليفة يجلس فى شباك ومعه الوزير؛ لتشاهد العامة وهى تأكل الفطرة. وتأخذ منها على سبيل البركة.

وكذا بالإضافة إلى السماط فى عيد الأضحى، كان الخليفة إذا صلى صلاة العيد، يذهب إلى المنحر؛ الذى يقع بجوار القصر الكبير[2] . فيخرج إليه، وقد توشح بدلة حمراء خاصة بهذا العيد، وتبعه رجال الدولة والجيش والقصر والجزارون، وأمامه تسير بعض الأضاحى التى يقوم بذبحها بيده، والبقية التى تبلغ الآلاف يذبحها القصابون. فيطلع الخليفة والوزير وقاضى القضاة وأكابر الدولة على المصطبة، فيناول قاضى القضاة إلى الخليفة حربة، مشحوذة السنان. وفى كل مرة يرغب الخليفة فى استعمالها يمسك قاضى القضاة بسنان الحربة، التى يجعلها فى نحر الأضحية؛ فيطعن الاثنان معا عنق الضحية؛ فيرفع المؤذنون أصواتهم بالتكبير، كلما نحر الخليفة شيئا. وقد جرت المراسم أن توزع لحوم ما يذبحه الخليفة للبركة على الموظفين، وطلبة دار العلم التى أنشأها الخليفة الحاكم،

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٨١-٢٨٣.

(٢) بتفصيل: صبح، ٣ص ٥١٥-٥١٦؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢ص ١٠٣-١٠٤.

والقائمين بشئون الجوامع. كما كانت ترسل أول ضحية ينحرها الخليفة بعد تقديدها إلى سلاطين الصليحيين للبركة.

كذلك كانت الجلوسات من أهم رسوم القصر الفاطمي[1]؛ وتعني استقبالات الخليفة، التي تقام أسبوعياً في القصر، ويحضرها أهل مصر بسائر طبقاتهم: والوزراء، والقضاة، والفقهاء، والقواد، والأجناد، والكتّاب وأعيان العامة، وبطريرك القبط، ورئيس اليهود؛ إذ كان من عادة أهل مصر أن يسلّموا على الخليفة يومي الاثنين والخميس، وهو ما عرف بالجلوس العام. فكان ينصب للخليفة سرير الملك، خلف ستر يحجبه -إذا أراد- عن أعين الحاضرين، الذين يقفون أمامه أو يجلسون في أماكنهم المقررة - وهو الإيمان كما ذكرنا- فكان الحاضرون يسلمون عليه بتقبيل الأرض بين يديه، أو الإنحناء بالسجود إلى الأرض - أي الإيماء- ويكون السلام على الخليفة مقصورا على قولهم فقط : «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، ويخاطب بكلمة مولانا، وبالضمير الثالث.

كذلك جرى العرف أن تحتفل الدولة الفاطمية بأربع ليالٍ مباركة مشهورة، هي ليالٍ: أول رجب ونصفه، وأول شعبان ونصفه[2]. فإذا أقيمت صلاة المغرب خرج موكب مكون من قاضي القضاة والشهود، وقراء القرآن ومؤذني الجوامع، وحجّاب القصر، وبين أيديهم الشموع المنيرة زنة بعضها ستة أرطال إلى المنظرة، التي يجلس فيها الخليفة. فتفتح إحدى الطاقات، فيظهر منها رأس الخليفة ووجهه على ضوء الشموع، وحواليه خواصه الأستاذون المحنكون وغيرهم. فيستمع

(١) صبح، ٣ص ٤٩٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ص ٢١٨ وما بعدها؛ ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص ٦١؛ انظر. نظم الفاطميين، ٢ص ١١١ وما بعدها.

(٢) يرجع أصل الاحتفال بليالي الوقود- كما يبين المقريزي- إلى زمن عمر بن الخطاب، الذي كان يصيح في أهل مكة ليوقدوا النار ليلة هلال المحرم، حتى يوضحوا الطريق لحجاج بيت الله، وقد استمر الأمر على ذلك بمكة في هذه الليلة، حتى كانت ولاية عبد الله بن داوود؛ فقد أمر أهل مكة أن يوقدوا في ليلة هلال رجب، ففعلوا ذلك في ولايته ثم تركوه. عن هذه الاحتفالات، انظر. صبح الأعشى، ٣ص ٥٠١-٥٠٥؛ الخطط، ٢ص ٣٤٥-٣٤٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٢٠-١٢٢.

الخليفة إلى قراء القرآن، وإلى خطبة أئمة جوامع القاهرة ومصر الكبرى، عن فضائل هذه الأيام. فإذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الأستاذ نفسه يده من تلك الطاقة، فيرد على الجميع السلام وبذلك ينتهي الجلوس.

واهتم الفاطميون كذلك برسوم أخرى، مثل: عرض الخيل[1]، الذى أصبح من رسوم الخلافة في مصر، فكان يخصص يوم قبل الموكب الرسمي لعرض الخيل، التى تكون كلها بيضاء، يحضره الخليفة وكبار رجال الدولة. وكانوا يهتمون بالخروج للصيد والقنص، فكان العزيز يخرج ومعه عشرون جملا عليها محامل فيها كلاب الصيد، ولولعه بالصيد عرف بالخليفة الصياد[2]. وقد بلغت كلاب الصيد في آخر عهد الدولة، خمسين جوقة من الكلاب السلوقية[3]. بل إن الخليفة الحاكم، الذى كان يحرص على صحة سكان البلاد، أمر بقتل جميع الكلاب؛ فيما عدا كلاب الصيد[4]. كما أن العزيز كان يصطاد أيضا بالجوارح، ولدينا رسالة تفصيلية من بازيار العزيز بالله، الذى كان يشرف على ترويض الباز أو الصقور في مواكب الصيد.[5] وحتى السباق اهتموا به، مثلما فعل الخليفة نفسه، الذى سابق بحمامه حمام وزيره ابن كلس[6].

وأخيراً، فإن الرخاء ظهر في حياة الناس في عهد الفاطميين، وبدأوا ينعمون بالحياة. ويكفي أن نذكر قول العزيز[7] «أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي»، وقال المسبّحي –ناقل هذه الرواية– وهذا لم يسمع بمثله قط من ملك . فيذكر الرحالة ناصر خسرو[8]، أن المصريين كانوا في غنى عظيم، وأنه رأى أموالا يملكها بعضهم، ولو ذكرها أو وصفها لما صدقه أحد؛ فهي لا تقع تحت تحديد أو حصر، وهي للنصارى والمسلمين على السواء. فمثلاً كان

(١) صبح، ٣ص ٥٠٤–٥٠٥؛ انظر . ماجد، نظم الفاطميين، ٣ص ٨١.

(٢) ابن الحسين، كتاب البيزرة، تحقيق محمد كرد عليّ، دمشق ١٩٥٢، ص ٧، ٢٤٩.

(٣) الخطط، ٤ص ١٢٤.

(٤) يحيى بن سعيد ، ص ١٨٨.

(٥) كتاب البيزة؛ انظر

(٦) مروج الذهب. ط. مصر، ٣ص ١٤٩.

(٧) النجوم، ٤ص ١٢٥؛ اتعاظ، تحقيق جديد، ص ٢٤٥.

(٨) سفر نامه، ص ٦٢.

أحد سراة مصر عنده من الغلال ما يمكنه من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات. كذلك تحسن مستوى سكنهم، فالرحالة نفسه يذكر أن البيوت الخاصة تحولت إلى عمارات ضخمة، حتى أن إحدى العمارات فى القاهرة تسع خمسين وثلاث مائة ساكن، وأنه رأى بيوتاً مكونة من أربعة عشر طابقاً، وإن كانت غالبيتها من خمس أو ست طبقات، وأن البيوت كانت من النظافة والبهاء؛ بحيث يقال إنها بنيت من الجوهر الثمين، لا من الحجارة والطوب، وأنها بعيدة عن بعضها البعض، تفصلها الحدائق، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت، من هدم وإصلاح، دون أن يضايق جاره. وقد أصبح من عادات أهل القاهرة وضع الزهور فى الأصص، يضعونها فوق الأسطح[1]؛ويقول أيضاً أنه سمع أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلاً رباه فيها حتى كبر ونصب ساقية، فكان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها، وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى[2].

*

وعن المذهب الفاطمى نعلم أن الخلافة الفاطمية، لم تكن فقط ثيوقراطية أساسها الدين، ولكنها أيضا متمذهبة لها عقائدها الخاصة، التى تغلغلت فى كل مظاهر حياتها؛ حيث كانت العقائد فى ذلك الوقت هى التى تسيِّر السياسة والنظم، وليست الآراء الاقتصادية أو غيرها، كما فى وقتنا الحاضر. فقد كان من أهداف ظهور هذه الخلافة نشر عقائدها الشيعية، بحكم أنها الدين الإسلامى الصحيح، لا فى البلاد التى تسيطر عليها فحسب، وإنما أيضا فى بلاد أعدائها السنيين أو غيرهم[3]، تمهيدا لتحويل أهلها إلى المذهب الشيعى .

ولكن اهتمام الخلافة الفاطمية كان أكبر بتحويل أهل مصر إلى المذهب الشيعى، بسبب أن مصر هى مقر الخلافة الشيعية. فقد كان إسلام المصريين فى

---

(١) نفسه، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٥٨.

(٣) انظر ما أورده الخشاب نقلاً عن ناصر خسرو فى كتابه:

Naçiri Khusrau. Le Caire, 1946, P. 145. ؛ وبعده .

أول الأمر على مذهب الخلافة العباسية المسيطرة آنذاك، وهو المذهب السني، الذي يتمثل في اعتناق المصريين فروعه المختلفة. وكان أول مذاهب السنة التي انتشرت بين المصريين، مذهب مالك بن أنس[1] (ت١٧٩/٧٩٥)، وذلك بسبب توافر أصحابه الذين جاءوا إلى مصر، ولدينا أسماء فقهاء مالكيين كثيرين من بين المصريين. فلما جاء مصر محمد بن إدريس الشافعي في ١٩٨/٨١٣-٨١٤، واستقر بالفسطاط، ودفن بالقرب من المقطم في ٢٠٤/٨١٩، خص بعلمه أهل مصر، وصحبه جماعة من أعيانهم، وكتبوا بأنفسهم عنه؛ بحيث تفرق مذهبه من مصر في سائر البلدان، وأصبحت غالبية مسلمي مصر من أتباعه، وطغى في انتشاره على مذهب مالك[2]. أما مذهبا أبي حنيفة وابن حنبل؛ فمع انتشارهما في المشرق، لم ينتشر في مصر، انتشار مذهبي مالك والشافعي.

ومع ذلك، فقد شق التشيع طريقه بأرض مصر منذ زمن مبكر، وقبل انتشار المذاهب السنية[3]. فقد جاء التشيع مصر أيام الخليفة عثمان بن عفان على يد رجل اسمه عبد الله بن سبأ، ويتلقب بابن السوداء[4]، كان يتكلم عن وصاية النبي لعليّ، وأحقيته في الخلافة عن عثمان. فانتشرت آراؤه بين المصريين، واعتنقها كثير منهم. ثم قوي التشيع، حينما تولى على الخلافة بعد مقتل عثمان. وأرسل إليها والياً من قبله. هو محمد بن أبي بكر -ابن الخليفة الراشد- بحيث وصفت مصر حينذاك بأنها دار تشيع وعلى الرغم من أن معاوية وخلفه استولوا على مصر بالقوة؛ فقد كانت غالبية المصريين المسلمين تتشيع. فلما قامت فتنة الثائر ابن الزبير ضد الأمويين لحق به كثير منهم. وظل المصريون طوال حكم الأمويين وإلى وقت مجيء العباسيين يعملون بفتاوى أهل الشيعة، وبخاصة فتاوى جعفر بن محمد، جد الفاطميين[5]

(١) حسن المحاضرة، ١ص ١٨٩ وما بعدها؛ الخطط، ٤ص ١٤٥ ص ١٦ وما بعدها. عنه: وفيات، ٢ص ٢٠٠ وما بعدها.

(٢) نفسه، ١ص ١٢١ وما بعدها؛ نفسه، ٤ص ١٤٥٨-١٤٦. عنه: وفيات، ٢ص ٢١٤ وما بعدها.

(٣) عن ذلك بالتفصيل: الخطط، ٤ص ١٤٦ وما بعدها.

(٤) عنه على الخصوص؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Abd Allah B. Saba') t I, P. 30.

(٥) فضائل مصر، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس، برقم ٤٧٣٧، ورقة رقم ١٩٣.

ثم ضعف التشيع زمن حكم العباسيين، الذين حاربوا آل أبى طالب وشيعتهم، فعملوا على إخراج آل أبى طالب من مصر إلى العراق، واضطر من كان على رأى الشيعة من المصريين إلى التستر، يضاف إلى ذلك أن المذاهب السنية من مالكية وشافعية، انتشرت بين المصريين، بسبب حاجة هؤلاء إلى فقهاء يعلمونهم الدين، ولم يكن يسمح وقتئذ بوجود غير فقهاء السنة. لذلك تحول تشيع المصريين، إلى نوع من الحب والتقدير لآل عليّ، فكانوا يتبركون بمن دفن منهم من الرجال والنساء، وما زالت مشاهد عليّ من أيام الإسلام الأولى، موضع بركة للمصريين إلى وقتنا الحاضر، نذكر منها: مشهد السيدة نفيسه[1]، ومشهد السيدة زينب[2]، ومشهد السيدة كلثوم(كلثم)[3]، ومشهد زين العابدين[4].

ثم عاد التشيع إلى الظهور بمصر من جديد، منذ استقل بحكمها عن نفوذ الخلافة العباسية السنية أمراء أقوياء من الترك، فشجع ذلك بعض المصريين على إظهار تشيعهم. ففى أيام الطولونيين ظهر رجل من أهل مصر، وأنكر أن يكون أحد خيراً من أهل البيت[5]، ويقصد بهم آل عليّ. ولما جاء المهدى من الشام فى طريقه إلى المغرب، نزل عند بعض شيعته فى مصر[6]. وحينما قامت خلافة الفاطميين بإفريقية عملت على نشر مذهبها بين المصريين، ويبدو أنها نجحت فى تحويل بعضهم إلى الشيعة، فيذكر المؤرخون أن القائم الذى أتى بعد المهدى،

(١) هى السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن عليّ، توفيت بمصر فى ٢٠٨/٨٢٤، وكان زوجها يريد دفنها بالمدينة، فسأله أهل مصر أن يدفنها عندهم، لأجل البركة. عنها: وفيات، ٣ص ٨٦؛ الخطط، ٤ص ٣١٣ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl,(art. al-Saiyda Nafisa) t 3, P. 883.

(٢) هى السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسن بن عليّ. عنها: ابن جبير، ص ١٦.

(٣) هى السيدة كلثوم (كلثم) بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق. عنها: ابن جبير، ص ١٦؛ الخطط، ٤ص ٣١٦.

(٤) يحتوى قبره على رأس زيد بن عليّ بن الحسين، وقد دفن بمصر أيام هشام بن عبدالملك. الخطط، ٤ص ٣٠٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Zaid b. Ali) t 4, P. 1260.

(٥) الخطط، ٤ص ١٥٥س ٨-٩.

(٦) أنظر. قبله.

(٧) البيان ، ١ص ١٨٢ .

كان يخاطب جماعة من المصريين، الذين استجابوا إلى الدعوة[٧]، وقد زاد عدد المتشيعين فى مصر، حتى أنهم كاتبوا المعزّ، وقالوا له: « إذا زال الحجر الأسود، ملك مولانا المعزّ الدنيا كلها »، وهم يعنون بالحجر الأسود كافور[١]. ولا يعنى هذا أن المصريين قد غيروا مذهبهم مرة أخرى، فقد بقيت غالبيتهم سنية، لأن السنة كانت قد تأصلت فى نفوسهم، بانتشار مذهبى مالك والشافعى، حتى إنهم طالبوا جوهرا لما أرسله المعزّ لفتح مصر، أن ينص فى أمانه على احترامه لمذهبهم السنى، فنص جوهر لهم على ذلك، على الرغم من أنه فى رأيه لا فائدة لذكره، بحكم أن الإسلام سنة واحدة، وشريعة متبعة[٢].

بيد أنه منذ أن أقام الفاطميون خلافتهم بمصر، فإنهم عملوا على تحويل جهاز الدولة الرسمى إلى مذهبهم الشيعى. فعملوا على إحلال التشريع الشيعى مكان التشريع السنى فى القضاء والفتيا، وإنكار ما خالفه[٣]. والواقع أنه لم يكن يوجد فرق بين التشريعين، إلا فى الفقه أو تفسير الأصول؛ إذ جعلوا هذا الأخير وقفًا على الإمام وحده، بحكم أنه وارث العلم الإلهى، فهو لذلك أعتبر: المجتهد المطلق، فإذا سمح به لغيره فهو مجتهد مقيد. كذلك غيروا فى نظام المواريث، وجعلوه أساس رأى أهل البيت[٤]، فيجيز أن ترث البنت كل ما تركه أبواها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبية، وهذا يخالف مذهب السنة، الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. فلما ثار فقهاء السنة ضد هذا التغيير فى التشريع، اتخذ محمد بن النعمان كبير القضاة فى ذلك الوقت، بعض العقوبات ضدهم، ووطد حكم التشريع الشيعى[٥].

ثم إنهم قبلهم لم يكن يوجد غير قاضٍ بسيط، يعين من قبل الخليفة السنى فى بغداد. ولكن للمرة الأولى فى مصر، ظهرت وظيفة قاضى القضاة، الذى صارت رتبته أعلى من جميع القضاة الآخرين، ليس فقط فى أنحاء مصر، بل فى أنحاء البلاد التى يحكمها الفاطميون، وهى التى امتدت من المحيط إلى الفرات، مما يدل على سيطرة القاهرة القضائية. ومع ذلك، لم يظهر هذا اللقب أول مجيئهم،

---

(١) انظر قبله.

(٢) إتعاظ، ص ١٤٨ وما بعدها، وبخاصة، ص ١٥١.

(٣) الخطط، ٤ص ١٤٦ س ١٠.

(٤) نفسه، ٤ص ١٥٦ س ١٦-٢١.

(٥) ولاة، ص ٥٩٤. وذلك فى سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ .

وإنما أبقوا على القاضى المعين من قبل بغداد، لقدمه فى منصبه، وهو القاضى أبو الطاهر الذهلى، رغبة منهم فى تحاشى إغضاب الشعب المصرى السنى. ولكن بعد مرض هذا القاضى وموته فى عهد العزيز[1]، جعلوا هذا المنصب الكبير مقصوراً على قضاة الشيعة وحدهم، بقصد تنفيذ أحكام الشرع الشيعى، وقد كان علىّ ابن النعمان، هو أول من خوطب بقاضى القضاة. فكان هذا المنصب يختص بأسر معينة، عرفت بتفقهها فى التشريع الشيعى، أخصها أسرتا: النعمان والفارقى[2]، وإن كان بعض قضاة المصريين قد تولوه، على أساس تفقههم فى التشريع الشيعى.

وفوق ذلك، عمل الفاطميون على إدخال خصائص المذهب الفاطمى[3] فى الجوامع الرسمية، وهى خصائص لا تختلف عن خصائص المذهب السنى، من حيث تناولها الدين الإسلامى، ولكن بوجهة نظر خاصة. فمنذ اليوم الأول، الذى دخل فيه الفاطميون مصر، جعلوا الأذان فى المساجد الجامعة وهى الكبرى–بحىّ على خير العمل، بدلا من حىّ على الفلاح، وذلك لأنهم يرون أن عمر بن الخطاب قد غير فى الصيغة التى تنوقلت عن النبى، فقد كان عمر يرى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل، تهاونوا فى الجهاد، وتخلفوا عنه[4]، وكان الجهاد هو أهم عمل فى وقته. وفى صلاة الجمعة جهروا جهروا بصوت عال بالبسملة[5]، وزادوا صيغة القنوت فى الركعة الثانية، التى مؤداها: «اللهم نحن إليك قانتون»، وعلى النقيض أزالوا ما زاده السنيون فى هذه الصلاة من قراءة «سبح اسم ربك»، و«التكبير بعد الصلاة»[6]. وفى الصيام، جعله الفاطميون على حساب لهم[7]، ثلاثين يوماً، ولا يكون على الرؤية بطلب الهلال، حتى لا يحدث اضطراب فى إفطار المسلمين فى أرجاء دولتهم الواسعة، نتيجة الإختلاف الزمنى فى رؤية الهلال. ولا شك أن تقدم علم الفلك فى وقتهم؛ بظهور الزيج الحاكمى الذى نسب

---

(١) نفسه، ٥٩٧ س ٢٠–٢١، ٥٨٩–٥٩٠؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ٢ص١١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٤١–١٤٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى، رفع الإصر؛ الكندى، ولاة ؛ انظر. ماجد، نظم، ١ص ١٥٣.

(٣) عن هذه الخصائص الشيعية: الخطط، ٤ص ١٥٦–١٥٧.

(٤) النعمان، دعائم، ١ص ١٢٢.

(٥) الخطط، ٤ص ١٤٥–١٤٦. كان المصريون يجهرون بها قبلاً فى أيام إسلامهم أيام تشيعهم، وقطعت فى عهد العباسيين منذ ٢٥٣/٨٦٧.

(٦) إتعاظ، ص ١٦٨ س ٥–٦.

(٧) الخطط، ٢ص ٣٨٨، ٤ص ١٥٦.

إلى الخليفة الفاطمى؛ كان سببا فى حسم رؤية الهلال بالنسبة لشهر رمضان، فهذا العلم اعتبر سنداً لها؛ كما أنه كان مقبولاً شرعاً بوجود الآية الكريمة ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾؛ ولا سيما أنه يوجد حديث نبوى أيضا بالنسبة لهذه الرؤية: فلو غم عليكم، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً، كما ألغوا صلاة التراويح[1]؛ لأنهم لا يرونها مشروعة الجماعة، إذ لا جماعة إلا فى فرض. وكانوا مثل بقية المسلمين، يعرفون أوقات الصلاة عن طريق المزولة[2]؛ حيث نشاهد واحدة، منها على جدران صحن جامع الأزهر.

بالإضافة إلى هذا، أخذ الفاطميون فى الاحتفال بأعياد تتعلق بالمذهب الشيعى وذكرياته؛ وإن اجتهدوا أن تكون فى أوساطهم الخاصة، تحاشيا لإغضاب عناصر السنة، غالبية شعبهم المصرى. فاحتفلوا لأول مرة فى مصر فى سنة٣٦٢/٩٧٢، بعيد غديرخُمّ[3]؛ وهو اليوم الذى أوصى فيه النبى بالخلافة من بعده لعلىّ، بمكان بين مكة والمدينة عرف بهذا الاسم، وذلك فى ١٨ من ذى الحجه. فكانوا يحتفلون بهذا العيد فى القاهرة دون الخروج عنها، فيخرج موكب رسمى من قصر الخليفة إلى مكان مجاور عرف بالإيوان الكبير، للاستماع إلى خطبة قاضى القضاة، الذى يقرأ نص وصية النبى لعلىّ بن أبى طالب. وبعد انقضائها يصلى الحاضرون ركعتين، ويتوجه الخليفة على رأس الحاضرين لذبح الأضاحى الكثيرة، ثم يقام سماط فخم؛ كما يحدث فى عيد الأضحى، بل وبمظاهر أكثر أبهة منها فى أى عيد آخر.

وكذلك كانوا يحتفلون بيوم ذكرى مقتل الحسين بن علىّ، فى العاشر من محرم -عاشوراء[4]- سنة ٦١/ ١٠ أكتوبر ٦٨٠، باحتفال رسمى وشعبى كبير

---

(١) نفسه، ٤ص ١٥٧ س ٦؛ انظر. كاشف الغطاء، ص ١٥٤. يعرض وجهة نظر الشيعة بصفة عامة.

(٢) انظر . ملاحظةحسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، الطبعة الثانية.

(٣) الخطط، ٢ص ٢٣٢ وما بعدها؛ انظر. ماجد،، نظم الفاطميين، ٢ص ١٢٦-١٢٨. اختلفت فى تاريخ وصاية النبى لعلى ، فقيل عام ٧ هـ (٦٢٨م)، فى أثناء عودة النبى من الحديبية، وقيل فى سنة ١٠هـ (٦٣٢م)، فى آخر حجة للنبى، وذلك فى غدير خم، وهو مكان بين مكة والمدينة.

(٤)نفسه، ٢ص ٢٨٩ وما بعدها؛ انظر. نفسه، ٢ص ١٢٨-١٢٩. عن مقتل الحسين بالتفصيل: أبو مخنف، فى مقتل الحسين، تحقيق الشيرازى، بمباى ١٣٦١هـ؛ انظر ماجد، الدولة العربية، ط ٧، ٢ص ٦٧ وما بعدها. اختلف فى أصل تسمية «عاشوراء»، فلعلها تعنى عيداً يهودياً أو عيداً من أعياد الجاهلية؛ وإن كان يبدو أنها تعنى هنا العاشر من شهر المحرم.

انظر. .Ency, de l'Isl, (art. 'Ashûra) tI, P. 463

إذ كان المصريون الشيعة يحتفلون به قبل مجئ الفاطميين فى أيام حكامهم الإخشيديين، وقد استمر الفاطميون يحتفلون به من ٣٦٦/ ٩٧٠، إلى وقت انقراض دولتهم فى ٥٦٧/ ١١٧١(١) ؛ وذلك باظهار الحزن الشديد. ففى هذا اليوم تعطل الأسواق، وتغلق الدكاكين وأبواب الدور، ويخرج موكب كبير إلى الجامع الأزهر ، فيه رجال الدولة وأشياع المذهب، ليستمعوا لقراءة القرآن ومرثيات الشعراء، وبعض الأناشيد الدينية، ثم يذهبون إلى القصر، وقد فرش بالحصر بدل البسط، ووضع فى بعض نواحيه دكك خشبية للجلوس، فيستمع الحاضرون إلى القراء من جديد، وتلقى كلمات مناسبة لهذه الذكرى، ثم يفرش سماط الحزن، الذى يتكون من العدس الأسود، والخبز المغبر لونه، والأجبان والمخللات، والألبان، وعسل النحل الأسود، فكان البعض يأكل منه، والبعض الآخر يمتنع، وإن كان الحزن يظهر على وجوه جميع الحاضرين.

وكانوا يحتفلون أيضاً بالموالد الستة(٢)، وهى: مولد النبى، وعلىّ، وفاطمة،والحسن ،والحسين ،والإمام القائم، وذلك برسوم متشابهة. فبعد صلاة العصر يخرج قاضى القضاة فى موكبه إلى جامع الأزهر وحواليه الشهود وداعى الدعاة-أى القائم بالدعوة للمذهب- وقرّاء الحضرة،والخطباء، وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر، وقومة المشاهد وغيرهم، ومعهم أرباب حملة أصناف الحلوى، معبأة فى ثلثمائة صينية من نحاس. فيجلسون جميعا فى الجامع لسماع القرآن، ويأكلون الحلوى. ثم يستدعون إلى المنظرة التى بها الخليفة حيث كان يمنع المرور من الطرق المؤدية إليها، ويكنس تحتها ويفرش بالرمل الأصفر. فإذا وصل هذا الجمع إلى المنظرة، فتح الخليفة إحدى الطاقات، فيظهر منها رأسه ووجهه، فيفتح أحد الأستاذين -وهو من رجال القصر- طاقة أخرى، ويشير إلى

(١) النجوم، ص ١٢٦٤ س ١-٣.

(٢) الخطط، ٢ص ٢٩٣-٢٩٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٢٢-١٢٣.

هذا الجمع بكمه بالسلام نيابة عن الخليفة، ثم يقرأ القرآن، ويخطب بكلام مناسب للذكرى، ثم يخرج الأستاذ يده مشيراً برد السلام، ثم تغلق الطاقتان، وينصرف الناس إلى بيوتهم.

ولما شعر الفاطميون بتوطيد مركز خلافتهم فى مصر، عمدوا حثيثاً إلى نشر عقائدهم بين المصريين؛ بقصد تحويلهم إليها، وسرعان ما تأقلمت مع روح مصر؛ فلم نعد نسمع إلا عن المذهب الفاطمى وليس عن المذهب الإسماعيلى، الذى كان تسميته فى أول ظهور الفاطميين. وينسب تنظيم نشر المذهب الفاطمى، وهو ما عرف بالدعوة فقط أو الدعوة الهادية(1)، إلى وزير العزيز بالذات، وهو يهودى كان أسلم وحسّن إسلامه، وتفقه فى المذهب الفاطمى بتميّز، هو يعقوب ابن كلس(ت٣٨٠/٩٩١)، الذى عمل على عقد حلقات لشرح المذهب ابتداء من ٣٦٥/٩٧٥، فى المسجد الذى بنى فى عهد المعزّ فى جمادى الأولى ٣٥٩/أبريل ٩٦٩، وتم فى عهد العزيز فى رمضان ٣٦٧/ يونيو ٩٧٢، وعرف فى أيام الفاطميين باسم جامع القاهرة نسبة إلى العاصمة، وعلى الخصوص بعد ذلك، وإلى وقتنا الحاضر باسم الجامع الأزهر(2)، نسبة إلى فاطمة الزهراء التى تنتسب إليها الدولة، وهو أول مسجد فاطمى فى مصر. فأقام فيه الوزير ابن كلس خمساً وثلاثين رجلاً، تنفق عليهم الدولة، ويقيمون فى سكن بجوار هذا الجامع؛ ليقوموا بشرح المذهب للناس. كذلك كان كبار رجال الدولة(3) الفاطمية، يقومون بقراءة علوم أهل البيت؛ فقرأ علىّ بن النعمان مختصراً فى الفقه ألفه أبوه بعنوان الاقتصار، ومن بعده قرأ محمد بن النعمان علوم أهل البيت؛ كما جلس ابن كلس بنفسه لقراءة رسالة(4) فى الفقة الشيعى أسماها: الرسالة الوزيرية، تتضمن ما سمعه من المعزّ وابنه العزيز، وبين يديه خواص الناس، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء. فكان المصريون يقبلون على سماع هذه الدعوة، ويحضرونها بكل

---

(1) مثلاً: صبح الأعشى، ١٠ ص ٤٢٤-٤٣٩.

(2) عنه: الخطط، ٢ص ١٨١، ٤س ٤٩ وما بعدها؛ انظر.

Ency, de l'Isl, (art. Azhar) t I, P. 541 sqq; 2 éd t l, P. 837 sqq,

(3) انظر. Abbas H: Evolution of the organisational Structure of the Fatimi Da' wah. The Yemeni and Persian Contribution. Arabian Studis. Cambridge Univ. 111, 1976, P. 85.

(4) الخطط، ٤ص ١٥٦-١٥٧، ٢ص ٢٢٦؛ ابن منجب، إشارة، ص ٢٢.

طبقاتهم، حتى مات منهم أحد عشر شخصاً فى الزحام، من دفع الناس بعضهم لبعض، للاستماع لمحمد بن النعمان(١).

ولكن التحمس البالغ للدعوة فى مصر وخارجها، بلغ أشده فى عهد الحاكم، الذى اعتبره رسالة كلف بها، واتخذ فى سبيلها خطوات جرئية فاقت سابقيه من الأئمة منذ إنشاء المذهب، وبقيت نمطاً يحتذيه خلفه من بعده؛ بل لم يعرف لتنظيمه إياها تنظيم سابق فى أى مكان فى العالم. ولا ريب؛ فإن الخلافة الفاطمية فى عهده كانت قد وطدت أقدامها فى مصر والشرق نهائياً، وكان لابد من نشر عقائدها. فجعل الحاكم للدعوة -لأول مرة- رئيساً يتلقب بداعى الدعاة، حيث تلقّب به الحسين بن النعمان، فكان يقال له: قاضى القضاة، وداعى الدعاة(٢). وقد كان للشيعة الإسماعيلية أو لغيرها من الفرق الدينية دعاة؛ إلا أن هذا اللقب لم يعرف إطلاقاً من قبل وحتى فى المغرب، حينما أسس الفاطميون خلافتهم؛ لم يوجد هذا اللقب، وإنما كان كبير الدعاة يعرف بالحجة(٣). كما أنه فى أثناء فترة الستر، كان يسمى أيضاً حاجبا أو حتى مستودعاً. لذلك نعتقد أن لقب داعى الدعاة لم يظهر إلا فى عهد الحاكم، وفى مصر بالذات.

ولأهمية الدعوة جعل منصب داعى الدعاة(٤) يلى منصب قاضى القضاة، وجهازه يشبه الجهاز القضائى، وله مثله نواب فى سائر الأقاليم المصرية وغيرها، وفى القاهرة ذاتها، ولمكانته الهامة يتلقّب: «بالشيخ الأجل». يضاف إلى ذلك؛ أنه جعل لداعى الدعاة مجلس عال من الرؤساء يعرفون بالنقباء، يتكون من اثنى عشر نقيباً وحجة؛ وإن كنا لا نعرف سرا لاختيار العدد اثنى عشر؛ فلعله على

---

(١) له كتب أخرى ضاعت مثل: كتاب آداب رسول الله ﷺ، وكتاب فى الأديان، وكتاب فى القراءات، وكتاب فى الفقه، ومختصر كتاب فى الفقه، ومختصر الوزير.

انظر. هريدى، فهرست .Ann Islamo xx ,2, 1983

(٢) الخطط، ٤ص ٦٩ س ٢١؛ انظر ماجد، الحاكم، ص ٧٨ وما بعدها؛ Ency de l'Isl, (art. Dâ'î) 2 éd, t 2, P. 99-100.

(٣) الباب السابع عشر من كتاب زهر المعانى (المنتخب)، ص ٥٤؛ انظر . Ency de l'Isl, (art. Hudjdja) 2ed t 3 , P. 562 sqq.

(٤) عن ذلك بتفصيل: الخطط، ٣ص ٢٢٦ س٤ وما بعدها؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٨١ وما بعدها.

نسق عدد رؤساء الدعوة العباسية، أو عدد الاثنى عشر رجلاً من الأوس والخزرج، الذين عاهدو النبى على الولاء فى بيعة العقبة، أو مثل عدد الحروف الاثنى عشر حرفاً فى عبارة الرحمن الرحيم(1)، ومع ذلك، فلم يكن هؤلاء الدعاة والنقباء هيئة كهنوتية، وإنما جماعة من الموظفين استخدمتهم الدولة الفاطمية، لتعريف الناس بمذهبها.

ويدل على مدى الاهتمام بالدعوة، أننا سمعنا عن دعاة فى جميع أنحاء البلاد المصرية، حتى فى القُلزم على البحر الأحمر(2). أما فى خارج مصر، فكان ميدان نشاط الدعاة واسع المدى، ينقسم إلى أقاليم، تسمى جزائر -جمع جزيرة- تشتمل على أملاك الفاطميين، وبلاد الأعداء فى المذهب، وفى بلاد خارج دار الإسلام. ولدينا أسماء هذه الجزائر أو الأقاليم، التى يبلغ عددها هى الأخرى اثنى عشر، تبدو موزعة على أساس جغرافى أو جنسى، و هى: العرب، والترك والبربر، والزنج، والحبشة، والخزر، والصين، والديلم(أى الفرس)، والروم، والهند(أفغانستان الحالية)، والسند، والصقالبة(3). فكان على رأس الجزيرة الحجة وجمعها الحجج أو صاحب الجزيرة، يتبعه ثلاثون داعياً على مثال الشهر، وهم أكابر الدعاة، ولكل منهم أربعة وعشرون داعياً مأذوناً، على عدد ساعات الليل والنهار،وهؤلاء يتصلون بالمستجيبين أى الأتباع.

واتخذت الدعوة بمصر أهمية خاصة، وأصبح يطلق عليها: مجالس الدعوة أو مجالس الحكمة(4). وقد كان همها تمويل كبار موظفى الدولة «شيوخ الدولة»

---

(1) المجالس المستنصرية، ص ٣٥؛ انظر. Frag, P. 30: Guyard (نص عربى)؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٨٤ هامش(٤) ؛ عارف تامر، أربع رسائل اسماعيلية، ص ١٢ وما بعدها.

(2) الخطط، ١ص ٣٤٤ س ٢.

(3) انظر. Ivanow .Rise, P. 20-21.n. (1). يعتمد على رسالة أحد الدعاة، واسمه علىّ الحسن أحمد بن الوليد (أواخر القرن السادس/ ١٢م). انظر أيضاً من نفس: Ivanow مقالة: The organization of the fatimid Propaganda J.B.B.R.A.S. I5 1939, P. 10.

(4) الخطط، ٢ص ٢٢٧ س ١-٢.

إلى المذهب الشيعي، إذ كان لابد لكي يبقوا في وظائفهم أن يكون لهم على الأقل ميول شيعية، ولم تقتصر الدعوة على الرسميين وحدهم، بل تعدتهم إلى خاصة الناس وعامتهم من الرجال والنساء على السواء[1]. ولدينا رسائل كثيرة معظمها ألقيت في مجالس النساء؛ كما ذهب مؤلف كتاب غاية المواليد إلى القول بأن المرأة الشيعية قد تصبح داعية[2]. ويضاف إلى ذلك أنه يدعى إلى مجالس الدعوة في مصر من بلاد الأعداء رجال معروفون، أو من يمر بها من الطارئين، بقصد جعلهم دعاة للعقيدة الفاطمية في بلادهم، وأدوات طيعة لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية، وإن كانوا في الوقت ذاته من الشيعة المخلصين.

فكانت هذه الدعوة الواسعة تحتاج إلى عقد مجالس عديدة، لتغذية هذا العدد الكبير من الراغبين فيها بعقائدها. فيذكر المقريزي أنه قد خصص للدعوة زمن الحاكم، في أول الأمر يومان في الأسبوع، ثم أصبحت ثلاثة أيام: فكانت لعامة الرجال يوم الأحد، وللنساء يوم الأربعاء، وللأشراف وذوي الأقدار يوم الثلاثاء[3]. ولكن يبدو أن الدعوة أصبحت تعقد كل يوم فكان مجلس للخاصة، ومجلس للموظفين ورجال القصر، ومجلس لعامة الناس، ومجلس للطارئين على البلد، ومجلس لعامة النساء، ومجلس لحريم القصر.

كذلك كانت الدعوة تقرأ في أماكن متعددة لا في مكان واحد مثلما كان الحال في عهد العزيز. فكانت تقرأ في مكانين بقصر الخليفة: واحد للرجال في الصالة ذات الأعمدة «الإيوان» والثاني للنساء في رواق خاص اسمه « المحول»، الذي وصف على أنه أعظم المباني وأوسعها، كما خصص في الأزهر، وهو أول مكان ألقيت فيه الدعوة زمن العزيز، مجلس آخر للنساء.[4] كذلك بنى الحاكم مكاناً تلقى فيه الدعوة، عرف بدار الحكمة أو دار العلم[5]، أنشئ في سنة ٣٩٥/١٠٠٥، وزوده بالكتب من كل نوع في العلوم والآداب والعقائد؛ كما زوده

(١) نفسه، ٢ص ٢٢٦س ٢٤-٢٧.
(٢) عن ذلك؛ انظر Rise,P. 21.
(٣) الخطط، ٤ص ٧٠ س ٢، ١٥٨ س ١٦.
(٤) نفسه، ٢ص ٢٢٦.
(٥) نفسه، ص ٣٣٤-٣٣٧؛ يحيى، ص ١٨٨ س ٤-٧.

بالمحابر والأقلام[1] والأوراق، وجعل له البوابين والفراشين والخزّان. وقد اتخذت دار الحكمة فى أول الأمر طابعا حراً، فدعى إليها الفقهاء من المذهبين الشيعى والسنى، وإن أشرف عليها داعى الدعاة، يعاونه فقهاء اسمهم فقهاء الدولة أو المعلمون، لهم أرزاق خاصة؛ مما يدل على طابعها المذهبى. فكان الطلاب يفدون إليها من شتى الأقطار، بدون تفرقة فى الجنس أو المذهب، يتلقون فيها أصول الدعوة الشيعية وعلوما أخرى مثل اللغة والمنطق والجبر والحساب والأخبار والطب، وينسخون أو يقرءون، فكان أشبه بجامعة تتكون من عدة كليات. ومن المشاهير الذين وفدوا لهذه الدار حميد الدين الكرمانى، الذى شبه فى علمه وفقهه بالمؤيد فى الدين الشيرازى داعى الدعاة؛ كما ورد إليها الحسن بن الصباح، الذى ينسب إليه نشر المذهب فى نواحى بحر قزوين. ويبدو أن مثلها تعددت فى عهد الحاكم فى الفسطاط وغيرها من الأقاليم، حتى بلغت ثمانمائة مكان، كل منها يسمى دار العلم. يضاف إلى ذلك أن خزانة كتب[2] بالقصر-التى أنشئت فى عهد العزيز- لم يكن فى جميع بلاد الإسلام داراً لكتب أعظم منها، فكانت تتكون من اربعين خزانة، فيها أكثر من مليون (ألف ألف) وستمائة ألف كتاب منها ٢٤٠٠ نسخة من القرآن الكريم، تعتبر أجمل وأبدع ما كتبه الخطاطون محلاة بالزخرفة والذهب والفضة، وعدد كبير من النساخ، ويشرف عليها داعى الدعاة، وكان الخليفة نفسه يأتى إليها، ويجلس فيها. وفوق ذلك، كانت الدعوة تقام فى معظم المساجد فى طول دولتهم وعرضها، وقد أحصيت فى مصر وحدها، فوجد عددها ستة وثلاثين ألف مسجد[3]. ويذكر الرحالة ناصر خسرو، أنه كان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى من الشام إلى القيروان نفقات يقدمها الخليفة، من زيت وحصير وسجاجيد للصلاة ورواتب للقوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم.

حقاً إن الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوة، وتنفق عليها الأموال الطائلة، إلا أنها كانت تلجأ إلى مصادر اختيارية يدفعها المنضمون، ترمز إلى

---

(١) من الطريف أن نذكر أن الفاطميين هم أول من اخترعوا القلم النباع « القلم الأبنوس»، وهو قلم يملأ بالحبر، ويكتب به، دون أن يسقط الحبر منه. عن ذلك بتفصيل؛ انظر. نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٢) عنها بتفصيل: الخطط، ٣ص ٢٥٣-٢٥٥.

(٣) نفسه، ٤ص ٢٦٤ س ٧.

الطاعة للمذهب. وبلغ من اتساع الدعوة أن كفل الإشراف على جبايتها لداعي الدعاة ومساعديه. فكانت هذه المصادر الاختيارية تأتي بمبالغ طائلة، يحملها داعي الدعاة للخليفة بيده، بينه وبينه، لوضعها أولاً بأول في بيت المال. ويلوح أنها نفس المبالغ التي فرضها القرامطة على أتباعهم، ونستطيع أن نميّز من هذه المبالغ النجوى أو النجاوى التي تعني السر، ربما ليكون الدليل المادي على قبول التستر على عقائد المذهب، وهي تبلغ ثلاثة دارهم وثلثا، ولكن أغنياء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثةوثلاثين درهماً. فكان من يدفع هذا المبلغ الأخير، يتميّز في مجلس الدعوة، ويخرج له بخط الخليفة الحاكم ورقة مكتوب عليها الجملة الآتية: «بارك الله فيك، وفي مالك، وولدك ودينك». وكذلك توجد الفطرة، التي كانت تدفع في مناسبة عيد الفطر، والخمس والزكاة، والقرابين[1]، التي يبدو أنها أصناف وعين.

وكانت الدعوة نوعين: دعوة ظاهرة تتعلق بشرح التشريع الشيعي، أو تفسير القرآن والحديث-وهذا الأخير يسمى عندهم بالأخبار- وذلك بمعنى مبسط «ظاهر». وقد شجعت هذه الدعوة الظاهرة، فجعلت الدولة مالاً لمن يحفظ كتاب دعائم الإسلام، للقاضي النعمان بن حيّون، ومختصر الوزير للوزير ابن كلس[2]، وكلاهما يشتمل على العقائد الظاهرة للمصادر التشريعية والشعائر الفاطمية الخاصة بالعقيدة.

ولكن منذ عهد الحاكم، تميّزت الدعوة- كما ظهر- في الكتب التي بين أيدينا: للذين لا يقنعون بالقليل من الظاهر، ويرغبون في معرفة حقيقة الدين والمذهب، وهو ما عرف بالتأويل، وهذه الكلمة تفعيل من أول يؤول، كذلك أطلقوا عليها علم الباطن: لأنهم كانوا يرون لكل ظاهر باطناً[3]، وذلك من قوله تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه ٦: ١٢٠﴾؛ كما سموا هذا الباطن ممثلاً والظاهر مثلاً[4]؛ لأن الظاهر يرمز إلى الباطن، وقد اعتبر التأويل أو علم الباطن ملكاً

---

(١) نفسه، ٢ص ١٢٩، ٣٢٦، ٣٢٧-٣٣٧؛ انظر . ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٨٨.

(٢) الخطط، ٤ص ١٥٧.

(٣) الحمادي، كشف أسرار الباطنية، ١٩٣٩، ص ١٢؛ تاج العقائد؛ ص ٤٧، انظر. Guyard ؛ Frag, P. 32-33-36.

(٤) قال المؤيد في المجلس الثامن من المائة الثانية: خلق الله أمثالاً وممثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول. أيضاً المجالس المستنصرية، ص ٩٨-٩٩.

لأسرة علىّ ومعجزته، فهو العلم اللدنى قرين القرآنى، الذى نقله النبى إلى علىّ؛ ليتوارثه الأئمة من بعده. فنقلوا عن النبى قوله[1]: (أنا صاحب التنزيل، وعلىّ صاحب التأويل)، وقوله[2]: (أنا مدينة العلم، وعلى بابها، فمن أراد العلم، فليأت إلى الباب)، وقوله: « إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى، فإنهما لن يفترقا». فكان هذا العلم- فى رأيهم- يزداد من إمام لآخر، حتى انه يتضاعف كل مرة ست مرات[3]، وربما يكون بسبب علم الباطن، أن تسمية أعدائهم لهم بالباطنية، ظناً منهم أنهم أحلوا هذا الباطن محل الشريعة. ولكن الفاطميين طول عهدهم فى مصر، جعلوا التأويل-وهو الباطن- بقصد تأييد الدين والمذهب، والوقوف على دعائم من الإيمان قوية؛ بحيث يقول المؤيد فى الدين: إنه فى حالة الشبهة، يجب أن يرجع إلى التأويل فى القرآن[4]. فكان هذا التأويل أو الباطن أشبه بالاجتهاد، والتفسير، والقياس، والرأى عند السنة. يضاف إلى ذلك أن علم الباطن، كان يتم تحت إشراف الإمام نفسه، خوفاً من التغيير فيه، فقبل قراءته على الناس، كان داعى الدعاة يتلوه على الإمام، ويأخذ علامته بظاهرة[5].

وبجانب ذلك، كان هدف الدعوة الباطنية تأييد حق الإمامة الفاطمية، حتى يتوطد بطريقة إيمانية فى النفوس، غير قابلة للنقاش[6]. ومع أن القرآن مصدر الإسلام الأول، لا يشير مباشرة للإمامة الفاطمية؛ إلا أنه بفضل التأويل، فإنه

---

(١) سيرة المؤيد فى الدين، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٧.

(٢) المجالس المؤيدية ، مخطوطة بمكتبة كامل حسين، وردت فى ملحق بالمجالس المستنصرية، ص ١٤٩.

(٣) النعمان، المجالس والمسايرات، ١ ورقة ١٧٨؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ٦٠.

(٤) ففى رأى البغدادى -وهو سنى- أن الفاطميين تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً، يورث تضليلاً ؛ بقصد عبادة الإمام، فهم يعنون بالصلاة- دون القيام بها- موالاة الأمام، والحج زيارته وادمان خدمته، والصوم والإمساك عن افشاء سر الامام، دون الامساك عن الطعام... عن ذلك: الفرق، ص ٢٨٦. عن مثل هذه الأقوال؛ انظر. ما أورده الحماد اليمانى فى كتابه كشف أسرار الباطنية.

(٥) الكتب الشيعية؛ انظر. Rise, P. 124.

(٦) المخطط، ٢ص ٢٢٦ ص ١٠ – ١٢ .

يؤيدها؛ بحيث يظهر الإمام في جوهر الدعوة والعقيدة. فمثلا اتخذ اللفظ في إثبات التأويلات الباطنية، مثل مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء، كذلك جعل العدد أصلا للمناقشات، وهم في ذلك مثل الفيثاغوريين الذين جعلوا للعدد مغزى. فمثلاً الإمام المستنصر بين الأئمة، هو التاسع عشر بعد وفاة النبي، وهذا العدد إشارة من الله إليه في عبارة: بسم الله الرحمن الرحيم، التي فيها تسعة عشر حرفاً، كما أن: الرحمن الرحيم، فيها اثنا عشر حرفاً، لتدل على الحجج في جزائر الأرض[1].

كذلك تميّزت الدعوة في عهد الفاطميين بتوسعها في العلوم الفلسفية، أو ما عرف بالتعبير الاصطلاحي؛ علم الحقائق[2]، وتعني الحقائق المختفية في الباطن، وهي خالدة، وتعتبر العبادة العلمية. فكان هذا من شأنه أن يهب الدارس قوة في الجدل والاستقلال، وقدرة على البحث والنقاش في العقيدة الشيعية. ولا ريب؛ فالفلسفة الإسلامية وقتئذ؛ كانت في أوجها على يد الفيلسوف الشيخ الرئيس ابن سيناء(٢٧٠-٤٢٨/ ٩٨٠-١٠٣٧)، الذي قيل إنه نفسه من دعاة الإسماعيلية، وقبله مباشرة الفارابي المعلم الثاني (ت ٣٣٩/ ٩٥٠)، والكندي فيلسوف العرب[3] (القرن الثالث/ التاسع)، وكل من هؤلاء نقل عن الفلسفة اليونانية وتناولها بالشرح والتعليق، وحاول التوفيق بينها وبين العقائد الإسلامية، فلم يكن من الممكن، والعصر الذهبي للفلسفة الإسلامية، أن يقف مفكرو الإسماعيلية عند ظاهر العقائد، وإنما عملوا هم الآخرون على المزج بين عقائدهم، وبين الأفكار الفلسفية، مجاراة لتيار العصر. ويكفي أن نتصفح الكتابات التأويلية، مثل كتاب: راحة العقل[4]، لشيخ فلاسفة الإسماعيلية زمن الحاكم، المسمى حميد الدين الكرماني (ت٤١١/ ١٠٢٠). فنجد أن له فلسفته في العقائد الدينية والمذهبية؛ لا تختلف عن نظرة غيره من فلاسفة المسلمين؛ مع بقاء

(١) المجالس المستنصرية ص ١٧، ٣٥؛ ديوان المؤيد، تحقيق كامل حسين؛ انظر. كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٥٩، ص ٧٠، ١٦٧-١٦٨.

(٢) الملل، ص ١٤٧؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Hakâik) 2 éd t 3, P. 74.

(٣) عن هؤلاء ، انظر. Ency de l'Isl, t2, cf.

(٤) تحقيق كامل حسين وغيره، انظر.

طابعها الشيعي المميز، وأنه وجد لعقائد المذهب حلولا ليس فقط في أقوال فلاسفة المسلمين السنة، بل وفي أقوال فلاسفة اليونان، أمثال: أفلاطون وأرسطوطاليس وأفلوطين؛ كما تكلم هو الآخر في العقل الأول والسماء والنفس والوحيّ والمعجزة. والواقع أنه كان للنشاط الفلسفي عند الإسماعيلية سابقة عريقة، ظهرت من قبل في رسائل إخوان الصفا[1]، التي اعتبرت من تأليف أئمة الشيعة وعلمائها، وحاولت التوفيق بين عقائد الإسماعيلية والفلسفة، وفيما كتبه الدعاة الأوائل للمذهب الإسماعيلي، أمثال: أبي حاتم الرازي (٣٢٢/٩٣٤) في كتابه: الإصلاح، والسجستاني (السجزي)(٣٣١/٩٤١) في كتابه النصرة[2]، والنخشبي (النسفي)(٣٣٢/٩٤٣-٤) في كتابه المحصول. ولكن ما حدث من نشاط فلسفي زمن الفاطميين في مصر، لم يعرف له مثيل من قبل أو من بعد؛ بسبب أن فلاسفة الفاطميين وفقوا بين فلاسفة المذهب وآراء العصر[3].

فالفاطميون تكلموا في كل شيء: في مشيئة الله، ووصفوه[4] بالعقل الأول والعقل المكتسب، والعقل بالفعل، والعقل بالقوة، فهوُ عقْل ومعقول وعاقل، وفي الوحي. فكان تعويلهم على العقل في معاملة النص أن أدى إلى ترك باب الاجتهاد مفتوحاً على مصراعيه، وذلك على عكس ما كانت تفعله السنة من وقت لآخر، وإن جعلوا أساس كلامهم الارتباط بالسياسة أكثر. وقد ترتب على التعمق في دراسة المذهب أن الدعوة لم تعد محاضرات أو دروساً مبسطة علنية، وإنما أصبحت عدة دعوات متدرجة، عددها سبع أو تسع[5]، دعوة بعد دعوة، تتسم بالسرية، خوفاً من اختلاطها أو التغيير فيها. ولم يكن المستجيبون لها ينتقلون إلى الدرجة السادسة منها إلا إذا درسوا كل نواحيها ومعانيها الباطنية والفلسفية.

---

(١) الهمداني، بحث تاريخي في رسائل إخوان الصفا وعقائد الإسماعيلية فيها، بومباي ١٩٣٥. انظر الرسائل ذاتها، ط زنزبار ١٣٠٦ هـ.

(٢) مفرق بين الفرق ص ٢٤٦؛ انظر Ivanow :

Studies in Early Persian Ismailism, P. 115-120.

بعض كتب هؤلاء الفلاسفة، لا تزال توجد خطية في المكتبات الخاصة. انظر الهمداني، الصليحيون، ص ٢٥١ وما بعدها.

(٣) الرسالة الواعظة، ص ٤، انظر. Guide,P. 46.

(٤) الكرماني، حميد الدين، رسائل تحقيق كامل حسين، مثل: رسائل النظم في مقابل العوام، ص ٤٦.

(٥) الخطط، ٢ص ١٥٨ س ١٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ : انظر . Casanava :

Dectrine Secrète des Fatimides cf;

؛ ماجد ، نظم الفاطميين، ١ص ١٨١.

كذلك جعل لهذه الدعوة عهد خاص على المستجيبين يأخذه داعى الدعاة بنفسه، وهو[1]: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله، والإيمان بالبعث والساعة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والجهاد فى سبيل الله، ولا سيما ستر المستجيب لكل ما سمعه، وألا يقول إلا الصدق عنه، وألا يتفق مع أعداء المذهب، وأنه إذا خالف عهده هذا، فنساؤه طوالق، وكل ما يملك حرام، وأن يحج ثلاثين حجة ماشياً حافياً، ثم تقبل توبته.

وقد آتت هذه الدعوة للمذهب الفاطمى المبنية على التخطيط الدقيق ثمرتها بما لم يسبق إليه؛ بحيث يبين المؤرخون نجاحها بقولهم إن المصريين أقبلوا عليها رجالا ونساء، وأصبح المذهب السنى غريباً فى رأى المؤرخ المصرى أبى المحاسن[2]. كذلك كانت نتائجها السياسية هائلة، فقد كان هدفها العمل على الطعن فى أعدائها السنيين[3] -ولا سيما فى العراق - وإلى استمالة رعاياهم بالانضمام إليهم، ليقودوا الصراع فى بلادهم، تمهيداً لسيادة الخليفة الفاطمى على جميع المسلمين. وقد جر ذلك إلى قيام فقهاء العراق السنيين بالرد على الدعوة الفاطمية، أظهرهم الفقيه الغزالى (ت٥٠٥/١١١٢)، الذى ألف كتابا سماه: فضائح الباطنية، اتهم فيه الفاطميين بإبطال الشرائع، وأيد شرعية الخليفة العراقى السنى.

*

هذه الدعوة كانت تجر فى بعض الأحيان إلى الغلو فى صفة الإمام والجهل بالمذهب والدين. ولعل أشهر اضطراب حدث هو فى عهد الحاكم بأمر الله، حتى اصطلح على تسميته «بالمحنة»[4]، وهى كلمة تعنى حدوث اختلاف فى عقائد فرقة دينية إسلامية[5]. حقا إنه قبل الحاكم أو بعده حدث اضطراب فى المذهب، ولكن ما حدث فى عهد الحاكم لم يعرف له مثيل من قبل؛ إذ لم يقف أثره عند الدعاة المختصين بالدعوة، بل امتد أيضاً إلى الرعية.

---

(١) الخطط، ٢ص ٩٤ - ٢٣٥ ؛ الفرق بين الفرق، ص ١٨٨ - ٢٩٠ .
(٢) النجوم، ٥ص٢ س٣ .
(٣) فضائح الباطنية، ص ٤ و ٦٥؛ انظر Canard ؛
L'impérialisme des Fatimides et leur Propagande. Ann. de l'Inst d'Et Or t 6 , années, 1942-1947, P. 156 - 193.
(٤) رسائل الدروز رقم ٦٧٥٢ (B.N.) ، ورقة؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٠٥ وما بعدها.
(٥) ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢١هـ، ٤ص ١٧٩ وما بعدها (شنع الشيعة)..

فنعرف أن الشيعة تعتقد أن الإمامه منصب إلهى كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، كذلك يختار من يشاء للإمامة، ومع أن الإمام لا يوحى إليه، إلا أنه يتلقى التسديد الإلهى، إذ هو وارث العلم اللدنى. فكان الإمام فى نظر الشيعة فى مرتبة دون النبى وفوق البشر[1]، ولذا اعتبر معصوماً عن الكبائر والصغائر، وإلا زالت الثقة فيه[2]. فكان الاضطراب المذهبى يأتى غالباً من الغلو فى عصمة الإمام، والخروج عن هذه الدرجة الوسطى، بين النبوة والبشر.

وكان قيام الحاكم فى الدعوة الفاطمية بما لم يقم به أحد من قبله، وعمله على إنجاحها؛ مما جعل أتباعه يبالغون فى تقديرهم لشخصه. فظهرت أقوال كثيرة بين أتباع المذهب، تبيّن أن الحاكم ليس بإمام مثل الأئمة، إنما بشرت به الأنبياء، وأشير إليه بالرمز فى التوراة، ليأتى بأعمال باهرة[3]. وزاد الطين بلة أن الغلو فى ذات الحاكم، وصل إلى حد التأليه، وأن الغلو جاء من بعض المقربين إليه، بحيث انفرط عقد مبادئ المذهب، واختلطت عقائده. ويعبر أحد الدعاة عن هذه الحالة فى زمن الحاكم، بقوله[4]: «فغلا فيه صلى الله عليه من غلا، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا، ووقع فى أهل الدعوة والملكة الاختباط، وكثر الزيغ والاختلاط».

ولعل أشهر الدعاة الذين غلوا فى الحاكم رجل اسمه محمد بن إسماعيل، (فى ٤٠٨/١٠١٧ أو قبل ذلك)، يبدو أنه أعجمى فارسي، أو ربما تركي بدليل أن اسمه أنوشتكين أو هشتكين، وإن لقّب بالدرزى[5]، التى لا يعرف لها أصل. وهذا الداعية، كان قرّبه الحاكم فى أول الأمر، حتى عرف على أنه غلام للحاكم، وارتفع مركزه فى الدولة، فكان القواد والعلماء يقفون على بابه، ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده. وينقل المؤرخون أن الدرزى ربما كان يرى أن يعيد الدعوه إلى ماكانت عليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ كما كان يرى أن روح آدم جاءت علياً، وأن روح على انتقلت إلى أبى الحاكم، ثم انتقلت إلى الحاكم، ووضع فى ذلك كتابا سماه:

(١) المجالس والمسايرات، ١ ورقة ١١٣.
(٢) الملل والنحل، ص ١٠٩؛ انظر. كاشف الغطاء، الشيعة، ط ١٠، ص ١٢٨.
(٣) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٢٢-٢٢٣.
(٤) نفسه، ٧/٦ ورقة، ٢٢٥ س ١٣-١٥.
(٥) يحيى، (شيخو) ص ٣٢٠-٣٢٤؛ النجوم، ٤ص ١٨٤؛ العينى، تاريخ، ورقات ١٧٥، ١٨٤؛ انظر .Druzes. CCCLXXIII sqq ؛ بعده.

الدستور[1]، وجعل له أتباعًا سمُّوا: الدروز[2]. وقد اختلف في نهاية الدرزي، وأنه قتل وهو في موكب الحاكم، أو أنه هرب إلى الشام، أو أنه قتل في إحدى المعارك في سنة ٤١٠/١٠٦٩[3].

بل امتد هذا الاختلاف في شأن الحاكم إلى عامة الناس؛ فقد كان مجيء هذا الخليفة بسيرة مثالية، لم يسمع لها مثيل منذ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز[4]، أن جعلت الناس يعتقدون أن الحاكم قد يكون المسيح، الذي يأتي في آخر الزمان لإقامة العدل، ومثل هذه المعتقدات كانت منتشرة بين المسلمين وقتئذ.فقد كان يعتبر نفسه مسئولاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقرر من الأوامر الرادعة ما يصون الأخلاق المهددة. فمنع شرب الخمر، ونظم دخول الحمامات؛ كما نسمع لأول مرة في التاريخ أموراً ترمي إلى وضع حد لسفور النساء، حتى قبعن في بيوتهن سنوات. بل كان يقسو على الموظفين الذين فسدوا، فكان يقتل ويسفك دماءهم، حتى بلغ من قتله عشرة آلاف: على حسب الروايات؛ كما أنه حرّم نفسه مباهج الحياة، ولبس رداء عادياً غير مذهب، وعمامة ليس بها جواهر، ومنع الحرس من الدوران والطواف بالقصر كما كان الرسم، ومنع السجود أمامه، ومن أن يذكر لفظ مولانا عند مخاطبته. يضاف إلى ذلك أن شخصية الحاكم كانت تضيف حولها الرهبة والعظمة[5] بشكله المنصوف، وعينه الواسعتين، حتى شبه بالأسد، وصوته الجهير، وجسمه الفارع؛ بحيث إن جماعة يتعمدون لقاءه في أمور تضطرهم إلى ذلك، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا[6]. فكان جهال الناس وأوباشهم إذ لقوا الحاكم، سجدوا أمامه، وقالوا له :«السلام عليك يا واحد يا أحد، يا محييّ يا مميت». كما أن بعض الناس المسلمين كانوا يشتمون الحاكم ويكفرونه ونسبوا إليه إدعاء الإلوهية، ولقى الحاكم عنتا من سكان مصر، الذين تجرءوا على سبه وسب أهل الدعوة، حتى في أعماق القرى[7].

(١) يحيى، (شيخو) ص ٢٢٤ س ١٢.
(٢) نفسه، ٢٢٣ س ٧.
(٣) عن هذه الرواية الأخيرة: انظر. Druzes. CCCLXXXV . يعتمد على كتب الدروز.
(٤) انظر كتابنا: الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه.
(٥) سير الآباء، ٣ ورقة ٥٤.
(٦) يحى (شيخو) ، ص ٢٢١ س ٥ .
(٧) عيون، ٧/٦ ورقات ٣٢٤ – ٣٢٥.

وزاد في الطنبور نغمة، أن أعداء الفاطميين، وجدوا في هذا الاضطراب المذهبي وشائعات الناس ، فرصة لإثبات ادعاء الحاكم الإلوهية، بقصد التشهير به والقضاء على دولته الناجحة. فقالوا إن مصر لم تر فرعونا شراً من الحاكم، رام أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، وأنه أمر الرعية إذ ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على اقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره واحتراما لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر مملكته، وحتى في الحرمين الشريفين(١).

بل وافق أغلب العلماء الحديثين، ممن اهتموا بالدراسات الفاطمية، مثل: de Sacy ، وعنان، و Betty ، وكامل حسين، على ما تناقله المؤرخون السابقون في دعوى ألوهية الحاكم، وأنه في رأيهم استمدها من عقائد الإسماعيلية، وإن كان كامل حسين انفرد بالقول بأن الحاكم مال إلى تأليه نفسه غروراً وكبراً، ولكن دون أن يستمد عقيدة التأليه من عقائد الإسماعيلية، التي هي براء من ذلك(٢).

وعلى النقيض من كل هذه الروايات المفتعلة؛ فإن الحاكم لم يدع الألوهية إطلاقاً، وذلك بالاعتماد على أوثق المصادر التاريخية، فضلاً عن أنه لم ينقل إلينا نص واحد، أن الحاكم نفسه. قال: إنه هو الإله. بل عظم الأمر على الحاكم(٣)، وفي أول الأمر، استخدم الحاكم الشدة وقتل دعاته، الذين غالوا فيه أو لم يدفعوا عنه تهمة التأله(٤)، ويؤيد ذلك ما تداوله أيضاً مؤرخو السنة، الذين قالوا إنه قتل العلماء(٥). كذلك كان يذهب لمجالس الدعوة، ويقرأ بنفسه على الشيعة في كل أسبوع من علوم أهل البيت(٦) . وفوق ذلك، كان يشرح المذهب لرعاياه المسلمين، ويدفع عن المذهب الشيعي كل التباس لصق به(٧)، كلما اتيحت له الفرصة.

ولكي يبعد الحاكم عن علوم أهل البيت كل شبهة، ولما اذاعه الناس عنه وعن آبائه من إدعائهم علم الغيب(٨)، أمر الا ينجم أحد، ولا يتكلم في صناعة النجوم بل

(١) حسن المحاضرة، ٢ص ١٣.
(٢) انظر. الرسالة الواعظة، مقدمة، ص ١٠.
(٣) عيون، ٦/٧ ورقة ٢٢٦ س ٢-٣.
(٤) نفسه، ٦/٧ ورقة ٢٥٢ س ١٥.
(٥) مثلا: النجوم، ٤ص ١٧٦ س ١٨-١٩.
(٦) يحيى (شيخو)، ص ٢٠٩ س ٢١.
(٧) عيون، ٦/٧ ورقة ٢٦١ وما بعدها.
(٨) ابن إياس، ١ص ٥٦ س ١١ - ١٢ .

أمر بنفى المنجمين؛ إلا أنه لما أكدوا أنهم لن يشتغلوا بالتنجيم، عقدت عليهم التوبة، وأعفوا من النفى[1]. حقاً إن أئمة الفاطميين اهتموا بعلم التنجيم؛ إلا أنهم لم ينظروا إليه -كما يظهر من كتبهم- إلا على أساس أنه علم مفيد، لمعرفة الحساب والسنين والأوقات، ووسيلة للاهتداء به فى البحر والبر. فقد عرف عن الحاكم اهتمامه بهذا العلم؛ بحيث أهداه الفلكى علىّ بن عبد الرحمن بن يونس المصرى كتابه: زيجه فى الحساب وعلم النجوم، وعرف بزيج الحاكم أو الحاكمى أو زيج ابن يونس، وفاق ما عمل بأمر المأمون العباسى، فأصبح زيج الحاكم عمدة العلماء من الفلكيين فى استخراج التقاويم والنبوءات الجوية، ومعرفة الكسوف والحادثات. كذلك نقل عن المعزّ قوله:« من نظر فى علم النجوم ليعلم عدد السنين والحساب، ومواقيت الليل والنهار،وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله عز وجل، وما فى ذلك من الدليل على توحيده جل ذكره ولا شريك له، فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم الغيب والقضاء مما يكون؛ فقد أساء وأخطأ»[2].

وقد دفع الغضب الحاكم إلى أن يعزف عن أهل دعوته، ورجال دولته والناس جميعاً؛ لتجاسرهم على مثل هذه الدعوى، بألوهيته. فأمر ألا يدخل عليه فى قصره من رؤساء دولته سوى أحد عشر رجلاً سماهم، وأن يدخل الكتّاب والقراءون-قراء القرآن- والأطباء والمؤذنون وخدم القصر، من غير أن يختلط بهم غيرهم من الناس[3]. وكذلك ألغى ما جرى به الرسم من مواكب الصلاة فى الجوامع فى أيام الجمع من شهر رمضان وفى العيدين[4] بل ألغى كل ما يتعلق بالمذهب من الأحتفال بأعياده، مثل عيد الغدير[5]، وأبطل مجالس الدعوة العامة والخاصة، وما كان يؤخذ لها من مال الخمس والزكاة والفطرة والنجاوى. ويفسر الداعية إدريس[6] تصرف الحاكم هذا ليتميز المؤمنون بالإخلاص، ويبقى المنافقون فى الحيرة. أما أعداء الفاطميين، فقد فسروه على أنه دليل على مروق الحاكم

---

(١) يحيى، ص ٢٠٦ س ١٨- ٢٠.

(٢) عيون، ٦/ ٧ ورقات ٢٦٦-٢٦٨؛ وفيات، ٢ص ٥-٦.

(٣) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٣ س ١٦-١٧.

(٤) رسائل الدعاة، مخطوط برقم ٦٧٥١ (B.N.) ، ورقة ٦.

(٥) الخطط، ٤ص ٧١ س ٢٢.

(٦) عيون ، ٦/ ٧ ورقة ٢٥٤ .

عن الدين والمذهب[1] وإن كان مؤرخ منصف هو ابن خلدون يعترض على مثل هذا القول الأخير فيقول[2]: «إنه زعم لا يقبله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته».

ولكن ما لبث الحاكم أن دفع اليأس، وشمر عن ساق الجد في سبيل إنقاذ المذهب ودعاته، وأصبح ذلك شغله الشاغل، ولم يعد يهتم بأي شيء غيره. ولكي يعيد الأمور إلى نصابها، عمل على استدعاء رجال من اتباع المذهب، موثوق في عقيدتهم وتمذهبهم السليم، لكي يساعدوه في عودة الأمور إلى نصابها. فمن الرجال الذين استدعاهم، فيلسوف المذهب المعروف حميد الدين الكرماني[3]، الذي عينه رئيساً لدار الحكمة، فكتب الكرماني رسائل عديدة، بلغ عددها تسعا وعشرين، منها رسالة: مباسم البشارات، التي يبيّن فيها الكرماني ظروف المحنة، وسوء حالة الدعاة ،وظهور المنافقين، وصدق إمامة الحاكم وحقيقتها،ولعل أهم ما وصلنا منه، هو الرسالة التي بعنوان: «الرسالة الواعظة في نفي الوهية الحاكم بأمر الله» التي هي رد على دعوى الفرغاني الأجدع أو الأخرم(حوالى ١٠١٧/٤٠٨)، الذي قال بأن الحاكم هو المعبود، ويدعو إلى إبطال النبوة. فحاول الكرماني بالمنطق وغيره أن يثبت عقيدة الإسماعيلية في الله الذي لا إله إلا هو، وإظهار الحاكم كشيعي مثالي يعبد الله، ويساعد الناس على فهم دينهم، فيقول موجهاً الكلام للأخرم[4]: «وأما قول أصحابك: إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه، قول كفر، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، أن دعوا للاله المعبود غيراً.. فما أمير المؤمنين عليه السلام إلا عبد الله خاضع، وله طائع، يسجد لوجهه الكريم...».

وبعد ذلك قام الحاكم بحركه إصلاحية في عقائد المذهب؛ مما أدى إلى ظهور مذهب جديد، وجعل الحاكم من أصحاب النحل. في سبيل ذلك استعان بداعية

---

(١) شذرات، ٣ص ١٥٨.

(٢) العبر، ٤ص ٦٠ س ٤.

(٣) عيون، ٧/٦ ورقة ٢٥٢-٢٥٣؛ انظر. Guide, P. 43; 134 ؛ الهمداني، الصليحيون، ص ٣٥٨-٣٦٠.

(٤) انظر. نص الرسالة الواعظة، ص ٢٧-٢٨.

اسمه: حمزة بن علي بن أحمد[1]، الذى اشتهر بالزوزانى، نسبة إلى مقاطعة زوزن بفارس، الذى كان يكتب للدعاة. ونجح حمزة فى تكوين مذهب جديد، فنسمع عن طبقات جديدة للدعاة فى مصر، تشبه ما كان عليه الحال عند بدء الدعوة الإسماعيلية، على رأسهم الإمام الذى يأمر لهم، والناطق الذى ينطق فى كل عصر وزمان بالحق، والداعى الجِّد، لأنه جد فى طلب العلم من الإمام، والمأذون لأنه يفتح باب العهد، والمكاسر الخيال الذى يلوح بعلمه[2]، وقد سعى المذهب الجديد إلى إظهار الإيمان المطلق أو ما عرف بالتوحيد[3]، الذى اضطربت حقيقته بين الدعاة، ولا سيما بظهور دعوى الدرزى. يضاف إلى ذلك، أن التوحيد عند الشيعة هو أصل الدين الإسلامى وأن الإخلاص فيه يكون بثبوت مرتبة الوصاية، وهى تولية النبى لعلىّ، والإمامة، التى تبقى فى أسرة علىّ إلى يوم الدين[4].

وأكثر من هذا أن هاجم حمزة الدرزى، الذى خرج على مبدأ التوحيد[5]، ولا يزال أتباع حمزة لليوم، وهم المسمون بالدروز خطأ[6]، وإن عرفوا أيضاً بالموحدين، فقد اقتصروا على منطقة حوّران بالشام[7]، التى أصبحت تعرف فى وقتنا بجبل الدروز. وهم مسلمون يشاركون فى كل مظاهره، ولكنهم تميّزوا فى أخذه بالتصوف[8] ؛ إلا أنهم يعتقدون برجعة الحاكم فى آخر الزمان، وأنه هو

---

(١) يحيى، (شيخو) ص ٢٢٢، وما بعدها؛ العينى، تاريخ، ورقة ١٨٤؛ انظر. Druzes. CCCLXXXVII sqq. : GCCXC. عن زوزن؛ انظر. معجم البلدان، ٤ص ٤١٦.

(٢) مخطوط رقم ٦٧٥٢ (B.N.) ، ورقة ٣٠؛ زهر المعانى (المنتخب)، ص ٥٥. وذلك فى أيام الأمام محمد بن إسماعيل.

(٣) مخطوطة برقم ٦١٢١ (B.N.) ، ورقات ٣، ٨؛ عقائد نحل (مخطوط دار الكتب)، ١٣٨؛ الكرمانى، الرسالة الدرية فى معنى التوحيد والموحد، ورسالة النظم فى مقابلة العوالم، تحقيق كامل حسين، مصياف ١٩٥٢.

(٤) الرسالة الواعظة، ص ٢٥ وهامش؛ ديوان المؤيد فى الدين، تحقيق كامل حسين، ص ٨٩ وما بعدها.

(٥) مخطوط برقم ٦٧٥٢ (B.N.) ورقة ٢٢؛ ومخطوط بدار الكتب برقم ١٣٢، ورقات ١٣٥-١٣٨؛ انظر. الحاكم، عنان، ٢٠٦.

(٦) على الخصوص: عنان، الحاكم، ص ٣٠٤-٣٠٥ (ينقل عن صديق)

Ency de l'Isl, (art Druzes) t I, P. 1108 sqq.;

Le Calife Hakim, Chap. V ; Betty

(٧) انظر Betty ؛ .Op. Cit, P. 198 . عن كورة حوران؛ معجم البلدان، ٢ص ٣٦٠-٣٦١.

(٨) انظر. Betty ؛ Op. Cit.P. 197

المهدى لا محالة، ويحلفون إلى الآن بغيبة الحاكم[1]. ويقول كاشف الغطاء -وهو شيعى. إن التدين بالرجعة جائز فى الإسلام بقصد إظهار قدرة الله، وهو من قبل الإيمان بنزول عيسى من السماء، ووجود الجنة والنار[2].

كذلك هاجم حمزة فرقة سميت النصيرية[3]، ويبدو أنها كانت فرقة قديمة للغلاة فى الشام قبل مجئ الفاطميين إلى الشرق، وسميت هكذا لأنها غلت فى على بن أبى طالب، وادعت فيه ما ادعت النصارى فى المسيح؛ فقالت بألوهية علّى وأنه هو المثل عندهم. ولدينا عدة رسائل من تأليف حمزة، كلها تهاجم النصيرية وخروجها على التوحيد، أشهرها رسالة بعنوان:« الرسالة الدامغة للفاسق؛ والرد على النصيرى، لعنه المولى فى كل كور ودور»[4]. وقد كانت النصيرية بسبب مغالاتها فى علىّ، من أعدى أعداء الإسماعيلية[5].

وغنى عن البيان أن نقرر أن ما حدث من غلو الدعاة فى ذات الحاكم، حدث من قبل لأجداده الأئمة، ولخلفه من بعده، وفى كل حالة كان الأئمة الفاطميون يحتجون على هذه الادعاءات، ويعتبرونها هرطقة، وخروجًا على الاعتقاد الفاطمى، ويعملون جهدهم على تصحيحها. ونجد استبشاع هذه الادعاءات على لسان المعزّ -جد الحاكم- فى فقرة وردت فى كتاب المجالس والمسايرات يحمل فيها على جرأة الدعاة. فيوجه الكلام إلى الداعية الفقيه النعمان بن حيون؛ فيقول[6]: إنه انتهى إليك وإلينا؛ أننا ندفع نبوة محمد وندعى النبوة بعده، وندفع

---

(١) ابن إياس، ١ص ٥٨..

(٢) انظر . كاشف الغطاء، ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) عن هذه الفرقة: النجوم، ٤ص ٢٤٩ س ٦-٩. النصيرية نسبة إلى نصر من البصرة (٢٤٥/٨٦٨)، و هو تلميذ للإمام العاشر، وهو الباب، بدات افكاره الدينية تنتشر فى وقت الحمدانيين؛ كما ساعد مجئ الصليبيين إلى الشرق على انتشارها، وكانت فرقة الإسماعيلية من اشد أعدائهم، ومركزهم فى مصياف. انظر. Weurleresse : Les, Pays, des Alaouites. 2 vols, Tours, 1940, P. 53 sqq. وتوجد هذه العقيدة فى مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N.)، برقم ٦١٨٢ . انظر.

Ency de l'Isl, (art. Nusairf) t 3, q. 1030-1033.;

Histoire et Religion des Nosairis Paris, 1900. : Dussaud.;

كرد على، خطط الشام: ١٩٢٨، ٦ص ٢٥٨-٢٦٨.

(٤) مخطوط برقم ٦٧٤٦ بالمكتبة الأهلية. (B.N.)، ورقة ٧، وتوجد ايضًا برقم ٦٧٤٧ (B.N.)، وبرقم ٦٧٥٢ (B.N.) .

(٥) انظر. Guyard : Frag , P. 3, N.(1)

(٦) النعمان، المجالس والمسايرات، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦٠، ورقات ٣٥٨-٣٧١؛ انظر. ماجد ، نظم الفاطميين، ١ص ٧١.

سنته وشريعته، وندعو إلى غيرها؛ فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به، ونسبه إلينا» . ثم يقول أيضاً: «فكيف ندعيها (النبوة)، وندعى ما يصلى الله من ادعاء النار؛ ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (ﷺ) من الكفار، والله سائل من قوّلنا من ذلك ما لم نقله، ومؤاخذه بقوله» وأخيراً يقول: « إن المنتسبين إلينا، المتقولين ما لم نقله، أعداء لنا، وأضر من عدونا المناصب لنا، المباين بعداوتنا» . وكذلك الظاهر ابن الحاكم، أصدر سجلاً يفند ما قاله الدعاة فى ذات الإمام، ويتيح لهم فرصة التوبة كما أتاحها لهم أبوه، فيتحدث فى سجله [1]: « من ذهاب طائفة من الجهال إلى الغلو فى الإمامة، وعدولها بالأباطيل عن موجب الحقائق، وصفتها المخلوق بصفة الخالق، وتبرؤه إلى الله فى ذلك» . ثم يقول: « وإنه هو وأسلافه الماضون، وأخلافه الباقون، مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة، ولا يخرجون عن قضية الله تعالى» . وأخيراً يقول: « إنه قدّم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله تعالى من كفرهم، ولما يعتمده من الإبقاء على الجماعة- الدعاة- ومن أتى ذلك منهم، وأقام على كفره، فسيف الحق يستأصله» .

كذلك يقول المؤيد داعى الدعاة[2]: « وأستعيذ بالله من قوم يقولون بأفواههم إنهم شيعة، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة، يستوطئون مراكب الإباحة، ويميلون ميل الراحة، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين، فإذا عُرف سقطت الصلاة، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة، وأن الصوم هو السكوت عن إفشاء سرهم إلى غير أهله؛ فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة إلى الصوم، واحتمال كده، وأن النهى عن شرب الخمر هو النهى عن موالاة بعض الأضداد؛ فإذا هم كفوا كان شربها حلالاً سهل القياد، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد، ويردوا من مهاوى الردى فى تحليل المحرمات شر ورد، وهؤلاء أضر بالدين وبالمؤمنين ممن شهر سيفه وشرع رمحه إلى أئمتهم بالبغضاء، ولم يزل من مضى من أمير المؤمنين

---

(١) يحى (شيخو)، ص ٢٣٦؛ انظر. ما ورد فى كتاب: النجوم، ٤ص ٢٤٩-٢٥٠.
(٢) المجالس المؤيدية بمكتبة كامل حسين؛ انظر. كامل حسين، فى كتاب ادب مصر الفاطمية، ص ١٦.

عليّ، والأئمة من ذريته، إلى إمام الزمان، براء من الله تعالى من هذه سبيله سراً وجهراً... إلخ».

*

ولابد لنا أن نقرر أنه على الرغم من الحماس للدعوة في عهد الفاطميين فإن الدولة لم تجبر أحداً على اعتناقها، أو أنها تعصبت ضد المذاهب الأخرى. فسمعنا أن بعض من تولى مناصب الدولة الكبرى، وحتى في القضاء، كانوا من فقهاء المالكية والشافعية، وقد لاحظ القلقشندي ذلك، فقال[1]: إن مذهبي مالك والشافعي ظاهرا الشعار في زمن الفاطميين؛ بحيث أصبح وجود المذهبين الكبيرين معاً في أرض مصر تجربة رائدة» ويبدو أن الفاطميين كانوا يرعون مذهب مالك أكثر من رعايتهم مذهب الشافعي، ومن سألهم الحكم به أجابوه، ربما لأنهم عرفوه من قبل بالمغرب، أو ليوجدوا للمذهب الشافعي منافسا ويضعفوه؛ إذ كان المذهب الشافعي مذهب غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين في مصر. ومع ذلك، يذكر المؤرخون أن الحاكم ومن بعده الظاهر. قد تعصبا ضد المالكية على الخصوص، فقتل الحاكم بعضهم، كما أخرج الظاهر[2] المالكية وغيرهم من الفقهاء من مصر، وربما يكون هذا التعصب الطارئ ضد المالكية راجعاً لأسباب عليا، ففي عهدي الحاكم والظاهر فإن المغرب الذي كان معظم أهله على المذهب المالكي بدأ يسعى إلى الانفصال.

وثمة أيضا ما يجب أن نذكره هو أنه ليس لدينا نصوص صريحة تؤيد أن السب كان فاشياً في عهد الفاطميين؛ وذلك على عكس ما كان من قبل العباسيين أو الأمويين في الأندلس، الذين كانوا يلعنون علياً من على منابرهم. فحينما جاء المعزّ مصر، لم يلعن لاعنيه، وإنما كتب على سائر الأماكن بمدينة مصر: «خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[3]». ولكن لما أقبل كثير من المصريين على دعوة التشيع زمن الحاكم، وتركوا المذهب السني،

---

(١) صبح الأعشى، ٣ص ٥٢٤.

(٢) النجوم، ٤ص ١٧٨ س ١٥-١٧؛ الخطط، ٢ص ١٦٩ س ٥؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٨٩.

(٣) الخطط، ٤ص ١٥٦ س ٢٥-٢٦.

أخذ بعضهم من أنفسهم يظهرون سب من تقدم على عليّ، ومن خالفه وحاربه وباينه، وهم من اصطلح على تسميتهم بالصحابة والسلف. فجهروا بلعنهم على المنابر، وكتبوا على الحوائط، وسموهم بأسمائهم، وهم: عائشة زوج النبى التى حاربت علياً فى موقعة الجمل، وأبو بكر وعمر وعثمان وكل منهم منع علياً من الخلافة، وطلحة والزبير اللذان حاربا علياً فى موقعة الجمل مع عائشة، والخليفة معاوية وواليه عمرو بن العاص، وغيرهم من سائر خلفاء بنى العباس[1]. ويؤيد المقريزى ذلك بقوله: إن هذا اللعن كان من رأى جماعة المصريين، الذين كتبوه بالأصباغ فى سائر المواضع على أبواب الحوانيت والبيوت وسائر المساجد، وعلى المقابر أو حتى فى الصحراء مبالغة. والواقع أن الحاكم لم يكن مسئولاً عن لعن السلف وسبهم فى عهده، وعلى النقيض كان يأمر بمحوه، ويؤدب بالعقاب من يسبهم إلى حد قتله[2]. وينقل عن الحاكم قوله: لا يسب السلف لقول بعض آبائه الأئمة- فى وصيته لشيعته- ولا تكونوا سبابين ولا عيابين). ولدينا سجل أصدره الحاكم، ليقرأ فى كل مكان على جميع الناس، فى رمضان ٣٩٨/ يونيو -يوليو ١٠٠١، يظهر فيه منع سب السلف.[3]

*

كذلك أحسن الفاطميون معاملة أهل الذمة، كما كان الخلفاء[4] الفاطميون لا يترددون فى تفسير ما يتعلق بالمسيح، ويبدون رأيهم فيه بما يتفق مع الإسلام؛ حيث إن علمهم الإلهى لا يجعلهم يتحرجون من ذلك. فقد كانوا يتركونهم أحراراً فى الاحتفال بأعيادهم، مثل[5]: النيروز وهو عيد رأس السنة الميلادية القبطية،

(١) عيون، ٦/٧ ورقة، ٢٦٤ س ١٣ وما بعدها.
(٢) الخطط، ٤ص ٦٩-٧٠، ١٥٨، ١٦٠ (على الخصوص، انظر. ماجد، الحاكم، ٨٨).
(٣) عيون، ٦/٧ ورقة ٢٦٥. ولدينا صيغة أخرى للسجل ذاته. ابن خلدون، العبر، ٤ص ٦٠-٦٩؛ انظر. عنان، الحاكم، ص ٧٧.
(٤) عن ذلك، انظر. Troupeau :: Un traité christologique attribué au Calife Fatimide al, Mu' izz. Ahn Islamo, 1979, P. 11 sqq.
لدينا رسالة تسمى: المقالة المسيحية، من تأليف الإمام المعزّ الخليفة بمصر؛ وإن كان النص فيه تأويل؛ حيث أن علمهم الإلهى، لم يجعلهم يتحرجون من ذلك، بما يتفق مع الإسلام. فالمسيح موصول بالله، ولا مفصول عنه كقرص الشمس والشعاع، فهو باطن بما ظهر، وظاهر بما بطن، ظاهره نبى رسول، وباطنه غيب لا يدرك، وهو الروح القدس، وهو اللاهوت القديم.
(٥) انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٣١ وما بعدها (توجد مصادر كثيرة)، التى أهمها: الخطط، ٢ص ٢٤ وما بعدها.

وعيد الصليب وهو اليوم الذى عثر فيه البيزنطيون على الصليب الذى صلب المسيح عليه فى القدس، وعيد الغطاس، وهو ذكرى تعميد المسيح بفلسطين. بل سمحوا للمسلمين بمشاركتهم فرحهم فيها، وكانت الدولة تطلق المأكولات والملابس للموظفين من أهل الذمة والمسلمين، زيادة فى الابتهاج، وحتى تصدر عملة تذكارية مثل العملة المسماة خروبة، التى كانت برسم خميس العهد أو العدس، الذى كان يعمل قبل النيروز.

كذلك كان البطريرك القبطى إذا تولى سلطته الدينية استقبله الخليفة الفاطمى استقبالاً رسمياً فى قصر[1]. ولدينا وصف استقبال بطريرك القبط فى عهد المستنصر، الذى أرسل إليه فى الإسكندرية -مقر البطريركية- عشارى خاص، وهو مركب من مراكبه، لينقله إلى مصر. فلما وصل البطريرك إلى مصر، انتظره خلق كثير، ودخل إلى القاهرة من باب اسمه البحر فى موكب رسمى، يحيط به القرّاء الذين لعلهم يرتلون الإنجيل. وحينما وصلوا إلى قصر الخليفة، خرج إليهم صاحب الرسالة -موظف بالقصر للمقابلات- وقال للبطريرك: أمير المؤمنين يرد عليك السلام، فسكع البطريرك، أى انحنى إلى قرب الأرض، ثم دخل البطريرك وحده على الخليفة، الذى عنده أمه وأخته جالستان، وبين أيديهم طيب كثير، فضمخوه به وقالوا له: « بارك علينا وعلى قصرنا». فبارك عليهم، ودعا لهم ففرحوا به، ثم خرج فوقف على باب القاعة وأمر أحد تلاميذه أن يقرأ دعاء خاصاً، فقرأه. وبعد ذلك، سار موكب البطريرك إلى دار الوزير، وقرأ الدعاء ذاته، ولقى الترحيب ذاته، ورجع فى صحبة والى القاهرة.

وحتى الأديرة النائية كانت تحظى برعاية الخلفاء الفاطميين، وزيارتهم، وخصوصاً إذا كان الخليفة فى رحلة صيد؛ حيث عرف خلفاء الفاطميين بحبهم للصيد. فقد كان الأمر كلما خرج للصيد بالقرب من دير نهيا إلى القرب من الجيزة، منح رهبانه المال[2]. كذلك لدينا سجلات فى دير القديسة كاترين بسيناء[3]، مرسلة من قبل الخلفاء والوزراء الأقوياء، لتأمين الرهبان فى هذا

(١) سير الآباء، ٢ ورقات، ٨٨-٨٩؛ انظر. ماجد، المستنصر بالله، ص ٦٦.
(٢) ابو صالح، الكنائس والأديرة، ص ٧٧-٨٧.
(٣) مقالة أحمد عيسى؛ مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقالة بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، ١٩٥٦، ص ١٠٥-١٢٤؛ جوزيف نسيم، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين، فصلة ١٩٦٤ صفحات ١٧٩ وما بعدها.

الدير على أرواحهم وممتلكاتهم، مثل تلك السجلات المرسلة من الحافظ والفائز وطلائع وشيركوه.

ولكن في عهد الحاكم بالذات، عمد إلى مراقبة أهل الذمة، احياء لتقاليد الإسلام الأولى، لإظهار ما في الإسلام من العزة، أو انه ربما قصد أيضاً تحويلهم إلى الإسلام. وفي الواقع إنه منذ عمر بن الخطاب الذي وضع لأهل الذمة شروطاً تنّظم تصرفاتهم في المجتمع الإسلامي، عرفت بالشروط العمرية أو العهد العمري، لم يكن أغلب حكام المسلمين يلجأون إلى هذه الشروط، إلا في حالات الاضطهاد والحروب. ولذلك اعتبر أهل الذمة رجوع الحاكم إلى هذه الشروط وزيادته عليها[1]، امتحاناً لهم من قبل الله، يذكرهم بما عانوه في عهود الاضطهاد السابقة[2].

وأكبر الظن أن رجوع الحاكم إلى الشروط العمرية، يرجع إلى أن أهل الذمة كانوا قد اشتد بأسهم بين المسلمين. وأنهم تمكنوا في الدولة الفاطمية؛ بسبب تسامح الخلفاء، حتى أنهم كثروا في الإدارة، وتقلّدوا أعلى مناصبها: بما فيها الوزارة؛ كما ذكر، ويبدو أن العامة من المسلمين كانت تشكو قسوة الموظفين من أهل الذمة، ويصف أحد الشعراء وصول اليهود منهم إلى أعلى المناصب بقوله[3]:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم، والمالُ عندهم ومنهم المستشارُ والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك

ومع ذلك؛ فإنا نلاحظ أن الحاكم كان أشد وطأة على القبط الملكانية دون بقية أهل الذمة . فنعرف أن القبط في مصر طوائف مختلفة[4]، منها: الملكانية على

(١) وفيات ، ٣ص ٥س ١٤؛ الكامل، ٧ص ٣٤٠ وهامش. نقل عن ابن كثير في البداية والنهاية. عن الشروط العمرية؛ انظر. ابن قيم الجوزية (٦٩١–٧٥٠ هـ)، شرح الشروط العمرية، تحقيق صبحي الصالح، دمشق ١٩٦١.
كذلك، صبح، ١ص ٢٥٦، ٣ص ٢٧٤؛ انظر.
Ency (art. Kibt) t 2 , P. 1049-1050.

(٢) انظر. Hakem, P. 110 : Betty
(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، ٢ص ١١٦.
(٤) يحيى (شيخو) ص ١٨٦ س ٥.

مذهب بيزنطية (الروم)، ولذلك كانت تعرف باسم ملكانية الروم أيضاً، والنسطورية وهى كنيسة مستقلة عن بيزنطة، ولا سيما اليعقوبية أو الأرثوذكسية ملة غالبية قبط مصر، التى كانت ظهرت لها كنيسة مستقلة هى الأخرى. فكانت للروم الملكانية أحياء[1] خاصة بهم، عرفت منها : حارة الروم الجوانية عند باب النصر، وحارة الروم السفلى عند باب زويلة، وكان منهم من يرتزق بالجندية؛ بينما كان القبط وأقلية من اليهود يعيشون مع المسلمين فى أحيائهم. ومع أن المعز لم يتعصب لطائفة من القبط على الأخرى؛ إلا أن نفوذ الملكانية كان قد ازداد فى عهد العزيز؛ بسبب زواجه من نصرانية ملكانية كما ذكرنا، أنجبت له سيدة (أو ست) الملك[2]، أخت الحاكم؛ بحيث إن العزيز عين أخويها فى أعلى مناصب الكنيسة: فعين أريستس (Oreste) بطريركًا على بيت المقدس، والآخر أرسانيوس "Arsenius" (أساميس أو أرسانى)، بطريركًا على القاهرة ومصر، ومنذ ذلك الوقت، استبدت طائفة الملكانية فى البلاد، وحتى بطائفة الأرثوذكس المسيحية[3].

وقد انتهزت الملكانية هذه الحرية؛ فأظهروا شعائرهم بطريقة صارخة، ففى ليلة الغطاس أو ما يعرف بليلة الحميم؛ كانوا يخرجون من كنيستهم، ويسيرون فى الشوارع، يقرأون بتلحينات ومعهم الصلبان المشهورة، والشموع الموقدة؛ فإذا وصل الموكب على شاطئ النيل، الذى أسرج بالمشاعل، صلّبوا وقدّسوا، ووقف وخطب بالعربى فى هذه الذكرى، ودعا للخليفة. ثم بعد ذلك، يغطس القبط فى النيل، حتى يتطهروا أو يبعدوا عنهم المرض، وكان المسلمون يغطسون معهم، تكثر الزوارق، ويبالغ الناس فى المأكل والشرب والعزف والقصف[4].

وعلى العموم قام الحاكم بتنفيذ الشروط العمرية مع أهل الذمة، وإن استثنى منهم الخيابرة[5]، وهم يهود أصلهم من خيبر وما يجاورها- الذين كان

(١) انظر. Doris : Locations of non- Muslim quarters in Medieval Cairo. Ann Islamo t XXII, P. 117 sqq.

(٢) يخطئ. كنار "Canard" ، الذى يرى فى مقالته عن الحاكم فى (Ency, de l'Isl, 2éd) : أن الحاكم أيضاً من أسرة هذه السيدة النصرانية. انظر. كتابنا: الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، ص ٢٤-٢٥.

(٣) يحيى (شيخو)، ص ١٦٤-١٦٥؛ سير الآباء، ٢ ورقة ٥٠؛ ابن العميد، ص ٢٤٧.

(٤) يحيى (شيخو)، ص ١٩٦-١٩٧.

(٥) عن خيابر، انظر. معجم البلدان، ٢ص ٤٩٢-٤٩٧

عمر نقلهم من الجزيرة إلى مصر- وذلك جرياً على السنة الأولى منذ أيام النبى. فأصدر الحاكم الأمر إلى أهل الذمة بالتمييز عن المسلمين بعلامات خاصة عرفت بالغيار، بوضع زنانير ملونة جعلها أسود حول أوساطهم، ولبس العمائم السوداء على رءوسهم[1]، وتلفيعات سوداء (طيالس)- وذلك لأن اللون الأسود هو شعار أعدائهم العباسيين كما ذكرنا- وجعل القبط يحملون صلباناً واليهود يحملون الخشب إشارة إلى رأس العجل، ومنعهم من ركوب الخيل، وركوب البغال والحمير، بركب من خشب وسروج ولجم من سيرسود غير محلاة بفضة، وأمرهم أن يتميزوا فى الحمامات عن المسلمين، ثم أفرد لهم حمامات على حدة.

ولكن أهل الذمة فى أغلبهم نزعوا الغيار، وتشبهوا بالمسلمين، حتى لا يعرفوا[2]. فنادى الحاكم بأن يلتزموا بما أمر أو يسلموا، وخير القبط الملكانية فى الهجرة إلى بلاد الروم أو الحبش أو النوبة[3]. ثم اتخذ قوانين صارمة منذ حوالى ٤٠٠/١٠١٠، استمرت إلى آخر حكمه: فجعل النصارى يحملون صلباناً ثقيلة. فبعد أن كانت طولها شبراً، جعلها ذراعاً ونصفاً، زنتها خمسة أرطال، وختمها بالرصاص، فجعلهم يلبسون الزُنّار- شريط حول الوسط- ويحملون الخشب الثقيل. كذلك أمر النصارى بألا يظهروا صليباً، أو ناقوساً، ونزعت الصلبان نواقيس[4]. كما منع أهل الذمة، من التظاهر بالأعياد[5]، مع أن لم يمنعهم من ادهم فى أول الأمر. وأكثر من ذلك هدم الكنائس والبيع والأديرة فى مصر[6]، ادر أملاكها[7] واحتاط على ما يوجد فى الكنائس، وجعله ملكاً للدولة يوان)[8]، وفى خارج مصر هدم كنيسة القيامة المقدسة، التى يحج إليها

من مصادر متعددة: يحيى (شيخو)، ص ١٨٧، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣؛ سير الآباء، ٣ رقات ٥٤-٥٥؛ ابن حماد، ص ٥٤؛ الخطط، ٤ص ١٥٧-١٥٨.

سير الآباء، ٣ ورقة ٥٦.

الكامل، ٣ص ٢٤٠؛ سير الآباء، ٣ ورقة ٥٦.

سير الآباء، ٣ ورقة ٥٤؛ يحيى (شيخو)، س ٢٠٠ س ١٤-١٦، ٢٠٣ س ١٧-١٨.

الخطط، ٤ص ٣٩٩ س ٤-٥.

نفسه، ٤ص ٣٩٩.

يحيى (شيخو)، س ٢٢٩، ٢٣٢.

نفسه، ص ٢٣١.

النصارى[1] ومع ذلك، فعلى حسب قول المقريزى: فإن الحاكم لم يهدم غير كنائس وأديرة ملكانية[2]. ويبدو أن العوام المسلمين، انتهزوا هذه الأوامر، فكانوا يأتون بأمور فظيعة لم تشاهد من قبل، مثل أنهم يدخلون الأديرة والمقابر، ويأخذون توابيت الموتى، ويحرقون الكتب، ولكن الحاكم أنكر فعل ذلك، وأمر بالكف عنه[3]. وقد نسب إلى الحاكم أفعالاً ظالمة كثيرة نحو أهل الذمة، مع أنها من أفعال رعاياه المسلمين المتعصبين، وهو برئ منها.

ومهما يكن، فإن الحاكم فى آخر سنة من حكمه عدل عما زاده على الشروط العمرية، واكتفى من أهل الذمة بلبس الغيار[4] وهى العلامة المميزة. فأصدر سجلات متفرقة، يأمر فيها بإعادة بناء الكنائس، ورد أوقافها[5] وربما أعاد بناء كنيسة القيامة[6]، التى قد يكون أعيد بناؤها فى عهد الظاهر[7] أو المستنصر[8] ولما قيل للحاكم إن الذين أسلموا من أهل الذمة، أن دخولهم فى الدين الإسلامى لم يكن عن إيمان، وخيروه بين أن يقتلهم أو يرجعوا إلى دينهم، سمح لهم الحاكم بالرجوع إلى دينهم، على أن يلتزموا بلبس الغيار[9]؛ بحيث إنه ارتد منهم فى يوم واحد أكثر من سبعة آلاف يهودى إلى دينهم[10]؛ كما ارتد قبط كانوا قد تظاهروا بالإسلام من سبع سنوات[11] وقد أصدر الحاكم سجلاً[12] هاماً عليه علامته، يطمئن فيه أهل الذمة بحمايته لهم، ما داموا قد التزموا بأوامره.

---

(١) أنظر. قبله.
(٢) الخطط، ٤ص ٣٩٩ س ٢٥.
(٣) يحيى (شيخو)، ص ١٩٧.
(٤) نفسه ، ص ٢٣٢ س ٥-٦.
(٥) نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩.
(٦) حسن المحاضرة، ٢ص ١٢ س ١٣.
(٧) الخطط ٢ص ١٦٩ س ٨-؛ انظر. Dölger : Regesten der Kaiserurkunden des Ostro-micschen Reiches, I. Berlin- Munich 1824 ؛ أسد رستم؛ الروم، ١ص ٦٤.
(٨) العينى، تاريخ، ورقات ١٨٥-١٨٦.
(٩) يحيى، ص ٢٣٢ س ٥ -٦ .
(١٠) ابن إياس، ١ص ٥١ .
(١١) يحيى (شيخو) ص ٢٣٢ س ٥-٦ .
(١٢) نفسه، ص ٢٣٢ - ٢٣٣؛ انظر . ماجد، الحاكم، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وقد وجد مؤرخو السنة وغيرهم في رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة، دلالة على مروقه عن الإسلام؛ فقد سمح لمن أسلم من أهل الذمة بالارتداد، مع أن ذلك عقابه القتل، ولكن الحاكم يرد على ذلك بقوله: « ننزه مساجدنا عن أن يدخلها من لا نية له في الإسلام»[1]، ولا سيما أن بعض من أسلم لم يكن إطلاقنا عن إيمان، فقد وجد منهم من يشارك النصارى في الصلاة والتقديس، وأخذ القربان[2]. ومن بعده خلفه الظاهر، فكان يسمح هو الآخر لمن أظهر الإسلام دون رغبة أن يعود إلى النصرانية؛ فرجع كثير منهم إليها[3]. ولا ريب، ففي ذلك الوقت، كان الشعب المصرى في فترة قلق، يغير دينه من النصرانية ويتحول إلى الإسلام. فينقل المؤرخون ديالوجا بين مصرى أسلم، وآخر لم يسلم، فمن قوله له: « اكسر الصليب، وادخل في الدين الواسع»[4]، كذلك كان الحاكم يرى إعادة الكنائس للنصارى، مع أن غيره لا يجوز إعادتها ولو هدمت بغير وجه حق؛ كما يقول السيوطى[5]؛ فلأن الحاكم نظر إلى الأمور نظرة واقعية؛ فقد كان القبط يكونون وقتئذ ثلث سكان مصر، ويؤيد رأينا أحد اليهود المعاصرين[6] للحاكم مدح تصرفاته نحو أهل الذمة، وعدله وإحسانه في البلاد.

* * *

والخلاصة أن الفاطميين ساروا في سياستهم الداخلية في مصر بسياسة متنورة، ترعى حقوق الشعب المصرى؛ وإن سعت في الوقت ذاته إلى صبغه بصبغة فاطمية إسلامية.

---

(١) شذرات، ٣ص ١٥٠.

(٢) يحيى (شيخو)، ص ٢٢٨ س ٧-٩.

(٣) الخطط، ٢ص ١٦٩ س ١٠-١١.

(٤) سير الآباء، ٣ ورقة ٥٨.

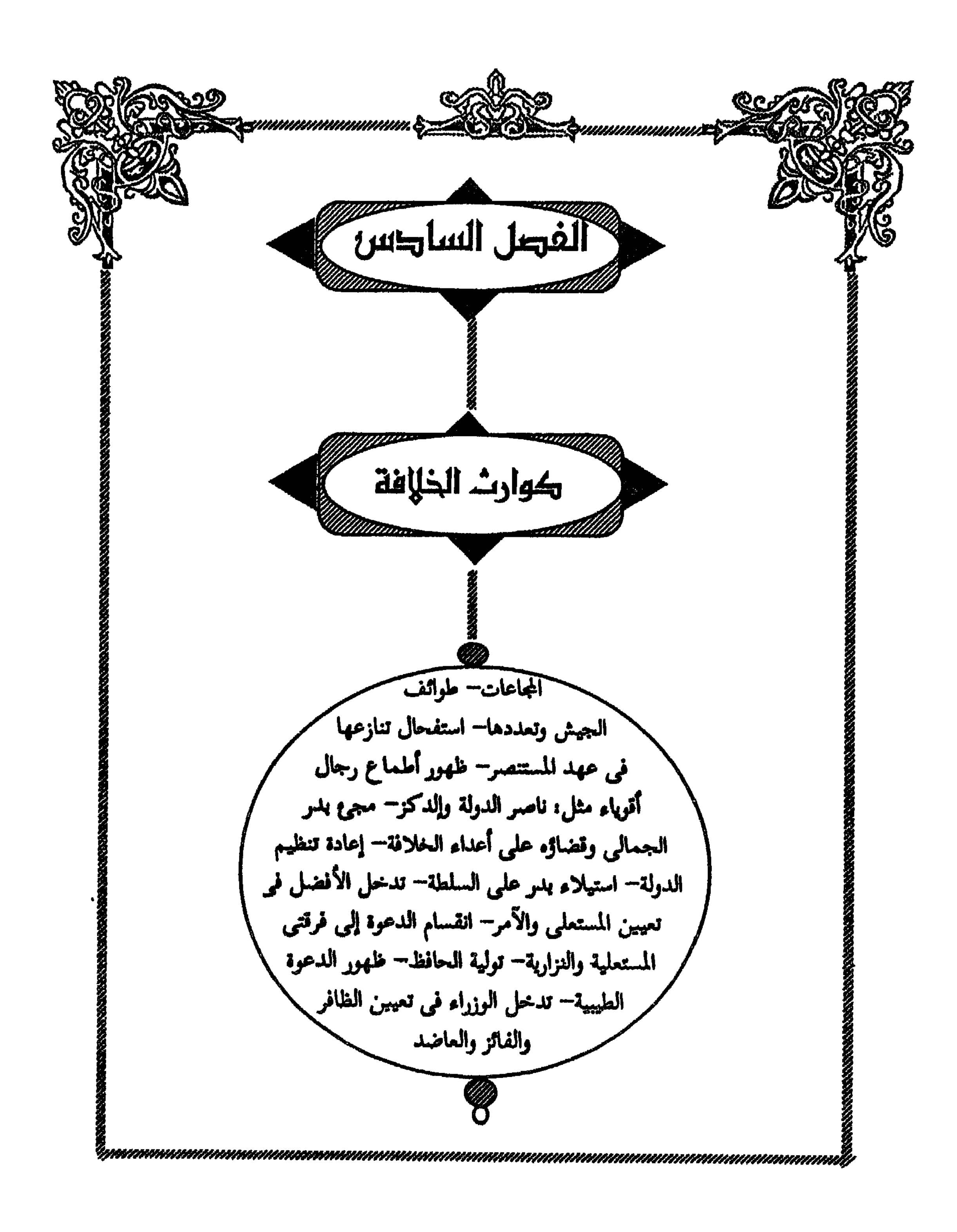
(٥) حسن المحاضرة، ٢ص ١٣ س ١٤-١٥.

(٦) نشره Neubauer في : Jewish Quarterly Review Ix. 25.

وأيضاً. انظر: Kaufmann :

Beïtráge zur Ceschichte Aegyptens ansjudischen Qullen. Z.,D.M.G.L.I. (1897) 442-;-3.;

Ency de l'Isl, (art. Hâkim). 2 éd, t 3, P. 83 : Canard



الفصل السادس

كوارث الخلافة

الجماعات– طوائف الجيش وتعددها– استفحال تنازعها في عهد المستنصر– ظهور أطماع رجال أقوياء مثل: ناصر الدولة والدكز– مجيء بدر الجمالي وقضاؤه على أعداء الخلافة– إعادة تنظيم الدولة– استيلاء بدر على السلطة– تدخل الأفضل في تعيين المستعلي والآمر– انقسام الدعوة إلى فرقتي المستعلية والنزارية– تولية الحافظ– ظهور الدعوة الطيبية– تدخل الوزراء في تعيين الظافر والفائز والعاضد

كوارث الخلافة

ولكن هذه الدولة التى بلغت القمة فى الازدهار داخلياً وخارجياً، جرت حياتها على سنة الحياة فى أن يلاحقها الضعف والاضمحلال. ونجد أن عوامل الضعف فيها يرتبط بعضها ببعض، مثل عوامل الازدهار، وإن كان بعضها قد ظهر فى أثناء الازدهار، وإن بعضها الآخر قد أدى إلى بعض.

فمصر الإسلامية -منذ عهد الولاة الأمويين- كانت تنتابها من وقت لآخر المجاعات[1]، التى تأتى غالبا من تقصير النيل عن ارتفاعه؛ مما يترتب عليه ألا تجد أرض مصر المياه اللازمة، فتترك الأرض بدون زراعة، ويتعذر وجود الأقوات، ويؤدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار، فضلاً عن أنه كان يزيدها استفحالاً سوء تدبير الحكام، وغفلتهم عن معالجتها[2].

وقد استمرت المجاعات قبل مجئ الفاطميين فى عهد الإخشيديين تسع سنوات؛ بحيث إن وقوعها كان السبب فى مجئ الفاطميين. فيذكر المؤرخ المقريزى أن مجئ الفاطميين كان سببه الضنك من المجاعات، وتعذر وجود الأقوات؛ بحيث إن المصريين كاتبوا المعز الفاطمى[3]. فلما وصل الفاطميون مصر، عملوا على تخفيف حدة المجاعات القائمة؛ بما اتخذوه من إجراءات؛ منها حمل الغلال معهم من المغرب. كذلك كان الفاطميون إذا قصر النيل كتموا مقاييسه إلى أن يوفى إلى الحد المرموق[4]؛ حتى لا يحدث اضطراب فى الأسعار، واختفاء الأقوات، وذلك على عكس ما كان يحدث قبلاً؛ فكان ينادى على ارتفاع النيل يومياً.

وقد اهتمت الخلافة الفاطمية بنظام الحسبة[5]، وهى كلمة فى الإصطلاح الإسلامى تعنى مراقبة الأسواق، ومحتسب يعنى مراقب الأسواق فكان يعين لها موظف كبير، يستخدم النواب[6] والعرفاء -أى الخبراء- من بين أرباب الصناعات

(١) إغاثة، ص ١١.
(٢) نفسه، ص ٤ س ٣.
(٣) النجوم، ٤ص ٧٢ س ١٥-١٧؛ إتعاظ، ص ١٤٦-١٤٧.
(٤) الخطط، ١ص ٩٧-٩٨؛ إتعاظ، تحقيق جديد، ص ١٢٨.
(٥) ابن خلدون، المقدمة ص ١٧٨؛ الماوردى، الأحكام، ص ٢٠٨ وما بعدها؛ ابن تيمية، الحسبة فى الإسلام، القاهرة ١٣١٨هـ؛ انظر.
Ency. (art. Hisba) t 2, P. 337 : (art. Muhrtasib) t 3, P. 701.
؛ ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٦١ وما بعدها.
(٦) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ١٢.

والتجارة- بالقاهرة ومصر وفى جميع أجزاء الدولة، بقصد مراقبة الأسعار. وكان إذا كذب أحد التجار على أحد المشترين، أو باع بأكثر من الثمن؛ فإنه يُدفع بالتاجر على جمل، ويعطى جرساً بيده، ويطوّف به فى المدينة،وهو يدق الجرس ويقول: « قد كذبت وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب»[1].

ولكن عادت المجاعات إلى الظهور فى عهد الخليفة الحاكم بين ٣٩٥/١٠٠٣ إلى ٣٩٩/١٠٠٩[2]، واتخذ هذا الخليفة من الإجراءات ما يدل على كبر عقله وتفانيه فى القيام بواجبه. فكان يعمل على تثبيت الأسعار بمنع تذبذب العملة، بتحديد مقاديرها، وإنزال عملة جديدة تفرّق على الصيارفة، ثم أقام سعراً لكل شئ، ولا سيما الحبوب والمبيعات؛ كما كان يدخل البيوت، ويوزع الأموال على الناس بنفسه. وكذلك استخدم وسائله الخاصة فى منع الناس من تخزين الأقوات؛ فضرب جماعة بالسوط وشهرهم، وأمر الا يباع القمح إلا للطحانين؛ كما كان يكبس الحواصل والبيوت للبحث عن القمح، ويفرقه على الطحانين بالسعر الرسمى. وفى مرة ركب حماره، وقال: « أنا ماض إلى الجامع، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعاً يطؤه حمارى مكشوفا من الغلة، لأضربن رقبة كل من يقال لى إن عنده شيئًا منها، ولأحرقن داره وأنهبن أمواله». فلما عاد فى آخر النهار، لم يكن قد بقى أحد من أهل مصر والقاهرة إلا وعنده غلة، حتى حملها من بيته أو منزله، وسعى بها فى الطرقات، فامتلأت عيون الناس، وشبعت نفوسهم.ويدل على بعد نظره أيضاً، أنه أمر بمنع ذبح الأبقار السليمة من العاهة إلا فى أيام الأعياد حتى لا تنقرض.

وكان الحاكم تواقاً إلى أن يقطع دابر المجاعات عن مصر، فسمع أن شخصاً من العراق اسمه أبو علىّ بن الحسين بن الهيثم[3]، نبغ فى الهندسة، وأنه قال: لو

(١) سفر نامه، ص ٦١.
(٢) إغاثة الأمة، ص ١٤، وما بعدها؛ يحيى (شيخو)، ص ١٩٤-١٩٥؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٤.
(٣) ابن العبرى، ص ٣١٦ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٦٤-٦٥. كذلك فى عهد المستنصر، أرسل البطريرك إلى الحبشة لطلب إصلاح مجارى النيل، وإن لم يحدث شئ بطبيعة الحال. صبح، ٥ص ٣٢٣.

كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص. فأرسل الحاكم إليه جملة من مال، وحثه على المجئ إلى مصر. فلما وصلها خرج الحاكم بنفسه للقائه، وأمر بإنزاله وإكرامه، وسيّره مع جماعة من الصناع فى طول الإقليم المصرى حتى وصل إلى أسوان. ولكن ابن الهيثم لم يستطع أن يقوم بشئ، واعتذر عن عجزه؛ فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً إلى وقت وفاته.

ولكن زادت المجاعات فى عهد الظاهر؛ بسبب كثرة الفئران التى أتت على كل شئ، وانشغاله باللهو عن رعاية الأمور، حتى أن رجال الدولة فكروا فى خلعه، لولا أنه أسرع بتفرقة الأموال. وقد صاح الناس فى مظاهرة قاموا بها بالخليفة[1]: «الجوع، الجوع، يا أمير المؤمنين، لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك، فالله الله فى أمرنا»؛ كما أنه لما عمل السماط فى عيد النحر، كبست طوائف العسكر عليه، وهم يصيحون: «الجوع، الجوع»[2]. ونهبوا سائر ما كان عليه. ويبدو أن الدولة لم تحصل على مالها- ولعل الناس امتنعت عن دفعها- ملأ الحبوس بالرجال والنساء، حتى النساء الحبالى ولدوا فى الحبوس[3]. وعلى كل حال عولجت هذه المجاعات لأن الدولة الفاطمية كانت لا تزال فتية، فمن الإجراءات التى اتخذتها منع ذبح الماشية لاستكثارها[4] ولما ذهب شبح المجاعة، عاد الناس إلى الدعة والطمأنينة، واشتغلوا بالأكل والشرب.

ولكن عادت المجاعات إلى أشدها فى عهد المستنصر، الذى تولى بعد الظاهر، فوقعت فى عدة سنين من حكمه: فى ٤٤٤/ ١٠٥٠، وفى ١٠٥٢/٤٤٦، وفى ١٠٥٥/٤٤٧ و ١٠٥٦/٤٤٨، وفى ١٠٥٨/٤٥٠[5]، وكلها فى وزارة اليازورى،

(١) سير الآباء، ٢ ورقة ٦٨.
(٢) الخطط، ٢ص ١٦٨ س ٢٢.
(٣) سير الآباء، ٢ ورقة ٦٨.
(٤) الخطط، ٢ص ١٦٨ س ١٤-١٥.
(٥) ابن ميسر، ص ٦-٧؛ إغاثة، ص ١٨-٢٠؛ العينى، تاريخ، ورقات ١٨٦؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ١٤٥-١٥٦.

فعالج اليازورى هذه المجاعات ارتجالياً؛ بقصد التقرّب من الخليفة، إذ عرف بأنه وصولى. فقد كان المستنصر يشترى فى كل سنة بمائة ألف دينار غلة ويخزنها ويتاجر فيها، ويبيعها بالسعر الذى يريده. فكان الاحتفاظ بهذه الغلة أشبه باحتياطى للبلاد، فضلاً عن أن التجار كانوا مجبرين على البيع بالسعر الذى يبيع به الخليفة. ولكن اليازورى حض المستنصر على ألا يخزّن الغلال؛ وأن يخزن غيرها من المواد التى تأتى بربح أكبر، مثل: الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وشبه ذلك. وترتب على ذلك أنه لما حدثت المجاعات، ولم يعد يوجد احتياطى من الغلات؛ كما تلاعب التجار بأسعار الغلال التى فى حوزتهم، وكانوا يخفونها لبيعها بالسعر الذى يريدونه. وقد أدرك اليازورى خطأه، فعمل على مصادرة ما فى مخازن التجار وختم عليها؛ كما لجأ إلى المفاوضات مع ملك الروم قسطنطين التاسع "Constatine IX Manomachus" فى سبيل استيراد ما مقداره أربعمائة ألف أردب من الحبوب. ولكن لما مات هذا الملك، وتولت بعده ثيودرة "Theodora" عاقت إصدار القمح[1]. على كل حال، خففت هذه الإجراءات السريعة من قبل اليازورى من حدة المجاعات فى البلاد، وشهد له بعض المؤرخين ببراعته فى ذلك. ومن ناحية أخرى؛ فإن بعض حكام ملوك الطوائف بالأندلس أرسلوا إلى إخوانهم المصريين سفناً مملوءة بالطعام[2]، ولدينا رسائل ودية متبادلة بين علّى بن مجاهد العامرى صاحب دانية والخليفة المستنصر فى سنة ٤٥٢/١٠٦٠[3]، بل أعاد المصريون بدورهم السفن محملة بالذخائر الحربية، كى يستطيع إخوانهم الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان[4].

ولعل أكبر مجاعة حدثت فى عهد هذا الخليفة، هى تلك التى امتدت عدة سنين بشكل لم يعرف من قبل، من ٤٥٧/١٠٦٥ إلى ٤٦٤/١٠٧١[5]، أى

(١) ابن ميسر، ص ٦-٧.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٥٣. ٢٥٤؛ انظر. مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ١٩٥٧، ص ٢١٧.
(٣) ابن الأبار، التكملة، ص ٦٢٢.
(٤) الحلل الموشية ، ص ٧٢؛ انظر. مختار العبادى، الصقالبة، مجلة معهد مدريد ١٩٥٣، ص ٢٦ حاشية (٤).
(٥) إغاثة، ص ٢٤ وما بعدها.

استمرت سبع سنين؛ وإن بلغت أشدها فى ٤٦٢/ ٦٩ ١ وهذه المجاعة العارمة عرفت بالشدة المستنصرية، نسبة لهذا الخليفة، وشبهت بأنه لم يحدث مثلها منذ أيام يوسف الصديق؛ كما وصلت آثارها إلى أماكن أخرى فى الشرق فى العراق والحجاز، وحتى فى بلاد ما وراء النهر[1]. وقد كان أساسها تقصير النيل، ولدينا قوائم مستوى النيل فى أثناء هذه الشدة[2].

وقد كانت هذه المجاعات شديدة على الأهالى، حتى عانوا الأمرّين فى معيشتهم. فتعذر وجود الأقوات، وارتفعت الأسعار، فبلغ رغيف العيش ١٥ ديناراً(٧ جنيهات[3])، بل لم تعد للأموال أهمية فى سبيل الحصول على الأكل، حتى أن حارة سميت بحارة الطبق؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من الأكل[4]. كذلك باعت نساء الأسر الغنية جواهرهن. فقد باعت امرأة عقداً لها يساوى ألف دينار[5]. لتحصل على القليل من الدقيق. ولكن هذا الدقيق نهبه الناس وهو فى الطريق، واضطرت هى أن تأخذ منه ما يعجن قرصة. فأخذت هذه القرصة ووقفت فى مكان مرتفع، ورفعتها فى يدها؛ بحيث يراها الناس، ونادت بأعلى صوتها: «يا أهل القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر، الذى أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار». بل اضطر أعيان الدولة ورؤساؤها أن يخدموا الناس لقاء كسرة من الخبز؛ لكونهم باعوا جميع موجودهم من الغلال، حتى أن رجلاً ذهب الحمام، فطلب صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سعد الدولة أو عز الدولة أو فخر الدولة[6]. ويذكر بعض المؤرخين أن الملكة أم المستنصر وبناته نزحن إلى بغداد[7]؛ وإن ذكر

---

(١) العينى، تاريخ، ورقات ١٨٧ – ١٨٨.

(٢) انظرها فى أبى المحاسن: النجوم الزاهرة، الجزء الخامس.

(٣) ابن إياس، ١ص ٦٠.

(٤) ابن أيبك ، كنز الدرر، ٦ ورقة ٢١٥.

(٥) إغاثة، ص ٢٥ – ٢٦

(٦) النجوم ، ٥ص ١٦ س ٦–٩.

(٧) أختلف أيضا فى التاريخ، فقيل ١٠٦٨/٤٦٠ أو ١٠٦٩/٤٦٢. النجوم، ٥ص ٣س ١١؛ وفيات، ٢ص ٥٥١ س ٦.

آخرون إلى الشام، وهذا أقرب إلى الحقيقة للعداء بين العراق ومصر؛ كما أن بعض أهل مصر هاجروا وتشتتوا فى البلاد، ولم يكن المستنصر نفسه يجد ما يقتات به فى أثناء هذه الشدة، ويركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع[1].

كذلك اضطر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط، والبحث عن شرائها؛ فبيع الكلب بخمسة دنانير[2]، والقط بثلاثة دنانير. وقد حكى أن وزير الخليفة نزل يوماً عن بغلته، فغفل عنها الغلام لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، لأن الناس أكلوا فى تلك الليلة لحومهم[3]، وقيل للمبالغة أو للحقيقة إنه من شدة الجوع صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك. بل صارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب؛ فإذا مر بهم أحد من الناس ألقوا عليه تلك الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب، فى أسرع وقت، فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه، أو شرحوا لحمه وأكلوه، وعرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل، ولكن الدولة تعقبتهم؛ وعملت على شنقهم[4].

هذه المجاعات زاد من حدتها أن صاحبها انتشار الأوبئة والأمراض، ولا سيما الجدرى، الذى مات منه كثيرون. ففى سنة ٤٤٨/١٠٥٦، كان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس[5]، ثم زاد إلى عشرة آلاف، وفى يوم مات ثمانية عشر ألفاً؛ بحيث كان المستنصر يكفن بالعشرين ألفا على حسابه[6]، ويبدو انه فنى ثلث أهل مصر[7]، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف وخمسون ألفاً؛ فكانت

---

(١) وفيات، ٢ص ٥٥١؛ العينى، تاريخ، ورقة ١٨٧ب.

(٢) ابن إياس، ١ ص ٦٠ .

(٣) حسن المحاضرة، ٢ص ١٥٤؛ النجوم، ٥ص ١٦.

(٤) مثلا: إغاثة، ص ٢٤؛ الخطط، ٢ص ١٤١؛ ابن إياس، ١ص ٦٠.

(٥) الكامل، ٨ص ٧٩.

(٦) العينى ، تاريخ، ورقة ١٨٧ ا.

(٧) نفسه، ابن إياس، ١ص ٦١.

الأسواق لا يرى بها أحد؛ كما نزلت الجند الأرض لزراعتها، لعدم وجود الفلاحين.
وقد نقص عدد القرى فى عهد المستنصر إلى ٢٠٦٢ قرية[١]؛ مع أنها بلغت فى العصر الفاطمى الأول ٣٨٣٤[٢]، ويذكر المؤرخون ،أن خراب الفسطاط بدأ منذ الشدة المستنصرية؛ فتلاشت أحياؤها الشمالية كالعسكر والقطائع، مع أن الفسطاط ازدهرت فى أول عهد المستنصر، بأقوال الرحالين كما ذكرنا، وكانت القطائع مائة ألف دار، فصارت نتيجة لهذا الخراب لا توجد إلا كيمان، فيما بين مصر والقاهرة[٣].

*

ومما زاد الطين بلة، حدوث نزاع بين طوائف الجيش الفاطمى وقيامها بفتن عديدة، أشاعت الفوضى فى داخل البلاد. فالخلافة الفاطمية فى مصر-مثل غيرها من دول الإسلام وقتئذ- لم تكن تعتمد على عنصر واحد فى الجيش، وإنما على عناصر متعددة من أجناس مختلفة، حتى يوجد التنافس بينها فى خدمتها[٤]، وقد استمر تعددها من أول ظهور دولتهم إلى وقت سقوطها، فنعلم أن الخلافة الفاطمية كانت تستمد قوتها الحربية أول ظهورها فى المغرب ثم فى مصر من العنصر البربرى، وهو ما عرف بالمغاربة نسبة إلى إقليمهم الذى أتوا منه، وهو بلاد المغرب، فعرفت منهم طوائف متعددة أشهرها: كتامة وزويلة ونحوها من طوائف البربر[٥]. فكانوا يسكنون فى معسكرات أو حارات أشبه بالمدن، فمثلاً المصامدة[٦] وحدهم سكنوا حارة تضم أكثر من عشرين ألفاً. وقد كان المعز يقرب طائفة كتامة على حساب الطوائف الأخرى، وذلك لأنها أصل خلافتهم بالمغرب. ويبدو أنها أتت معه إلى مصر بكل عناصرها وبهم أخذ مصر؛ فكان شيوخها يحتلون وظائف الخلافة الكبرى[٧].

---

(١) الكنائس والأديرة، ص ٩٠ وما يليها؛ انظر . عمر طوسون، مالية مصر، ص ٢٢٤-٢٢٩؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الفاطميين، ص ٢٩٠.
(٢) الخطط، ١ص ١١٧ س ١٩-٢٠.
(٣) نفسه، ٢ص ١٤١ س ٢٣-٢٥.
(٤) انظر. . Sefer Nameh, trad. Schefer, P. 135
(٥) الخطط، ٢ص ٥، ١٥، ١٨، ٣٠، ٣٢-٣٣.
(٦) سفر نامه، ص ٥٣، ٥٧. أصلهم من بلاد المصامدة التى تقع فى جنوب إفريقية، وتمتد حتى حدود المحيط الأطلسى. انظر . Ency de l'Isl, t3, P. 448-452.
(٧) الخطط، ٢ص ١٥، ١٧.

ومع اعتماد الفاطميين الأوائل على المغاربة أساساً كما ذكرنا؛ إلا أنه لما استقر ملكهم فى مصر، أخذوا يبحثون عن عناصر أخرى يستخدمونها فى جيوشهم، حتى لا يستبد البربر، وخصوصاً أنهم قدروا أن المغرب قد يحاول الانفصال، مما يجعل طاعة المغاربة وإخلاصهم غير موثوق فيه. وفى يوم مجئ الفاطميين إلى مصر، شرع المعزّ فى تكوين جيش خاص من الشباب من أهل البلاد «أولاد الناس»، أو من عناصر المماليك الذين يشترون، أو من سبى الفرنجة، أو من غيرهم، الذين يؤتى بهم صغاراً، فأفرد لهم ثكنات فى قصره عرفت بالحجر، يعلمون فيها أنواع الحرب وصنوف حيلها، وسماهم بسبب سكناهم هذه الحجر باسم: صبيان الحجر أو غلمان الحجر، أو حتى الغلمان المصطنعين فى القصر؛ حيث كان لكل حجرة اسم تعرف به، مثل: المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك[1]. كذلك جعلوا درجات؛ فبعضهم يعرفون بالحجرية الكبار، وبعضهم الحجرية الصغار، فلعل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين، أو إلى التفوق
عة فى التدريب على الحرب، وكانت داخلة فى التقدير عند الفاطميين، وقد
م زهاء خمسة آلاف نسمة. وكان على هؤلاء المجندين أن يتعلموا امتطاء
الجواد وبمهارة، فأعد لهم اصطبلاً برسم دوابهم، يعرف باسم: اصطبل
رية.

ثم ظهر ميل الفاطميين إلى استخدام عناصر موجودة فى الشرق من الديلم
راك[2]، كانوا يعملون كجند مرتزقة فى جيوش المسلمين، وعرفوا بسبب
من الشرق بالمشارقة. وقد اعتبر العزيز أول من أدخل المشارقة من الديلم
رك فى الجيش الفاطمى، حتى أن عددهم كثر فى عهده، وعرفت لهم بعض
ات: كحارة الديلم وحارة الأتراك[3]. وقد كان العزيز على خلاف المعزّ يقرب

نفسه، ٢ص ٣٠٩-٣١١، ٢٧٨ س ١٠-١١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٩٧-١٩٨.

نفسه، ١ص ١٥٢ س ١٦-١٧، ٤ص ٦٧ س ٢٣-٢٤؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٩٦.

الخطط، ٢ص ١٢، ١٥.

المشارقة على حساب المغاربة، مما أوجد بين المشارقة والمغاربة تحاسداً[1]. ولما تولى الحاكم، وكان صغير السن، طمعت المغاربة فى استعادة نفوذها الذى ضعف على يد العزيز، فدخل على الحاكم مقدمو كتامة وطالبوه بإبعاد المشارقة، وأجبروه على تولية شيخهم أبى محمد بن عمار[2] شئون الحكم، أو ما عرف بالوساطة، -وهى الوزارة-وهو الذى كان اشتهر بحروبه فى صِقلّية فقام ابن عمّار بتفرقة الأموال الكثيرة على طوائف المغاربة، وقرّب كِتامة وولى شيوخها الوظائف الرئيسية فى الدواوين والولايات، كما كانت فى أيام المعزّ. كذلك توقف عن صرف أكثر العطاء للمشارقة وأساء معاملتهم، فهرب كثير من المشارقة إلى الشام. وما لبث أن ظهر لابن عمّار منافس، وهو بَرْجَوان (أو أرْجَوان[3]). وهو خصى أبيض من الصقالبة من رجال القصر كما يبدو، الذى استعان به المشارقة فى سبيل الوصول إلى الحكم. فقاتل بهم المغاربة وانتصر عليهم وتولى الحكم، وأعاد نفوذهم إلى أقصاه. ولكن الحاكم الذى كان قد دخل مرحلة الشباب، عمل على قتل الطامعين فيه بما فيهم برْجَوان وابن عمّار، وأضعف نفوذ كتامة وأفنى شيوخهم[4]؛ حتى جاءت كتامة إلى قصر الحاكم كاشفين رءوسهم طالبين العفو والأمان، فقبل الحاكم توبتهم، ولما قامت فتنة أبى ركوة من المغرب، أضعف الحاكم من جديد نفوذ المغاربة؛ مما قوى من شأن المشارقة.

كذلك كان الفاطميون يستخدمون فى جيشهم السود أيضاً، مثلما فعل ابن طولون من قبل[5]. وقد يكون الذى شجع على استخدام السود وجود المعاهدة المسماة البقط[6]، التى عقدت منذ أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، بين العرب والنوبة كما ذكرنا، وبمقتضاها يسلّم ملك النوبة إلى ولاة مصر عددا معينا من السود، مما جعل هؤلاء يكثرون فى مصر. وقد استخدم الفاطميون من السود

(1) نفسه، ٣ص ١٧س ٢٨.

(2) نفسه، ٣ص ٥٧-٥٨؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٤و ٤٥؛ انظر. ماجد ، الحاكم ، ص ٢٩ وما بعدها.

(3) عنه؛ الخطط، ٢ص ٤ وبعدها ؛ وما بعدها؛ وفيات، اص ١٥٥-١٥٦؛ الكامل، ٧ص ١٧٧، الروذراورى، ذيل كتاب تجارب الأمم، تحقيق A.medroz ، مصر ١٣٢٤/١٩١٦، ص ٢٢١ وما بعدها؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٣٠ وما بعدها.

(4) يحيى (شيخو)، ص ١٧٨ س ٢١؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٣٥.

(5) الخطط، ١ص ١٥٢ س ٦ وما بعدها.

(6) انظر. ما قبله.

نوعين: الزنوج-لعلهم من البقط- وعبيد الشراء أو الشرى، لأنهم عبيد مشترون[1]؛ وكثر عدد السود فى عهد الحاكم(٢)، حتى أنه استعان بهم مع المشارقة ضد المغاربة[3]. ولما زاد نفوذ السود فى عهد الحاكم، اتهموا بحرق مصر أو الفسطاط، فحاربهم المغاربة والمشارقة خوفاً منهم[4]. وفى أيام المجاعة فى عهد الظاهر، هاجم السود قصر الخليفة، ممّا يبين قوتهم[5]. كذلك زاد عدد السود زيادة هائلة فى عهد المستنصر، الذى كانت أمه سودانية، حتى صار عددهم زيادة عن خمسين ألفا[6]، نصفهم من الزنوج والنصف الآخر من عبيد الشرى، فقد كان تجار الرقيق يسرقون أبناء البُجّة[7]، وهى عناصر سوداء تسكن بين النيل والحبشة، لبيعها للفاطميين. وقد سكنت طوائف السودان فى وقت المستنصر حارات عديدة معروفة، مثل: الحسينية والفرحية والميمونية والريحانية، وكانت الريحانية وحدها عدة حارات[8] ولكثرة السود عرف المستنصر باسم: صاحب السودان[9].

واستخدم الفاطميون البدو[10]، الذين هاجروا إلى مصر وكثروا بها، وكانوا يؤلفون طلائع الجيش الفاطمى وقت الحرب، وهم قبائل عديدة، عددهم خمسون ألف فارس فى أيام المستنصر[11]، وإن كانوا دائما عنصر قلق فى البلاد، فهم يكونون القوات غير النظامية. فقبيلة بنى قُرّة[12]. الذين هم عدة بطون من قيس

---

(١) سفر نامه، ص ٥٣؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين، ١ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢) العبر، ٤ص ٦٣.

(٣) الروذراورى، ص ٢٥٥.

(٤) النجوم، ٤ص ١٨١؛ يحيى، ص ٢٢٤-٢٢٦؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ٤٩-٥٠.

(٥) الخطط، ٢ص ١٦٨ س ٣٦.

(٦) نفسه، ٢ص ١٣٨ ص ٩-١٠.

(٧) سفر نامه، ص ٧٢-٧٣.

(٨) الخطط، ٢ص ٣٣-٣٤.

(٩) على الخصوص المصادر الصليبية؛ انظر.

(١٠) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٧٨.

(١١) سفر نامه، ص ٥٣.

(١٢) المقريزى، الأعراب، ص ١٥، ١٨.

وهلال، نزلوا أراضى البحيرة الخصبة، وفى نواحى الإسكندرية، فإنهم كانوا فى عداء مع دولة الفاطميين منذ أيام الحاكم، حينما تحالفوا مع الثائر المغربى أبى ركوة، الذى زحف من المغرب، وهدد دولة الحاكم(١).

وأخيراً؛ فإن الفاطميين استخدموا المصريين. وربما عرفوا فى جيش الفاطميين باسم السرائيين(٢)، الذين ذكرهم ناصر خسرو بأنهم جاءوا من كل ولاية، ولهم قائد خاص، وكل منهم مستعمل سلاح ولايته، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف زمن المستنصر، أو ربما يكونون هم الحجرية الذين ذكرناهم. ومما لا شك فيه أن استخدام المصريين بكثرة راجع إلى أن الدولة كانت قد يئست، بسبب عصيان طوائف الجيش السابقة.

*

ولكن فى عهد المستنصر استفحل النزاع بين طوائف الجيش بشكل ظاهر. ويتقصى ابن الأثير أسباب استفحاله(٣)، وينسبه إلى سوء سياسة الوزراء، الذين كانوا يسقطون بسرعة مذهلة؛ بحيث عين فى أربع سنوات عشرون وزيراً منهم، ومن كثرتهم لا نعرف ترتيبهم الزمنى. ولسوء الحظ لم يصلنا كتاب المقريزى عنهم وعن غيرهم، المعنون: تلقيح العقول والآراء فى تنقيح أخبار الجلة الوزراء(٤). وكان المستنصر هذا بالذات لا يشارك الوزير المسئولية؛ كما كان الخلفاء من قبل، وإنما تركها فى يد أمه، التى كانت تتحكم فى الوزراء بالتغيير، وتتلقب: «بالسيدة الملكة»(٥)، ويخاطبها الرجال فى حضرة ابنها: «بمولاتهم»(٦)، ويشار إليها: «بالجهة الجليلة»، و«الستر الرفيع»(٧).

فقد أراد الوزير الفلاحى مثلا أن ينفرد بالأمور من دون الملكة الوالدة التى كانت تسيطر على الدولة؛ بأن يغرى طائفة الأتراك بطائفة السودان، التى كانت أم

---

(١) الخطط، ٤ص ٧٠؛ عيون ٦/٧ ورقة ٢٣٧؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٦٠.
(٢) سفر نامه، ص ٥٣.
(٣) الكامل، ٨ص ١١٥-١١٦.
(٤) الخطط، ٢ص ٣٠٩ س ١٥-١٦.
(٥) سجل رقم ٥١ ص ١٦٩.
(٦) سير الآباء، ٣ ورقة ٨٨.
(٧) السيرة المؤيدية، ص ٨٧ (آخر الصفحة)، ص٨٩ س ٢.

المستنصر تعتمد عليها فى الحكم، على أساس أنها سودانية مثلهم. ولكى يحقق ذلك أنقص عطاء الأتراك[1]، وزاد رواتب السودان والمغاربة، وادعى أن الذى فعل ذلك أم المستنصر ورئيس ديوانها الخاص: التسترى. فما كان من الأتراك إلا أن سعوا إلى الانتقام؛ بأن قتلوا التسترى رئيس ديوان الملكة، وخرجوا إلى الصحراء اعتصاماً. وقد طلب المستنصر إن كانوا فى الطاعة أم لا، وعفا عنهم بعد ذلك، ولما قتل الفلاحى بتحريض من أم المستنصر، وتولى الوزارة بعده أبو البركات، كانت الملكة تحرض العبيد على الأتراك لإضعافهم، وغضباً من الأتراك كانت تفتك بقوادهم. وقد خاف الوزير مغبة هذا التصرف؛ فغضبت عليه الملكة وعزلته، وولت بدله اليازورى، وهو شخصية قوية، كان يعمل رئيساً لديوانها مكان التسترى الذى قتل. فكان اليازورى بشخصيته وتقرّبه من الملكة، يستطيع أن يوقف العداء بين الطائفتين إلى حد ما؛ وإن استمر تقريب السودانيين.

وبموت اليازورى عاد النزاع شديداً بين الطائفتين؛ بحيث أصبح فى قلب كل طائفة ضد الأخرى إحن [2]. ولعل أهم تصادم بين الطائفتين وقع فى ٤٥٤/١٠٦٢[3]؛ بسبب حادث شخصى؛ يبدو فيه التحرش على كل حال. فقد جرد بعض الأتراك سيفاً وهو سكران فى أثناء إحدى نزهات المستنصر؛ حتى أن العبيد اجتمعوا على التركى وقتلوه. فاجتمع الأتراك بالمستنصر ووزيره ابن المدبر، وقالوا: «إن كان هذا عن رضاك؛ فالسمع والطاعة، وإن كان من غير رضى أمير المؤمنين. فلا نرضى». فأنكر المستنصر ما وقع من العبيد ربما لإضعاف نفوذ أمه التى تعتمد عليهم؛ مما جعل الأتراك يجتمعون لحربهم. فكانت بين الطائفتين حروب شديدة أهمها بناحية كوم[4] شريك المجاورة للإسكندرية؛ هزم فيها العبيد، وقتل منهم أربعون ألفاً. وبعد هذه المعركة الحامية أمدت أم المستنصر

---

(١) ابن ميسر، ص ١-٢.

(٢) نفسه، ص ١٤.

(٣) نفسه، ص ١٣؛ عيون، ٧ ورقه ٦٦؛ الخطط، ٢ص ١٢٨-١٣٩، ص ٣٨٣-٣٨٤؛ الكامل، ٨ص ١١٥؛ العبر، ٤ص ٦٣. عن كوم شريك، انظر، معجم البلدان، ٧ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٤) يقول ابن الأثير وكذا ابن خلدون كوم الريش، وهذا خطأ. انظر. قبله.

العبيد بالأموال والسلاح سراً؛ فكما يقول ابن ميسر كانت أم المستنصر تغرى العبيد بالترك لكى تحكم. وقد اتهم الأتراك المستنصر وأمه بمساعدة العبيد[1]، حتى أنهم أغلظوا للمستنصر فى القول، ويبدو استبدادهم -الذى عد أول استبداد بالخليفة- فى أنهم منعوا العبيد من أرزاقهم. ولكن العبيد تجمعوا من جديد بالجيزة وعادوا إلى القتال وانهزموا إلى بلاد الصعيد، ثم حاولوا مرة ثالثة استمر القتال فيها ثلاثة أيام وهزموا؛ كما سلّم عبيد الأسكندرية إلى الأتراك. وبعدها ساروا إلى الصعيد وتغلبوا عليه[2] ، وسار الأتراك فى أثرهم، واضعفوهم جداً.وفى أثناء نزاع الأتراك والعبيد عانى الشعب المصرى الكثير من الآلام، فمثلاً قتل أحد جنود السودان- واسمه حفاظ- ٦٣ راهباً، وأخرجوا الرهبان من بعض الديار[3].

ولكن تقوية الأتراك فى القاهرة جعلتهم فى نزاع مع طائفة أخرى فى جيش الفاطميين، هى طائفة المغاربة، يظهر صداها فى السجلات المستنصرية المتبادلة بين المستنصر والصليحى عامله فى اليمن؛ مما أعاد نزاعهم القديم الذى بدأ فى عهد الحاكم كما ذكرنا، فيذكر السجل رقم ٥٦؛ أن المشارقة كانت تظن أن المستنصر يقوى عليهم المغاربة، وكانت المغاربة تظن العكس، وربما يكون تفسير ذلك إلى كثرة تغيير الوزراء واختلاف سياستهم، أو إلى أن المستنصر فعلاً قوى المغاربة على المشارقة؛ بسبب عداء السلاجقة وهم ترك، ثم قوى المشارقة على المغاربة بسبب انفصال المغرب عن حكمه. ولعل أهم موقعة بين المغاربة والمشارقة وقعت فى كوم الريش المجاورة للقاهرة فى ١٠٧١/٤٦٤[4]- وهو غير كوم شريك- مات فيها من الفريقين فى يوم واحد ١٢ ألفاً. ويذكر المؤرخون أن الفتنة بين الترك والمغاربة استمرت أربع سنوات، وكان من نتائجها الخراب والدمار فى أجزاء البلاد.

كذلك كانت ثورة هذه الطوائف من الجيش على الدولة بسبب عدم انتظام دفع استحقاقاتها، أو المطالبة بزيادتها. فحينما تولى المستنصر الإمامة، يبدو أنه لم

---

(١) ابن ميسر، ص ١٣-١٤، ١٧-١٨.
(٢) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠.
(٣) أبو صالح، ٥٠ص ٦٣، ٦٠ ص ٨٢، ٩٠ص ١١٣.
(٤) ابن حماد، ص ٥٩.

تكن توجد فى الخزائن أموال كافية لدفع مرتبات الأجناد؛ ربما بسبب إسراف أبيه الظاهر، وحدوث المجاعة. فنسمع بأن الكتاميين وعبيد الشرى وغيرهم[1]، وقفوا عند باب القصر الكبير- لعله باب الذهب، الذى يقف عنده المتظلمون عادة- وأغلظوا الكلام، وطلبوا أرزاقهم. فخرج لهم الوزير الجرجرائى وقتئذ يعتذر عن الدفع؛ لأن الدولة التى تركها الظاهر ليس فيها مال، وقال لهم: « أنا كنت وزير الظاهر، وقد توفى» . ومع ذلك فقد اضطر الوزير أن يحضر لهم ما فى داره- لعله من ماله الخاص- لإسكاتهم؛ كما أنه- على لسان المستنصر- وعدهم بالدفع فى مستهل رمضان؛ فقال لهم: « ومولانا يقرئكم السلام، ويقول لكم الصرف يكون فى مستهل رمضان» . ولما استهل رمضان، انفق فيهم؛ بما فيهم الكتاميين والديلم والعرب، وإن أعطى لكل واحد منهم ثلث رزقه، ودام الصرف إلى العشر الوسطى من شوال. ولكن الأتراك والمغاربة والعبيد تحالفوا على أن يكونوا عصبة واحدة، فى طلب بقية واجباتهم؛ فلما كان المستنصر على وشك الخروج فى موكب، رماه أحد العبيد بحربة، فرمى المستنصر بنفسه على دابته؛ فلم تصبه؛ كما حاولوا قتل الوزير ولم يتم الخروج. وربما يكون قد أعاد النفقة فيهم بعد ذلك؛ بحيث لما ركب المستنصر من جديد مشت الجند بين يديه[2].

وعلى كل حال؛ فقد كان ما حدث فى بداية خلافة المستنصر، ولم يتكرر لأمد طويل من حكمه، بسبب الرخاء الذى ساد دولته فى أول عهده، ولوجود الجراجرائى القوى. فكان الخليفة يدفع أرزاق الجند بانتظام من الخراج ومن الأموال التى تأتى إلى الخزائن من الولايات. فلكل جندى مرتب شهرى على قدر درجته؛ فلا يجبر أحد الرعايا على دفع دينار واحد، ولكن تدخل أم المستنصر فى الحكم، وتوليتها الوزارة للمحاسيب والوصوليين، أضعف دخل الدولة جداً. فمثلاً لم تتعد ميزانية مصر فى عهد اليازورى مليوناً لمصر ومليونا للشام، خصص منها لعطاء الأجناد وأرباب الوظائف ٣٠٠ ألف[3]؛ وذلك بينما كانت الميزانية ذاتها فى عهد المعز- أول خليفة فاطمى فى مصر- تبلغ أكثر من ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار[4]. ولما تفاقمت المجاعات، وأنفقت الأموال على حملة

(١) النويرى، ٢٦ ورقات ٦٢-٦٣.
(٢) سفر نامه، ص ٥٣.
(٣) الخطط، ١ص ١٣٣، تحقيق Wiet، ٢ص ٤ (٦٧)؛ انظر . ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٢٥.
(٤) الخطط، ص ١٦٠ (فى آخر الصفحة).

البساسيرى فى العراق كما ذكرنا؛ خلت الخزائن من المال، ولم يعد يوجد بها شئ لدفع واجبات الدولة للجند أو للموظفين.

وقد كان الأتراك أكثر الطوائف ثورة على الدولة بسبب أرزاقهم. وكانت مقرراتهم فى الشهر عشرين ألف دينار؛ إلا أنهم انتهزوا ضعف الدولة، ولا سيما أيام الشدة المستنصرية، وطالبوا بزيادتها؛ بحيث طالبوا بأربعمائة ألف[1]. فكانوا يطالبون الوزراء بأرزاقهم؛ ولا يتورعون عن قتلهم أو عزلهم، وتكون منهم طائفة لا تكتفى بالمطالبة، وإنما تهاجم بيوت المال[2]. ويبدو أنه لما ماطلتهم الدولة هجموا على القبور التى دفن فيها أجداد المستنصر، وأخذوا منها قناديل الذهب والمباخر وحلىّ المحابر وغير ذلك[3].

وأخيراً الزموا المستنصر بيع ما فى خزائنه[4]؛ فكان الجند وحتى الوزراء يأخذون عوضاً عن مرتباتهم أشياء من خزائنه بأرخص الأثمان؛ بحيث عاش الخليفة ليشاهد بيع ما كدسه هو وأجداده من تحف وكنوز، جُلبت من جميع بقاع الدنيا، وفيما صنعوه فى مصر، واعتبرت أشهر ما عرف فى تاريخ مصر منذ عهد الفراعنه. ويكفى أن نذكر ما ذكره المقريزى عن بعض كنوز الخزائن الفاطمية، التى نقل صنوفها من مجلد ضخم؛ لعله كتاب الذخائر والتحف[5]، دون أن يذكر اسم مؤلفه. فالخلفاء الفاطميون فى مصر مالوا إلى حياة الترف؛ فالعزيز اقتنى التحف النفيسة ولا سيما البللور[6]، والظاهر استكثر من شراء الجواهر[7]، أما المستنصر الذى لم تكن له يد فى سياسة دولته، فقد عرف بجنونه

---

(١) الكامل، ٨ص ١٩٦ س ١٢-١٣.

(٢) أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٧٠.

(٣) الخطط، ٢ص ٢٥٣ س ٢-٥؛ ابن إياس، ١ص ٦١.

(٤) ابن ميسر، س ١٧. فمثلاً الوزير المغربى أخذ واجباته خمسة وعشرين جملاً محملة بالكتب؛ وذلك لقاء خمسة آلاف دينار، بينما بلغ ثمنها أكثر من مائة ألف دينار. الخطط، ٢ص ٢٥٤ س ١٣.

(٥) الخطط، ٢ص ٢٥٣ وما بعدها. يقول ابن ميسر يقع فى نحو العشرين كراسة. ابن ميسر، ص ٢٠.

(٦) نفسه، ٢ص ٢٦٣ س ١

(٧) نفسه، ٢ص ١٦٩ س ٢٦.

فى حب التحف، حتى أنه حكى عنه للمبالغة أنه طلب بعض الجواهر، وجعلها مسحوقة وذراها فى النيل[1]. وقد جمع المستنصر عدداً لا يحصى من التحف والجواهر مما لم يجمع مثله قبلا، عن طريق الشراء، أو عن طريق الهدية، ولا سيما من الصليحيين فى اليمن، الذين كانوا يرسلون له نفيس الدر الرائع[2]، أو يتصل بالروم لاحضارها. وقد تعدى حب التحف وتكديسها المستنصر إلى أهله، مثل عبدة ورشيدة ابنتى المعزّ، اللتين جمعتا أموالاً وتحفاً كثيرة، ورثها المستنصر عنهما بعد موتهما فى ٤٤٢/ ١٠٥٠[3]. بل إن أم المستنصر وأولادها من غير أبى المستنصر -وذلك بعد موت زوجها الظاهر- كان لها خزائن تشبه خزائن الخلفاء[4]. ويبدو أن الأمر لم يقف عند البيع من الخزائن لحساب الجند، بل تعدى إلى النهب أيضاً. وتؤيد السجلات الرسمية هذا النهب[5]؛ حيث هرّب التجار كثيراً منها إلى الخارج، مثل: إلى بغداد عند الخلفاء العباسيين -أعداء الفاطميين- الذين بدورهم كانت قد نهبت خزائنهم، وجلبت إلى مصر أيام فتنة البساسيرى، أو حتى أيام الطائع فى سنة٣٨١/ ٩٩١؛ بسبب المجاعات فى العراق. ويشارك المقريزى الحسرة على ضياع الكنوز الفاطمية من الخزائن بين جنود لا تقدر قيمتها.

ولدينا أمثلة لبعض ما نهب أو بيع بأبخس القيم من هذه الخزائن. فهى[6]: قطع أقمشة من سائر الألوان، وجواهر بأنواعها، وخواتم ذهب وفضة فصوصها من سائر الجوهر المختلف الألوان، وصناديق مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة مقابضها من سائر الجوهر، وصناديق مملوءة بأنواع الدوى المربعة والمدورة، الصغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصندل، بصناعة معجزة، وصناديق

(١) الجوينى، تاريخ جهانكشاى، ص ١٠٠.

(٢) الخطط، ٢ص ٢٦٣ س ٢.

(٣) نفسه، ٢ص ٢٦٤. وجد للأولى فى خزائنها مالا يحصى، والثانية تركت ما قيمته مليوناً وسبعمائة ألف دينار.

(٤) الخطط، ٢ص ٢٦٦ س ١٨، ٢٦٩س ١٠.

(٥) سجل رقم ٥٦ ص ١٨٣-٤؛ عيون الأخبار، ٦ ورقة ٢٩٤.

(٦) الخطط، (ط. بولاق) ٢ ص ٢٦١ وما بعدها.

من البللور بما فيها كيزان أقداح «الفقاع» -البيرة- وصحون متنوعة، وصوانى الذهب المطعمة بالمينا بسائر أنواع النقوش، وكؤوس عليها نقش هرون الرشيد وغيره، وأوان صينية كبار لغسل الثياب «أجاجين» لها أرجل على صورة الوحوش، ومرايا من حديد أو من صينى أو من زجاج محلاة بالذهب والفضة أو بالجوهر، لها مقابض من العقيق، وغلف من أنواع مختلفة من الحرير أو الخيزران أو الخشب، مزودة بأقفال «مضبب» من الذهب والفضة، وأزيار صينية كبار مملوءة كافوراً، وجماجم «حلل» محتوية على العنبر والمسك وقطع العود، وطرائف مثل: عدد كبير من الشطرنج رقعته من الحرير، وشطرنج من جوهر، وديك من ذهب له عرف من الياقوت الأحمر، وريشه من الزجاج المطعم بالمينا والذهب، وذيله من الذهب، وطاووس من ذهب مرصع بنفيس بالجوهر، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر، بطنه أبيض، ونخلة مكللة الجوهر، وفرش وأمتعة منها مراتب ملونة، وأجلة للفيلة التى تنزل على الأفخاذ، وستائر وستور بعضها عليه صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه، وخيام من كل نوع وشكل كالحصون والقصور والفساطيط والشراعات والمسطحات، مبطنة بأنواع الرسوم المتعددة، وذلك بآلاتها من الأعمدة الملبسة بأنابيب الفضة والحبال الملبسة بالقطن والحرير والأوتاد، ولا سيما الفسطاط الكبير الذى صنعه اليازورى للمستنصر، واسمه المدورة، عدد قطعه أربع وستون قطعة، وعشاريات -وهى مراكب للخليفة- وقضب للمظالم، وأعلام، وقناديل، وسروج، ولجم، وعماريات-أى هوادج- وموائد من كل نوع؛ مما كان يستخدم فى المواكب أو الجلوسات بالقصر، والكتب بأنواعها. وقد ترتب على هذا النهب والبيع، أن الخزائن المكدسة أصبحت قاعاً بلقعاً؛ وأن الأتراك زادت شوكتهم[1]، وكثرت أموالهم.

*

وقد أدت الحالة السيئة فى البلاد من مجاعات ونزاع بين طوائف الجيش وثوراتها إلى ظهور أطماع رجال أقوياء، أرادوا السيطرة على الدولة من دون هذا

---

(١) ابن ميسر ، ص ١٦.

الخليفة، مثلما فعلت أمه معه. ويذكر المقريزى عشرة ثائرين عليه، يذكر بعض أسمائهم[1]؛ على رأسهم ناصر الدولة بن حمدان وأخوه، وبلدكوش، وسبكتكين، وسعد الدولة المعروف بسلام عليك، وشاور بن حسين.... وربما يكون الناسخ قد اسقط بقية الأسماء العشر؛ كما لم يعط تفاصيل إلا عن ناصر الدولة وبلدكوش، أما الباقى فلا نعرف عنهم شيئا.

وإذا تقصينا سبب طموح بنى حمدان -وهم أقواهم- وجدناه يرجع إلى الوقت الذى نشأت فيه دولة الفاطميين. فقد ظهر بنو حمدان كأسرة عربية تحكم فى ثغور المسلمين بحلب فى شمال بلاد الشام، وفى الموصل من بلاد الجزيرة، فلما استولى الفاطميون على مصر ثم على الشام عملوا على القضاء على دولتهم فى حلب، وأحلوا مكانهم المرداسيين زعماء قبيلة بنى كلاب. كذلك كان البويهيون بالعراق قد قضوا على دولة بنى حمدان بالموصل؛ فانتقل بقايا الحمدانيين إلى القاهرة، وعاشوا فيها كمنفيين أو كلاجئين.

ومع أن المعزّ، كان قد حذر[2] جوهراً؛ من أن يفسح لهم مجالا فى الجيش أو فى الحكم؛ بسبب أنهم أعداء الفاطميين، ووصفهم بأنهم غدارون لاثقة فيهم، إلا أن الخلفاء الفاطميين ابتداء من الحاكم، لكى يوازنوا نفوذهم مع المرداسيين فى حلب بدأوا يولون الحمدانيين بعض ولايات الشام، ويدخلونهم فى جيشهم. ويبدو أن المستنصر هو الذى فتح لهم بابه على مصراعيه، ولا سيما لأحدهم، واسمه: أبو محمد الحسن بن أبى عبد الله الحسين بن حمدان، من نسل الحمدانيين الذين هربوا إلى مصر، بعد قضاء البويهيين على دولتهم فى الموصل. فجعل المستنصر ابن حمدان هذا من كبار قواده، وعينه فى ولاية دمشق سنة ١٠٤١/٤٣٣[3]، بعد موت الدزبرى، فكان الدعاء فى سجل ابن حمدان:«سلّمه الله وحفظه»؛ كما منحه لقب: ناصر الدولة وسيفها ذى المجدين. وقد استمر ناصر الدولة فى ولاية دمشق إلى سنة ١٠٤٨/٤٤٠، ثم رجع إلى مصر. وربما يكون ناصر الدولة هو الذى أشار

(١) الخطط، ٢ص ٢٦٨. عن اسم سعد الدولة. نفسه، ٢ص ٢٧٨.
(٢) قبله.
(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٨٣ وما بعدها؛ النجوم، ٥ص ٣٤، ٤٥.

على أم المستنصر بتولية الوزارة لليازوري[1]، الذى أرسل له أحمال التفاح كرشوة. فلما تولى اليازورى الوزارة، كفل إلى ناصر الدولة حكم الريف بشرقيه وغربيه، فكان ناصر الدولة يجبى الجوالى- وهى جزية أهل الذمة- من النصارى، ويقررها كلها على البطريرك القبطى[2]. وفى سنة ١٠٥٨/٤٥٠[3]، طلب المستنصر من ناصر الدولة فتح حلب من المرداسيين، الذين سعوا إلى الاستقلال، مثلما فعل الحمدانيون من قبل، فلما فشل ناصر الدولة ضدهم عاد إلى مصر فى سنة ١٠٦٠/٤٥٢.

ولكن استبداد ناصر الدولة فى دولة الفاطميين ظهر منذ أن تزعم الأتراك؛ حيث كان أفراد أسرته يتولون زمام الأتراك وأمرائهم منذ عهد الحاكم[4]. وقد بدأت زعامته لهم فى الانحياز ضد العبيد، الذين كانت تناصرهم أم المستنصر. فقد قام على رأس الأتراك فى قتال العبيد فى الجيزة والإسكندرية، وذهب وراءهم فى الصعيد وهزمهم هزيمة نكراء[5]. وبعدها طالب بزيادة المال والإنفاق فى الأتراك[6]؛ بحيث تسبب فى خراب خزائن المستنصر ونهبها كما ذكرنا؛ ويكفى أن نذكر أنه أخذ لغلمانه أكثر من ثمانمائة بدلة من ثياب الخليفة بجميع آلاتها كاملة[7].

وقد وصل استبداد ناصر الدولة بالمستنصر أقصاه؛ حينما أظهر الحقد فى نفسه ضد الخلافة التى أسقطت أسرته؛ بحيث فكر فى خلع المستنصر وإعلان الخطبة لأحد الأشراف، رغبة فى الإنتقام والكيد. فكتب إليه المستنصر قائلاً[8]: «بأنك قدمت علينا زائراً، وجئتنا ضيفاً؛ فقابلناك بالإحسان وأكرمناك، فقابلتنا بما لا نستحقه منك، نحن عليك صابرون، وعنك مغضون، وقد انتهت بك الحال إلى مخالفة العسكر علينا، والسعى فى إتلافنا، وما ذاك مما يهمك، ونحب أن

(١) ابن حجر ، ورقات ٨٤-٨٥.
(٢) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٧٥.
(٣) النجوم، ٥ص ٦٣ س ١-٥.
(٤) الخطط، ٣ص ٣٢ س ٢٣-٢٤.
(٥) نفسه، ٢ص ١٣٨-١٣٩.
(٦) النجوم، ٥ص ١٣ س ٣-٨؛ الكامل، ٨ص ١١٦.
(٧) الخطط، ٢ص ٢٦١ س ٢٤.
(٨) النجوم ، ٥ص ١٣-١٤.

تنصرف عنا موفوراً فى نفسك ومالك؛ وإلا قابلناك على قبيح أفعالك». وربما يكون المستنصر وأمه قد دسا صيرفياً لقتله؛ فضرب الصيرفى ابن حمدان بسكين وجرحه[1]، فأخذ الصيرفى وشنق فى الحال، وعولج ناصر الدولة، فبرئ بعد أن أشرف على الموت.

لم يرض الأتراك وشيخهم المسمى إلدكز أو بلد كوش[2]، الملقب بأسد الدولة، بإسقاط الخلافة الفاطمية، ولا سيما أنهم أصبحوا مسيطرين فيها؛ بحيث انقسم عسكر مصر قسمين: قسم مع ناصر الدولة وقسم عليه. فسعى ناصر الدولة إلى قتل إلدكز والوزير خطير الملك، ولكنه لم يتمكن إلا من قتل الوزير[3]. كذلك عمل ابن حمدان على الاعتماد كلية على العرب وزعمائهم بدلاً من الترك، ففك أسر زعمائهم من بنى الجراح الثائرين وهما: حازم بن الجراح وحميد، مع أن كلا منهما كان له فى سجن المستنصر عشرون سنة[4]، وأحاط نفسه بشخصيات لا نعرف عنها إلا القليل مثل[5]: أمير العرب ابن كيغلغ والأعز بن سنان؛ كما اعتمد على طوائف الأكراد، التى كانت فى جيش الفاطميين، وكانت عدتهم خمسة آلاف رجل[6]، برياسة رجل لعله تاج الملوك شادى. وقد أصبحت هذه الفئة من أنصاره تعرف باسم: الطائفة الحمدانية.

وعلى العكس سعى المستنصر أن يستوثق من الأتراك والمغاربة[7]. وتحت تحريض إلدكز، خرج المستنصر لمحاربة ناصر الدولة، فلبس لأمة الحرب ولباسها؛ حيث ضربت له خيمة حمراء مسماة «خيمة الدم»، خارج القصر. فتمكن المستنصر من هزيمة ناصر الدولة، بمساعدة المصريين على الخصوص، الذين نهبوا دور بنى حمدان، وهرب ناصر الدولة عند عرب الدلتا. فحالف قبائل منها قيس، ولواتة وسنبس: الأولى قبائل عربية هاجرت إلى مصر أيام الأمويين فى الحوف الشرقى، ولكنا نراها الآن فى الحوف الغربى. والثانية من أصل بربرى

---

(١) نفسه ، ٥ص ٨٣ س ٦-٩.

(٢) عن الاسم الأخير ، انظر أيضاً: سجل رقم ٥٧ ص ١٨٦ -١٨٧؛ عيون، ٧ ورقة ٧٣.

(٣) مثلاً: الخطط، ٢ص ١٣٩؛ الكامل، ٨ص ١١٦.

(٤) ابن إياس، ١ص ١٣؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٣-٩٦.

(٥) ذيل سير الآباء البطاركة، ٣ ورقة ٧٨.

(٦) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٦.

(٧) النجوم، ٥ص ١٤-١٥؛ الخطط، ٢ص ١٣٩؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٧٨ وما بعدها.

كانت تقيم فى برقة وإفريقية، وكانت تبيع أبناءها فى الجزية[1]، وربما يكون أغلبهم فى مصر نتيجة لهذا البيع، أو من الذين جاءوها فى أثناء غزوة أبى ركوة كما ذكرنا، وقد بلغ عددهم خمسين ألفاً أو أربعين ألفاً سوى أتباعهم[2]، سكنوا المنوفية؛ كما قيل إنهم من أصل عربى من قيس[3]. والثالثة وهم بنوسنبس[4]، من قيس وهلال، وكانوا ينزلون بفلسطين وكثروا هناك، واشتدت وطأتهم على الولاة، فاستدعاهم اليازورى فى ٤٤٢/ ١٠٥٠[5]، وأقطعهم البحيرة مكان بنى قرّة، الذين تحالفوا مع الثائر المغربى أبى ركوة؛ بحيث إن الدولة كانت تتربص بهم الدوائر، فنزل بنو سنبس ديارهم وعلا شأنهم، فتزوج الناصر من هؤلاء. وهكذا أصبحت البلاد موزعة بين طوائف الجيش المختلفة: فالدلتا فى يد العرب، والصعيد فى يد السودان، والقاهرة فى يد الأتراك والمغاربة.

فخرجت إليه العساكر من الترك من مصر بقيادة ناصر الجيوش بن أسد الدولة، ومن العبيد بقيادة عزيز الدولة- مما يدل على عودتهم من الصعيد- وإن كانت القيادة العليا لابن زنبور، الذى خلع عليه المستنصر وقلده سيفاً بحلية فوق درعه. ولكن الانقسام بين قواد الطوائف المتنافرة؛ جعل كل قائد لا يرضى باتباع رأى الآخر؛ بحيث انحل أمر الجيش، واستولى ناصر الدولة على أسلحته. بعد ذلك ملك ناصر الدولة الإسكندرية والريف بشرقيه وغربيه، وهو ما عرف بأسفل الأرض، وأحاط بدمياط واستولى عليها، فعظّم أمره، وأخذ الخراج من كل هذه البلاد، وقطع خطبة المستنصر فيها، ودعا للخليفة القائم[6]، وأرسل إليه يطلب تقليده، كما أرسل رسولاً من قبله إلى ألب أرسلان السلجوقى، يسأله أن يرسل إليه عسكراً على أن تؤول إليه السيادة على مصر[7]، فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم. وقد هاجم ناصر الدولة نواحى مصر والقاهرة، وأجبر المستنصر على قبول مندوب عنه هو تاج الملوك شادى، لعله من

---

(١) فتوح البلدان، ص ٢٥٥. عنهم ؛ انظر . معجم البلدان، ٧ص٣؛ المقريزى، البيان والاعراب، ط Wust. ص ٣٤.

(٢) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٨٦؛ سجل ٥٦ ص ١٨٤، ٥٧ ص ١٨٧.

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٥٥؛ انظر.
Brémond ، Berbères et Arabes. Paris, 1942, P. 124.

(٤) الخطط، ٢ص ١٣١؛ البيان، ص ٩.

(٥) نفسه، ٢ص ١٧٠ س ١٩-٢٠؛ المقريزى، البيان والأعراب، ص ٩.

(٦) الكامل، ٨ص ١١٧

(٧) ابن ميسر، ص ١٩-٢٠

زعماء طائفة الأكراد التي انضمت إليه-كما ذكرنا- وصار يخاطب بمولانا الناصر[1].

ولدينا وصف ما قام به أتباع ناصر الدولة من تخريب في البلاد التي استولوا عليها؛ فقد قتلوا أهلها، وهتكوا حريمها، وذبحوا الأولاد في بطون أمهاتهم. كذلك أخذوا البطريرك الأنبا أخرسطودلوس من داره، ولم يفك أسره إلا لما وعد بدفع المال، وفي سبيل ذلك أرسل البطريرك مندوباً عنه إلى ملك النوبة، ليرسل إليه مالاً لناصر الدولة[2]. ولا تزال الأديرة تذكر غارات العرب عليها، مثل دير وادي النطرون، كما هرب الرهبان من أديرتهم إلى القرى[3]. ونجد أن السجلات تشبّه لواتة بأنهم كالوحوش، وليسوا من البشرية[4]. ونتيجة للتخريب في البلاد توقفت الزراعة؛ ففي أثناء هذه الفوضى تركت الأراضي بدون جسور، ولا سيما أنه في ذلك الوقت كانت الشدة العظيمة أيضاً[5].

كذلك لدينا وصف النهب، الذي أتى على كل ما في الخزائن الفاطمية كما ذكرنا؛ فقد كان أتباع ناصر الدولة يدخلون القصر ويأخذون من الأسلحة ما يريدون، ولا تفرقة في ذلك بين الأسلحة التي تستخدم في المواكب أو أسلحة القتال، فأخذوا منها سيوف أجداد[6] المستنصر، مثل: سيف الحسين، ودرقة حمزة، وسيف جعفر، وإن كان أهم ما أخذوه أدوات الحرب مثل السهام والرماح والقسي والزرد البيض. كذلك كانوا يحملون الكتب من الخزائن إلى الإسكندرية، ويأخذون جلودها، ويلبسونها في أرجلهم[7]. بل أخذوا عامود خيمة اسمها القاتول -تنصب أثناء أعياد فيض النيل- يعتبر أعلى عامود لأوسع خيمة، وكان الخليفة العزيز قد أنفذ إلى ملك الروم في طلبه، ويقول المقريزي ما أدري ما فعل به[8].

---

(1) ذيل سير الآباء، ٢ ورقة ٨٥.

(2) نفسه، ٢ ورقة ٧٨.

(3) نفسه، ٢ ورقة ٨٦.

(4) سجل، رقم ٥٧ ص ١٨٧.

(5) ذيل سير الآباء، ٢ ورقة ٧٨، ٨٦.

(6) الخطط، ٢ص ٢٦٨.

(7) نفسه، ٢ص ٢٥٤ س ٢٠.

(8) نفسه، ٢ص ٢٧١ س ١١.

فلمـا اشـتـد أمـر نـاصـر الدولة ذهب إلى القـاهـرة وأحـاط بهـا، وإن كـانت أم المسـتنصـر عـملت عن طريق عـبيدهـا[1] -وهـم كـانوا غـيـر طوائف الـعـسكر- على السـيطرة فى مـصـر (الفـسطاط). وقـد قـيل فى سـبب حـضـور ناصـر الدولة إلى القاهـرة، أن تاج الملوك شادى[2] مندوبه، استبد فيـها من دونه. فقطع ناصـر الدولة الميرة فى مصـر واستولى عليهـا؛ حتى أن أم المستنصـر لم تستطع أن تصده. كذلك ضـعف المسـتنصـر عن مـقاومـتـه؛ وخـاف من أن يأخـذه ناصـر الدولة ويسلمـه إلى عـدوه الخليـفة الـعـباسى، فراسله وصـالحـه؛ وإن اشـتـرط ناصـر الدولة أن يبـعد المسـتنصـر إلدكـز ومن يعـاديه، وأن ينفـرد هـو بحـكم البـلاد[3]. ولما دخل نـاصـر الدولة القـاهـرة عـمل على حبس الأتراك. وأسـر شـادى؛ مما جعل بعض المشارقة ينضمون إليه. وصـالح ناصر الدولة إلدكز بعد ذلك، وتزوج بابنته[4]، وكـان يحكم هـو وإلدكز والوزير ابن أبى كدينة.

وقد عـمل ناصر الدولة على استذلال المسـتنصـر وأهله بعد دخـول القاهـرة. فقبض على أم المستنصر واسـتصفى أموالها[5] ولـم يفك أسـرهـا إلا بعـد دفع دية. ومنذ ذاك لـم تقم لها قـائمة، وأصبح دورهـا فى سياسة الخـلافة ضـعـيفاً جـداً؛ حيث يحـدد ابن مـيسر نهاية حكمـهـا إلى سنة ٤٦٢/١٠٦٩-١٠٧٠. كـذلك تفـرّق أولاد المستنصـر، وسـار بعضـهـم إلى المغرب أو إلى الشام، فسـار ابنه عبـد الله لعكاء، وأبو القاسم مـحمد- والـد الخليفة الحـافظ فيمـا بعد- لعسقلان، ونزار -وهـو الأكـبر- لثغر دمياط[6]. ثم إن المستنصـر أصـبح مع ناصر الدولة كالمحجور عليه؛ فأخرج له ما تبقى فى قصـره، وبلغ به الأمر انه كـان يجلس على حصـير، ولـم يعد عنده شئ سـوى سـجادة وقـبـقـاب، ولـم يبق مـعـه سـوى ثلاثة خـدم، وأطلق له ناصـر الدولة مائة دينـار كل شهر؛ وذلـك بعد أن كان المسـتنصر يمـلك مـن الأمـوال الطائلة مـا لا يعد ولا يحصى.

---

(١) العينى، تاريخ، ورقات ١٨٩-١٩٠. عن عبيد أم المستنصر: الخطط، ١س ١٥٣ س ١٩-٢٠. عدتهم خمسون ألفاً.

(٢) الكامل، ٨ص ١١٧.

(٣) النجوم، ٥ص ١٥.

(٤) نفسه، ٥ص ٢١.

(٥) ابن ميسر، ص ٣١؛ الخطط، ٢ص ١٤٠ (آخر سطر).

(٦) ابن ميسر، ص ٦٧-٦٨.

ولكن إلدكز- شيخ الأتراك- دبر مؤامرة لقتل ناصر الدولة، وليستقل من دونه بالسيطرة فى البلاد كذلك قيل إن إلدكز اراد قتله، بسبب أن ناصر الدولة أعلن السنة. وكاد يحدث للمستنصر على يده ما حدث للقائم على يد البساسيرى. فقصده إلدكز مع جماعة إلى داره فى منازل العز[1]؛ الواقعة على النيل؛ فخرج ناصر الدولة إليه، فضربوه بسيوفهم حتى قتلوه وحزوا رأسه وقتلوا أيضاً أخويه: فخر العرب بن حمدان، وتاج المعالى بن حمدان، كما قتل محمود بن ذبيان أمير بنى سنبس، وقد قطّع ناصر الدولة قطعاً. وأنفذت كل قطعة إلى بلد[2]؛ كما تتبع بنو حمدان فى جميع انحاء مصر؛ فقُتلوا عن آخرهم، وذلك فى سنة ١٠٧٢/٤٦٥.

*

ولا يعنى هذا ان المستنصر قبض على زمام الأمور. فإن إلدكز وأنصاره أصبحوا يقومون بدور ناصر الدولة وأنصاره، بل غالوا فى التضييق على الخليفة. فبعد قتل ابن حمدان، جاءوا إلى القصر ومعهم الرءوس، وأرسلوا إلى الخليفة وقالوا: قد قتلنا عدوك وعدونا، من أخرب البلاد، وقتل العباد، ونريد الأموال. ولم يكن المستنصر يملك الأموال التى افتقدها بعد أن نهبها الأتراك وغيرهم، فأعلن أن العداوة كانت بين إلدكز وابن حمدان. ولكن إلدكز أخذ يطالبه بالمال، وبلغ من سيطرته فى الدولة، انه منع دخول أى أحد إلى القاهرة أو خروجه منها؛ ولعله سعى أيضاً إلى الملك[3].

فلما وجد المستنصر ان لا جدوى فى إرجاع سلطته والقضاء على الاضطراب فى البلاد، طلب عون أحد ولاته المخلصين فى الشام. فقد طلب العون من بدر بن عبد الله[4]، الذى كان مملوكا لجمال الدولة بن عمار، احد ولاة طرابلس الشام، فاشتهر بالجمالى. وقد كان بدر من أصل أرمنى مسلم، أخذ فى حياته بالجد، فرفعته عبقريته إلى أعلى المناصب، وتنقل فى خدم متعددة. وكان

---

(١) الكامل، ٨ص ١١٧-١١٨

(٢) النجوم، ٥ص ٢١-٢٢؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٨٦؛ العينى، تاريخ، ورقة ١٩٠

(٣) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٧.

(٤) عن شخصيته. الخطط، ٢ص ٢١١-٢١٢؛ ابن حجر، رفع الإصر، ورقات ٥٦ وما بعدها؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art.Badr al-Djamâlî) t I, P 571, 2 éd t I, P 894.,
Gesch der Fat Chalifen, P 204 et suiv Wust

أظهر ما تولاه ولاية دمشق الهامة، فلعله كان حاجبا لصاحب دمشق، فلما مات تولى مكانه[1]. فتولاها فى ٤٥٥/ ١٠٦٠، فباشرها سنة وثلث السنة، ومرة أخرى ومعها صور فى ٤٥٨/ ١٠٦٦، وبقى فيها إلى أن خرج منها. نتيجة لثورة أهلها عليه، بسبب ضبطه وحزمه؛ حيث كان أهلها قد تعودوا على فوضى الولاة السابقين، فاضطر إلى الهروب، ونهبت خزائنه. وفى أثناء هذه الولاية طلب منه المستنصر أن يحارب محمود المرداسى صاحب حلب، وكان قد استقل بها، ولو أن بدراً لم يحاربه ربما بسبب هجوم السلاجقة على شمال الشام، ولكنه عاد إلى دمشق وانتصر على عدوه، الذى تسبب فى ثورة الأهالى ضده. وسلخه حيا[2]. بعد ذلك نقل بدر إلى ولاية عكّا (أو عكاء) فى ٤٦١٢/ ١٠٦٩، التى بقى فيها إلى أن طلب المستنصر العون منه.

فنجد المستنصر يكتب إلى بدر فيقول: «فإن كنت ماكولاً، فكن أنت اكلى». فنجد هذا الأرمنى المسلم الطامع يسرع إلى تلبية طلب الخليفة الفاطمى، ويرد عليه سريعاً: «لبيك لبيك». فجمع بدر عدداً كبيراً من الجنود؛ حيث كان قد استكثر من الأرمن من بنى جنسه، الذين أصبحوا نواة لطائفة جديدة، فى جيش الفاطميين، وربما يكون ذلك بأمر من المستنصر. فيأتى بدر لإنقاذ الخليفة فى شتاء عام ٤٦٧/ ١٠٧٤، أى بعد سنة من استبداد إلدكز. فسار بمائة مركب، مع أنه لم تجر العادة بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه، ووصل فى أربعين يوماً سالماً إلى دِمياط وتنّيس. ولكن قبيلة لَواته قاومته عند نزوله؛ بحيث اشتد فى قتالهم، وقتل مقدمهم سليمان اللواتى، وغرق منهم الألوف، وأبادهم من أعمال الريف وملكها، واستصفى أموالهم[3]. وفى نواحى دمياط قضى على طائفة تعرف بالملحية، وصفوا على أنهم طائفة فى الجيش الفاطمى، ولعلها الحاميات، التى عند الملاحات.

ثم سار إلى القاهرة، فلما وصلها تشجع أنصار المستنصر، وتمكنوا من تعليق الدكز من أحدى رجليه فى ركاب فرسه، وقبضوا عليه، وحبسوه فى خزانة البنود. ويبدو أن هذا التصرف تم بناء على اتفاق بين بدر والمستنصر[4].

---

(١) العبر، ٤ ص ٦٤.

(٢) النجوم، ٥ص ٧٩-٨٠، ٨٥.

(٣) العبر، ٤ص ٦٤؛ الخطط، ٣ص ٥١ س ٢٥؛ سجل ٥٦ س ١٨٤، ٥٧ ص ١٨٧؛ ابن ميسر، ص ٢٢.

(٤) الخطط، ٢ص ٢١١ (أسفل الصفحة). يقول بلد كوش.

بألا يدخل القاهرة، قبل أن يقبض على إلدكز، وخصوصاً أن إلدكز كان قد تحصن فى أحد أحياء القاهرة، ولعل بدراً قتل إلدكز، أو أن إلدكز هرب إلى الشام(١) . وكان أول عمل لبدر بعد دخوله القاهرة، أن دبر مذبحة كبرى لأمراء الأتراك؛ بحيث قويت شوكته، فقد وصفه الشعراء بحب القتل من أجل مصلحة الدولة(٢) "Raison d'Etat". ولم يكن أغلب الأمراء الأتراك على علم باستدعائه، فما منهم إلا من أضافه وقدم إليه الهدايا. فدعاهم بدر إلى دعوة صنعها، فلم يتخلف أحد منهم. وفى الوقت ذاته، قرر بدر مع جماعة من أتباعه أن يوكل كل واحد منهم بأمير من أولئك الأمراء يظهر أنه قائم بخدمته، ورفع السماط-الأكل- فكان إذا دخل الواحد منهم الخلا قتل، ويتوجه الذى يليه، وقتلوا جميعاً. فلما تم الأمر أنعم بدر بجميع ما يتركه الأمير من مال ودار وإقطاع لقاتله، كما أنه استرد منهم جميع ما أخذوه من الخزائن من الأموال والأمتعة. وقتل بدر عدداً كبيراً من الوزراء والقضاة، الذين كانوا لا يفعلون شيئاً، ولا سيما الوزير ابن أبى كدينة، الذى كان يحكم مع إلدكز، بأن ضربه بسيف كليل عشر ضربات؛ حتى بانت راسه، وذلك عدد ولايته القضاء والوزارة(٣).

ثم قام بدر بالقضاء على العناصر المعادية للخليفة الفاطمى، وإعادة هيبته فى البلاد. فذهب إلى البحيرة فى الوجه البحرى، وقضى على العرب من قيس وبنى سنبس، فقتل منهم مالا يحصى، بلغ نحو العشرين ألف إنسان(٤). وذهب إلى الإسكندرية، وقضى على عناصر معادية فيها؛ ولدينا دينار ضرب فيها باسم المستنصر سنة ٤٦٩/١٠٧٦(٥). ثم ذهب إلى الصعيد، ويظهر أنه كانت به عناصر معادية من عرب جهينة والثعالبة(٦) . كذلك سار إلى أقصى الصعيد وهزم كنز الدولة محمداً الذى كان حاكماً عليه؛ فقتله. وقد اختلف فى أصل أسرة كنز الدولة هذه. فلعلها من ربيعة التى سكنتها فى خلافة المتوكل حوالى ٢٤٠/٨٥٤(٧)؛ وإن

(١) النجوم، ٥ص ٣٢ س ١٦.
(٢) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٥٨. وقد وصفه الشعراء بسبب ذلك، بحبه شرب الدماء.
(٣) نفسه، ورقات، ٨٨-٨٩.
(٤) مثلاً: سجل رقم ٧، ص ١٨٧.
(٥) أنظر. Lavoix ، Cat, P. 102 (255).
(٦) الخطط، ٢ص ٢١٢ س ١٦

Ency de l'Isl, (art al-Sa'id) t 4 P 73
(٧) المقريزى، الأعراب، ص ٢٧-٢٩ أول من لقب منهم أبو المكارم هبة الله

كان لقبهم كنز الدولة لم ينالوه إلا من عصر الحاكم؛ بسبب أنهم ظفروا بأبى ركوة المغربى عدو الحاكم اللدود، ولم تزل الإمارة فيهم، حتى سقوط دولة الفاطميين، وربما كانت طوائف من السودان فى خدمته؛ كما ذكرنا.

وفى أثناء الاضطراب الداخلى، كان نفوذ دولة الفاطميين فى الشام قد انهار نهائياً، فقد هاجمها السلاجقة، كما استقل بمدنها عديد من الولاة والقضاة[١]. فحاصر ألب أرسلان السلجوقى حلب؛ إلا أنه سلمها إلى محمود المرداسى،وبقى فيها إلى أن توفى فى سنة ٤٦٧/ ١٠٧٤ ، وأخيراً استولى عليها السلاجقة نهائياً، وقتلوا نصر ابن محمود فى ١٠٨٦/٤٧٩[٢]. كذلك لما تولى ملك شاه، أمر أخاه تُتش[٣] أن يستولى على الشام وما يفتحه، أى أن يقضى على دولة المستنصر قضاء تاماً. ومن قبل فقد كان القائد السلجوقى أتسز، المعروف بالأقسيس، أحد قواد الفاطميين السابقين، ثم انقلب عليهم وانضم للسلاجقة، فأخذ يجول ويصول فى الشام؛ فتمكن من أخذ دمشق من أميرها المغربى واسمه المعلى، من قبل المستنصر الفاطمى، الذى كان سيئ السيرة ظالما؛ بحيث استولى أتسز عليها بالأمان من أهلها الثائرين[٤] ، وخطب فيها للخليفة المقتدى بأمر الله فى ١٠٧٦/٤٦٨ ، ثم أخذ بيت المقدس وقتل خلقاً كثيراً، ووصل العريش، ودخل الريف المصرى فى الشرقية، ووصل أمام أبواب القاهرة فى ١٠٧٦/٤٦٩[٥]، يسانده ناصر الجيوش، ابن إلدكز، الذى كان هرب بعد قتل أبيه، وحرض أتسز على الهجوم على مصر، وقدم له تحفاً مما أخذه من خزائن المستنصر. وقد لجأ بدر فى الدفاع عن القاهرة ومصر ضد السلاجقة، إلى دفاع جوهر ذاته ضد القرامطة من قبل بتسليح المصريين، وأعلن أن الجهاد ضد الترك أفضل من الحج،

---

(١) ابن حجر، رفع الإصر، ورقة ٥٧.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٩١، ص١٠٨-١٠٩، الكامل، ٨ص ١٤٠- ١٤١؛ انظر Rép. t 7, P. 140 (n.2764).

(٣) الكامل، ٨ص ١٢٦، ١٦٠. عن تتش، انظر. وفيات، ١ص ١٦٨-١٦٩.

(٤) الكامل، ٨ص ١٢٢.

(٥) نفسه، ٨ص ١٢٣-١٢٤؛ ابن ميسر، ص ٢٧؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٩٢؛ العبر، ٤ص ٦٥.

فأرسل إليه رؤساء القرى ومقدموها الرجال وسلحوهم. وقد تمكن بدر من هزيمة الجيش التركي، وهرب أتسز فى نفر يسير، وقتل إخوته؛ كما قتل ناصر الجيوش. وحينما رجع أتسز، كان تُتش قد تولى حكم الشام، فحاصر تُتش أتسز فى دمشق وقتله لأمور أخذها عليه فى ١٠٧٩/٤٧١، ربما لهزيمته فى مصر، أو لقسوته وكثرة من قتل على يديه فى بيت المقدس[١]، حتى من التجأ منهم إلى المسجد الأقصى.

وبعد ذلك، قويت همة بدر-كما يظهر من السجلات- لاستعادة الشام. وعلى الرغم من محاولته حصار دمشق عدة مرات ابتداء من ١٠٧/٤٧١[٢]. ولم يوفق فى استردادها؛ كما بذلت محاولة من قبل مرداسى حلب لأخذها بمساعدة المصريين، لولا أن مصر لم ترسل المدد[٣]. وكان تُتش قد اضطر أمام هجمات بدر أن يستنجد بأخيه ملك شاه[٤]؛ كما حاول وقف العداء بمصاهرة بين الأسرتين، بأن يتزوج بدر ابنة تتش[٥]. وعلى العكس استولى جيش بدر على عدة بلاد فى الساحل الشامى؛ فاستولى على صُور، التى كان قد تغلب عليها عين الدولة ابن أبى عقيل، ثم توفى ووليها أولاده، فحصرهم جيش بدر؛ فلم يكن لهم من القوة ما يستطيعون به المقاومة، فسلموها، ولدينا عملة منها فى ١٠٨٩/٤٨٢[٦]. ومع أن بدراً أيام ولايته الشام لم يستطع فتحها لما حاصرها فى ١٠٦٩/٤٦٢[٧]، وحتى لما ثارت فى ١٠٩٣/٤٨٦[٨]، فإنه لما عاد لحصارها فتحها، وضرب أعناق الجميع. كذلك سلّم ابن ملاعب بعلبك، التى حاول تُتش استردادها[٩]؛ كما استولى جيش بدر علىَ عَسقلان من ابن معروف[١٠] وقد يكون ابن عمار أخضع طرابلس للفاطميين، وحافظ عليها من هجمات تُتش، إذ

---

(١) الكامل، ٨ص ١٢٣؛ السيوطى، إتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق Lemn-ing، ١٨٧٠.

(٢) الكامل، ٨ص ١٢٦؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٢ وما بعدها.

(٣) الكامل، ٨ص ١٣٢؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. Dimashk) t2, 2 éd, P. 290.

(٤) النجوم، ٥ص ١٣٥، جاءها مسلم بن قرواش فى ١٠٨٣/٤٧٦.

(٥) نفسه، ٥ص ١١٦؛ مرآة الزمان، ١/١٢ ورقة ١٨٠.

(٦) النجوم، ٥ص ١٢٨؛ Lavoix، Cat, P. 128, 129 (335-6).

(٧) الكامل، ٨ص ١٠٧.

(٨) النجوم ٥ص ١٣٨، مرآة الزمان، ٣/١٢ ورقة ٢١٤

(٩) النجوم، ٥ص ١٢٨، ١٣٠

(١٠) العبر، ٤ص ٦٤



يبدو أنه كان على علاقة طيبة به، فلدينا عملة منها باسم المستنصر فى ١٠٨٢/٤٧٥[1].

والخلاصة أن بدراً أنقذ دولة المستنصر، وأعاد لها بعض نفوذها فى الشام. ونجد السجلات تؤيد بدراً ضد كل أعدائه، حتى ضد الذين هربوا من مصر إلى اليمن؛ فيأمر المستنصر ملكة اليمن السيدة الحرّة، بقطع رءوسهم[2].

*

وفى الوقت ذاته، عمل بدر على إعادة تنظيم الدولة التى انتابتها ثورات الجند والمجاعات. فقد أطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنوات حتى تتحسن أحوالهم[3]. وقد ساعدهم على زراعة البلاد عودة فيض النيل إلى طبيعته الأولى؛ فبلغ ارتفاعه القديم؛ ثمانية عشر ذراعا[4]، أى أن الزيادة أكثر من خمسة عشر ذراعاً. فزرعت الأرض أول سنة، فجاء القمح والشعير والفول وجميع الحبوب مختلطة[5]. وبفضل سياسة بدر تحسنت ميزانية البلاد، فبينما كانت -قبل مجيئه- مليونين وثمانمائة الف دينار فى ١٠٧٢/٤٦٦، وصلت إلى ثلاثة ملايين ومائة الف فى ٤٨٣/ ١٠٩٠[6]. وربما تكون البلاد قسمّت تقسيما جديداً فى وزارة بدر، فأبو صالح الأرمنى يذكر تقسيما إدارياً للبلاد فى عهد المستنصر[7]، إلى واحد وعشرين عملاً بمعنى مديرية، وإلى نواحٍ بمعنى مراكز، وإلى كفور وقرى، أما كلمة كورة -وجمعها كور- بمعنى مركز، التى كانت أساس التقسيم الإدارى القديم، فلم يعد لها وجود.

وكان انتظام الزراعة من شأنه أن عمل على تراجع الأسعار، حتى صار القمح يباع بربع دينار التليس. كذلك جاءت القوافل التجارية من كل مكان، وزادت عن ذى قبل[8]؛ وإن أصبحت -منذ الشدة المستنصرية- كل التجارة تمر عن طريق بلدة قُوص، ومنها على الإبل إلى صحراء عيّذاب، مما يدل على أن الخليج الموصل

(١) انظر Lavoix، Cat, P. 133 (348).

(٢) سجل رقم ١٦ ص ٦٧-٦٩، ٥٣ص ١٧٩-١٧٥.

(٣) الخطط، ٢ص ٢١٢ س ٢٥-٢٦.

(٤) النجوم، ٥ص ١١٦.

(٥) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٨٧.

(٦) ابو صالح، ص ٧-٩.

(٧) نفسه، ص ١٩-١٩، س ١٠-١١، ترجمة ١٧-١٨؛ انظر . ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٣٠-١٣١.

(٨) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٨٦-٨٧.

بين النيل والبحر الأحمر اضمحل فى أثناء الاضطرابات الداخلية. ويبدو أن الرخاء عاد إلى ماكان عليه، حتى أن كاتب بدر القبطى اشترى سمكة بألف دينار؛ كما أن بدر نفسه صارت عنده خزائن عديدة، وكان احتياجه الخاص من السكر مائة قنطار[١].

ودليل آخر على انتظام حالة البلاد المالية، العودة إلى البناء والعمائر. فأعيد بناء أسوار القاهرة من أنقاض العسكر والقطائع، ربما لأن السور القديم الذى بناه جوهر بالطوب قد تهدم، ولدينا نقش بعمل السور فى ٤٨٠/١٠٨٧[٢]. كذلك بنى بدر ثلاثة أبواب هامة، تعتبر أروع آثار الفاطميين الباقية إلى الآن؛ فقد بنى باب الفتوح، وباب النصر، وباب زويلة الكبير، الذى عمل فى بابه زلاقة كبيرة؛ بحيث أصبح أعظم الأبواب ولدينا عليها نقوش فيها اسم بدر والمستنصر، وتاريخ البناء فى ٤٨٠/١٠٨٧[٣]؛ مما يدل على بنائها وقت إعادة بناء السور. ويقول المؤرخ أبو صالح إن راهباً قبطياً اسمه حنا، هو الذى قام بعمل الأسوار والأبواب، للوزير الأرمنى، أى بدر[٤]. ولاتساع القاهرة الجديد، سمح بدر للناس وللعسكر بنقل حجارة القطائع والعسكر للتعمير[٥] فى القاهرة.

كذلك بنيت جوامع عديدة، بلغ عددها فى عهد المستنصر ٣٦ ألف مسجد[٦]؛ كما ذكرنا. فبنى جامع العطارين بالإسكندرية، فى سوق العطارين، ولدينا عليه نقش فى ٤٧٧/١٠٨٤[٧]. وبنى فى القاهرة مشهداً على قمة المقطم

---

(١) ابن حجر، رفع الإصر، ورقات ٥٨-٥٩.

(٢) أنظر. Rép. t 7, P. 237. n.2762؛
Van Berchem : j. A. 1891, 443 Suive

(٣) أنظر. Rép .t7 . 237 n. 2762 l (أخر سطر)؛
Corpus Inscript arab Egypte. t2, 32, 33, 36-39, 516, :Van Berchem;
Wiet 518: Gesch der Fat. P. 264 sqq. ؛ الخطط، ٢ص ٣٠٩-٣١٠، ٣١٢.
؛ أنظر لين بول، سيرة القاهرة، ترجمة عربية، ص ١٤٥.
يذكر المقريزى أن باب زويلة بنى فى ٤٨٥/ ١٠٩٢ أو فى ٤٨٤-١٠٩١، نسبة لقبيلة من قبائل البربر، وباب الفتوح فى ٤٨٠/١٠٨٧. كما قيل إن باب زويلة بناه العزيز وتممه بدر؛ وإن باب النصر والفتوح وضعهما جوهر. انظر. Wiet et Haut ؛
Les Mosquées, 1, P. 232 sqq.

(٤) أبو صالح (مذكرات ڤان برشم) طبعة ١٨٩١، ص ٣٧-٧٢

(٥) الخطط، ٢ص ٩٠ س ٢٠-٢٣، ٢ص ١٨٤

(٦) معجم البلدان، ٦ص ٣٨٤

(٧) النجوم، ٥ص ١١٩؛ ابن حجر، دفع، ورقة ٥٧؛ وفيات ١ص ٣٩٦،
Rép. t 7, P 220-230 no 2752;
Corpus Inscript. arabe Egypte t 2, P 50 Notes d'archéologie arabe. Van Barchem
Ext. du J. A. 1891, P 37 sqq.

فى ١٠٨٥/٤٨٧، يعرف بالجيوشى، نسبة إلى أمير الجيوش بدر، وبسبب بناء هذا المشهد على جبل المقطم، عُرف أيضا بالجيوشى[١]. وبنى جامعا على ساحل النيل فى ١٠٩٢/٤٨٥[٢]، عند المكان الذى يجلس فيه الماكس -وهو من يجبى ضريبة المكس على التجارة وغيرها- عرف بجامع المقس، حيث حورت الكلمة. كذلك بنى جوامع ومشاهد فى أماكن أخرى، مثل إنشائه مسجداً باسناى فى ١٠٨٨/٤٧٠[٣]، ومشهداً لرأس الحسين فى عسقلان فى ١٠٨٦/٤٧٩[٤]، حيث عثر على الرأس التى حملت إلى يزيد فى عهد الأمويين ودفنت بدون احتفال للعداء بينهم وبين بنى هاشم، فدفن بدر الرأس الشريف فى المشهد، وحبس عليه الأحباس؛ كما أنه وجدت نقوش فى المشهد على المنبر مكونة من اثنى عشر سطراً من أيامه. وقد أمر بدر بإصلاح وترميم عديد من الجوامع، فزاد فى جامع الحاكم [٥]، وجدد باب مسجد ابن طولون[٦]، وأمر بعمارة ضريح السيدة نفيسة الذى انتهى منه فى ١٠٩٦/٤٨٩[٧].

يضاف إلى ذلك أن بدراً أعاد تنظيم الجيش الفاطمى. فزاد من استخدام جنود الحجرية المصريين التى أهملت بسبب صراع الطوائف المختلفة. ومنذ وقت بدر إلى سقوط دولة الفاطميين، نسمع عن العساكر المصرية، والأمراء المصريين، أما المغاربة والمشارقة، فقد تلاشى أمرهم وصاروا من جملة الرعية[٨]، بعدما كانت لهم السيطرة فى الدولة. وعلى العكس يبدو أن بدراً لم يقض على طوائف السودان، التى استمر استخدامها حتى آخر الدولة الفاطمية.

وعلى العكس، فإن بدراً أوجد عنصراً جديداً فى جيش الفاطميين، وهو العنصر الأرمنى[٩]، من جنس بدر. فقد كان اشترط على المستنصر قبل مجيئه مصر أن يحضر معه من يختاره من العسكر، ولا يبقى أحداً من عسكر مصر

(١) انظر. Les Mosquées t I, P. 229 sqq; Rép t7p 229-230; Ency, t I, P. 572.

(٢) انظر. Rép. t7, P. 265-6.

(٣) انظر. Ibid, t7, P. 202.

(٤) انظر. Ibid t2, P. 260-262. ؛ وفيات، ١ص ٢٩٦.

(٥) انظر. Rép, t7, P. 199.

(٦) انظر. Id,

(٧) انظر. Ibid, t7, P. 248' n 2776. ربما يكون تاريخ الانتهاء من بنائه، إذ بدر توفى قبل بنائه

(٨) الخطط ٣ص ١٨ س ١٠-١١

(٩) نفسه

السابقين[1]؛ وإن بقى هذا العنصر الجديد كجيش خاص. ولم تكن الجيوش الخاصة بدعة بدر، فقد سمح الخليفة العزيز من قبل لوزيره ابن كلس، بتكوين طائفة عرفت بالوزيرية، نسبة إلى هذا الوزير[2]. فلعل طائفة بدر الخاصة، هى التى عرفت بالجيوشية[3]، نسبة إلى لقبه أمير الجيوش، الذى عرف به وهو فى الشام. وقد أصبح للأرمن فى الجيش حارة[4] -أى معسكر- هى حارة الحسينية التى كانت للسود، ومن قبل كانوا يسكنون فى منطقة طُرة[5]، كما استقدم لهم بطريركا يرعى شئونهم[6]؛ وخصصت لهم إحدى الكنائس. فقد كانت الأرمن منذ استيلاء الروم على بلادهم تهاجر إلى الشام ومصر[7]؛ حيث دخلوا فى جيش ابن طولون، وإن كان بدر وابنه من بعده شجعا هجرتهم إلى مصر، ثم إن وجود السلاجقة فى الشام جعل معظم الأرمن يتجهون إلى مصر.

وفوق ذلك، نظم أحوال المذهب الفاطمى الذى ضعف بسبب ضعف الإمام ووزرائه؛ مما جعل الناس لا تحفل بالمذهب وشعائره. ومن المحقق أنه كان متشعياً، حتى أنه انتسب إلى الإمام، فكان يعرف بأبى النجم بدر المستنصرى[8] فنجده يأمر بعودة الأذان الشيعى بحىّ على خير العمل؛ كما دعا إلى التكبير على الجنائز. وفعل مثلما فعل الوزراء قبله، فنظم دروساً فى المذهب، فعرف بالباب أو باب الدعوة لذلك، وهى مرتبة من مراتب الدعوة، يقصد بها أنها فصل الخطاب[9]. وقد اتهم لتحمسه الشيعى بتعصبه ضد المذهب السنى، حتى أنه أمر بنقش لعن الصحابة[10]، ووصف بأنه قتل خلقاً كثيراً من العلماء والسنة.

---

(1) نفسه، ٢ ص ٢١١ س ٢١-٢٢.

(2) ابن الصيرفى، الإشارة، ص ٢٣؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٩٩.

(3) صبح، ٣ص ٤٨٣، ٥٠٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٩٩.

(4) ذيل سير الآباء، ٢ ورقة ٩٥.

(5) أبو صالح الكنائس، ص ٤٧ب، ترجمة ١٤٣.

(6) ذيل سير الآباء٣، ورقات ٩٢-٩٣.

(7) يذكر المقدسى أن جبل اللكام «Amanus» ؛ كان بيد الأرمن.

انظر. أحسن التقاسيم، ص ١٨٩؛ Canard ؛

Notes surs Les arméniens èn Egypte à l'époque faimite:

Ext. des Ann. de l'Inst. D'Etudes. Or. T XIII, 1955, PP. 143-157.

(8) سجل رقم ٥٨، ص ١٩٢.

(9) سجل رقم ٢١ ص ٧٨؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art-Bâb) 2éd, t I, P. 855-6.

عن هذه المرتبة؛ انظر. راحة العقل لحميد الدين الكرمانى.

(10) النجوم، ٥ص ١٢٠

ونظم أحوال القبط، فحدد الجزية على الجميع بدينار وثلث أو ربع[١] ولكن استمر تمييز القبط -كما كان الحال في بلاد العصور الوسطى- بلبس زنانير سود ومن خالفوا يصيفون لزنانيرهم السود أطرافا صفرا[٢] وفي مرة قبض على البطريرك لما سمع أن ملك النوبة هدم مسجداً، وأن ملك الحبشة أساء معاملة المسلمين[٣]. ومع ذلك: فإنه كان دائما على علاقة طيبة بالأقباط وبطريركهم، ويستقبله بنفسه، ويطلب من الأساقفة السماع له، ويمنع الوشاية بينهم[٤]. كذلك لما ترك سلمون ملك النوبة ملكه كما ذكرنا، وسلّمه إلى ابن أخته جرجة، التجأ سلمون إلى مصر، فاستقبله بدر استقبال الملوك، وأنزله في دار حسنة[٥].

كل هذا يدل على أن بدراً أسهم في إعادة تنظيم دولة الفاطميين، التي كادت تطيح بها الزعازع.

*

ولقاء إنقاذ بدر خلافة المستنصر، تولى الوزارة ليس كوزير تنفيذ مثل الوزراء السابقين، الذين يقومون بتنفيذ إرادة الخلفاء، ولكن كوزير تفويض فوضت إليه جميع أمور الدولة ويتحكم فيها بإرادته، فكان أول وزير تفويض[٦] فاطمي. وأكثر من هذا فإن المستنصر على حد قوله نصّب بدراً منصب والده الإمام الظاهر لإعزاز دين الله[٧]، كما أنه بالنسبة لأم المستنصر كان أيضاً بمثابة والدها[٨]، بل هو قلب أمير المؤمنين وناظره وعيناه وباتره[٩]. وبملاحظة المؤرخ أبي المحاسن، فإن بدراً تولى الوزارة، حتى لا يأخذها أحد فينازعه إياها[١٠]، فهي تولية مظهرية، بينما هو في الشام كان في رتبة أجل من الوزارة.

ولدينا وصف تولية بدر الوزارة[١١]، فقد خرج المستنصر من حجرات قصره إلى الإيوان، وهو القاعة ذات الأعمدة: حيث أقيمت حفلة تولية بدر،

---

(١) ذيل، سير الآباء، ٢ ورقة ٩٢

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ٣ ورقة ٨٦

(٤) نفسه، ٣ ورقه ٩٠

(٥) نفسه، ٣ ورقة؛ وقبله.

(٦) عن ذلك بتفصيل؛ فصل الوزارة في كتابنا: نظم الفاطميين، الجزء الأول.

(٧) سجل رقم ٣٤ ص ٧ ١-١٠٨. وسجل رقم ٥٨ ص ١٩٢

(٨) سجل رقم ٥١ ص ١٧ س ١

(٩) سجل رقم ٦٣ ص ٩ ٢

(١) النجوم، ٥ص ١ ١

(١١) سجل رقم ٥٩ ص ١٩٤ -١٩٦ وسجل رقم ٣٤ ص ٨ ٠١ الخطط، ٢ص ٣٠٤؛ انظر ماجد نظم الفاطميين، ١ص ٨٣

بحضـور رجال الدولة وأعيان المملكة والدعاة والقضاة. فقدّم الخليفة إلى بدر عهداً «سجلاً» لم يكتب مثله من قبل، ذكر فيه لمعاً مما قام به بدر؛ كما كتب الخليفة بعد علامته المميزة فى المراسلات- الحمد لله رب العالمين- بخط يده فى مدح وزيره. وتظهر سلطة بدر فيما ورد فى سجله، الذى جاء فيه: «وقد قلّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره، فباشر ما قلّدك أمير المؤمنين من ذلك مدبراً للبلاد، ومصلحاً للفساد، ومدمراً أهل العناد». وقد وضع سجل بدر فى لفافة مذهبة، وقبله الخليفة أمام الحاضرين ليمنحه البركة، وأرسلت نسخ من السجل إلى ولاية اليمن، مع مندوب يحمله إليها؛ حيث كانت هى الباقية فى خلافة المستنصر تخضع له، إذ كان تفويضه لبدر حكم بلاد الفراعين وما يتبعها.

ومنح المستنصر بدراً خلع الوزارة، وهى جميعها بيضاء شعار الفاطميين، كما منحه ثوبه الذى كان عليه للبركة، وتتكون من عمامة لها طرف «ذؤابة»، كانت من زىّ أمراء مصر القواد دلالة على سيطرته على الجيش، والحنك وهو أن طرف العمامة يمر تحت الحنك، زىّ رجال القصر، وثوب مطرز بالذهب اسمه «دِراعة» مشقوق من أمام، ومحلى بعرى وأزرار؛ كما خلع عليه العقد المنظوم بالجوهر، مكان الطوق رمز الوزارة السابقة- وزارة التنفيذ- والطيلسان المقوى- رداء صلب- رمز قاضى القضاة الذى أصبح بدر مسيطراً عليه أيضاً.

وبمقتضى هذا التفويض، ظهرت ألقاب لبدر لم تعرف من قبل، وأصبحت من خصائص وزارة التفويض الفاطمية. فمنذ بدر أصبح للوزير لقب جديد، فلقب وزير الذى كان يتلقب به وزراء التنفيذ قبله، حل مكانه لقب السيد؛ وإن بقيت لفظة الأجل؛ لتكون نعتاً للقب الجديد. وظهرت ألقاب أخرى تدل على سلطة بدر التى تمتد إلى كل شئ، فهو: أمير الجيوش المسيطر على الجيش، وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادى دعاة المؤمنين، المشرف على الدعوة الفاطمية؛ فكان بدر أول من جعل القضاة والدعاة نواباً عنه. فكان يطلق عليه: السيد، الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين. ومع ذلك، فإن لقبه أمير الجيوش كان أحب الألقاب إليه، حتى مبانيه يطلق عليها هذا اللقب «الجيوشى» بقصد نسبتها إليه، دون اسمه.

كذلك أصبح لبدر مقر خاص يحكم منه عرف بدار الوزارة الكبرى[1]، ولم يزل يسكنه وزراء التفويض بعده حتى سقوط الدولة، فكان يشمل عدة قاعات منها: قاعة البحر، وقاعة السر، وقاعة البستان. وقبل بدر، كان الوزراء يعقدون مجلسهم في دار بنيت للوزارة، أنشأها الوزير يعقوب ابن كلس في عهد العزيز، وهي التي عرفت في وزارة بدر بدار الديباج، لأنها تحولت إلى مصنع للحرير «الديباج».

وقد كان المستنصر مع بدر محجوراً عليه فلم يبق له معه أمر إلا القيام برسوم الدولة والركوب في العيدين[2]، مثلما كان مع أمه التي سيطرت عليه. فتحكم بدر في مصر تحكم الملوك، بحيث يقول ابن حجر إنه أنشأ دولة جديدة. ويبدو أن شخصية بدر كانت عاملا على ذلك، فقد كان كفئاً لمنصبه، عرف بالجد، ووطن نفسه على العزم، شديد الهيبة، وافر الحرمة، مخوف السطوة[3]. وقد استمر يحكم حكماً مطلقاً لهذا الخليفة الناعم، الذي كره المسئولية، إلى وقت وفاته في جمادى الأولى سنة ٤٨٧/ ١٠٩٤ (أو حتى في ٤٨٨/ ١٠٩٥)، فكان أول الوزراء المستبدين، وفاتحاً لسلسلة الاستبداد إلى وقت سقوط الدولة.

*

حقاً إن السلطة الروحية للخليفة المستنصر قد بقيت له، لم تتأثر باستبداد وزيره بدر، إذا المسألة لم تتعد تسلط دكتاتور على الخليفة. ولكن الخطر ظهر أيضاً لهذه السلطة الروحية، من الوزراء المستبدين، الذين أتوا بعد بدر. فقد وجد هؤلاء في كيفية تعيين الخلفاء الفاطميين ما سهل لهم الاستبداد، ذلك لأن تعيين الخليفة العباسي، يتم باجماع الأمة الإسلامية -كما هو مفروض عندهم- ولكن يتم- كما ذكرنا - بما عرف بالنص أو التنصيص، لأن الإمام ينص على من يخلفه. وفوق ذلك، لم يكن للنص نظام معين، فهو قد يكون تحريراً بوصية؛ أو شفوياً وهو الغالب، أو حتى بالتلميح بالعطف، كما أنه لم تكن هناك شروط

(١) الخطط، ٢ص ٣٠١-٣٠٢، ٢٤٣-٢٤٤. وقيل بناها ابنه الأفضل. أنظر.
Essai, 111, 2, P. 50-6; Ravaisse؛ نظم الفاطميين، ١ص ٩١.
(٢) النجوم، ٥ص ٤س٥؛ مرآة الزمان، ١٢/٢ ورقة ٢٢٠.
(٣) الخطط، ٢ص ٢١٢ س ٢١. عن وفاته؛ انظر. ابن ميسر، ص ٣٠؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٣. يقول في المحرم.

خاصة بعمر الإمام أو حالته الجسمية والنفسية مثلما هو عند السنة، غير إرادة الإمام، التى اعتبرت من إرادة الله بسبب وصاية النبى لعلى عن طريق الوحى؛ ولأن هذه التولية كان يصحبها وراثة العلم الإلهى أو اللدنى، الذى ورثه على ومن بعده من الأئمة عن النبى، فكل إمام كان يلقنه لخلفه[1]. ومع ما يبدو من أهمية النص عند الفاطميين من الناحية العقيدية؛ فإن وقوع الأزمات الاقتصادية فى عهد المستنصر، وثورات الجند، جعلت الناس لا يرعون له حرمة؛ كما ضعفت ثقتهم فى النص.

وقد بدأ استبداد وزراء التفويض بالنص منذ الخليفة المستنصر، الذى كفل وزارة التفويض لأبى القاسم شاهنشاه بن بدر، الذى عرف بلقبه الوزارى بالأفضل، فى أثناء مرض أبيه، فى العشر الأخير من شهر ربيع الأول فى سنة ٤٨٧/ إبريل ١٠٩٤، وهو على ما يبدو لم يكن الابن الأكبر لبدر، الذى ثار عليه فى الإسكندرية، واشتهر بالأوحد[2]، وعمل بدر على خنقه، وقيل غرّقه حياً. فقرئ للأفضل سجل[3] فى الإيوان -وهى القاعة ذات الأعمدة- بحضور المستنصر، وسائر كبار رجال الدولة وأشرافها، وجنودها وعساكرها، وضيوفها، وعامة الناس. وبمقتضى هذا السجل، قلد الأفضل تدبير المملكة، وسائر أمور الدولة وقضاياها وشرائعها وأحكامها، مثلما كان الأمر لبدر، كذلك منح الأفضل خلع الوزارة من ثياب. ودعى له بألقابه على المنابر بعد الخليفة وبدر، فى القاهرة ومصر وسائر الأعمال فى أيام الجمع والأعياد، وهى[4]: الأفضل، سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين، أبو القاسم شاهنشاه. بل هو الآخر كون فرقة خاصة من الجيش لتحمى استبداده جعلها من المماليك أو الأرمن، عرفت بالأفضلية[5]؛ لتكون تحت يده مباشرة. معنى هذا أن الأفضل كان يمهّد للسيطرة بدوره على الدولة.

---

(١) فصل الإمامة، من كتاب: نظم الفاطميين؛ الملل، ص ١٠٨ وما بعدها. وقبله.

(٢) ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ٩١ وما بعدها؛ الخطط، ٣ص ٢١٢؛ انظر. ماجد، المستنصر، ص ١٨٢-١٨٣. المسمى أبو الحسن على الملقّب: بمظفر الدولة، شرف الملك، ناصر الدين، عمدة المؤمنين، ذى الرياسات. سجل ٥٩ ص ١٩٥ (سنة ٤٧٢هـ).

(٣) عن ذلك: سجل، رقم ١٥ ص ٦٤-٦٦؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٢. عن الأفضل، انظر. وفيات، ١ص ٣٩٦ وما بعدها.

(٤) أنظر. Rép. t8, P 4: n. 2806

(٥) صبح ، ٣ص ٥٠٨س٦.

فنجد الأفضل يتدخل فى تعيين ولى العهد قبل وفاة المستنصر وبعدها، على الرغم من أن المستنصر أبدى رأيه فى النص على خلفه. فقد كان للمستنصر عدة أولاد، منهم[1]: نزار، ومحمد، وعبد الله، وإسماعيل والحسن[2]، والحسن[3]، وحيدره[4]، وأحمد، فتوفى بعضهم مثل حيدرة، ولا نعرف منهم بعد موت المستنصر غير: نزار، وعبد الله، وإسماعيل، وأحمد. وقد كان المستنصر يرشح ابنه الأكبر نزاراً ليخلفه، وربما يكون أيضاً قد كاتب بعض الناس مشيراً بولايته العهد لنزار، وأنه سك اسمه على العملة[5]. ولكن الأفضل كان يغار من نزار، فوقف موقف العداء من هذه المبايعة، فكان يقلل من قيمة نزار، ولا يقرب أحدا من غلمانه وحاشيه، بل قصدهم بالأذى، وحذر رجال الدولة من قبول مبايعته، وخوفهم منه[6]. ويذكر المؤرخون مباينة وقعت بين نزار والأفضل: فقد خرج نزار ذات يوم من بعض أماكن القصر، فوجد الأفضل قد دخل من أحد الأبواب وهو راكب، فصاح به: انزل يا أرمنى يا نجس، فحقدها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما للآخر[7].

فلما سمع الأفضل بوفاة المستنصر فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧/ ١٠فبراير ١٠٩٥(الثانى من طوبة سنة ٤٨٤) سار إلى القصر من ساعته، واختار أحمد الأصغر دون بقية إخوته[8]، خليفة للمستنصر؛ فقد ارتبط به عائلياً بزواجه من أخته ست الملك.

---

(١) لدينا أسماؤهم وكنياتهم مختلفة فى مصادر متفرقة، فمثلاً صاحب أخبار الدولة المنقطعة، يقول هم: أبو القاسم أحمد الأصغر ، وأبو المنصور نزار، وأبو الحسن جعفر وغيرهم. انظر. ورقة ٧٢.

(٢) ورد اسمه فى سجل رقم ٨ ص ٥١. ولد فى عشرة من جمادى سنة ٤٥٧-١٠٦٥، وكنيته أبو الفضل.

(٣) ورد اسمه فى سجل، رقم ١١ص ٥٤-٥٥. لم يذكر تاريخ مولده. وكنيته أبو محمد.

(٤) الخطط، ٣ص ٧٩ س ٢٠-٢١. عرف قبره برحبة أبى تراب.

(٥) حسن المحاضرة، ٢ص ١٥٤. عنه؛

Ency. de l'Isl, (art. Nizâr b. al Mustansir) t 3, P. 1006.

(٦) المواعظ والاعتبار، مخطوطة طوب قبو سراى، ورقة ١١١، انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ص ٥٥، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(٧) الخطط، ٢ص ٢٧٧ س ١١؛ ابن ميسر، ص ٣٥.

(٨) عن ذلك بتفصيل: ذيل سير الآباء، ٣ ورقات ١٠٢-١٠٣؛ ابن ميسر، ص ٣٤ وما بعدها. ولد المستعلى فى يوم الأحد ١٤ من صفر سنة ٢١/٤٥٢ مارس ١٠٦٠؛ كما يظهر فى سجل (السجلات) رقم ٦ ص ٤٧؛ أى أن عمره عند التولية حوالى اثنتين وثلاثين سنة. ولدينا تواريخ أخرى، منها أنه كان عند التولية سبع عشرة سنة (ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٢)، أى بعد سنة ٤٥٢/ ١٠٦٠، وهذا يتوافق مع سجل ذكره المستشرق جب "Gibb" مأخوذاً من كتاب عيون الأخبار (الجزء ٧ ورقة ١٥٢)، وذلك بأن مولده فى ٢٠ المحرم سنة ١٦/٤٦٧ سبتمبر ١٠٧٤. ويوجد هذا السجل فى ملحق كتاب: الصليحيون، برقم ٧ ص ٣١٩؛ وأيضاً: Ency. t3, P. 18-19. عن المستعلى نفسه؛ وفيات، ١ص ١٠٠-١٠١.

ويقول أحد المؤرخين إن أحمد هذا لم يكن ابنا للمستنصر، وإنما هو ابن روحاني له، وهو فى الحقيقة حفيد بدر الجمالي[1]. فألبسه ثياب الخلافة -وهو رداء- وتاجها- وهو عمامة- بالجوهر- ولقبه بالمستعلي بالله أمير المؤمنين. كذلك أوفد الشريفة عمة أحمد -وهى أخت المستنصر- إلى بقية أولاد المستنصر بما فيهم نزار، وأعلمهم بوفاة أبيهم، وضرورة حضورهم. فقد كان لهذه العمة- على ما يبدو- طموحها، مثل طموح الملكة أم المستنصر من قبل، فكانت تلقب مثلها بألقاب منها: السيدة، الطاهرة الشريفة، الملكة، الكريمة، الرءوف، الرحيمة، ولها علامة خاصة، هى: الحمد لله ولى كل نعمة[2]. ويذكر المؤرخون أن المستنصر ترك لهذه العمة أمر إعلان تولية خليفة عهده، أو أن الأفضل اتفق معها على أن تكون لها كفالة الدولة[3]، مما يؤيد طموحها.

فلما حضر أولاد المستنصر، وأبصروا الصغير جالساً بزى الخلافة امتعضوا،وأنكروا ذلك، فقال لهم الأفضل: قبلوا الأرض لمولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذى نص مولانا عليه قبل وفاته، إنه الخليفة من بعده. ولكنهم امتنعوا عن مبايعته، وقال كل واحد منهم إن والده وعده، فإنه الخليفة من بعده. ثم قال نزار- وهو الأكبر وعمره وقتئذ ٥١ سنة[4]- «والله لو قطعت رأسي ما بايعت بالخلافة لمن هو أصغر منى، ولا رضيت تقدمته علىّ، لأن مولانا -أى المستنصر- قال لى دفعات كثيرة إنى الخليفة من بعده، وأن معى خطه بهذا، وهأنذا أحضره إليكم الساعة». وقد كان هذا حجة من نزار، لكى يهرب من أمام الأفضل المستبد؛ إذ كان لنزار قوم من رجال الدولة يؤيدونه للخلافة، بما فيهم غلمان من غلمان بدر. فلما عرف الأفضل بهرب نزار قبض من ساعته على أخويه عبد الله وإسماعيل وحبسهما فى المسجد بالقصر، وجعل مع كل واحد منهما عشرة يحفظونه.

---

(١) انظر. حسن إبراهيم ، عبيد الله، ص ٧٩. يعتمد على مصدر.
(٢) سجل رقم ٥٢ ص ١٧١ ؛ سجل رقم ٢٨ ص ٩٦-٩٧.
(٣) ابن خلدون، العبر، ٤ص ٦٦؛ ابن ميسر، ص ٦٧
(٤) مولده فى ٤٣٦/١٠٤٤ الذهبى (هامش) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٩ .أو حتى ٤٣٧/١٠٤٥ . ابن ميسر ص ٣٧

فلما أصبحوا بالغد، أقيمت البيعة الرسمية للمستعلى، الذى جلس على سرير الملك فى الإيوان الكبير، ومعه الأفضل بين يديه، وحضر القاضى وشهود القاهرة ومصر، وأخذوا البيعة على مقدمى الدولة ورؤسائها. ثم أرسل الأفضل صاحب الرسالة -وهو من يخرج برسالة الخليفة[1]- إلى عبد الله وإسماعيل لإحضارهما من سجنهما بالقوة، فلما دخلا على المستعلى قبلا الأرض، وسلما عليه بالخلافة، واستوفى القاضى عليهما إيمان البيعة. وإن ذكر أحد السجلات أن الأمراء إخوة المستعلى، أول من دخل فى البيعة من أنفسهم، لعلمهم بصحة عقدها.

ومع أنه ذكر أن نزاراً بايع[2]، إلا أنه تمكن من الفرار؛ فقد سار فى الليل مع غلمانه: فأنفذ الأفضل وراءه جماعة كبيرة من الفرسان، ليقبضوا عليه ويعيدوه، فساروا فى إثره فلم يلحقوه، ولا عرفوا أى طريق أخذه، فوصل نزار الإسكندرية، وأعلن أنه الإمام، وتلقب بالمصطفى لدين الله. وكان نزار قد اتفق مع نصر الدولة أفتكين، أحد غلمان بدر، ووالى الإسكندرية، أن يجعله مدبر مملكته والناظر فيها عوض الأفضل، فانضم إليه: وكذلك انضم إلى نزار أهل الإسكندرية، بسبب أن بدراً كان قد أساء معاملتهم عند ثورة ابنه الأوحد فيها، وجاء إلى الإسكندرية، محمود بن مصال اللكى- نسبة إلى لك بلدة من نواحى برقة[3]- ربما إيماناً بحق نزار، ولمعاونته. بل انضمت إلى نزار كل الأجناد، التى حاربها بدر، من عربان وسودان ومغاربة، بحيث زاد عددهم على ثلاثين ألف فارس وراجل.

فاستولى نزار بأنصاره على معظم الدلتا «بلاد الريف» وهزموا جيشاً للأفضل. ولكن هذا الوزير جمع عسكراً كبيراً من كتامة على الخصوص- وهى من طوائف المغاربة وأصل دولتهم -كما أخرج من خزائنه أموالاً كثيرة وكساوى وخلعاً وسلاحاً، وعدة آلات، وقبل أن يتحرك الأفضل من القاهرة، خرج المستعلى لتوديعه؛ فركب المستعلى بالمظلة شعار الإمامة الفاطمية. ويبيّن السجلان برقمى

---

(١) عن منصبه: صبح، ٣ص ٤٥٨.

(٢) يذكر ذلك سجل رقم ٤٣ ص ١٤٧.

(٣) عنها: معجم البلدان، ٧ص ٣٢٧.

٣٥و ٤٣ ، ظروف القتال الشديدة بين الأفضل من ناحية، وبين نزار وأفتكين من ناحية أخرى، حيث كان نزار على رأس جيشه، وعلى رأس المظلة أيضاً. وقد بلغ القتال أشده فى موقع كوم الريش- بجوار القاهرة- حتى أن نزاراً وأفتكين أضطرا بعدها إلى التقهقر للإسكندرية. ٠ فحاصر الأفضل الإسكندرية براً وبحراً، وإن توقف القتال فى شهر رمضان؛ لقيام فريضة الصوم، وبعد انتهاء هذا الشهر، ضربها بالأحجار واللهب من المنجنيقات، وقد استمر القتال حولها من صفر إلى ذى القعدة فى ١٠٩٦/٤٨٨ ، أى حوالى عشرة شهور؛ حيث لقى الأفضل من أهلها مشقة. فلما رأى أهلها أنهم مغلوبون، وقد فرغت المؤن، طلب أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد. فأمنهم الأفضل؛ وإن ذكر السجلان أنه لم يكن لهما عهد أو عقد. بعد ذلك فتحت المدينة أبوابها للأفضل، الذى أمر بمسير نزار وأفتكين إلى القاهرة، أو حملهما إليها بالسفن[1]؛ على أن يقيما بظاهرها إلى أن يصل إليها، ويسأل المستعلى بالله فى العفو عنهما. أما ابن مصال[2]، الذى هرب إلى المغرب، فقد عاد إلى الأفضل، الذى عفا عنه، ربما لأن ابن مصال من المغاربة، الذين ساعدوه، حيث أصبح لابن مصال هذا شأن فيما بعد أيام الخليفة الفاطمى. وقبل مغادرة الأفضل المدينة، غير جميع موظفيها، ولاسيما القاضى، وعين عليها والياً من قبله.

وبعد ذلك يروى السجلان أن الخليفة المستعلى اعترافاً بحق وزيره، الذى أبقى له الخلافة. وهو قابع على سريره فى القاهرة، أرسل إليه هدايا كثيرة. فلما وصل الأفضل قرب القاهرة عند بركة الحبش[3]- وهى بساتين على النيل قرب القاهرة- خرج الخليفة إليه بنفسه لتلقيه، وفكر فى تكريم وزيره؛ فلم يجد أفضل من الخلع عليه بملابس جسده، كما خلع عليه تاجه -عمامته- المرصع بفاخر الجواهر، ووضعه بيده على رأس وزيره. فلما كان بالغداة؛ جلس المستعلى فى باب الملك - وليس فى الإيوان- ليشعر المغلوبين بازدرائه؛ فدخل إليه الأفضل، ومعه أسيراه نزار وأفتكين. ولكن المستعلى الذى رأى نزاراً؛ صاح عليه وانتهره،

(١) العبر، ٤ص ٦٦.

(٢) الخطط، ٢ص ٣٧٧.

(٣) هى ليست بركة ماء، وإنما منتزه. عنها: معجم البلدان، ٢ص ١٥١-١٥٢

وأمر باخراجه، فأسرع الأستاذون من رجال القصر بسحبه. ولعل نزاراً اعتقل فى موضع بالقصر، وضيق عليه إلى أن مات، أو إنه قتل بالقصر، أو غير ذلك. أما افتكين؛ فأنه وبخ وأهين، وحبس فى موضع فى دار الأفضل، ثم قتل بالضرب بالعصى. كذلك قتل الأفضل من كان مع نزار. وبنى على رءوسهم مسجداً؛ سمى: بمسجد المستنصر[1].

وبفضل هذا الانتصار قبض الأفضل على السلطة فى الدولة طول خلافة المستعلى. حيث كان قد ارتبط به منذ زواجه من أخت الأفضل المسماة ست الملك[2]. فكان بقاء المستعلى فى الخلافة الفاطمية؛ بسبب سيف الأفضل، على حد قول أحد المؤرخين[3]. وبعد موت المستعلى- فى يوم الثلاثاء ١٧ من صفر سنة ١٣/٤٩٥ ديسمبر ١١٠١- ولى الأفضل ابناً للمستعلى اسمه أبو علىّ، كان لا يزال طفلا. له من العمر خمس سنين وأشهر، ولقبه بالآمر بأحكام الله سخرية. وقد خرج سجل بتولية الآمر[4] ذكر فيه تمسك الخليفة الجديد بالأفضل، مثلما فعل جده وأبوه من قبل. كما أرسلت سجلات أخرى إلى ولاة الأقاليم؛ يظهر فيها تأييد الوزير فى منصبه[5]. وليزيد الأفضل قبضته على الدولة، نقل الدواوين من القصر إلى بيته[6]. وقد بيّن ابن الصيرفى الكاتب، الذى كتب له رسائل مشهورة هي الأفضليات؛ أن نقلها - أى الدواوين - فيه إقرار بمكانة الوزير[7]. وحتى لما خرج حرب الفرنجة، الذين غزوا الشام ترك عند الخليفة أخاه[8]. فاستمر الأفضل قرابة عشرين عاما أخرى يحكم وحده فى مصر[9] حكم الملوك.

*

(١) ابن ايبك، ٣/٦ ورقة ٣٥٢؛ ذيل سير الآباء، ٣ ورقة ١٠٣؛ العبر، ٤ص ٦٦.
(٢) ابن ميسر، ص ٣٤.
(٣) ذيل تاريخ دمشق (هامش، قول الفارقى)، ص ١٢٨.
(٤) حسن المحاضرة، ٢ص ١٤-١٦؛ ابن منجب، الإشارة لمن ولى الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، ص ١٣-١٥؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ص ١٨٤ وما بعدها؛ ماجد، الآمر بأحكام الله. (الموسوعة الأردنية).
(٥) صبح، ٨ص ٢٣٧-٢٤١؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ص ١٩٣ وما بعدها.
(٦) الخطط، ٢ص ٢٣٦ س ٢.
(٧) حصل معهد المخطوطات بالجامعة العربية على نسخة مصورة من هذه الرسائل. فهرست، القاهرة ١٩٥٤، ١ص ١٤٦؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ص ٤٣.
(٨) الخطط، ٢ص ٣١٠ س ٤.
(٩) حسن المحاضرة، ٢ص ١٤-١٦.

ولكن تدخل الأفضل فى نص المستنصر. ترتب عليه انقسام فى المذ
الفاطمي لا يزال موجوداً حتى وقتنا الحاضر. فقد أثار غضب بعض الدعا
مصر ولا سيما أن الأفضل اتبع الشدة مع الذين لم يوافقوه منهم واضطهد
فنفى أسرة بنى عبد القوى إلى المغرب، وهى التى تولت المنصب أباً عن جد
وعلى النقيض استطاع أحد الدعاة الزائرين فى مصر فى أيام المستنصر أن ي
معارضة جدية- نتيجة للتدخل فى النص- فى خارج مصر. هذا الداعية
الحسن بن الصباح[٢] (حسنى صباح) المشهور بالحميرى الذى يمتد نسب
ملوك حمير اليمنيين، يتبيّن من سيرته أنه فارسي، ولد فى الرى أو بمكان ق
منها، عام ١٠٣٨/٤٣٠ أو ١٠٤٠/٤٣٢، فى بيت عرف بالتشيع، على المذ
الاثنى عشرية. وكان الحسن منذ شب يهتم بالعلوم والمعارف، والتزود بكل
يستطيعه فى سبيل توسيع مداركه. وقد اشتغل فى دواوين الدولة السلجو
فى عهد ألب أرسلان. وتقرب من ملك شاه، ولكن خرج من الدواوين بسبب
نظام الملك، الذى وزر لملك شاه، مع أنه زميله فى الدراسة، هو والشاعر المعر
عمر الخيام. وتعرف الحسن إلى داعية فاطمى، اسمه مؤمن، كان موفداً إلى أ
من قبل الملك بن عطاش، داعى الدعاة فى العراقين (أى فى العراق العج
والعراق العربى)، فقبل الحسن بيعة الخليفة الفاطمى، وما لبث أن عهد أحم
عطاش -لما جاء الرى[٣]- إلى الحسن بنشر الدعوة الفاطمية

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٢٦. آخرهم الجليس، ولد بالمغرب.

(٢) الجوينى. جهانكشاى، ص ١٠٤ وما بعدها؛ العبر، ٤ص ٩٣ وما بعدها؛ الملل وال
(على هامش الفصل)، طبعة مصر ١٣٢٠هـ، ٢ص ٣٢ وما بعدها؛ وتحقيق Cureton
١٥٠ وما بعدها؛ الكامل، ٨ص ١١؛ انظر. كامل حسين، الإسماعيلية، ص ٦٤ وما بع
غالب، تاريخ الدعوة، ص ١٧٧ وما بعدها؛ طه شرف، دولة النزارية، ١٩٥٠؛ ماج
المستنصر، ص ١٩٩ وما بعدها؛

y de l'Isl, (art. al-Hasan B. al- Sabbâh) t 2, P. 293; (Hasani Sabbáh) 2 éd, t3, P.
Ismaiʿiliya) t2, P. 585 sqq; 260-1;
an ibn Sabbah, 2 ed. Karatchi, 1951 : Muscati

هناك رأى أنه لم يتتلمذ مع الخيام ونظام الملك. أنظر. طه شرف، دولة النزارية، ص ٣٨.

(٣) عنها: معجم البلدان، ٤ص ٣٥٥ وما بعدها.

وجهه إلى مصر فى عام ٤٦٩/١٠٧٦-٧، فوصل الحسن إلى القاهرة فى ١٠٧٨/٤٧١، ولعل الحسن كان يأمل أن يأخذ الدعوة من المؤيد داعى الدعاة- وهو فارسى مثله- ولكن المؤيد توفى قبل أن يصل، وإن وجد الحسن كتب المؤيد وتلاميذه. وقد بقى الحسن فى مصر زهاء ثمانية عشر شهراً، كان فيها موضع إكرام المستنصر، الذى أعطاه مالا، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته فى بلاد العجم. وفى أثناء ذلك، أخبره المستنصر بولاية عهده لنزار، أو أن الحسن طلب من المستنصر أن ينص على خلفه فى الإمامة، فنص على نزار.

ولكن الذى عجل بترك الحسن مصر، هو أن الوزير بدر الجمالى، الذى سيطر فى البلاد كما ذكرنا، وأشرف على الدعوة، فكان من ألقابه:كافل دعاة المؤمنين، لم يرحب بوجود الحسن، وربما يكون عمل على إخراجه. فسار الحسن إلى بلاد العجم ماراً بالشام، وترك آراءه فيها، ولعل هذا هو نشأة مذهبه فى الشام، الذى أخذ مكانه بجانب الدرزية فى عهد الحاكم. والواقع إن الشام أخذ يمتلئ بالشيعة من كل فرقة، حتى أنهم بنوا مشهداً لعلىّ بن أبى طالب فى دمشق عاصمة الأمويين شاهده ابن جبير[1]، مع أنه لم يسمع أن علياً جاء إلى الشام؛ كما بنوا مشاهد لآل البيت. وكان هدف الحسن منذ وصوله بلاده تأسيس دولة إسماعيلية تدعو للمستنصر. فكان يقوم بنشر الدعوة بين الإيرانيين، الذين كرهوا حكم الأتراك السلاجقة؛ حيث عرف بينهم بداعية الحق. كذلك قام بحركة تدمير "Sabotage" فى بلاد السلاجقة واستولى على قلاع بحر قزوين، ولا سيما قلعة الألموت[2]- ومعناها عش العقاب- وهى مبنية على جبال البرز، لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس، فاستجابت إليه فى ٤٨٣/ ١٠٩٠، وإن سماها بلدة الإقبال؛ حيث أرسل منها دعاته إلى كل مكان. وأمام دعوة الحسن القوية، أمر الخليفة المستظهر العباسى أن يقوم المصنف الكبير الغزالى، بتصنيف كتاب للرد عليها[3]. فقد كان الحسن عميق التفقه فى المذهب، قوى الحجة، حتى أنه كان

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(٢) ابن العميد، ص ٢٨٦-٢٨٧، عنها: انظر

Ency de l'Isl, (art Alamût) t I, P. 253;

La Fortressie d'Alamut. Mém. de la Soc. de Linguistique. Paris, XV. Cf.: Huart

(٣) عنوان كتاب: فضائح الباطنية، تحقيق Gold ، طبعة Leiden ١٩١٦، وتحقيق عبد الرحمن بدوى، ط . القاهرة.

يلقب «بالحجة» أو «الشيخ» ويخاطب بسيدنا. ولدينا نتف من تأليفه فى المذهب «تعليم»، وردت فى كتب[1]: الشهرستانى والجوينى ورشيد الدين.

ولما حدثت حوادث نزار فى مصر، فإن الحسن بن الصباح خطب لنزار وعمل على تكوين فرقة تدعو له، عرفت منذئذ بالنزارية نسبة إلى نزار. أو الإسماعيلية الشرقية، وهم الذين يعرفون الآن بالخوجة أو الأغاخانية، وذلك على عكس الفرقة التى أيدت إمامة المستعلى، فعرفت بالمستعلية، أو الإسماعيلية الغربية. أو حتى بأسماء أخرى بعد انتهائها من مصر. وقد قيل عدة أمور فى مسألة الدعوة لنزار، منها أن الحسن أرسل بعض أصحابه لإحضار نزار، أو أن الحسن جاء من فارس إلى نزار وهو مختف بمصر، وأقام عنده، وتزوج نزار بنت الحسن، وأولدها ولداً أسماه محمداً، ولقبه بالمصطفى[2]، أو أن نزاراً نفسه تمكن من مغادرة الإسكندرية فى أثناء الحصار، واتجه إلى بلاد فارس، ومضى إلى بيت الصبّاح فى قلعة الموت، وأولد بنت الحسن هذا الابن، وأنه نص عليه. وهناك مخطوطة متداولة بين الإسماعيلية الشام تروى قصة فرار الإمام نزار من الإسكندرية، وأنه هرب فى زىّ التجار، وأبلغ الحسن بن الصباح مكانه. ولكن فى آخر الأمر دعا الحسن أيضاً لنفسه، إلى وقت وفاته فى ٥١٨/ ١١٢٤.

وأخطر ما جد فى دعوة الحسن تكوينها للفداوية، الذين يفتدون مبادئهم بأرواحهم؛ وهم أطفال يربون منذ الصغر مثل الحجرية فى مصر، بحيث إنهم أرهبوا رجال الدولة السلجوقية. فمن ضحاياهم المشهورين نظام الملك، الذى وزر ألب أرسلان وملك شاه، وتسبب فى إخراج الحسن من الدواوين فقطعوه إرباً فى ٤٨٦/١٠٩٣[3]. ويذكر كتاب تاريخ آل سلجوق الحال العصيبة التى أصابت المجتمع السلجوقى فى تلك الأيام، وكيف كان الإنسان لا يأمن على نفسه أو ذريته من بغتات الفداوية، فقد كان الفدائى منهم يهجم على كثير، ويعلم أنه يقتل[4].

---

(١) كتبهم بالترتيب: الملل، جهانكشاى، جامع التواريخ.

(٢) ذيل تاريخ دمشق (هامش) ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) وفيات، ١س ٢٥٥-٢٥٧؛ عماد الدين، تاريخ آل سلجوق، ص ٦٣

(٤) تاريخ آل سلجوق، ص ٦٣ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين. الإسماعيلية، ص ٦٤

وعرفت هذه الفرق أيضاً باسم: الحشيشية، لتعاطيها الحشيش، وربما منها أخذت الكلمة الفرنسية[1] "Assissn" ، بمعنى قاتل سفاك. فقد قيل إن الحسن بن الصباح، الذى زار مصر، كان يعطى المستجيبين لدعوته الحشيش، الذى كشفه فى مصر، حيث يذكر ناصر خسرو أن الأفيون كان يزرع فى أسيوط[2]، ولكن لدينا رأى أن هذا الاسم مدسوس من الأعداء، لأن من يتعاطى الحشيش جبان لا يستطيع أن يقتل. يضاف إلى ذلك أن فرقة الحسن كانت متشددة فى تحريم الخمر وغيره من المفاسد؛ بحيث إن الحسن قتل بنفسه ولديه لأنهما شربا الخمر، فكيف يسمح لأعضاء فرقته بالحشيش[3] . كذلك سموا من أعدائهم بالباطنية، لأنهم يرون لكل ظاهر باطناً، وهم سموا أنفسهم -بسبب التأويل- بالتعليمية[4]، لأنهم يتبعون تعاليم الإمام.

والواقع أن فرقة الحسن كان لها تنظيم داخلى مشابه لتنظيم الفرق الفاطمية الأخرى من حيث درجاتها. ولكن الشهرستانى يرى أن الدعوة الفاطمية اختلفت على يدى الحسن، ولا سيما أن الحسن كان متفقها، وإن كتب عقائد بالأعجمية[5]. وفى رأينا أنه حدث اختلاف على النص، أساس العقيدة الفاطمية: فقد تمسكت النزارية بالنص الأول، على عكس المستعلية التى تؤخر النص إلى وقت الموت، وإن الإمام له حق العدول عن النص: فالمستنصر أقعد المستعلى فى دقيقة انتقال

---

(١) لم يكن يذكرها الإسماعيلية وأعداؤهم لأنفسهم، وإنما ذكرها السوريون لهم، ونقلها الصليبيون عنهم (Assassini)، وكانت تعنى فى أول الأمر المتحمس، حتى أن التروبادور، وهم المغنون الجائلون، كانوا يتسمون بها. انظر. De Sacy :
Mémoire sur la dynastie des Assassins et sur l'origine de leur nom, 1818 ;
The Troubadours and the Assassins. : Chambrers;
Modern Language notes LXIV (1964) sqq;
Ency. de l'Isl, (art. Hashâshiyyn) t3, P. 275-6.

(٢) يقول ناصر خسرو إن حبه أسود، وحينما تنمو الشجرة تكسر ويربط كيس فى موضع الكسر، فيخرج منه سائل يشبه اللبن، فيجمعونه ويحفظونه. سفر نامه، ص ٧٠ .

(٣) انظر . كامل حسين ، الإسماعيلية، ص٧٤ - ٧٥ -٨٧.

(٤) الملل، ٢ص ٢٩

(٥) نفسه، ٢ ص ٣٣

مقعده[1]. وتقول النزارية بولاية عهد نزار للمسلمين، على عكس المستعلية، التى تعطى أهمية لتسمية المستعلى بولى عهد المؤمنين[2]. فتبرز المستعلية المعنى، الذى تدل عليه كلمة مؤمن؛ فهذه الكلمة تدل على الإيمان؛ بينما كلمة مسلم لا تدل إلا على الإسلام؛ وأن الإيمان هو الذى يهم فى العقيدة الفاطمية، لما فيه من إقرار بحق الأئمة الفاطميين بالإضافة إلى الإقرار بعقيد الإسلام. وما حدث لنزار حدث من قبل لعبد الرحيم[3]، الذى كان الحاكم قد سماه بولى عهد المسلمين، ولم يتول الإمامة، وأن نزاراً نفسه اعترف فى مرة بولاية المستعلى عهد المؤمنين.

وعلى كل حال، حاول الآمر بعد أن بلغ رشده، أن يسترجع نفوذه، ولكن كان عليه أن يحارب فى جبهتين: الجبهة الأولى ضد وزيره المستبد، الذى حاول- لما رأى من يقظته لحقوقه أن يقتله، فدس له السم مرات- كما فعل مع أبيه المستعلى[4]، الذى ربما مات مسموما- فلم يصل إليه. وحينئذ عمل الآمر من ناحيته على قتله[5]، ونجح فى ذلك، فقتله فى سنة ١١٢١/٥١٥، بأن دس له رجالا وثبوا عليه فى زقاق ضيق، فضربوه بالسيوف، وسار الأفضل إلى داره وبه رمق، فلما علم الآمر جاءه وكأنه زائر له، فخرج الناس عنه، فقيل إنه جعل على وجهه مخدة وقعد عليه حتى أزهق روحه، وصادر أملاكه الكثيرة، التى كانت تشمل مراكب وبغالا وخيلا ورقيقاً وحلياً وجواهر، بحيث أمضى أربعين يوماً وليلة فى نقل ما وجده فى قصره، وهو شئ كثير لا يوجد له مثيل إلا عند الخلفاء[6]، كما سجن ابن الأفضل واسمه أبو على أحمد[7].

---

(١) الهداية الآمرية (فى مجموعة الوثائق) ١ص ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦.

(٢) نفسه ، ص ٢١٥ - ٢١٧ ، ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) عن ذلك بتفصيل؛ انظر . كتابنا: الحاكم بأمر الله ص ١٧٧ (المصادر الأصلية).

(٤) ابن ميسر، ص ٤٠ . يقول ابن القطان إن أخاه هو الذى سمه، ولكن الآمر كان صغيراً؛ مما يدل على أن الأفضل هو الذى سمه. نظم الجمان، ص ٢٠ .

(٥) النجوم، ٥ص ٢٢٢؛ وفيات، ١ص ٣٩٧؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٣-٢٠٤؛ ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٥ . وعلى العكس يقول ابن ميسر إن قتلته هم جماعة من الباطنية. ابن ميسر، ص ٥٧-٥٨

(٦) النجوم . ٥ص ٤٨؛ وفيات، ١ص ٣٩٧

(٧) ابن ميسر، ص ٥٨؛ انظر حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ط ٢، ص ٦٢٧

ويدل على ترف الوزير البالغ، أنه كان له مجلس شراب، فيه ثمانية تماثيل. لثمان جوار متزينات بأثمن الحلى والملابس، فكان إذا دخله نكسن رءوسهن إجلالا له؛ فإذا جلس وضع فى مجلسه صوانى الذهب مصفوفة وفيها الأوانى المملوءة بالجوهر، ويجعل بدلها الشراب. كذلك أنشأ الآمر لنفسه فرقة مخلصة، عرفت بالطائفة الآمرية، ونقل الدواوين إلى القصر[1]؛ كما كانت عليه. فاتخذ الآمر بعده وزيراً اسمه المأمون البطائحى[2]، الذى يقال إن له يداً فى قتل الأفضل، ولكنه أراد الاستبداد بدوره؛ بحيث إن الخليفة طالبه بأن يوسع عليه فى الحال، فوافق وإن طالبه بأن لا يستمع إلا له، وأن يتولى أولاده بعده. ولكى يشغله من استبداده شغله بالأعياد، حتى أن هذا الوزير هو الذى أعاد إلى الرسوم الفاطمية بهجتها، قيل إنها اكتملت فى عهد الآمر. ولكن الآمر قبض على هذا الوزير فى ٥١٩/ ١١٢٥، وصادر أمواله وقتله، وقتل خمسة من إخوته فى ٢ رجب ٥٢٢/ ٢٠ يوم ١٢٢٨، وبقى بغير وزير. وقيل إن السبب هو أنه كاتب الأمير جعفر بن المستعلى يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه، أو حتى أنه أراد أن يعين محمد بن نزار، أو أنه لم يكن مخلصاً لمذهب الدولة الفاطمية، وعلى مذهب الإمامية المخالف.

ولكن التمتع بسلطته لم يطل، إذ كان عليه أن يقاتل أعداءه فى الجبهة الثانية وهم الذين قالوا إن النص لم يكن لأبيه المستعلى، ولكن لعمه نزار وعقبه، وهى الجماعة المعروفة بالنزارية كما ذكرناه، ولكى يحارب دعوتها قفل دار الحكمة[3]؛ خوفا من الاجتماع على مذهب النزارى، إذ أنها كانت أشبه بجامعة؛ وإن أعيد فتحها بعد قليل. فعرفت بدار العلم الجديد. كذلك لجأ إلى الدعوة المضادة، ونجد أثرها فيما وصلنا من رسائل كانت تقرأ أو ترسل إلى ولاة الأقاليم؛ ليذيعوها بين الناس، بقصد الدفاع عن ولاية أبيه بالنص، نذكر منها: الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية، ورسالة صواعق الإرغام فى إدحاض حجج أولئك اللئام.[4]

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٣٦ س ٢.

(٢) نفسه، ٢ص ٣٠٧، ٢ص . ٣٤-٣٤٢.

(٣) الخطط، ٢ص ٣٣٧.

(٤) تذييل وتحقيق وترجمة Fyzee ، بعنوان:

Epistle of the tenth fatimid Calife al-Amir bi Ahkâm Allah. Isl. Res. Ass. Series, n. 7.

وتوجد فى مجموعة الوثائق فى الشيال.

وقد بلغ الحذر في مصر من الفداوية درجة إلى حد أن أوجدت الدولة الفاطمية في عهد الآمر رقابة شديدة على الوافدين إلى القاهرة، وربما كانت الفداوية هي التي اغتالت الوزير الأفضل؛ بحيث إنه في وزارة المأمون صدر أمر بإقامة إحصاء « تصقيع» لمن كان فيها من السكان شارعاً شارعاً وحارة حارة، كما أرسل الجواسيس فالرجال والنساء لتتبع الفداوية. ومع ذلك، فقد تمكن أتباع الفرقة النزارية من قتل الآمر، وعمره لم يتعد أربعاً وثلاثين سنة في ٥٢٤/ ١١٣٠، قتله عشرة منهم، وقضوا عليه بالسكاكين، فقتل تسعة منهم، ووصل إلى قصره، وبه رمق من الحياه، ثم مات من يومه(١). ولدينا تفاصيل شائقة من ابن القطان(٢)(حوالي ٦٢٨/ ١٢٨٠) عن المؤامرة المحبوكة التي راح ضحيتها الخليفة: فقد جاء هؤلاء القتلة من بلاد الشام، فأقاموا بمصر، وعملوا بيوم ركوب الخليفة إلى بعض نزهه، وكان إذا ركب سدت الديار والحوانيت في ممره، ولا يمر بطريقه أحد سواه، ويجعل نصف عسكره «الركابية» أمامه ونصفهم وراءه، وفي وسط كلتا المسافتين اللتين أمامه وخلفه فارسان بينهما وبينه مثل ما بينهما وبين العسكر، وحوله أربعة من خواص عبيده وصاحب المظلة، فقصد هؤلاء القوم إلى طريقه الذي عهد سلوكه عليه، وفيه فرن على ممر الشارع فقصدوا إلى الفران معهم دقيق وقالوا له: نريد منك أن تخبز لنا خبزاً من هذا الدقيق فإنا قوم غرباء مسافرون فقال لهم الفران: مولانا اليوم يمر على هذا الشارع، فإن أنتم أبطأتم فلا يصح لكم ما تريدون، وإن أنتم عجلتم صح لكم ذلك. فقالوا له: الساعة نفرغ من ذلك؛ وأرغبوه في الأجرة ودفعوها له، فأذن لهم، وشرط عليهم العجلة. فجعلوا يتأنون، ويحدثون أشغالا والفران يتعجلهم، إلى أن مر عليهم مقدم العسكر الأول الذي يمشي أمامه، فأعنف عليهم الفران في الخروج ولم يمهلهم، فلما رأوا ذلك منه اجتمعوا عليه ودسوه داخل الفرن، وسدوا فمه بغطائه فشووه. وأقاموا بالفرن وبابه مغلق عليهم إلى أن سمعوا وقع حوافر فرس الآمر، فأول من خرج من الفرن كهل منهم، وجعل يسجد إلى الأرض وينادي: أنا بالله وبعدل مولانا، ويسجد سجدة أخرى ويقول مثل قوله، ويقترب منه وهو يمشي إليه إلى أن ألقى يده في شكائم الفرس، وسل من حزامه سكيناً

(١) ابن حماد ، ص ٦٠؛ ابن أيبك، الدرة، ٦ص ٥٠٥؛ النجوم، ٥ص ١٨٤-١٨٥؛ العبر، ٤ص ٧١. التفاصيل تختلف قليلاً من مصدر لآخر.

(٢) ابن القطان، جزء من كتاب نظام الجمان، ص ٢٢-٢٤.

وضرب بها بطن الفرس فسقط جميع ما فى بطنه وسقط على الأرض. وخرج أصحابه من الفرن بعد ذلك، وألقى يده فى مجاميع ثياب الخليفة، وضربه ضربة فرى بها أوداجه، وتبادر أصحابه فضربوه بسكاكينهم ضربات كثيرة؛ حتى ذهل حرسه «الركابية» إلى أن فرغ من قتله وإن عمدوا بعد ذلك إلى القتلة فقتلوهم.

*

وقد كان سقوط الآمر صريعاً سبباً فى تعقيد الأمور بالنسبة للخلافة الفاطمية فى مصر، ولا سيما أنه كان مشكوكا فى أن هذا الخليفة سيكون له ولى عهد، فقد تغلب شخصان على السلطة هما: هزير أو هزار أو حرز الملوك والعادل برغش ولعلهما من الأرمن من خدام الآمر. وقد اختارا حفيد المستنصر ليحكم معهما من الناحية الشكلية، الذى أبوه اسمه قاسم، وهو عبد المجيد وعمره ثمانية وخمسون عاماً[1]، ولكن بقى عليهما أن يبررا هذا الوضع أمام الدعاة، فأعلنا قصة مؤداها: أن تولية عبد المجيد هى بمثابة نائب، لانتظار حمل لإحدى جهات الآمر أى زوجاته، التى نص عليها قبل وفاته «ما يتوهم فى البطون[2]»، فهو لم يبايع بالخلافة، وإنما أصبح: الكفيل لطفل مرتقب (كفيل المنتظر فى بطن أمه).

هذه الظروف المضطربة ، كانت سبباً فى ظهور أحد الوزراء المستبدين الذى كان يتحين الفرصة لاستغلالها، وهو كتيفات أبى على أحمد[3] – Alias – ابن الأفضل الوزير السابق. وكان ينقم على الخلافة الفاطمية، لقتل أبيه واعتقالها له: فقام بانقلاب عسكرى ناجح، بفضل مماليك أبيه من الأفضلية، وذلك فى يوم إعلان نيابة عبد المجيد، ربما بمساعدة برغش، الذى كان ينقم على هزار الملوك[4]. وفى سبيل الأحتفاظ بسلطته، قتل أبو على كل من عارضه من رجال الدولة، فقتل هزاراً، وحبس عبد المجيد، ونقل أموال القصر الفاطمى إلى داره، كما فعل الآمر حينما قتل أباه الأفضل، ونهب القاهرة. وكان ابن الأفضل دائم التفتيش على أهل القصر للبحث عن حمل للآمر، إلا أنه لم يوفق فى ذلك، كما لم يقدر

---

(١) العينى، تاريخ، ورقة ٢٠٤؛ انظر Magued.: Ency de l'Isl, (art. Hâfiz) 2 éd . t3, P. 56-57.

(٢) ابن حماد، ص ٦٠؛ ابن أيبك، الدرة، ٦ص ٥٠٥؛ الخطط، ٢ص ١٧٢.

(٣) النجوم، ٥ص ٢٣٨-٢٣٩؛ فيات، ١ص ٥٥٥؛ إتعاظ، ورقة ١٣٣ب.

(٤) يقول بعض المؤرخين إنه هو الذى قتل الآمر، وهو أحد غلمانه. البيان، ١ص ٣١١. ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٨٥.

على قتل عبد المجيد، وإنما خطب لنفسه باعتباره «ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره»، وكتب اسمه على العملة[1]، وعليها اسم الإمام المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين، وذلك فى سنة ٥٢٥/١١٣١. وفى القضاء أشرك مع القاضى الإسماعيلى قضاة شافعية ومالكية وحتى إمامية؛ لأنه كان على هذا المذهب الأخير، ليعارض المذهب الإسماعيلى. وأكثر من هذا أنه مهد للقضاء على المذهب الإسماعيلى لإعلان مذهب الإمامية الاثنى عشرية[2]، فقطع صيغة الأذان الإسماعيلى والفاطمى بحىّ على خير العمل، وأسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة الذى إليه تنسب الإسماعيلية، وحبس أفراد بنى فاطمة، وقتل الدعاة الذين عارضوه.

ولكن أنصار بقاء الدولة الفاطمية لم يرضوا أن تضيع دولتهم على يد هذا الوزير، الذى استمر يحكم مصر أكثر من عام فقاموا بانقلاب ناجح؛ بقيادة يانس[3] أحد رجال القصر، وهو أيضاً من أصل أرمنى فقتلوا أبا علّى أحمد بن الأفضل، وأخرجوا عبد المجيد[4] من سجنه، حيث ترددوا قليلا فى إعلان خلافته حتى أنهم اكتفوا بتعيينه ولياً للعهد؛ كما يظهر من عملة ضربت فى الإسكندرية فى سنة ٥٢٦/١١٣١؛ وإن أعلنوه خليفة بعد ذلك، وتلقب عبد المجيد باسم: الحافظ لدين الله، أى ضمنا الحافظ للخلافة الفاطمية من الضياع، ولدينا نص البيعة[5] ليس لها تاريخ؛ وإن وضعت فى سنة ٥٢٦/١١٣١؛ كما إن المقريزى فى حوادث هذه السنة يقول: « وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل[6]».

فلما بويع عبد المجيد بالخلافة اتخذ ألقاباً فخمة لم يسبق إليها لتأييد نفوذه فكان الخطيب فى الجامع يقول: «أصلح الله من شيدت به الدين بعد دثوره،

(١) انظر. Lavoix: Catalogue des monnaies Musul de la B.N :Egypte et Syrie, P. 163-164.
:Lane - Poole; (n. 439).
Catalogue of the Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library no. 1268, P. 194.
(٢) العينى، تاريخ، ورقة ٣٠٤؛ ابن ميسر، ص ٧٥.
(٣) الخطط، ٣ص ٢٦.
(٤) بتفصيل ومصادر، انظر.
MAGUED: Ency de l'Isl, (art. Hâfiz) 2 éd, t3, P. 567.
(٥) صبح ، ٩ص ٢٩١-٢٩٧؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ص ٩٩، ٢٥١ وما بعدها.
(٦) اتعاظ، ورقه ١٣٥؛ ابن ميسر، ص ٧٥؛ الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ١ص ٢٥٨.

وأعززت به الإسلام بأن جعلته سبباً لظهوره. مولانا وسيدنا إمام العصر والزمان أبا ميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ﷺ، وعلى آبائه الطاهرين حجج الله على العالمين[1]». وقد استمرت الخلافة الفاطمية تحتفل بيوم خلاص عبد المجيد من سجنه، وكان يوم الاحتفال به يعرف بعيد[2] النصر، فكان قاضي القضاة يتلو على الحاضرين أسماء من أصيب من الأنبياء والصالحين والملوك بشدة حتى يصل أخيراً إلى ما وقع للخليفة الحافظ.

فكانت تولية عبد المجيد الخلافة مع أنه ابن عم الآمر؛ كما فعل النبي حين أوصى إلى ابن عمه عليّ مع أن النص حتى الآمر كان ينتقل من أب إلى ابن[3] ر وتكون في الأعقاب. وقد ادعى عبد المجيد أن الآمر عهد بها له وأن المستنصر كان ينتظرها له، فسمى أباه وليّ عهد المسلمين[4]، وأشاع بين العوام أن الآمر كان يعرف نهايته، وأنه سمى نفسه: المسكين المقتول بالسكين. ولكن البحث العلمي، لا يستطيع أن يرفض نص سجل[5]، ورد في مصادر الشيعة، أرسله الآمر للسيدة الحرّة ملكة اليمن وقتئذ، ليعلن فيه مولد ابن له اسمه الطيب، وكنيته أبو القاسم، في ربيع الأول سنة ٥٢٤/ فبراير ١١٢٩. وقد ورد فيه أن القاهرة ومصر زينتا، وعملت الملاهي في الأسواق وباب القصر بهذه المناسبة، ولبست العساكر وزينت. وإن كنا لا نعرف خبر الطيب هذا، وإن ظهر نص به شيء من الإيضاح في كتاب اسمه: البستان الجامع، لمؤلف مجهول عاش في القرن السادس الهجري، نشر[6] Cahen جزءا منه مؤداه أن الحافظ دس رجلاً اسمه ناصر الليثي، أخذ

---

(١) النجوم، ٥ص ٢٣٧.

(٢) الخطط، ٣ص ١٧٣؛ انظر. ما ورد عن هذا الاحتفال في كتابنا: نظم الفاطميين، ٢ص ١٢٩-١٣٠.

(٣) المجالس المؤيدية، ورقة٥؛ النجوم، ٥ص ٢٣٧ وما بعدها؛ وفيات ١ص ٥٥٤ وما بعدها؛ انظر. كامل حسين، التشيع، ص ٦٠.

(٤) غاية المواليد، الباب الرابع عشر، تحقيق Ivanow ، ص ٣٥-٣٩.

(٥) إتعاظ، ورقات ١٣١ب-١٣٢؛ عمارة اليمني/ كاي ص ١٠٠ وما بعدها؛ انظر. الشيال، مجموعة الوثائق، ١ص ٢٣؛ وفي ملحق رقم ٨ بكتاب الصليحيين والحركة الفاطمية في اليمن، من تأليف الهمداني، القاهرة ١٩٥٥، انظر. Stern :

The succession to the Fatimid imam al-Amir. Oriens. 4,31, 12, 1951.

(٦) نشر جزء منه في: Bull. d'Etudes Orientales. Damas, 1938, 121-2

· انظر . الشيال، مجموعة الوثائق، ١ص، وهامش (٢).

الطيب هذا ولم يظهر له خبر بموت أو بغيره. وعلى العكس، ربما تكون شيعته خوفاً عليه حملوه إلى اليمن؛ حيث انتشرت دعوته فيها، وربما اتخذتها الملكة الحرة تكأة للاستقلال باليمن عن نفوذ مصر؛ حيث إنها من أول الأمر رفضت الاعتراف بالحافظ، على أساس أنه وصيّ لإمام منتظر؛ كما أنها أوصت بكل ما تملك له ولشيعته، التى عرفت بالطيبية، وفى الواقع أن الملكة الحرّة كانت أكبر نصيرة لدعوة المستعلى، جد الطيب، كما يظهر من مكاتبة الملكة أم المستعلى وابنها للملكة الحرّة، أى أنها قبلت الوضع الجديد فى مصر. كذلك انتشرت هذه الدعوة الجديدة فى الهند، التى كانت منذ أيام المستنصر ميداناً للدعوة الشيعية، الذى جعل للسيدة الحرة الإشراف على تعيين الدعاة فيها. فانتشرت فيها بالتالى الدعوة المستعلية التى قبلتها السيدة الحرة حتى سميت بالتالى الدعوة الطيبية وبقيت فى اليمن حتى بعد زوال الفاطميين[1]؛ حيث اعتنقتها قبيلة همدان اليمنية الكبيرة، فكان انتشار هذه الدعوة أيضا بين من كانوا من أصل عربى، وأطلق عليها الإسماعيلية الغربية، وإن أصبح يُطلّق على اتباعها البهرة، وهى كلمة تعنى تاجر؛ مما يدل على أنهم كانوا على صلة بالتجارة فى اليمن. ونجد هذه الدعوة انقسمت من جديد فى الهند إلى الداوودية والسليمانية[2]، بينما النزارية فى الهند عرفت باسم الخوجة على اسم بعض الدعاة. ويحتفظ البهُرة بالكتب الفاطمية التى ربما تكون نقلت من اليمن إلى الهند، بسبب موت الملكة الحرّة؛ وبسبب الحروب التى نشأت بين الصليحيين بعد موتها، وتفرق أنصار الدعوة وضمن الكتب التى عثرنا عليها فى الهند، السجلات المستنصرية التى تتعلق بوثائق الخلافة الفاطمية زمن المستنصر، وما تحتويه من سجلات تولية المستعلى خلافة المستنصر.

---

(١) انظر. Abbas : Al Hamdani at the outest of the domination of the Hamdan over ، yamen Sanna Univ. Publ, 1936, P. 165.

(٢) يرجع هذا الانفصال إلى القرن العاشر الهجرى؛ بسبب الخلاف على من يتولى مرتبة الداعى المطلق للطائفة، فالداوودية تنتسب إلى الداعى قطب شاه داوود السابع والعشرين من دعاة الفرقة المستعلية، والسليمانية تنتسب إلى الداعى سليمان بن حسن، الذى أبى أتباعه الاعتراف بداوود، واعترفوا بسليمان داعياً لهم فى سنة ٩٩٧هـ. انظر كامل حسين، طائفة الإسماعيلية، ص ٥١-٥٢.

ومع ذلك نحن لا نستبعد ان يكون للآمر أولاد صبيان آخرون فقد اشتهر بكثرة عشيقاته، وبأنه زير نساء، ولا سيما من بين العربيات، وصارت له عيون بالبوادى تبحث عنهن[1]، ويسير بنفسه للبحث عنهن، وكان يبنى لهن استراحات خاصة، يقابلهن فيها، ولا سيما ذلك البناء العجيب الذى يشبه «الهودج»، اقامه فى جزيرة الفسطاط فى النيل، التى عرفت من يومئذ بالروضة أو جزيرة الروضة، بسبب البساتين التى أحاط بها هذا البناء. ويؤيد ذلك أنه توجد رواية ثالثة، تبيّن أن جهة أخرى للآمر، أنجبت بعد وفاته ولداً ذكراً[2] -غير الطيب- فجعلته فى قفه من خوص، وأدخل فى القرافة؛ وخفى أمره على الحافظ حتى كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقطيفة؛ إلا أن الواعظ ابن الجوهرى نم عليه إلى الحافظ، الذى أخذ الصبى وقتله، ونفى ابن الجوهرى إلى دمياط.

ولكن يانساً الذى تولى الوزارة للحافظ ونُعت بناصر الجيوش، ما لبث أن استبد به، وكون لنفسه طائفة من الجند عرفت باسم: «اليانسية». فتخلص منه الحافظ عن طريق طبيب كان يعالجه فى سنة ٥٢٦/١١٣٢[3]، وإن قيل إن يانساً مات موتاً طبيعياً. ولعل الحافظ فى ذلك الوقت أنشأ لنفسه حرساً خاصاً سماه الحافظ[4].

وبعده لم يتخذ عبد المجيد وزراء، واعتمد على نفسه فى تصريف الأمور. ولكن أحد أبنائه واسمه حسن تطلع إلى السيطرة بعد أن أكله الحقد، لأن أباه لم يوله عهده، فعهد فى أول الأمر بولاية العهد لابنه سليمان؛ إلا أنه مات بعد شهرين، فعين بعده ولده أبا تراب حيدرة. وجعل له طائفة خاصة من الجند تعرف: بالعهدية، ولدينا سجل[5] صادر عن الخليفة الحافظ بذلك. فنجح حسن فى السيطرة على الجيش والدولة وكون له طائفة خاصة عرفت: بصبيان الزرد، أى لا بسى الدروع، وقتل أمراء الدولة (القواد)، وصادر أموالهم، وأوقع بين

(١) الخطط، ٢ص ٣٧٦.
(٢) إتعاظ، طوب قبو سراى، ورقة ١٣٦؛ انظر، الشيال، مجموعة الوثائق،١ص ٩٥-٩٦.
(٣) الخطط، ٣ص ٢٥-٢٧.
(٤) صبح، ٣ص ٤٨٢، ٥٠٨.
(٥) نفسه، ٩ص ٣٧٧-٣٧٩؛ انظر، مجموعة الوثائق، ١ص ٢٦٣ وما بعدها، ١٠٣ وما بعدها.

طوائف العسكر بحيث قتل منهم خمسة آلاف، واعتبر المؤرخ المقريزى ذلك[1] أول مصائب الدولة الفاطمية؛ لما ترتب عليه من إضعافها. فأهاج تصرفه المصريين ضده، واجتمع من العسكر عشرة آلاف أمام قصر الخليفة، وطالبوا برأس حسن، فاضطر أبوه أن يدس لابنه طبيباً يهودياً سقاه السم.

فاستوزر عبد المجيد أرمنياً نصرانياً مهاجراً من بلادة اسمه بهرام[2]، ولقبه: سيف الإسلام، تاج الدولة[3]، وذلك في جمادى الآخرة ٥٢٩/ مارس ١١٣٥. وربما كان بهرام جاء ضمن الأرمن الذين بدأوا يفدون إلى مصر من أيام بدر الجمالى وابنه الأفضل، إذ كان كلاهما من الأرمن. وقد تدرج بهرام فى وظائف الدولة الفاطمية، فكان قائداً فى الجيش ثم والياً على الغربية. ولعل الحافظ ظن أنه باستخدام وزير مسيحى؛ فإنه لا يستبد به مثل الوزراء المسلمين. وقد كان اختيار مسيحى كوزير تفويض أمراً لم يحدث من قبل؛ لأن الفقهاء استجازوا أن يتولى المسيحى وزارة التنفيذ، وليس وزارة التفويض، وذلك لأن وزير التفويض يتدخل فى القضاء والدعوة، ولكن الخليفة حل ذلك بأن جعل تولية القضاة والدعاة من جانبه. ولكن بهرام تعصب لجنسه الأرمن وكون جيشاً منهم، بلغ عدده عشرين ألفاً بين فارس وراجل، موضوعة عنهم الجزية، وكانت لهم شوكة[4]، وعين أخاً له اسمه باسك "Vasak" والياً على قوص فى الصعيد، من أهم ولايات مصر، كما أكثر بهرام من بناء الكنائس والديارات[5]. وخوفاً على الإسلام من أن يضيع، عزل عبد المجيد بهرام بمساعدة رجل قوى هو رضوان ابن ولخشى[6](أو الولخشى)، الذى كان بهرام عينه والياً على عسقلان فى الشام، لإبعاده عن مصر - وذلك قبل سقوطها فى أيدى الفرنجة- حتى أن رضوان منع الأرمن من التسرب إلى مصر فاستدعاه بهرام وولاه على الغربية، إلى أن استدعاه

---

(١) الخطط، ٣ص ٢٧ ص ٢٣-٢٤.

(٢) ابن ميسر، ص ٧٨-٧٩؛ صبح، ٦ص ٤٦٠-٤٦٣؛ الخطط، ٢ص ١٧٢-١٧٣؛ انظر.
Un vizir chrétien à l'Epoque fatimite L'Arménien Bahrâm. Ext. des Ann, de : Canard l'Inst. d'Et. t XII . Pariš, 1954, P. 84 sqq.

(٣) النويرى، نهاية، ١٦ ورقة ٥٠؛

Ency. de l'Isl, (art . Bahrâm) 2 éd, t I P 968.

(٤) الروضتين، ١ص ٢٤١؛ ابن أيبك، الدرة المضية، ٦ص ٥١٨.

(٥) أبو صالح، الكنائس، ص ١٦٩ (٨٤).

(٦) الخطط، ٢ص١٧٢، ٣٠٥؛ ابن ميسر، ص٧٩ - ٨١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ٢ ص ٨٦ وهامش.

عبد المجيد لحرب بهرام؛ فحارب رضوان بهرام فى الدلتا، ولما تقارب جيشه مع جيش بهرام، أمر رضوان برفع المصاحف على رءوس الرماح؛ فخرج الجند المسلمون من جيش بهرام واعتزلوه؛ مما تسبب فى هزيمته، وبعدها طارده حتى الصعيد، وحمل على أرمن مصر وأماكن سكناهم. وقد كان أهالى قوص ذبحوا باسك؛ فلما وصلها بهرام انتقم من أهلها لمقتل أخيه؛ وإن اضطر فى النهاية أن يلجأ إلى دير أخميم فى سنة ٥٣٣/١١٣٩؛ وربما يكون هروبه إلى الصعيد بقصد الاستعانة والاتصال بالنوبة أو الحبشة المسيحيتين[1]. ولكن بعد ذلك عفا الحافظ عن بهرام، نتيجة لتدخل ملك صِقلّيّة النورمانى راجار[2] "Roger II"؛ حيث سار النورمان على سياسة التقرب من المسلمين. فجعل الحافظ بهرام يقيم فى قصره، وكان يستشيره فى أمور السياسة، دون أن يسند إليه الوزارة. ولما توفى بهرام فى ٢٤/ ربيع الثانى٥٣٥/ ٧ ديسمبر ١١٤٠، سار الخليفة فى جنازته وبكى عليه.

وقد استوزر عبد المجيد رضوان[3] المذكور منذ سنة ٥٣١/١١٣٦، ولكن هذا الوزير أعاد إلى الخليفة الفاطمى سيرة الوزراء المستبدين السابقين، وفاقهم فهو لم يكتف بالألقاب القديمة، ولا خصائصها التى تدل عليها للدلالة على نفوذه الواسع، بل أضاف إلى بقية الألقاب لقب: ملك. ومنذ ذلك الحين والوزراء من بعده يتلقبون به، فكان يتلقب: بالسيد، الأجل، الملك، الأفضل. ثم فسد ما بين رضوان وعبد المجيد؛ إذ حجر عليه وسلك طريق الوزراء المستبدين، فدس عليه عبد المجيد من قتله فى ٥٤٢/١١٤٧، ولم يستوزر بعده أحداً، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات. ولكن فى عام ٥٤٣/١١٤٨ ظهر له رجل من ولد نزار يطالب بالخلافة؛ فقاتله الحافظ وهزمه. وقد استمرت خلافة الحافظ عشرين سنة، وهو فى أغلبها لم يزل محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه[4].

*

---

(١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٨٧.

(٢) صبح، ٦ص ٤٥٨ – ٤٦٣؛ انظر . Canard :
Une lettre du calife fatimite al - Hâfiz.. à Roger II. Atti del Convegno Intern. de Studi Ruggeriani. Palerme, 1955, 125 - 46.

(٣) الخطط، ٢ص ١٧٢ – ١٧٣؛ النجوم، ٥ص ٢٨١.

(٤) الكامل، ٩ ص ٢٤

ولكن موت عبد المجيد كان فرصة لظهور أطماع وزراء جدد، وخصوصا أنه كان له ثمانية أولاد ذكور؛ فنجد أحد كبار رجال الدولة واسمه أبو الفتح محمد بن مصال، وكان من المغاربة وحارب مع نزار كما ذكرنا، وهرب بعد هزيمته، ثم عفا عنه الأفضل وقرّبه، ادعى أن عبد المجيد كان قد نص على ابنه الصغير إسماعيل من دون بقية أولاده، وأنه عينه وزيراً له. وبذلك أعلن خلافة إسماعيل باسم: الظافر لدين الله[1]، وكان عمره سبع عشرة سنة.

فنافسه والٍ على الإسكندرية والبحيرة اسمه عليّ بن السلار[2] من أصل كردي، استولى على الوزارة، وتلقّب بالملك العادل في سنة ٥٤٤/ ١١٥٠، أثناء أن كان ابن مصال في طلب إحدى العصابات، وأرسل ولد زوجته المسمى عباساً فقتله، ولم يكن ابن مصال قد مكث في الوزارة أكثر من خمسين يوماً.[3] ولكي يبقى ابن السلار على نفوذه أخذ في قتل كل من اعترض على وزارته من أعيان المصريين وقواد الجيش، إذ لم يكن للخليفة الظافر معه حكم .وزاد الطين بلة، أن ابن السلار لم يكن شيعياً، بل تظاهر بالتسنن على مذهب الشافعي؛ حتى أنه لما وصل أبو طاهر أحمد السلفي إلى الإسكندرية، واتخذها دار مقامه، احتفى به ابن السلار، وعمّر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه.

وما لبث أن ظهر لابن السلار، منافس جديد في شخص عباس[4] ولد زوجته، الذي جاء هارباً إلى الديار المصرية مع أبيه، من أخيه ملك إفريقية الزيري. فتزوج ابن السلار أم عباس واسمها بُلارة، بعد موت زوجها، وعاش عباس وابنه نصر في القصر، ثم عين عباس قائدا لحامية عَسْقلان على الساحل السوري. ولكن عباساً طمع في الوزارة، وقبل رحيله حرض ابنه نصراً على قتل ابن السلار؛ حيث دبر مؤامرة اشترك فيها أسامة بن منقذ[5](ت٥٨٤/١١٨٨)- صاحب

(١) النجوم ، ٥ص ٢٤٥ . عن الظافر: وفيات، ١ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) الكامل ، ٩ص ٢٤ - ٢٥، عن ابن السلار: وفيات، ١ص ٦٦ - ٧٧؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art. al, 'Adil b. al- Salâr)) 2 éd, t I, P. 9.

سلار هو القائد.

(٣) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٦ .

(٤) ابن ميسر، ص ٨٩ - ٩٠، ٩٢ - ٩٥ ؛ الخطط، ٣ص ٩٨-٩٠؛ العبر، ٤ص ٧٤ وما بعدها؛ انظر.

Fncy. de l'Isl, (art. ' Abbâs b. Abî - Futûh) 2 éd, t I, P. 9

هو عباس بن أبو الفتوح يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس الصنهاجي.

(٥) أسامه بن منقذ، ص ١٣ - ١٤

التصانيف المعروفة- الذى كان خصيصاً بعباس. فأخذ هذا الأخير موافقة الخليفة، الذى كان يكره ابن السلار؛ لأنه كان سنياً، ولأنه اتصل بنور الدين السلجوقى، حتى أن الخليفة كان هو الآخر قد دبر مؤامرة لقتله ففشلت[1]، ولكن ابن نصر تمكن من قتل ابن السلار فى ١٦ المحرم ١٣/٥٤٨ إبريل ١١٥٣، وعاد عباس سريعاً إلى القاهرة لتولى الوزارة بدل ابن السلار، بناء على رسالة أرسلها له ابنه نصر بالحمام الزاجل. فدخل عباس القاهرة وتقلد الوزارة، وخلع عليه الخليفة وتسمى بالمظفر[2]، ولكى ينسى عباس المصريين إساءة ابن السلار أحسن إلى الأمراء المصريين. وبذلك انتهت وزارة ابن السلار، التى امتدت حوالى خمس سنوات.

والذى يدل على هوان خلفاء الفاطميين، واستبداد الوزراء، أن نصر ابن العباس قد عرف بجرأته على الخليفة الظافر، الذى تروى المصادر السنية عنه أنه كان يميل إلى مخالطة الصبيان. ويبدو أن نصراً خالطه، فخاف عباس أن يؤدى ذلك إلى قتلهما، وكان دائم اللوم له، فحرض ابنه على قتل الخليفة فى آخر المحرم ١٦/٥٤٩ ابريل ١١٥٤، ورمى بجثته فى بئر، وادعى أن من قتله هما أخواه يوسف وجبريل، حسداً له على تولية الخلافة من دونهما، وقتلهما؛ حتى أن أحد رجاله شق بطن جبريل يجذب مصارينه، أما عن يوسف؛ فقد قطع عباس رأسه بنفسه، ووضعه تحت إبطه ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف، والدم يفور منه وربما يكون الظافر أراد أن يتخلص من عباس- مثلما فعل مع ابن السلار، لأنه هو الآخر لم يكن شيعياً مخلصاً[3] -فحرض نصراً على قتل أبيه، مما دعا عباس إلى تدبير مؤامرة لقتل الظافر عن طريق ابنه. فيورد ابن القطان[4] تفاصيل عن قتل الظافر: فقد قال نصر للظافر: بنيت داراً وأريد أن أعمل فيها طعاماً، فعسى أن تشرفنى وتكون أنت أول من يأكل طعامى فيها، فلما دخل الظافر فى دار نصر، قتله عباس ودفنه.

---

(١) نفسه، ص ٦ - ٧ .

(٢) ابن أيبك، الدرة، ٦ص ٥٠٧ .

(٣) بعد هربه دعا لبنى العباس وخلع العبيدية . نظم الجمان، ص ٢٣٩.

(٤) نفسه، ص ٢٣٧-٢٣٨.

وعلى كل حال، أظهر عباس الكآبة لموت الخليفة، وأخرج عيسى ابن الظافر، وكان طفلا لا يتجاوز عمره ثلاث سنين، وأجلسه على سرير الملك، ليعلنه خليفة، باسم الفائز لنصر الله[1]. ولما لم يكن القتيلان يوسف وجبريل قد رفعا بعد، فزع الطفل لرؤيتهما، وأصيب بخلل في عقله، ظل ملازماً له طول مدة خلافته، التي لم تدم أكثر من ست سنين. ولكن الجند وأهل القاهرة ثاروا، واستكثروا أن يقتل أحد من عترة النبي، وخصوصاً أن الحقيقة ما لبثت أن عرفت، فكان الناس يلقون على عباس وابنه الحجارة، حتى فكر عباس في حرق القاهرة. وأخيراً اضطر عباس وابنه إلى الهرب إلى الشام، ولكن الفرنجة الذين اجتاحوا الشام- كما سنبين- أوقعوا بهما، فقتلوا عباساً، أما ابنه فأرسل إلى مصر في قفص من حديد، ولدينا سجل بوصوله إلى القاهرة[2]، ولكي يموت صريع قباقيب نساء الظافر[3]، في ربيع الثاني ٥٥٠/يونيو-يوليو١١٥٤.

في الوقت ذاته، ظهر طامع جديد في الوزارة يهفو للسيطرة، وهو طلائع ابن رزيك(ت ٥٥٦/١١٦١)[4] والي الأشمونين[5]، لعله من أصل عراقي، الذي زحف على القاهرة. وقد أظهر طلائع الحزن لموت الظافر، وأخرج جثته من البئر، التي ألقي فيها، وجعلها في تابوت، ومشى وراءها حافياً مكشوف الرأس، ثم أقام نفسه وزيراً للفائز، وتلقّب بالملك الصالح فارس المسلمين، أخرج له سجل[6] في غاية الطول، لم يكتب له مثيل منذ بدر.

ولكن طلائع بن رزيك، الذي بهرته أضواء الحكم استبد بدوره، وكون لنفسه فرقة خاصة جلب أفرادها من برقة، فعرفت باسم البرقية، لتكون طوع

---

(١) عنه: وفيات، ٢ص ١٢١-١٢٣.

(٢) يوجد في Brit,. Mus. Suppl 1140 fol 67. ؛

Ency. de l'Isl, 2 éd t I, P. 9.

(٣) أسامه بن منقذ، ص ١٩-٢٠. يقول ابن القطان قرض لحمه بالمقاريض، وأحرق بالنار. نظم الجمان، ص ٢٤٠.

(٤) الخطط، ٤ص ٨١-٨٣؛ وفيات، ١ص ٤٢٦ وما بعدها.

(٥) الخطط، ٣ص ٩٠س ١٢.

(٦) حسن المحاضرة، ٢ص ١٢٨-١٣٣؛ انظر. مجموعة الوثائق، ١ص ٣٢٧ وما بعدها.

إرادته. وقد أخذ في قتل كبار قواد مصر، وأفنى ذوى الرأى فيها، حتى فر عدد كبير من أهل البلاد وأعيانها إلى الحجاز واليمن، وفعل ذلك خوفاً من أن يثوروا عليه أو ينازعوه الوزارة. ولما استولى على البلاد عين في جميع ولاياتها اتباعه، وباعها بأسعار معينة، وكان يغيرهم كل ستة أشهر. ويبدو أنه خرج عليه والى قُوص الذى عينه واسمه ناصر الدولة[1]، فقبض عليه واعتقله، حيث توفى بالسجن.

فلما مات الفائز ادعى طلائع أنه نص على ابن عمه العاضد، الذى كان أبوه يوسف أحد الاخوين اللذين قتلهما عباس، فتولى العاضد الخلافة في ١٧ رجب ٥٥٥/ ٢٣ يوليو ١١٦٠، وعمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة، وزوجه ابنته[2]؛ ليبقى على زمام السلطة في يده، وذكر الحجج ذاتها التى قيلت عند تولية الحافظ ابن عم الآمر، وله كتاب اسمه: الاعتماد في الرد على أهل العناد[3]، وعمل على الاستبداد به، حتى قال ابن تغرى بردى عن طلائع: إنه أقامه صورة[4]. ولدينا ما يؤكد أن الفائز لم ينص للعاضد بولاية العهد؛ حيث كان الفائز صغير السن. ولكن استبداده الشديد بالخليفة الجديد وأهله، أثار الدسائس ضده، مما أدى إلى قتله على يد أمراء المصريين- أى قوادهم- بتحريض عمة العاضد، فعمل على قتلها بعد أن أرسلها إليه العاضد بناء على طلبه، وتمكن من ذلك قبل موته في ١٩ رمضان ٥٥٦/ ١١ سبتمبر ١١٦١[5].

ومع ذلك، فإن ابن طلائع واسمه رزيك[6]، الذى كان قد تولى تقدمة الجيش في وزارة أبيه. وأجبر العاضد على أن يفوض إليه الوزارة مثل أبيه، وأخذ لنفسه لقب الملك العادل، ولكن ظهر له منافس في شخص والى قُوص- وهى عاصمة الصعيد التى جاء منها طلائع- واسمه أبو شجاع شاور[7]، فذهب شاور إلى

(١) الخطط، ٢ص ٨١.

(٢) الكامل، ٩ص ٦٨. عن العاضد:

Ency de l'Isl, (art. al Adid li-Dînî Allah) 2 éd. tI, P. 202-203.

(٣) انظر، هريدى، فهرست، (حوليات المعهد الفرنسى) ص ٦٩.

(٤) النجوم، ٥ص ٣٢٨ س ٢.

(٥) انظر تفاصيل ذلك في: الكامل، ٩ص ٧٥.

(٦) صبح الأعشى، ١٠ص ٢٢٥-٢٣٧.

(٧) وفيات، ١ص ٣٩٣ وما بعدها؛ النجوم، ٥ص ٣٤٦.

القاهرة فى ربيع الأول ٥٥٨/ فبراير ١١٦٣، فهرب رزيك إلى أطفيح وأسر هناك، وحمل إلى مصر ليقتله طيئ بن شاور، وكان هو الآخر له طموح أبيه.

ولكن أحد اتباع رزيك واسمه أبو الأشبال ضرغام[1]، كان رئيساً لفرقة جند طلائع الخاصة المعروفة بالبرقية، أتى إلى القاهرة من الصعيد أو من مصر ليثأر لمقتل رزيك، ويتمكن من قتل ولد شاور الأكبر طيئ، ويهرب شاور الذى خذله أهل القاهرة لبغضهم له إلى الشام، ليستعين بالسلاجقة (أو الغزّ)، ويتولى ضرغام وزارة العاضد، ويتلقّب بالملك المنصور. وعلى العموم كان هروب شاور إلى الشام والتجاؤه إلى سلاجقة الشام، سبباً فى ربط تاريخ الفاطميين إلى وقت سقوط دولتهم، بعجلة السلاجقة.

* * *

كل هذه الكوارث من مجاعات وثورات للجند واستبداد بالسلطة الداخلية مهّد لسقوط دولة الفاطميين.

---

(١) الخطط، ٣ص ١٨-٢٠؛ عمارة، النكت العصرية، ص ٦٧، ٧٨، ٨٨.


الفصل السابع
سقوط الدولة الفاطمية
خطر الفرنجة
الداهم على الشام ومصر-
موقف الأتابكيات السلجوقية فى الشام-
سعى أتابكية نور الدين للاستيلاء
على مصر وحملات شيركوه-
إلغاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية-
ثورات المصريين

هذه الكوارث التى أحاطت بالخلافة الفاطمية فى الداخل أضعفتها وشغلتها عما يحيط بها من الأخطار؛ بحيث لم تستطع أن تصمد أمام التدخل الخارجي، الذى كان يتربص بها ويريد الانقضاض عليها، وتسبب فى النهاية فى إسقاطها ومحو رسمها. فقد حدث خطر داهم على الشام، ليس هذه المرة كما تعود الفاطميون من قبل الروم، الذين حاربوهم بشدة فى جولات متعددة، وأوقفوا خطرهم نهائياً، وأجبروهم على عقد الهدنة، ولكن من قبل أهل أوروبا، الذين عرفوا للعرب باسم[1]: الفرنجة أو الأفرنج أو الفرنج "Frankos"؛ نسبة إلى أمة عرفت بهذا الاسم فى أوربا، فأطلقه العرب على كل أمم أوربا عموماً.

فهذه الأمم الأوربية، كانت فى أصل نشأتها عبارة عن قبائل وثنية عديدة[2]، وصفت بأنها ذات السن كثيرة، وتعيش عيشة القبائل الهمجية "Barbaros" وكانت تهاجم الإمبراطورية الرومانية، التى تحمل مشعل الحضارة وقتئذ. ولما انتشرت المسيحية ووصلت إلى رومة، كانت كنيستها سباقة إلى المسيحية، فكان تحولهم إليها سبباً فى تقويتها؛ بحيث استطاعت هذه الكنيسة أن تقف نداً للكرسى البطريركى فى القسطنطينية، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب: «البابا»، بعد أن كان هذا اللقب لكرسى الإسكندرية[3]، وانفصلت عن كرسى القسطنطينية، فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى؛ ولا سيما أن اعتقاد رؤسائها يخالف اعتقاد بيزنطة. وحينما ضعفت بيزنطة كانت البابوية فى رومة تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة على جميع أمم فرنجة أوربا؛ بحيث إن من خالف البابا، كان يعتبر خاطئاً عاصياً، يستحق النفى والطرد والقتل، ويحرم من حقوق المسيحى وأكله وشربه، والزواج من النصرانيات، فكان سلطان البابا قوياً لا يمكن لأحد مخالفته[4]. ومن ناحية أخرى كان تحول هذه الأمم إلى المسيحية،

---

(١) معجم البلدان، ١ص ٢٩٩-٣٠٠. يقول إنهم نسبة إلى جد اسمه افرنجش.

(٢) ابن صاعد الأندلسى، طبقات الأمم، ص ٦٤.

(٣) سعيد بن بطريق، ١ص ٩٦؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٥.

(٤) معجم البلدان، ٤ص ٣٣١-٣٣٢.

مساعداً على ظهور مماليك قوية فى أوربا، صارت منافسة خطيرة لدولة الروم فى ميدان الزعامة على المسيحيين.

ومع أن أغلب هذه الأمم من الفرنجة لم يكن الإسلام قد عاداها فيما عدا فرنسا، التى أغار عليها المسلمون وهاجموا أراضيها وسواحلها، فى عهد الأمويين والعباسيين[١]، وهى البلاد التى جاورت بلادهم فى الأندلس، وعرفت لهم باسم: افرانسة أو افرنجة العظمى[٢]؛ لأنها كانت على الخصوص موطن أمم الفرنجة أو الفرنج، إلا أنه حينما دعت أوربا إلى حرب المسلمين، أصبحت أممها جميعاً من أشد أعداء الإسلام،واتسع نطاق الصراع، واتخذ شكل حرب عالمية؛ بحيث أصبحت حرب المسيحيين بقصد استعادة الأندلس، وغزوهم فى الشرق الأوسط حركة واحدة[٣].

ويبدو أن السبب الرئيسى فى عداء أهل أوربا للمسلمين فى الشرق الأوسط هو الحج المسيحى إلى الأماكن المتصلة بذكريات المسيحية فى مدينة القدس أو بيت المقدس أو ما عرف بإيلياء أو بأورشليم بفلسطين وهى جميعا تعنى القداسة والطهارة أو بيت الله[٤]. ويدعونا هذا إلى أن نتكلم عن الحج المسيحى، فليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة للحج، أو أنه فرض دينى كما هو عند المسلمين. ولكن يظهر أنه بدأت تظهر له عقائد بقيام الدولة البيزنطية– وهم الروم– التى ورثت الرومان فى الشرق، وأخذت بدين المسيح ودانت بتعظيمه فيرى المؤرخون –ومنهم الغرب– أن هيلانة "Helena" ،أم قسطنطين "Constantinus" أول امبراطور لهذه الدولة المسيحية ارتحلت إلى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح، فأخبرها القساوسة ومنهم الأسقف مقار Maximus بأنه رمى بخشبته على الأرض، وألقيت عليها القمامة والقاذورات،

---

(١) الكامل، ٥ص ١٠٢.

(٢) معجم البلدان، ص ٢٩٩–٣٢٢.

(٣) ابن صاعد، ص ٤. عن غزواتها الأولى، انظر. كتابنا: التاريخ السياسى، الجزء الثانى.

(٤) انظر Grousset ؛

L'épopée des Croisades. Paris, 1939, P. 8-9:

فاستخرجت الخشبة وبنت مكانها كنيسة، عرفت باسم كنيسة القيامة كأنها على قبره أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة، ثم بنى البيزنطيون فى بيت لحم المجاور للقدس كنيسة على المكان الذى ولد فيه المسيح[1]، فكان النصارى من جميع البقاع يذهبون لزيارة هذه الأماكن المقدسة، وأن الحج إليها تكفير نهائى للذنوب[2].

ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين، نجد أن بطريرك بيت المقدس اليونانى، واسمه صفرينوس "Sophronius" يصمم على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب نفسه، على أن يمنح النصارى الأمان لديهم ولكنائسهم فقبل الخليفة وقدم إلى فلسطين فى سنة ٦٣٨/١٧، وهو راكب بعيراً أحمر، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء، ودخل القدس التى سلمها إليه البطريرك ومنح أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود، وامتنع من أن يصلى فى كنيسة القيامة، حتى لا يحولها المسلمون إلى مصلى[4]. وقد كان تسامح خلفاء المسلمين سبباً فى استمرار الحج المسيحى، وأثبت المسلمون أنهم غير متعصبين؛ بحيث أن مؤرخى أوربا وحدهم أوردوا أن الخليفة العباسى هارون الرشيد(١٧٠-١٩٠/٧٨٦-٨٠٩)، جعل لإمبراطور الفرنجة فى أوربا شرلمان الإشراف المعنوى على بيت المقدس، وأرسل له جملة هدايا منها مفاتيح كنيسة القيامة[5]. ولهذا ازداد اهتمام النصرانية فى أوربا بالحج إلى بيت المقدس، وبدأت تظهر تقاليده بينهم، كما ظهرت بين مسيحيى الشرق؛ بحيث إنهم بنوا لهم فى بيت المقدس نزلاً وأديرة.

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى مصر، واستولوا على الشام من العباسيين؛ نجد أن الخليفة العزيز الفاطمى(٣٦٠-٣٨٦/ ٩٧٠-٩٩٦)، يصاهر

---

(١) معجم البلدان، ١ص ٣٩٢-٣٩٤، ٨ص ١١٠ وما بعدها؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art. Kuds) t2, P. 1158 sqq.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.

(٣) انظر. Alphandéry et Dupont :
La chrétienté et l'idée de croisades. Paris, 1954, P. 10.;
Maraval ,Lieux saint et pélerinage d' Orient: Histoire et géographie. Des origines à la conquête arabe. Paris, 1985.

(٤) سعيد بن بطريق، ٢ص ١٧؛ اليعقوبى، تاريخ، ص ١٦٧-١٦٨.

(٥) لا يرد ذكر لهذا الاتصال فى المصادر العربية.

بطريرك بيت المقدس[1]، وهو لم يكن متسامحاً فقط مع النصارى بل ومع اليهود[2] الذين يأتون لزيارتها. حقاً إن الخليفة الفاطمي الذى أتى بعد العزيز وهو الحاكم (٣٨٦-٤١١/٩٩٦-١٠٢٠)، اظهر تعصباً: فمنع النصارى فى بيت المقدس من الاحتفال بأعيادهم[3]، وهدم كنيسة القيامة المقدسة وغيرها من الأماكن الدينية، بما فيها اديرة للنساء[4]، وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة «الغيار»؛ لإظهار عزة الإسلام، بلبس ثياب سوداء أو تعليق الصليب وإبرازه[5]، مما أدى بنصارى بيت المقدس من غير العرب إلى الهجرة إلى بلاد الروم[6]، وتوقف الزيارات. وقد أثار هذا التصرف غضب النصرانية عموماً، حتى أن البابا بنوا الثامن "Benoi VIII" ، قام بالدعوة لحرب المسلمين فى ٤٠٧/١٠١٦، إلا أن الخليفة الحاكم عاد إلى حسن معاملة النصارى، وأمر باعادة بناء الكنائس، ومن بينها كنيسة القيامة المقدسة[7]. يضاف إلى ذلك أن ملك الروم ربما لم يوافق على حرب المسلمين؛ خوفاً من أن يسعى البابا إلى إعادة الكنيسة المنشقة إلى حوزته، ولأنه كان قد عقد الصلح مع الفاطميين. ويبدو أن الحاكم فعل ذلك، ليس بقصد وقف حج النصارى ولكن لينتقم من الروم الذين تكررت هجوماتهم فى الشام كما ذكرنا، بحجة حماية هذه الكنيسة.

ولما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين فى الشام، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس، وتوقفت الزيارات إليه، لأنهم حينما عملوا على فتحه من يد الفاطميين كما ذكرنا؛ حيث هاجمه القائد التركى المسمى اتسز أو الأقسيس، من قبل تُتُش اخى السلطان ملكشاه فى سنة ٤٦٣/١٠٧٠و٤٦٩/١٠٧٦، ونهبه وقتل كثيراً من أهله. فكان الحجاج فى الأراضى المقدسة القادمون من أوربا يتحملون اشد

(١) يحيى الأنطاكى (فى P.O. t 23) ص ٤١٥ [٣٠٧].
(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٢٠.
(٣) يحيى الأنطاكى، (P.O.)ص ٤٨٧ (٣٧٩).
(٤) نفسه، ص ٤٩١-٤٩٢ (٢٨٣-٢٨٤).
(٥) نفسه، ص ٥١٠ (٣٠٢).
(٦) نفسه، ص ٥١٩ (٣١١)؛ انظر . أسد رستم، الروم، ٢ص ٦٤
(٧) وفيات، ٢ص ٦

الفظائع على أيدى السلاجقة. ولكن -تتش غضب على أتسز وقتله، ربما بسبب ذلك، وولى غيره واسمه سكمان أو سقمان(١). ثم أن الفاطميين عادوا بعسكر من مصر، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة بقيادة وزيرهم الأفضل فى سنة ١٠٩٦/٤٨٩، بمعاونة أهله؛ وأنابوا فيه رجلا عرف بافتخار الدولة(٢)، ومعه حامية مصرية، بقيت إلى وقت غزو الفرنجة لفلسطين.

ومهما يكن، فإن فرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين فى الشرق، فنجد أن البابا إربانوس الثانى(إربان) "Urbanus II" (١٠٨٨-١٠٩٩م)، يكلف رجل الدين الفرنسى بطرس الراهب "Pierre L'Ermite" بالدعوة إلى حرب المسلمين، لتخليص الأماكن المقدسة. وهكذا خرجت الدعوة من فرنسا لحرب المسلمين إذ أنها لم تكن قد نسيت غارات المسلمين فى أراضيها، وأنها هى التى دافعت عن المسيحية فى الموقعة المعروفة عند المسلمين باسم بلاط الشهداء، لكثرة ما سقط من قتلى المسلمين، بما فيهم قائدهم عبد الرحمن الغافقى فى سنة ٧٣٢/١١٤(٣). فعقد البابا فى كليرمون فران "Clermont Ferrand" -أكلرمنت- بجنوب فرنسا، مؤتمرا اجتمع فيه الفرنجة من جميع أركان أوربا، خطب فيه كل من البابا وبطرس حاضين على حرب المسلمين، فقال البابا فى خطابه: «إنه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب فى طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم»، وقال بطرس الراهب: «إنى نظرت قبر المسيح محتقراً مهاناً وزواره مضطهدين». فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون « الله يريد ذلك» "Dieu le veut" "Dieux le volt"، وهى العبارة التى أصبحت صرخة المسيحية فى حرب

---

(١) الكامل، ٨ص ١١٠، ١٣٣، ١٣٦. ينفى كثير من المؤرخين، من بينهم نصارى، تعصب السلاجقة ضد النصارى، فمثلا كانوا يعفون كنائسهم من الضرائب. أنظر.

Chronique de Mathieu d'Edesse, continuée par Grégoire le prêtre, trad. Dulaurier. Paris, 1858, PP. 156; 201;

Les Souverains Seldjoukides et leur Sujets non,: Osman Turan. Musumalns Stvdia. Islamica. Paris, 1953 P. 65-100.

(٢) الكامل، ٨ص ١٨٩.

(٣) أنظر ماورد فى كتابنا التاريخ السياسى للدولة العربية، ٢ص ٣٠٦.

المسلمين[1] فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين، وهم يعلقون على الكف الأيمن أو على الكتفين صليباً من قماش أحمر[2] "Crux" ، لذلك عرفت الحروب التى قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية "Cruzada" ، أو ما يسميه الأوربيون فى لغتهم الفرنسية: "Croisades"، والإنجليزية "Crusades"، أما المؤرخون العرب مثل ابن تغرى بردى فسموها بحركة الفرنج[3]، أما المشتركون فيها فسماهم العرب الفرنجة، ويقصدون بهم كل محارب مسيحى غير عربى.

وقد اشترك فى أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاءوا من كل مكان من أوربا، يقودهم بطرس الراهب، حيث تحركوا بجموعهم الحاشدة عبر وسط أوربا. ويصف لنا المؤرخون اليونان[4] وغيرهم: هذه الموجة بأنها، تتكون من الأفاقين والمشردين، الذين لا يستحقون زيارة قبر المسيح، فهم لكى يحصلوا على ما يمسك رمقهم كانوا يسلبون وينهبون. فلما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية فى ١٠٩٦/٤٨٩، أسرع ملكها الكسيوس كومنينوس "Alexius Comnenus" ، بترحيلهم إلى آسيا الصغرى، لمحاربة الترك السلاجقة، الذين كانوا انساحوا فيها بعد موقعة بلاد كرد. وقد انتصر الترك السلاجقة على افراد هذه الموجة الصليبية، وأحرقوا من هرب منهم فى الغابات أو ألقوا بهم فى البحر، واضطر بطرس الراهب قائدهم إلى النجاة بنفسه.

وفى الوقت ذاته، قامت تجمعات أخرى كبيرة، معظمها من فرسان

---

(١) انظر. Gesta Francorum, transl. Somerset, P. II،
(وهى من مؤلف مجهول معاصر)،
R. H. G. occ. t.v . 2 e, P. 6634;
؛ انظر، مكسيموس، تاريخ الحروب المقدسة، ١ص ١٠ وما بعدها.
(٢) انظر. Gesta, P. 12, 15.
(٣) النجوم، ٥ص ١٤٦.
(٤) انظر. Gesta, P. 12-15.
(٥) انظر. Ibid P. 14 sqq. ؛ وأيضاً ما أورده الكامل: ٨ص ١٨٥ وما بعدها.

الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة[٥]، ولذا كان خطرها شديداً على المسلمين. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة، مثل: الأخوين الفرنسيين جودفروا الملقب دى بويون "Godefroi de Bouillon"–ويسميه العرب فى كتبهم كندفرى أو كندهرى– وبودوان "Baudouin" ويسمونه بغدوين أو بردويل– والنورمانى بوهمند "Bohemond" – ويسمونه بيمنت أو بيمند[١].

وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوربا، والبعض عن طريق سهول إيطاليا الشمالية، فلما وصل الجزء الأكبر إلى القسطنطينية فى ٤٩٠/١٠٩٧، ليعبروا بحر مرمرة– أو ما سماه العرب « بالخليج» أو « المجاز»[٢]– إلى بلاد الترك السلاجقة؛ فإن ملكها ألكسيوس أرسل معهم جيشه، ليشارك فى قتال المسلمين.

وقد تمكن الفرنجة والروم من إحراز أول نصر لهم على الترك السلاجقة. فى موقعة نِيقية أو أنيَقية[٣]، بلدة من أعمال اسطنبول، وإن سلّم هؤلاء المدينة لملك بيزنطة، دون الفرنجة. ثم أقبلوا على حصار انْطاكيَة فى جمادى الأولى ٤٩١/مارس ١٠٩٨[٤]، فلما دخلوها نهبوا معظم أهلها، مع ما بذله السلاجقة والعرب فى الدفاع عنها. وكان الصليبيون قد اتفقوا مع ألكسيوس على أن تسلم إليه انطاكية؛ إلا أنهم سلموها لبوهمند النورمانى، مما أغضب ألكسيوس وانفصل عن الصليبيين، فلم يشاركهم بقية حملتهم، بل هدد بأخذ أنطاكَية بالقوة[٥] وبعدها سار قسم من الصليبيين فى بلاد الجزيرة واستولوا على مدن عديدة منها الرّها[٦]، المسماة أيضاً أُرفة، ولليونان إديسا "Edessa" ، وهى المدينة المسيحية الذائعة الصيت، الواقعة بين الموصل والشام؛ وإن تمكن السلاجقة من وقف تقدمهم إلى بغداد. كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى شمال الشام،

---

(١) مما أورده مؤرخو العرب. مثلاً: الكامل، ٨ص ١٨٧ س ٩–١٠.

(٢) عنها: معجم البلدان، ٣ص ٤٦٠، ص ٣٢٨.

(٣) انظر. Gesta, P. 21-24 ؛ النجوم، ٥ص ١٤٦؛ معجم البلدان، ٨ص ٣٦٠؛ Ency. de l'Isl, (art Iznik) t 2, P. 606. يقول ابن الأثير قونية وغيرها: الكامل، ٨ص ١٨٦.

(٤) انظر. Gesta P. 34 sqq.

(٥) انظر. Ibid, P. 71-74.

(٦) النجوم، ٥ص ١٧٨–١٧٩. لعلها قد فتحت فى سنة ٤٩٤/١١٠١. الكامل، ٨ص ٢٠٤. عنها: معجم البلدان، ٤ص ٣٤٠–٣٤١؛ انظر Ency de l'Isl (art. Orfa) t3, P. 1062.

وكانوا يمشون على شط البحر، وتأتيهم المراكب الإيطالية ولا سيما الجنوية، الذين كانت بيدهم التجارة مع الشرق[1]، بالذخائر والرجال[2]؛ فكانت موانى الشام العليا ومدنها تسلم إليهم بدون مقاومة. وقد استعمل الصليبيون منتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان[3]؛ قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة الف، وأخذوا من كان حياً لبيعه.

وقد كانت جميع هذه الانتصارات الأوربية على حساب السلاجقة، الذين كما ذكرنا انساحوا فى آسيا الصغرى وفى بلاد الجزيرة وفى أعالى الشام، حتى دمشق. فقد انقسمت دولتهم بعد ملكشاه إلى أجزاء متناثرة، بسبب تنافس أبنائه على السلطة. وزاد من الانقسام أن ملوك السلاجقة كانوا يكفلون تربية أولادهم إلى أوصياء، عرفوا بالأتابكة. وهى كلمة-جمع أتابك[4]- مركبة من كلمة أتا بمعنى أب، بك بمعنى أمير، أى الذى يربى أولاد الأمراء، فكان الأتابكة يستحوذون على السلطة من دون الأمراء، ويتنافسون أيضاً فيما بينهم. فحين توفى ملكشاه، تقاسم السلطة أولاده الأربعة[5]، ومعهم أتابكتهم فى العراق والجزيرة وإيران وخراسان، وفى آسيا الصغرى وجدت قبائل تركية متشاحنة، وبخاصة الروم السلاجقة، الذين كونوا فيها إمارة قوية. وفى أعالى الشام ، كان أبناء تُتش أخى ملكشاه وواليه على الشام، يتنافسون وأتابكتهم على السيطرة فى أعالى الشام[6]. بمعنى آخر أن دولة السلاجقة المتحدة فى عهد ملكشاه أصبحت بعده دولة ممزقة، يتنازع أفرادها السلطة؛ مما سهل دخول الصليبيين إلى بلاد الشام.

*

وفى الواقع إن الضربة التالية وجهت إلى أملاك الفاطميين، الذين بقيت لهم السيطرة على بعض مدن الساحل، فضلا عن أنهم كانهم استردوا بيت المقدس

(١) انظر.الكنانى، العلاقات مع جنوه والشرق الأدنى، الإسكندرية، ١٩٨١.

(٢) انظر. Gesta, P. 81 ؛ مكسيموس، ١ص ١٥٠.

(٣) انظر. Gesta P. 81. ؛ الكامل، ٨ص ١٨٧-١٨٨.

(٤) وفيات، ١ص ٣٤٤؛ انظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٥) آل سلجوق، ص ٧٦. هم بركيارق ومحمود ومحمد وسنجر.

(٦) الكامل، ٨ص ١٨٤؛ النجوم، ٥ص ١٥٥.

من السلاجقة. ويظهر أن الفاطميين الضعاف فى مصر أرادوا أن يوقفوا زحف الصليبيين نحو أملاكهم فى الشام، بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم، بالدخول معهم فى مفاوضات أو أن وجودفرا الصليبى جاء إلى مصر وتفاوض معهم. ولا نصدق ما قيل من أنهم هم الذين استدعوهم إلى الشام ليستعينوا بهم ضد السلاجقة؛ فالفاطميون كانوا دائما حماة الإسلام كما رأينا، وابن الأثير المؤرخ صاحب هذه الرواية يتشكك فيها، ويقول: «والله اعلم»[1]. ولدينا سجلات عديدة بتقليد وتولية أمراء مصر الجهاد ضد الصليبيين[2]؛ كما انهم اكثروا من الجند صبيان الحجر[3] من أولاد الناس، ليتعلموا الفنون الحربية، ويكونوا مستعدين للقتال عند أول إشارة. فهم إذن لم يقفوا من غزو الصليبيين موقف الحياد أو المشاهد لحربهم ضد السلاجقة، مع أن هؤلاء عادوهم وغزوهم فى مصر.

ولكن الحجاج النصارى كان هدفهم بيت المقدس، الذى كان بأيدى الفاطميين فحاصروه بعدد قبيل المليون (ألف ألف)، بين فارس ومشاه[4]، وضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات، ودافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة أربعين يوما[5]: فكانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من بروج الحوائط عن تسليم أنفسهم. ولما تمكن الصليبيون من دخول المدينة فى شعبان سنة ٤٩٢/يونية ١٠٩٩، ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال، وإن تمكن قائد الفاطميين افتخار الدولة وبعض القواد من النجاة، وأحرقوا منهم من هرب إلى مسجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، حتى أن المصادر النصرانية ذاتها تقول: «لم نر مثل هذا الذبح من قبل فى المسلمين».[6] وقد فرحوا بهذا الانتصار والوصول إلى مقبرة المسيح (ربهم)؛ بحيث إنهم كانوا يبكون من شدة الفرح[7]. وهكذا سقط بيت المقدس فى أيدى الفرنجة؛ بعد أن ظل فى أيدى المسلمين منذ فتحه فى وقت عمر بن الخطاب سنة ٦٣٨/١٧.

(١) الكامل، ٨ص ١٨٦ ص ٤.

(٢) مثلا: صبح الأعشى، ١٠ ص ٤٠٦.

(٣) وفيات، ٢ص ٧٨؛ انظر. ما ورد عنهم فى كتابنا: نظم الفاطميين، ١ص ١٩٧-١٩٨.

(٤) النجوم، ٥ ص ١٤٨. سنة ٤٩٢.

(٥) انظر. Gesta P. 84 sqq. ؛ الكامل، ٨ص ١٨٩؛ النجوم. ٥ص ١٤٨-١٤٩.

(٦) انظر. Gesta p. 88 .

(٧) انظر. Id

وكان الوزير الأفضل، وهو الذى استرد بيت المقدس من السلاجقة، لما بلغه وصول الفرنجة إلى بيت المقدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم نحو بيت المقدس، ربما بقصد استنقاذه. فلما قرب من القدس كان الفرنجة قد فتحوه، وهجموا عليه وهزموه[1]، وأحرقوا من التجأ من عسكره بين شجر الجميز المجاور، وكان هناك كثيراً. فما كان من الأفضل إلا أن أحرق جميع ما كان معه من الآلات. وقد تحدث الشعراء بكسرة الأفضل، وربما كان الأفضل يريد أن يصد تقدمهم. كذلك حاول الأفضل أن يكون حلفاً بين مصر وأتابك دمشق المسمى طغدكين، وآق سنقر حاكم حلب، لا ستنقاذ بقية فلسطين، ولكن ذلك لم يتم لمشاكل الأفضل فى مصر.

كذلك اصبح هَم الفاطميين استنقاذ مدن الساحل الشامى الباقية، التى كانوا استردوها من السلاجقة فى أيام بدر الجمالى. فكانوا يرسلون اسطولهم، الذى كان له صيت ورهبة فى أول عهد دولتهم، ويبدو انه كان لا يزال قوياً، على الرغم من أن الروم كانوا قد اتهموا بحرقه فى أيام العزيز؛ كما ذكرنا. ففى عهد الآمر أرسل فى مرة اربعين شينياً -جمع شيني أو شونة- وهى مراكب حربية كبيرة، مزودة بالقلاع والأبراج، والمنجنيقات لقذف الحجارة او المواد الملتهبة فكان الخليفة الفاطمى يقوم بتوديع الأسطول قبل خروجه للحرب، وهو ما عرف «بالموادعة»؛ فيحضر الخليفة بصحبة وزيره والأعيان إلى ساحل النيل عند ميناء المقس؛ فكانت المراكب قبل أن ترحل تقوم أمام الخليفة «بالحركة» أى المناورات، كما يفعل تماماً فى حالة القتال. فكان الخليفة الفاطمى فى هذه المناسبة يدعو للأسطول بالنصرة والسلامة، ويوزع «النفقة» على رجال الأسطول، كما يمنح القواد الخلع. فكانت هذه المراكب توقع بسفن الفرنجة، وتعمل على صمود مدن الساحل، بتزويد المقاتلة بالسلاح والمؤن والرجال. ومن ناحية أخرى كان الفاطميون يرسلون تجريدات -جمع تجريدة- لا يتجاوز عددها ثلثمائة إلى اربعمائة، والكثرة من اربعمائة إلى ستمائة، يقوم على كل مائة فارس أمير. وكان الخليفة الحافظ يبارك

---

(١) الكامل، ٨ ص ١٩٠؛ النجوم، ٥ص ١٤٩.

هذه التجريدات، ويسلم بنفسه العلم والخريطة لأمير الحملة[1]. كذلك حاول الفاطميون في عهد هذا الخليفة تجديد الاتصال بالأمراء البوريين من نسل طغتكين، في أتابكية دمشق السنية، على الرغم من اختلاف المذهب، بقصد مقاومة الصليبيين. فلدينا عن هذا الاتصال سجلات، في أحدها[2] ذكر لمحاربة أمير بعلبك لأمير افرنجي وقتله، فضلا عن سعي هؤلاء الأمراء إلى التقرب من الفاطميين للسبب ذاته.

وعلى كل حال، وجد الصليبيون أنهم لكي يؤمنوا فتحهم في بيت المقدس أن يستمروا في الزحف فحاصر جودفروا عكة في سنة ٤٩٤/١١٠١، إلا أنه قتل بسهم من أحد المسلمين، فلما اختار كبار رجال الفرسان ورجال الدين أخاه بودوان- بغدوين أو بردويل- ملكاً على بيت المقدس، أحرز الصليبيون انتصارات متتالية على المسلمين[3]: فاستولوا على عكّا في ٤٩٧/١١٠٤، وطرابُلس في ٥٠٢/١١٠٨، وجُبيل في ٥٠٢/١١٠٩، وبيروت في ٥٠٣/١١١٠، وصَيدا في٥٠٤/١١١٠، وصُور "Tyr" في ٥١٨/١١٢٤؛ كما سيطروا على كل فلسطين فيما عدا عَسْقلان[4]، التي بقيت تجاهد الفرنج حتى وقت سقوطها في ٢٧ جمادى الأولى ٥٤٨/٢٠ أغسطس ١١٥٣؛ حيث أصبحت أشبه برأس حربة للهجوم على أراضي الصليبيين، وقاعدة متقدمة للأسطول الفاطمي. وخوفاً من أن يحتل الصليبيون عسقلان، نقل الفاطميون رأس الحسين المدفوعة هناك منذ أيام الأمويين بعد مقتله في عهد يزيد بن معاوية. حيث أقاموا لها مشهداً بالقاهرة في ٥٤٩/١١٥٤[5]، لا يزال يحمل اسم الحسين إلى الآن. وقد كان الفرنجة يقصدون عسقلان بجيوش كبيرة، فلا يجدون إلى ملكها سبيلا، وكان

---

(١) النجوم، ٥ص ٢٤٤.

(٢) مثلا: صبح، ٦ ص ٤٤٩-٤٥١؛ انظر Canard:

Fatimides et Bûrides à l'époque du calife al-H'afz li'din-illah.

Revue des Etudes Islamiques XXXXv, 1967. Paris. 103-118.

(٣) الكامل، ٨ص ٢١٨-٢١٩، ٩ص ٤٢؛ النجوم، ٥ص ١٧٠. كذلك تذكر المصادر أن عكة سلمت في ٤٩٧/١١٠٣، وغزة في ٥٠٢/١١٠٨ .الخطط، ٤ ص ٧٧.

(٤) معجم البلدان، ٦ص ١٧٤؛ انظر.

Ency. de l'Isl, (art 'Askalân) ti, P. 732.

يقول ابن تغرى بردى في سنة ٥٤٥/١١٥٠. النجوم، ٥ص ٢٩٩.

(٥) الخطط، ٢ص ٢٨٣-٢٨٤؛ أبو الفداء، المختصر، ١ص ١٩١.

اختلف فيمن أحضر الرأس، فلعله الوزير بدر الجمالي أو ابنه الأفضل، أما المشهد فقد أنشئ في عهد الوزير طلائع بن رزيك.

الوزراء المستبدون فى مصر يرسلون الذخائر والأسلحة والأموال والرجال لحفظها، حيث كانوا يرسلون لها جنداً كل عام[1]، وأصبح كل من فيها مجنداً حتى الأطفال. بل إن الإسطول المصرى هاجم يافا وصيدا وبيروت وطرابلس فى ١١٥٦/٥٤٦، ولهذا عمل الفرنجة على الانتقام بأن أرسلوا حملة برية إلى الفرما فى مصر. وقد أرسل الوزير ابن السلار أحد رجاله الأقوياء وهو عباس للدفاع عن عسقلان؛ كما فكر الوزير أن يسير بنفسه[2] إليها لاستنقاذها بالتعاون مع نور الدين أتابك حلب القوى السلجوقى. ولكن عباساً -طمعاً فى الوزارة فى مصر- تركها لتسقط؛ مما أتاح للفرنجة أخذها، بعد أن أحاطوها بحزم من التحصينات، بحيث سلمت بعد حصار من البر والبحر دام سبعة أشهر. ويقول ابن تغرى بردى المؤرخ: إنه كان من الممكن إنقاذ كل هذه المدن، لولا سوء الحال فى بلاد المصريين[3]. وقد مهدت هذه الانتصارات للفرنجة مد حدودهم إلى صحراء النقب على حدود مصر.

ولم يقتصر طمع الصليبيين أو الحجاج المسيحيين عند حد، بل إنهم طمعوا أيضاً فى مصر لضعفها، وهى التى كانت تزهو أمام أعينهم بغناها. ولعلهم خافوا إن لم يغزوها أن يقعوا بين مسلمى مصر ومسلمى الشام. ولذلك وضعت مملكة بيت المقدس سياسة ثابتة، تهدف للاستيلاء على مصر: فقد فكر جودفروا فى غزوها، وإن كان بغدوين أو بردويل هو الذى قام بالغزو، وفكر فى الاستيلاء [illegible] المغرب أيضاً. فذهب بنفسه يستكشف طريق الزحف، وتوغل فى شبه [illegible]رة سيناء، ودخل الفرما[4] على الساحل (شرقى بورسعيد) بين العريش [illegible] سطاط، وفتحها فى سنة ٥٠٩/١١١٥، ولكن الجنود الفاطميين الدائمين [illegible]دين فى الشرقية، يتقدمهم العربان حاربوه، كما أسرع الوزير الأفضل فى [illegible] العساكر الرئيسية من القاهرة فرحل، ومات فى طريق عودته قبل أن [illegible]لى العريش. فأخذت جثته لتدفن بكنيسة القيامة، بعد أن ألقى بأمعائه فى [illegible] يزال إلى اليوم يعرف بسبخة بردويل أو بالسبخة.

---

[1] [illegible] يسر، ص ٩٤.

[2] [illegible] بن منقذ، الاعتبار، ص ٧.

[3] [illegible]ات، ٢ ص ٨-٩.

[4] [illegible] نجوم، ٥ص ١٧١؛ ابن إياس، بدائع، ١ص ٦٣. عن الفرما: معجم البلدان، ٦ص ٣٦٧-٩.

كل هذا يبيّن الخطر الشديد الذى كان يتهدد مصر والشرق الإسلامى، نتيجة لضعف حكامها الفاطميين.

*

وكان من الممكن للصليبيين أن يستفيدوا أكثر من ضعف المسلمين، لولا أن أوقف أطماعهم ظهور أتابكية تركية قوية فى الشام، أصبح هدفها الاتحاد مع مصر لصد خطر الصليبيين. هذه الأتابكة مؤسسها مملوك من الرقيق اسمه آقسنقر، كان فى بلاط السلطان ملكشاه، الذى بناء على نصيحة وزيره المشهور نظام الملك، ولاه حلب ثم الموصل[١] فى ١٠٨٧/٤٨٠ ولكن بعد موت ملكشاه، نجد أن تتش أخا السلطان الذى يملك الشام يقتل آقسنقر هذا فى ٤٨٧/ ١٠٩٤[٢]. وقد كان ابن آقسنقر الوحيد عماد الدين زنكى[٣] صغيراً، فلما كبر تمكن من استرجاع أملاك أبيه، إذ أقطعه سلطان وقته محمود بن ملكشاه بعض أراضى العراق كواسط والبصرة، ثم ولاه الموصل وبلاداً أخرى فى سنة ١١٢٧/٥٢١. وكان السلطان محمود قد سلم إلى عماد الدين ولديه: ألب أرسلان وفروخ شاه لتربيتهما، ولهذا قيل لعماد الدين الأتابك، لأن الأتابك هو الذى يربى أولاد الأمراء، كما عرفت إمارته بالأتابكية.

والواقع أن هذا الأتابك كان يعمل لحسابه الخاص؛ فأخذ يوسع أملاكه على حساب بقية الأتابكيات الأخرى فى الجزيرة والشام، فاستولى على حلب وغيرها من مدن الجزيرة، وإن أظهر أن البلاد التى فتحها لأميره ألب أرسلان بن محمود، وأنه نائبه فيها[٤]. وأكثر من هذا تدخل فى تولية السلطان السلجوقى فى بغداد، فكان مع مسعود بن محمد بن ملكشاه ضد الخليفة المسترشد، الذى كان يؤثر بالسلطنة غيره من أمراء السلاجقة. ولما ذهب عماد الدين لحصار الخليفة فى

---

(١) ابن الأثير، الدولة الأتابكية (R. des Hist des Cois. Or) ٢/٢ ص ١١، ١٧؛ آل سلجوق، ص ٦٦، ٧٨.

(٢) الدولة الأتابكية ص ٢٨ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ٤٢ وما بعدها؛ وفيات، ١ص ٢٤٣-٢٤٤؛ انظر.
Ency. de l'Isl, (art Zengi) t 4, P. 1294-5.

(٤) الدولة الأتابكية، ص ١٢٦-١٢٧، ٦٩ وما بعدها؛ الكامل، ٩ص ٥-٧.

بغداد، وأرسل إليه الخليفة أحد قواده، فهزمه، فهرب ناجياً بنفسه فى ٥٢٦/١١٣٢[1]، حيث أنقذه رجل كردى الأصل اسمه أيوب[2]، كان يمتلك قلعة تكريت، مع أن ذلك كان فيه تحد للخليفة. ولكن بعد أن قتل مسعود الخليفة المسترشد، عاد عماد الدين زنكى إلى مركزه الأول، وتولى الموصل واعترافا بجميل أسرة أيوب الكردية، حينما فتح بَعلْبك، وهى مدينة قريبة من دمشق من جهة الساحل، سلمها إلى أيوب[3]، وجعله أميراً عليها.

وثمة أمر آخر يبين طموح الأتابك، وهو طمعه فى أخذ دمشق[4] الواقعة فى وسط الشام، والتى كانت تحكمها أسرة طغتكين أو طغدكين أتابك دياق بن تتش بعد موته، حيث كان أبوه تتش هو الذى قتل آقسنقر أبازتكى. وكانت هذه الأتابكة هى الأخرى قوية فلم يستطع الصليبيون الاستيلاء على دمشق، ولكنها ضعفت بسبب ضعف من فيها. فحاصرها فى ٥٣٤/١١٣٩، ولكنه لم يستول عليها بسبب طلبها مساعدة من الفرنج.

كذلك كان هذا الأتابك متحمساً لحرب الصليبيين، بحكم وجود أملاكه فى شمال الجزيرة وحلب، ملاصقة لإمارتى الرها وأنطاكية الصليبيتين القويتين. وكان يرى أن الضرر كبير بوجود إمارة الرها وسط بلاد الجزيرة قريبة من بغداد مركز الخلافة العباسية؛ بحيث إن غارات الفرنجة منها يعظم شرها، وامتدت إلى أقصى بلاد الإسلام[5]. فيذكر له المؤرخون أنه كان لا ينقضى عليه

---

(١) الأتابكية، ص ٨٣؛ ابن واصل، ١ص ٤٧-٤٨، ٥١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال، ١ص ٨.، انظر ماجد، صلاح الدين، ص ٥٧-٥٨.

(٣) الخطط، ٣ص ٣٧٨؛ وفيات ٣ص ٤٧٤. عن بعلبك: معجم البلدان، ٢ص ٢٢٦ وما بعدها. تذكر رواية مؤداها أن شيركوه قتل رجلا بتكريت فطرد هو وأخوه، وهذا هو سبب تركهما لها.

(٤) عن أتابكتها: وفيات، ١ص ١٦٩؛ أبو الفدا، المختصر ٣ص ٨ وما بعدها.

(٥) الأتابكية، ص ٦٠؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art.Dimashik) 2 éd, t2, P. 290.

عام، حتى يفتح بلاداً من بلادهم، حتى اشتهر بالشهيد، ربما لرغبته فى الاستشهاد. ولعل أهم انتصاراته عليهم هو فتحه مدينة الرها، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً فى سنة ٥٣٩/١١٤٤(١). فلما دخلها قتل كل من فيها من الصليبيين، وجمع رءوس القتلى وبنى بها منارة أذن عليها، ونكس صلبانها وأباد رهبانها. وبذلك خلص الإسلام من خطرهم بحيث شبه الانتصار فيها بالانتصار فى بدر.

ولكن هذا الأتابك اغتيل على يد غلمانه فى سنة ٥٤١/١١٤٦(٢)، فأسرع ابناه غازى ونور الدين إلى الاستيلاء على أهم أملاك أبيهما، ولا سيما أنها خلصت لهما بقتل ألب أرسلان(٣)، الذى كان زنكى يظهر أنه نائبه، فأخذ الأول، وهو الأكبر الموصل وبلاد الجزيرة، والثانى حلب. وعلى العكس، فإن أيوباً، الذى كان زنكى أعطاه بعلبك اعترافاً بجميل إيوائه إياه، فقد انتقل مع ابنه صلاح الدين إلى أتابكية دمشق(٤)، التى عملت على ضم بَعلْبك إليها، وإن بقى شيركوه(٥)، أخو أيوب فى خدمة نور الدين فى حلب.

وحينما أرسلت حملة جديدة إلى الشرق، تعتبر الحملة الصليبية الثانية، نتيجة لاستيلاء زنكى على الرها، بقيادة لويس السابع "Louis VII" ملك فرنسا، وكونراد الثالث "Konrad III" ، ملك ألمانيا، فإن آل زنكى شاركوا فى مقاومتها. حقاً إن لويس وكونراد هزما فى آسيا الصغرى، إلا أنهما يمما شطر دمشق، مع أن هدف الحملة كان استعادة الرها. فنجد أن نور الدين وغازى، ومعهما أسرة أيوب يهرعون للدفاع عن دمشق، وإن كان أتابكها ما لبث أن صالح الملكين، لقاء تسليم بعض القلاع والمال(٦).

هذه الحملة الصليبية الثانية، جعلت نور الدين، الذى أصبح أكبر الأتابكة الزنكيين، بعد وفاة أخيه أكبر غازى فى الموصل سنة ٥٤٢/١١٤٧(٧) وتنازل أخيه

---

(١) الأتابكية، ص ١١٨. وما بعدها؛ الكامل، ٩ص٨.
(٢) الأتابكية، ص ١٣١ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ص ٩٩ وما بعدها. هو غير السلطان ألب أرسلان، الذى تولى بعد طغرلبك.
(٣) ابن واصل، ١ص ١٠٩
(٤) نفسه، ١ص ١١٠؛ الكامل، ٩ص ١٦.
(٥) النجوم، ٦ص٥.
(٦) الأتابكية، ص ١٥٩ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ص ١١٢ وما بعدها؛ الكامل، ٩ص ٢٠-٢١.
(٧) الكامل، ٩ص ٢٤

الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام له، يفكر جدياً في الاستيلاء على أتابكية دمشق، وضمها إلى أملاكه، كما كان يريد أبوه من قبل والذي جعله يعجل بذلك، هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل الفاطميين في الشام في سنة ٥٤٨/١١٥٣، وكانت بقيت وحدها تقاوم طول هذه المدة، ولأن الصليبيين قويت آمالهم بعد ذلك في أخذ دمشق أيضاً، وتابعوا الغارة عليها(١).

ويبدو أن الخليفة العباسي المقتفي (٢) لأمر الله، هو الذي حث نور الدين على أخذ دمشق، فمنحه تقليداً على البلاد الشامية، وحتى على البلاد المصرية، التي كانت هي الأخرى تعاني الاضطرابات، بسبب مقتل الخليفة الظافر في سنة ٥٤٩/١١٥٤، وطمع فيها الصليبيون من جديد.

وقد دبر نور الدين الأمر بينه وبين أيوب في دمشق عن طريق شيركوه، بحيث يقول المقريزي(٣) إن أيوباً عمل كثيراً في أخذ دمشق لنور الدين، فسلم المدينة إلى أخيه شيركوه لما حاصرها في سنة ٥٤٩/١١٥٤. فنقل نور الدين إليها مركز حكمه، وعين أيوباً حاكماً عليها، وشيركوه نائباً عنه، وصلاح الدين رئيساً لشرطته «الشحنجية»(٤)، وهذا الأخير كانت قد بدأت تظهر عليه إمارات الذكاء والشجاعة، التي تعلمها من نور الدين(٥).

*

وبينما كان نور الدين يوطد حكم أتابكيته التي اتسعت من حلب إلى دمشق، إذ جاءه شاور الوزير الفاطمي سنة ٥٥٨/١١٦٤؛ طالباً النجدة والعساكر ضد ضرغام الذي طرده من الوزارة واستولى عليها كما ذكرنا. فأطمعه في الديار المصرية، ووعده بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنوياً، ويمنح جنده الإقطاعات ويقيمون في مصر، ويكون منصرفاً تحت أمره ونهيه. ويلاحظ

---

(١) ابن واصل، ١ص ١٢٦-١٢٧. عن سقوط عسقلان في سنة ٥٤٧/١١٥٢، انظر. الكامل، ٩ص ٤٢؛ وقبله.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ص ١٧. يكتبها المستكفي. عن المقتفي، إنظر.
Ency. de l'Isl, (art al-Muktafi) t3, P. 769.

(٣) الخطط، ٣ص ٣٧٨ س ٢٢؛ انظر. حبشي، نور الدين، ص ٦٢ وما بعدها.

(٤) وفيات، ٣ص ٤٧٤؛ النجوم، ٦ص٨. الشحنجية وردت في القاموس الفارسي بمعنى مكتب رئيس الشرطة المسمى الشحنة. النجوم، ٥س ٢٠١ وهامش رقم (٢)

(٥) وفيات، ٣ص ٤٧٤

المؤرخون أن نور الدين قد تردد أول الأمر فى إجابة شاور إلى طلبه، بسبب توسط الفرنجة بينه وبين الديار المصرية؛ إلا أنه قيل تحت إلحاح شيركوه، الذى كان يرغب بشدة فى الذهاب على رأس الحملة إلى مصر[1]. وربما يكون الدافع على تحريض شيركوه لنور الدين، أنه فكر فى تأسيس ملك فيها لأسرته[2]، إذ يبدو أنه كان متفقاً فى ذلك مع أخيه أيوب، بدليل اصطحاب صلاح الدين، الذى لم يكن قد تجاوز خمسة وعشرين عاماً. وعلى النقيض يظهر أن صلاح الدين نفسه لم يكن متحمساً للمغامرة فى مصر، فيروى أنه قال[3]: «خرجت مع عمى كارها وأنا كمن يقاد إلى المذبح». ونحن نرى أن قبول نور الدين لطلب شاور راجع إلى الرغبة فى استعلام حقيقة أحوال مصر، التى كانت ضعفت[4]، وعلى الخصوص إلى ما يمكن الحصول عليه من الفوائد بتقوية المسلمين، إذا ما اتحدت معه قوى مصر الوافرة الثراء بالمال والرجال ضد الفرنجة، إذ لا يبدو أنه كان يقصد وقتذاك فتحها وضمها إلى ملكه بالشام.

ويظهر أن شاور لم يكن يرغب فى حضور شيركوه وصلاح الدين، ولعله كان يظن أن نور الدين يكل قيادة الحملة إليه، ولكن أسقط فى يده لما جهز نور الدين عسكره من الترك بقيادة شيركوه، وسر لشغل الفرنجة بالغارات، حتى يصل جيشه سالماً إلى مصر. فلما وصل شيركوه إلى بلبيس[5] شرقى القاهرة، خرجت عساكر البرقية المذكورة من قبل ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين، لقتال الجيش التركى؛ ولكن عسكر شيركوه أجبره على التقهقر نحو القاهرة؛ فلما دخل جيش شيركوه القاهرة خرج ضرغام لملاقاة شاور، وحدث قتال عنيف اشترك فيه أول الأمر الجند المصريون والسودانيون- وهم طوائف الجيش الفاطمى- خوفاً من الغز (أى الترك) القادمين مع شاور، فانتصروا عليهم فى القاهرة، وبقى ضرغام أياماً يقاتلهم ولكن كره الجند الفاطمى لضرغام لأمور منها قتله قوادهم «أمراءهم»، وأعيان البلاد، إذ كان يأخذ بالظنة حتى بين أصحابه

(1) الكامل، ٩ص ٨٤-٨٥؛ الأتابكية، ص ٢١٥-٢١٦؛ ابن واصل، ١ص ١٣٧ وما بعدها.
(2) وفيات، ٣ص ٤٧٦ ص ١٠.
(3) الفخرى، ص ٧٢.
(4) وفيات، ٣ص ٤٧٥ س ١٠-١١.
(5) عنها: معجم البلدان، ٣ص ٢٦٢؛ انظر.

Ency, de l'Isl, (art-Bilbis) t I, P. 737.

وأفراد أسرته، جعلهم ينحرفون عنه، مما دعا الخليفة العاضد بدوره إلى التخلى عن تأييده له؛ فاستطاع شاور بمماليكه وعربانه أن يهزم ضرغام ويقتل أخويه(1). وبعدها تولى شاور الوزارة للخليفة العاضد ثانية وتلقّب بالملك المنصور، وكتب العاضد سجلاً له بتفويض الوزارة[2]، وذكر أنه ما اختاره إلا لحنكته فى السياسة والتدبير، ودعاه إلى المحافظة على دعوة الفاطميين، كما قلّد ابنه الوزارة نيابة عن أبيه، الذى أسمه الكامل على ما يبدو[3]، لأن ابنا آخر اسمه طيئ كان قد قتل فى النزاع مع ضرغام، وسليمان قتل قبل أن يذهب مع أبيه إلى دمشق.

فلما حصل شاور على الوزارة ظهرت منه أمارات الغدر بجيش الترك، الذى كان يقيم بظاهر القاهرة، وأرسل إلى شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام فامتنع شيركوه، وأسرع إلى بلبيس، بناء على إشارة صلاح الدين[4]- الذى بدأت تظهر كفاءته الحربية أيضاً- للتحصن بها فأخذ شاور، الذى رأيناه من قبل قد استدعى الترك ووعدهم بامتيازات فى مصر، ليحتفظ بمنصب الوزارة، يعمل على الاتصال هذه المرة بالفرنجة، ويدعوهم إلى إخراج جند شيركوه، ووعدهم بمال كثير إذا رحل عسكر نور الدين. ولعل شاور كان يستهدف من وراء ذلك، أن يستفيد من نزاعهما بالانفراد بالبلاد. فبادر الفرنجة إليه ووجدوا فى دعوته الفرصة المناسبة، ولا سيما أنهم كانوا قد عرضوا مساعدتهم من قبل على ضرغام[5]- ويسمونه Dargam - إذ قدروا خطورة الاتحاد بين مصر ونور الدين فى الشام، فيقول ابن واصل: إنهم قد خافوا خوفاً شديداً إذا ما تحقق ذلك وأيقنوا بالهلاك، وأن بلادهم تستأصل[6]- فاجتمعت جيوشهم بقيادة ملك بيت المقدس المسمى أملريك "Amalricus" والمعروف أيضاً بمعمورى "Amauri" ، ويسميه

---

(1) الخطط، ٢ص ١٤٢، ٣ص ١٩-٢٠.

(2) صبح الأعشى، ١٠ص ٣١٠-٣١٨.

(3) نفسه، ١٠ص ٣١٨-٣٢٥ .لا يذكر اسمه لعله الكامل؛ لأن طيئ الكبير كان قد قتل. السلوك، ١/١ ص ٤٤ وحاشية (٥).

(4) النجوم، ٥ص ٣٤٧ س ٧-٨؛ سنا البرق الشامى، تحقيق فتحية البندارى، ص ١٩.

(5) أنظر ما كتبه وليام الصورى فى مجموعة: R. H. Cr, Occ, tI,2 e, P. 892.؛ حبشى، نور الدين، ص ١٠٦.

(6) ابن واصل، ١ص ١٣٩.

العرب غالباً فى كتبهم مرى، وحاصروا شيركوه وصلاح الدين فى بلبيس[1]، يساعدهم عسكر شاور من العربان والسودان، فقاومهم جيش شيركوه حتى أعياهم مدة ثلاثة أشهر، وانتهى الأمر بعقد اتفاق بمقتضاه خرج شيركوه والصليبيون من مصر، وخاصة أن نور الدين أخذ كعادته فى الإغارة فى أطراف أملاكهم، ليخلص جيوشه من هذا الحصار، وأرسل بالأعلام التى غنمها منهم، لتنشر على أسوار بلبيس مما أزعجهم، وجعل عمورى يسرع بالعودة إلى بلاده. وهكذا انتهت حملة شيركوه وصلاح الدين الأولى على مصر، ومدح الشاعر المعروف عمارة اليمنى شاور على حسن سياسته، كما مدحه شعراء آخرون[2].

ولكن شيركوه، الذى رأى ضعف حالة مصر؛ بحيث وصفها بأنها بلاد بغير رجال، أخذ يحرض من جديد نور الدين لإرساله على رأس حملة ثانية، وقبل نور الدين ذلك[3]. فخرج شيركوه فى ٥٦٣/١١٦٧[4]، ومعه هذه المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين، ودخل مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر عند أطفيح من ناحية الصعيد، ثم نزل الجيزة قبالة مصر (أو الفسطاط) حتى لا يحاصر فى بلبيس مرة أخرى، وبقى فيها نيفاً وخمسين يوماً[5]. فلما وصل جيش شيركوه، أرسل شاور ثانية إلى الفرنجة يستنجد بهم ويعدهم بالمال، فأتاه عمورى إلى الجيزة، وأرسل رسله إلى قصر العاضد للاتفاق على المبلغ الذى يدفع له لقاء إخراجه شيركوه؛ حيث تركوا لنا وصف أبهة قصر العاضد[6]. فحاربهم

---

(١) نفسه، ١ص ١٤٠؛ الأتابكية، ص ٢١٧-٢١٨؛ الخطط، ٢ص ١٤٢، ١٧٤؛ الحنبلى، شفاء القلوب، مخطوط بدار الكتب، ورقة ٦ وما بعدها؛ انظر. سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧، ص ٨ وحاشية (٣)، يعتمد على مصادر مخطوطة، Les Campagnes du roi Amaury. Paris, 1906, P. 63-80.: Schlumberger

(٢) عمارة، ديوان، تحقيق Derenbourg ، ٢ص ٤٢٤؛ ابن واصل، ١ص ١٤٢؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ورقة ٦.

(٣) ابن شداد، ص ٢٩،

(٤) الكامل، ٩ص ٩٤-٩٦؛ ابن واصل، ١ص ١٤٨ وما بعدها؛ الخطط، ٢ص ١٤٢-١٤٣، ١٧٤؛ وفيات، ١ص ٤٠٥ وما بعدها، ٣ص ٤٧٧؛ الأتابكية، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ورقة ٧ وما بعدها؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ١١٠ وما بعدها؛ سعداوى، التاريخ الحربى، ص ٩ وما بعدها.

(٥) سنا البرق الشامى، ص ٢٠.

(٦) انظر R.H.C.Occ. tI, 2è, P. 910-913. ؛ Op. Cit, P. 142-3: Schlumberger ؛ ماجد، نظم الفاطميين، ٢ص ١٤٢؛ المنجد، كتاب الرسل والملوك، ص ١٢٧-١٢٩.

شيركوه وهزموهم حين حاولوا عبور النيل على جسر أقاموه، ولكن بسبب قلة جنده اتجه إلى الصعيد، فلما تابعوه هزمهم بفضل مهارة صلاح الدين فى مكان أسمه البابين جنوب المنيا الحالية؛ ونجا عمورى بحياته بمعجزة[1] وكان هذا من أعجب الانتصارات لقلة عسكر شيركوه، الذين هزموا شاور والصليبيين معاً؛ إذ صمم جنده ألا يسلموا مصر للكفار. ولكن لا داعى للعجب، لأن شعب مصر فى الصعيد كان يعاون جيش شيركوه. ثم سار شيركوه إلى الإسكندرية، التى رفض أهلها وأعيانها أن يسلموها إلى شاور؛ لأن معه الصليبيين، وسلموها لشيركوه، وكانوا قد راسلوه من قبل[2]، فتركها شيركوه لابن أخيه صلاح الدين، وعاد هو بقسم من جيشه إلى الصعيد؛ ربما ليشتت قوى أعدائه. ومن الطريف أن نذكر أن تسليم الإسكندرية إلى شيركوه راجع أيضاً إلى أن أهلها كانوا من السنة الذين يكرهون التشيع؛ وذكر هذه المعارضة المبكرة للفاطميين نجدها فى الوثائق المعروفة بالسجلات المستنصرية[3]؛ فكان كل ثائر على الخلافة الفاطمية يلتجئ إليها. فحاصرها شاور حوالى أربعة أشهر تناصره مراكب الصليبيين؛ حيث كانوا يتوقون للاستيلاء على هذا المرفأ الهام على البحر الأبيض، فكافح عنها صلاح الدين وأهلها كفاحاً شديداً، حتى أنه قال عند ذكر هذه الحقبة: «والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق، ما لا أنساه أبداً».

وقد سأل شاور أهل الإسكندرية أن يسلموه صلاح الدين، ويرفع عنهم الضرائب، وبخاصة المكوس -ضريبة الأسواق البغيضة- إلا أنهم رفضوا أن يسلموا المسلمين إلى الفرنج على حسب قولهم. عندئذ سعى إلى الصلح وقبله شيركوه لسوء موقف جيشه، وليخرج الصليبيين من مصر بأى ثمن، فاتفق على أن يتركها لقاء مبلغ من المال، على أن يخرج الصليبيون أيضاً، ولا يتسلموا أية قرية، وأن تعاد الإسكندرية إلى المصريين. ومع تظاهر الصليبيين بقبول ذلك، إلا أنهم وافقوا لقاء خروجهم من مصر، على أن يكون لهم بأبواب القاهرة حامية «شحنة»، وأن يدفع لهم شاور بعض المال، فكان أحد الفرنجة يقيم فى دار خاصة

---

(١) انظر R.H.C.Occ. tI, 2é, P. 928 ؛

Op. Cit, P. 142-3 ؛ Schlumberger

؛ حبشى ، نور الدين، ص ١١٥ . يقول الحنبلى البابين أو ابوان،(شفاء القلوب)ورقة ٧ .

(٢) أبو شامة، الروضتين، ١ص ١٦٨

(٣) سجل رقم ٥٧ ص ١٨٨ .

ليحصل على نصف مال مصر(1). فوافق شاور على ذلك، حيث كان يرى أن الأموال وحدها هى التى تسيطر، دون المبادئ.

_ ومن المحقق، أن هذا التدخل اثبت بوضوح أن مصر لم تعد فى أيدى الفاطميين، وإنما أصبحت بيد القوتين المتسابقتين عليها، وهى الدولة الغزية (التركية) النورية، وفرنجة بيت المقدس، وبالأحرى فى يد شاور الوزير المستبد، الذى كان لا يهمه غير الاحتفاظ بمنصب الوزارة. ومما زاد الطين بلة أن الصليبيين صمموا هذه المرة على سباق جيش نور الدين فى الوصول إلى مصر بغية احتلالها، مخالفين بذلك سابق عهدهم. ولكى يدبر عمورى حملته على مصر سعى إلى الاتفاق مع البيزنطيين، وتزوج ابنة أخى ملك بيزنطة مانويل "Manuel" (1143-1148م)، لتتربع معه على عرش مملكة بيت المقدس(2). وقد ترك لنا المؤرخ الصليبى وليم الصورى "Willeromo Tyrensi" ، صورة للاتفاقية التى وقعها بنفسه نيابة عن عمورى؛ فقد اتفق الطرفان على أن تكون رياسة الحملة لعمورى وأن يطيع القائد البيزنطى فى كل ما يأمر به(3). ومع أن عمورى نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطى، إلا أن فرسان مملكته، وذوى الرأى فيها، أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم والتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين، إذ كان اعتقادهم أن فتحها سيكون سريعاً، بسبب انه كان لهم بأبواب القاهرة حامية، وأنهم تحكموا فيها، فأسرع عمورى على رأس الفرنجة بالدخول إلى الريف المصرى شرقى الدلتا أو ما يعرف بالحوف الشرقى فى سنة 564/1168(4)، فارتكبت جيوشه فى بلبيس – أهم مدن الحوف– فظائع تذكر بما حدث عند فتح الفرنجة بيت المقدس، فكانوا يقتلون الرجال والنساء والشيوخ، مما يدل على نيات الغزو الحقيقية عند الفرنجة هذه المرة.

(1) الخطط، 3ص 111؛ ابن واصل، 1ص 152.

(2) انظر. R.H.C.Occ. t I, 2 P. 942-943

(3) انظر. Ibid, P. 945 sqq.

(4) النجوم ، 5ص 350؛ الكامل، 5ص 98 وما بعدها؛ ابن واصل، 1ص 157 وما بعدها؛ الروضتين، 1ص 170؛ انظر. حسن إبراهيم، الفاطميون فى مصر، ص 305؛
Ency. de l'Isl, (art. al-Sharkiya) t 4, P. 45-6.

خاف شاور الفرنجة، ولا سيما أنه أرسل إلى عموري يسأله عن سبب سيره، فاعتل له بأن هذا هو رأى الفرنجة بالشام. وأنه يريد بعض المال. عندئذ قدر شاور نياته وقرر مقاومته(١) . فجمع جالية الفرنجية فى مصر، وقتل منهم جماعة كبيرة، وحفر خندقاً وبنى حصناً،و جعل الفقهاء يحضون الأهالى على القتال، ثم أحرق مصر أو الفسطاط، وأمر أهلها بالهجرة إلى القاهرة، بقصد عرقلة زحف الفرنجة، وهى العاصمة القديمة التى انشأها عمرو بن العاص عند فتح العرب مصر، وازدهرت -على حساب وصف الرحالين(٢)- وفى جنوب القاهرة العاصمة الجديدة للفاطميين كما ذكرنا، إلا أن المجاعات والفتن التى حلت بالدولة الفاطمية فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء، كانت ضربة قاصمة لازدهار هذه المدينة، فتلاشت اهميتها، كما تلاشت أحياؤها الشمالية مثل العسكر والقطائع ويذكر المقريزى أن شاور استخدم فى حريق مصر أو الفسطاط عشرين الف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل نار، وقد ظلت النار مشتعلة فيها اربعة وخمسين يوماً؛ بحيث أن هذا الحريق أطاح بجميع عمائر المدينة، وأحرق جانباً من جامعها العتيق (جامع عمرو)، ولاتزال آثار هذا الحريق موجودة إلى وقتنا الحاضر فى التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان فى منطقة مصر القديمة. وقد أوقف حريق الفسطاط تقدم الفرنجة فى البلاد، فحاصروا القاهرة وضربوها بالمنجنيق- وهى من ادوات الحصار لقذف الأحجار والنار- إلا أن أهلها قاوموهم بحماس شديد، أشار إليه معظم المؤرخين.

وقدر نور الدين- هو الآخر- الخطورة المترتبة على تحركات الفرنجة باحتلال مصر، فأسرع بإرسال شيركوه ومعه صلاح الدين على رأس حملة ثالثة، وكان ينوى أن يذهب بنفسه(٣). ويورد المؤرخون أسباباً أخرى لإرسال هذه الحملة، منها: أنها أرسلت بناء على طلب الخليفة العاضد، الذى أرسل إلى نور الدين شعور نسائه. وكتب إليه يستصرخه ويقول: « ادركنى واستنقذ نسائى من

---

(١)الخطط، ٢ص ١٤٣ ؛ الحنبلى، شفاء القلوب، ورقة ٨ وما بعدها؛

Ency. de l'Isl, (art. Caire) t I, P. 837 sqq;

Fouilles d'al-Foustât, Paris 1921. ؛ Âlî Bahgat

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، س ٥٨ وما بعدها.

(٣) الأتابكية، ص ٢٥٤

أيدى الفرنج»[1]؛ أو بناء على دعوة الوزير شاور نفسه الذى قدر هو الآخر خطورة الموقف[2]، أو بناء على دعوة أهل مصر، الذين كانوا يراسلون نور الدين فى أثناء الحصار[3]، وعلى كل حال لا نستبعد أن يتعاون المسلمون على اختلاف مذاهبهم ضد عدوهم الصليبى، فلما سمع الصليبيون بتحرك عساكر نور الدين، ووجدوا أنفسهم فى هذه المرة على عكس المرات السابقة مضطرين إلى قتال عساكر مصر والشام موحدة، قبلوا الصلح مع شاور، الذى عرض عليهم مائة ألف دينار، على أن يرد إليهم بقية مليون دينار أخرى فيما بعد، فلما قرب جيش نور الدين من القاهرة، رحل الفرنجة عنها، وكان هذا على حد تعبير ابن واصل المؤرخ: من أجل الفتوح وأعظمها؛ إذ لو استولى العدو- لعنه الله- على الديار المصرية، لا ستولى على سائر الخطة الإسلامية[4].

ويظهر أن حيل شاور فى سبيل الاحتفاظ بمنصب الوزارة لم تكن قد انتهت، فأراد تدبير مؤامرة لقتل شيركوه ومن معه، وإخراج جيشه من مصر[5]. وربما كان من الممكن أن ينجح فى تدبير ذلك؛ إلا أنه نسى أن يقدر حقيقة كره المصريين له، وأثر ذلك فى قلب خططه. فهؤلاء رأوا فى مواقفه السابقة فى طلب العون من الصليبيين تهديداً هائلا لبلدهم وخيانة كبرى للإسلام، حتى أنهم عنفوه فى سبيل ذلك. ونجد أن جماعة منهم على رأسهم شخص اسمه ابن الخياط، يسعون إلى أخذ الوزارة منه، ولكن شاور استطاع إخماد ثورتهم، واستبد بالمصريين[6]. وقد رأينا أن هزيمته هو والصليبيين فى حملة شيركوه الثانية، ترجع على الخصوص إلى أن المصريين خذلوه، حيث سبق ذكر تسليم أهل الإسكندرية مدينتهم لصلاح الدين، وأن شاور لم يكن يعتمد فى محاربة شيركوه فى واقع الأمر إلا على طائفة من جنده الخاصة -العربان والسودان- إذ جرى وزراء مصر منذ عهد مبكر على تكوين طوائف خاصة لهم من العسكر. وقد زاد كره المصريين له بسبب سوء سياسته بحرق مصر أو الفسطاط، ففقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم، وبقيت مصر مدة لا يسمع

(١) حسن المحاضرة، ٢ص ١٨.

(٢) النجوم، ٥ص ٣٥٠.

(٣) الكامل، ٩ص ١٠٠ س ١٠-١١.

(٤) ابن واصل، ١ص ١٦٠.

(٥) نفسه، ١ص ١٦١-١٦٢؛ النجوم، ٥ص ٣٥١؛ الروضتين، ١ص ١٥٦-١٥٧.

(٦) ابن واصل، ١ص ١٥٦.

فيها أذان، ولا يوقد فيها مصباح؛ كما أنهم بعد هجرتهم إلى القاهرة لقوا شظف العيش، وأقاموا أثناء حصارها مطروحين فى المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات بعيالهم وأولادهم. وعلى العكس كان شاور وأولاده يتعاظمون على الناس، فمجتهم الأنفس[1]. فلما جاء عسكر نور الدين، أحضر شيركوه أعيان المصريين وأظهر لهم أسفه لمصابهم، وسفه رأى شاور[2] فى إحراق الفسطاط ويقول ابن تغرى بردى[3] - وهو مؤرخ مصرى- إن الأمراء المصريين فى الجيش الفاطمى، اتفقوا على قتله.

ويبدو أن نهاية شاور قد قربت؛ إذ كان من بين أبنائه من يعارضه، وهو ابنه الكامل، الذى كان يميل إلى محالفة نور الدين[4]؛ إنقاذاً للإسلام فى المنطقة؛ كما يبدو من أحاديث الكامل الخاصة. وكان العاضد يؤيد الكامل فى التحالف مع نور الدين، ويفكر فى إسناد الوزارة للكامل بدلاً من أبيه شاور، وخصوصاً أن الكامل هو الذى دافع عن القاهرة فى أثناء هجوم الفرنجة. ويظهر من سجل[5] كتبه العاضد لاستنابة الكامل فى الوزارة عن أبيه، صفات الكامل الطيبة، وحتى تفوقه واجتهاده فى العلوم الدينية وجهاده. وربما يكون الذى دعا العاضد إلى تأييد الكامل على حساب شاور، هو أن هذا الأخير أيّد دعوة الطيب فى اليمن[6]؛ مما هدد خلافة العاضد فى مصر.

ومع ذلك، فإن الذى قضى على شاور هو صلاح الدين وشيركوه، لتحقيق أطماعهما فى مصر، بعد أن علقت مخالبهما بالبلاد. وقبل أن يقتلاه أخذا إقراراً من العاضد، الذى كان شاور قد استبد به طول فترة وزارته مثل بقية وزراء التفويض، بأنه هو الذى طلب قتله لخيانته للمسلمين[7]، وممالاته للأجنبى. فنجد أن صلاح الدين يشرف بنفسه على تدبير المؤامرة لأنه لا يجسر عليها

---

(١) الروضتين، ١ص ص١٦٥.

(٢) الخطط، ٢ص ١٤٤ ص ٤.

(٣) النجوم، ٥ص ٣٥١ س ١٦ .

(٤) الروضتين، ١ص ١٧٠. قال لخال صلاح الدين: أوصل إلى نور الدين سلامى، وعرّفه شغفى بخدمته وغرامى؛ وأن أتوسط فى جمع الكلمة، ورد هذه القلوب المتبددة؛ إلى عقود العقد المنتظمة. انظر . سنا البرق الشامى تحقيق النبراوى، ص ٢٤ .

(٥) إتعاظ، ورقات ١٥٩ب- ١٦٠؛ انظر مجموعة الوثائق الفاطمية، ص ١٥٧ وما بعدها.

(٦) إتعاظ، ورقة ١٢٦.

(٧) النجوم، ٥ص ٣٥١ - ٣٥٢؛ وفيات، ١ص ٣٩٤؛ الكامل، ٩ص ١٠١؛ السلوك ١/١ ص ٤٣؛ الروضتين، ١ص ١٧١ - ١٧٢ .

غيره، وذلك في أثناء زيارة شاور لشيركوه، الذي كان مضطراً إلى أن يظهر له الود ، وإن تعمد شيركوه الخروج لزيارة ضريح الإمام الشافعي، فقبض صلاح الدين على شاور وكتفه، وأخذه ليقتله. ثم لما دخل ولد شاور وإخوته إلى القصر الفاطمي معتصمين قتلوا، وربما كان ذلك أيضاً بتحريض من شيركوه وصلاح الدين. وهكذا انتهت حياة هذا الوزير الذي كان همه الاحتفاظ بمنصبه، ففرح الناس فرحاً عظيما لموته.

وقد كان قتل شاور إزالة العقبة أمام شيركوه في تحقيق أطماعه في مصر. فقد أخذ مكانه في الوزارة، إذ لم يكن العاضد يستطيع أن يرفض طلبه لضعفه، ولقّبه بالملك المنصور، وهو ذات لقب شاور السابق، وخرج له سجل طويل أورده لنا القلقشندي يعتبر من الوثائق الهامة[1] ، فقد اصبح شيركوه: السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش: كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين؛ أي أنه سيطر على كل شئ في الخلافة الفاطمية بما فيها من جيوش وقضاة ودعاة المذهب الشيعي ونلاحظ أنه سمي بسلطان الجيوش، وليس بأمير الجيوش لقب الوزراء السابقين، ربما لأنه كان مسيطراً على جيش الخليفة الفاطمي والجيش التركي، الذي جاء من الشام[2]. وقد احتفظ العاضد لنفسه اسمياً بحق تولية الدعاة والقضاة، ولأن شيركوه كان سني المذهب؛ فإن سجلات توليتهم كانت تخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة[3]، وإن كان شيركوه في واقع الأمر قد حجر على تصرفات العاضد كلها.

ولكن شيركوه توفي أو قتل[4] بالسم، ممن لا نعرف؛ ربما من العاضد أو من صلاح الدين، ولم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين، فتولاها بعده ابن أخيه صلاح الدين، وتلقب بالملك الناصر، وإن غلب عليه اسم السلطان دون أن

---

(١) صبح، ١٠ ص ٨-٩؛ الحنبلي، شفاء القلوب، ورقات ٨-١٠؛ انظر مجموعة الوثائق، ١ص ٣٨٣ وما بعدها.

(٢) نظم الفاطميين، ١ص ٨٤.

(٣) صبح، ١٠ص ٣٤٣ وما بعدها.

(٤) وفيات، ٣ص ٤٧٩ س ١٢. دفن وأخوه أيوب بمدينة الرسول. نفسه،١ص ٤٠٦؛ السلوك، ١/١ ص ٥١.

يتلقّب به؛ مثل وزراء الفاطميين قبله، وذلك في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤/٢٦ مارس ١١٦٩[١]. وقد كتب له العاضد سجل الوزارة «منشور» بخط يده، مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون إلا نادراً، ورد فيه: «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله[٢]»، واحتوى على تخوله السلطات ذاتها، التي خولها لعمه شيركوه بالسيطرة على الجيش والقضاة والدعاة، فخرج سجله في قماش أبيض، وألبسه العاضد أمام جمع عظيم من موظفي الدولة خلعة الوزارة في يوم مشهود، وهي جميعها بيضاء شعار الفاطميين، فضلا على خيل وسروج وأشياء أخرى[٣].

وقد أثير حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة، منها: إنه تولاها نتيجة لتوصية سابقة من شيركوه، أو أن العاضد منحه إياها لظنه أنه أصغر القواد «الأمراء» النورية سناً، ليكون تحت يده، إذ لم تكن سن صلاح الدين تزيد على اثنتين وثلاثين سنة، وأنه أحس أنه مثل شيركوه له طموح قد يستغله لمصلحته في معارضة نور الدين، وإن كان سجل التولية يقول: إنه اختاره لأنه جمع حكمة المشيب، ومضاء الشباب؛ أي بقوة شخصيته، التي يبدو أنه لم يكن يوجد أقوى منها بين أمراء نور الدين بعد شيركوه. ونحن أيضاً لا نستبعد أن يكون العاضد قد الزم بتوليته[٤]، كما الزم بتولية عمه من قبل، بناء على اتفاق أغلبية الأمراء النورية. فهو لا يلبث أن يكون معه كالمحجور عليه، لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورته[٥].

*

والواقع أن تولية شيركوه وصلاح الدين لوزارة العاضد أمر غير عادي، يعلن عن قرب سقوط الخلافة الفاطمية، إذ أن كليهما بقي قائداً لنور الدين في

---

(١) انظر. تلقيب ابن السلاريه. ابن ميسر، ص ٩٢.

(٢) صبح، ١٠ ص ٣٠٨. نص سجل، انظر. نفسه، ١٠ص ٩١ وما بعدها؛ انظر. مجموعة الوثائق الفاطمية، ١ص ٤٠٥ وما بعدها؛ ماجد، صلاح الدين الأيوبي؛ انظر

(٣) حسن المحاضرة، ٢ص ١٨؛ الروضتين، ١ص ١٧٢. عن زي الوزراء، انظرما ورد في كتابنا: نظم الفاطميين، ١ص ٨٩ وما بعدها.

(٤) ابن واصل، ١ ص ١٦٩ - ١٧٠

(٥) ابن إياس، ١ص ٦٨

الوقت ذاته، ثم لأول مرة يبقى في الوزارة الفاطمية وزير غير شيعي. وقد لاحظ السيوطي المؤرخ أن سيطرتهما على الخليفة الفاطمي تشبه سيطرة البويهيين مع خلفاء العباسيين السنة. فكانت هذه الحالة تبين مدى الضعف الذي وصلت إليه الخلافة الفاطمية في أخريات أيامها؛ مما مهد للقضاء عليها.

وكان القضاء على الخلافة الفاطمية، وعودة المصريين إلى المعسكر السني أمراً تمليه ضرورة الموقف الإسلامي، حتى يتمكن المسلمون في المشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين، الذين استفادوا من هذا التشتت كما ذكرنا. يضاف إلى ذلك أن عقيدة صلاح الدين المذهبية كانت سنية، ولم يكن عنده باعث ديني على أن يؤمن بأحقية الخلافة الفاطمية وانتسابها إلى بيت النبي ،أو بمبادئها الشيعية حتى يبقى عليها. كذلك كان نور الدين، وهو الذي أرسله وعمه إلى مصر، مثل بقية الترك السلاجقة متعصباً للعباسيين، فكتب إلى صلاح الدين بضرورة قطع الخطبة عن اسم العاضد، وجعلها للخليفة المستنجد بالله[1] العباسي، فضلا عما يترتب على ذلك من خضوع مصر لسلطانه مباشرة. أما الخليفة العباسي؛ فإنه كان ينتظر بفروغ الصبر إلغاء خلافة الفاطميين أعداء بيته، والخطبة له في أرض مصر وما يتبعها من أملاك، حتى أنه كتب في ذلك لنور الدين.

ولما شرع صلاح الدين في إلغاء الخلافة الفاطمية، اضطر إلى التمهل على الرغم من إلحاح نور الدين وعتاب الخليفة العباسي، لأنه لما اختبر وقع إلغائها بين أعيان المصريين وجد ميلهم صريحاً لهذه الخلافة العلوية، ووجد أنه لو قام به سريعاً لقامت ضده فتنة لا تتدارك نتائجها[2]، ولا سيما أن المذهب الفاطمي كان قد انتشر انتشاراً هائلا بين المصريين؛ حتى قال القاضي الفاضل عنه إنه خالط من المصريين اللحم والدم. ولذلك سار في إلغائها بخطوات وئيدة، دلت على قدرته السياسية.

فعمل صلاح الدين على محاربة الدعوة الفاطمية، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة معاً، إذ كان من ألقابه كوزير تفويض للعاضد؛

(١) حسن المحاضرة، ٢ص ١٩. عن المستنجد؛ انظر.

Ency. de Isl, (art·Al-Mustandjid) t3, P. 820.

(٢) النجوم، ٦ص ٧ س ١٣-١٤؛ ابن واصل، ١ص ٢٠٠.

كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين؛ مما أطلق يده. حقاً إن الخليفة العاضد منذ أيام وزيره شيركوه وهو غير فاطمى، كان يتكفل بتولية القضاة والدعاة كما ذكرنا، ولكن يبدو أنه فى وزارة صلاح الدين، لم يعد له هذه السلطة الدينية: فعزل صلاح الدين قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وشرد الدعاة، وألغى مجالس دعوتهم، وأزال أصول المذهب الشيعى، مثل: الأذان بحى على خير العمل، بدلا من الأذان بحى على الفلاح بل حذف من النقش الدينى على العملة المتداولة بين الناس صيغة العقيدة الشيعية: «علىّ ولىّ الله»[1]. ثم أخذ فى إبراز أن نسب الفاطميين غير صحيح، وأنهم من نسل المجوس أو اليهود، وإن زعموا أنهم علويون، حتى لا ينسبوا إلى بيت النبى[2]. كذلك منع صلاة الجمع بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم، حيث استمر هذا المنع مائة عام إلى أن جاء المماليك ليعيدوها إلى الجامعين[3]، كما أنه كان يخطب لنور الدين بعد العاضد فى الجوامع الأخرى[4].

وفى الوقت ذاته، جعل صلاح الدين همه عودة مذهبى السنة: الشافعى ومالك إلى انتشارهما الأول قبل مجئ الفاطميين. ويجب أن نقرر أن الفاطميين على الرغم من حرصهم على نشر مذهبهم، فإنهم لم يقضوا على شعائر المذاهب المخالفة، حيث صرح القلقشندى بقوله: إن مذهبى مالك والشافعى كانا موجودين فى عهد الفاطميين ظاهرى الشعار[5]. وليقوم بذلك أخذ فى بناء مدارس[6] لتدريس المذهبين السنيين، ليس فقط فى القاهرة، وإنما أيضاً فى جميع أنحاء القطر؛ مع أنه لم يكن للمذاهب غير الشيعة شئ من المدارس، مقتدياً فى ذلك بنور الدين، الذى أكثر من بناء المدارس بالشام. ويبدو أن صلاح الدين وشيركوه، كانا يرعيان المذهب الشافعى، ربما لأنهما كانا من معتنقيه، أو تقرباً للمصريين، الذين كانت غالبيتهم من اتباعه قبل مجئ الفاطميين، أو لأن الفاطميين أنفسهم

---

(١) أنظر. Lavoix : .Catalogue, P. 196 (450)
وذلك ابتداء من عام ٥٦٤/١١٥٨.

(٢) الروضتين، ١ص ٢٠١.

(٣) حسن المحاضرة، ٢ص ٦٧.

(٤) الخطط، ٢ص ١٧٥ س ٥

(٥) صبح، ٣ص ٥٢٠ .

(٦) الخطط، ٤ص ١٩٢ - ١٩٣؛ النجوم، ٦ص٥٤ ٥٥؛ انظر أحمد بدوى، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، القاهرة ١٩٥٣ ص ١١

كانوا على العكس يرعون مذهب مالك دون الشافعي، ومن سألهم الحكم به أجابوه[1]. وقد رأينا شيركوه يزور ضريح الشافعي يوم دبر مقتل شاور، وبنى صلاح الدين حول الضريح مدرسة، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل[2]، وأنه جعل الحكم في إقليم مصر كله لقضاة الشافعية وحدهم. ويذكر المقريزي نتيجة لذلك، أن تظاهر الناس في مصر بمذهبي مالك والشافعي، واختفى مذهب الشيعة[3].

ثم خطا خطوة أخرى ترمي إلى إضعاف نفوذ حاشية القصر، وبخاصة أنه الوزير المتحكم الذي لا يرد أمره في شئ[4]. فقد كان نفوذها كبيراً في وقت العاضد، تدخل في شئون السياسة، بحيث تمكنت من قتل الوزير المستبد طلائع ابن رزيك كما ذكرنا، ولا غرو فهي فرقة كبيرة، لم تعرف مصر لها مثيلا في قصر إسلامي من قبل، إذ يقول المقريزي: إن عددها عند سقوط دولة الفاطميين، بلغ ثمانية عشر ألفاً[5]. فنجد صلاح الدين يضايق أهل القصر، ويستبد بهم استبداداً، ويعمل على اغتيال كبيرهم مؤتمن الخلافة، وكان خصياً أسود من الأستاذين المحنكين؛ بحجة أنه تآمر على قتله ومالأ الأجنبي بأن استدعى الفرنجة، كما فعل شاور. ومما يدل على نجاح صلاح الدين في توطيد سيطرته على قصر الخليفة الفاطمي بعد قتله مؤتمن الخلافة هذا، قول المقريزي: إن جوهراً فاتح مصر، وخراب الفاطميين بسبب جوهر[6]. وبعده عين صلاح الدين للقصر الفاطمي خصياً أبيض اللون من أتباعه، لعله تركي أو يوناني، كان شيركوه قد اعتقه، اسمه قراقوش[7] بمعنى الطائر الأسود - ولقبه بهاء الدين، بأن جعله

(١) صبح، ٣ص ٥٢٤.
(٢) رحلة ابن جبير، ص ١٧.
(٣) الخطط، ١ص ١٧٥ س ١٦ - ١٧ .
(٤) وفيات، ٣ص ٤٨٠ (في آخر الصفحة).
(٥) الخطط، ٢ص ٣٦٩ س ٨ .
(٦) نفسه، ٣ص ٤س ٤-٥ .
(٧) عنه : وفيات ، ٢ص ١٨٣ - ١٨٤ ؛ انظر .
Ency de l'Isl, (art. Karakûch) t2 , P. 786 - 7 .
Karakoûch, sa légende et son histoire (M.M.A.F.) III. Paris, 1890. P. : Casanova 447 ssq.

زماماً للقصر، أى مشرفاً على شئونه. فأشرف قراقوش على أمور القصر الفاطمى؛ بحيث أصبح لا يجرى فيه صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين[1] يُضاف إلى ذلك أن صلاح الدين صادر مخصصات العاضد، ومنعه من المال والخيل والرقيق، ولم يبق عنده غير فرس واحد طلبه منه. كذلك منع رسوم الخلافة - وهى حفلاتها الرسمية فى الأعياد وغيرها- من ركوب فى المواكب، وجلوس عام فى القصر الكبير، واعتقل الخليفة ولم يعد يظهر للناس البتة[2]، حتى يبيّن لهم ما يريد من إزالة دولته ويعودهم على نسيانه، واعتقل أقرباءه، بل جعل القاهرة عاصمة الفاطميين مبتذلة[3]، وحط من قيمتها؛ كما ألغى من نقش العلمة[4] كلمة المعزّية، التى تدل على أن بانى القاهرة هو الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمى. ولما جاء أيوب أبو صلاح الدين فى سنة ٥٩٥ / ١١٦٩ ، أخرج العاضد للقائه، وهذا يدل على مدى امتهان حق هذا الخليفة[5]، وقد حدث مثل ذلك، حينما كان يسيطر ملوك البويهيين الشيعة على الخليفة العباسى السنى الطائع وأجبروه على استقبال رسول الخليفة العزيز[6] ويقول عمارة اليمنى، إن صلاح الدين فعل بالفاطميين، أكثر مما يفعله الفرنجة[7].

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات حاسمة للإجهاز على قوة الخلافة الحربية، التى كانت قد ضعفت بدليل تسابق الترك والصليبيين إلى الاستيلاء على مصر. فقد بقى الجند الفاطمى فى أواخر أيامه يتكون من عناصر مختلفة كمعظم الجند الإسلامية فى عصره، إلا أنه أصبح يستمد قوته من عنصرين أساسيين، هما: المصريون الذين كانوا قد كثروا فيه بسبب أن بلادهم أصبحت مهددة من جانب الصليبيين؛ فاضطروا إلى القيام بالدفاع عنها؛ بحيث أنهم لم يصبحوا فقط عماد جنده، ولكن أيضاً من قواده، فنقرأ غالباً فى كتب المؤرخين عبارة: «الأمراء المصريين[8]»؛ أما العنصر الآخر: فهو السودانيون ومعظمهم من النوبيين، الذين

(١) شاهنشاه بن أيوب، منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه، تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى، ص ٢٦٢ ملحق فى كتاب ابن شداد (بهاء الدين) : كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى.

(٢) الخطط، ٢ص ١٧٥.

(٣) نفسه، ٢ص ١٨٤ س ٢٦ .

(٤) أنظر. Lavoix ؛ Catalogue,P. 169 no. 450.

(٥) الخطط، ٢ص ٣٥٠ ص ٢٧ ؛ ابن واصل ، ١ص ١٨٥

(٦) النجوم، ٤ص ١٢٤-١٢٥

(٧) ابن واصل، ١ص ٢١٣

(٨) الخطط، ٣ص ٢ س ١٦

كثروا منذ عهد المستنصر كما ذكرنا. وعلى العكس، لم نعد نسمع فى تكوين الجند الفاطمى عن العناصر السابقة من المغاربة البربر، والمشارقة الترك والديلم، فالأولى قد أبعدت من صفوفه منذ ثورة أبى ركوة المغربى فى عصر الحاكم، وانفصال المغرب عن طاعة الفاطميين فى عهد المستنصر. أما المشارقة وهم الترك والديلم فإنهم أبعدوا منذ مجئ الترك السلاجقة الشام، ولم يعد للفاطميين فيهم ثقة، أما الأرمن الذين زادوا منذ أيام بدر، وكثروا فى وزارة بهرام، فلم نعد نسمع عنهم بين طوائف الجيش الفاطمى.

وقد بدأ صلاح الدين بطائفة السودانيين، الذين كانوا يكونون غالبية الجيش الفاطمى فى آخر أيامه، ولا يعترفون إلا بالخلافة الفاطمية، وبلغ عددهم أيام العاضد خمسين ألفاً، وكانوا يقيمون فى حارات كثيرة بظاهر القاهرة، حيث عرفت لهم طوائف قوية، مثل: الفرحية والريحانية والميمونية والحسينية والمنصورية. وكان السودانيين قوة وشوكة فى وقت العاضد، ويقول المقريزى إنهم سيطروا على الجيش والدولة والقصر، وإذا ثاروا على وزير قتلوه[1]. لذلك تحرشوا بصلاح الدين بعد قتل مؤتمن الخلافة وثورة حرس القصر وأغلبهم من السود مثلهم، فأرسل صلاح الدين نحوهم أخاه الأكبر توران شاه-بمعنى ملك الشرق- على رأس الترك لقتالهم. ومع أن السودان كادوا يتغلبون على الترك، إلا أنهم انهزموا لما أجبر صلاح الدين الخليفة على تخذيلهم[2]، وأحرق حاراتهم بما فيها مساكنهم ونساؤهم وصبيانهم؛ فانهزموا إلى الصعيد، وعرفت الواقعة بواقعة السودان أو العبيد، وذلك فى سنة ٥٦٤/١١٦٨.

وفوق ذلك، استبد صلاح الدين بقواد الجيش الفاطمى «الأمراء المصريين»، مع أنه فى أول الأمر بذل لهم المال فأحبوه وأطاعوه[3]؛ وكان عمه قبله لم يغير على أحد شيئاً[4]، فعمل على إنقاص إقطاعهم[5]، ثم قبض عليهم فى ليلة واحدة. وأنزل أصحابه فى دورهم، وفرق إقطاعاتهم عليهم[6]. ويقول المقريزى، منذ

---

(١) نفسه، ٢ص ٢٩ س ٢٢.

(٢) نفسه، ٢ص٣ وما بعدها؛ الحنبلى، ورقة ١٢. عن توران شاه: وفيات: ١ص ١٧٥-١٧٧.

(٣) النجوم، ٥ص ٣٥٥ س ٥-٦.

(٤) الروضتين، ١ص ١٧٢.

(٥) الحنبلى، ورقة ١٩.

(٦) الخطط، ٢ص ١٧٥ س ٢١-٢٢، ٢ص ٣٧٩ س١.

كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا؛ فإن أراضى مصر كلها كانت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده[1]؛ إذ كان معظم من جاء معه من التركمان- وهم الترك- والكرد[2]. وكان الرجل منهم إذا استحسن داراً أخرج سكانها ونزل فيها، بحيث أن معظم أهل القاهرة كانوا يبكون من الاستبداد[3].

ولما تم له إضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها، لم يتردد فى إلغائها من مصر فى أول جمعة من محرم سنة ٥٦٧/١٠ سبتمبر ١١٧١، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسى السنى المستضئ بأمر الله، الذى تولى بعد أبيه المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦/ ١١٧٠، وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ مائتى سنة. وقد قيل فى ظروف هذا الإلغاء عدة روايات منها: إن صلاح الدين لما خطب لبنى العباس، اغتم الخليفة العاضد ومات، أو أنه كان فى يده خاتم فيه سم فمصه ومات، كما قيل إن الطبيب الذى كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين فى عزله، امتنع عن مداواته[4]، أو أن توران شاه أخو صلاح الدين، هو الذى قتله بنفسه على حسب مصادر الفرنجة[5]. وقد حاول صلاح الدين إبعاد الشبهة عن نفسه فأدخل الشهود والأعيان، فرأوه وقلبوه، فلم يروا به أثر قتل، كما سار فى جنازته راجلا مشقوق العباء، وقد لبس البياض[6]، ويلاحظ المؤرخون أن العاضد فى اللغة هو القاطع[7]، وفعلا قطعت بالعاضد خلافة الفاطميين، وأن وفاته كانت فى عاشوراء يوم ذكرى مقتل الحسين، وهو يوم نوح وبكاء عند الشيعة.

وبعد هذا الإلغاء استولى صلاح الدين على الكنوز التى كان خلفاء الفاطميين قد كدسوها منذ مجيئهم مصر فى الخزائن والحواصل، عبارة عن قاعات كبيرة بداخل قصورهم وخارجها، وتتمثل فيما جمعوه منها فى جميع بقاع الدنيا، وفيما صنعوه فى مصر مما لم يكن له مثيل من قبل فى أى بلاط آخر. حيث

---

(١) نفسه، ١ص ١٥٦ س ٢٢ .

(٢) الروضتين، ١ص ١٧، ١٧٣، ١٧٨؛ انظر. Gibb ؛
The armies of Saladin. Cahiers d'histoire égyptienne. Serie. III. Fasc. 4 Mai 1951, P. 304 .

(٣) الخطط، ٢ص ١٧٥ س ٢٢.

(٤) النجوم، ٥ص ٣٣٤-٣٣٥؛ انظر.
Ency de l'Isl, (art.al-Adid) 2 éd, t I, P. 203-204.

(٥) ورد ذلك فى : Ency, t4, P. 88.

(٦) ابن حماد ، ص ٧٣

(٧) نفسه، ص ٦٢. حسن المحاضرة، ٢ص ١٧

سبق أن ذكرنا أمثلة لها، وقد استمر بيع الكنوز، التى قدر قراقوش بنفسه أثمانها، أكثر من عشر سنين، كما أهدى صلاح الدين بعضها لمن حوله وبخاصة لنور الدين[1]. أما الكتب بالقصر الفاطمي الكبير، وكانت كثيرة فإن صلاح الدين كان يهمه التخلص منها لاحتوائها على كتب الشيعة وعقائدهم، فحدد لبيعها فى كل أسبوع يومين[2]، وأعطى كثيراً منها للقاضى الفاضل[3](ت٥٩٦/ ١١٠٠)، الذى كان قد عمل فى الدواوين الفاطمية أيام رزيك بن طلائع وشاور، ولما جاء شيركه عينه رئيساً لديوان الإنشاء بدلا من رئيسها السابق يوسف بن الخلال، وأصبح ذراع صلاح الدين اليمنى ووزيره فيما بعد. أما الأملاك والأراضى؛ فإنها وزعت على أقرباء صلاح الدين، وأفراد أسرته الكثيرين، الذين استدعاهم من الشام، فأعطى؛ أيوباً إقطاع الفيوم[4]، وتوران شاه قُوص وأُسوان وعَيْذاب، وذلك بعد هزيمته للسودان[5]. وقد أغلق القصور أو ملكها أمراءه، ومنح أباه إحداها.

أما سكان القصور الفاطمية، فإن قراقوش أخرج منهم على حسب قول المقريزى عشرة آلاف شريف وشريفة- أى من العلويين- ومن الخدم ثمانية آلاف بين خادم وأمة مولدة أو أكثر؛ فأعتق صلاح الدين بعضهم وأهدى أو باع الآخر[6]. أما أولاد العاضد وأقرباؤه- وكانوا أكثر من مائة وثلاثين غير الأطفال- فإنهم اعتقلوا وفرق الرجال من النساء لئلا يتناسلوا، واستمروا، معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية، ومجئ المماليك[7]. وقد كانت تصرفات قراقوش الجائرة نحو سكان القصور الفاطمية سبباً فى سخرية المؤلفين منه، حتى أن أحدهم من المصريين ألف كتاباً عنه سماه: الفاشوش- أى الغباوة- فى أحكام قراقوش، ذكر

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٩٤ وما بعدها؛ الحنبلى، ورقة ٢٠.

(٢) الروضتين، ١ص ٢٦٧؛ الخطط، ٢ص ٢٥٥.

(٣) النجوم، ٥ص ٣٣٦. عن القاضى الفاضل: وفيات، ١ص ٥٠٩-٥١٢؛ انظر.

: Beitrâge, P. 34. : Bjokmann

Ency de l'Isl, (art. al-Kâdî al-Fâdil) t2, P. 646-647.

(٤) وفيات: ١ص ١٥١.

(٥) الخطط، ٢ص ٥٩ س ٢٠-٢١.

(٦) نفسه، ٢ص ٢٩٦س٨؛ ابن واصل، ١ص ٣.

(٧) الخطط، ٢ص ٢١٦، ٢٩٤، ٢٩٦.

فيه أشياء يبعد وقوعها منه، والظاهر أنها موضوعة للنيل منه[1]، كما لعل القراقوز تحريف لاسمه، وهو اللعبة التى بقيت إلى وقتنا لتضحك الناس فى مصر، بل وفى العالم أجمع .

*

وقد ترتب على إنهاء صلاح الدين الخلافة الفاطمية رنة فرح كبيرة بين السنيين، الذين وصفوها بدولة الرافضة[2]، أى التى رفضت الدين الإسلامى وخرجت عليه. وقد كانت الخلافة العباسية السنية تتطلع إلى أن يزيل نور الدين الدولة الفاطمية، حتى أن الخليفة المقتفى لأمر الله بعث بتقليدها إليه حينما قتل الظافر بمصر[3]، وإن كان سقوطها على يد صلاح الدين تم فى أيام حفيده المستضئ بامر الله[4]. وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلى نور الدين، فبعث هذا الأخير رسولاً بكتاب تهنئة خاص للمستضئ، ومعه منشور الإلغاء الذى قرئ فى سائر المدن والقرى إلى أن وصل إلى بغداد[5]، كما أرسل صلاح الدين للمستضئ بكتاب من خط القاضى الفاضل وإنشائه[6] فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وأقيمت الاحتفالات لاستقبال نور الدين، وقراءة المنشور. وقد أسرع الخليفة المستضئ بإرسال الخلع من ملابس وغيرها لنور الدين، ومثلها أقل فى العدد والقيمة لصلاح الدين لأنه نائب لنور الدين، وكلها سوداء شعار العباسيين، بدلا من البياض شعار الفاطميين.

وفى مصر احتفل صلاح الدين رسمياً بوصول خلعة الخليفة العباسى إليه، فلبسها وشق بها حارات القاهرة، وفى صلاة الجمعة التالية للإلغاء نصبت على المنابر فى مصر والقاهرة الأعلام السوداء، ولبس الخطباء ثياباً سوداء أرسل بها من بغداد[7]، وأجبر على الحضور رجال الدولة وأعيان المصريين، وهدد من تأخر

---

(١) وفيات، ٢ص ١٨٣. ينسب تأليفه إلى ابن مماتى.
(٢) النجوم، ٥ص ٣٥٧ س ١٢.
(٣) حسن المحاضرة، ٢ص ١٧.
(٤) الفخرى، ص ٤٢٥؛ انظر.
Ency de l'Isl, (art. al-Mustadi) t3, P. 811.
(٥) حسن المحاضرة، ٢ص ١٩؛ السلوك، ١/١ ص ٤٤ وما بعدها.
(٦) الحنبلى، ورقة ٢٠-٢١.
(٧) سنا البرق، ص ٦١

منهم بالعقاب فحضر من لا يريد الحضور[1]، وأصبح يخطب[2] لصلاح الدين على منابر مصر، بعد الخليفة العباسي ونور الدين. كذلك قررت العملة باسم المستضيء بأمر الله، وباسم الملك العادل نور الدين فنقش اسم كل منهما فى وجه[3].

أما حقيقة موقف المصريين من إنهاء الخلافة الفاطمية، فقد كان له وقع ألم وأسى؛ بحيث أن ابن تغرى بردى يقول: إن نفوس المصريين كادت تزهق لانتهاء دولة الفاطميين. ولا ريب، فهذه الخلافة الفاطمية، كان قد أحبها المصريون؛ لأنها جعلت من مصر دولة مستقلة استقلالاً تاماً، لا يحكمها ولاة معينون من بغداد أو دمشق أو المدينة كما كان الحال من قبل، ولكن خلفاء من بيت النبى ينافسون الخلفاء العباسيين فى العراق، فنبهت بذلك إلى مركز مصر فى دار الإسلام، ولم ينس المصريون أن الفاطميين جاءوا للجهاد، وأنهم قاموا بدور هام فى الدفاع عن الإسلام بصد البيزنطيين اليونان، الذين كانوا بدأوا الحروب الصليبية، ووصلوا إلى قرب القدس وحدود مصر، قبل مجئ الفرنجة بالشام. كذلك كانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى دواوينها على المصريين، سواء أكانوا من المسلمين أم القبط، الذين تولوا أعلى مناصبها بما فيها الوزارة. وأخيراً؛ فإن الخلافة الفاطمية فى مصر، كانت أعياداً متواصلة؛ مما لم يعرف له مثيل من قبل، ليس فقط للمسلمين من أهلها وإنما أيضاً للقبط؛ بحيث إنها فى أعياد القبط كانت تطلق المأكولات والملابس والأموال للموظفين القبط والمسلمين ليكون الابتهاج عاماً، وأنها، كانت تقوم بسك دنانير خاصة بها، كما كانت تفعل فى أعياد المسلمين[4]. لذلك أعتبرها المصريون دولتهم، حتى إن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها : دولة المصريين[5].

---

(١) السلوك، ١/١ ص ٤٧.
(٢) النجوم، ٥ص ٣٥٧ س ٢.
(٣) السلوك، ١/١ ص ٤٥.
(٤) عن أعيادها: نظم الفاطميين، ٢ص ١٣١-١٣٦؛ وقبله.
(٥) الروضتين، ١ص ٢٢٠.

ومن ناحية أخرى، كان سقوط الخلافة الفاطمية يعني عندهم أن مركز بلادهم قد ضعف بعودتها؛ ولاية تابعة لخلافة العباسيين، وأنهم خضعوا لجنس أجنبي عنهم وهو الغُزّ (أي الترك)؛ بحيث إن ابن جبير الرحالة الذي زار مصر عدة مرات أيام صلاح الدين؛ لاحظ أنه بإنهاء خلافة الفاطميين تملك الغُزَ ديار مصر[1]، كما ألف ابن الجوزي المؤرخ العراقي المتعصب (ت ٥٩٧/ ١٢٠٠)، كتاباً سماه: «النصر على مصر»[2]. وكان سقوط مصر يعني أيضاً الخضوع لصلاح الدين الكردي المستبد، الذي استبعد في وزارته رجال مصر[3]، وأخرجهم من الوظائف والجيش وأنزل رجاله في بيوتهم، وهُم أيضاً باخراج القبط من الدواوين، لولا خوفه من توقف دولاب الأعمال[4]. كذلك قدّروا أن عصر الرخاء قد زال بزوال الفاطميين؛ لأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء في مصر والشام، وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول منذ مجئ صلاح الدين، وظهرت بدلها عملة رديئة هي الفلوس وهي من نحاس أو نحاس مخلوط بفضة، فكان العثور على دينار ذهب «أحمر» أشبه ببشارة من الجنة؛ مع أن الفلوس كانت تعتبر زمن الفاطميين عملة غير قانونية[5].

لذلك نجد المصريين يقومون ضد صلاح الدين بثورات؛ بقصد التخلص من استبداده واحتلال الترك لبلادهم وأخذهم خيراتها، وإعادة الخلافة العلويّة المصرية. ويحس صلاح الدين بعداء المصريين له ورغبتهم في التخلص منه؛ فيذكر في مراسلاته لنور الدين، أن أهل مصر وجندها أعداء[6]. وقد قاموا بثورات عارمة بجميع طبقاتهم ودياناتهم، استمرت عدة سنوات، وشملت معظم

(١) رحلة، ص ٥٣، عنه؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art. Ibn Djubair) t2, 296.

زار مصر بين ٥٨٥-٥٨٧/ ١١٨٩-١١٩١و٦١٤/ ١٢١٧، وتوفي بالإسكندرية.

(٢) حسن المحاضرة، ٢س ١٩، عنه؛ انظر.

Ency. ' de l'Isl, (art. Ibn al- Djawzi) t2, P. 394-5.

(٣) السلوك ، ١/١ ص ٤٣ ص ١٣ -١٤ .

(٤) نفسه، ١/١ ص ٤٧ - ٤٨ .

(٥) نفسه ١/١ ص ٤٦ - ٤٧. فلوس جمع فلس، كلمة من أصل يوناني أو لاتيني. انظر. أنستاس ماري، النقود العربية، القاهرة ١٩٣٩، ص ٦٠ ، ٦٥، ٦٧؛ نظم الفاطميين، ١ص ١٣٧ هامش(٣).

(٦) ابن واصل، ١ص ٢٤٨

مدن مصر من الإسكندرية إلى حدود النوبة. ونحن لا نقبل ما روجه مؤرخو السنة من أن ثورات المصريين، كانت بالإتفاق مع الصليبيين رغبة فى تشويه أهدافها. حقاً إن الصليبيين جاءوا لمهاجمة مصر فى الوقت الذى قامت فيه هذه الثورات؛ لأنهم كانوا يتربصون بها منذ أن استقروا بالشام، وينتهزون فرصة اضطراب أحوالها للحصول على مغانم.. ففى رأينا أن ثورات المصريين ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطنى ضد الاحتلال التركى، ومن الكبرياء لاستبداده بهم، خصوصاً وقد رأيناهم من قبل يثورون بشاور لاستعانته بالأجنبى سواء أكان من الصليبيين أم الترك. وحتى بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة، وأرسل الفرنجة والبيزنطيون حملة إلى دمياط فى ٥٦٥ / ١١٦٩ (١)، تقديراً منهم لخطر التحالف بين مصر والشام؛ فإن أهل مصر بمن فيهم الخليفة العاضد الفاطمى عاونوا على صد هذه الحملة وانسحابها، حتى نوه صلاح الدين بهذه المعاونة. وبذلك تعتبر ثورات المصريين دليلاً جديداً يناقض فرية المؤرخ السيوطى، فى أن أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلبه(٢).

ولعل أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية، هى التى اشترك فيها جمع كبير من المصريين بما فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ القصر، والعوام من الشعب، وأهل ثلاث ديانات من المسلمين والنصارى واليهود، وحتى السودانيين. وذلك فى سنة ٥٦٩/ ١١٧٣(٣). وكان على رأس هذه المؤامرة شخصيات من كبار رجال الدولة السابقة، مثل ابن عبد القوى المعروف بالجليس، الذى كان أفراد أسرته يتولون رئاسة الدعوة الفاطمية والاشراف على مكتبة القصر أباً عن جد(٤)، والعويريس المشرف على مالية الفاطميين «متولى ديوان

---

(١) نفسه؛ الخطط، ١ص ٣٤٦- ٣٤٧، ١ص ١٨١؛ انظر. حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص ١٣٢ - ١٣٦ .

(٢) حسن المحاضرة، ٢ص ١٧٨ س ٢٢.

(٣) الروضتين، ١ص ٢١٩ وما بعدها؛ ابن واصل، ١ص ٢٤٣ وما بعدها، الكامل، ٩ص ١٢٣ - ١٢٤؛ النجوم ٦ص ٧٠ - ٧١؛ السلوك ١/١ ص ٥٣ - ٤٤؛ انظر .

. Les Derniers Fatimides, P. 415 - 445.، Casanova

(٤) عنهم؛ الخطط، ٢ص ٢٢٦ - س ١٩ .

النظر» ، وابن كامل القاضى، والقشة أحد أمراء المصريين« أى قوادهم» ، والشاعر الفقيه عمارة اليمنى[1] ، الذى كان من أنصار الفاطميين، وجاء مصر فى عهد الفائز، واستمر يمدحهم ويرثيهم حتى بعد زوال خلافتهم، والواعظ علىّ بن نجا. وكانوا قد اختلفوا على أن يكون خليفتهم رجلاً كبير السن من بنى عم العاضد أى من نسل جبريل أو من أولاد العاضد نفسه؛ حيث يذكر المقريزى أن العاضد ترك أحد عشر ولدا[2]، ثم اتفقوا على تولية ابن العاضد الأكبر ولقبوه بالحامد لله، ووزعوا فيما بينهم المناصب، ويذكر المؤرخون وأكثرهم من السنة انصار صلاح الدين -أنهم دبروا هذه المؤامرة بعد مراسلات مع الفرنجة فى صِقلّية والشام «الساحل» ، وحتى مع صاحب الدعوة الإسماعيلية فى شمال الشام رشيد الدين سنان بن سليمان، ويلقّب بشيخ الجبل، وكان أبوه من كبار دعاة الحسن ابن الصبّاح ببلاد الألموت بفارس -بمعنى عش النسر- وجاء إلى الشام فى أيام نور الدين. ودعا للشيعة الإسماعيلية، وأصبح كبيرها، واستولى على قلاع كثيرة من السلاجقة، وكان تحت يده الفداوية وهم المخلصون من أتباعه، الذين يقتلون بإشارة منه، فيأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى، ويستعجل فى مرضاته الردى؛ كما يقول ابن جبير الرحالة[3]، وأصبحت بلاده تعرف ببلاد الإسماعيلية[4]. فكتبوا إليه ليرسل أحد رجاله لتدبير مكيدة لاغتيال صلاح الدين، وقالوا له: إن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة، ولا يجب به القعود عن نصرة»[5]. واتخذ عمارة اليمنى أحد المشتركين فى المؤامرة فى مدح توران شاه، وأغراه بالذهاب إلى اليمن- وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين- بغية إبعاده لأنه عرف بقوة شكيمته؛ كما أنهم استطاعوا استمالة بعض القواد الترك الذين كانوا مع صلاح الدين. ولكن خبر المؤامرة وصل إلى علم صلاح الدين على يد أحد أعوانه وهو ابن نجا الذى دسه بينهم[6]،

(١) عنه : وفيات، ٢ص ٨٦ - ٨٩ .
(٢) الخطط، ٢ص ٣٩٥، يقول أبو شامة إنه كان له ولدان. الروضتين، ١ص ٢٢١.
(٣) رحلة، ص ٢٤٣
(٤) النجوم، ٦ص ١١٧، الروضتين، ١ص ٢٦٢؛ انظر.
Ency de Isl, (art. Islmâ'îlya) t2, P. 586;
Les Darniers Fatimides, 419 sqq. : Casanova
(٥) الروضتين، ١ص ٢٣١.
(٦) قيل أيضاً ابن مصال، نفسه، ١ص ٢٢٠س٦.

فاحتاط على ولد العاضد وسجنه، وأحضر المتآمرين واعترفوا له، وأجبر فقهاء مصر على الإفتاء بقتلهم، فشنقهم وصلبهم فى ميدان بين القصرين، وهو أكبر الميادين بالقاهرة، كذلك قبض على كل من له يد فى المؤامرة من بعيد أو قريب فشنق كثيراً من رجال الحاشيةوأجناد الفاطميين السابقين، وقتل بعض قواده «أمرائه»، الذين استطاع المصريون استمالتهم، ولم يمكّن لورثتهم فى شيء. ثم تتبع أنصار الخلافة الفاطمية بالقتل والسجن، حتى انه قبض أيضاً على من ثار من دعاتهم بالإسكندرية، وجمع كثيراً من السودانيين وكواهم بالنار فى صدروهم ووجوهم[1]. وعلاوة على ذلك أمر كافة الأجناد المصرية والسودانية وحاشية القصر بالرحيل إلى أقصى الصعيد بقصد نفيهم؛ بحيث لم يبق من العساكر الفاطمية بالقاهرة أحد[2]؛ كما قطع أرزاق الموظفين وصادر املاكهم، ومنهم القاضى والداعى والموظف والأمير[3]، فأصبحت الدولة كلها بين يديه، وبدى الكرد والترك من جنده.

هذه الثورة التى أطفئت فى العاصمة، ما لبثت أن اشتعلت من جديد فى الصعيد وهدفها أيضاً إعادة الخلافة الفاطمية، وذلك فى سنة ٥٧٠/١١٧٤[4]، ونقصد بها الثورة التى قام بها شخص يلقّب بكنز الدولة أو الكنز [5]، وهو مصرى من أهل الصعيد، كان من قواد الفاطميين «مقدماً»، وواليا على أُسوان، ولا سيما أنه كانت فى هذا الثغر حامية من العسكر مستعدة بالأسلحة؛ إذ كان من عادة الفاطميين إنزال العسكر فى مراكز الحدود «الثغور»[6] .واختلف بعض المصادر فى أصله، فقيل إن كنز الدولة من السودان؛ إلا أن المقريزى يقطع بصحة مصريته، حينما ينقل إلينا أنه خرج لقتال عبيد النوبة، الذين هاجموا القرى المتاخمة لثغر أُسوان، بالاشتراك مع عسكر صلاح الدين؛ فقاتلهم وهزمهم سنة

(١) السلوك ١/١ ص ٧٤ .
(٢) وفيات، ٣ص ٤٨٣.
(٣) الروضتين، ١ص ٢٢٠-٢٢١.
(٤) أبو الفداء، المختصر، ٣ص ٥٦؛ وفيات، ٣ص ٤٩٠؛ السلوك ١/١ ص ٥٧-٥٨؛ النجوم، ٦ص ٧٨؛ الحنبلى، ورقة ٢٢.
(٥) يسميه ابن شداد «الكنده». سيرة، ص ٢٧. بنو كنز هم من ربيعة قدموا مصر فى عهد خلافة المتوكل العباسى حوالى سنة ٦٤٠/٨٥٤، ونزلوا بأعالى الصعيد، وهم الذين ظفروا بأبى ركوه، والحاكم هو الذى لقّب أبا المكارم هبة الله بكنز الدولة، ولم تزل الامارة فيهم، حتى قضى عليهم صلاح الدين. المقريزى، البيان، ص ٢٧ وما بعدها.
(٦) الخطط، ١ص ٣٢١. عن أسوان؛ أنظر، معجم البلدان، ١ص ٢٤٨-٢٤٩.

٥٦٨/١١٧٢؛ كما أرسل صلاح الدين بعدها جيشاً بقيادة أخيه توران شاه إلى بلاد النوبة لتأديب أهلها، وإن لم يستطع أن يقوم بشئ هام، إذ كانت النوبة لا تزال دولة مسيحية مستقلة لم يفتحها المسلمون(١). وقد اشترك معه في هذه الثورة عباس بن شادى والى قُوص(٢)، وهي المدينة الكبيرة الواقعة شرقي النيل وسط الصعيد واعتبرت قصبته، ومحط التجارة والحجاج؛ بسبب أن الصليبيين كانوا يسيطرون في الشام. وقد جمعا حولهما عدداً كبيراً لم نسمع بمثله من قبل، بلغ مائة ألف من أهل الصعيد الأقوياء، والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين، الذين كان صلاح الدين قد نفاهم إلى الصعيد. وقد قدّر صلاح الدين خطورة ثورة الصعيد عليه؛ حتى أنه فكر في الذهاب بنفسه لإخمادها، ولكن خوفه من تجدد الثورات بالقاهرة؛ جعله يرسل أخاه العادل أبا بكر، الذى استطاع أن يهزمهم، ويقتل كنزاً وثمانين ألفاً من المصريين؛ كما نهب بلاد الصعيد عقاباً لها، وأخذ أسرى كثيرين من أهلها، صلب منهم ثلاثة آلاف؛ مما دعا إلى فرار عدد كبير من المصريين إلى بلاد النوبة(٣).

ولكن عادت الثورات إلى الصعيد حينما اندلعت من جديد بمدينة قفط(٤) وسط الصعيد قرب قُوص سنة ٥٧٢/١١٧٦، إذ كانت هذه المدينة منذ أيام خلافة علىّ بن أبى طالب وقفاً على العلويين. فقد ظهر فيها أحد الدعاة السابقين من بنى عبد القوى الذى استطاع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من أهلها بقصد إعادة الخلافة الفاطمية. فأرسل صلاح الدين نحوه جيشاً بقيادة أخيه العادل، الذى قتل منهم نحو ثلاثة آلاف، وصلبهم بعمائمهم وطيالستهم على شجر المدينة ليكونوا عظة لمن تحدثه نفسه بالدعوة للفاطميين.

ومع ذلك؛ فإن ثورات الشيعة لإرجاع الخلافة الفاطمية لم تنته من مصر، حتى بعد استقرار حكم صلاح الدين فيها؛ نتيجة لقضائه على كل مقاومة ضد حكمه. ففي سنة ٥٧٧/١١٨١(٥)، قام بالصعيد رجلان من أهل إسنا يدعوان

(١) السلوك، ١/١ ص ٥٠-٥١. يقول أبو شامة. السودان. الروضتين، ٩ص ٢٠٨.
(٢) عنها: معجم البلدان، ٧ص ١٨٣، وقبله.
(٣) الحنبلي، ورقة ٢٢.
(٤) الخطط، ١ص ٣٧٦. عن قفط: معجم البلدان، ٧ص ١٣٨-١٣٩.
(٥) السلوك، ١/١ ص ٧٦.

للفاطميين. وفى سنة ٥٨٤/١١٨٨[١]، ثار بعض الشيعة ونادوا بشعار العلويين فى شوارعها، وهتفوا : « يآل علىّ يآل علىّ»، ظنا منهم أن أهل القاهرة يلبون دعوتهم، ويخرجون العلويين المعتقلين. ولكن أهل مصر لم يهتموا بهم، فأخذوا بسهولة. والواقع إن أهل مصر، لم يعودوا يهتمون بعودة الفاطميين، بقدر اهتمامهم بصالح الإسلام، الذى أصبح مهدداً بشدة من قبل الصليبيين، وخصوصاً أن همة المسلمين جميعاً أصبحت متجهة إلى تكريس كل جهد لحربهم.

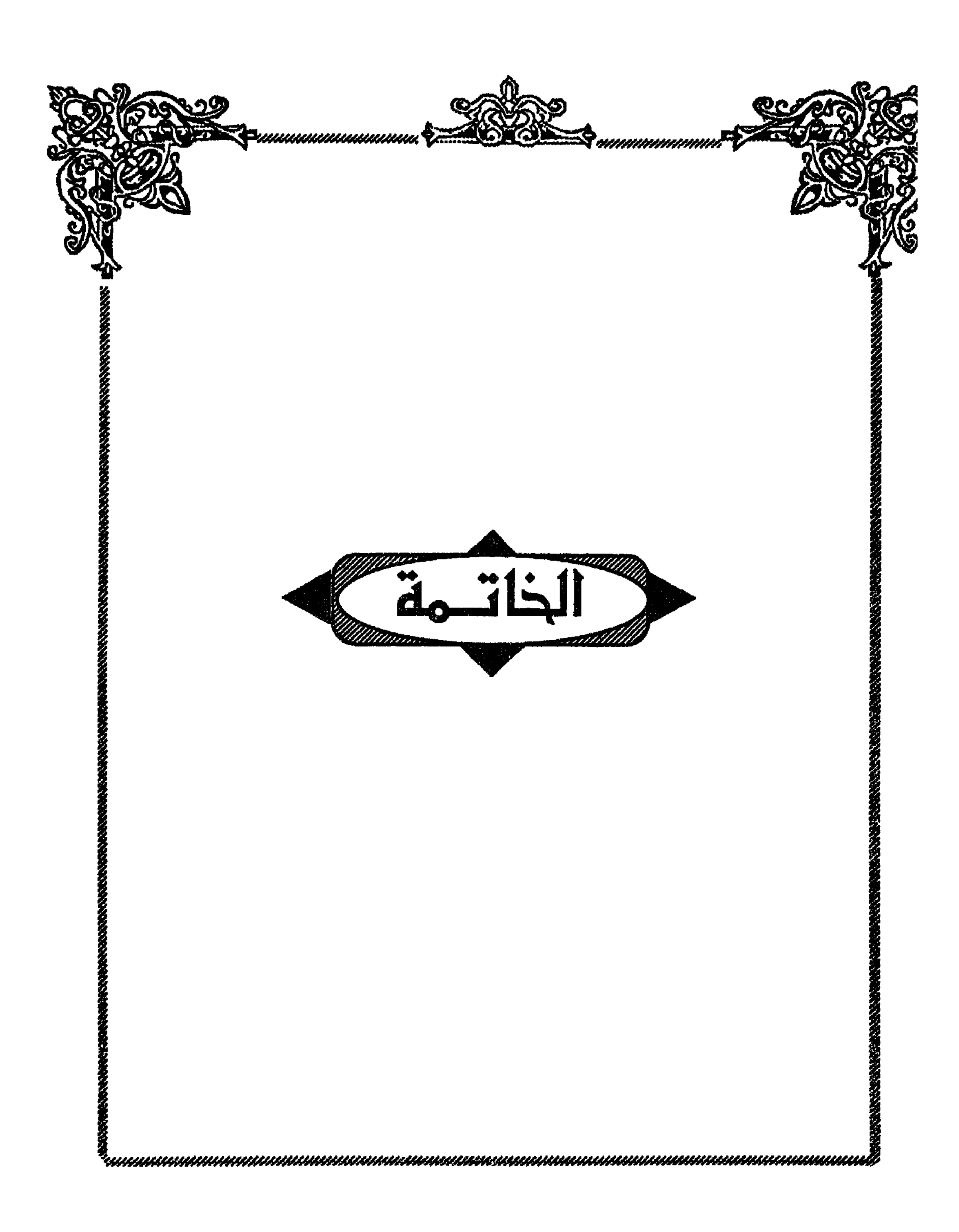
وعلى العكس؛ فإن صلاح الدين، الذى كان قد انتقل إلى الشام لحرب الصليبيين، ووجد مقاومة من جانب الإسماعيلية، التى كانت تنقم عليه قضاءه على الخلافة الفاطمية، حتى أنها حرضت على اغتياله عن طريق الفداوية[٢]؛ مما اضطره إلى محاربتها. والواقع أن الشيعة فى الشام فى أيام صلاح الدين بقيت محافظة على مذهبها ولا تزال حتى وقتنا الحاضر، وهى فرق متعددة، مثل: الدرزية والإسماعيلية والنصيرية، وهذه الأخيرة تعتبر من أعدى أعداء الإسماعيلية[٣].

---

(١) الكامل، ٦ص ١٩٧.

(٢) الروضتين، ١ص ٢٢٨-٢٢٩؛ الكامل، ٩ص ١٣٢؛ انظر. ماجد، صلاح الدين، ص ١١٤، ١١٧.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص٢٦٨ ؛ انظر. Frag. P3, n(1): Guyard.



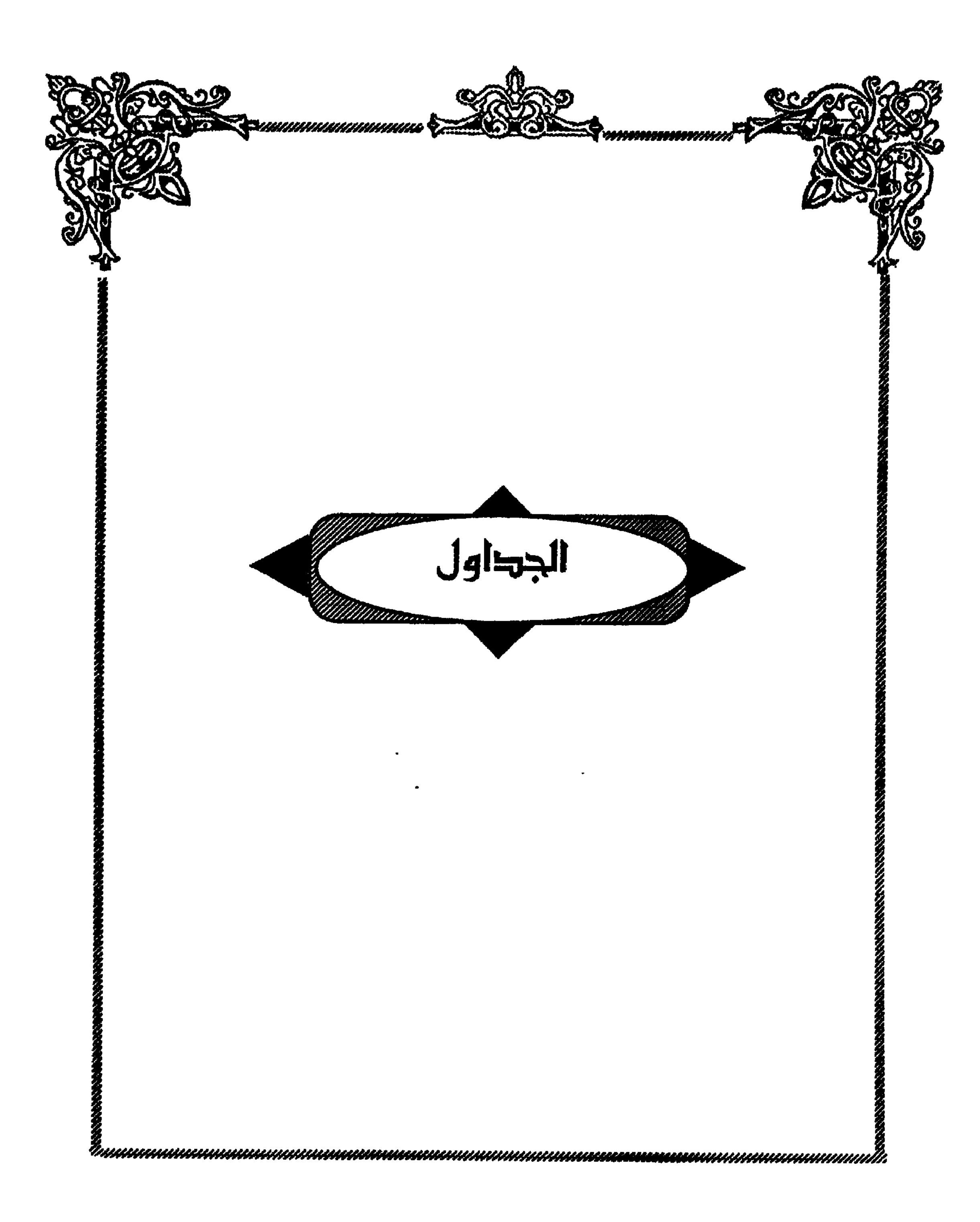
الخاتمة

إن تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر كان غامضا إلى عهد قريب جداً. فقد كانت معظم مصادره التاريخية ، لا تستقي من منابعها، أو أنها غير موجودة، أو مزيفة ، أو مضطربة، أو جافة، أو مختصرة، فضلا عن أن معظمها مصادر أدبية، لا تعطي فكرة صحيحة عنهم. ولكن بفضل ما حصلنا عليه من وثائق أو مخطوطات مكتوبة بأقلام معاصرة، تمكنا من أن نُكَوِّن تاريخاً صحيحاً للفاطميين في مصر.

فهذه الدولة الفاطمية أثارت انتباه المؤرخين المحدثين بحيويتها المتدفقة، التي أوجدتها في جسم الإسلام، الذي كان قد شاخ على يد الدولة العباسية. فتاريخها منذ انتقالها إلى مصر؛ أشبه بملحمة كبرى، دعوة إلى وحدة العرب في المشرق والمغرب، جهاد بضراوة ضد أعداء الإسلام، نشر الحضارة الإسلامية على نطاق واسع، نشر الدعوة الشيعية أو الدين الصحيح في رأيها، مجاعات ضارية، انقلابات متعددة، ثم سقوط مؤثر.

ثم إن هذه الدولة اعتبرت في وقتها دولة عظمى بكل مقاييس الدولة العظمى؛ فقد كانت تمتلك قوة عسكرية ضاربة ، ظهرت تجلياتها في انتصاراتها الحربية الكثيرة؛ حيث اعتمدت في أول الأمر على طوائف مختلفة من العسكر مثلما كانت غالب الجيوش الإسلامية الأخرى؛ إلا أنها منذ مجيئها إلى مصر اعتمدت على المصريين أيضاً؛ فاستخدموهم فيما عرف بالحجرية الكبار والصغار، وفي آخر أيام دولتهم في مصر تلاشت جميع الطوائف من جيشهم، ولا تسمع إلا عن العسكر المصري، وإن وجد بجانبهم السودانيون؛ بحكم أن السودان ملازم لمصر دائماً، كذلك هي دولة عظمى باعتمادها على الاقتصاد المزدهر، فاشرفت وحدها على تجارة البهار الهامة وما تدره من أرباح هائلة. مسيطرة على سواحل مصر في البحرين الأبيض والأحمر، وسواحل أقاليم الجزيرة العربية في الحجاز واليمن، والخليج . وأخيراً فهي دولة عظمى بامتلاكها النموذج الحضاري المتميّز، الذي أسهم بإبداع في النهوض بالمعرفة الإنسانية، ولا سيما الإسلامية، مما أبرز حلقة هامة من نهضات المسلمين.

ولا مراء،فإن مصر قبل أى بلد آخر، بمركزها الإستراتيجى بين القارات، كقاعدة لخلافتهم، تعودت على أن تحرك السياسة، وتنشئ الحضارة؛ خلقت للفاطميين هذا التاريخ المملوء بالنبض. ولكن الفاطميين بمجيئهم مصر، واتخاذها قاعدة لهم، عملوا أيضاً على إبراز أهمية دور مصر فى الإسلام، وهو الدور المتميّز، الذى لا تزال تلعبه فى الإسلام.



الجداول

أ- المصادر

أ- المخطوطات

إدريس عماد الدين (ابن الحسن ٧٨٢/١٤٦٨)، عيون الأخبار، مخطوط مصور بعضه بمكتبتي الخاصة، عن مخطوط الهمداني الخاص.

الأزدري (عليّ بن ظافر، ت ١٢٢٦/٦٢٣)، الدول المنقطعة، صورة شمسية بدار الكتب بالقاهرة برقم ٨٩٠ تاريخ.

جعفر بن منصور اليمن (نحو القرن الرابع الهجري)؛ كتاب أسرار النطقاء، نسخة خطية بمكتبة كامل حسين.

ابن الجوزي (أبو الفرج ٥٩٧/١٢٠١)، عجائب البدائع، مخطوط بالمكتبة الأهلية (.B.N) برقم ١٥٦٧.

ابن الجوزي (أبو المظفر، ٦٥٤/١٢٥٧)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مخطوط بدار الكتب، الجزءان الحادي عشر والثاني عشر، برقم ٥٥١ تاريخ.

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين، ت ٨٥٣/١٤٤٩)، رفع الإصر عن قضاة مصر، مخطوط بدار الكتب، برقم ١٠٥ تاريخ (وفي آخر كتاب الكندي: الولاة والقضاة).

الذهبي (شمس الدين، ت ٧٤٨/١٣٤٨)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مجلدات ٢٢-٢٤، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٤٢.

رسائل الحاكم بأمر الله، كتبها دعاة الفاطميين، ولا سيما حمزة بن عليّ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم: ٢٠و ٣٥ و ٣٧و ٣٩و٥٤ و١٣٢ و١٣٨ عقائد النحل؛ وبالمكتبة الأهلية (.B.N)، برقم: ٦١٢١و ٦٧٤٦و ٦٧٤٧و ٧٦٥١و ٦٧٥٢.

ابن زولاق (أبو محمد ، ت ٣٨٧/٩٩٧)؛ كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها، مخطوط بدار الكتب برقم ٣٥٩١ تاريخ، وبالمكتبة الأهلية (B.N)، برقم ١٢٠٦٩.

،تاريخ مصر، مخطوط في (B.N)، برقم ١٨١٧.

ابن سعيد الأندلس، الاغتباط فى حُلى مدينة الفسطاط، مخطوط بدار الكتب، برقم ٢٧١٢

شرح اللمعة من أخبار المعزّ لدين الله وتسيير عساكره إلى مصر -لم يعرف مؤلفه بعد- مخطوط بجامعة القاهرة، ٢٤٠٢٢.

شموس الغيوب من حناديس القلوب، مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B.N.) بباريس، برقم ٢٦٦٩.

العينى (بدر الدين، ت ٨٥٥/١٤٥١)، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية، برقم ١٥٨٤تاريخ، الجزء ٢١/ القسم ٣، والجزء ١/ القسم١.

، تاريخ دولة بنى العباس والطولونيين والفاطميين، مخطوط بالمكتبة الأهلية. (B.N.)، برقم ٥٧٦١.

القضاعى (أبو عبد الله، ت ٤٥٤/١٠٦٢)، عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف، مخطوط بدار الكتب برقم ١٧٧٩، وبالمكتبة الأهلية (B.N.)، برقم ١٤٩٠.

المقريزى (تقى الدين، ت ٨٤٥/١٤٤٢)، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، نسخة مصورة من مخطوط طوب قب سراى أحمد الثالث، برقم ٣٠١٣، نشر منها الشيال قسماً إلى نهاية خلافة العزيز، وهو الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧، ونشر الجزء الثانى محمد أحمد حلمى القاهرة ١٩٧١.

، المقفى، مخطوط فى Paris ، فى B.N. ، برقم٥٤٤، نشره زكار جزء منه عن حياة الحسن بن الأعصم، بيروت ١٩٧٠.

مؤلف مجهول تاريخ جبل لبنان (جبل الدروز)، مخطوط بدار الكتب، ١٦م.

ميخائيل الأنبا، ذيل سير الآباء، البطاركة، الجزء الثالث، مخطوط بدار الكتب، برقم ٦٤٣٤ ح.

النعمان (ابن حيون، ت ٣٦٣/ ٩٧٤)، المجالس والمسايرات، فى ٣ أجزاء، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦٠٦٠ حقق حديثاً من الفقى، وشيوخ واليعلاوى، تونس ١٩٧٨

، إفتتاح الدعوة الزاهرة، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٨٨، وبمكتبة حسين الهمداني الخاصة؛ وظهرت لها طبعة في بيروت، بعناية وداد القاضي، بيروت ١٩٧٠(وهذه الأخيرة لم تستخدم)؛ وتحقيق Dachroui ، تونس ١٩٧٥ (لم تستخدم)،

، شرح الأخبار، مخطوط بدار الكتب، برقم ٧٠٦٢ح.

النويري (شهاب الدين، ت ١٣٣٢/٧٣٢)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مخطوط بدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة، مجلدات ٢٠ إلى ٢٦. نشر منه ١٢ جزءاً، ط. دار الكتب المصرية.

ب- المطبوعات العربية

إبراهيم جلال، المعزّ لدين الله الفاطمي، وتشييد مدينة القاهرة، سلسلة ألف كتاب، القاهرة ١٩٦٣.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، مصر ١٣٥٣ هـ أجزاء ٩،٨،٧ على الخصوص.

، تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل، في مجموعة:

Recueil des Historiens des Croisades:

Historiens Orientaux, t II lèr. Paris, 1869

،وتحقيق طليمات، بعنوان: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، القاهرة ١٩٦٣.

أبو البقاء، كتاب المناقب الزيدية في أخبار الملوك الزيدية؛ تحقيق درادكه وخريسات في جزءين، عمان.

أحمد توفيق المدني، المسلمون في جزيرة صقلّية وجنوب إيطاليا، الجزائر.

أحمد صبحي، نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، دار المعارف.

أحمد عيسى؛ مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس ١٩٥٦، صفحات ١٠٥-١٢٤.

أحمد مختار العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس،صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الخامس، ١٩٥٧، ص ١٩٣وما بعدها،

؛ ودراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى. ١٩٦٨.

، فى التاريخ العباسى والفاطمى ، ط. الإسكندرية.

إحسان عباس، العرب فى صِقِلّية، مصر ١٩٥٩.

، شذرات من كتب مفقودة فى التاريخ، بيروت ١٩٨٩.

إخوان الصفا، رسائل، طبعة زنزبار ١٣٠٦.

الإدريسى، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق، تحقيق de Goeje و Dozy ، طبعة Leyde ، ١٨٦٤.

أربع رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر، سلمية – سورية ، ١٩٥٢.

ابن اسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة، ١٢٧٥هـ.

أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار أو «حياة أسامة» تحقيق Derenbourg ، ط. Paris، ١٨٨٩.

أسد رستم، الروم، فى سياستهم وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، فى جزأين، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦.

الأسفراييني (شاهبور بن طاهر) التبصير فى الدين، وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، القاهرة ١٣٥٩/ ١٩٤٠.

الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، النجف ١٣٥٢ هـ.

أمارى، المكتبة العربية الصقلّية، بعنوان Biblioteca Arabo-Sicula، جزأين، ١٨٥٧-١٨٨٨.

أمين طليع، أصل الموحدين، الدروز وأصولهم، بيروت ١٩٦١،

أمينة بيطار، موقف أمراء العرب والشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس من الهجرة، دمشق ١٩٨٠.

الأمينى، محمد هادى، عيد الغدير فى عهد الفاطميين، النجف.

انستاس، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩.

أومان، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥١.

ابن أيبك الداودارى، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، وهو الجزء السادس ، تحقيق صلاح الدين منجد، القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١.

ابن إياس، تاريخ مصر، المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول، بولاق ١٣١١هـ.

أيمن فؤاد، دراسة نقدية لمصادر وتاريخ الفاطميين فى مصر، القاهرة١٩٨٢.
،الدولة الفاطمية فى مصر، القاهرة ١٩٩٢.

البارونى النفوسى (ت ١٣٢٩/ ١٩٤٠)، الأزهار الرياضية فى أئمة الملوك الأباضية.

الباز، الشرق الأوسط والحرب الصليبية، ١٠٥٠-١١٩٣، القاهرة ١٩٦٣.

الباشا (حسن)، الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٥٧.

باهور، دليل مختصر عن المتحف القبطى، القاهرة ١٩٦٢.

بتلر، فتح العرب لمصر، عرّبه فريد أبو حديد، ط٢، ١٣٦٥/١٩٤٦.

البرغوثى، الوزير اليازورى، القاهرة ١٩٤٨.

ابن بعرة، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق فهمى عبد الرحمن، القاهرة ١٩٦٦.

البغدادى، الفرق بين الفِرَق وبيان الفِرْقة الناجية، القاهرة ١٣٢٨/ ١٩١٠.

البكرى، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق Paris,De Slane، ط٢، ١٩١١.

البلاذرى، فتوح البلدان، ط Leyden ، ١٨٦٦.

البلوى، سيرة أحمد بن طولون، حققه محمد كرد علىّ، دمشق ١٣٥٨هـ/١٩٣٩.

البندارى، تاريخ دولة آل سلجوق، ١٣١٨/ ١٩٠٠.

البيرونى، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق London, Sachau ١٨٧٩.

ترتون، أهل الذمة فى الإسلام، ترجمة وتعليق حبشى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٧.

تميم بن المعزّ لدين الله الفاطمى، ديوان، ط دار الكتب، القاهرة ١٣٧٧/١٩٥٧.

توفيق المدنى، المسلمون فى جزيرة صقلّية وجنوب إيطاليا، الجزائر ١٩٣٤.

ابن تيمية، كتاب مناهج السيرة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية، بولاق ١٣٢١هـ.

ثقة الإمام، علم الإسلام (الداعى)، المجالس المستنصرية، نشر كامل حسين القاهرة ١٩٤٧.

جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢، القاهرة.

ابن جبير، رحلة، تحقيق نصار، مصر ١٩٥٥.

جرجس عوض، القبط، القاهرة ١٩٣٢.

جروهمان، أوراق البردى العربية، جمع وتعليق، نقله بالعربية حسن إبراهيم وعبد الحميد، القاهرة ١٩٣٤.

جعفر بن منصور اليمن، كتاب الكشف تحقيق Strottmann ، القاهرة ١٩٤٩.

الجوذرى (أبو علىّ منصور العزيزى)، سيرة الأستاذ جوذر، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، حققه وقدم له كامل حسين وشعيرة، القاهرة ١٩٥٤.

ابن الجوزى (أبو الفرج)، المنتظم، رسالة عن القرامطة، تحقيق

Josaph de Somogi فى Rivista degli Studi Orientali, Vol VIII.

، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، فى عدة أجزاء، الهند ١٣٥٨هـ.

جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين فى الحروب الصليبية، ١٩٦٣، ط ١٩٦٧.

،دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء، فصله من مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٨، ١٩٦٤.

الجوينى، كتاب تاريخ جهانكشاى؛ تصحيح سيد جلال الدين، طهران ١٣١٢هـ.

ابن الحبال (ت٤٨٢/١٠٨٩)، وفيات المصريين فى العهد الفاطمى، تحقيق صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٦، ص ٢٨٦-٣٣٦.

حبشى، نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٤٨.

ابن حجر، الإصابة، الجزء الرابع، القاهرة، ١٣٢٨هـ.

ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣ أجزاء، الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٢١هـ.

حسن إبراهيم، النظم الإسلامية، بالاشتراك مع على إبراهيم، القاهرة ١٩٣٩،

، كافور الإخشيد، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٤١.

،عبيد الله المهدى، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب، بالاشتراك مع طه شرف، القاهرة ١٩٤٨.

،تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة ١٩٤٩.

، اليمن: البلاد السعيدة (فى مجموعة إخترنالك)، العدد ٢، دار المعارف ١٩٥٨.

، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب (وهو كتاب: الفاطميون فى مصر، بولاق ١٩٣٢)، القاهرة ١٩٥٨.

أبو الحسن الخزرجى (٨١٢/ ١٤١٠)، الكفاية والإعلام فيمن ولىّ اليمن وملكها من ملوك الإسلام، مخطوط (B.N.)، برقم 5832(2)، تحقيق لبعض الفصول على يد راضى دغفوس، فصلة من Les Cahiers de Tunisie، عدد ١٠٧-١٠٨، مجلة ٢٨، ١٩٧٩.

حسن سليمان محمود، علاقات الفاطميين بالدول الإسلامية، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، ١٩٤٧.

، الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، القاهرة ١٩٥٥.

حسن عثمان، البحر الأحمر كطريق تجارى، القاهرة ١٩٣٩.

ابن حسول، تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، باعتناء عباس العزاوى، استانبول ١٩٤٠

حسين أمين، تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، بغداد ١٩٦٥.

حسين مؤنس وآخرون، تاريخ مصر، القاهرة.

، المسلمون فى حوض البحر المتوسط، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، مايو ١٩٥١.

حسين الهمدانى، بحث تاريخى فى رسائل إخوان الصفا، وعقائد الإسماعيلية، بومباى ١٣٥٤/١٩٣٥.

، الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، القاهرة ١٩٥٨.

الحسينى، أخبار الدولة السلجوقية، لاهور ١٩٣٣.

ابن حماد، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، ١٣٤٦/١٩٣٧، تحقيق Vonde-rheyden ، ٢ اجزاء، Paris-Ager ، ١٩٢٧

الحمادى اليمانى، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ١٣٥٧/١٩٣٩.

حنا أبو راشد، تاريخ جبل الدروز، القاهرة ١٩٢٥.

حورية، الحياة الاجتماعية فى العراق زمن البويهيين، مصر ١٩٨٠.

ابن حوشب، (منصور اليمن)، رسالة الرشد والهداية، تحقيق كامل حسين، فى مجلة Collectanea ، المجلد الأول، ١٩٤٨، ص ١٨٥ وما بعدها.

، الفرائض وحدود الدين (فى نسب الخلفاء الفاطميين)، تحقيق حسين الهمدانى، القاهرة ١٩٥٨ (مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة).

خاشع المعاضيدى، دولة بنى عقيل فى الموصل، رسالة الماجستير بآداب القاهرة، القاهرة ١٩٦٦، ونشر بغداد ١٩٦٨.

؛ العلاقات الفاطمية البيزنطية، المجلة التاريخية، بغداد العدد٣، ١٩٧٤، ص ١١١ وما بعدها.

؛ من بعض أنساب العرب، أعالي الفرات، بغداد ١٩٨٦.

الخشني (محمد بن الحارث)، كتاب طبقات علماء إفريقية، تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر ١٣٣٢/١٩١٤.

ابن الخطيب أعمال الأعلام، القسم الثالث، تحقيق العبادي والكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤ (وهو الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلّية).

ابن خلدون، المقدمة القاهرة ١٣٢٢هـ.

، العبر وديوان المبتدأ والخبر، في ٧ أجزاء ، القاهرة١٢٧٤ هـ.

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣ أجزاء القاهرة ١٢٩٩هـ.

خمس رسائل : بين أبي العلاء وداعي الدعاة، نشر المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٩هـ.

ابن الداية، سيرة أحمد بن طولون ، تحقيق Berlin, Vollers ، ١٨٩٤، وتحقيق شوقي ضيف وآخرون، القاهرة ١٩٥٤.

الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تونس ١٣٣٠ هـ.

دراج، عيّذاب، مقال بمجلة نهضة إفريقية، اغسطس ١٩٥٨.

الدرجيني(حوالي ٥٦٧/١١٧١)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، في جزءين، حققه إبراهيم طلاي

دوريش النخيلي، فتح الفاطميين للشام، الإسكندرية ١٩٧٩.

دونلدسن، عقيدة الشيعة ، تعريب ع . م، القاهرة ١٩٤٦.

ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس ١٢٨٦ هـ.

الذهبي ، دول الإسلام، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ١٣٣٧ هـ.

الرازي (أحمد بن حمدان) ، الزينة في المصطلحات الإسلامية، تحقيق حسين الهمداني، الجزء الأول ، القاهرة. ١٩٥٦.

الرازي (فخر الدين) ، اعتقادات فرق المسلمين والمشتركين، تحقيق النشار، القاهرة ١٩٣٨.

الرازي (محمد بن زكريا) ، رسائل فلسفية، نشرها Kraus ، القاهرة ١٩٣٩.

راضى دغفوس، العوامل الاقتصادية لهجرة بنى هلال وبنى سُلَيم من مصر إلى افريقيا، أوراق مجلة المعهد الأسبانى العربى ١٩٨١ ص ١٤٧ وما بعدها.

الراوندى ، راحة الصدور وآية السرور، نقله إلى العربية الشواربى وغيره، القاهرة.

رشيد بن الزبير، الذخائر والتحف ، تحقيق حميد الله ، كويت ١٩٥٩ .

الروذراورى (أبو شجاع) ، ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه، تحقيق Amedroz ، مصر ١٩١٦/١٣٣٤.

رينو جوزيف ، الفتوحات الإسلامية فى فرنسا وإيطاليا وسويسرا، فى القرون: الثامن والتاسع والعاشر الميلادى، ترجمة إسماعيل العربى ، بيروت ١٩٨٤.

زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، فى جزاين ، تعريب زكى حسن وحسن محمود، القاهرة ١٩٥٢.

زاهدى علىّ، تاريخ الفاطميين فى مصر ، حيدر آباد ١٩٤٨ .

الزاوى (طاهر) ، تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

ابن ابى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، تحقيق Tornberg ، Paris ، ١٨٤٣ .

زكى محمد حسن، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧.

الزهرانى، نظام الوزارة فى الدولة العباسية ٣٣٤-٥٩٠ هـ ، بيروت١٩٨٠ .

، نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية، بيروت ١٩٨٤ .

ابن زولاق، كتاب أخبار سيبويه المصرى، تحقيق محمد بن سعد الديب، القاهرة ١٩٣٣ .

ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطارقة للكنيسة القبطية فى الأسكندرية تحقيق Evetts (فى P.O.) ، طبعة Paris ، ١٩٠٧، ١٩١٠، ١٩١٥ ، وتحقيق Seybold ، طبعة بيروت ١٩١٠-١٩١٢، وتحقيق عبد المسيح وسوريال وبرمستمر، طبعة مصر ١٩٤٣-١٩٤٨.

ابن السبكى، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١١٢٩ هـ.

السجستانى، كتاب الينابيع، تحقيق غالب ، بيروت ١٩٦٥ .

السجلات المستنصرية: «سجلات وتوقيعات، وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم ، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين»، تقديم وتحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة١٩٥٤ .وله طبعة ثانية ١٩٨٥ .

سرور ، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٩ ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٩ .

، مصر في عصر الدولة الفاطمية، مجموعة الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٠ . الدولة الفاطمية في مصر ، سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، القاهرة ١٩٦٥-١٩٦٦ .

، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧ .

سعاد ماهر، مساجد مصر، حفائر كلية الآثار بظاهر مدينة الفسطاط، مجلة الآداب، العدد١ ، ١٩٧٦ ، ص ٩٥ وما بعدها.

سعد زغلول، فترة حاسمة من تاريخ المغرب، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين في إفريقيا ونقلتهم إلى مصر، فصلة من مجلة كلية الآداب والتربية، الجامعة الليبية، المجلد الأول ١٩٥٨ .

، تاريخ المغرب العربي، الإسكندرية.

السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٤ أجزاء القاهرة ١٣١٠-١٣١٢ .

ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب والمشرق، Leyden ، (١٨٩٨-١٨٩٩) .

سليمان صائغ ، تاريخ الموصل، بيروت ١٩٢٨ .

السمعاني، كتاب الأنساب، تحقيق Sybold ، في مجموعة:

Gibb. Mem. Series XX, London, 1912.

سوفاجيه، دمشق الشام، لمحة تاريخية، تعريب فؤاد البستاني، بيروت ١٩٣٦ .

سيمنوف ، حول الرق فى عهد الدولة الفاطمية فى مصر، المجلة التاريخية، بغداد ١٩٧٢ ، العدد الثانى، ص ١٩٧ وما بعدها.

السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة ، فى جزأين، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩.

سيده كاشف، مصر فى فجر الإسلام، القاهرة ١٩٤٧.

، مصر فى عهد الاخشيديين، القاهرة ١٩٥٠.

الشاطر بصيلى، الكارمية، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ١٣، القاهرة ١٩٦٧.

ابو شامة، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين، نشره عبد الله بن السعود، فى جزأين، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـ.

ابن الشحنة، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب، حققه سركيس، بيروت ١٩٠٩.

ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق وتعليق Domnique Sourdel ، الجزء الأول ، القسم الأول ، دمشق ١٩٥٣.

شعيرة ، الإسكندرية من العصر الإسلامى إلى نهاية العصر الفاطمى، كتاب الغرفة التجارية بمدينة الإسكندرية ١٩٤٩.

شهاب الدين حقيقت مذهب الشيعة، سمى در حقيقت دين، تحقيق Ivanow ١٩٣٢م.

الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، ط . London ١٩٤٦.

الشيال (جمال الدين)، مصر والشام بين دولتين، القاهرة ١٣٦٦/١٩٤٧.

،مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩.

، نظام الوزارة فى العصر الفاطمى، مقالة بمجلة الثقافة، العدد ٦٢٨، ١٩ مارس ١٩٥١.

، وحدة مصر وسورية فى العصر الإسلامى، مجلة جامعة الإسكندرية، إبريل ١٩٥٨.

، مجموعة الوثائق الفاطمية، وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، جمعها وحققها وأعدها للنشر مع دراسات تحليلية مقارنة، المجلد الأول، القاهرة ١٩٥٨.

تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الأول ، من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٦٧.

صابر، أرمينية بعد الفتح الإسلامى إلى مستهل القرن الهجرى، القاهرة ١٩٧٨.

الصابى (٣٨٤/٩٩٤)؛ كتاب التاجى فى أخبار الدولة الديليمية، تحقيق Saber Khan ، الهند .

أبو صالح الأرمنى، كنائس وأديرة مصر، تحقيق وترجمة Evetts ، ط. Oxford ، ١٨٩٤م.

ابن صاعد ، طبقات الأمم، نشر شيخو ببيروت ١٩١٢.

صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى، مجلة الجمعية المصرية، ٤٢/١٩٥٢.

صدر الدين (أبو الحسن) ، أخبار الدولة السلجوقية، صححه محمد إقبال، طبعة لاهور ١٩٣٣.

ابن الصيرفى، كتاب قانون ديوان الرسائل، نشر علىّ بهجت ، القاهرة١٩٠٥، ترجمة إلى الفرنسية Masse ، القاهرة ١٩١٤.

، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، القاهرة ١٩٢٤ (فى Bull. de l'Inst. fr. du Caire).

طلائع بن رزيك، ديوان، جمعه الأمينى، بغداد ١٩٦٤.

طليع (أمين محمد)، أصل الموحدين الدروز وأصولهم، بيروت ١٩٦١.

طوسون، كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن، الإسكندرية ١٣٥٠/١٩٣١.

الطوسى، فهرست كتب الشيعة، كلكتا، ١٨٥٥م.

طه شرف، تاريخ الإسماعيلية السياسى، الجزء الأول، ١٩٤٧. ، دولة النزارية، القاهرة ١٩٥٠.

عادل العوا، منتخبات إسماعيلية، تحقيق، دمشق ١٣٧٨هـ.

عارف تامر، القرامطة، بيروت – بغداد.

عاشور، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية، المجلة التاريخية المصرية، ١٦، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٥ وما بعدها.

عباس الهمدانى، نبذة تاريخية عن الدعوة الإسماعيلية فى شمال الهند فى مراحلها الأولى، مصر ١٩٥٦.

عبد الباقى، عبد المجيد، تاريخ اليمن، المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق حجازى، القاهرة ١٩٦٥.

ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس، نشره London, Torrey ١٩٢٠.

عبد الحميد يونس، الأزهر، بالاشتراك مع عثمان توفيق، القاهرة ١٩٤٦.

، الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى، القاهرة ١٩٥٦.

عبد الرحمن زكى، القاهرة منارة الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩

عبد الرحمن فهمى، الفسطاط وصاحبتيها العسكر والقطائع، القاهرة ١٩٦٦.

عبد الله بن أيبك الدوادارى (أبو بكر)، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، حقق الجزء السادس منه على يد صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٨٠/١٩٦١.

عبد الله خورشد، القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة القاهرة، ١٩٦٧.

عبد الله الشرقاوى، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة ١٢٠٩هـ.

عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون فى حلب وشمال الشام، ١٩٨٥.

عبد النعيم حسنين، المهدى المنتظر، الهادى النبوى، مجلد ١٩، صفر ١٣٧٤، ص١ وما بعدها.

، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة ١٩٥٩.

ابن العبرى (جريجوريوس)، تاريخ مختصر الدولة، تحقيق صالحانى، بيروت ١٨٩٠، وتحقيق Bruns و Kirsch ، بعنوان: "Chronicon"

،العدوى، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧.

، مصر العربية، مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية، القاهرة ١٩٧٨/١٣٩٨.

ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب تحقيق سامى الدهان، فى جزأين، دمشق ١٩٥١-١٩٥٤، له ترجمة من Blochet ، بعنوان: Hist. d'Alep. Paris, 1900.

ابن عذارى، البيان المغرب فى أخبار المغرب، فى ٣ أجزاء، تحقيق Lévi-Provençal و Colin ، ط. Leyden ، ١٩٤٨، ط. بيروت ١٩٥٠، فى جزأين.

عريب بن سعد، صلة تاريخ الطبرى، القاهرة ١٣٢١هـ.

عطية القوصى، أضواء جديدة على تجارة الكارم، من واقع وثائق الجنيزة، المجلة التاريخية المصرية، ٢٢، ١٩٥٧ ص ١٧ وما بعدها.

، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ١٩٣٣/١٣٥٢.

علىّ إبراهيم، تاريخ جوهر الصقلى قائد المعزّ لدين الله الفاطمى، القاهرة ١٩٣٣/١٣٥٢.

، تاريخ مصر فى العصور الوسطى، ط٣، القاهرة ١٩٥٣.

علىّ بيومى، قيام الدولة الأيوبية فى مصر، مصر ١٩٥٢.

علىّ مبارك باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، فى ٢٠ جزءاً، بولاق ١٣٠٦هـ.

عليان، قرامطة العراق فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، القاهرة ١٩٧٠.

علية الجنزورى، إمارة الرها، القاهرة ١٩٧٦.

عماد الدين محمد، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح بن علىّ، مصر ١٩٠٠/١٣١٨.

، سنا البرق الشامي، وهو مختصر من كتاب البرق الشامي، اختصار الفتح بن عليّ، تحقيق فتحية البنداري، ١٩٧٩.

ابن العماد (عبد الحيّ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥٣/١٣٥٠.

عمارة اليمني، النكت المصرية في أخبار الوزارة المصرية Paris ، Derenbourg ، ١٨٩٧.

، تاريخ اليمن، وعليه المختصر المنقول من كتاب العبر لابن خلدون، ثم أخبار القرامطة للجندي، تحقيق London ، Kay ، ١٨٩٢.

عمر فروخ، إخوان الصفا، بيروت ١٩٤٥.

عمر كمال توفيق، الأمبراطور. نقفور فوقاس، واسترجاع الأراضي المقدسة، الإسكندرية ١٩٥٩.

، مقدمات العدوان الصليبي، الأمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، القاهرة ١٩٦٦.

، تاريخ الأمبراطورية البيزنطية، القاهرة ١٩٦٧.

ابن العميد (جرجس)، تاريخ المسلمين، تحقيق وترجمة Erpenius ، طبعة Lugduni-Batavorum ، ١٦٢٥.

عنان، تاريخ الجمعيات السرية، القاهرة ١٩٢٦.

، مصر الإسلامية، وتاريخ الخطط الإسلامية، القاهرة ١٩٣١، ١٩٤١

، تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة ١٩٤٢.

، الحاكم بأمر الله، ط ٢، القاهرة ١٩٥٩.

عوض خليفات، نشأة الحركة الاباضية، عمان ١٩٧٨.

غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر، دمشق.

، تاريخ العلويين؛ اللاذقية ١٩٢٤.

، أعلام الإسماعيلية، بيروت ١٩٦٤.

ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار، تحقيق الزاوى، القاهرة ١٣٤٩هـ.

الغزالى، فضائح الباطنية، تحقيق Goldziher ، ط. Leyden ، ١٩١٦.

، المنقذ من الضلال، أو الملل والنحل، دمشق ١٣٥٢/ ١٩٣٤.

فاروق عمر، الوزير يعقوب بن كلس اليهودى، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد ١٩٧٣.

فايز اسكندر، موقعة ملاذكرد، وصدا ها فى القسطنطينية، الإسكندرية. ١٩٨٨.

فازيلييف، العرب والروم، الترجمة العربية شعيرة، القاهرة ١٩٥٠.

أبو الفدا (إسماعيل) المختصر فى أخبار البشر، الطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥.

فيصل السامر، الدولة الحمدانية، بغداد ١٩٧٢.

فضيلة الشافعى، تاريخ الفرقة الزيدية، النجف ١٩٧٤.

ابن القطان، جزء من كتاب: نظم الجمان فى أخبار الزمان، تحقيق محمود مكى، الرباط ١٩٦٤.

قطب الدين النهرالى (ت٩٩٠/١٥٨٢)، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق Wust ، ط. Leipzig ، ١٨٥٧.

القفطى، أنباه الرواة على أنباء النحاة، تحقيق أبو الفضل، ٤ أجزاء، القاهرة ١٩٥٤

ابن القلانسى، تاريخ ابن القلانسى، المسمى ذيل تاريخ دمشق مصحوب بشذرات من تواريخ ابن الفارقى وسبط الجوزى والذهبى، تحقيق Amedroz ، بيروت ١٩٠٨.

القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، فى ١٤ جزءاً، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩.

، مآثر الإناقة فى معالم الخلافة، تحقيق عبد القادر فراج
أجزاء، الكويت ١٩٦٤.

ابن القيم الجوزية، شرح الشروط العمرية، تحقيق صبحى صالح، ا
١٩٦١.

آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، الطبعة العاشرة، القاهرة ٩٥٨

كامل حسين ، فى الأدب المصرى الإسلامى، القاهرة ١٩٣٩.

،نظرية المثل والممثول، القاهرة ١٩٤٨.

، فى أدب مصر الفاطمية، القاهرة ١٩٥٠.

، التشيع فى الشعر فى عصر الأيوبيين و المماليك، مج
الآداب، المجلد الخامس عشر الجزء الأول، ١٩٥٣، ص ٥٧ -

، طائفة الإسماعيلية، تاريخها، نظمها، عقائدها، القاهرة ٩

، طائفة الدروز، تاريخها وعقائدها، القاهرة ١٩٦٢.

كانار (Canard) ، ترتيب مملكة الفاطميين فى مصر، مأخوذة من كتا
الأعشى فى صناعة الانشا (الجزء الثالث)، تأليف القلق
نص عربى، الجزائر.

الكتبى، فوات الوفيات، مصر ١٢٩٩هـ.

ابن كثير، (عماد الدين)، البداية والنهاية، ١٤ جزءاً، القاهرة ١٣٥٨هـ/

كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عدة أجزاء،
١٩٤٩/١٢٦٨

كرد عليّ، كتاب خطط الشام، دمشق ١٩٥٢.

، البيزرة، تأليف بازيار العزيز بالله الفاطمى أبى عبد الله
ابن الحسين، نظر وتعليق، دمشق ١٩٥٢.

الكرمانى (حميد الدين)، راحة العقل، تحقيق كامل حسين ومصطفى
القاهرة ١٩٥٢.

، الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله
، تحقيق كامل حسين، فصلة من مجلة كلية الآداب، المج
عشر، الجزء الأول، مايو ١٩٥٢.

، الرسالة الدرية فى معنى التوحيد والموحد، ورسالة النظم فى مقالة العوالم، تحقيق كامل حسين، مصياف ١٩٥٢.

، كتاب الرياض، تحقيق وتقديم، عارف تامر.

الكلينى، الكافى، طهران ١٢٨١هـ.

الكيالى، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، حلب ١٩٣٩.

كريسول Creswell، The Foundation of Cairo. ، ترجمة رجب، فى مجلة المقتطف، نوفمبر ١٩٣٤.

الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، وبه ذيل مأخوذ معظمه من كتاب (رفع الإصر؛ لابن حجر العسقلانى، تحقيق Guest، بيروت ١٩١٢.

، الكيلانى، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق، الإسكندرية ١٩٨١.

، أول محاولة صليبية لغزو مصر، على ضوء وثيقة لاتينيا الإسكندرية ١٩٨٧.

لويس برنارد، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى، القاهرة.

، أحوال الإسماعيلية والقرامطة، ترجمة عربية ، بيروت ١٩٨٠.

لينبول، سيرة القاهرة، ترجمة عن الإنجليزية، من حسن إبراهيم وعلىّ إبراهيم وادوار حليم، ط٢.

ماجد (عبد المنعم) العلاقة بين بغداد والقاهرة فى عهد الفواطم، مجلة الرسالة، العددان ٧٠٣و ٧٠٤، ١٩٤٦.

، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، فى جزأين، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٥.

، أصل حفلات الفاطميين فى مصر، فصلة من صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلد الثانى، ١٩٥٤، العدد ١-٢

، ما الفه العرب فى المئة سنة الأخيرة فى دراسة التاريخ
وغيره. الفترة الفاطمية من ٣٥٨-٥٦٧/٩٦٩-١١٧١،
البحوث فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، ١٩٥٩.
، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩ .وا
ثالثة.
، الإمام المستنصر بالله الفاطمى، القاهرة ١٩٦٠.
، العلاقات بين الشرق والغرب، العصور الوسطى، ا
١٩٦٦.
، الناصر صلاح الدين الأيوبى، ط٢، بيروت ١٩٦٧.
،الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الو
ترجمة وتقديم الكتاب Wusténfaid ، ط٣ ، القاهرة ١٨٥
الفكر العربى).
، أسس السياسة الحربية للفاطمية فى مصر، مجلة ا
الثقافى، العدد ٧، الجزائر فى جوان ١٩٦٧.
، الموسوعة الأفريقية مواد: المعزّ لدين الله، جوهر الص
النعمان بن حيون، العزيز بالله، ابن كلس، الحاكم بأمر الل
الملك، المستنصر بالله، طلائع بن رزيك، القاهرة.
، موسوعة الحضارة الإسلامية بعمان مادة: الآمر بأحكا
عمان.
، مشروع لكتابة تاريخ الأمة العربية، المنظمة العربية للت
والثقافة والعلوم، تونس (الدولة الفاطمية).
، جزيرة كريت بين الإخشيديين والفاطميين والروم، فى
خاص بعنوان، الكراسات التوسينة، فصل الثلاثة أشهر ا
والثانية، لسنة ١٩٩١، ص ٦٥ وما بعدها.
مارتينو ماريو مورينو، المسلمون فى صقلية، بيروت ١٩٥٧.
المالكى، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعـ
ونساكهم وسير من أخبارهم، تحقيق حسين مؤنس، الق
١٩٥١.
ابن المأمون؛ أخبار مصر، نصوص حققها أيمن فؤاد، المعهد الفرنسى ٨٣،
الماوردى، الأحكام السلطانية، مصر ١٣٢٧/١٩٠٩

المخزومي(ت٥٨٥/١١٨٩)، المنهاج في علم الخراج، تحقيق Cahen، المعهد الفرنسي، منتخبات ١٩٨٦.
متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية أبو ريدة، في جزأين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٧.
أبو المحاسن (ابن تغرى بردى)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب، بالقاهرة ١٩٣٣/١٣٥٢.
محمد بن تاويت التطواني، دولة الرستميين أصحاب تاهَرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١٩٥٧، ص ١٠٩ وما بعدها.
محمد حسين المظفري، كتاب تاريخ الشيعة، ١٣٥٢هـ.
محمد عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولوني، القاهرة ١٩٢٧.
، مصر في عهد الإسلام، القاهرة ١٩٤١.
محمد ماهر حماده، الوثائق السياسية والإدارية، العائدة للعصور العباسية المتتابعة ٢٤٧-٦٥٦/٨٩١-١٢٥٨، بيروت ١٣٩٨-١٩٧٥،
محمد مرزوق، مساجد القاهرة ومدارسها قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٢٢.
محمود إسماعيل، الأغالبة، سياستهم الخارجية، القاهرة ١٩٧٢.
محمود مكي، التشيع في الأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد١-٢، ١٩٥٤.
ابن أبي مخرمة، كتاب تاريخ ثغر عدن، مع نخب أخرى، تحقيق Löfgren، طبعة Leyde، في جزءين، ١٩٣٦.
المسعودي المسبحي، الوصية، ط. النجف، بدون تاريخ.
مسكويه، كتاب تجارب الأمم، تحقيق Amedroz، في جزأين، Oxford، ١٩٢١.
مشرفة، القضاء في مصر من الفتح العربي إلى الفتح الفاطمي، القاهرة ١٩٤٥،
، نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٨.
مصطفى بيرم، تاريخ الأزهر، القاهرة ١٣١٢هـ.
مصطفى طه بدر، مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى زوال الإخشيديين، ١٩٧٩.
مصطفى كامل شملول، عروبة مصر من قبائلها، القاهرة ١٩٧٠.
مصطفى مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠.

معهد المخطوطات العربية، فهرس المخطوطات المصورة، القاهرة ١٩٥٤.

المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق De Goeje ، ط. Leyde ، ١٨٧٧.

المقريزى، البيان والاعراب، تحقيق Wust ، ط. Gottingen ، ١٨٤٠ وتحقيق عبد المجيد، القاهرة ١٩٧١.

، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط و الآثار، فى ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٦هـ.

، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٤٨، وبعض نتف من نسخة مصورة من مخطوطة طوب قبو سراى، فى مجموعة الوثائق للشيال، وتحقيق جديد للجزء الأول، القاهرة ١٩٦٧، أما الجزء الثانى والثالث، حققه محمد حلمى، ١٩٧١-١٩٧٣.

، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء ٢/١ ، تحقيق زيادة، القاهرة ١٩٥٦.

، شذور العقود فى ذكر النقود. النجف، ١٣٥٦هـ.

، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق زيادة والشيال (الطبعة الثانية)، القاهرة ١٩٥٧.

ابن مماتى، كتاب قوانين الدواوين، نشر سوريال، القاهرة ١٩٤٣.

مؤلف مجهول، البستانى الجامع، تحقيق Cahen فى B.E.O. دمشق، ١٩٣٨.

مؤلف مجهول، رسائل إخوان الصفا، ط. بمباى ١٣٠٥هـ، ومصر ١٩٢٨.

المؤيد فى الدين، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ترجمة حياته بقلمه، تقديم وتحقيق كامل حسين القاهرة ١٩٤٩.

، ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاه، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩.

منصور الكاتب، سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق كامل حسين وشعيرة، القاهرة، وترجمة Canard بعنوان: vie de l'Ustâdh Jaudhar. Alger, 1958.

ابن ميسر، تاريخ مصر، تحقيق Massé ، القاهرة ١٩١٩.

، المنتقى من أخبار مصر، وهو الجزء الثانى من أخبار مصر، حققه أيمن فؤاد، المعهد الفرنسى ١٩٨١.

ناصر خسرو، زاد المسافرين، تحقيق Kaviani, ط. Berlin ، ١٩٢٣.

، وجه الدين، تحقيق Kaviani, ط. Berlin ، ١٩٢٥.

، ديوان، طهران ١٩٢٩.

، خوان الإخوان، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة.

، سفر نامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٤، وله ترجمة فرنسية من Schefer ، ط. Pairs ، ١٨٨١.

ابن نباته، ديوان خطب ابن نباته، بيروت ١٣١١هـ.

ابن النديم، كتاب الفهرست، تحقيق Fluguel ، فى جزأين، ط .Leipzig ، ١٨٧١-١٨٧٢.

النشار، نشأة التشيع وتطوره، ط٤، الإسكندرية ١٩٦٩.

نظام الملك، سياسة نامه (أو سياستنامه)، تحقيق وترجمة Schefer, ط. Pairs، ١٨٩١.١٨٩٣.

نظير حسان، الحرب و السلام زمن العدوان الصليبى، القاهرة ١٩٦٠.

النعمان، كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧.

، كتاب الاقتصار، تحقيق ميرزا، ١٩٥٧.

، اساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت ١٩٦٠.

، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن علىّ فيضى، فى جزأين، القاهرة ١٩٥١-١٩٦٠.

، تأويل دعائم الإسلام، تحقيق محمد حسن الأعظمى، القاهرة ١٩٦٧.

، قضية إقريطش فى عهد المعزّ لدين الله، تحقيق فرحات الدشراوى، حوليات الجامعة التونسية، ٢، ١٩٦٥.

نعيم زكى، الوزارة فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠.

نقولا زيادة، برقة، بيروت ١٩٥٠.

النوبختى، فرق الشيعة، صححه وعلق عليه محمد صادق. النجف ١٩٣٦.

النيسابورى، إستتار الإمام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه؛ تحقيق Ivanow، فى مجلة جامعة القاهرة، العدد ٤، ١٩٣٩، ص ٩٣-١٠٧.

، الهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية، نشر فيضى، كلكتا ١٩٣٨، وفى وثائق الشيال، القاهرة ١٩٥٨، ٢٠٥-٢٣٠.

ابن هانئ الأندلسى، ديوان، بيروت ١٣٢٦هـ.

الهداية الآمرية، ومعها رسالة إيقاع صواعق الإرغام فى إدحاض حجج أولئك اللئام، تحقيق Fyzee ، ط Calcutta، ١٩٣٨.

هريدى، فهرست خطط مصر، المجلد الثانى، المعهد الفرنسى ١٩٨٣.

الهمدانى (أبو محمد)، صفة جزيرة العرب، تحقيق Muller، فى جزأين، Leyden، ١٨٩١.

ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠، ثم ٤-٥ تحقيق حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٢/١٩٧٧

ابن الوردى، تاريخ، الجزأين ١-٢، مصر ١٣٨٥هـ.

الواقدى، فتح البهنسة والفيوم من أرض مصر، القاهرة ١٢٨٠هـ.

ياقوت، معجم البلدان، ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٢٣/١٩٠٦.

يحيى بن حمزة العلوىّ(٦٦٩-٧٤٥/ ١٢٧٠-١٣٤٤)، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، حققه عون، دار المعارف .

يحيى بن سعيد الأنطاكى، تاريخ، أو صلة كتاب أوتيخا "Eutychius" المسمى: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، تحقيق شيخو، فى

جزأين، بيروت ١٩٠٩، وتحقيق وترجمة Krachkovsky و Vasi-
lev، ط. Paris، ١٩٢٤.

اليمانى (محمد بن محمد)، سيرة الحاجب جعفر بن علىّ وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سِجِلْمَاسة، تحقيق Ivanow، فى مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٤٦، وترجمة Canard، بعنوان :

L'Autobiographie d'un Chambellan du Mahdi Obeid. le FÂtimide. Hespéris 3è: 4é trim, 1952,

ابن يونس، كتاب الزيج الكبير الحاكمى. ترجمة إلى الفرنسية من Caussin ط. Paris، ١٨٠٤.

جـ-الكتب الأوربية

Abel: Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatoloaique de l'Islam. Arabica tv. Jan 1958. Fase 1, p.I ssq.

Allouche: the Establishment of Four chief Judgeships in Fatimid Egypt. jAOs , 105(1985) pp.327- 320

Alphandéry et Dupont : La chrétienté et l'idée de croisades.

Les premières croisades. Paris, 1954.

Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia. Vols 2,3 Firenze, 1858-68. Seconda edizione. Catania, 1933-1943. vol 3.

: L'Epigraphie Arabiche di Sicilia. Palermo, 1875, t I.

Angelo: Histoire de la Palestine. Paris, 1932.

Artin Pacha: La conversion du Calife el-Hakem au christianisme. Légende copte traduite de l'Arabe. Le Caire, 1894.

Ashtor E: Histoire des prix et des Salaires dans 'Orient Médiéval. Paris, 1969.

:The Karimi Merchants J.R.A.S.April, 1956.

Aubin: Le Chiisme et la Nationalité persane. R.M.M. Vol Iv.Mars, 1908, No. 3, p 457-491.

Baldwin : A. History of the crusades. The First Hundred years. Volume I. Philadelphia 1955 sqq.

Balog : Quatre Dinârs du khalife fatimide al-Mostansir.

BIE, XXIII, 1950-1951, P.P. 375-378.

Bardo : Monnaies fatimites du Musée de Bardo. Revue tunisienne, 1936, et Supplément, 1948.

Becker : Regierung und Politik unter dem Chalifen Zahir. Beitrage zar Geshichte Aegyptens unter dem Islam. Strassbourg. 1982, 1903.

: Beîtrage zur Geschichte Agyptens unter dem Islam. Strassbourg, 1902 - 1903.

Bel: Coup d'oeil our l'Islam en Berbérie. Paris, 1917.

: La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938.

Bell: Jews and Christians in Egypt. London, 1924.

Beshir: Fatimid Military organization. Der Islam . LV(1978) P. 37 - 65.

: New light in nubian Fatimid Relations. Arabica XXII (1975) PP. 15 - 24 .

Betty : Le Calife Hakim. Bieu de l'An Mille. Paris, S. D.

Beylié : La Kalaa des Beni Hammâd. Une Capitale berbère de L'Afrique du nord au XIe Siècle. Paris, 1909.

Bianquis: La prise du Pouvior par les Fatimides en Egypte. Ann . Islamo, XI (1972), .49 - 109 .

: L'acte de euccesslon de Kâfûr. Ann Islamo, t x 11,19.

: al-Hakim bi Amr Allah ou la folie de l'unitè chez un souverain fatimide. Les Africains X1 (1978) PP. 107 - 133.

: Une crise Frumentaire dans L'Egpyte fatimide. JESHO XXIII (1980) PP. 67 -101.

: Damas et la Syrie sous la domination Fatimide 359 - 468 / 969 - 1076, 2 tomes IFAD, 1986 et 1989 .

Bianquis et Atassi- Khaattab : Lettres d'influence à l'intérieur du sunnisme damascain entre 400 et 550 de l'hégire B.E.O. 1978, Txxx, P. 361 sqq.

Blachère : La fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme Arabo. Islamique au Iv' Siècle. CIHC, PP . 95 - 96 .

Blochet : Le Messiamisme dans l'Hetérodoxie Musulmane . Paris , 1903.

: Etude sur l'éstorisme musulman. Paris, 1910.

Boonawala : al - Qâdî al. nu'man's Work and Sources .B.S.O.A.S. , 1973 , Part I, P. 109 sqq.

: Bio - bibliographs of Islamáili Literature. Malily, 1933 .

Bosworth : Sanawbaris elegy on the Pilgrims Slain in the Carmatian attack on Mecca (317 / 930) .Arabica. Oct, 1972, p. 222 - 590.

Bowen : The last Buwayhids. J.R.A.S. April, 1929, pp. 225 - 246.

Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 1942.

Brunschvig : Fiqh Fatimide et histire de l'ifriqliysa. Mélange d'hist et d'arch de l'Oecident musul. Alger ; 1957. 11, 13-20.

Bulliet : Conversion to islam in the Medieval Period, 1979.

Cahen : La Campagne de Mantzikert d'après les soureces musulmanes. Byzantion, IV (1934) p. sqq.

: Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers fatimides. B.I.F.A.XXXIII, 1937, P. 1 -27 .

: Le Malik - Nameh et l Histoire des origines Seljukides. Oriens. Vol. 2. N1 1949, p. 13 sqq.

: Un texte peu connu relatif au commerce orientale d'Amelfie au xè siècle. Archivio storica per le povencio napolitaña 1953, pp. 308.

: Lhistoire économique et sociale de l'Orient musulman mediéval. S.I. t 3, 1955, p. 93 . 115.

: Une correspondance bûyide inédite. Studi Orientalistici in Onore di G. Levi Della Vida, 1956, pp. 83 - 97.

: Histoire copte d'un cadi médiéval. B IFA O. LIX (1960) 133 sqq.

:Contribution à l' étude des impôts dans l'Egypte Fatimide. J.E.S.H.O.V, 1962

: Douanes et commerce dans les ports médierraneens de l'Egypte médiévale d'après le Minhâdj, dans .J.ESHO, vol VII, 1964, P.P. 241 -242 .

: Un récit inédit du vizirat du Dirghâm. Ann.Isl, VIII, 1969, P.P.27 -46 .

: Les marchands étrangers au Caire sous les Fatimides. au Collaque 1 st. au Caire, 1969.

: L'Administration financière de l'armée fatimide d'après al-Makhzûmî. J.E.S.H.O. June, 1972. P. 163 sqq.

: Makhzumiyyat. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale. Leiden, 1977.

: Contribution à l'étude de la circulation monétiure en Orient au Milieu du Moyen Age. Ann. Islamo XV. Le Caire, 1979, P. 37 sqq.

Cahen, Râgib et Taher : L'Achat et Wakf d'un grand domains , égyptiens, Par Talá, b. Ruzzik. Ann . Islamo, 1978, P. 59 sqq.

Chambers: The troubadours and the Assassin. Modern Language notes. LXIV (1989) .

Canard: Sayf al-Daula (Recueil de textes relatifs à l'émir Sayf al - Daula le Hamdanide. Alger, 1934.

: Une Lettre de Muhammed ibn Tugi- al- Ikhshid à l'empreur Romain Lécapène, in A.I.E.Q. II. 1936

: Laguerre sainte dans le monde islamque et dans le monde chrétien. Revue Africaine. Alger, 1936.

: Deux documents arabes sur Bardas Skleros. Studi Bizantini et Neoellenice Vol V.I. Rome. 1939.

: L'histoire byzantine et les sources arabes. Congrès (Nice) Paris, 1939.

: L'impérialisme des Fatimides et leur Propagande. A.I.E,O.VI. 1942-7, P. 156-193.

: Deux Episodes des relations diplomatiques arabo- byzantines au Xe Siècle B.E. O. Inst F. de Damas XIII, 1950

: La date des expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimiscès. Mélange Grégoire. II, Bruxelles 1950,

: Le cérémonial fatimite et le cérémonial byzantin: Essai de comparaison. Byzantion, XXI (1951), PP.355-420.

: Procession de Nouvel An chez les Fatimides. Ext . des Ann de l'Inst. d'Et. Or. X année, 1952.

: Histoire de la dynastie des H'amdanides de Jazira et de Syrie. TI. Paris, 1953.

: Un Vizir chrétien à l'époque fatimide. L'Arménien Bahram. AIEO, XII,1957, PP.48-157.

:Une letter du Calife fatimide al-Hâfiz (524-544/1130-1149) à Roger II,. Atti del Convegno Internazîonale di Studi Ruggeriani. Palerme, 1955, P. 125-126.

:Notes sur les Arménins en Egypte à l'épeque fatimide. Ext. des Ann. de l'Inst. d'Etudes Or. t XIII, 1955. PP. 143-157.

: Quelques Notes relatives à la Sicile sous les premiers Califes fatimides. Ext des Studi. Palerme, 1956.

: Une familles de partisans, puis d'adversaires, des Fâtimides en Afrique dû Nord. Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident musman. Alger, 1957. Vol. 1. PP. 33-49.

: Bagdâd au IV siècle de l'Hégire X siècle de l'ère chrétienne. Arabica, 1962.

: (art Fâtimides)) Ency de l'Isl, 2 éd. t2. P. 870-882.

: Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventth century, dans Cambridge Medieval History t IV, ch XVII, 1964.

: La destructlon de l'Eglise de la Résurrection par le calife al Hâkim et l'histoire de la descente du feu sacré. Byzantion, XXV, 1965.

: La campagne arménienne du sultau Selguqid Alp Arslan R.E. Arm. M.S. I, 1965.

: Fatimides et Bûrides à l'époque du calife al- Hâfiz lîdîn-illâh. Revene des Etudes Islamiques. XXXV. 1967. Paris, 103-118.

Casanova: La doctrine Secrète des Fatimides d'Egypte. Ext du Bull de, l'Inst. F.A.O. t XVIII. Le Caire, 1920.

Inventaire Sommaire de la collection des Monnaies Musulmans de S.A. la Prince Ismail. Paris, 1896.

Cedrenus: Synopsis Historiae. Corpus Scriptionum. Historiae Byzantinae (C.S.H.B.). ed Bekker. Bonn, 1838-9

Chalandon: Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile. Paris, 1907.

:Histoire de la Première Croisde. Paris, 1925.

:Essai sur le règne d'Alexis lèr Comnene. New-York 1960.

Chauleur: Histoire de Coptes d'Egypte. Paris .

Creswell: LeMahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours. Paris, 1885.

: The Muslim Architecture of Egypt. 1Khshids and Fatimids. Oxford, 1953.

Curtis: Roger of Sicily. Cicilia s.d.

Dachraoui: Contribution àl'Histoire des Fâtimides en Ifrîqiya. Arabica, 1961, P 189 sqq.

: Les Califes fatimides au Magherb (296 -362/ 909 - 973). Histoire politique et Institutions. Tunis, 1981.

Daftray : The Islam;ilis. Their History and Doetrines. Cambidge, 1950.

Daghfous: Contribution à l'étude des conditions de l'immigration des tribus arabes (Hilâlet Suloym en lfiquja. Ext Txxv (1977, PP. 123-50:

Darmestaeter: Le Mahdi depuis les oigines de l'Islam jusqu'à nos jours. 1885.

De Reylie: La Kalaa des Bani Hâmmâd. Une Capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe Siècle. Paris, 1909.

Defrémery: Recherches et nouvelles rescherches sur les Bathiniens ou Ismaêliens de Syrie. J. A. 1948.

: Mémoire sur les Emirs el-Oumara. Paris, 1852.

: Histoire des Ismailie de la Perse. J.A. VIII, 1856.

De Goejé: Mémoire sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides. Leide, 1886.

: La Fin kde l'Empire des Carmathes du Bahrain. J.A. 1895.

De Sacy: Mémoire sur la dynastie des Assassins et sur l'origine de leur nom. 1818.

:Recherches sur l'initation à la Secte Ismaélienne. J.A. 1828.

: Observations sur une pratique supestiteuse attribuée au Druzes et sur la doctrinc des Nosairiens Paris, 1827.

: Exposé de la Religion des Druzes et Précedé d' une intoduction et de la vie du Khalife Hakem Biamar-Allah. 2 Vols. Paris. 1838.

De Tassy: Mémoire sur les noms propres et sur les titres Musulmans. J.A. 1854 t III, p.p. 422-518.

Devonshire: Some Cairo Mosques and thier Founders. London, 1912.

:Quatre-vingts Mosquées et autres monumemt musulmans du Caire. Le Caire, 1925.

:L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses monuments. Paris, 1926.

Diehl (Ch) : Histoire de l'Empire byzantin. Paris, 1924.

: Etudes our l'histore et l'art de Byzance . Paris, 1930 .

Diehl et Marçais: Histoire du moyen Age, t III. Paris, 1936.

)ölger: Regesten der Kaiserurkunden desOstromischen Reiches 1. Berlin -Munchen, 1924.

: Byzantinische Diplomatik, 1956.

)oris: Locatians of non -Muslim quarters in Medieval Cairo . Ann Islamo. TxxII, P. 117 - sqq.

)ozy: Supplément aux dictionnnaires arabes, 2 éd. Leyden, 1881.

: Essai sur l'Histoire de l'Islamisme, trad. Chauvin. Leyde, 1887.

)ussaud: Histoire et Religion des Nosairis the. Paris, 1900.

Ξhrenkreutz : Saladin Coup d'Etat in Egypt, in Medieval and Middle Easterm Studies , in Honour of Aziz. Suryal Atiya. Leiden, 1972, PP. 144-57.

Elisséef : Nûr al- Din. Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades. Damas. 1 F O D, 1967.

El- Shayyal: The Fatimid Decuments as a Source for the History of the Fatimids and their Institutions. Reprented from the Bulletin of the Faculty of Arts. Alexandria University. Vol VIII, Dee, 1954.

Encyclopédie de l'Islam l'éd; 2 éd.

Ettingham : Painting in the Fatimid perriod. Ars Islamica , t ix (1942) pp. 112 - 124 .

Fahmy (Ali Mohamed): Muslim Sea-Power in the East Mediterranean from the Seventh to the tenth Century. Alexandria. 1950.

Finaly: History of the Byzantine Empire from 716 to 1500. London 1856.

Fischel : Jews in the Economic and Polbitical life of Medieval Islam. London , 1937.

Fournel: Les Berbères, I. Paris, 1875.

Freytag: Geschichte der dynastien der Hamdaniden in Mosul und Aleppo. Z.D,M.G, X, XI, 1856-1857.

Fu'ad Sayyd: Lumières nouvelles sur quelques sources del'Histoire fatimide en Egypt. Ann. Islamo XIII (1977) P. 11 -41.

Fyzee: The Ismaili law of Wills. Bombay, 1933,

: Cadi an Nu'man. J.R.A,S. 1934.

: A Chronological list of the Imams and Da'is of the Mustalian Ismailis. J. of Bombay Branch of the Royal. Asiatic Society, 1935. (J.B.B.R.A.S.)

: The Ismaili Law and its founder. Isl . Cult Ix. No I. Jan 1935. P. 107 sqq.

: A Shi'ite Creed Isl. Res Ass. Series, 1942.

: Materials for an Ismaili bibliography. (J.B.B.R.A..S. vol II, 1935.)

: Outlines of Muhammadan Law . 2 ed Orford, 1955.

Gaudefroy. Demombynes et Platonov: Le Monde musulman et byzantin jusqu' aux Croisades. Paris, 1931.

Gerard Troupeau : Un traité christologique attribué au calife Fatimid al Mu'izz. Ann. Islamo, 1979 P. 11 sqq.

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum éd Bréhier, 1924. Transl into English for the first time by Somerset de Chair. England, 1946.

Gochenhour : The penetration of Zaidi Islam into Eearly Medieval Yemen. Harvard Univ, 1981.

Gibb: The career of N ûr ad- Dîn. 1955.

Goitein: The Cairo Geniza as a Source for the History of Muslim Civilization S I, III, 1955.

: Jews and Arabs. New York, 1955.

L'Etat actuel de la recherche sur les documeuts de la Geniza. R.E,J, CXIIIV (1959-196) 9-27.

: New light on the Beginning of the Karimi Merchamts J.E.S.H.O, 1, 1958.

: The Unity of the Mediterranean World in the Middle Ages. Studia Islamica, 1960, XII.

: The Main industries of Mediterranean area as reflicted in the records of the Caire Geniza. J.E SH O. IV/2 (1961)

Golvin : Le Maghreb central à l'époque des Zirides, 1957.

Goldziher : Vorlesungen uber den Islam. Heidelberg, 1910.

: Le dogme et la loi de l'Islam. Trad Arin. Paris, 1920

: Die Streiteschrift des Gazâlî gegen die Bâtinijja - Sekte. Leyde.

Gottheil : A distinguished family of Fatimide Cadis. J.A.O.S. XXVII, 1906, P. 217-296.

Grousset: Histoire des Croisades, I. Paris, 1935.

: Histoire de L'Arménie, des origines à 1071. Paris.1947.

:L'Empire du Levant. Histoire de la question d'Orient Paris, 1949.

: Lépopée des Croisades. Paris, 1939.

Grunebaum: The Nature to the Fatimid Achievement 1923

Guys (Hénri): La nation drruze son histoire, sa religion , ses moeurs et son état politique. Paris, 1864.

Guyard: Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis. Paris, 1874.

Halphen : Les Barbares et l'Essor de l'Europe. Alcan, 1930.

Hamdani ('Abbas) : Some Aspects on the history of Libya during the Fatimid Period. Ext. Beirut, 1970.

: The Dâ'î Hâtim ibn Ibrâhîm al-Hâmidi (d. 596 / 1190) and the book Tuhfat al-Qulûb. Oriens. Leiden, 1974, P. 258-299.

: Evolution of the organisatimal Structure of the Fatimi Da'wah. The Yamani and Persian Contribution. Arab Stud. Cambidge, Univ. III, 1976, P. 95- 114.

: Abû Hayyan al-Tawhîdî and the Brethern of Purity. Middle Stud, 9, 1978, P.P. 345 - 353 .

: al- Hamdani at the outest of the damination over Yaman. Sanna Univ. Publ., 1986, P. 156 -167.

: Some Coniderations on the Fatimid Caliphate as a Mediterraneen Power. Ext. de Congress Ravello on : Fatimid Influence in Europe, P. 385 - 396 .

Hamdani (Hussein) The History of the Ismaili Dawàt and its .

Literature during The Last phase of the Fatimid Empire J.R.A.S 1932, PP. 126-136.

: Some unknown Ismaili authors and their works J.A.R.S. 1933.

Hassan Ibrahim: Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain.

(فصلة من مجلة كلية الآداب، الجزء ٢٠ ديسمبر ١٩٤٨).

: Contribntions to the study of Fatimid History in Egypt during the last twelve Years.

(فصلة من مجلة كلية الآداب، الجزء ١٢، مايو ١٩٥١).

:Aspects of Shi'ah History: Reprinted from the Muslim World. Vol. XI.VII. October, 1957.

Hassan Zaki: Les Tulnides. Paris, 1937.

Hautecoeur et Wiet: Les Mosqués du Caire. 2 Vols. Le Caire, 1932.

Heinz Halm : Kasmologie und Heilslehre des frühen Ismâ' îlîya. Wiesbaden, 1978.

Hawari : Trois minarets fatimides à la frontière nubienne 1 - 4 , 3 i EXV, 1934 - 35 , P.P. 141 - 153 .

Hassan Husnî: la Domination musulmane en Sicile. Alger,1905.

Herbek: Die Slaven im Dienste der Fatimiden. Aro, XXI, 1957, P. 650-571.

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, 2 Vols. Ed. Fr. Leipzig, 1886

Hitti: The Origins of the Druze People and Religion. Columbia 1929.

: History of Syria. London. 1951.

Hodgson : The order of Assassins. The Struggle of the early Nizarî Ismâ'îlis against the Islamic World. La Haye. 1955.

: How did the Early Shî'a Become Sectarian. J.A.O.S. LXXV, 1955.

Hody : Godefroi de Bouillon et les rois Latins de Jerusalem. 2 éd. Pairs 1859 .

Hogarth : Arabia. Oxford, 1922.

Idris : Sur le retour des Zîrîdes à l'obédience fâtimide, dans A.I.E.O, XI Alger, 1935, P. 25 sqq.

: La Berbérie orentale sous les Zîrîdes.2vols. Paris, 1962.

: De la réalité de la catastrophe hilalienne. Ann E.S.C. XXIII, 2 , 1968 , 390 - 6 .

: lnvasion hilalienne et ses conséequences . Cahiers de civilisation médiévale, 11 , 1986, P. 353 - 71 .

Inostrantsev : Torzestvenniy vezd fatimidskh Califov. St Petersbourg 1905.

lorga : Chronologie de la première croisade (extrait de la Bevue de l'Orient Latin). Paris, 1992.

: Brève Histoire des Croisades et leurs fondation en Terre Sainte. Paris, 1924.

:Brève Histoire de la Petite Arménie. Paris, 1930.

Israel Friedlaender: The heterodoxies of the Shiites according to Ibn Hazm. New-Haven. 1909.

Ivanow: A. Guide to Ismaili Literature. London, 1933.

: Tow Early Ismaili Treaties. Oxford, 1933.

: A. Forgetten Branch of the Ismailis. J.R.A.S. Jan, 1938, P. 57-79.

: The Oraganization of the Fatimid Propaganda. J.B.B. R.A.S. vol, 15., 1939. P. 1-35.

: Ismailis and Qarmatians. J.B.B.A.R.S. 1940. P. 43-85.

: Ismaili traditions concerning the rise of the Fatimids. Bombay, 1942. Isl. Res. Ass. Sries no 10.

: the Alleged Fouder of Ismailism, 2ed. Bomaby, 1946

: Studies in the Early Persian Ismailism. Leiden. 1947.

: The Ismaili Society.Series, No, 3.

: Risala Dar Haqiqat-i-Din, or True Meaning of Religion Transl, Bombay, 1947.

: On the Recoginition of the Imam (Fasl dar Bayan-I Shinakht-i imam.)Transl. Bombay, 1947.

: Nasir -i Khusraw and Islamilism. Bombay, 1948.

: Brief Survey of the rvolution of Isamilism. Leiden, 1952

Kabir. M: The Buwayyhld dynasty of Baghdad. Calcutta 1946.

: The relation of the Bawayhids with the Fatimids . Indo-Iranica, VII (1955),

Kahle: Die Schatze der Fatimiden. Z.D.M.G. 1935. XIV, 329 sqq.

: The Cairo Geniza, 2ed 1959.

Kasser : Les Dialectes Coptes, B.I.F.A.O. Le Caire, 1973, P. p72 sqq.

Khan: Miskawayh and the Buwyhides. Oriens, 1968-69. Leiden, 1971, Vol 21-25. P. 235- 599.

Kaufmann : Beiträge zur Geschichte Aegyptens aus judischen Qullen Z.D.M.G. LI (1897) 442-43.

Khayat : The Shi'ite Rebellions in Alleppo in the 6 th A. U, 12 th A.D. Century R.S.O. Roma, 1971, vol XLVX.

Kraus: Die Anfagne des Christentums in Nubien. 1930.

Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen. 2 Bande. Vienne, 1875-1877.

Lammens: Le Syrie et sa mission historique. Le Caire, 1915.

: La Syrie Précis Historique vol.I. Beyrouth, 1921.

: Islam Beliefs and institutions. Translated from the Fench by Ross, London, 1929.

Lane-Poole : Coinage of Egypt A.H. 358-922. Collection of the British Museum Oriental Coins. 1892.

: Catalogue of the Arabic Coins, preserved in the Khedivial Library, No. 1268.

: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. London, 1893.

: History of Egpyt in the Middle Ages. London, 1901.

: The Muhammadan Dynasties Chronolgical and geneoligical tables with historical introduction. Paris, 1925.

Laout : Les Schismes daus l'Islam, Introduction á une étude de la religion musulmarne. Paris, 1965.

Launois : Catalogue des monnaies Fatimites ebntrées au Cabinet des Médailles depuis 1896. B.E. or. Damas, 1971, XXIV, P. 17 sqq.

Laurent : Byzance et les Turcs Seldjoucides , dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081. Paris, 1913-1914). (Annales de l'Est, publiées par la Faculté des l'univ de Lettres, de l'Univ de Nancy. XXVII-XXVIII).

: L' Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. Paris, 1919.

: Des Grecs aux Croisés. Byzantion, 1, 1924, P. 367-449.

: Byzance et l'origine du Sultanat de Roum. Mélanges

Lauer: Le poéme de la deststruction de Rome et les oigines de la cité Léonine. Mélanges de Rome, XIX, 1899, P. 307 sqq.

Lapidus : The Conversion of Egypt to Islam, in Israel Oriental Studies ,2 , 1972 , PP. 248 - 262 .

Lavoix : Catalogue des monnaies de la Bibiotheque Nationale. t3 : Egypte et Syria. Paris, 1896.

Lemann : L'Origine de l'Idée de la Croisde. Hesperis, 1937, T XXIV

Leo Diaconus : Historiae Vi, 8, ed Haase C,S.H.B. Bonn, 1828.

Lévi-Provençal: La Politica africana de Abd al- RAhman III, Al-Andalus, Vol. XI, Fasc 2, 1946.

Lewis (Bernard) : The origins of Isma'ilism; a study of the historical background of the Fatimid Caliphate. Cambridge, 1949.

له ترجمة عربية من أحمد جلو وجاسم محمد، مع تقديم الدوري، القاهرة ١٩٤٨، طبعة أخرى بيروت ١٩٨٠.

: Isma'aili Notes. Reprinted from the Bull. of the School of Or and Af . Studies. Vol,. XII. Parts 3,4. 1948.

: The Sources for the History of the Syrian Assassins. Speculum, XXVII, 1952.

: The Fatimide and the route to india. Ext. de la revue de la Faculté des Sciences économiques de l'Univ. d'Istanbul. llème année No. 1-41, 1953.

: Some cbsrevations on the significance of Heresy in the History of Islam . Stvdia Islamica. Paris, 1953, I, P. 43 sqq.

: The Ismạ' ilites and the Assassine. Philadelphia 1955.

: An interpertation of Fatimid History CIHC.DOR,1973, PP. 287-295.

Lorence Lockhart : Hasani Sabbah and the Assassins B.S.O.S. London. 1829-30.

Lézine: Mahdiya, recherches d'archéologie islamique. Paris, 1965.

: Mahdiya Quelques Précisions sur la (VIII) des pre miers Fatimide. Revue des Etudes Islamiqes XXXV, 1967, P. 82 sqq.

Madelung: Fatimiden und Bahrain Qarmaten. Der Islam. XXXIV 1959, PP. 34-88.

:Das Imamat in kder fruhen in der fruhen Ismailitischen Lehre.Der Islam. XXXVII. 1961, 43-135.

Magued A.M : Le Personnel de la Cour Fatimide en Egypte. Reprint from the Annals of the Faculty of Arts Ain Shams Univ. Vol. III, January, 1955.

: La fonction de Juge Suprême dans l'Etat fatimide en Egypte. Revue de l'Egypt, Contemporane (R.E.C.) Jan, 1960.

: De quelques Juridictions fatimides en Egypte, R.E.C. Juillet, 1961.

: L'Organisation financière en Egypte sous les Fatimides R.E.C. Avril, 1962.

: La Divination du Calife Hâkim Résumé des Communications, xxix. congrès int. des orientalistes, 1973.

: (art al-Hâfiz). Ency de l'Islam. 2 éd, PP. 56-67.

Mamour : Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs. London 1934.

Mandikov: La Palestine de la Conquête par les Arabes jusqu' aux Croîsades. Saint -Pétersbourg,1883. (ترجمة العنوان بالروسية)

Mann: The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs. 2 Vols. Oxford, 1920-1922.

Marçais (G) : Les Arabes en Berbèrie du XIe au XIV siècle. Paris, 1913.

: La Berbérie au IXe siècle d'après al-Y-a' quobi . Revue Africaine, 1914 P. 57 sqq.

: La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age . Paris, 1946.

Marcel (J): Egypte, depuis la conquête des Arabes jusqu'a la domination Française. Paris, 1848.

Margolieuth : On Mahdis and Mahdism. Proceedings of the British Academy. Vol. VII, PP. 1-21.

Massignon : Esquisse d'une Bibliographie Carmate. Cambridge, 1922

: Fatima bint al-Husayn et l'origine du nom dynastique .(Fâtimides). Akten des XXIV. Intern. Orientalisten Kongressess. Munich. 1957, P. 368.

Maury : Les Kûras d'Egypte dans le Mabahig de Watawat. Essai de chronologie des Listes de Kuras. Ann. Islamo , txxII, P. 194 sqq.

Ménant: Les Khodjas du Guzarate. R.M.M. Vol. 12.

Miles: Fatimid Coins. New York Amer.Num Soc. LII (1951).

Minorsky : La domination des Dailamites. S.E.I. Paris, 1932.

Muller: Der Islam in Morgen und Abendland. Berlin, 1885.

Munier : Préeis de l'histoire d' Egypte . Le Caire , 1932.

Murad Kamil : Aspects de l'Egypte Copte. Berlin , 1965.

Nichelson (J): An Account of the Estabnlishment of the Fatimite Dynasty in Africa. Thèse. Tubingen, 1840.

O'Leary: A Short History of the Fatimid Khalifate: London 1923.

: The coptic Churches and Egyptian Monasticism. Oxford, 1941.

Poliak : L'Arabisation de l'Orient Sémitique. R.E.I. 1936.

Psellos Michel : Chronographie, éd et tard Renaud. 2 Vols . Paris, 1928.

Quatremère : Recherches Critique et Historiques sur la langue et la Littérature de l'Egypte. Paris, 1808.

: Mémoires Géographiques et Histoiques sur l'Egypte. 2 Vols. Paris, 1811.

: Observations sur quelques points de la géographie de l'Egypte pour servir de supplément aux Mémoires historiques et geographiques sur l'Egypte, Paris, 1812.

: Vie de calife fatimide Moeizz Lidin Allah. J.A, 1836.

: Mémoire historique sur la dynastie des Khalifes. fatimides Paris, 1838.

Ragib : Une épisode obscure d'histoire fatimide. S1 V.LVIII, 1979, PP. 125 -132 .

Ravaisse: Essai sur l'Histoire et sur la topographie du Caire d'après Maqrîzî. Memoires publiés par les membres de la Mission Archeologique Français au Caire t I, ère partie. Paris, 1887, tIII 2 ème partie, 1890.

Recuueil des Historiens des Croisades. Hist. Oce, t 1-VI Paris 1844 - 86; Hist Arm 1-2. Paris, 1869; Hist Or. 1-2 Paris.

Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe. Le Caire .

Rosen : L'empereur Basile Bulgaroktonos. Saint - Pétresbourg, 1833.

Runciman : A History of the Firist Balgarian Empire. London 1930.

: The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land, in the XI Century. Byzantion XVIII, 1947-8.

: La Civilisation byzantine 330-1453 trad. Levy. Paris, 1952.

Sadik : The Reign of al - Hakim Bi Amr Allah. A Palitical Study. Beirut, 1947 .

Sanaullah: The Decline of the Seljuqid Empire. Calcutta, 1938.

Sauvaget : Une inscription de Badr al-Jamâlî . Paris, 1929. Extrait de la Rev. Syrie, 1929.

Schlumberger : Un Empreur byzantin au X sèicle. Nicephore Phocas. Paris, 1890.

: l'Epopée byzantine à la Fin du Dixième Siècle. 3 vols Paris, 1896-1905.

: Campagnes du roi Amaury I èr, de Jérusalem en Egypte, au XIIe Siècle. Paris, 1906.

: Byznacè et les Croisades. Paris, 1927.

Snouck Hurgronje : Der Mahdi. Revue Coloniale Internationale, 1868.

Stern : Ismâ'îlî Propaganda and the Fatimid Rule in Sind I, C. Oct 1949 XXIII. PP. 298-307.

: An Embassy of the Byzan tine Emperor to the Fatimid Càliph al-Mu'izz. Byzantion, XX, 1950.

: The succession to the fatimid imam-al-Amir, the claims of the later Fatimids to the imamate, the rise of Tayyibi Ismailism. Oriens. Vol. 4 No. 2 Dec, 1951, PP. 193-255.

: Herterodox Ismâîlism at the time of alMu'zzi B.S.O.A.S. 17/1955, PP. 10-33.

: The Early Ismâ'îlî Missionaries in North West Persia and in Khursán and Transoxiana. B.S.O.A.S. 1960 P. 56 sqq.

: An original document from the Fâtimid Chancery. concerning Italian merchants. Mél. Lévi Della Vida, II, Rome 1956, 529-38.

: A Fâtimid Decrees of the Year 524/1120. B.S.O.A.S. XXIII, 1960.

:Ismáilis and Carmatians, in l'Elaboration de l'Islam Colloque de Strasbourg 12,14 juin, 1959, Paris, 1961.

: A petition to the Fatimid Calife al - Mustansir, concerning a conflict within the jewish community. R.E.J, 128 (1969) PP. 103 - 215 .

: Studies in Early Isà'ilisme. Jerusalem, 1983.

Taylor : The History of Muhammedanism and its Sects. London 1939.

Tilman Nagel : Frure Ismailiya und Fatimiden im Lichte der Risálat if-titâh ad-da'Wa-eine religione geschichtilche Studie. Bonn, 1972.

Toumin : Histoire de Syrie. Paris, 1929.

Tourneaau : La révole d'Abu Yazîd au xè siècle. CT. 1953, PP. 103-125.

: The Epistle of the Fatimid Caliph al-Amir (al-Hidaya al-Amiriyya), its Date and Purpose. J.R.A.S. 18, 1950.PP. 26-21.

Trimingham : Islam in the Sudan. London, 1949.

Tritton : Notes on Some Ismaili Mss. B.S.O.S. Vol. XII.

: The First and Second Crusades From Anonymous Syriac Chronicle, translated by Tritton with Notes by Gibb. J.R.A.S. January 1933, P. 69-192; April 1933. P. 273-305.

: The caliphs and their non Muslim Subjects . London

(لهالترجمة العربية).

Van Berchem: Matériaux pour un Copus Inscriptionum Aabicarum Egypte (M.I.F.A.O) Première Partie t 2, 1930.

(تحت إشرافه).

: Epigraphie des Assassins de Syrie. J.A. 1897. Mai-Juin.

Van Ess: Der Kalif àl - Hakim (375 - 411). Heidelberg, 1977.

Vatikiotis : Notes d'Archeologie arabe, in J.A. 1891.

: Epigraphie des Assassins de Syrie. J.A. 1897.

: A Reconstruction of the Fatimid Theory of the State Isl. Cult. 28. 1954, PP. 399-409.

: al -Hakim bi-Amr illah : The God King idea realized I,C. XXIX. 1955-1-18.

: The Syncretic Origins of the Fatimid Da`wa. Isl. Cult 28. 1954, PP. 475-49.

Von Hammar : Histoire de l'ordre des Assassins 1833.

Waern : Medieval Sicily, 1910.

Walker : A Byzantine Victory over the Fatimids at Alexandretta. Byzantion, t XLII, 972, Fasc 2, P. 431-440.

Weulersse : Les Pays des Alaouittes. 2 Vols. Tours, 1940.

Wiet : Matériaux Pour un corpus inscriptionum arabicarum. Première partie t 2 Egypte I.F.A.O., 1929 -36

: L'Egypte musulmane de la conquête arabe à la conquête ettomane IV. Le Caire, 1938.

: Trois formules d'Indèpendance dans l'Egypte Médiévale. Le Caire, 1942 (édition de la Revue du Caire).

: Grandeur de l'Islam. Paris, 1961.

: Les Mosquées du Caire. Paris, 1966.

Wiet et Combe et Sauvaget : Repértoire chronologique d`épigaraphie arabe. Le Caire, 1931. sqq.

Wolff : Die Drusen und ihre Vorlaufr. Leipzig, 1845.

Wüstenfeld: Calcaschandeis Geographie. Gottingen, 1879.

: Geschichte der Fatimidenn . Gottingen, 1891.

Yves Marquet : La place du Travail dans la Hiérarchie ismâilienne d'après L'EncycLopedie des Frèrers de la Pureté. Arabica, 1961, Y. 225 sqq.

: Le Shsisme au 1 Xe siècle à travers l'histoire de Ya' qûbî .Arabica txix, juin, 1972. Fasc 2 , p . 101 sqq.

: A propos d'un poème Ismaelien dans le Ihwân as - Safa et l'Ismailime. Colloque Rome. Accademia dei lincei Octobre , 1979 .

: Convegne Sugli Ikhwân as - Safá' Rma , 1981 , P. 69 -96

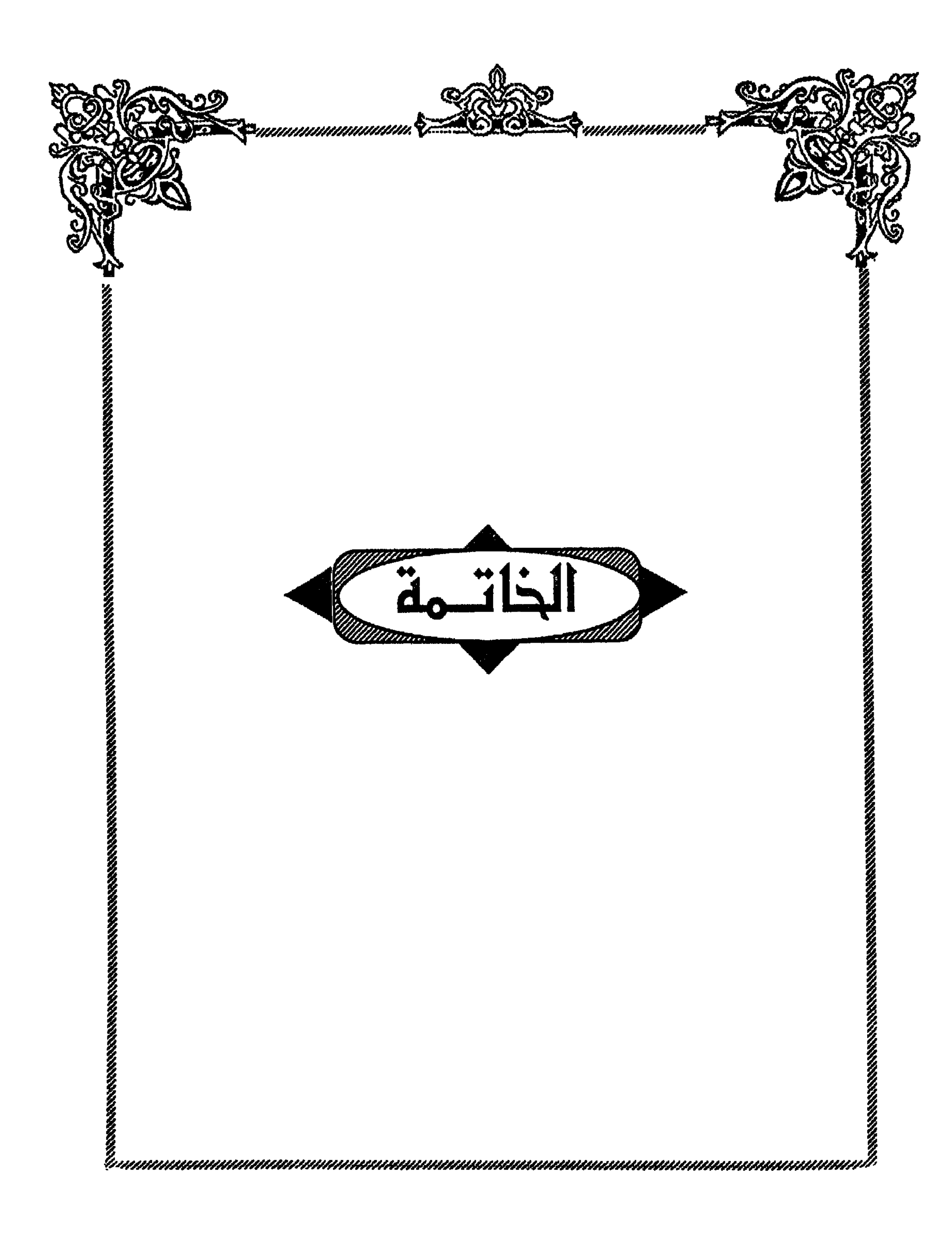
:La Pensée d'Abu Y a'qûb as- Sijistânî à travers l' 1thbât an- nubewah ." La Tuhfat al - Mutajîbîn" S1 . Ex Fasc LIV. Pars, 1981.

: Les épitres des IHwân as - Safá. En fascicub LVo Paris, 1982 (note annexe).

: Quelques Remarques, à propos de Kosmologie und Heilslehre der Frühen Ismâ'iliyya de Heinz Halm . S.I. Ex . Fasc Lve. Paris , 1982 , P. 115 sqq .

: Poésie ésotérique Ismailienne le Tá'iyya de Amir b. 'Amin al - Bosri. Paris 1985 .

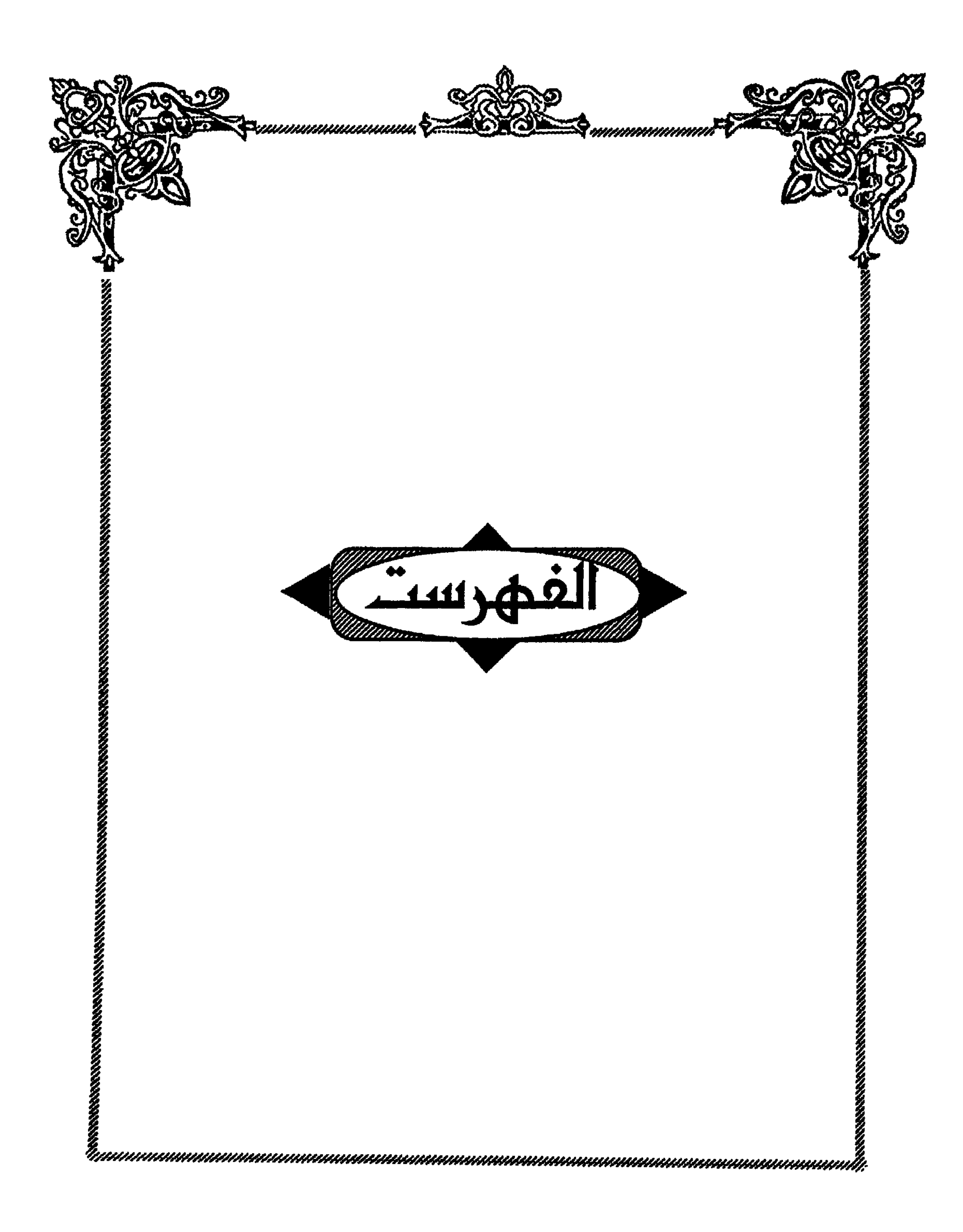
Zananiri : L'Egypte et l'équilibre du levant au Moyen Age. Marseille, 1933 .



الخاتمة

د - جدول الأعلام

هـ - جدول البلدان والمدن



الفهرست

محتويات الكتاب

رقم الإيداع	٤٧٥٤ / ٩٣
الترقيم الدولى I. S.B.N.	977 - 10 - 0593 - 6

دار المناهل للطباعة

٧ ش يوسف البندارى ـ أرض اللواء

بـولاق الدكـرور

Apparition et Chute du Califat Fatimite en Egypte.

A.D. MAGHUED

Professeur d' Histoire Islamique.
Université Ain Shams (Heliopolis)
Docteur ès Lettres de La Sorbonne.

4 ème Edition .

Le Caire
1414 - 1994

Publié Par La librairie :
Dar al-Fikr al-'Arabi
94. Rue 'Abbas al-Akad. Madinat nasr.
Le Caire - EGYPTE.
Tèl : 2619049

أهمية الكتاب

تأتى من أن الفاطميين جاءوا من المغرب إلى مصر بناء على دعوة المصريين أنفسهم؛ فلم يكن المصريون سعداء فى ظل حكم ولاة العباسيين الإخشيديين، فقد كانوا يتطلعون إلى مستقبل جديد مع هذه الدولة الإسلامية الفتية، ليبنوا مصر الإسلامية، التى لا تقل عن مصر الفرعونية. فلما وصل جيش المعز لدين الله الخليفة الفاطمى من المغرب إلى الإسكندرية، سارع المصريون بإرسال وفد منهم إلى جوهر قائد جيشه؛ باتفاق جميع طبقاتهم، كالقائد، والكاتب، والقاضى، والتاجر، والمسلم والقبطى.

والحقيقة أن الفاطميين، وهم أسرة علوية، أُعتبرت خلافتهم فى نظر المصريين خلافة شرعية، منافسة للخلافة العباسية، وذلك لأن المبدأ الدستورى القائم وقتذاك، كان ينص على أن الخلافة الشرعية تكون فى أسرة النبى، وعصبيتها تكون فى قريش. لذلك لم يكن يطمع المصريون مثل غيرهم من شعوب الإسلام فى حكم أنفسهم بأنفسهم. فهذه الأفكار فى الوطنية لم يكن لها وجود فى وقت الفاطميين، والفكرة المسيطرة على المسلمين أن تهمهم شرعية الحكم.

وقد بنى جوهر فى مصر عاصمة جديدة سميت القاهرة، تفاؤلاً بأنها ستقهر أعداء الأمة الإسلامية، وهى توجد فى مكان عاصمة مصر القديمة منف عند رأس الدلتا، وأصبحت من يومها عاصمة مصر إلى الآن؛ حيث شبهت القاهرة بيد المروحة؛ لوقوعها عند ملتقى فروع النيل وقنواته، مما يؤكد أن الفاطميين سحرتهم الهوية المصرية؛ فسعوا إلى ربط مصر القديمة بمصر الإسلامية.

بل إن خلفاء الفاطميين إلى نهاية دولتهم، ولدوا جميعهم فى مصر، واعتبروا أنفسهم مواطنين مصريين، يتبين ذلك مما أنجزوه لها فى مدة حكمهم فى الكم والمقدار؛ بالعمل على ازدهار اقتصادياتها ورخائها، وامتلاكها النموذج الحضارى المتميز، الذى أسهم بإبداع فى مكانة مصر، ومن يومها أصبحت مصر هى الرائدة عند المسلمين جميعاً.

بل وخلفاء الفاطميين كانوا «ملتزمين» فى مصر بإحساس قوىّ نحو قضايا العرب؛ الذين بدأت تظهر عندهم إحساسات قوية نتيجة للتراكمات التاريخية، ولعيشهم فى دار الإسلام فى إطار حدودى محدد، ولمصيرهم الواحد. فكانت إرادة الفاطميين ظاهرة بالقفز إلى مستقبل عربى أفضل هى شغلهم الشاغل، بينما كانت الدولة العباسية قد أصبحت حطاماً وركاماً، وأن الإنسان العربى يائس من وجودها.

حقاً إن الخلافة الفاطمية قد تميزت بالمذهب الشيعى؛ إلا أن هذا المذهب أصبح فى مصر فى إطار يتأقلم مع روح مصر، وانعكس على كل مظاهر الدولة والحياة. ومع ذلك ؛ فقد بقى المذهب السنى، الذى كان مذهب غالبية المصريين فى أول عهد الفاطميين مع المذهب الفاطمى ظاهر الشعار بملاحظة المؤرخين؛ بحيث أصبح وجود المذهبين الكبيرين معاً فى أرض مصر تجربة رائدة؛ ولا سيما أن المذاهب الإسلامية فى ذلك الوقت كانت تحرك كل شئ، مثل مذاهب الاقتصاد فى وقتنا .

أ.د. عبد المنعم ماجد